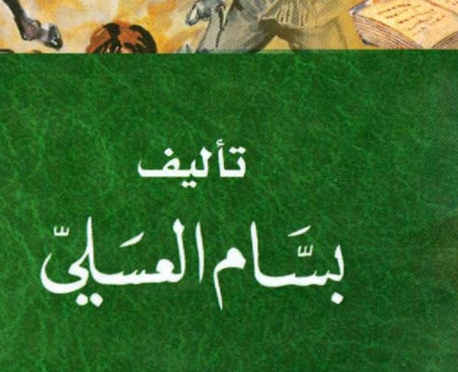


قادة فتح مصر والمغرب



المكتبة التاريخية

قادة فتح
مصر والمغرب

١ ـ عمرو بن العاص
٢ ـ عقبة بن نافع
٣ ـ موسى بن نصير
٤ ـ عبد الرحمٰن الداخل
٥ ـ عبد الرحمٰن الناصر

تأليف
بسام العسلي

دار النفائس

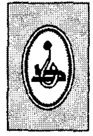
قادة فتح مصر والمغرب

تأليف: بسام العسلي

الطبعة الأولى: 1433هـ ـ 2012م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 486 - 9

Publisher | نشر



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

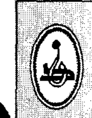
P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

صدرت عن «دار النفائس» في منتصف عقد السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٥) مجموعة «مشاهير قادة الإسلام» والتي ضمت سِيرَ وأعمال نخبة من قادة الجهاد في سبيل الله، الذين أمكن لهم بجهدهم وجهادهم ضم مشرق العالم القديم إلى مغربه؛ ما بين سمرقند وطشقند وحدود الصين؛ حتى أقصى المغرب وشبه الجزيرة الأندلسية؛ خلال فترة زمنية لم تتجاوز الثمانية عقود من عمر الزمن.

كان ذلك إنجازاً رائعاً لم يعرف تاريخ الشعوب نظيراً له ولا مثيلاً من قبل، على ما عرفه العالم القديم من امبراطوريات ودول عظمى تشكلت معظمها على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. واحتفظ هذا الإنجاز بقيمته وأهميته رغم تقادم الزمن وتطور المجتمعات الإنسانية. وكان تطور فن الحرب؛ في كل مستويات الحرب؛ الاستراتيجية والعمليات والتكتيك، بمثابة مدرسة متكاملة لتعلم فنِّ الحرب واستخلاص دروسه وتجاربه التي تجاوزت ميادين القتال لتشمل بناء مجتمعات ما بعد الحرب، وللوصول إلى بلوغ كل أهداف الحرب.

وهكذا صدرت مجموعة «مشاهير قادة الإسلام» في منتصف عقد السبعينات، ولم يكن إصدارها في تلك الفترة أمراً غريباً ولا مباغتاً؛ ذلك أن الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (نكسة ٥ حزيران ـ يونيو ١٩٦٧) وكذلك الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة (العاشر من رمضان/ السادس من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٧) قد ألقت بكل ثقلها على كاهل الإنسان العربي، والإنسان المسلم بصورة عامة وشاملة. فقد أكدت نتائج الحربين خطورة التحديات التي يجابهها المجتمع العربي والوطن العربي، وهو المجتمع الذي يمتلك القدرة على إحباط كل التحديات الوافدة مع كل ريح تعصف من الغرب أو من الشرق. وبالتالي؛ لم يكن مباغتاً أن تظهر دراسات وأبحاث في بغداد والقاهرة؛ تركزت بمجموعها على بعث الموروث المغربي ـ الإسلامي من رقاده؛ وأن تنقله من بطون كتب

التاريخ إلى نور الدنيا في الأزمنة الحديثة، غير أن تنوع وتباين القراءات والاجتهادات في قراءة التجارب التاريخية، وتحليلها العلمي؛ واستخلاص دروسها الثمينة؛ خلال تلك الحقبة؛ لم يكن إلا البرهان الواضح على مدى حاجة الإنسان العربي للعودة إلى جذوره الأصيلة؛ وورود المناهل التي لا تنضب من معين الحياة المندفقة والمتجددة باستمرار؛ والتي ستبقى في تياراتها المتواصلة؛ وفي قوة اندفاعها، خالدة ما دامت هناك حياة على أرض الدنيا. ولئن كانت هذه الظاهرة هي تعبير واضح وتأكيد ثابت على استجابة الإنسان العربي في مواجهة التحديات استجابة صحيحة؛ فقد كانت استجابة الشعب العربي والإسلامي، وفي كل الأقطار العربية والإسلامية؛ مثيرة للتقدير والإعجاب، إذ أن استقبال الشعب العربي لما يعيده إلى أمجاده التي هو جدير بها؛ بقدر ما هي جديرة به، وكل الأجيال المؤمنة بحقها في الوجود والعيش الكريم، تحت شمس الدنيا التي لم تدخل أشعتها الدفء إلا إلى قلوب المؤمنين الصادقين. وهنا وعلى الرغم من أن مؤلف (المجموعة) ودار النشر التي أصدرتها قد انطلق عملهما من هذه القاعدة المشتركة التي تشكلت في ظروفها المكانية والزمنية؛ إلا أنهما كانت لهما أيضاً خصوصيتهما في تحقيق الهدف. فقد كان مؤلف المجموعة وصاحب دار النشر؛ ينتميان إلى مدرسة فكرية عسكرية واحدة، فهما من مدرسة (الكلية العسكرية ـ في حمص) وهما من ضباط الحرس القديم ـ ما قبل العام **١٩٦٣**.

ولهذا كان الحافز الأول لهذا العمل، بالنسبة لكليهما هو أننا نعمل في جيش عربي وفي محيط إسلامي، ونحن نجهل الكثير الكثير من تاريخنا العسكري. فقد فرضت برامج التعليم دراسة معارك أوسترليتز وفالمي، وتاريخ الحروب النابوليونية والحروب الأهلية الأمريكية وغيرها، وكنا لا نعرف إلا النذر اليسير من القادسية واليرموك وفتح الفتوح ونهاوند. أما عن قادة الفتوح، وأما عن تلك الإبداعات التي سارت في ركاب المجاهدين في سبيل الله، وما اقترن بها من جهد وتضحيات لا تحيط بها إحاطة؛ ولا يمكن مقارنتها بأشباه لها، لأنها أعمال أكبر من كل تقويم. إنها الإعجاز، وهل يحيط بالإعجاز إلا من خلق الإعجاز؟. وهكذا، ومن خلال الإرادة الصلبة والرغبة الصادقة في العمل من أجل الحقيقة بدأ العمل، وكان واضحاً أن ما يوجه إلى فن الحرب الإسلامي من سهام حاقدة مسمومة، من نماذجها القول بأن ما يقال عن المعجزة العربية ـ

الإسلامية إنما هو عمل حدث في غفلة من الزمن؟ أو القول بأن الامبراطوريتين العالميتين الكبيرتين آنذاك، الفرس والروم، كانتا مستنزفتين بالحروب المتتالية، كل ضد الآخر؛ مما ساعد العرب المسلمين على تدميرهما، أو الأهم من ذلك أن تاريخ فن الحرب الإسلامي لا يستحق جهد الدراسة لأنه لا قيمة لدروسه القديمة والتي تجاوزها الزمن بتأثير التقانة والحداثة والتطور في تنظيم الجيوش؛ وإدارة الحروب. ولا ريب أن كل باحث عربي أو مسلم حرص على بذل جهد صادق للتعريف بفن الحرب الإسلامي، قد جابهته صدمات كبيرة هدفها الواضح والمعلن بأشكال مختلفة هو بتر الشعب العربي، والشعوب الإسلامية من جذورها، وحرمانها من الورود إلى مناهل عزتها وكرامتها وحقها بالحياة الحرة التي تمتلك مفاتيحها. وجاءت الحروب الحديثة ضد ما يسمى الإرهاب لتجعل من تاريخ العرب المسلمين، تاريخاً للإرهاب يجب عدم التعرض له إلا من قبل الاختصاصيين من خبراء التاريخ في عواصم العالم الكبرى.

من هنا، كان الهدف الواضح للعمل هو نشر المعرفة لأمجاد هذه الأمة؛ التي كانت خير أمة أخرجت للناس، عبر التعريف بصانعي الأحداث وقادة الحروب مع مراعاة المبادئ التالية:

أولاً: التعرض لسيرة القائد، موضوع البحث؛ بصورة وجيزة وفي حدود ما يتعلق بدور العامل الفردي بممارسة القيادة.

ثانياً: إبراز دور العقيدة الإسلامية في تكوين الفكر العسكري الإسلامي وصياغة المذهب العسكري.. إلى جانب التطبيقات العملية في ميادين القتال من خلال التجارب الأولى، الغزوات والبعوث والسرايا والحروب في زمن النبوة.

ثالثاً: إظهار دور القيادة الاستراتيجية (الخليفة أو أمير المؤمنين) في إدارة الحرب، وهو دور يتطابق كل التطابق مع دور القيادة الاستراتيجية في الأزمنة الحديثة: الاحتفاظ باحتياط استراتيجي من القوات، تنسيق التعاون بين الجبهات القتالية المختلفة والمتباعدة.

رابعاً: إبراز كفاءة قادة الحروب؛ قادة الأعمال القتالية على مسارح العمليات أو قادة الجيوش، إذ كان لكل مسرح من مسارح العمليات خصوصيته. فأبناء الصحارى من جيوش المجاهدين في سبيل الله لم تكن لهم معرفة بخوض غمار الحروب ضد جيوش نظامية كبرى تمتلك خبرات قتالية واسعة، ولديها جيوش ضخمة وقدرات قتالية كبيرة. كذلك لم تكن لديهم خبرة بالقتال في المدن، ولا

معرفة بفنون الحصار، ولا في قتال الجبال والمناطق الصعبة، ولا في بلاد معادية... إلخ. وكان لكل موقف من هذه المواقف صعوباته وتحدياته؛ فكان لزاماً التعرض لإبداعات القادة في التعامل مع كل ما هو غير متوقع من مباغتات الحروب.

خامساً: وكان لزاماً أيضاً على الباحث التعرض لدور المجاهدين في سبيل الله وانضباطهم الرائع، واستجاباتهم الصحيحة لأوامر قادتهم ونواهيهم، وقدرتهم العالية على تحمل المشاق والصعوبات في مسيرهم الطويل وفي قتالهم الصعب وفي الصبر على البلاء وفي تصميمهم الثابت لانتزاع النصر.

سادساً: وكان لا بد أيضاً من دور العامل المعنوي، أو (الإيمان) في تحقيق هدف الحرب وانتزاع النصر، إذ كانت كل حروب الفتح، أو معظمها على الأقل، في غير صالح المسلمين من حيث القدرة العددية وتوافر الوسائط القتالية والإمداد الإداري... إلخ، ولكنهم رغم كل الصعوبات، كان وضوح الهدف، وكفاءة القيادة والثقة بنصر الله كافية لقلب موازين القوى التقليدية، فكانت نسبة المسلمين العددية بالمقارنة مع أعدائهم هي في حدود واحد إلى عشرة في معظم المعارك.

لم يبق بعد ذلك إلا اختيار وسيلة إيصال المعرفة إلى القارئ الكريم.

ففي عصر التقانة؛ وفي زمن الانصراف عن القراءة إلى الوسائل السمعية البصرية الحديثة، كان اللجوء إلى اختيار حجم الكتيبات هو الخيار الأفضل، وقد ظهر أن هذا الخيار كان مناسباً ـ بفضل من الله ـ ذلك؛ ولئن كان الهدف الأول لمجموعة (مشاهير قادة الإسلام) هو نشر المعرفة بتاريخ فن الحرب الإسلامي، مما يرفد جند الوطن العربي والشعوب الإسلامية بما هو ضروري لتطوير الفكر العسكري، إلا أن حدود المعرفة قد تجاوزت حدود العسكر لتصل إلى كل إنسان عربي ومسلم يبحث عن جذوره، ولم يكن مباغتاً بالتالي ان تصل ردود فعل كثيرة، ولله الحمد، ومن شرائح اجتماعية متنوعة لتؤكد في كل مرة على أهمية وفائدة تقسيم محتوى كل كتيب إلى قسمين:

١ ـ السيرة القيادية.

٢ ـ تحليل الأعمال القتالية والدروس المستخلصة استراتيجياً وقتالياً وتكتيكياً.

وكان البرهان الواضح هو الصعود المستمر لانتشار مجموعة (مشاهير قادة

الإسلام) على امتداد ٣٥ عاماً من عمر الزمن (١٩٧٥ ـ ٢٠١١)، غير أن حقيقة ثانية رافقت هذا الانتشار، وهو تجمع عدد كبير من المقترحات من أقطار عربية كثيرة تطلب إعادة إصدار هذه المجموعة في إطار مجلدات حفظاً لها؛ ورغبة في التعامل مع مضمونها في إطار عمل موسوعي، وعلى هدى هذه المقترحات البناءة والصادقة سار الإنجاز العملي الذي أخذت به دار النشر (دار النفائس).

* * *

يمكن بعد ذلك الانتقال إلى ما تتضمنه دفتي المجلد الثاني من هذه المجموعة (قادة فتح بلاد مصر والمغرب)، حيث ضم هذا المجلد أعمال وإنجازات خمسة من كبار القادة. فقد فتح الله للعرب المسلمين بلاد العراق والشام ومصر في عهد الخلفاء الراشدين، غير أن هذه البلاد لم تعرف الأمن ولا الاستقرار، فقد كانت سيطرة الروم ـ البيزنطيين على بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط قوية ومحكمة، ومن شواهد قوتها الباقية حتى اليوم؛ تلك القلاع والحصون التي بقيت قائمة على أرض البلاد المتأخمة للبحر.

وهكذا انتهى الفتح؛ ولكن الحرب لم تصل نهايتها؛ فهجوم الروم المضاد الذي وصل إلى مدينة حمص (سنة ١٦هـ)، والإنزال في الإسكندرية لقوات البيزنطيين في تلك الفترة أيضاً، وقيام الروم بتحريض أنصارهم لغزو مصر ما دفع عمرو بن العاص، فاتح مصر، لإرسال حملات وصلت (برقة) لحماية أمن مصر وضمان الاستقرار الذي يسمح للفاتحين من جند الله لحماية عملية بناء المجتمع الجديد، وهو أيضاً ما فعله أمير بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان، في تنظيم الصوائف والشواتي، لحماية الثغور الشمالية من غدر الروم وأعمالهم العدوانية، وكان ذلك تنفيذاً لرؤية أمير الشام الصائبة عندما أطلق سياسته تجاه الروم بقوله: «شدوا وثاق الروم، فبها تضبطون شعوب الأرض».

وكان الإنجاز الأول لاستكمال تنفيذ هذه السياسة إنشاء القدرة البحرية العربية الإسلامية في موانئ بلاد الشام ومصر لمنازعة الروم سيطرتهم على البحر، وحرمانهم من حرية العمل العسكري ضد أعمال الفتوح التي كان لا بد لها من أن تتطور لإيقاف الحرب التي كانت تظنها قيادة البلاد من الروم، والتي استعانت بأبناء البلاد من البربر، لضمان استمرار هذه الحرب. وتظهر قصة تطوير الحرب، ما بين مصر وأقصى المغرب، أن هذا التطوير قد تحقق عبر التحرك بحراً ما بين قبرص ورودس وحتى جزر الباليئار، بما في ذلك (صقلية)

وغيرها من الجزر، بالاقتران والتحرك على المحاور البرية للجيوش العربية الإسلامية المنطلقة من دمشق لتصل حتى مياه المحيط الأطلسي في أقصى بلاد المغرب.

وكانت محاور التحرك للجيوش العربية الإسلامية هي المحاور البرية المتاخمة لسواحل البحر الأبيض المتوسط، والموازية لشواطئه، وهي ذات المحاور التي كانت تسلكها جيوش الفاتحين منذ أيام الفينيقيين وحتى أيام الامبراطورية الرومانية. ويظهر ذلك أن فتوح الأندلس؛ وطموح موسى بن نصير لمتابعة مسيرة الفتوح عبر أوروبا للوصول إلى رومية (روما) وحتى فتح القسطنطينية لم يكن إلا نتيجة طبيعية لتضافر القدرة البرية والبحرية وتعاظم تلك القدرة؛ التي بقيت رغم تعاظمها أقل بكثير من حجم الفتوحات التي كانت تطمح لبلوغها عقول قادة الفتح وإراداتهم، فكان توقُّف تلك الفتوحات عند الحدود الشمالية لبلاد الأندلس (جبال البيرنية ـ أو البيرنات) كمثل ما توقفت تماماً عند الحدود الشمالية لبلاد الشام. وهنا كان على قادة الفتح وأمراء الأندلس الإفادة من تجربة معاوية بن أبي سفيان في تنظيم الضربات الإجهاضية المسبقة وغزو ما وراء الدروب وتحصين الثغور لإشغال أعداء المسلمين في الشمال بلاد الغال ـ فرنسا ـ عن تهديد بلاد المسلمين في الأندلس؛ وإشغال الروم بأنفسهم، وصرفهم عن التفكير بالعدوان على بلاد المسلمين.

تلكم هي بدقة كبيرة وبإيجاز شديد؛ الخطوط العامة للسياسات الاستراتيجية التي أمكن تحويلها إلى وقائع قتالية ومخططات للعمليات؛ من أجل الوصل ما بين دمشق والقاهرة ثم حتى أقصى المغرب وإلى ما وراء الدروب في شمال الأندلس، ولكن هل كانت عملية الوصل هذه مجرد مسيرة عبر السهول في ظروف طبيعية؛ أم كانت أعمالاً شاقة في أقاليم صعبة، وضد أعداء متمرسين بالقتال، ويمتلكون القدرات المادية المتفوقة؛ مع ما كان يقترن بالتحرك من جهود مضنية، ومتاعب لا يمكن وصفها، وتضحيات بالأرواح وصلت حتى إبادة جيوش الفتح وانتكاسات مسيرة الفتح أكثر من مرة، كما حدث في فتوح عقبة بن نافع التي انتهت باستشهاده في تهوذة ليس بعيداً عن (تؤنس)، وتوقف الفتح بعدها لفترة من الزمن؟

ما كان أغنى العرب المسلمين عن ركوب المركب الخشن، مركب الحرب والقتال، والاكتفاء بما فتحه الله عليهم من بلاد العراق والشام ومصر، والتوقف

عند هذه الحدود؟ وهل كانت بهم حاجة حياتية لإقامة امبراطورية إسلامية، والحصول على مناطق نفوذ؟.

لقد قيل مثل هذه التساؤلات للانتقاص من قيمة الفتوح وأهدافها النبيلة السامية. فقد ذهبت حروب الفتوح في بلاد العراق والشام ومصر بخيرة صحابة رسول الله ﷺ وبكثير من التابعين (الجيل الثاني)، وكانت كل أعداد جند الفتح لهذه البلاد في حدود سبعين حتى ثمانين ألفاً، وهم بمجموعهم أقل عدداً من جند أحد جيوش الفرس أو جيوش الروم. إذن، فلم تكن هناك ضرورة حياتية لفتح بلاد جديدة؛ ولكن كانت هناك ضرورة حتمية لمتابعة الفتوح؛ فقد ألقى الإسلام على العرب أمانة نقل رسالة الإسلام إلى أرجاء الدنيا؛ وتعريف أهل الدنيا بها، وإزالة العقبات التي تقاوم انتشارها، ولولا ثقل هذه الأمانة التي استولت على عقول المجاهدين في سبيل الله واستهوت قلوبهم؛ لما غادر العرب جزيرتهم؛ وهم في قلة من العدد ويكفيهم قلة من الرزق.

وهكذا، سارت جيوش الفتح؛ رافعة رايات الأمانة، صابرة على ابتلاءات الحروب، مستعدة أبداً لاقتحام ميادين الاقتتال؛ ولديها الإرادة لاحتمال كل أنواع الصعوبات التي تتعاظم في مسيرة الحرب المستمرة.

وإذن؛ فقد كانت مجموعة التحديات ووفرة الصعاب والعقبات لتطويق أعمال الفتوح وحصارها هي العامل الأول لتطوير سياسات الفتوح بحسب كل ما تبرهن عليه مسيرة الفتوحات في الغرب؛ كما في الشرق.

يمكن على ضوء ما تقدم الانتقال من أفق السياسة الاستراتيجية للفتوح إلى أفق العمليات وإدارة الأعمال القتالية، حيث برزت مجموعة كبيرة من القادة الذين توافرت لهم كفاءة قتالية عالية؛ وإرادة صلبة لانتزاع النصر؛ ومجموعة الفضائل التي لا بد من توافرها لتحقيق النجاح في قيادة جند لهم مواصفات المقاتل الحقيقي في أنبل مكوناتها. وإذا كانت الأسماء التي تم اختيارها هي من الأسماء التي احتلت مواقعها في مجموعات «مشاهير قادة الإسلام»، فثمة أسماء كثيرة توافرت لها من القدرات القتالية والكفاءات القيادية ما لا ينتقص من أهمية أدوارهم في تحقيق ما أمكن إنجازه من الانتصارات الخالدة والفتوحات الكبرى. وإذا لم يكن من المهم الإحاطة بأدوارهم والتوقف عند ذكر إنجازاتهم؛ فالله الذي استعملهم هو أعلم بهم؛ وجزاؤهم الموعود أكبر من كل ذكر وأعظم من كل وفاء.

ولـم يكـن دور كـل هؤلاء القادة مقتصراً عند إنجاز الانتصارات العسكرية الميدانية، بل كان هدفهم الأول هو بناء المجتمع الإسلامي؛ وكان بلوغ هذا الهدف يفرض على القادة ممارسة دور سياسي، بحسب المصطلحات الحديثة، من أجل فك الارتباط الطويل بين سكان البلاد الأصليين، وبين الطبقة الحاكمة من الروم البيزنطيين وأنصارهم، تماماً كمثل ما حدث عند عزل عرب الغساسنة في بلاد الشام عن الروم وكمثل ما حدث أيضاً عند عزل العرب المناذرة في بلاد العراق عن الفرس، ولقد تطلب ذلك توافر معرفة عميقة ودقيقة للوصول إلى الهدف، إذ لم يكن البربر، في بلاد المغرب ما بين برقة وأقصى المغرب قبيلاً واحداً، ولا شعباً موحداً، ولـم تكـن لـهـم قيادة موحدة، فكان لزاماً مراعاة خصائص كل قبيل، وكان نور الإسلام وعدالة الإسلام وفضائل المسلمين المجاهدين في سبيل الله هي السلاح الناجح لائتلاف القلوب ومحاكاة العقول؛ وبالتالي الإفادة من قدراتهم للعمل في جيوش الفتح. .

وهكذا كانت جيوش فتح المغرب سرعان ما تتطور بفضل فتح أبواب الجهاد في سبيل الله أمام المقبلين على دين الله أفواجاً ليمارسوا دورهم، جنباً إلى جنب مع من سبقوهم بالإسلام. ولهذا، وعلى سبيل المثال، لم يكن مباغتاً أن تسند بعض جيوش فتح الأندلس إلى قادة من الأفارقة، وأن تضم جيوش الفتح جنوداً من أمم شتى رابطتها القوية وعروتها الوثقى هي رابطة الإيمان وعروة الإسلام.

هناك نقطة مضيئة رائعة اقترنت بسياسة الفتوح في المغرب؛ وأكَّدتها مسيرة الفتوحات على جبهة المشرق، وهي الدور الحاسم للقيادة الاستراتيجية في إدارة الحرب خلال تلك الحقبة التاريخية، وهو الدور الذي خضع باستمرار لمؤثرات استقرار الجبهة الداخلية على تطوير عمليات الفتوح.

ففي فترة تفجر الفتنة الكبرى في أعقاب استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضوان الله عليه، وبين سنة (٣٤هـ) وبين عام الجماعة سنة (٤٠هـ)، وهي فترة الصراع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما؛ والتي انتهت بالصلح ما بين الرجلين، ثم ما أعقب ذلك من حرب بين أمير المؤمنين علي والخوارج (معركة النهروان) والتي كان من نتائجها تشكل مؤامرة ١٧ رمضان؛ وقيام الخوارج بمحاولة قتل خلفاء وأمراء المسلمين، معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص، فكان علي بن أبي طالب هو الضحية الوحيدة التي ذهبت بها المؤامرة، فيما أصيب

معاوية بجراح خرج منها سالماً، واستشهد خارجة بن حذافة في مصر؛ حيث كان إماماً في المسلمين لصلاة الفجر من ذلك اليوم بدلاً من عمرو بن العاص الذي أصيب يومها بوعكة صحية طارئة، ما أطلق عمرو بن العاص مقولته الشهيرة: «أردتني وأراد الله خارجة» وذهبت هذه المقولة مثلاً. والمهم في الأمر هو أن هذه الفترة من الانقسام على الجبهة العربية الإسلامية الداخلية قد سمحت للأقاليم حديثة العهد بالإسلام في المغرب، بالانتقاض ضد العرب المسلمين واستثمار الروم (البيزنطيين) لهذا الموقف، من أجل محاولة تنظيم حرب على كل الجبهات، حتى في بلاد الشام ومصر، وذلك مما اضطر جيوش المسلمين للانسحاب حتى قواعد انطلاقهم، وكانت تونس هي قاعدة الانطلاق نحو المغرب. وحدث مثل ذلك في الشرق أيضاً، فكان على الأمويين، حكام دمشق، بعد انتقال الحكم للفرع المرواني، (مروان وخلفائه: الوليد وهشام)؛ بعد عبد الملك، أن يعيدوا العمل بمخطط سياسية الفتوح. ولقد جاءت بعد ذلك أحداث مشابهة، في العصر الأموي ثم العباسي، أكدت حقيقة دور الاستقرار على الجبهة الداخلية في دعم العمل على الجبهة الخارجية سياسياً وعسكرياً. لقد أفاد الروم (البيزنطيون) من ظواهر اضطراب الجبهة الداخلية العربية الإسلامية لتنظيم الحرب المضادة والشاملة، والتي ظهرت واضحة في عمليات التمرد والثورة ضد النظام المغربي الإسلامي الجديد في كل أرجاء المغرب.

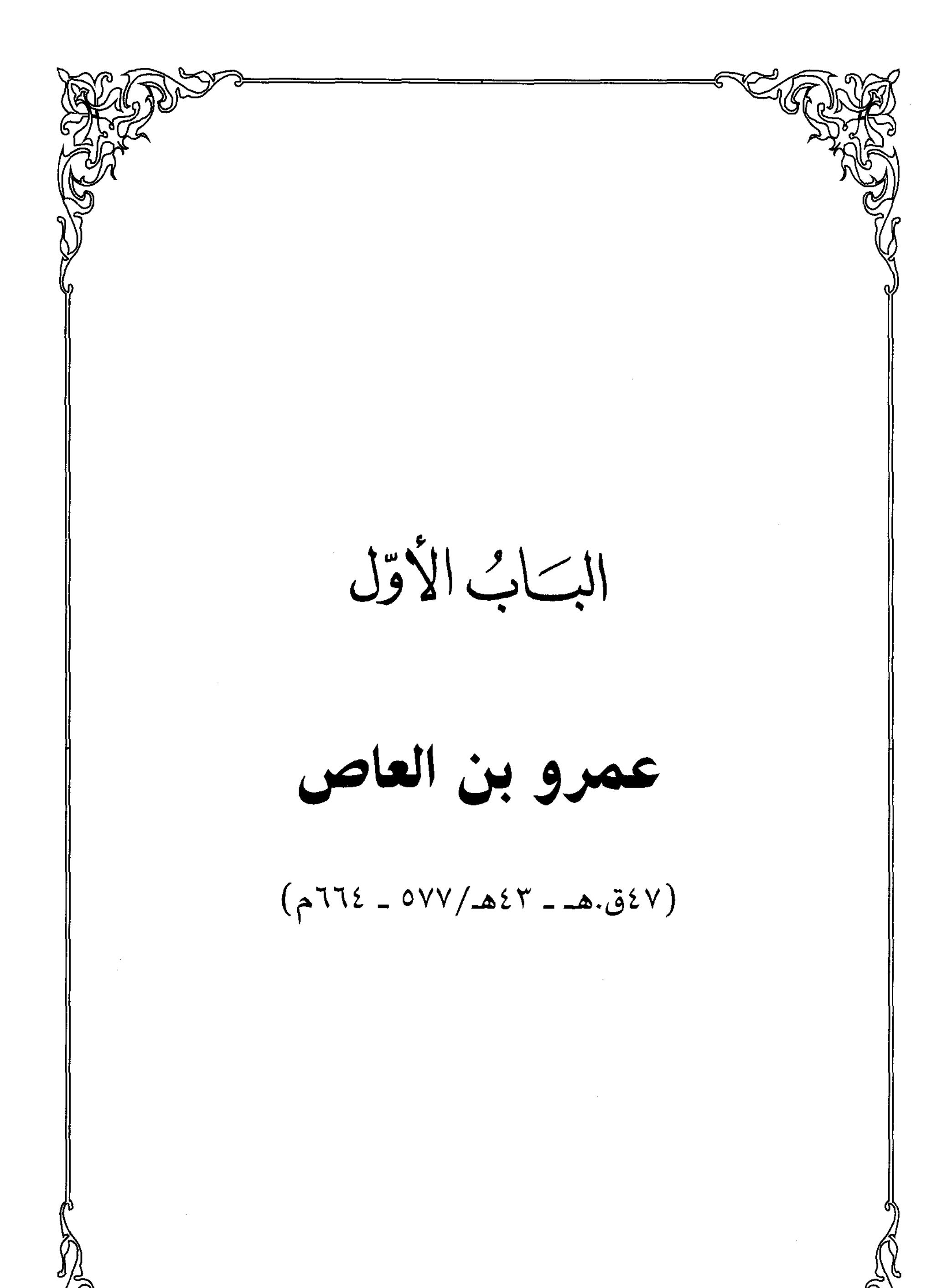
وكانت الطبيعة الجغرافية الصعبة والطبيعة السكانية القبلية المقاتلة من العوامل المساعدة للروم، ولكن؛ ومقابل ذلك، فقد أظهرت هذه الحروب القدرة العالية للتعلم من تجارب الحروب الذاتية واستخلاص دروسها الهامة لبلوغ النصر، فكان الجيل القيادي الثاني عقبة بن نافع وموسى بن نصير، وغيرهما من القادة، من النماذج الرائعة لممارسة القيادة في الظروف الصعبة. وعلى سبيل المثال، فالحرب التشتيتية التي نظمها قادة الحرب، عقبة وموسى وسواهما، من أجل منع قوى المقاومة من التعاون بعضها مع بعض لتشكيل جبهة قوية متفوقة، وحرمان هذه القوى من حرية العمل العسكري بإرسال مجموعات من القوات سريعة الحركة وذات القدرة القتالية العالية للتوغل في الجبال والمناطق الصعبة والغابات، ومباغتة القوات المعادية ومحاربتها والانتصار عليها. هذه الحرب التشتيتية بمقدماتها ونتائجها لم تكن إلا تطويراً للحرب التشتيتية التي نظمها

الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عندما وجه أربعة جيوش للتحرك على أربعة محاور لفتح بلاد الشام فلسطين ـ الأردن ـ دمشق، على أن تلتقي هذه الجيوش عند مجابهة قوة كبرى، كما حدث عندما انسحبت للالتقاء في اليرموك، فكانت هذه التجارب هي النموذج المبكر والواضح لحرب الحركة التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية على أكثر من جبهة. وكذلك، وعلى سبيل المثال، ضرورة تحقيق التوازن بين القدرة المقاتلة في حجمها ونوعها وقدرتها وبين حجم وأبعاد الواجب الذي لا بدَّ من تنفيذه؛ ومثال ذلك أيضاً أمر الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أصدر تعليماته بوقف الحرب عند حدود الجبال الشمالية في بلاد الشام وعند الحدود الشرقية في بلاد العراق؛ إشفاقاً على المسلمين ورغبة في الحصول على فترة كافية لإعادة تنظيم القوى وتحقيق التوازن، فكان شعار تلك الفترة قول أمير المؤمنين عمر «**ليت بيننا وبين الروم جبلاً من النار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم**». وكذلك عندما تقدم موسى بن نصير شمالاً وتجاوز حدود جبال البيرينِّيه، معلناً رغبته في الوصول إلى روما (رومية) ومنها إلى القسطنطينية، تقدم إليه رجل من أصحابه، وقال له: «ألم تقل، عندما تقدم عقبة موغلاً في متاهات الجبال والغابات في بلاد المغرب، بما لم يكن متناسباً مع حجم قواته: ألم يكن معه رجل رشيد ينصحه بعدم التقدم؟، وأنا اليوم لك ناصح رشيد: ـ فتوقف عند حدود ما وصلنا إليه». وتوقف الفتح عند حدود الجبال. والأمثولات كثيرة.

لعل العامل الأكثر أهمية في ذلك كله هو أن مدرسة فتوح المغرب قد أكدت أهمية العلاقة بين التحرك العسكري والعمل السياسي ـ الفكري. فلقد عملت السيوف عملها في إزالة المقاومات؛ ولكن سياسة القوة توقفت عند هذا الحد، وبدأ العمل لتحقيق هدف الحرب وهو رفع راية الإسلام وبناء المجتمع الجديد، وكانت قاعدة البناء قوية وثابتة، كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وستبقى أقطار المغرب، كافة، وبفضل الله، منارات تضيء لها الدنيا ما دامت هناك حياة على أرض الدنيا، وستبقى دماء شهداء الفتوح من جند الله هي الروح الباقية التي تقدم للأجيال الإسلامية، العربية وغير العربية، ما تحتاجه حتى تحتفظ مسيرة الحياة بقوتها وعزتها وكرامتها وعناصر تفوقها.

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

بسام العسلي



البَابُ الأوّل

عمرو بن العاص

(٤٧ق.هـ ـ ٤٣هـ/٥٧٧ ـ ٦٦٤م)



بعض ما قيل عن عمرو بن العاص
وما نقل عنه

(أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص)

«حديث شريف»

«دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه. فأما معاوية فللحلم والأناة؛ وأما عمرو فللمعضلات؛ وأما المغيرة فللمبادهة؛ وأما زياد فللكبير والصغير»[1].

وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرو يمشي يقول: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي إلا أميراً»[2]، وكان إذا رأى الرجل يتلجلج يقول: «أشهد أن خالقَ هذا وخالق عمرو بن العاص واحد»، وإذا استضعف رجلاً في رأيه وعقله قال: «أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد»، وهو يريد بذلك أن الله خالق الأضداد[3].

وقيل لعمرو: ما المروءة؟ فقال: «يُصلح الرجل ماله ويُحسن إلى إخوانه»[4].

ومن أقواله: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه يعرف خير الشرين»[5].

وقال يوماً لمعاوية: «إن الكريم يصول إذا جاع؛ واللئيم يصول إذا شبع؛ فَسُدَّ خصاصة ـ حاجة ـ الكريم واقمع اللئيم»[6].

وقال معاوية لعمرو: «من أبلغ الناس؟» قال: «من كان رأيه راداً لهواه»

---

(١) عن الشعبي، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص١٣٦.

(٢) اليعقوبي ٢/١٩٧، والإصابة ٥/٢.

(٣) الاستيعاب ٣/١١٨٨، والإصابة ٥/٢، ٣. (٤) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٦١

(٥)(٦) ابن العاص ـ العقاد ـ في «فصل من كلامه».

فقال: «من أسخى الناس؟» قال: «من بذل دنياه في صلاح دينه» قال: «مَن أشجع الناس؟» فقال: «من رد جهله بحلمه». ومن أشهر أقواله: «موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة». وقوله أيضاً: «إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي فأذاعه فهو في حل» فقيل له: «وكيف ذلك؟» فقال: «أنا كنت أحق بصيانته»[1].

وقال عندما نزل الروم في «اليرموك» حيث المكان «ضيق المطرد؛ ضيق المذهب»: «أبشروا؛ حصرت والله الروم؛ وقلَّ ما جاء محصور بخير»[2].

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وهو على مصر، يسأله فيه عن أصل المال الذي جمعه، فغضب ابن العاص، وأجاب أمير المؤمنين برسالة جاء فيها: «. . . ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتني؛ فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك»[3].

ومن الأحاديث التي نقلها عن الرسول ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران؛ وإن أخطأ فله أجر)[4].

وقال رجل: «صحبت عمرو بن العاص، فما رأيت رجلاً أبين قرآناً؛ ولا أكرم خلقاً، ولا أشبه سيرة بعلانية منه»[5]. وعندما أدركته الوفاة أخذ يردد: «اللهم لا بريء فاعتذر ولا عزيز فانتصر؛ وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين». وأخذ يردد «لا إلـه إلا الله» حتى مات، ودفن بالمقطم في مصر.

---

(١) ابن العاص ـ العقاد ـ في «فصل من كلامه».
(٢) ابن الأثير ٢/١٥٦.
(٣) الفاروق عمر، الدكتور هيكل ١/ ٣٠.
(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٠٤.
(٥) الإصابة ٥/ ٢.

الفَصْلُ الأوَلُ

عمرو بن العاص

مختصر حياة عمرو بن العاص القيادية

١ ـ من الجاهلية حتى حروب الردة.
٢ ـ عمرو بن العاص في الشام.
٣ ـ فتح مصر وولايتها.
أ ـ الوضع العام قبل الفتح.
ب ـ الموقف العسكري عشية الفتح.
جـ ـ الأعمال القتالية.
٤ ـ ما بين الولايتين.



مختصر حياة عمرو بن العاص القيادية

تسلسل الأحداث	السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١	٤٧ق.م.	٥٧٧	ولادة عمرو بن العاص.
٢	٨هـ	٦٢٩	إسلام عمرو بن العاص.. مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة.
٣	٩	٦٣٠	غزوة ذات السلاسل.
٤	١٠	٦٣١	مع الرسول ﷺ في فتح مكة «وقيامه بهدم سواع».
٥	١٠	٦٣١	وفادة عمرو بن العاص إلى «عمان».
٦	١١	٦٣٢	قيادة قوة للمسلمين في «حروب الردة» للقضاء على «مرتدي قضاعة».
٧	١٢	٦٣٣	قيادته جيش من الجيوش الأربعة الموجهة «لحرب الروم» في الشام.
٨	١٣ ـ ١٧	٦٣٤ ـ ٦٣٨	فتح فلسطين.
٩	١٨ ـ ٢٩	٦٣٨ ـ ٦٤٨	فتح مصر وبقاء عمرو بن العاص على ولايتها.
١٠	٣٠ ـ ٣٨	٦٤٩ ـ ٦٥٨	عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وإقامته في فلسطين، ثم انضمامه لمعاوية، واشتراكه في «التحكيم» في معركة صفين.
١١	٣٩ ـ ٤٣	٦٥٩ ـ ٦٦٤	استيلاء «ابن العاص» على مصر، وبقاؤه على ولايتها حتى وفاته.

١ ـ من الجاهلية حتى حروب الردة(١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة/١٢٣]

قصة إلى الخيال هي أقرب؛ وبطولات كالأساطير بل هي أغرب؛ شيخ تجاوز الستين يقود جيشاً، في أقله أربعة آلاف، وفي أكثره ثمانية آلاف أو حتى اثني عشر ألفاً، يعبر بهم صحراء سيناء وهي المفازة التي تبتلع الجيوش، . . ويسير الجيش الصغير، يغالب الحر والقر، بعد أن قاتل على امتداد ثمانية أعوام حتى أخضع «فلسطين» والشام وانتزعها من قبضة الروم «البيزنطيين»، ولم يكن هذا الجيش على قلة عدده وضعف عدته جيشاً من الخراف، وإنما كان جيشاً من الأسود؛ أثبت جدارته في جميع الحروب التي خاضها، وبرهن على كفاءته عبر جميع المعارك التي خرج منها منتصراً، فكانت قيادة مثل هذا الجيش شرفاً لا يعادله شرف في الدنيا؛ ولكن ماذا يستطيع جيش من بضعة آلاف، أن يفعله في إقليم حشد فيه الروم مائة ألف أو يزيدون، وفيه قوات من أهل البلاد تعادل جيش الروم. تلك هي قصة «فتح مصر» وبطولات قائد جيش فتح مصر عمرو بن العاص الذي كان «جزاراً» وعمل «تاجراً» قبل أن يدخل الإسلام، فتكوَّن إنساناً جديداً، بعد أن آمن وأسلم، وأصبح من عظماء العرب ومن أشهر «قادة الإسلام» ومن أعلام «فن الحرب» في التاريخ.

إنه عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، يكنى أبا عبد الله، وأمه «سلمى بنت حرملة» تلقب «النابغة» من بني عنزة. أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها «الفاكهة بن المغيرة» ثم اشتراها منه «عبد الله بن جُدعان» ثم

(١) ولد عمرو بن العاص في سنة (٥٠هـ/ ٥٧٧م)، وتوفي في سنة (٤٣هـ/ ٦٦٤م).

صارت إلى «العاص بن وائل» فولدت له، فأنجبت «عمرو» الذي تميزت حياته بأربع مراحل مميز بعضها عن بعض بوضوح تام وهي:

١ ـ مرحلة الحياة الجاهلية.

٢ ـ مرحلة الإسلام، حتى وفاة الرسول الأعظم ﷺ.

٣ ـ مرحلة القيادة في الشام.

٤ ـ فتح مصر.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك مرحلة لاحقة هي حياة عمرو بن العاص فيما بعد الفتح.

نشأ عمرو بن العاص في وسط أسرة غنية؛ وكان أبوه يتاجر بين الشام واليمن؛ ويحتشد لرحلة الصيف ورحلة الشتاء؛ ويظهر أن هذه النشاة قد تركت طابعها العميق في نفس عمرو، الذي أراد أن يزيد في المال والجاه على ما كان عليه أسلافه؛ والذي لم يتمكن، رغم صحة إسلامه وعمق إيمانه، التحرر من رواسب الفخر الجاهلي بالآباء والأجداد، وقد ظهر ذلك مرات في حديثه ومواقفه؛ فعندما حاسبه أمير المؤمنين «عمر» وأراد أن يشاطره ماله، غضب عمرو بن العاص وقال لرسول الخليفة: «قبح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل؛ والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها؛ وما منهما إلا في نمرة لا تبلغ رسغيه. والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزوراً بالذهب». وعندما عمل أمير المؤمنين عثمان بن عفان على عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر دعاه فأنبه وقال له: «استعملتك على ظلعك، وكثرة القالة فيك». فقال عمرو: «كنت عاملاً لعمر بن الخطاب، ففارقني وهو عني راض». فقال عثمان: «وأنا والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنت عليك فاجترأت علي؛ أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان». فقال عمرو: «دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به. فقد رأيت العاص بن وائل؛ ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك». فما زاد عثمان على أن قال: «ما لنا ولذكر الجاهلية»[1].

لم يكن نصيب عمرو من شرف الأصالة أقل من نصيبه في الثراء واليسار؛

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٣٥٦.

فقد كان عمرو من بني سهم، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش انتهى إليها الشرف قبيل الإسلام، هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وتيم وأسد ومخزوم وعدي وجمح وسهم[(١)]، وكان لكل بطن من هذه البطون واجب خاص. فكان بنو سهم أصحاب الحكومة في قريش، والحكومة عمل يشبه القضاء؛ بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب، إلى زعماء بني سهم فيما يقع بينهم من الخصومات؛ وهذا يدل على أنهم كانوا أصحاب رأي وحلم ودهاء. وكان لبني سهم أيضاً الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم، وفي قبضة صاحب هذه الأموال المحجرة كما كانوا يسمونها، أو أموال الأوقاف، بحسب التسمية الحديثة، يتصرف فيها حسب ما تقتضيه القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم: «ولقد اشتهر بنو سهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار»[(٢)].

لم يكن موقف عمرو بن العاص من الإسلام يوم ظهر الإسلام مختلفاً عما كان عليه موقف العرب عامة وقريش خاصة. وكان عمرو شديد الولاء لما يعتقده أبوه، وكان العاص بن وائل من كبار المناوئين للإسلام، حتى أنه كان أحد سادات قريش الذين ذهبوا إلى أبي طالب يسألونه أن يكف عنهم رسول الله ﷺ[(٣)]، كما كان أحد زعماء قريش الذين حاولوا صد النبي عن دعوته؛ وعرضوا عليه كل المغربات ليكف عنهم»[(٤)] وكان أحد المستهزئين بالرسول ﷺ وبأصحابه[(٥)]، وهو الذي كان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات، لقد انقطع ذكره واسترحتم منه». فانزل تعالى قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾. ولكن عداء العاص بن وائل للإسلام والمسلمين؛ لم يدفعه إلى الحماقة، أو ارتكاب الخطأ في تقويم الأمور؛ فعندما أعلن عمر بن الخطاب إسلامه؛ وأراد المشركون به سوءاً تصدى لهم العاص وقال لهم: «رجل اختار لنفسه أمراً، فماذا تريدون؟.. أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل!»[(٦)].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٤٣، ١٤٤.
(٢) المعارف ص٥٧٩.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٧.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣١٥.
(٥) ابن الأثير ٢/ ٢٦.
(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧١.

سار عمرو بن العاص على نهج أبيه في عدائه للإسلام والمسلمين؛ وعندما اشتد أذى المشركين، أمر الرسول ﷺ بالهجرة الأولى إلى الحبشة؛ وهناك استقر نفر من المسلمين غير قليل، واطمأنوا إلى ما ضمنه لهم النجاشي، من حرية العبادة وحرية المعتقد، وأزعج ذلك المشركين «فتآمرت قريش فيما بينها في الكيد بمن ضوى - نزح - إلى الحبشة من المسلمين، فوجهوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي إلى النجاشي، مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته، وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم مَن قبَله وبأرضه من المسلمين؛ فشخص عمرو وعبد الله إليه في ذلك، فنفذا لما أرسلهما إليه قومُهما، فلم يصلا إلى ما أمل قومهما من النجاشي؛ فرجعا مقبوحين»[(١)].

وفي السنة الثانية للهجرة، كانت هناك قافلة تجارية كبيرة قادمة من الشام، وعلى حراستها ثلاثون فارساً لقريش، أو أربعون، فيهم عمرو بن العاص، وكانت هذه القافلة هي بداية معركة بدر الكبرى، واشترك فيها عمرو فقاتل ضد المسلمين. وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت غزوة أحد وفيها قاتل عمرو أيضاً ضد المسلمين، واستمر في عدائه؛ ولكنه كان خلال ذلك يتابع ما يحدث من تطورات، ويطلع على الدين الجديد ويتعرف عليه. ولم تكن عملية التحول إلى الإسلام وإلى الإيمان خطوة سهلة بالنسبة لمن كان في زعامة معسكر الأعداء، ولكن ما أن أقبلت السنة الثامنة للهجرة، حتى أقبل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بن المغيرة وعثمان بن طلحة العبدري إلى الرسول ﷺ يبايعونه ويعلنون إسلامهم؛ وعندما رأى النبي عمراً وصاحبيه قال: (**ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها**)[(٢)].

لقد تأخر عمرو في الانضواء تحت راية المسلمين. وسأل رجل عمراً عن ذلك عندما قال له: «ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت في عقلك؟!» قال عمرو: «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم؛ وكانوا ممن توازي حلومهم الجبال، فلما بُعث النبي ﷺ، فانكروا عليه لذنا بهم؛ فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا، نظرنا وتدبرنا، فإذا حقٌ بيِّن، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني، من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه؛ فبعثوا إلي فتى منهم، فناظرني في ذلك، فقلت: أنشدك الله ربَّك وربَّ من قبَلك ومن بعدك، أنحن أهدى أم فارس والروم؟ قال:

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٣٥.
(٢) أسد الغابة ٣/ ٣٧٢.

نحن أهدى. قلت: فنحن أوسع عيشاً أم هم؟ فقال: هم. قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمراً في كل شيء، وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد عن أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل»[1].

قال عمرو: «ثم جعل الإسلام في قلبي؛ فاتيت رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: أبسط يمينك أبايعك يا رسول الله. فبسط يده؛ ثم إني قبضت يدي؛ فقال: **(ما لك يا عمرو؟!)** فقلت: أردت أن أشترط! فقال: **(تشترط ماذا؟)** فقلت: أشترط أن يُغفر لي! فقال: **(أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؛ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟)**. فقد رأيتني ما من أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه؛ ولو سئلت أن أنعته ما أطقت، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له»[2]. وعرف الرسول ﷺ حقيقة موقف عمرو فكان قوله: **(أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص)**[3].

ما كاد عمرو يستقر في المدينة حتى كلفه الرسول ﷺ بقيادة سرية من المهاجرين والأنصار، عددهم ثلاثمائة رجل وعدتهم ثلاثون فرساً، بمهمة التوجه إلى أرض بلى وعذرة لدعوة الناس للإسلام وردع أولئك الذين كانوا يفكرون في مهاجمة المدينة المنورة من جموع قضاعة. وسار عمرو والسرية معه، يسيرون في الليل ويكمنون في النهار حتى اقتربوا من ذات السلاسل وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وهناك عرف عمرو تفوق خصمه، فأرسل إلى الرسول يستمده، فبعث إليه رسول الله ﷺ «أبو عبيدة بن الجراح» في المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر؛ وقال لـ«أبو عبيدة» حين وجهه: (لا تختلفا). فخرج أبو عبيدة، حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو بن العاص: إنما جئت مدداً لي. فقال له أبو عبيدة: يا عمرو؛ إن رسول الله قد قال لي: لا تختلفا؛ وأنت إن عصيتني أطعتك. قال: فأنا أميرٌ عليك؛ وإنما أنت مددٌ لي. قال: فدونك. فصلى عمرو بن العاص بالناس. وسار عمرو حتى وطئ بلاد «بَلِي» ودوخها وأتى إلى أقصى بلادهم وبلاد «عُذرة» و«بَلْقَين» ثم لقي جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا. ولما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم؛

---

(١) الإصابة ٥/ ٢.	(٢) فتوح مصر والمغرب ص٢٤٣.

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد ٤/ ١٥٥، والترمذي ٢/ ٣١٦.

فأرادوا مطاردتهم، فحال عمرو بينهم وبين ذلك؛ وكانت ليلة شديدة البرد، فمنعهم من أن يشعلوا ناراً، فلما عاد اعتذر إلى رسول الله ﷺ بأنه كره النار خشية أن يراها عدوهم؛ فيرى قلتهم فيطمع فيهم، وكره أن يتبعوهم خوفاً من أن يكون لهم مدد. فحمد رسول الله ﷺ أمره، وامتدح عمله.

وكانت غزوة ذات السلاسل هذه أول عمل قيادي يمارسه عمرو بن العاص بعد إسلامه[1].

كان فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة أيضاً (٦٢٩م) وأرسل الرسول من يزيل الأصنام، وكان هدم سواع من نصيب عمرو بن العاص الذي مضى لتنفيذ واجبه، فلما انتهى إلى الصنم قال له السادن: ما تريد؟ قال هدم سُواع. قال السادن: لا تطيق تهدمُه. قال له عمرو بن العاص: أنت في الباطل بعد! فهدمه عمرو، ولم يجد في خزائنه شيئاً، ثم قال عمرو للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ والله[2].

بعث، رسول الله ﷺ؛ عند منصرفه من حجَّة الوداع عمرو بن العاص إلى «جَيْفَر» ملك عُمان بمهمة الدعوة للإسلام. وتوجه عمرو ولما وصل عمان استقبله عبد بن الجلندى، أخو الملك، وهما من الأزد. وكان عبد هذا أحلم من أخيه وأسهل خلقاً، فقال له عمرو: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك. وعندما قابل عمرو الملك «جَيْفَر» دفع له كتاب رسول الله ﷺ؛ فقرأه حتى آخره، ثم سلمه لأخيه؛ فقرأه مثل قراءته، واستمهله الملك؛ ثم أعلن له موافقته على الالتزام بالإسلام، وأقام عمرو في عمان يحكم بين أهلها، ويأخذ الصدقة من أغنيائهم ليردها على فقرائهم؛ ويعلمهم أمور دينهم؛ وبقي فيها حتى وافته أخبار وفاة الرسول؛ فقرر العودة إلى المدينة.

غادر عمرو مقره في عمان، ومضى حتى إذا وصل البحرين وجد «المنذر بن ساوى» في الموت، فقال له المنذر: «أشر عليَّ في مالي بأمر لي ولا عليَّ». قال: تصدق بعقار صدقة تجري من بعدك. ففعل. ثم خرج من عنده فسار في بني تميم؛ ثم خرج إلى بلاد بني عامر؛ فنزل على «قرة بن هبيرة» وقرة يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً ـ يريد الردة ـ وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خواص.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٢، وابن الأثير ٢/ ١٥٦. (٢) الطبري ٣/ ٦٦، وابن الأثير ٢/ ١٧٧.

واستقبل قرة عمرو بن العاص، فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة، خلا به قرة فقال: «يا هذا. إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع؛ وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم». فقال عمرو: «أكفرت يا قرة... أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها! موعدك حفش أمك؛ فوالله لأوطئن عليك الخيل»[1]. ومضى عمرو إلى المدينة المنورة فقابل الخليفة وأخبره بخبر القوم المرتدين.

عقد أبو بكر أحد عشر لواء لحرب المرتدين وعقد لعمرو بن العاص من بينها لواء الحرب ضد المرتدين من جماع قضاعة ووديعة والحارث. ومضى عمرو إلى قضاعة وحاربهم حتى انتصر عليهم، وقضى على المرتدين، وأقام في عمان يعيد تنظيم أمور المسلمين، وينتظر أمر الخليفة.

انتهت حروب الردة؛ وانتصر المسلمون، وعادت للعرب وحدتهم في جزيرتهم؛ وسيطرت عليهم أخوة الإسلام حتى أصبحوا كأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة. وأخذ الخليفة في عجم عيدانه، واختيار أصلبها وأقواها لحمل رسالة الإسلام إلى الشام والعراق، وكتب إلى عمرو بن العاص: «إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاك إياه مرة، وسماه لك أخرى، مَبْعثك إلى عمان، إنجازاً لمواعيد رسول الله... وقد أحببت ـ أبا عبد الله ـ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك». فكتب إليه عمرو: «**إني سهم من سهام الإسلام؛ وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها؛ فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي**»[2].

وطلب الخليفة إلى عمرو القدوم إلى المدينة في رسالة جاء فيها: «إني قد استعملتك على من مررت به من «بلى وعذرة وسائر قضاعة»، ومن سقط هناك من العرب، فاندبهم إلى الجهاد في سبيل الله؛ ورغبهم فيه؛ فمن تبعك منهم فاحمله وزوده، ورافق بينهم، واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلها». ومضى عمرو بمن معه إلى المدينة حيث عقد له الخليفة راية الجهاد، فكان عمرو بن

---

(١) **الحفش**: حقيبة المرأة تضع فيها زينتها؛ يريد تحقيره. ويقال: الحفش بيت تنفرد فيه النفساء. وقد وقع «قرة» بعد ذلك في أسر خالد بن الوليد أثناء حروب الردة فأرسله إلى الخليفة، فاعتذر أنه خاف مسيلمة وأنه لم يرتد في الباطن، فعفا عنه أبو بكر وحقن دمه (الطبري ٣/ ٢٥٨ ـ ٢٦٠).

(٢) الطبري ٣/ ٣٨٩.

العاص أول من سار من عمال الخليفة، وأمره أن يسلك على أيلة عامداً لفلسطين. وكان العقد لكل أمير من أمراء الشام في بداية الأمر ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة، وكان في جيش عمرو أناس كثير من المهاجرين والأنصار، ومن أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب.

وبينما كان أبو بكر يجهز الجيوش، انصرف عمرو إلى بعض شؤونه قبل أن يتوجه إلى الشام، وقابل ابن الخطاب عمر، فقال له: «يا أبا حفص! أنت تعلم شدتي على العدو؛ وصبري على الحرب، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ؛ وإني لأرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء. فلو أنك كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على «أبو عبيدة». فقال عمر بن الخطاب: ما كنت بالذي أكلمه في ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبو عبيدة أفضل منزلة منك وأقدم سابقة منك، والنبي ﷺ قال فيه: (**أبو عبيدة أمين الأمة**). فقال عمرو: «ما ينقص من منزلته إذا كنت والياً عليه؟». فقال عمر: «ويلك يا عمرو! إنك لا تطلب بقولك هذا إلا الرياسة والشرف، فاتق الله، ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى». فقال عمرو: «إن الأمر كما ذكرت».

ثم أن الخليفة استدعى عمرو وقال له: «قد وليتك هذا الجيش؛ فانصرف إلى أرض فلسطين، وكاتب أبا عبيدة؛ وأنجده إذا أرادك، ولا تقطع أمراً إلا بمشورته». ونظم عمرو قواته للتحرك، ودفع مقدمة أمامه بقيادة سعيد بن الحارث السهمي؛ وخرج الخليفة أبو بكر الصديق ـ كعادته ـ لوداع الجيش؛ وهو يمشي إلى جنب راحلة عمرو بن العاص، وأوصاه فقال له: «يا عمرو! اتق الله في سر أمرك وعلانيته؛ واستحيه؛ فإنه يراك ويرى عملك؛ وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقة منك؛ ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك؛ فكن من عمال الآخرة؛ وأرد بما تعمل وجه الله؛ وكن والداً لمن معك؛ ولا تكشفن الناس عن أستارهم؛ واكتف بعلانيتهم، وكن مجداً في أمرك؛ وأصدق اللقاء إذا لاقيت؛ ولا تجبن وتقدم في الفلوم[١] وعاقب عليه؛ وإذا وعظت أصحابك فأوجز؛ وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك»[٢].

---

(١) الفلوم: تجاوز حدود ما أمر الله به من قواعد الإسلام، أو التقصير في طاعة القائد.

(٢) تهذيب ابن عساكر ١/ ١٢٩.

ووجه أبو بكر إلى الشام أربعة جيوش، فسمى لـ«أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح» حمص، وليزيد بن أبي سفيان دمشق، ولشرحبيل بن حسنة الأردن، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مجزز فلسطين، وتوجه كل قائد بجيشه إلى منطقة العمليات التي حددها له الخليفة؛ وسار عمرو بن العاص حتى نزل بغمر العربات من غور فلسطين.

٢ ـ عمرو بن العاص في الشام

جعل عمرو بن العاص من غمر العربات قاعدة له، وأخذ في تنظيم عملياته؛ ووجد أن في مواجهته قوات كبيرة تزيد على ٧٠ ألفاً من الروم اليزنطيين، كان يقودهم تذارق، أخو الأمبراطور هرقل. وأدرك أنه لا يستطيع حسم الصراع المسلح مع ما للروم من تفوق عددي كبير، فكتب إلى الخليفة «يذكر له أمر الروم ويستمده».

أدرك امبراطور الروم هرقل خطورة الموقف؛ فوجه أربعة جيوش على محاور مختلفة؛ بهدف ضرب كل جيش من جيوش المسلمين بمعزل عن الجيوش الأخرى؛ وكتب أمراء الجيوش الإسلامية بعضهم لبعض؛ فاقترح عليهم عمرو بن العاص الاجتماع، وذكر ذلك في رسالة جاء فيها:

«**إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلة؛ وإذا نحن تفرقنا لا تقوم كل فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا**». وكتبوا إلى «أبو بكر»؛ فأجابهم مثل جواب عمرو. وتحرك أبو عبيدة؛ وشرحبيل؛ ويزيد بن أبي سفيان حتى نزلوا الجولان، وسار عمرو من غمر العربات حتى نزل معهم، واجتمعت قوات المسلمين بأجنادين، وعسكروا عليها، ثم عقدوا مؤتمراً تقرر فيه الانسحاب حتى اليرموك، وفي هذه الأثناء كان سيل الإمداد مستمراً، كما جاء دعم جديد من العراق بقيادة خالد بن الوليد. وعادت قوات الروم فتجمعت، ونزل الروم في مواجهة المسلمين؛ وفي موقع محصور بوادي اليرموك، فما كان من عمرو بن العاص إلا أن قال: «أيها الناس، أبشروا... حصرت والله الروم؛ وقَلَّ ما جاء محصور بخير».

نظم خالد بن الوليد قوات المسلمين لمعركة اليرموك الخالدة، وتولى فيها عمرو بن العاص قيادة الميمنة؛ وكان له دور كبير في الإعداد للمعركة وقيادتها والقتال فيها.

توجه المسلمون، بعد اليرموك، إلى دمشق وأقاموا على حصارها، وقسموها إلى قطاعات. وكان عمرو بن العاص وشرحبيل يقابلان جند الروم في فحل؛ حتى إذا فرغ المسلمون من فتح دمشق، توجه أبو عبيدة، وخالد بقواتهما لدعم عمرو بن العاص في فلسطين.

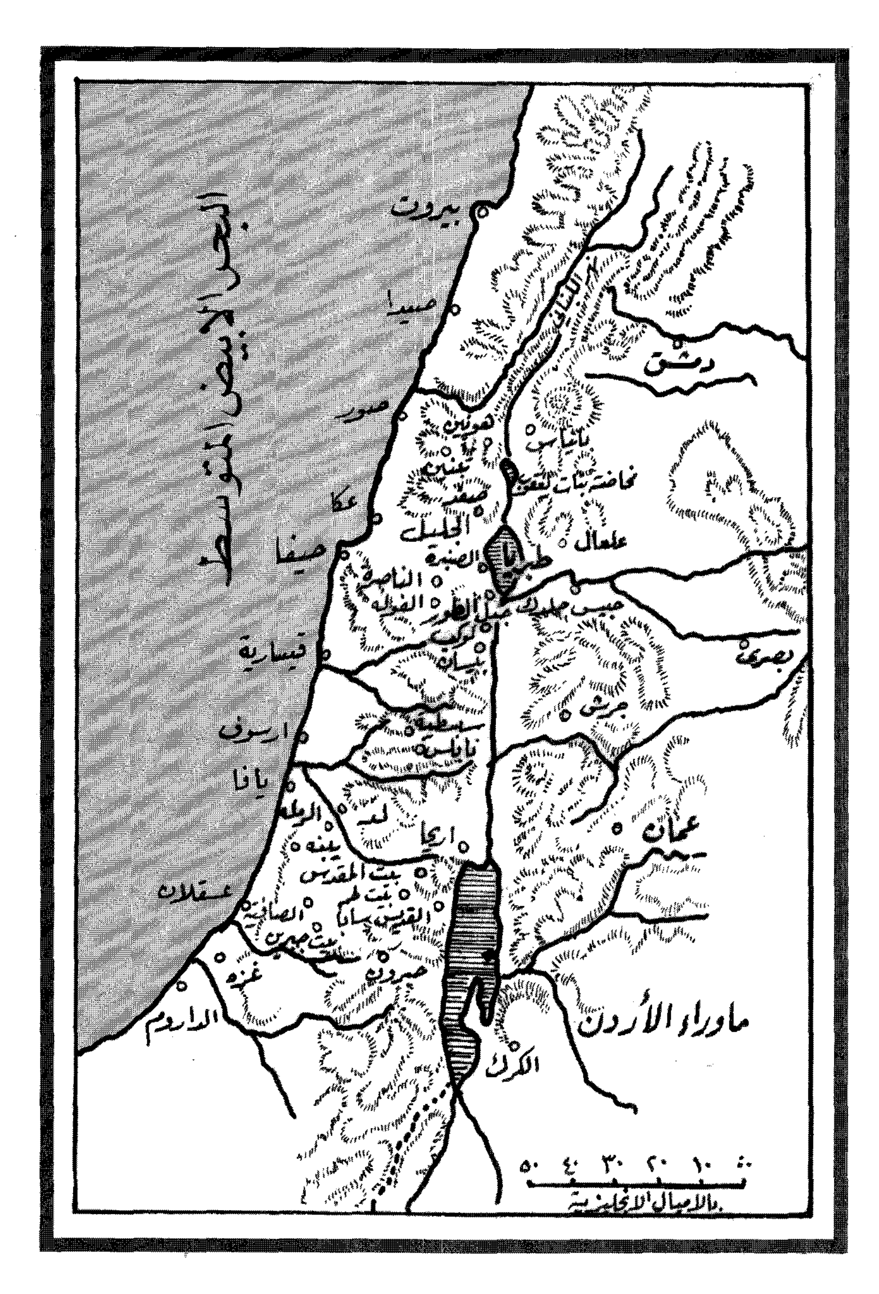
تجمعت بقايا الروم في فِحْل وكانت قوتهم ٨٠ ألفاً يقودهم «سقلار بن مخراق» الذي نظم الدفاع عن بيسان، وانضمت قوات «أبو عبيدة» إلى شرحبيل، على اعتباره قائد منطقة العمليات، فأعاد شرحبيل التنظيم ودفع خالد بن الوليد على المقدمة وتولى أبو عبيدة وعمرو بن العاص قيادة المجنبتين. ولما اقترب جيش المسلمين، دمر «سقلار» مجاري المياه وأغرق المنطقة التي تحولت إلى مستنقع طيني من الصعب التحرك فيه، وتوقف جيش المسلمين فترة من الوقت. وظن «سقلار» أنه يستطيع مباغتة جيش المسلمين فقام بهجوم مفاجئ، ولكن شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية، فتلقى المسلمون الصدمة واستمرت المعركة الليل بطوله ونهار اليوم التالي؛ ثم انتزعت قوات المسلمين النصر، وطاردوا الروم حتى الرِّدغة، أو الرِّداغ، ولم يفلت من الثمانين ألفاً إلا الشريد، وهذه هي المعركة المعروفة في التاريخ باسم «غزاة فِحْلاً، أو ذات الرِّدغة أو بيسان» وانصرف بعدها أبو عبيدة إلى حمص، فيما توجه عمرو بن العاص وشرحبيل إلى بيسان وصالحوا أهلها على مثل صلح أهل دمشق بعد معركة قصيرة وحاسمة.

بقيت المدن الفلسطينية صامدة تدافع عنها حاميات قوية بقيادة أدهى رجال الروم ـ البيزنطيين وهو المعروف باسم «أرطبون»، والذي كان قد ركز دفاعه على الرملة وإيلياء ووضع بهما حاميات قوية.

كتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد أن أصبح عمر خليفة للمسلمين، وشرح له موقف «أرطبون» وقواته؛ واستمده طالباً الدعم حتى يستطيع إنجاز واجباته، وعندما وصلت الرسالة إلى أمير المؤمنين قال: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب؛ فانظروا عمَّ تنفرج»[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٦٠٥. وفيه تعبير صحيح عن حقيقة الحرب «كحوار إرادات» تنتصر فيه الإرادة الأقوى والأكثر دهاء.



مسرح عمليات عمرو بن العاص (١٢ ـ ١٧هـ)

وأصدر أمير المؤمنين أوامره إلى يزيد بن أبي سفيان بتوجيه معاوية لفتح قيسارية، وتوجيه علقمة بن مُجَزِّز إلى غزة بهدف إشغال الروم عن عمرو الذي نظم قواته، ودفع علقمة بن حكيم الفراسي، ومسروق بن فلان العكي لقتال أهل إيلياء وإشغالهم. كما بعث عمرو بن العاص أيضاً مجموعة قتالية بقيادة «أبو أيوب المالكي» إلى الرملة لقتال حاميتها التي كان يقودها «تذارق»، وانصرف عمرو لقتال الكتلة الرئيسية من قوات الروم والتي كانت متمركزة في أجنادين بقيادة «أرطبون».

استمر الصراع بعضاً من الوقت من دون الوصول إلى الحسم وكان عمرو في حاجة لمزيد من المعلومات حتى يستطيع معرفة نقاط الضعف في دفاع خصمه؛ ولم يتمكن من الوصول إلى هذه المعلومات بمختلف الوسائل نظراً لتدابير الحيطة القوية التي فرضها أرطبون، فقرر عمرو الذهاب بنفسه للاستطلاع؛ ودخل على أرطبون كرسول من قبل عمرو وأبلغه ما يريد؛ وسمع كلامه؛ وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. وقال: أرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو، أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه؛ وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظمَ عليهم من قتله. ثم دعا حرَسياً؛ وهمس إليه بقتله، وقال له: اخرج فأقم في مكان كذا وكذا؛ فإذا مَرَّ بك فاقتله. وفطن له عمرو، فقال: قد سمعتَ مني وسمعت منك، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً؛ وأنا واحد من عشرة؛ بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه - «نعاونه ونساعده» - ويشهدنا أموره، فأرجع فأتيك بهم الآن؛ فإذا رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير؛ وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك. فقال: نعم. ودعا رجلاً فسارَّه - همس في أذنه - وقال له: اذهب إلى فلان، فرده إليَّ. فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق، فجئ بأصحابك. فخرج عمرو؛ ورأى ألا يعود لمثلها[1]. وعلم الرومي بأن عمرو قد خدعه فقال: «خدعني الرجل؛ هذا أدهى الخلق». فبلغت أمير المؤمنين عمر فقال: «غلبه عمرو؛ لله در عمرو».

نظم عمرو هجوماً قوياً بعد أن عرف نقاط الضعف في دفاع عدوه، وقاد «أرطبون» قواته في معارك طاحنة، واقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك، واستمر الصراع في أجنادين حتى كثرت القتلى بينهم. ثم إن «أرطبون» انهزم في الناس

---

(١) وكان كثيراً ما يردد بعد ذلك: «لا والذي نجاني من أرطبون».

فأوى إلى إيلياء ـ بيت المقدس ـ ونزل عمرو بأجنادين. ولما أتى «أرطبون» إيلياء، أفرج له المسلمون حتى دخلها، ثم أزالهم إلى أجنادين، وانضم علقمة ومسروق، ومن لحق بهما من قوات الدعم، إلى قوات عمرو بن العاص في أجنادين[1].

ما أن استقر أرطبون في إيلياء حتى كتب إلى عمرو بأجنادين رسالة جاء فيها: «إنك صديقي ونظيري؛ أنت في قومك مثلي في قومي؛ ووالله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين؛ فارجع ولا تَغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة». وأجابه عمرو: «جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خَصْلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً ـ لوزرائه ـ فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك». وأرسل عمرو من يتجسس له الأخبار؛ فعلم أن أهل بيت المقدس مصممون على عدم الاستسلام إلا للخليفة عمر؛ فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يستمده ويقول: «إنني أعالج حرباً كؤوداً هدوماً، وبلاداً ادُّخرت لك؛ فرأيك». وما أن وصلت الرسالة إلى الخليفة حتى غادر المدينة المنورة وتوجه إلى الجابية، وكان في استقباله أمراء المسلمين، فيما عدا عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فإنهما لم يتحركا من مكانهما، وفتحت إيلياء صلحاً.

وعقد الصلح أمير المؤمنين عمر مع أهالي بيت المقدس بعد أن هرب منها «أرطبون»[2]. وعين أمير المؤمنين والياً على إيلياء ـ بيت المقدس ـ هو علقمة بن مجزز، كما عين علقمة بن حكيم على الرملة، بعد أن صالحه أهلها على مثل صلح بيت المقدس. وهنا غادر شرحبيل وعمرو بن العاص أجنادين وتوجها إلى الجابية، فوصلاها وكان أمير المؤمنين عمر راكباً فقبَّلا ركبتيه؛ وضم عمر كل واحد منهما محتضنهما.

انصرف عمرو بَن العاص لتنظيم أمور فلسطين بعد أن تم له فتح كل مدنها

---

(١) **أجنادين**: موقع معروف من نواحي فلسطين، وهو قريب من الرملة. **والرملة**: مدينة عظيمة بفلسطين بينها وبين بيت المقدس ١٨ ميلاً. معجم البلدان ١/١٢٦ و٤/٢٨٦.

(٢) كان أرطبون وتذارق قد هربا إلى مصر ـ خلال هذه الفترة؛ وعندما علما بقدوم أمير المؤمنين عمر إلى الجابية ـ ثم هرب أرطبون بعد فتح مصر وانضم إلى قوات الروم وأخذ في الإغارة على ثغور بلاد المسلمين إلى أن قتله في معركة «إحدى الصوائق» رجل من قيس يقال له ضريس. (الطبري) ٣/٦٠٨ و٦١٢.

وأشهرها غزة وسبسطية، ونابلس واللد ويبنى وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفح، ولم تبق هناك غير قيسارية ممتنعة على المسلمين. وفي عام (١٧هـ)، قام أمير المؤمنين عمر، بالتقدم إلى الجابية والنزول فيها لمتابعة أمور الدولة وإعادة تنظيم شؤونها.

وتصادف في تلك الفترة انتشار طاعون عمواس الذي قضى على **٢٥** ألف مسلم. واجتمع عمرو بن العاص بالخليفة عمر؛ واستأذنه في فتح مصر وكان مما قاله له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم». فتردد الخليفة عمر؛ وبعد إلحاج وافقه. وكان ابن العاص قد سافر إلى مصر في التجارة؛ واطلع على أحوالها في الجاهلية؛ وعرف ما بها من خيرات، ولكن الخليفة عمر لم يوافق بصورة جازمة؛ وإنما اشترط على عمرو بن العاص التمهل في الأمر؛ وانتظار القرار النهائي، وكان مما قاله لعمرو بن العاص: «إني مرسل إليك كتاباً، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر، قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف؛ وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره».

ومضى عمرو بجيش لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل ميمماً شطر وادي النيل.

جدول عمليات فتح مصر[1]

تسلسل الأحداث	السنة الهجرية	التاريخ الميلادي	موجز الأحداث
١	١٨هـ	١٢ كانون الأول «ديسمبر» ٦٣٩م	وصول عمرو بن العاص إلى حدود مصر.
٢	١٩هـ	٢٠ كانون الثاني «يناير» ٦٤٠م	فتح الفرما.
٣	١٩هـ	آيار «مايو» ٦٤٠م	غزو إقليم الفيوم.
٤	١٩هـ	٦ حزيران «يونيو» ٦٤٠م	وصول الدعم لقوات عمرو بن العاص.
٥	١٩هـ	تموز «يوليو» ٦٤٠م	بدء حصار حصن بابليون.
٦	١٩هـ	أيلول «سبتمبر» ٦٤٠م	توقيع المعاهدة بين المقوقس وعمرو بن العاص ورفض هرقل لهذه المعاهدة واستمرار الحصار.
٧	٢٠هـ	٦ نيسان «أبريل» ٦٤١م	استسلام حصن بابليون وهو اليوم الذي يؤرخ به الفتح الإسلامي لمصر.
٨	٢٠هـ	١٣ آيار «مايو» ٦٤١م	فتح نقيوس.
٩	٢٠هـ	حزيران «يونيو» ٦٤١م	بدء الهجوم على الإسكندرية.
١٠	٢٠هـ	٨ تشرين الثاني «نوفمبر» ٦٤١م	استسلام الإسكندرية.
١١	٢١هـ	١٧ أيلول «سبتمبر» ٦٤٢م	إجلاء الروم عن الإسكندرية.
١٢	٢٥هـ	نهاية عام ٦٤٥م	ثورة الإسكندرية ودعم الروم لها.
١٣	٢٦هـ	صيف ٦٤٦م	الفتح الإسلامي الثاني للإسكندرية.

(١) وفقاً لما جاء في «فتوح مصر والمغرب» ـ ابن الحكم.

٣ ـ فتح مصر وولايتها

أ ـ الوضع العام قبل الفتح

الموقف السياسي والديني: انتصر أوكتافيوس على جيش أنطونيوس وكليوبطرة في سنة ٣١ق.م، وذلك في عهد مؤسس الامبراطورية الرومانية أوغسطس قيصر[١]، واستولى الرومان على مصر في السنة التالية ٣٠ق.م، وجعل أوغسطس من مصر مخزناً يمد الامبراطورية بمتطلباتها من المواد التموينية والغذائية. وتدهور الموقف في مصر من الناحيتين العلمية والاجتماعية؛ وفقد المصريون السلطة في بلادهم بعد أن حرموا من احتلال مراكز السلطة؛ وزادت الضرائب زيادة كبيرة حتى شملت الأفراد والممتلكات؛ فكانت تجبى على الصناعات والأفراد وحتى الأراضي والماشية. ولم تكن الضرائب مفروضة على أنواع محددة من السلع؛ وإنما كانت تجبى من المارة؛ رجالاً ونساء؛ تجاراً وغير تجار؛ ومن عمال السفن وزوجات الجنود، وحتى أثاث المنازل. ولم تقف تلك الضرائب على الأحياء، وإنما تجاوزتها إلى الأموات، حتى إنه لم يكن يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة. وألزم المصريون أيضاً بإيواء من يمر بهم من الموظفين المدنيين والعسكريين الرومانيين؛ وتزويدهم بما

(١) **أوغسطس قيصر** Auguste (Caesar Octavianus): امبراطور روماني عرف في البداية باسم أوكتاف Octave وهو الحفيد الأصغر «ليوليوس قيصر». ولد في روما قبل ميلاد السيد المسيح ب٦٣ سنة؛ وتوفي في نول في سنة ١٤م، واستطاع في البداية تحقيق انتصارات رائعة مع أنطونيوس وليبيد، فوحَّد إيطاليا والغرب ثم أصبح السيد الأوحد ـ الديكتاتور ـ بعد انتصاره على «أنطونيوس» «في معركة أكتيوم» سنة ٣١ق.م. وتلقى لقب «أوغسطس» أو «العظيم» في سنة ٢٧ق.م. وقضى على عوامل التفرقة والانقسامات التي كانت تحدثها الاختلافات في المجالس التشريعية الرومانية، وقسم إيطاليا إلى أقاليم حتى تسهل إدارتها والسيطرة عليها، وحتى يتم له فرض الضرائب المناسبة، وأدى ذلك إلى المركزية القوية في الدولة. ووجَّه حملات إلى إسبانيا وأوروبا حقق فيها انتصارات رائعة، وعرف عهده بعهد الرخاء والعمران والازدهار الاقتصادي.

يحتاجون إليه؛ وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم، كما ألزموا في السنين الأخيرة بأن يقوموا بتقديم الطعام للجنود، وقد أدت هذه الأعباء إلى ضعف المصريين وخمولهم، وازداد سخطهم على الحكم الروماني[١].

كانت الامبراطورية تدين بالوثنية يوم احتلت مصر، وما لبث الدين المسيحي أن أخذ في الانتشار على امتداد الامبراطورية، واستمر الأمر كذلك حتى عهد الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) الذي اعترف بالديانة المسيحية وساوى بينها وبين الأديان الأخرى سنة (٣٢٣م)، وتجاوز ذلك عندما منح المسيحيين بعض الامتيازات إلى أن جعل الامبراطور تيودوسيس (٣٧٨ - ٣٩٥م) المسيحية هي الدين الرسمي للدولة. ولم يكن هذا الإجراء في واقعه سوى عملاً سياسياً أكثر منه دينياً؛ إذ كان الهدف في الواقع هو ربط أجزاء الامبراطورية برابطة قوية يمكن لها تحقيق الوحدة التي كان يتطلع إليها، فوجد في الدين المسيحي تلك الرابطة التي كان يريدها. لكن هذه الوحدة لم تتحقق، فقد ظهر الخلاف بين جماعة أديوس الذي كان يقول إن المسيح أشرف مخلوق ولكنه دون الله، وأثناسيوس الذي كان يرى أنه من روح الله وأنه يساويه في اللاهوت وأن العلاقة بينهما أبدية، وهو ما يعبر عنه بمبدأ التثليث. وأفاد الامبراطور من هذا الخلاف فطلب عقد «مجمع نيقية» في آسيا الصغرى سنة (٣٢٥م) بهدف التوفيق بين هذه الآراء، وكان من نتيجة ذلك ظهور انقسام جديد بين المسيحيين الأرثوذكس (أو المتمسكين بالدين القويم؛ وأصحاب الرأي القويم) وبين الكاثوليك؛ وهم أتباع الكنيسة الجامعة؛ أي: «كنيسة روما» ومن أنصار أثناسيوس. وهكذا لم يكد المصريون يتخلصون من الصراعات بين الوثنية والمسيحية حتى وقعوا تحت ثقل الصراعات المذهبية. فقد كان المسيحيون في مصر من أنصار الأرثوذكسية في حين كان أباطرة روما كاثوليكيين، وكان لا بد أن يضاف إلى ذلك اضطهاد الدولة للوثنيين بعد أن تبنت الدولة الديانة المسيحية.

وكان في مصر عدد غير قليل ممن بقوا على الوثنية. وظهر بعد ذلك خلاف جديد عندما اعتنق الأقباط في مصر مذهب «يعقوب البراذعي» وحمل أتباعه اسم «اليعاقبة» في حين كان الروم يدينون بمذهب الملكيين[٢]، مما دفع الامبراطور

---

(١) History of Egypt under Roman.Rule, Milne, pp.115-125.

(٢) **المذهب اليعقوبي**: يقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح وذلك بعد =

إلى عقد مجمع «قونية» مرة أخرى في سنة (٤٥١م) وذلك في عهد مرقيانوس (٤٥٠ ـ ٤٥٧م). وهكذا فعندما ظهر الإسلام كان سكان مصر يشكلون طبقتين متميزتين:

الأولى: طبقة الروم البيزنطيين، ومركزهم الإسكندرية، وأكثرهم من رجال الدولة والجند والتجار ورجال الدين.

والطبقة الثانية: هي طبقة الأقباط من سكان البلاد الأصليين وعاصمتهم «بابليون». وكان يخالط هذه الطبقة بعض المولدين من اليونان ـ البطالسة ـ الذين كانوا قد أقاموا في مصر لمدة ثلاثة قرون قبل احتلال الرومانيين لمصر، بالإضافة إلى الوافدين إلى مصر أو المقيمين فيها من تجار وغيرهم، وفيهم من العرب أبناء الشام واليمن والعراق والنوبة وأفريقيا.

وعلى الرغم من بقاء مصر تحت حكم الرومان لمدة ستة قرون، فقد كان هناك انفصال بين الطبقتين في اللغة والعادات؛ بسبب اعتداد الرومان؛ كمحتلين؛ وعدم اختلاطهم إلا بقدر محدود مع السكان الأصليين.

ب ـ الموقف العسكري عشية الفتح

سقطت الدولة الرومانية الغربية في سنة (٤٧٦م)، وورثت الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية جميع فضائل الدولة الرومانية؛ وحتى ممتلكاتها؛ وأخذت الدولة البيزنطية في إعادة التنظيم؛ ووصلت الامبراطورية أوج قوتها في عهد جوستينيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) حيث عمل جوستينيان، على استبعاد الحرس المتحرك، وحاول ملاءمة تنظيم الجيش مع العدو الرئيسي المحتمل الذي لم يكن سوى الخيالة النبالة. وأصبحت الخيالة الثقيلة هي السلاح الفعال الأول بعد أن جهزت للصدمة والرمي. وأصبح الخيال البيزنطي الثقيل المحمى بدروع من الزرد يحمل قوساً قوياً وسيفاً ورمحاً طويلاً. وأصبحت المشاة الثقيلة المحمية بدرع من الزرد تحمل بدورها القوس والسيف والرمح الطويل. وظهرت مصالح الإدارة والهندسة بشكل منظم جيد لأول مرة. وقسمت الجيوش إلى قطعات من سلاح واحد؛ وأسلحة مختلفة ومؤلفة من أقسام ثلاثة:

= التجسد. أما المذهب الملكي: فيقول أتباعه إن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق، اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصار واحداً وهو المسيح.

١ ـ الخيالة.

٢ ـ الفرقة المختلطة.

٣ ـ الجمهرة المختلطة.

وكانت قوات الخيالة منظمة على شكل ألوية؛ يضم اللواء منها ٣ آلاف فارس؛ وينقسم اللواء إلى ثلاثة أفواج؛ في كل فوج منها ثلاث سرايا. أما الفرقة المختلطة فكانت تضم ٢٠ ألف رجل موزعين إلى ثلاثة ألوية، في كل لواء منها ثلاثة أفواج، ويتألف الفوج من عشر سرايا نصفها من الخيالة ونصفها الآخر من المشاة. وكانت الجمهرة المختلطة تتألف من ١٣٠٠ فارس و٤ آلاف جندي مشاة.

وكان التسلسل العسكري منظماً على الشكل التالي: «البطريق» قائد ثلاثة ألوية، أو عشرة آلاف مقاتل، وبإمرة البطريق قائدان يسمى كل منهما «طومرخان» يتولى قيادة خمسة آلاف جندي ـ أو لواء ـ وبأمر كل «طومرخان»خمسة ضباط «طرنجاريه» يقود الضابط منهم ألف رجل، وبإمرة الضابط من هؤلاء خمسة ضباط «قومس» يتولى الواحد منهم قيادة مائتي جندي وبأمرة كل ضابط من هؤلاء عدد من ضباط الصف «قمطرح» يقود الواحد منهم عشرة رجال.

كانت القوات البيزنطية منظمة على أساس المناطق العسكرية بحيث تضم كل منطقة مجموعة من الفرق المدعمة بحاميات الحدود المسلحة بالأسلحة الدفاعية. أما الاحتياط العام فكان مؤلفاً من جمهرات ـ قوات مختلطة ـ مقسمة إلى جميهرات مختلطة. وكانت بعض المناطق العسكرية الهامة ـ المرتبطة بتحصينات الممرات الإجبارية ـ ممسوكة بالقطعات المحاربة بصورة دائمة. ونظراً لتعرض الامبراطورية البيزنطية للهجمات الدائمة، فقد أقامت على امتداد حدودها في مصر ـ كما في الغرب ـ وعلى امتداد الصحراء مجموعة متصلة من الحصون، كجدار الصين، أطلقت عليها ليمات ـ مجموع ليم ـ وكان الليم يضم المؤن والمواد الضرورية للدفاع الطويل ريثما تتدخل القوات المتحركة ضد القوات المعادية التي تقوم بالهجوم.

وكانت الاستراتيجية البيزنطية تعتمد على الحيطة والأمن اعتماداً كلياً، كما كانت تعطي الاستطلاع اهتماماً خاصاً. وفي حالة الهجوم كانت حاميات المناطق العسكرية تتحرك لتتلاقى عند العدو، ثم تحاول الاشتباك معه وتطويقه. أما في الدفاع فكانت الجمهرات المختلطة وقوات المناطق العسكرية تتجمع على الطريق العسكري الآسيوي لتقوم بالهجوم المعاكس.

وكانت الامبراطورية البيزنطية بحكم تكوينها قوية في مجال القدرة البحرية. ومن المعروف أن البحر الأبيض المتوسط كان يحمل خلال تلك الفترة اسم «بحر الروم»، وكان الأسطول البيزنطي يضمن الاتصال مع مصر، ومع جميع المستعمرات البيزنطية في شمال أفريقيا.

كان في مصر، عشية الفتح الإسلامي، أكثر من خمس فرق ـ ما يزيد على ١٠٠ ألف جندي ـ وكان هؤلاء على درجة عالية من الكفاءة والتدريب. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك جيش من أبناء البلاد؛ بقيادة ملكها المقوقس؛ ولكن هذا الجيش كان دون قوة جيش الروم قوة وتنظيماً، كما أن هناك قوة من الروم انضمت إلى مصر بعد احتلال المسلمين للشام. ولقد أثر انقطاع الاتصال البري بين البيزنطيين فيما وراء الدروب وبين مصر على الحاميات البيزنطية الموجودة فيها؛ إلا أن بقاء القدرة البحرية البيزنطية ضَمن الاتصال بهذه الحاميات بقوة وفاعلية.

ومن المحتمل هنا القول إن الصراعات الدائمة بين القوتين العسكريتين البيزنطية والفارسية قد أضعفت القوتين؛ ولكن هذا الاحتمال الذي اعتمده الغربيون باستمرار لانتقاص الكفاءة الحربية العربية يزول عند معرفة ما كانت تقوم به الامبراطورية من إعادة تنظيم مستمرة لقواتها بعد كل حرب، وأنه كان قد مضى على آخر حرب بين الدولتين العظميين، في ذلك العصر، فترة غير قصيرة سمحت لهما ـ معاً ـ بإعادة التنظيم؛ والاستعداد لحروب جديدة، وعلى هذا يمكن القول ـ يقيناً ـ إن القوات البيزنطية في مصر لم تكن ضعيفة لا في عددها ولا في عتادها، ولكن القوة المعنوية للمسلمين كانت أقوى وأكبر.

جـ ـ الأعمال القتالية

(إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً)[1].

(بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك) مرتين؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/ ٦٤].

(١) حديث شريف، صحيح مسلم ص٢٥٤٣، فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر.

كانت تلك هي رسالة رسول الله ﷺ والتي أجابه عليها المقوقس بالرسالة التالية: «لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط؛ سلام. أما بعد؛ فقد قرأت كتابك؛ وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه؛ وقد علمت أن نبياً قد بقي؛ وكنت أظن أنه يخرج بالشام؛ وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم؛ وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام»[١].

ما إن أذن أمير المؤمنين عمر بالتوجه إلى مصر حتى أسرع عمرو بن العاص من جوف الليل حتى لا يشعر به أحد من الناس؛ وقاد قواته محاولاً الوصول إلى مصر قبل أن يعدل أمير المؤمنين عن قراره الأولي، ولكن أمير المؤمنين تخوف على المسلمين، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين. وأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه خشية أن يكون فيه أمر يمنعه من فتح مصر، وتابع سيره حتى نزل بقرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر؛ فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، وقال عمرو لمن معه: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟». . قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع؛ ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا، على بركة الله.

كانت العريش أول قاعدة مصرية متقدمة اصطدم بها جيش المسلمين؛ ولكن هذه القاعدة لم تصمد طويلاً، فتم احتلالها؛ وتابع عمرو بن العاص تقدمه عبر الطريق الساحلي التقليدي[٢] وكانت أخبار تقدم المسلمين تسبقهم إلى مصر؛ فقد كانت عيون الروم «البيزنطيين» قد وصلت إلى مصر وأعلمت المسؤولين فيها أن هذا الجيش هو الذي فتح مدن: طرابلس وصور وجبلة وأجنادين وسائر مدن

---

(١) كانت الجاريتان هما «سيرين» التي زوجها الرسول ﷺ إلى حسان بن ثابت و«مارية» التي تزوجها الرسول فولدت له إبراهيم. أما المقصود بحديث الرسول عن أهل مصر، وضرورة مراعاة الذمة والرحم فهي قرابة الرحم بهاجر أم إسماعيل عليه السلام والتي كانت مصرية.

(٢) هناك ثلاثة محاور رئيسية للتقدم عبر سيناء ولكن أفضلها هو الطريق الساحلي الموازي للبحر؛ والذي كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج منذ أقدم العصور؛ وهو الطريق الذي سلكه يوسف عليه السلام عندما سار من الشام إلى مصر أيام الفراعنة؛ وطريق «قمبيز» ملك الفرس حين سار لغزو مصر، والإسكندر المقدوني عندما توغل في الشرق فاحتل مصر ووصل إلى الهند، وهو الطريق الذي سلكه اللنبي في الحرب العالمية الأولى عندما توجه لحرب الأتراك العثمانيين.

فلسطين، وقد دفع ذلك المقوقس إلى إرسال مفارز من قواته إلى جميع أطراف بلاده مما يلي الشام، بأن لا يتركوا أحداً من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب في قلوب قومه.



محور تحرك عمرو بن العاص عند فتح مصر عام (١٨هـ/٦٣٨م)

اخترق عمرو بجيشه الصحراء حتى وصل الفرما[1]، في حدود مصر؛ وهناك اصطدم بمقاومة قوية لم يتمكن من تجاوزها بسهولة؛ فاستمرت الحرب حول الفرما شهراً؛ وقاتل الروم قتالاً شديداً إلى أن تمَّ انتزاع النصر، وكان القبط عوناً للمسلمين في حربهم ضد الروم.

تابع عمرو بن العاص تقدمه عبر أرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء (استحالت اليوم إلى رمال) حتى وصل مدينة مجدل[2] ومنها إلى القواصر ثم إلى بلبيس، التي كان يدافع عنها أرطبون. وقد سلك عمرو هذا المحور حتى يتجنب الطريق التقليدي الذي كان يسلكه الفاتحون والذي تعترضه المستنقعات مما كان يحد من حركة فرسان المسلمين لو اتبعوه.

عندما علم المقوقس بقدوم عمرو بن العاص إلى مصر؛ توجه إلى بابليون وأخذ في تجهيز الجيوش ضد عمرو بن العاص. وكان على القصر[3] قائد من الروم يقال له: «الأعيرج» ـ وهو القائد «جورج الروماني» ـ وكان يعمل على تنفيذ أوامر المقوقس، وقيادة الدفاع. وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له بنيامين، لعل أصله يهودي، ما أن بلغه قدوم عمرو بن العاص حتى كتب إلى القبط يعلمهم أنه لن تكون هناك دولة للروم في مصر بعد هذا التاريخ وأن ملكهم قد انقطع، ويأمر القبط بتلقي عمرو وعدم مدافعته أو محاربته.

---

(١) **«الفرما»** اسم عربي لمدينة «بلوز» وكان القبط يسمونها «برمون»، وكانت على مرتفع من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر؛ وكان بها مرفأ بحري يتصل بخليج على البحر؛ كما كان هناك فرع من فروع نهر النيل يسمى «البلوزي» يهوي إلى البحر بقربها. وكانت «الفرما» مدينة حصينة وقوية تضم كثيراً من آثار المصريين القدماء؛ كما كان بها كنائس وأديرة. وقد نظم الروم الدفاع عنها على اعتبار أنها مفتاح مصر من الشرق، إذ أنها تشرف على الطريق الصحراوي؛ وتملك ناصية البحر؛ وقد عمل الفرس على تدمير حصونها وأسوارها وخربوا كنائسها أثناء اجتياحهم لمصر، ولكن الروم عادوا فأصلحوا الحصون والأسوار حتى أصبحت الفرما منيعة على المغيرين.

(٢) مجدل: Migdol، وهي القنطرة شرق حالياً. والواقعة على قناة السويس، وكانت «مجدل» أول مركز يلي الصحراء بعد «الفرما».

(٣) هو قصر الشمع ـ مكانه الآن الدير المحرق بمصر القديمة ـ وقد بني هذا القصر بعد خراب مصر على يد «بخت نصر». واختلف المؤرخون حول تاريخ بناء هذا القصر، ومن عمل على تشييده من الملوك، وقد سمي قصر الشمع «لأن الشمع كان يوقد فيه، في رأس كل شهر، ليعلم الناس أن الشمس قد انتقلت من برج إلى برج». وكانت الكنيسة المعلقة بمصر القديمة تقع على باب هذا القصر؛ ويرى بعض المؤرخين أن «قصر الشمع» هو حصن «بابليون».

كانت «أرمانوسة»، ابنة المقوقس، في طريقها إلى «قيصرية» لتزف إلى قسطنطين ابن هرقل، فلما علمت أن قيصرية قد أصبحت تحت حصار العرب المسلمين عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والهدايا والأموال، وما أن وصلت بلبيس حتى جاء العرب وحاصروها. وكان أرطبون قد دفع قوات استطلاعية للدفاع عن «بلبيس». وحدثت معركة قصيرة وحاسمة سقط فيها من الروم ألف قتيل وأكثر من ثلاثة آلاف جريح، وعادت فلول هذه القوة فالتجأت إلى أسوار «بلبيس» واحتمت بتحصيناتها. وعندما علم المقوقس بحصار ابنته في بلبيس مع علمه بما تعرضت له حاميته من هزيمة منكرة، أظهر ميلاً للاتصال بالمسلمين وعقد صلح معهم، وعقد مؤتمراً مع بطارقته؛ وناقشهم في الموقف بعد أن أزال المسلمون قوات الروم عن الشام وقوات الفرس عن العراق. ونصح قومه بعقد الصلح، ولكن كبار قادته قاوموه ووثبوا عليه يريدون قتله فأوقف من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف، وقال لوزيره: اكتب إلى ابنتي كتاباً تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الأمان وتنفذهم إلينا.

حاول أرطبون التعويض عن هزيمته بفلسطين، فأظهر مقاومة ضارية، وقاتل المسلمون قتالاً شديداً تزيد على الشهر؛ وفي النهاية؛ نظم هجوماً قوياً بعد أن ترك الأثقال مع عامر بن ربيعة العامري. وانتصر المسلمون؛ ووقعت «أرمانوسة» أسيرة في قبضة عمرو بن العاص، الذي وجهها إلى والدها مع ما تستحقه من الحماية والرعاية. وكان لهذا الموقف أثره في تدعيم ثقة القبط بالمسلمين، ولكن ما أن أخذ جيش المسلمين في التحرك من بلبيس في اتجاه «تليوب» حتى أخذ أهل القرى والحقول في الفرار من وجه جيش الفتح، فأرسل إليهم عمرو من يطمئنهم، ويطلب إليهم «عدم الرحيل من بلادهم وأن الجيش الإسلامي لن يطلب أكثر مما يتم تقديمه له من مواد التموين والعلف». واستجاب السكان لذلك، وتوقف عمرو في تليوب ثم غادرها في اتجاه «تندونياس»[1] حيث كانت

---

(١) **تندونياس**؛ هي التي أطلق عليها المسلمون بعد ذلك أم دنيْن ثم سميت «المقس»، وهي إلى الشمال من حصن بابليون، وكانت «ميناء مصر» زمن الفتح الإسلامي. ويذكر بعض مؤرخي الغرب أنه لما تأخر فتح بابليون استخدم عمرو بن العاص السفن الموجودة في مسلحة أو قاعدة أم دنين ودفع بها بعضاً من قواته لفتح الفيوم، وهي العدوة القصوى. ويعتمد الغربيون في ذلك على ما جاء في ديوان «حنا النقيوسي». ولكن مؤرخي العرب يخالفون هذا الرأي ويذكرون أن فتح الفيوم كان بعد سقوط حصن بابليون، وهذا أقرب إلى التصديق نظراً لموقف عمرو بن =

في انتظاره المقاومة المنظمة والقوية. وتوقف عمرو أمام تلك المقاومة؛ ودارت معارك ضارية، وأبطأ عليه الفتح؛ فكتب إلى أمير المؤمنين عمر يستمده، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل وكتب إليه:

«**أما بعد، فإني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم الزبير بن العوام؛ والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت؛ ومسلمة بن مخلد ـ وقال آخرون بل خارجة بن حذافة، الرابع، ـ لا يعدون مسلمة ـ وقال عمر بن الخطاب: إن معك اثني عشر ألفاً؛ ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة**». . وكان عمرو قد نظم مواقعه؛ وحفر الخنادق؛ وزاد من تفريق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم. وعندما علم عمرو باقتراب الدعم توافرت لديه معلومات تقول إن «تيودور»، قائد الروم، قد صمم على مهاجمة المسلمين قبل أن تنضم إليهم قوات الدعم، وتأكدت هذه المعلومات عندما خرج «تيودور» بقواته نحو «هليوبوليس ـ أو عين الشمس»، وكانت على مسافة ستة أميال من معسكر المسلمين، فما كان من عمرو إلا أن أرسل كتيبتين، تحت جنح الليل؛ تمركزت إحداهما عند مواقع «تندونياس» ذاتها؛ في حين تمركزت الثانية في موضع في ثنية الجبل قرب القلعة الحالية. وخرج عمرو بأكثر الجمع من العرب للقاء الروم بعد أن طلب من جند الكمينين عدم الظهور إلا عندما يسمح الموقف بالانقضاض على جناح جيش الروم ومؤخرته. وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التي كانت في الشمال الشرقي من الحصن، ولم يكن لهم علم بمكيدة عمرو. وحدث اللقاء بين الجيشين في مكان وسط بين معسكريهما، ولعله مكان العباسية الآن، ولما اشتدت المعركة؛ أقبلت الكتيبة الأولى من جهة الجبل تجتاح مؤخرة الروم؛ فاتجه هؤلاء وقد ركبتهم الهزيمة في اتجاه أم دنين، فلقيتهم قوة الكمين الآخر بها، ففر الروم يطلبون النجاة؛ ولكن سيوف المسلمين حصرتهم، فلم ينج منهم غير ثلاثمائة مقاتل؛ نزلوا إلى السفن؛ وعادوا إلى الحصن.

تدعمت قوة عمرو بوصول الإمدادات؛ فأرسل قوة قتالية من خمسمائة فارس، بقيادة خارجة بن حذافة، للالتفاف حول التحصينات؛ ونظم عمرو هجوماً جبهياً قوياً، وحملت الخيل التي كانت من وراء الروم؛ واقتحمت عليهم فانهزموا وسقطت تندونياس في قبضة المسلمين.

= العاص وضعف قوته العددية، مما دفعه إلى طلب الدعم من الخليفة.

انصرف عمرو لإعادة تنظيم قواته والاستعداد للمرحلة التالية، وجعل من تندونياس، أو أم دنين، قاعدة له، وتوجه بعد ذلك إلى حصن بابليون ونظم الحصار حوله، وتصادف ذلك مع بداية «فصل الفيضان».

حاصر المسلمون حصن بابليون، وكان به جماعة من الروم وقادة القبط ورؤساؤهم وعليهم «المقوقس»[1] واستمر القتال شهراً؛ عرف القبط خلاله جد العرب وتصميمهم على فتحه؛ وصبرهم على القتال ورغبتهم في النصر، فخاف المقوقس أن يظهروا عليهم، فتنحَّى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي، ودونهم جماعة يقاتلون العرب بقيادة «الأعيرج»[2] حتى لحقوا بالجزيرة، وهي «جزيرة الروضة التي أنشئت فيها دار صناعة السفن فيما بعد»[3] وأمروا بقطع الجسر. وأخذت الروح المعنوية للقبط بالتدهور، وظهرت الانقسامات فيما بينهم، فجمع المقوقس من يثق بهم واستشارهم سراً في الأمر، وأرسل إلى عمرو بن العاص رسالة جاء فيها:

«أنتم قد ولجتم في بلادنا؛ وألححتم في قتالنا؛ وطال مقامكم في أرضنا؛ وإنما أنتم عصبة يسيرة؛ وقد أظلتكم الروم؛ وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل؛ وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجلاً منكم نسمع من كلامكم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنكم وعنا هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه؛ ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم؛ فابعث إلينا رجلاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى به نحن وهم من شيء».

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم يومين وليلتين؛ حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: «أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟».

---

(١) يطلق المؤرخون اسم «**المقوقس**» على حاكم مصر في ذلك العصر إطلاقاً خاطئاً، والمقصود بالمقوقس، هو «قبرس» بِطْرِيق الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج عن أرض مصر.

(٢) **الأعيرج**: هو جورج، قائد حرس الحصن ويقال له: «المندفور القبطي»، وكان يدير مصر من قبل «المقوقس» وبأمره. وقد بقي في الحصن حتى يقضي على ما يقال من خروج «المقوقس» وحتى لا تضعف عزيمة القوم وتصميمهم.

(٣) فتوح مصر والمغرب ص٩٦.

لقد أراد عمرو بذلك أن يري رسل المقوقس حال المسلمين، ثم ردَّ عليه عمرو مع رسله: «. . . ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:

١ ـ الإسلام، فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

٢ ـ وإن أبيتم، فالجزية عن يد وأنت صاغرون.

٣ ـ وإما أن نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وعادت رسل المقوقس إليه؛ فقال لهم: كيف رأيتموهم؟ قالوا: «**رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة؛ والتواضع أحب إليه من الرفعة؛ ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة؛ إنما جلوسهم على التراب؛ وأكلهم على ركبهم؛ أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم؛ ولا السيد منهم من العبد؛ وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد؛ يغسلون أطرافهم بالماء؛ ويتخشعون في صلاتهم**». فقال المقوقس، عند ذلك: «والذي يحلف به. . . لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد؛ ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم؛ وهم محصورون بهذا النيل؛ لم يجيبونا بعد اليوم إذا مكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم». وردَّ المقوقس على «ابن العاص» طالباً إرسال رسل من العرب المسلمين، للتفاوض معهم؛ والاتفاق على ما عساه أن يكون خيراً للطرفين؛ فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت. وكان عبادة ضخماً، فيه وحشية البداوة على ما يظهر وقسوتهم، فطلب المقوقس تنحيته ولكن الوفد رفض إجراء الحوار إلا مع عبادة. وانتهت المباحثات إلى اتفاق يتم بموجبه فرض الجزية بمعدل «دينارين» على كل رجل منهم؛ وكتب المقوقس إلى ملك الروم هرقل يعلمه على وجه الأمر كله؛ فكتب إليه ملك الروم: «. . . إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً؛ وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى؛ فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا؛ فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة؛ والعرب وحالهم وصفتهم على ما قد رأيت؛ فعجزت عن قتالهم؛ ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء. ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر ـ تنتصر ـ عليهم. وإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم «كأكلة»، فناهِضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك».

وكتب ملك الروم إلى جماعته في مصر كتاباً بمثل ذلك. وأقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص، فقال له: «لقد كره الملك ما فعلت؛ وعجزني؛ وكتب إليَّ وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك؛ وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم؛ ولم أكن لأخرج عما دخلت فيه وعاقدتك عليه؛ وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني؛ وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأتِ من قِبَلهم نقض، وأنا متم لك على نفسي؛ والقبط متمون لك الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم؛ وأما الروم فأنا منهم بريء. وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال:

١ ـ ألَّا تنقض بالقبط وأدخلني معهم؛ وألزمني ما يلزمهم؛ وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك على ما تحب.

٢ ـ إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم، فلا تفعل حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل ذلك لأني نصحتهم فاستغشوني؛ ونظرت لهم ـ وأخلصت ـ فاتهموني.

٣ ـ أطلب إليك إن أنا مُتُّ أن تأمرهم فيدفنوني في «أبي كنيس» بالإسكندرية»[١].

جاء هذا الاتفاق دعماً للمسلمين الذين مضى على حصارهم لحصن بابليون سبعة أشهر ونيف لم يتوقف خلالها القتال. فنظم عمرو هجوماً قوياً، ووضع المنجنيق وأخذ في قصف التحصينات والأسوار[٢]. وقام الزبير بن العوام باستطلاع الأسوار؛ ونادى بالمسلمين: «إني أهب نفسي لله؛ أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين». ووضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد؛ وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً؛ فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبِّر ومعه السيف. وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر؛ فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه؛ وكبَّر، وكبَّر من معه؛ وأجابهم المسلمون من خارج؛ لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا

---

(١) فتوح مصر والمغرب، ابن الحكم ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) وفيه قال عمرو بن العاص:

يوم لهمدان ويوم للصدف ... والمنجنيق في بَلَي تختلف

وعمرو يرقل إرقال الشيخ الخرف

والإرقال: الإسراع في السير.

جميعاً، فهربوا. وأسرع الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن. ومضى الأعيرج، ومن معه من قادة القبط، إلى سفن كانوا قد تركوها ملصقة بجدار الحصن، واستقلوها حتى وصلوا إلى جزيرة الروضة.

توقف عمرو في حصن بابليون، وأخذ في تنظيم أمور المجتمع الجديد، ووجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثال صلح الفسطاط.

ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم، والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد فصالحها أيضاً على مثل صلح الفسطاط، كما وجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة ونبا وبوصبر فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضاً. ووجه عقبة بن عامر الجهني ـ ويقال وردان، مولاه ـ إلى سائر قرى أسفل الأرض، الوجه البحري، ففعل مثل ذلك. وبذلك استجمع عمرو فتح مصر، فصارت أرضها أرض خراج.

كان عمرو بن العاص قد أرسل إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه عن فتح بابليون ويستأذنه في فتح الإسكندرية، وجاءت الموافقة على متابعة الفتح، فاستخلف على مصر خارجة بن حذافة العدوي، وغادر بجيشه بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط الذين عملوا على إصلاح الطرق وإقامة الجسور وتنظيم الأسواق، وتقديم كل معونة ممكنة لجيش المسلمين. واختار عمرو بن العاص التحرك على الضفة الغربية للنيل، من ناحية الصحراء، حيث يتوافر المجال لتحرك القوات وعمل الفرسان من دون عائق من تلك العوائق، وبذلك استطاع «عمرو» تجنب أرض الدلتا مع ما بها من قنوات وترع كثيرة.

عندما وصلت قوات المسلمين إلى «ترنوط»[1] اصطدمت بقوة للروم، وحدثت اشتباكات عنيفة استمرت ثلاثة أيام؛ استطاع المسلمون بعدها انتزاع النصر، وتمزقت قوات الروم، فشكل عمرو مجموعة من الفرسان بقيادة شريك بن سمي.

---

(١) **ترنوط** أو «**طرنوط**» أو «**الطرانة**»، كما يسميها العرب: مدينة قديمة كان عندها معبر يعبر النيل عليه في الذهاب إلى الإسكندرية؛ ومنها يبدأ الطريق المؤدي إلى أديرة القبط، في الصحراء الليبية. وترنوط، الحالية: قرية على النيل بمركز النخيلة المسمى الآن «مركز كوم حمادة» من أعمال «محافظة البحيرة»، وكان بها معاصر للسكر وبساتين كثيرة تتزوَّد منها الإسكندرية بالخضار والفاكهة.

استطاع «شريك» مطاردة فلول القوات حتى وصل مسافة (١٦ ميلاً) إلى الشمال من ترنوط، وهناك اصطدم بمقاومة قوية؛ يحتمل لها أن تكون قوات دعم كانت متوجهة من الإسكندرية نحو الجنوب، ولم يتمكن شريك من القضاء على هذه القوات، ولكنه استطاع إيقافها، وبعث إلى عمرو رسولاً يخبره، ويطلب دعمه؛ واستمرت الحرب حتى ظهرت طلائع قوات المسلمين؛ فتمزقت قوات الروم وأخذت في الفرار[١]، ودارت معركة طاحنة بعد ذلك في سلطيس[٢] تمزقت فيها قوات الروم.

ثم تابع المسلمون تقدمهم حتى وصلوا الكريون[٣] وكان القائد الروماني «تيودور» قد حصن المدينة ونظم حاميته القوية للدفاع عنها. وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وكان حامل علم المقدمة «وردان» مولى عمرو. وخاض المسلمون معركة قاسية، قاد فيها تيودور المعركة بكفاءة؛ وأصيب عبد الله بجراح كثيرة فقال لوردان: لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح؟ فقال وردان: الروح تريد؟.. الروح أمامك؛ وليس هو خلفك[٤]، فتقدم عبد الله واستأسد الناس، وأمكن تحقيق النصر، وهرب فلول الروم فانضموا إلى حامية الإسكندرية.

كان الروم يعلقون أملاً كبيراً على القواعد البحرية؛ ولهذا فقد بذلوا كل

---

(١) وقد أقيمت في موقع هذه المعركة قرية حملت اسم القائد المسلم وتعرف باسم «كوم شريك» وهي من قرى «كوم حمادة».

(٢) **سلطيس**؛ كذا في الأصل وصواب الاسم «سنطيس»: قرية كبيرة في منتصف المسافة تقريباً بين كوم شريك وكريون وعلى بعد ستة أميال جنوب دمنهور.

(٣) **الكريون**: مدينة قديمة؛ زارها ابن حوقل وذكر عنها في كتابه أنها كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون فيها القوارب إلى الفسطاط، التي كانت أم دنين، وذلك في وقت الصيف إذا ما علا النيل. وكانت مدينة الكريون آخر حصن «ليم» من سلسلة الحصون الممتدة للروم بين حصن بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، كما كان لها خطر كبير في الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في طعامها وشرابها؛ ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون أو حصن نقيوس.

(٤) علم عمرو بإصابة ابنه عبد الله بجراح كثيرة؛ فأرسل من يسأله عن حاله؛ فكان رد عبد الله:

أقول إذا ما جاشت النفس اصبري ... فعما قليل تحمدي أو تلامي

ويروى البيت:

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... رويدك تحمدي أو تستريحي

وخرج الرسول إلى عمرو وأخبره بما قال عبد الله، فقال عمرو: هو ابني حقاً.

جهودهم للاحتفاظ بها، وعندما علم هرقل، ملك الروم، بحصار بابليون توقع أن تكون المرحلة التالية هي استيلاء المسلمين على الإسكندرية، فجمع قادته وقال لهم: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية؛ فإن في ذلك انقطاع مُلْك الروم وهلاكهم؛ وأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية». ولما كان عيد الروم بالإسكندرية أَمَر بالاستعداد للخروج إليها؛ حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها؛ وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم. ولكن ما أن أتم استعداده وبدأ الرحلة حتى توفي[1]، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية، ولكن رغم ذلك فقد بقيت هناك حامية قوية لا تقل عن خمسين ألف جندي، وهناك بعض المصادر تحدد حجم الحامية بأكثر من مائة ألف جندي مع من انضم إليها من حاميات الأقاليم المصرية التي فتحها المسلمون؛ في حين لم يكن عدد مقاتلي جيش المسلمين يزيد على ١٢ ألف مقاتل.

وكانت حصون الإسكندرية قوية ـ منذ أيام البطالسة ـ حتى تقوى على رد غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين، وكانت هذه الحصون مزدوجة، ومجهزة بأدوات الحصار، وفيها مخزون كبير يساعدها على الصمود لفترة طويلة؛ كما كانت الإمدادات متوفرة لها عن طريق البحر.

وصلت قوات المسلمين، واحتلت مواقعها لتحاصر مدينة الإسكندرية ما بين حلوة إلى قصر فارس وإلى ما وراء ذلك؛ وكان مع هذه القوات رؤساء القبط يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلوفة. ونزل عمرو بحلوة؛ وأقام فيها لمدة شهرين والقتال مستمر بين العرب والروم، فأقلق هذا الخليفة عمر، فبعث إلى عمرو كتاباً يلومه فيه هو والمسلمين، فقرأ عمرو الكتاب على المسلمين. ثم أن عمرو خشي أن تضطرب الأمور في أم دنين وفي الجنوب بسبب انصراف قوات المسلمين إلى حرب الإسكندرية وحصارها، فقرر العودة إلى أم دنين والإقامة فيها، وعقد لواء حرب الإسكندرية إلى عبادة بن الصامت، ومضت فترة شهرين آخرين قبل أن يتمكن جند المسلمين من اقتحام الإسكندرية وفتحها عنوة، ولكن عمرو بن العاص جعل أهلها ذمة، على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم، شأن العرب مع أهالي معظم البلاد التي فتحوها. وإنما

---

(١) كان موت هرقل يوم الأحد ١١ شباط ـ فبراير ٦٤١م؛ أي: قبل سقوط بابليون، مما يدل على أن الروم كانوا يستعدون لحرب طويلة من أجل الاحتفاظ بمصر.

عامل عمرو المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحاً يستجلب محبتهم؛ ويستألفهم، وكانت أهم شروط الصلح، الذي تولى عقده المقوقس مع العرب، النقاط التالية:

١ ـ أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين في السنة.

٢ ـ مدة الهدنة ١١ شهراً.

٣ ـ يحتفظ العرب بمواقعهم مدة الهدنة، ولا يباشروا قتالاً ضد الإسكندرية، على أن يلتزم جند الروم مقابل ذلك بإيقاف كل عمل عدواني.

٤ ـ ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين.

٥ ـ أن ترحل الحامية التي بها، مع ما يملكون من أموال وأمتعة، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.

٦ ـ يبقى اليهود بالإسكندرية.

٧ ـ توقف الروم عن كل محاولة لإرسال جيش بهدف استرداد مصر.

٨ ـ أن يكون عند المسلمين ١٥٠ جندياً من الروم و٥٠ مدنياً من الرؤساء، رهينة لضمان تنفيذ هذه المعاهدة.

وكتب عمرو بعد فتح الإسكندرية رسالة إلى الخليفة عمر يعلمه بالفتح ويشرح له أحوال المدينة، وكان في رسالته: «أما بعد. فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها؛ غير أني أصبت فيها أربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك»[(١)]. ويقال: «إنه رحل عن الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو، أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو، سبعون ألف يهودي؛ وكانت عدة من بالإسكندرية، من الروم مائتي ألف من الرجال، وكان بها مائة مركب حملت ثلاثين ألفاً مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل؛ وبقي من بقي من الأسارى ممن بلغ الخراج؛ فأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان».

ما كاد عمرو بن العاص ينتهي من تنظيم أمور الإسكندرية حتى توجه بجيشه نحو الغرب على الطريق الساحلي حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ووجه عمرو قوة قتالية بقيادة عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين[(٢)].

---

(١) فتوح مصر والمغرب، ابن الحكم ص١١٧ و١٢١.

(٢) فتوح مصر، ابن الحكم، ص٢٣٠، والبلاذري ص٣١٤، والطبري ٤/ ١٤٤.

ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل أطرابلس وحاصرها شهراً ولم يقدر عليها. وخرج رجل من بني مدلج ذات يوم، من عسكر عمرو، متصيداً في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة حتى ابتعدوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر؛ فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور؛ وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتها. فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ـ كان البحر في حالة الجزر وليس في حالة المد ـ فدخلوا فيه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبَّروا، فلم يكن للروم مفزع ومهرب إلا سفنهم، وأبصر عمرو وأصحابه «الله أكبر» في جوف المدينة فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم؛ فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم؛ وغنم عمرو، ما كان في المدينة. وكان مَنْ بمدينة سبرت[1] ـ وكان اسمها «نبارة» ـ متحصنين، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة أطرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم، أمنوا. فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة أطرابلس، جرد خيلاً كثيفة من ليلته؛ وأمرهم السير بسرعة؛ فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفل أهلها؛ وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم؛ فدخلوها فلم ينج منهم أحد؛ واحتوى جند عمرو على ما فيها؛ ورجعوا إلى عمرو، وكتب هذا إلى أمير المؤمنين رسالته:

«... **إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها؛ ويفتحها الله على يديه فعل**».

فكتب إليه عمر:

«**لا... إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها؛ لا يغزوها أحد ما بقيت**»[2].

رجع عمرو بجيشه إلى قاعدته في الفسطاط، وانصرف إلى تنظيم أمور مصر. وأراد تأمين مصر من الجنوب، فأرسل مجموعة قتالية بقيادة عقبة بن نافع الفهري، فدخلت خيولهم أرض النوبة، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً؛ إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام؛ فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم؛

---

(١) **سبرت**، واسمها «نبارة» أو «السوق القديم» ويقال: إنه ربما كان عبد الرحمٰن بن حبيب هو الذي أطلق عليها اسم «نبارة» في سنة (٣١هـ).

(٢) أصدر أمير المؤمنين عمر أوامر مماثلة لإيقاف توغل المسلمين على حدود الروم وعلى حدود فارس خوفاً على المسلمين من التوسع بما يزيد على طاقتهم.

فانصرفوا بجراح كثيرة وحدق عيون مفقودة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يهاجمهم حتى عُزل عن مصر وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ فصالحهم؛ فكانت بينهم وبين المسلمين هدنة: يعطيهم المسلمون شيئاً من القمح والعدس ويعطيهم النوبيون رقيقاً.

استقر المسلمون في مصر ولكن كان من الصعب على الروم الاعتراف بهزيمتهم؛ أو التسليم بما أحرزه المسلمون من نصر؛ وأفادوا من تفوقهم البحري للإبقاء على الاتصال ببقايا أنصارهم في المدن الساحلية في الشام ومصر. وفيما كان المسلمون منصرفون لإقامة المجتمع الجديد، كانت الاتصالات مستمرة في الخفاء. وقام بعض أولئك الذين حرمهم المسلمون من امتيازاتهم بالكتابة إلى قسطنطين، ابن هرقل الذي أصبح امبراطوراً للروم بعد وفاة أبيه، يهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة ما بها من حامية المسلمين؛ وبما يعاني فيها الروم من المذلة وأداء الجزية؛ فبعث قسطنطين قوة من ثلاثمائة مركب، بقيادة منويل الخصي، ونزلت هذه القوة بالإسكندرية في عام (٢٥هـ) ـ نهاية سنة (٦٤٥م) ـ وانضم فلول الروم إلى هذه القوة.

وعمل المقوقس على مقاومة هذا الهجوم وانضم إليه القبط، وعمل منويل على قتل المسلمين الموجودين بالإسكندرية، كحامية صغيرة للدفاع عنها.

كان عمرو بن العاص في الفسطاط عندما قامت قوة الروم بالإنزال؛ وأراد بعض القادة، وفي مقدمتهم خارجة بن حذافة، الإسراع للقاء قوات الروم قبل أن يتمكنوا من مغادرة الإسكندرية خشية أن تنتقض مصر على المسلمين؛ وتنضم إلى الروم، ولكن عمرو قال لقادته: لا. لن أهاجمهم، ولكن أدعهم حتى يسيروا إليَّ؛ فإنهم يصيبون من مروا به؛ فيخزي الله بعضهم ببعض.

خرجت قوات الروم من الإسكندرية؛ ومعها من نقض من أهل القرى؛ فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا مدينة «نقيوس»[1] حيث اصطدم بهم المسلمون وهم في البر والبحر؛ وبدأ الروم والقبط برمي المسلمين بالنشاب، بكثافة عالية

(١) **نقيوس**: من المدن المصرية القديمة؛ وقد زالت وحل محلها اليوم الكوم الأثري الموجود بالجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز «منوف»، المعروف عند الأهالي هناك باسم «كوم مانوس»، أو «رقيانوس»، وهما محرفان من «نقيوس» التي اختفى اسمها منذ عهد بعيد. (**الخطط التوفيقية**، علي مبارك ٨/ ١٥).

مستفيدين من تفوقهم العددي، حيث كانت قوة الروم تزيد على ١٥ ألف مقاتل.
وأصابت نشاب فرس عمرو في لبتها، فترجل عنها عمرو، ثم خرج الروم من البحر؛ فاجتمعوا هم والذين في البر؛ واستمروا في نضح المسلمين بالنشاب، فتراجع المسلمون قليلاً. وحمل الروم على المسلمين؛ وأرغموا قوة الفرسان، التي يقودها شُريك، على التراجع. ونظم الروم هجومهم على شكل أنساق متتالية، مما كان يضمن لهم قوة دفع على متابعة الهجوم، لكن المسلمين صمدوا، ثم قام عمرو بتنظيم هجوم قوي وأمكن له التغلب على الروم؛ وأخذ في مطاردتهم حتى اضطرهم إلى اللجوء إلى أسوار الإسكندرية. وتوقف المسلمون ريثما يعيدوا تنظيم قواتهم؛ واستخدم عمرو المنجنيق لتدمير الأسوار[1]، ثم اقتحم المسلمون المدينة، وقتل منويل الخصي. وأمعن عمرو بن العاص في قتال الروم داخل الإسكندرية؛ وتوسط بعض القبط فرفع عمرو عنهم[2].

جمع عمرو ما أصاب منهم؛ وجاءه أهل القرى ممن لم ينقضوا العهد؛ فقالوا: قد كنا على صلحنا؛ وقد مَرَّ علينا هؤلاء اللصوص؛ فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك. فرد عليهم عمرو ما كان لهم من المتاع مما عرفوه وأقاموا عليه البينة. وقال بعضهم لعمرو:

«**ما حلَّ لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده الله**». فندم عمرو؛ وقال: «ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية».

وكانت هناك قرية اسمها «خربة وردان» لا يقطنها إلا الرهبان، وقد عمل هؤلاء على الغدر بالمسلمين والانقضاض على مؤخرتهم - ساقتهم - مستفيدين من موقع قريتهم القريبة من الكريون.

ولما بلغ عمرو ما فعله أهل «خربة وردان» وجه إليهم قوة قتالية عملت على قتل الغادرين وتخريب القرية؛ التي بقيت خراباً حتى اليوم.

---

(١) أعاقت هذه الأسوار تقدم المسلمين وأضرت بهم؛ فأقسم عمرو «لئن أظهره الله عليهم ليهدمن سورها، حتى تكون مثل بيت الزانية، تؤتى من كل مكان»، وعندما اقتحم المسلمون الإسكندرية عمل على الوفاء بقسمه فدمر أسوار المدينة جميعها.

(٢) عمل عمرو على بناء مسجد في الموضع الذي توقف فيه القتال، وهو المسجد الذي يقال له في الإسكندرية «مسجد الرحمة»، كناية عن استجابة عمرو لعامل «الرحمة» وقدرته على إبادة الروم لو أراد ذلك.

انصرف عمرو، بعد فتح الإسكندرية الثاني، لإعادة تنظيم الدفاع، وقطع من أصحابه لرباط حامية الإسكندرية، وربع قواته: الربع يقيمون ستة أشهر؛ ثم يعقبهم شاتية لمدة ستة أشهر، والنصف الثاني يقيمون معه. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية؛ وكاتب الولاة بألا تغفلها، وأن يعملوا على تكثيف رابطتها لحمايتها من غدر الروم[١].

انصرف عمرو بعد ذلك لإقامة دعائم المجتمع الجديد ونشر الإسلام؛ وكان موضع ثقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يحمل له التقدير؛ لكفاءته القيادية، حتى أنه قال فيه؛ بعد أن وصله ما كان من مواقفه في القتال؛ ونجاحه في دعم علاقاته مع القبط والتعاون معهم ضد الروم ما حفظه التاريخ: «والله إن حربه للينة؛ ما لها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره؛ إن عمراً لعض»[٢] ثم عينه أميراً على مصر، فأقام عمرو بها.

وكان عمر يعتمد على راي واليه في مصر عمرو بن العاص ويستشيره. ومن المعروف أن معاوية بن أبي سفيان كان يرغب في ركوب البحر لردع الروم وانتزاع قدرتهم البحرية وضمان أمن المدن الساحلية للأقاليم التي فتحها المسلمون؛ وقد طلب مرات إلى أمير المؤمنين يستأذنه في ذلك؛ فكتب أمير المؤمنين عمر إلى واليه في مصر عمرو بن العاص وقال له: «صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه». وأجاب ابن العاص: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب؛ وإن تحرك أزاغ العقول؛ يزداد فيه اليقين قلَّةً والشك كثرة؛ هم فيه كدود على عود؛ إن مال غرق وإن نجا برق»[٣]. فقال عمر عندما وصلته الرسالة: «لا والله! لا يركبه أحد ما حييت».

---

(١) ابن الحكم ص٢٥٨.

(٢) الرجل العض: القوي الشديد الداهية؛ الطبري ٤/ ١١٠.

(٣) الطبري ٤/٢٥٨، وبرق معناها ذهل ودهش.

٤ ـ ما بين الولايتين

أقام عمرو في مصر، ينظم شؤونها؛ ويحفظ ثغورها؛ وعندما توفي أمير المؤمنين عمر (في عام **٢٣**هـ) مضى وهو راض عن واليه في مصر. ولم يحاول أمير المؤمنين عثمان تبديل الولاة حتى وقع خصام بين والي مصر عمرو بن العاص وبين قائد جند مصر والمسؤول عن خراجها عبد الله بن سعد، فانحاز عثمان إلى عبد الله بن سعد، أخيه في الرضاعة، وعزل عمرو بن العاص وأقام من عبد الله بن سعد والياً على مصر. وقدم عمرو مغضباً فدخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطناً، فقال له عثمان: ما حشو جبتك؟ قال: عمرو. قال عثمان: قد علمتُ أن حشوها عمرو، ولم أرد هذا، إنما سألت: أقطن هو أم غيره؟ وحدث عتاب، خرج منه عمرو وهو مغضب، وتوجه إلى فلسطين ليقيم بها، حتى إذا كانت سنة (**٣٤**هـ) بدأت بواكير الفتنة ضد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في الانتشار، وأخذت قوات التآمر في نقل مركز ثقلها إلى عاصمة المسلمين، المدينة المنورة، بعد أن وجدت لها قواعد في العراق ومصر.

ومضى عمرو بن العاص إلى المدينة؛ حتى يتابع الأحداث عن قرب، وأرسل أمير المؤمنين إلى قادته وأصحاب الرأي من المسلمين فجمعهم يستشيرهم. ووقف عمرو بن العاص فقال: يا عثمان؛ أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون بمثل بني أمية، فقلت وقالوا، وزِغْتَ وزاغوا؛ فاعتزم أن تعتدل؛ فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل؛ فإن أبيت فاعتزم عَزْماً وامضِ قدماً. فقال له عثمان: ما لَكَ قَمِلَ فَرْوك!؟ أهذا الجد منك؟... فأسكت عنه دهراً، حتى إذا تفرق القوم قال عمرو: «لا والله يا أمير المؤمنين؛ لأنت أعَزُّ عليَّ من ذلك؛ ولكن قد علمت أن سيبلغ قول كل رجل منا، وعلمت أن بالباب قوماً قد علموا انك جمعتنا لنشير عليك، فأردت أن يبلغهم قولي، فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً، أو أن أدفع عنك شراً»[1].

---

(١) الطبري ٤/ ٣٣٤، ٣٣٥.

وأقبل عام (٣٥هـ) وتعاظمت الفتنة، وعرف أمير المؤمنين عثمان أن عمراً مستمر في التحريض ضده، فأرسل إليه؛ وعندما أقبل عمرو عاتبه أمير المؤمنين، وخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه؛ يأتي علياً مرة فيؤلبه على عثمان ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلما كان حصر عثمان الأول خرج من المدينة، حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين، يقال لها السبع، فنزل في قصر يقال له «العجلان» وهو يقول: «ألعجب ما يأتينا عن ابن عفان!».

ووصلت الفتنة ذروتها بمقتل أمير المؤمنين عثمان ومبايعة علي أميراً للمؤمنين، ووصل ذلك عمرو فقال: «أنا أبو عبد الله؛ إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لأحرض عليه؛ حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل»[1] وكان أمير المؤمنين عثمان قد ألقى قبل مصرعه خطاباً في المسلمين ذكر فيه «أنه جاء نسوة النبي ﷺ؛ وكلمهن فقال: ما تأمرنني؟ فقلن له: تُؤمِّر عمرو بن العاص؛ فإن جنده راضون به، أمِّره فليصلح أرضه».

ولعل ما تجدر الإشارة إليه هو خشية عمرو من البقاء في المدينة بعد أن شعر أن الفتنة قد تجاوزت حدودها، ذلك انه لما أحيط بعثمان ﷺ خرج عمرو بن العاص متوجهاً نحو الشام وقال: «والله يا أهل المدينة؟ ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله ﷻ بذل؛ مَنْ لم يستطع نصرَه فليهرب». فسار وسار معه أبناه عبد الله ومحمد[2]. كما تجدر الإشارة إلى ذلك الحديث الذي دار بين عمرو وبين ذلك الذي أخبره بمقتل عثمان، فقد قال له ذلك الرجل: «يا معشر قريش؛ إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب؛ فاتخذوا باباً إذا كُسر الباب». وأجابه عمرو: وذاك الذي نريد؛ ولا يصلح البابَ إلا أشاف - أو مثقب - تخرج الحق من حافرة البأس؛ ويكون الناس في العدل سواء.

أقام عمرو يترقب وينتظر تطور الأحداث؛ وبلغه أن علياً قد بويع له، فاشتد عليه، وتربص أياماً ينظر ما يصنع الناس، ثم بلغه مسير طلحة والزبير وعائشة وقال: أستأني وأنظر ما يصنعون. فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قتلا، فأرتج عليه أمره. فقال قائل: «إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعلي، فلو قاربت

---

(١) الطبري ٤/٣٥٦، ٣٥٧ و٥٥٨ - ٥٦٠.

(٢) المرجع ذاته ٤/ ٤١٠ و٥٥٨.

معاوية!» فكان معاوية أحب إليه من علي. وقيل له: إنَّ معاوية يعظم بشأن قتل عثمان بن عفان ويحرِّض على الطلب بدمه. فقال عمرو: ادعوا لي محمد وعبد الله. فَدُعيا له، فقال: قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمانَ رضي الله عنه؛ وبيعة الناس لعليٍّ، وما يُرصِدُ معاوية من مخالفة عليٍّ. وقال: ما تريان؟ أما عليٌّ فلا خير عنده؛ وهو رجل يدل بسابقته؛ وهو غير مشركي في شيء من أمره. فقال عبد الله بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وهو عنك راضٍ، وتوفي عمرُ وهو عنك راضٍ؛ أرى أن تكفَّ يدك، وتجلس في بيتك، حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه. وقال محمد بن عمرو: أنت نابٌ من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: «أما أنت يا عبدَ الله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي، وأسلم في ديني؛ وأما أنت يا محمد؛ فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي، وشرٌّ لي في آخرتي»[1]. ونادى عمرو مولاه وردان وقال له: «ارحل يا وردان». فلما أصبح قال: «حط يا وردان». حتى حط ورحل ثلاث مرات فقال له وردان: «**لقد خلطت أبا عبد الله، فإن شئت أخبرتك بما في نفسك**». **قال: «هات» قال: «اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك. فقلت عليٌّ معه آخرة بلا دنيا، ومعاوية معه دنيا بلا آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة، فلست تدري أيهما تختار!!»**[2].

قرر عمرو الخروج من حيرته وتردده، وجمع أمره، وتوجه، ومعه ابناه، حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم ـ ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو ـ فقال ابنا عمرو لأبيهم: ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك! انصرف إلى غيره. فدخل عمرو على معاوية فقال: «والله لعجب لك! إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني! أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس من ذلك ما فيها، حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته؛ ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا؛ وأنشده:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا، فانظرن كيف تصنعُ
فإن تعطني مصراً فأربح بصفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفعُ[3]

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٩، ٥٦٠.
(٢) اليعقوبي ٢/ ١٦١، ١٦٢.
(٣) العقد الفريد ٣/ ١١٤.

فصالحه معاوية؛ وتم الاتفاق بينهما على العمل المشترك[1].

وأرسل أمير المؤمنين علي يطلب من معاوية البيعة بعد أن بايعه المهاجرون والأنصار؛ وبعد أن انتهت معركة الجمل. وقام جرير بن عبد الله البجلي بحمل رسالة أمير المؤمنين إلى معاوية، فلما قدم جرير على معاوية ماطله واستنظره، ودعا عمرو بن العاص فاستشاره، فأشار عليه «أن يرسل إلى وجوه الشام؛ ويلزم علياً دم عثمان؛ ويقاتله بهم» ففعل ذلك معاوية، ونظم قواته وعقد لواءه لعمرو فعقد عمرو لوردان، غلامه، فيمن عقد، ولابنيه عبد الله ومحمد[2]. ومضى جيش معاوية إلى الفرات، حيث حدثت المعركة بين جيشي المسلمين. وكان عمرو بن العاص هو الذي يباشر بنفسه إدارة الحرب، وينظم القوات للقتال، ويقف إلى جانب معاوية لتوجيه الصراع السياسي الذي رافق الصراع المسلح بين قوتي علي رضي الله عنه ومعاوية.

استمر الصراع في صفين أشهراً من دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، ولكن بدأ الموقف في التحول ضد مصلحة معاوية، من حيث ميزان القوى، فقال عمرو لمعاوية:

«هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم؛ قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم؛ فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن نقبل. فتكون فرقة تقع بينهم؛ وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين».

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، مَنْ لثغور

---

(١) انظر: نص الاتفاق في نهاية هذا الباب، قراءات ٢.

(٢) علم عمرو بعد ذلك أن علياً عقد لواء لغلامه، قنبر، فقال عمرو:

هَلْ يُغْنِين وردان عني قنبرا ... وتغني السكون عني حِمْيَرا

إذا الكماة لبسوا السنورا

والسكون قبيلة كانت من أنصار معاوية، ولكن حمير، التي كانت إلى جانب عليٍّ، هي أكبر وأقوى من السكون. وعندما بلغ علياً قول عمرو، قال:

لأصبحن العاصي ابن العاصي ... سبعين ألفاً عاقدي النواصي

مجنبين الخيل بالقلاصِ ... مستحقبين حلق الدلاصِ

والدلاص هي الدروع. الطبري ٤/ ٥٦٣.

أهل الشام بعد أهل الشام! ومن لثغور أهلِ العراق بعد أهل العراق!. فلما رأى الناس المصاحف قد رُفعت قالوا: نجيب إلى كتاب الله ﷻ وننيب. وكانت أول نتيجة هي انفصال قوة الخوارج من جيش علي رضي الله عنه. ثم تم الاتفاق على تعيين حكمين، على ما هو معروف: عمرو بن العاص، عن معاوية، وأبو موسى الأشعري، عن علي، كما تم الاتفاق على عقد اجتماع التحكيم في موقع حيادي، واختيرت دومة الجندل مكاناً لذلك. ووقع ما توقعه عمرو بن العاص، وبدأ الانشقاق في جيش علي، وكان الخوارج أول المنشقين.. مما أضعف من موقف أمير المؤمنين علي. (انظر: قصة التحكيم في نهاية الباب).

كانت مصر خلال هذه الفترة تضطرم ناراً، فقد كان فيها قيس بن سعد، يوم وقعت الفتنة. ونهض أنصار عثمان، وعلى رأسهم مسلمة بن مخلدة ومعاوية بن حَديج السكوني، ولكن قيس بن سعد استطاع معالجة الموقف بكفاءة عالية، وتمكن من تجنب المجابهة؛ ولكن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، عزل قيس بن سعد وولى محمد بن أبي بكر مكانه، وعندما وصل محمد بن أبي بكر إلى مصر، اجتمع به قيس ونصحه بالإحسان إلى «العثمانيين» ففيهم خيرة الصحابة، ولهم أنصارهم وقوتهم؛ ولكن محمد بن أبي بكر خالف كل ما نصحه به قيس مما أدى إلى تعاظم الفتنة. وعندما انتهى معاوية من القتال في صفين، وأمكن له تحقيق نصره السياسي في قضية التحكيم التفت إلى أمور مصر، وبدأ بالاتصال مع أنصار عثمان مما زاد من هيجان الفتنة؛ فقرر أمير المؤمنين علي تعيين الأشتر لولاية مصر؛ وأدرك معاوية خطورة الموقف إن تولى الأشتر ولاية مصر.. ونظم معاوية مؤامرة لاغتيال الأشتر، ونجح فيها، مما دفع علي إلى تعيين قيس بن سعد على راس قوة لدعم محمد بن أبي بكر ولكن هذا لم يتمكن من الوصول في الوقت المناسب، فقد أسرع معاوية لدعوة من كان معه من قريش: عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، ومن غيرهم: أبا الأعور عَمْرو بن سفيان السُلمي وحمزة بن مالك الهمذاني وشرحبيل بن السمط الكندي. وبعد مناقشة الأمر تقرر توجيه عمرو بن العاص لاحتلال مصر[(١)].

خرج عمرو بن العاص ومعه قوة تضم ٦ آلاف مقاتل، وسار حتى وصل

---

(١) انظر، في نهاية هذا الباب، ملحق رقم ٤، عودة عمرو بن العاص والتمهيد لها.

حدود مصر؛ وهناك كتب رسالة إلى والي مصر للخليفة علي، وهو محمد بن أبي بكر، جاء فيها:

«أما بعد. فتنحَّ عني بدمك يا ابن أبي بكر؟ فإني لا أحب أن يصيبك مني ظَفَر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، فهم مُسْلموك لو قد التقت حَلْقَتَا البطان، فاخرج منها، فإني لك من الناصحين. والسلام».

ووصلت هذه الرسالة مع الرسالة التي أرسلها معاوية لمحمد بن أبي بكر، فأرسل محمد الرسالتين، بعد مطالعتهما، إلى أمير المؤمنين علي مع رسالة يشرح فيها الموقف. وكتب رسالة إلى معاوية ورسالة إلى عمرو بن العاص، جاء فيها: «أما بعد. فقد فهمت ما ذكرتَ في كتابك يا ابن العاص، زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظَفَر، وأشهد أنك من المبطلين وتزعم أنك لي نصيح، وأقسم أنك عندي ظنين. وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري، وندموا على اتِّباعي. فاولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء؛ فحسبنا الله رب العالمين وتوكلنا على الله رب العرش العظيم. والسلام».

وقام الأمير محمد بن أبي بكر إلى الناس، فانتدبهم، فلم ينتدب معه أكثر من ألفي مقاتل، وخرج معهم، ودفع مقدمة لقواته بقيادة، كنانة بن بشر، فأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا منه، سرَّح الكتائب، كتيبة بعد كتيبة، فجعل كنانة لا تأتيه كتيبةٌ من كتائب أهل الشام إلا شَدَّ عليها بمن معه، فيضربها حتى يقربها لعمرو بن العاص، ففعل ذلك مراراً، فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن حديج السكوني فأتاه بقوة كبرى مثل الدهم، فأحاط بكنانة وأصحابه. واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب، فلما رأى ذلك كنانة بن بشر نزل عن فرسه ونزل أصحابه، وكنانة يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٥]، فضاربهم بسيفه حتى استشهد. ولما رأى محمد بن أبي بكر أن أصحابه قد تفرقوا عنه بعد مقتل كنانة، حتى لم يبق معه أحد، خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق، فأوى إليها. ومضى عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن حديج يبحث عن محمد حتى عثر عليه وهو يكاد يموت عطشاً. ووثب أخوه عبد الرحمٰن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده، فقال: أتقتل أخي صبراً! إبعث إلى

معاوية بن حديج فانهه. فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، فقال معاوية: أكذاك! قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر، هيهات ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر/٤٣]؛ وقتله.

انصرف عمرو إلى إصلاح ما تهدم من العلاقات خلال الفتنة؛ وعالج الأمور بحكمة وكفاءة عالية؛ حتى عادت مصر قبضة واحدة؛ وإرادة واحدة؛ وبدأ العالم الإسلامي يشهد نوعاً من الهدوء والاستقرار؛ بعد الصراعات الدموية الداخلية حيث انصرف كل من أمير المؤمنين علي ومعاوية وعمرو بن العاص إلى تنظيم أموره، وظهر احتمال عودة الوحدة السياسية بين زعيمي الإسلام: أمير المؤمنين علي وأمير الشام معاوية. وهنا ظهرت المؤامرة التي قضت على أمير المؤمنين، في فجر (١٧ رمضان سنة ٤٠هـ)، حيث تعهد ثلاثة من المتآمرين بقتل علي ومعاوية وعمرو في تلك الليلة.

وتصادف في تلك الليلة أن عجز عمرو بن العاص عن الخروج لصلاة الفجر، فكلف قائد شرطته خارجة بن حذافة بإمامة الناس والصلاة بهم، وخرج خارجة فهجم عليه عمرو بن بكر بدون أن يميزه وطعنه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة، فقال: مَنْ هذا؟ قالوا: عمرو. قال: «فمن قتلتُ»؟ قالوا: خارجة بن حُذافة. قال: «أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك». فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة. فقدمه عمرو فقتله.

تقدمت سنوات العمر بوالي مصر عمرو بن العاص وأدركته الشيخوخة، وعرف أن المنية تقترب منه، فحوَّل وجهه إلى الحائط يبكي طويلاً، وابنه يقول له: «ما يبكيك؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟.. أما بشرك بكذا؟» حتى أقبل بوجهه؛ وقال: إن أفضل ما تَعُد عليَّ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ. ولكني كنت على أطباق ثلاث: قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أحب إليَّ من أن أستمكن منه فأقتله، فلو متُّ على تلك الطبقة لكنت من أهل النار. ثم جعل الله الإسلام في قلبي؛ فأتيت رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله. فبسط يده، ثم إني قبضت يدي. فقال: ما لك يا عمرو؟ فقلت: أردت أن اشترط! فقال: تشترط ماذا؟ فقلت: أشترط أن يُغفر لي. فقال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ فقد رأيتني ما من الناس أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني

منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له. فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء بعد، فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها. فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنوا عليَّ التراب سناً، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها، فإني أستأنس بها حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي. ثم قال: اللَّهُمَّ لا بريء فاعتذر ولا عزيز فانتصر؛ وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين[1].

ثم أخذ يردد «لا إلـه إلا الله» فلم يزل يرددها حتى مات بمصر (يوم الفطر سنة ٤٣ للهجرة) عن عمر يناهز التسعين عاماً.

(١) طبقات ابن سعد ٤/٢٥٩، ٢٦٠.

الفَصْلُ الثَّاني

عمرو بن العاص وفن الحرب

موقع عمرو بن العاص من فن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا:

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي «دعامة الإسلام».

٥ ـ استراتيجية «الهجوم غير المباشر».

٦ ـ استراتيجية «الحرب التشتيتية».

٧ ـ استراتيجية «الهجمات الوقائية».

ب ـ في مبادئ الحرب:

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ القدرة الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.



موقع عمرو بن العاص من فن الحرب

«والله أن حرب عمرو بن العاص لينة؛ ما لها سطوة ولا سَورة كسورات الحروب من غيره؛ إن عمراً لعض». «رمينا أرطبون العرب بأرطبون الروم، فانتظروا عم تنفرج».

مقولتان لأمير المؤمنين عمر تظهران الصفة الخصوصية لحروب عمرو بن العاص؛ الأولى: الوصول إلى هدف الحرب باتباع طريقة تختلف عن المجابهة المباشرة وعدم الاعتماد على الحسم في الصراع المسلح وحده، وهو ما أصبح يعرف في عالم فن الحرب الحديث باسم «استراتيجية الهجوم غير المباشر». والثانية: هي دهاء عمرو بن العاص وتسخير هذا الدهاء للوصول إلى هدف الحرب. وكان أرطبون، على ما هو معروف في التاريخ، من أدهى الخَلق، وكان أمير المؤمنين عمر من أقدر رجال التاريخ على تقويم أهمية العوامل المختلفة التي تصنع النصر، كما كان من أكثرهم خبرة بالرجال، وعلى هذا فإن وصفه لقائده عمرو بن العاص بتلك الصفات، إنما يحدد الصفة الخصوصية للقائد عمرو في إطار الاستراتيجية العامة لفن الحرب عند العرب المسلمين.

لقد مارس عمرو بن العاص دوره القيادي في عهد رسول الله ﷺ، ثم كان أحد قادة جيوش الشام، وقاد قوات المسلمين في فتح مصر، وقاد بعد ذلك القوات في الحرب الأهلية الدينية، وكانت القيادة في هذه الحرب الأخيرة أقرب ما تكون إلى قيادة القوات في الحروب الثورية. ثم عاد عمرو إلى مصر؛ وقاد حرباً من هذا النوع أيضاً، فكانت قيادته متنوعة، وبرهاناً على نجاحه في جميع الأحوال؛ ولئن كانت قيادة قوات المسلمين حتى فتح مصر هي قيادة لقوات ثائرة «وفق المفهوم الحديث»، فقد كانت قيادته للقوات في الحرب الأهلية ذات طابع مميز، تمتزج فيها قناعات مختلفة عن تلك التي تمت ممارسة الفتوح في إطارها ومضمونها، ولا ريب أن هذه الصعوبة الإضافية تشكل عقبة لم يكن من السهل تجاوزها. وقد يكون من الصعب هنا فصل دور معاوية بن أبي سفيان عن

دور عمرو بن العاص، فقد كانا يمارسان معاً دورهما القيادي بالتكافل والتضامن في جميع الأمور صغيرها وكبيرها، ولكن رغم ذلك لا يمكن إلا الاعتراف بالدور الخاص الذي مارسه عمرو بن العاص في مجال فن الحرب، لا سيما أنه كان يمارس القيادة الفعلية لقوات الثورة، إذا صح التعبير. وليس المجال هنا هو مجال عقد محكمة في رحاب التاريخ لإثبات صحة منطلقات الثورة أو الثورة المضادة، فقد مضى الجميع؛ ومضت وراءهم مئات السنين؛ وبقيت أعمالهم في ضمير التاريخ؛ وقد يكون هناك ثمة اختلاف في تقويم منطلقات الثورة والثورة المضادة.

وقد يكون هناك اختلاف أيضاً بالنسبة لنتائج الثورة؛ وانعكاساتها على مستقبل العالم الإسلام، إلا أن القضية التي لا تقبل الاختلاف هي أن قيادة عمرو بن العاص كانت قيادة رائدة في مجال فن الحرب. فقد مارس عمرو قيادته في ظروف مختلفة؛ وكان من قادة الفتح الأوائل، ووضع مبادئ الحرب التقليدية موضع التطبيق العملي.

كان عمرو بن العاص قائداً موهوباً؛ وورث الحكمة والدهاء عن أسلافه، وكان يطمح باستمرار لممارسة هذا الدور القيادي؛ ولكنه لم يكن قادراً على تحقيق تلك النجاحات التي حققها لولا استيعابه لعقيدة الإسلام الدينية، ولولا قدرته على تمثل العقيدة القتالية الإسلامية، كما أنه لم يكن قادراً - يقيناً - على تحقيق تلك النجاحات أيضاً لولا وجود جيل من المجاهدين، لا يعرفون غير الجهاد في سبيل الله طريقاً إلى الجنة. ولقد كانت هذه المعطيات مشتركة بين قادة العرب المسلمين جميعاً، إلا أن خصوصية عمرو بن العاص هي التي أعطت لتطبيقاته ميزاتها. ومن هنا ظهر التجديد والتطوير في فن الحرب عند العرب المسلمين، ولعل هذه الميزات هي أفضل ما يمكن أن تتصف به القيادة الرائدة والمجددة.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

كان عمرو بن العاص واحداً من القادة الأربعة الذين توجهوا لفتح الشام، وقد قرر هؤلاء القادة التراجع حتى الجولان للبقاء على اتصال بقاعدة إمدادهم ودعمهم في الجزيرة العربية. وقد انصرف عمرو، بعد اليرموك وفتح دمشق وتوجه إلى فلسطين قاعدة عملياته، الأساسية، فقضى على الحاميات الموزعة في أجنادين وإيلياء ـ بيت المقدس ـ وفحل، وافتتح بقية المدن. وهكذا لم يفاتح أمير المؤمنين عمر في موضوع فتح مصر حتى أمكن له تنظيم قاعدة قوية ومأمونة في فلسطين. وعندما عرض ابن العاس على أمير المؤمنين مشروعة لفتح مصر، قال له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً». وعلى هذا فقد استند في مشروعه إلى فكرة إقامة قاعدة قوية ومأمونة تضمن حماية الفتوح في الشام من جهة، وتضمن الانطلاق إلى مزيد من الفتوحات، من جهة أخرى، ويتأكد ذلك من خلال اقتراحه، بعد احتلال طرابلس في ليبيا، التوغل لفتح أفريقيا، كما يتأكد حرص ابن العاص أيضاً على تأمين القاعدة القوية، من خلال تصرفه أثناء حصار الإسكندرية. فعندما تأخر فتح الإسكندرية؛ ولم تكن قد مضت فترة طويلة على فتح بابليون، أسرع ابن العاص نحو الجنوب ليقيم في بابليون، بعد أن ترك الجيش بقيادة خارجة بن حذافة، وبذلك ضمن حماية مؤخرة الجيش الذي يمارس عملياته ضد الإسكندرية؛ كما ضمن استمرار العمل لتأمين القاعدة القوية. وفي الوقت ذاته فإنه توجيه القوات نحو الجنوب، بقيادة عقبة بن نافع الفهري، لم يكن أكثر من تأمين قاعدة قوية في مصر، وهنا تظهر قضية تناقض الصورة العامة للموقف. فقد كانت عملية إقامة قاعدة قوية ومأمونة، في مصر، تتطلب فترة زمنية غير قصيرة لإقامة المجتمع الجديد؛ وتنظيم التأمين المادي للقاعدة؛ ومعرفة الطبيعة الجغرافية والبشرية والاقتصادية للإقليم. . . إلخ.

وعلى هذا فقد يكون طلب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر السماح له بتجاوز الحدود للتوغل في أفريقيا، ولم تمض سوى فترة قصيرة على فتح مصر، هو أمر يتناقض مع مبدأ إقامة قاعدة قوية ومأمونة. وهنا يأتي أمر أمير المؤمنين عمر ليضمن فرض القيود اللازمة للتوقف والانصراف إلى عملية إقامة القاعدة القوية والمأمونة. وقد يكون السبب في هذا التناقض هو اعتقاد عمرو بن العاص بقدرته على التوغل، مع المحافظة على القاعدة في مصر. ومهما كان عليه الموقف؛ فإن التزام عمرو بن العاص بالاستراتيجية العليا للعرب المسلمين؛ لم يكن التزاماً حراً من دون ضوابط، وإنما كان مقيداً بإرادة القيادة العليا المسؤولة عن التخطيط الاستراتيجي والتي كان يمارسها عملياً أمير المؤمنين عمر، خلال مرحلة فتح مصر. وبعد؛ فالقاعدة القوية والمأمونة ليست مجرد منطقة عسكرية تتمركز فيها القوات للقيام بأعمال قتالية محددة؛ وإنما هي منطقة وإقليم يضم مجموعة من الشروط، كتوفر القدرة البشرية؛ والموارد المادية القادرة على دعم عمليات القوات المسلحة؛ والموقع الجيوستراتيجي الذي يضمن حرية العمل العسكري، وقد أدرك عمرو بن العاص أهمية هذه العوامل جميعها عندما نصح معاوية بالإسراع لاحتلال مصر وانتزاعها من محمد بن أبي بكر، ويكون عمرو بن العاص بذلك أول من حدد المعطيات، وأول من أبرز الخصائص التي يجب توفرها في القاعدة حتى تصبح قوية ومأمونة. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن تحويل المناطق والأقاليم لتكون قاعدة قرية ومأمونة هي عملية لا تنفصل عن استراتيجية بناء المجتمع الجديد، وقد حقق ابن العاص نجاحاً رائعاً بدلالة ما أحرزه من نصر وما لقيه من دعم عند عودته إلى مصر.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد

عندما فُتحت الإسكندرية جُمع السبي؛ وتُركت لهم حرية الاختيار؛ وخرج أهل الإسكندرية ليشهدوا ذلك؛ وجعل المسلمون يأتون بالرجل ممن في أيديهم، ويُترك له حرية الاختيار بين الإسلام وبين النصرانية؛ فإذا اختار الإسلام كبَّر المسلمون تكبيرة هي أشد من تكبيرتهم حين تفتح لهم قرية؛ ثم يضموه إليهم. وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم؛ وفرض المسلمون عليه الجزية؛ وجزعوا من ذلك جزعاً شديداً؛ حتى كأنه رجل خرج منهم إلى النصارى، وكان ذلك دأبهم حتى فرغوا من جميع الأسرى. وقد أُتي فيمن أُتي

به عبد الله بن عبد الرحمٰن؛ فعُرض عليه الإسلام والنصرانية، وأبوه وأمه وإخوته في النصارى، فاختار الإسلام، فضموه إليهم، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبون المسلمين حتى تمزقت ثياب عبد الله؛ ولم يلبث عبد الله أن أصبح (عريف بني زُبيد)[1].

عندما عزل عثمان رضي الله عنه والي مصر وعين مكانه عبد الله بن سعد وجاء عمرو بن العاص إلى المدينة فدخل على الخليفة؛ عاتبه أمير المؤمنين عثمان على قلة ما كان يجبيه من الخراج، وقال له مقولته المعروفة «يا عمرو؛ هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك!. فقال عمرو: إن فصالها هكلت»[2]. وكان، في وقت الفتح لمصر، رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى «يوحنا النحوي»، كان قسيساً قبطياً من أهل الإسكندرية؛ وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف (بغرماطيقوس)؛ أي: النحوي، وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية؛ ويشيد عقيدة «ساورى»، ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع، فأسقطوه من منزلته؛ وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، فأكرمه عمرو. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. كما عمل عمرو على إرجاع «بنيامين» بطْريق الإسكندرية إلى مركزه بعد أن عزله الروم مدة ١٣ سنة، وأحسن عمرو استقباله؛ ومنحه السلطة المطلقة لإدارة شؤون الكنيسة. وقام «باسيلي» أسقف «نفيوس» حفلاً لاستقبال بنيامين، وألقى خطبة امتدح فيها سلوك العرب المسلمين، وكان رد بنيامين: «لقد وجدت الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كانت تنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون». ولم يفرق العربي بين «الملكانية واليعاقبة» من المصريين الذين أصبحوا متساوين أمام القانون؛ والذين أظلهم العرب بعدلهم؛ وحموهم بحسن تدبيرهم. وقد ترك العرب الأرض للمصريين؛ وأخذوا على عاتقهم حمايتهم؛ وأمنوهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم؛ فشعروا براحة كبيرة لم يعرفوها منذ زمن بعيد. ولم

---

(١) الطبري ٤/١٠٦.

(٢) الطبري ٤/٢٥٦. وهو يشبه مصر بالبقرة التي زاد حليبها بعد ولاية عبد الله، فكان جواب عمرو أن ذلك على حساب الحليب الذي يجب تركه لرضاعة مواليد البقرة أو «الخراف»، وإن زيادة الخراج إنما يعني هلاك أهل مصر وإرهاقهم.

تقتصر أعمال العرب على ذلك، بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد، وقاموا بالإصلاحات العظيمة؛ فنظموا الإدارة؛ ونصبوا القضاة، ورسموا خطة جباية الخراج، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الري، كري الخلجان، وبناء مقاييس للنيل، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور. وكان من أثر ذلك أن تحسنت حال القبط؛ وزادت ثروتهم. كما كان مقدار الجزية صغيراً، دينارين، واستثني منها النساء والشيوخ والأطفال، هذا مع عدم تحميل المصريين أكثر مما يطيقون، وربط الجزية بالإنتاج، فإذا كان هناك قحط أو سواه تم تخفيض الجزية. وبهذه الطريقة أتيح لعمرو تنفيذ تعليماته على أهون سبيل. وكان عمرو يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً في اكتساب محبتهم، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته.

يذكر توماس أرنولد ما يلي: «يرجع النجاح السريع الذي أحرزه العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف من الإدارة الظالمة وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت. فإن اليعاقبة الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم»[١]. وقد لا تكون هناك حاجة للحصول على الشواهد للبرهان على عدالة العرب المسلمين، أو حكمة عمرو بن العاص والتزامه بالهدف من الحرب، أو الهدف السياسي. فمتابعة مسيرة الفتح في حد ذاتها كافية لإبراز مقدار النجاح الذي حققه ابن العاص في التوفيق بين هدف الحرب وهدف السلم، ولم يكن إطلاق سراح «أرمانوسة» وتكريمها وإعادتها لأبيها، وكذلك الفصل بين الروم كقوة احتلال، والقبط كشعب مضطهد سوى نتيجة طبيعية لتطبيق السياسة الاستراتيجية للحرب وفق مفهوم المسلمين وعقيدتهم الدينية والقتالية، وبذلك ظهرت قوات المسلمين في الشام والعراق ومصر كقوات تحرير ذات أهداف نبيلة؛ ومن هنا أخذت حروب المسلمين طابعها العادل حتى وفق أفضل المفاهيم التقدمية في العصر الحديث. ولقد اشتهرت منذ أيام عمرو بن ابن العاص مقولات: «إن الله قد بعث محمداً هادياً لا جابياً؛

(١) **الدعوة إلى الإسلام**، سير توماس أرنولد، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، ص١٢٣.

وكذلك: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، لتصبح قواعد ثابتة في إقامة المجتمعات الإسلامية، وقصة عمرو بن العاص وابنة عبد الله مع القبطي، وانتصار أمير المؤمنين عمر للقبطي وإيقاع القصاص بابن العاص، هي بعض الشواهد على أسس بناء المجتمع الإسلامي الجديد.

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوماً؛ وخطب فقال: «يا أيها الناس؛ إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم؛ ولا ليأخذوا أموالكم؛ ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ. فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين؛ أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية، فأدَّب بعض رعيته، إنك لتقصه منه! قال: إي والذي نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه؛ وكيف لا أقصه منه وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يُقِص من نفسه! «**ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم؛ ولا تجمروهم**[1] **فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم**»[2].

لقد أظهر ابن العاص كفاءة عالية في إدارة أمور الحرب؛ وتنظيم شؤون السلم؛ وتحقيق التوافق والتوازن في ذلك كله، وخوض الحرب بما لا يتعارض مع إقامة سلم مقبل، والعمل على تقنين الحرب بدقة محكمة، كل ذلك في إطار مبادئ العقيدة الإسلامية، وكل ذلك تحت إشراف إدارة حازمة وقوية يمثلها أمير المؤمنين عمر. ويمكن إلحاق النسبة الكبرى في نجاح المسلمين بإقامة المجتمع الإسلامي إلى العقيدة الإسلامية، كما يمكن إلحاق نسبة منها إلى إدارة الدولة والمركزية القوية والحازمة لأمير المؤمنين عمر، ولكن ذلك كله لا ينتقص من كفاءة عمرو بن العاص بقدر ما يعتبر رصيداً لمصلحته، فقد ساعده استيعاب العقيدة الإسلامية على إنماء مهاراته القيادية، وبذلك حقق نجاحاته الرائعة في تحويل مصر إلى قاعدة إسلامية قوية، انطلقت منها الفتوحات حتى وصلت الأندلس.

٣ ـ وضوح الهدف

تبرهن مطالعة سيرة عمرو بن العاص أنه ما من قائد عرف هدفه بوضوح مثله،

---

(١) جمر الجند: حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم. وقد حدد عمر أقصى مدة يمكن إبعاد الجندي فيها عن وطنه هي مدة ستة أشهر (مدة الصائفة أو الشاتية).

(٢) الطبري ٤/ ٢٠٤.

وليس ذلك في مجال حياته الخاصة والعامة وإنما أيضاً، وقبل كل شيء، في مواضيع السلم والحرب. فقد أقبل عمرو على الإسلام بعد أن آمن وطمع في قيادة الجيوش في الشام؛ وعندما عجز عن بلوغ غايته، أفاد من أول فرصة له لممارسة قيادة مستقلة، فكان له فتح مصر. وعندما اضطربت الأمور؛ وعُزل عن ولاية مصر، أقام في فلسطين سنوات وهو يعمل حتى حقق هدفه فعاد والياً على مصر. وخلال الحرب الأهلية؛ أفزعه، من دون ريب، ما كان من استنزاف قوة المسلمين، فاتخذ من «رفع المصاحف على الرماح» ذريعة لإيقاف الاقتتال. وقد تكون هناك تفسيرات كثيرة لهذا السلوك، ولكن النتيجة كانت إيجابية يقيناً، فقد أمكن إيقاف النزيف المرعب الذي كان يتهدد المسلمين؛ وكان وضوح الهدف عند ابن العاص هو الذي يساعده على إيجاد الحجج القوية لإقناع خصومه وأصدقائه على السواء لتبني وجهة نظره والعمل بها. وقد لا تكون هناك حاجة للقول، بعد ذلك، إن هدف العمل الحربي عبر العصور بقي ثابتاً وهو نزع سلاح العدو، ودفعه للسير وفق إرادة الطرف الآخر؛ ووضعه في موقف يقنعه بالتسليم حتى يوفر التضحيات المحتملة. وقد تعددت النظريات حول الوسائل التي يمكن اتباعها للوصول إلى الهدف، ولكن قراءة التاريخ تبرهن على أن الوسيلة المثلى هي اتباع استراتيجية الهجوم غير المباشر للوصول إلى هدف الحرب.

وتظهر سيرة عمرو بن العاص أنه كان من بين أكثر القادة كفاءة في تحقيق هذا الهدف بتلك الوسائل: هدف الحرب بوسائل استراتيجية الهجوم غير المباشر. ولم تكن المعركة عند ابن العاص، رغم تأكيده على أهميتها ودورها في الوصول إلى الهدف، سوى وسيلة مقننة بدقة؛ ومحددة بوضوح للوصول إلى السلم، ويعود الفضل، في الواقع، إلى العقيدة الإسلامية الدينية؛ وإلى العقيدة القتالية للمسلمين؛ إذ أن هذه العقيدة هي التي «قننت» و«حددت» هدف السلم وهدف الحرب، وتأتي كفاءة ابن العاص في استيعاب معطيات هذه العقيدة وتطبيقها بما يتوافق مع الموقف.

لقد أبرزت حروب القرن العشرين، بصورة خاصة، أهمية الوضوح في الهدف، سواء من أجل تقنين الحرب أو من أجل بناء عالم ما بعد الحرب، لا سيما بعد أن اتسعت مسارح العمليات وبعد أن تعاظمت القدرة التدميرية للأسلحة الحديثة. وقد مارس القائد المسلم عمرو بن العاص استخدام هذا

المبدأ في مجال الطرح النظري وفي مجال التطبيق العملي، منذ القرن السابع الميلادي؛ وبذلك يكون قد أرسل ظلاً متقدماً لأسس الحرب التقليدية، يمتد إلى اكثر من ثلاثة عشر قرناً من عمر الزمن. ويمكن في هذا المجال اعتبار القائد عمرو بن العاص نسيجاً وحده، وشخصية قيادية مميزة؛ وذلك أن هدف المسلمين كان واضحاً جداً وهو إقامة المجتمع الإسلامي، وتقنين هدف الحرب في حدود الهدف السلمي. أما الوسائل فقد بقيت مرنة وخاضعة للعامل الشخصي، وهذا ما ضمن توافر الفرصة لتطوير الوسائل وفق المواقف المختلفة. وليست هناك حاجة للقول إن وضوح الهدف يتطلب قبل كل شيء معرفة هذا الهدف، كما يتطلب كفاءة عالية لتقويم الأمور ووضعها في مكانها الصحيح، وقد عُرِف عن عمرو بن العاص الحدة في الذكاء؛ والدهاء والعقل الراجح؛ مما ساعده على احتلال مركز الطليعة بين قادة العرب المسلمين، وساعده أيضاً على تطوير فن الحرب.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي «دعامة الإسلام»

كان عمرو بن العاص قائداً ينشد النجاح ويسعى له؛ ويستخدم كل الإمكانات لبلوغه؛ وكانت تتحكم بأعماله العسكرية مجموعة من العوامل؛ أبرزها: ضعف القدرة العددية، سواء بالنسبة للقوى التي كانت تجابه المسلمين، منذ البداية، أو بالنسبة لمجموعة التحديات المفروضة والاحتمالات المتوقعة؛ أو حتى غير المتوقعة؛ ويمكن تفسير حرص عمرو بن العاص على العنصر العربي؛ دعامة الإسلام؛ على ضوء هذه المعطيات، لا سيما وقد التزم قادة العرب المسلمين جميعاً بهذا المبدأ، ولكن قد يكون من غير الطبيعي تفسير التزام عمرو بن العاص بهذا المبدأ أنه مجرد تقليد لغيره من قادة المسلمين؛ أو حرص على النجاح فقط. فعمرو بن العاص قائد عربي مسلم ومؤمن قبل كل شيء، وهو إذ يقود قواته لتحقيق هدف عادل ونبيل فإنما يفعل ذلك وهو يضع في اعتباره أن النصر لن يكون نصراً حقيقياً إلا إذا أمكن له تحقيقه بثمن مقبول، وهو لذلك يوازن منذ «غزوة السلاسل»، التي كلفه الرسول ﷺ بقيادتها، بين حجم قواته وحجم قوات خصمه، وعندما يجد أن حجم القوى قد لا يساعده على تحقيق النصر الحاسم، بحد أدنى من التضحيات، يتوقف في موضعه ويطلب إمداده بقوات دعم إضافية، وفعل مثل ذلك عندما توجه إلى الشام، ووجد أن قوات

الروم قد تداعت لحرب المسلمين، وفعل ذلك من جديد يوم توقف أمام حصن بابليون ووجد أنه لا يستطيع تنفيذ عملياته بدون مزيد من الدعم؛ وعندما وصله هذا الدعم عمل على تطوير أعماله القتالية. وعلى هذا فقد كان حرص عمرو بن العاص على تجنب القتال عندما لا تتوافر له القناعة بالقدرة على حسم الصراع المسلح هو وسيلته التي يستخدمها للمحافظة على العرب المسلمين. ولقد حاول في إطار الحرب الأهلية الاقتصاد قدر المستطاع بالقوى، ولم تكن رسالته إلى محمد بن أبي بكر ونصيحته بالابتعاد وتجنب القتال سوى وسيلة للتعبير عن حرصه لصيانه العنصر العربي والمحافظة عليه.

لقد جاء الإسلام فقضى على عصبية الجاهلية؛ وأحل محلها رابطة الإسلام، وكلف العرب بحمل راية الإسلام؛ فأصبح شرف الجهاد هو الذي يجمع العرب ويوحدهم برابطته القوية، ومما يبرهن على ذلك حرمان المرتدين من شرف الجهاد، ويصبح من الطبيعي، بالتالي، أن يحرص كل قائد مسلم على حياة جنوده المكلفين بحمل الرسالة، ولكن عمرو بن العاص ترجم هذا الحرص بصورة عملية، وعن طريق الممارسة واستخدام كل الإمكانات المتوفرة للوصول إلى هدف الحرب باقل خسارة ممكنة في الرجال. وعلاوة على ذلك؛ فقد كان جهد عمرو بن العاص موجهاً بالدرجة الأولى، لبناء المجتمع الإسلامي بعد الحرب، وقد ظهر ذلك واضحاً في حروبه كلها، بما فيها حروب الردة، فكان لزاماً أن يتحقق هدف الحرب مع الخروج منها بقوة كافية للعمل السياسي، وبناء مجتمع ما بعد الحرب.

وهكذا؛ وحتى لو كان حرص عمرو بن العاص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، مجرد استجابة للمواقف المفروضة؛ وحتى لو كان أيضاً مجرد تلبية للحاجة، فقد كانت نتائج حروبه مذهلة من حيث تحقيقها لهذا المبدأ. ولعل حرص عمرو بن العاص على العنصر العربي هو الذي كان يدفعه لمجابهة الأخطار بنفسه، والقيام بالمغامرات الشخصية، مثل ذهابه إلى أرطبون لاستطلاع مواقعه ومعرفة نقاط ضعفه، فاستطاع بذلك تحقيق النصر بأقل جهد قتالي ممكن مما ضمن له وقاية قواته والمحافظة عليها. ويبقى عمرو بن العاص بعد ذلك كله قائداً عربياً مسلماً يحرص على ما يحرص عليه المسلمون؛ وقد كان المسلمون يفتدون بعضهم بعضاً، فكان من الطبيعي أن تمارس الأصالة العربية دورها فتحمل عمرو على مبادلة قواته حرصاً بحرص ووفاء بوفاء.

٥ ـ استراتيجية «الهجوم غير المباشر»

لعل ما من استراتيجية يمكن لها تمييز أساليب عمرو بن العاص القيادية؛ مثل استراتيجية «الهجوم غير المباشر». ويمكن من خلال استعراض سيرة عمرو القيادية إيجاز الملامح العامة لهذه الاستراتيجية على النحو التالي:

أ ـ معرفة الخصم معرفة دقيقة: ولعل عمرو بن العاص من أكثر القادة الذين أفادوا من ميزة معرفة الخصم، وتحديد نقاط ضعفه وقوته، والإنقاص من أهمية عناصر القوة مع التركيز على نقاط الضعف بحيث يشعر هذا الخصم أن نتيجة المعركة مقررة مسبقاً في غير صالحه، حتى قبل البدء بها؛ وقد عرف عمرو بن العاص على سبيل المثال؛ موقف زعم قضاعة ـ قرة ـ وهدده بقوله: موعدك حفش أمك، ووالله لأوطئن عليك الخيل. فما كان من قرة إلا أن جاء مستسلماً لأمير المؤمنين بعد أن تولت قوات المسلمين اجتياح أرضه. وفي الشام؛ كان هناك أكثر من موقف يبرهن على استخدام عمرو لمعرفته بالخصم حتى يتمكن من القضاء عليه ومهاجمته من نقاط ضعفه.

ب ـ إخضاع الخصم لأساليب الحرب النفسية: لم تكن طرائق الحرب النفسية وأساليبها معروفة بصيغتها العلمية الحديثة في عهد القائد عمرو بن العاص، لكن استقراء مسيرة الأعمال القتالية التي قادها تبرهن على أنه استخدم جميع الطرائق الممكنة والوسائل المتوافرة لإقناع خصومه بعدم جدوى مقاومتهم، ولم تكن عملية «حبس سفراء المقوقس» لمدة يومين في معسكره سوى وسيلة لإظهار قوة العرب المادية والمعنوية مقابل الضعف في الروح المعنوية عند الخصم، مما حمل المقوقس على الاعتراف بقوله: «لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد».

جـ ـ اللجوء إلى أسلوب «الترغيب»: ولقد كانت عبارة «لكم ما لنا وعليكم ما علينا» تعبيراً عن مبدأ فريد في التاريخ؛ وصحيح أن هذا المبدأ قد جاء به الإسلام وهو في جوهر العقيدة الإسلامية، إلا أن عمرو طبقه بكفاءة عالية. ولعل النصوص التي جاءت في الاتفاقية بين عمرو بن العاص والمقوقس هي شهادة كافية على ذلك؛ كما أن إرسال ابنة المقوقس إلى أبيها، لم تكن سوى وسيلة ترغيب، وهي وسيلة منسجمة وطبيعة الإنسان العربي في التصرف بنبل عند المواقف التي يصل فيها الخصم إلى موقف الضعف. وهكذا كانت أصالة

العروبة عند عمرو وعمق الإيمان لديه هما العاملان الموجهان له في سلوكه عند مجابهة مثل هذه المواقف. وعلاوة على ذلك، فإن عمرو بن العاص لم يحاول، لا في المرحلة الأولى من الفتح ولا بعدها، انتزاع إدارة البلاد من أهلها، فكان لذلك دوره في تحقيق التوافق بين الطرح النظري للمبادئ وتطبيقها عملياً، مما ضمن له كسب ثقة المصريين وحملهم على مبادلته وفاء بوفاء، والإخلاص له ودعمه بكل الوسائل الممكنة.

د ـ **العناد في الحرب والصمود في القتال**: فقد استمر حصار أرطبون في أجنادين فترة طويلة لم يظهر العرب خلالها أي تهاون أو ضعف يشير إلى احتمال تراجع المسلمين عن هدفهم؛ وكذلك فعلوا عندما حاصروا الفرماء. وقد حاصر المسلمون حصن بابليون أكثر من ستة أشهر، ما وهنوا ولا ضعفوا ولا ترددوا، وكذلك فعلوا عندما حاصروا الإسكندرية طوال فترة لم يتوقف فيها القتال، وكان هذا التصميم كافياً لإقناع أعداء المسلمين بصدق تهديداتهم وصدق وعيدهم وعنادهم في القتال حتى يبلغوا هدفهم. وكان هذا العناد في حوار الإرادات عاملاً في جملة العوامل التي أقنعت أعداء المسلمين باستمرار في الخضوع لإرادتهم؛ والتخلي عن الصراع المسلح، واعتماد أسلوب الحوار السياسي بديلاً عنه؛ وكان ذلك بدقة ما يريده المسلمون ويعملون له.

هـ ـ **القيام بالتظاهرات القوية وتوجيه الضربات الحاسمة لقلب ميزان القوى**: وكان عمرو بن العاص، كما تظهر سيرة أعماله القيادية، شديد الحساسية بالنسبة لموضوع ميزان القوى؛ ورغم معرفة عمرو بن العاص لضعف قوته العددية، وإيمانه بأنه من المحال على العرب المسلمين الوصول إلى التعادل في ميزان القوى، وأن هذا التعادل يأتي عن طريق التفوق النوعي للمسلمين، إلا أن عمرو بن العاص كان يعمل باستمرار لإجراء الاضطراب في ميزان القوى للوصول إلى موقع التفوق العددي أيضاً، سواء بواسطة تجزئة المعارك واستنزاف قدرة عدوه على مراحل، أو عن طريق توجيه الضربات القوية والحاسمة. وقد كان كمين المسلمين لقوات الروم في عين شمس ـ هليوبوليس ـ مشابهاً من حيث الظروف ومن حيث النتائج أيضاً لمعركة أجنادين؛ إذ أمكن في هذه المعركة تدمير الكتلة الرئيسية لقوات العدو عن طريق الحيلة، أو الاستخدام الماهر لفن الاستراتيجية، وبذلك أصبح بالمستطاع تطوير الأعمال القتالية التالية في إطار من التوازن النسبي في القوى العددية مع تفوق هائل في الروح المعنوية لصالح

المسلمين؛ مما كان يضمن توفر فرص ملائمة لتحقيق الانتصارات المتتابعة.

و ـ **حرمان العدو من موارده الاقتصادية**: فقد أمكن عزل قوات الروم في فلسطين بعد معركة اليرموك الحاسمة وفتح دمشق، وتحولت قوات الروم إلى حاميات منعزلة، فقام عمرو بن العاص بتطويق كل حامية بمعزل عن بقية الحاميات وحرمانها من مواردها الحياتية؛ وإرغامها بالتالي على الاستسلام بعد إخضاعها لضغوط تجعلها أمام موقف لا مخرج منه إلا بالقتال اليائس أو الاستسلام؛ وكان هذا ما يحدث في كثير من الأحيان، وكانت النتيجة مضمونة في جميع الحالات. وتم تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية ذاتها عند فتح «مصر». وكان جيش المسلمين يعتمد في إمداده وتموينه على التعايش مع الوسط المحيط به، وكان ذلك يعني، ببساطة، حرمان العدو من هذه الموارد. وبعد معركة «أم دنين» تطوع الأقباط لدعم المسلمين وتقديم الإمدادات والمواد التموينية، مما أدى إلى حرمان الروم من هذه الموارد؛ وأضعف موقفهم الإداري، ولم يبق أمامهم سوى الاعتماد على المخزون، وهو مهما كان كبيراً لا بد له من النفاد بعد فترة الحصار الطويلة؛ على نحو ما حدث في حصار الإسكندرية.

ز ـ **الفصل بين الحلفاء**: فقد كان الروم حلفاء الغساسنة في الشام، وكان الروم حلفاء القبط في مصر، وكان الروم هم العدو الرئيسي للعرب المسلمين، ولهذا فقد تم العمل لفصل حلفاء الروم باتباع سياسة مرنة تتساهل إلى أبعد الحدود مع السكان المغلوبين على أمرهم في سوريا ومصر؛ مع التشدد حتى أبعد الحدود مع قوات الاحتلال البيزنطية، مما كان يدفع أهل البلاد إلى فك ارتباطاتهم التاريخية والانضمام إلى العرب المسلمين، أو تحييدهم والابتعاد بهم عن الصراع، مع كسب دعمهم الضمني، وكان ذلك في حد ذاته مكسباً كبيراً للمسلمين، إذ أنه أدخل الاضطراب في ميزان قوى العدو وأضعف موقفه.

وقد يكون من الصعب حصر جميع أساليب استراتيجية الهجوم غير المباشر، والتي طبقها القائد العربي المسلم عمرو بن العاص، ولم تكن مطابقته للهدف مع الإمكانات المتوفرة واختيار الخط الأقل توقعاً واستثمار خط المقاومة الأضعف والتحرك بمرونة في إطاري العمليات وتعبئة القوات والتجديد المستمر في أساليب خوض القتال، هي بعض الأساليب التي ضمنت لعمرو بن العاص تحقيق انتصاراته الرائعة. ولعل اختياره لمحور تحركه عوضاً عن التوجه إلى الإسكندرية مباشرة هو وحده برهان على العمق الاستراتيجي في تفكير عمرو بن

العاص، إذ أنه لو اختار التحرك على المحور الثاني لمجابهة الروم في الإسكندرية، بمعركة جبهية مباشرة، لكان الفشل من نصيبه يقيناً، ولوضع قوات المسلمين في مأزق قد لا تتمكن من الخروج منه.

٦ ـ استراتيجية «الحرب التشتيتية»

ترتبط هذه الاستراتيجية في جذورها بالاستراتيجية السابقة «استراتيجية الهجوم غير المباشر» من حيث تأثيرها على مسيرة الأعمال القتالية في مسرح العلميات. فهدف استراتيجية الحرب التشتيتية هو وضع قيادة العدو أمام مواقف تجعلها عاجزة عن اتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه في الوقت المناسب، ومن هنا تتركز جهود الحرب التشتيتية للتأثير على القيادات أكثر مما تهدف إلى التأثير على القوات؛ ولو أن النتيجة لا بد لها وأن تنعكس على القوات بصورة مباشرة. وقد كانت استراتيجية الحرب التشتيتية هي الطابع المهيمن على تحرك القوات الإسلامية منذ مغادرتها للجزيرة العربية.

وقد أدرك عمرو بن العاص أهمية هذه الاستراتيجية؛ فحاول استخدامها وفقاً لظروف القتال. وقد عمل عمرو بن العاص عند توجهه إلى أجنادين على توجيه مجموعات قتالية إلى إيلياء والرملة بهدف حرمان قوات الروم من تنسيق التعاون فيما بينها؛ وحرمان قيادات هذه القوات من طرح مبادءات قد تعيق مسيرة الأعمال القتالية لقوات المسلمين، وفقاً لما كان يوجهها عمرو بن العاص، ثم أعاد عمرو تنفيذ مثل هذه الاستراتيجية في مصر عندما أرسل مجموعات قتالية إلى عين شمس والفيوم والأشمونين وأخميم والبشروات وقرى الصعيد وتنيس ودمياط. . . إلخ. ولعل الظاهرة البارزة هي المرونة الكبرى في تطبيق هذه الاستراتيجية؛ فقد عمل عمرو على تطبيقها في المرة الأولى قبل معركة أجنادين الحاسمة، وقام بتطبيقها في المرة الثانية بعد معركة أم دنين الحاسمة، فكان تطبيقها في المرة الأولى تمهيداً للنصر، وكان تطبيقها في الثانية استثماراً للنصر، وبقي هدفها في الحالين واحداً وهو تحقيق هدف الحرب والوصول إلى غاية السلم بالجهد الأدنى من القوة العربية الإسلامية، مع وضع قيادات الروم في الحالين في موقع السلبية المطلقة.

لقد كان تأثير الحرب التشتيتية مذهلاً بالنسبة لقيادات الروم ـ البيزنطيين؛ فقد كانت هذه القوات عاجزة في الواقع عن إدراك سر القوة الجديدة للعرب

المسلمين، وتبع ذلك جهل مطبق في أساليب عمل هذه القوات، وطرائق عملياتها، وتنظيمها. وقد أفاد عمرو بن العاص ـ كما أفاد بقية قادة المسلمين من هذا القصور في قيادات العدو ـ فعملوا على تطوير أعمالهم القتالية. وكوَّن القادة لأنفسهم هالة ضخمة، واكتسبت قوات المسلمين هيبة عظمى ساعدتها على تشتيت قيادات العدو وإرباكها، وجعلها عاجزة عن اتخاذ أي موقف إلا موقف الدفاع وراء التحصينات، وكان هذا الموقف في حد ذاته نصراً كبيراً للعرب المسلمين؛ إذ ساعدهم على تجزئة معارك الحرب واختيار نقاط الضعف المتتالية لاختراق القوة العظمى وتفتيتها.

ولم يكن وصول خبر توجه عمرو بن العاص إلى مصر، وسبْقُ أخبار انتصاراته في فلسطين، سوى إحدى ظواهر الحرب التشتيتية التي أضعفت مقاومات قيادات الروم، وحملتها على توقع نتائج الحرب قبل أن تصل معاركها إلى حدودهم. وقد اتبع عمرو بن العاص أساليب الحرب التشتيتية في الحرب الأهلية أيضاً؛ وليس بالإمكان في جميع الأحوال فصل الصراع المسلح بين الطرفين المتحاربين، من أجل الحكم، عن الصراع السياسي، سواء عند رفع المصاحف على الرماح أو حتى التحكيم في صفين، وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على نجاح عمرو في تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية، حتى في هذا النوع من الحروب الثورية. ويكون عمرو بن العاص، نتيجة لذلك، هو رائد استراتيجية الحرب التشتيتية في إطاريها الثوري والنظامي، ويأتي نجاحه بعد ذلك ثمرة من ثمار التطبيق الذكي والماهر لجميع الاستراتيجيات وأبرزها استراتيجية الحرب التشتيتية.

٧ ـ استراتيجية «الهجمات الوقائية»

كثيراً ما يختلط مضمون استراتيجية الهجمات الوقائية بمضمون الهجمات الإجهاضية المسبقة، وتتزايد صعوبة التمييز بينهما عند وضعهما في إطار حروب الفتح للعرب المسلمين؛ إذ يمكن إلى حد معين، ومن وجهة نظر فن الحرب، اعتبار فتح الشام والعراق هو هجوم وقائي هدفه الأول هو حماية الجزيرة العربية قاعدة الإسلام من تدخل الروم والفرس، وقد تدخل هذا المفهوم ذاته في أقوال عمرو بن العاص عند طرح مشروعه لفتح مصر حتى يضمن حماية الجناح الغربي للأقطار الإسلامية في الجزيرة والشام.

ويمكن متابعة ذلك واعتبار تقدم عمرو بن العاص في الصحراء الليبية حتى طرابلس وزويلة نوعاً من الهجمات الوقائية لحماية غرب مصر، وكذلك الأمر بالنسبة لتوجه عقبة بن نافع جنوباً حتى النوبة.

وبدهي أن هذا التفسير لا ينقص من أهمية الهدف من الفتح، أو هدف الحرب؛ ذلك أن حماية قاعدة الإسلام لم يكن أكثر من وسيلة لحماية المسلمين وضمان الظروف لمتابعة دورهم الحضاري والإنساني، وكذلك الأمر بالنسبة لهدف الفتح في الشام والعراق، وهو تعريف الناس برسالة الإسلام، ويعتبر تفسير عملية الفتح بالهجمات الوقائية هو الترجمة العملية للوصول عبر هدف الحرب إلى غاية السلم. أما بالنسبة لهجوم قوات المسلمين من أجل فتح الإسكندرية الثاني، فيمكن اعتباره مجرد هجوم مضاد لا علاقة له بالهجمات الإجهاضية المسبقة، رغم توفر جميع الظروف لوضع هذا الهجوم في إطار الهجمات الإجهاضية المسبقة.

فتحرك قوات المسلمين إلى الشمال؛ ومحاولة حصر قوات الهجوم البيزنطي، ثم العمل على اتخاذ جميع التدابير، كإزالة التحصينات وتدمير الأسوار، هي كلها تدابير وقائية لحرمان العدو من كل فرصة تسمح له بالهجوم في المستقبل. وهنا وفي مجال تطبيق هذا المبدأ يظهر عمرو بن العاص متبعاً وليس مبدعاً، ولعل عدم توفر الظروف المناسبة، والسلبية التي أظهرتها القوات البيزنطية هي التي لم تسمح لعمرو بن العاص في تطوير هذا المبدأ، ولكن عمرو بن العاص أظهر الإبداع في الاتجاه المقبل الذي يمكن أن يطلق عليه تطبيق استراتيجية الردع؛ فقد عمل عمرو بن العاص على إقامة الحاميات القوية في الإسكندرية، ودعم أمير المؤمنين عمر هذا الاتجاه عندما نظم إرسال قوات من الجزيرة لدعم قوات المرابطين في الثغور، والإقامة في الإسكندرية بطريقة متناوبة تضمن ردع قوات الروم عن التفكير في الهجوم على الموانئ البحرية، واستثمار التفوق البحري للروم من أجل الإغارة على الثغور الإسلامية، ويكون بذلك عمرو بن العاص قد دمج مفهومي الردع والهجمات الإجهاضية المسبقة عن طريق اتخاذ الإجراءات المناسبة لتطبيقهما معاً إذا ما تطلب الموقف ذلك؛ وهذا هو إبداع عمرو بن العاص في مجال تطوير فن الحرب، والعمل باستمرار على التوفيق بين الهدف وبين الوسائط المتوافرة، مطبقاً بذلك المضمون الحقيقي للاستراتيجية العليا.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن عمرو بن العاص قد جاء إلى عالم الفتوح الإسلامية في بداية هذه الفتوح، فاحتل مركز الريادة من حيث السبق الزمني؛ ولكن هذا السبق لم يكن كافياً ليضعه في مرتبة الرواد الأوائل للفتح لو لم يتمكن من تحقيق النجاحات الضخمة في تطبيق أسس الاستراتيجية العليا، وفي مجال الاستخدام المرن لمبادئ الحرب، فكان من نتيجة ذلك تحقيق انتصارات خالدة حفظها التاريخ فيما حفظه من آثار لا زالت تنطق بها مصر، وستبقى إنجازات عمرو خالدة مع خلود مصر ذاتها، وهو خلود لن تنال منه الأيام رغم كل الحملات المضادة؛ ورغم الحروب الصليبية التي لم تتوقف منذ الفتوح، ولعل ذلك في حد ذاته هو برهان على نجاح عمرو ونجاح المسلمين في تطبيق سياستهم الاستراتيجية بشكل لا نظير له، مما ضمن لمصر الصمود والاستمرار رغم كل الجهود المضادة لمجتمعها الإسلامي.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

سار عمرو والسرية معه، وهم يسيرون في الليل ويكمنون في النهار؛ حتى اقتربوا من ذات السلاسل، بينها وبين المدينة عشرة أيام. وأراد المسلمون إشعال النار، إذ كانت ليلة شديدة البرد، فمنعهم، وعندما رجع عمرو اعتذر إلى الرسول ﷺ، وأخبره أنه منع المسلمين من إشعال النار خشية أن يراها عدوهم؛ فيرى قلتهم فيطمع فيهم. وعندما فتح عمرو طرابلس، وجه قوة قتالية لفتح نبارو، أو سبرت، وأمرهم بالسير بسرعة، فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفل أهلها وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم؛ فدخلها المسلمون، ولم ينج من أهل سبرت أحد؛ وتلك هي بعض أساليب عمرو لتحقيق المباغتة. ومن الواضح هنا أن عمرو قد اعتمد على المباغتة الزمنية، فقد كانت قضاعة ـ في الحالة الأولى ـ غافلة عن احتمال هجوم المسلمين عليها، فقاد عمرو قواته، وباغت القوم قبل أن يعرفوا بوجوده. وفي المرة الثانية كان أهل سبرت يعتقدون أن عمرو منصرف مع جند المسلمين لفتح طرابلس، فلما تم له فتحها وجه قوة من الفرسان لتتحرك بسرعة وتسبق أخبار الفتح إلى سبرت؛ وأمكن بذلك تحقيق المباغتة وإنجاز النصر الحاسم.

ومن الواضح أن عمرو بن العاص قد طبق مبادئ الحرب الصارمة في أول عمل قيادي تم تكليفه به؛ ويبرهن ذلك على وجود استعداد فطري لتطبيق مبادئ الحرب بصورتها الصحيحة. وإقراراً بالحقيقة فقد كانت حياة الإنسان العربي في صراع مستمر، وكانت الغزوات لا تنقطع بين العرب بعضهم ضد بعض، وكانت الإغارات هي الأسلوب الطبيعي لحياة البداوة، إلا أن الممارسات بقيت محدودة في نطاق القبيلة أو مجموعة القبائل المتحالفة. وجاء الإسلام فوحَّد القبائل، وتعاظمت بذلك قوة العرب، وزاد حجم القوات المسلحة مما ألقى

على عاتق القادة مزيداً من الأعباء، وفرض عليهم تطوير الأساليب القتالية، ويظهر ذلك بصورته الواضحة في توجيه القوة لفتح سبرت. فقد ضمن عمرو توفير جميع الظروف المناسبة لنجاح المباغتة؛ ذلك أنه اختار القوة من الفرسان، وطلب إليهم التحرك بسرعة، وأمرهم بالتحرك ليلاً بحيث يصلون إلى هدفهم مع أول ضوء من فجر اليوم التالي، وبذلك أمكن تحقيق المباغتة، وقد أفادت قوات المسلمين من ذهول المباغتة لتنفيذ ضربتها الحاسمة بأقل جهد ممكن، وبأقل خسارة ممكنة.

وكان عمرو ماهراً في جميع عملياته، وحريصاً باستمرار على تحقيق المباغتة، سواء عن طريق إعادة التنظيم باستمرار، وبعد كل مرحلة، أو عن طريق المناورات الخداعية والتظاهرات التي تحمل العدو على تقدير قوات المسلمين بأكثر من قوتها العددية الحقيقية، وبذلك أخذت المباغتة أشكالاً مختلفة عند التطبيق؛ ولم تعد مجرد مباغتة زمانية أو مباغتة مكانية، بل تجاوزت ذلك إلى مستوى المباغتة في العمليات. ويعتبر عمرو بن العاص في هذا المجال أستاذاً ورائداً، وقد كان في مدرسته عقبة بن نافع الفهري؛ وعبد الله بن حذافة السهمي وعبد الله بن سعد وسواهم. وتظهر سيرة هؤلاء القادة أنهم مارسوا بعد ذلك، وعندما أسندت إليهم أعمال قيادية مستقلة، أدوارهم القيادية بنجاح، وأفادوا من كفاءة عمرو بن العاص القيادية، واقتبسوا منه كثيراً من المبادئ التي استخدمها وعمل على تطويرها وفي طليعتها مبدأ المباغتة. وكان تطبيق هذا المبدأ، في كثير من الأحيان، هو العامل لتحطيم ميزان القوى وتحويله لصالح العرب المسلمين. وعلاوة على ذلك فقد كان للمباغتة دورها الحاسم في إسقاط الحصون المنيعة، كحصون أجنادين وأم دفين؛ إذ كان ظهور المسلمين على الأسوار كافياً لانهيار المقاومة، ولم يكن فتح طرابلس سوى نتيجة للمباغتة التي أتقن العرب المسلمون استخدامها، وعملوا على تطويرها باستمرار لمجابهة المواقف المختلفة.

٢ ـ أمن العمل

المقصود بأمن العمل هنا هو مجموعة التدابير والإجراءات التي اتخذها عمرو بن العاص لحماية قواته من جهة، ولضمان الشروط المناسبة التي تساعد على النجاح في تنفيذ الواجب القتالي. ويجهل في مجموعة هذه التدابير أعمال

الاستطلاع، بما فيها الاستطلاع الشخصي، وجمع المعلومات من المصادر المختلفة، واتخاذ تدابير الحيطة الضرورية لحماية القوات من مباغتة العدو، ثم اتخاذ التشكيلات القتالية المناسبة التي تساعد القوات على الاضطلاع بعملياتها. ويمكن في مجال الاستطلاع التذكير بمحاولة عمرو بن العاص اقتحام حصن عدوه أرطبون والمغامرة بنفسه حتى قام باستطلاع ما يريده، وقد كرر عمرو بن العاص هذه المحاولة في مصر، وكان النجاح حليفه أيضاً. ولم تقتصر أعمال الاستطلاع عند عمرو بن العاص على معرفة الأهداف العسكرية، وإنما تجاوزتها لمعرفة جميع الأمور المتعلقة بالعدو، بما في ذلك أوضاعه الاقتصادية والسياسية، وكان لذلك دوره الحاسم في الوصول إلى الغاية السياسية من الحرب ومعالجتها بصورة صحيحة.

وإذا أمكن مراجعة مسيرة الأعمال القتالية لعمرو، فسيظهر أنه كان يسير إلى هدفه دائماً وهو على ثقة تامة، ولم تكن هذه الثقة سوى نتيجة للمعلومات التي يحصل عليها بوسائطه المتنوعة وأبرزها الاستطلاع، ولم يكن نجاحه الحاسم في نصب كمين عند عين شمس سوى نتيجة لمعرفته الدقيقة بنوايا عدوه وأهدافه. أما في مجال تدابير الحيطة، فيمكن ذكر ما قام به عمرو عند توقفه أمام أم دنين، حيث قام المسلمون بحفر الخنادق حولهم وتنظيم أعمال الحراسة. ولعل أفضل برهان على نجاح عمرو في اتخاذ تدابير الحيطة هو عدم تمكن قوات الروم من مباغتة المسلمين ولو مرة واحدة. وفي فحل كان المسلمون لا يصبحون ولا يمسون إلا على تعبئة، ومن الواضح أن تدابير الحيطة هي التي أحبطت، في مرات كثيرة، محاولات الغدر بالمسلمين ومباغتتهم.

وفي مجال اتخاذ التشكيلات القتالية المناسبة على مسرح العمليات، فإن إرسال عمرو لمجموعات قتالية لمجابهة إيلياء والرملة لم يكن سوى وسيلة لضمان أمن العمل عند تنفيذ الواجب الرئيسي، وهو تدمير كتلة قوات الروم في أجنادين، كما أن دفع المقدمات، لم يكن أكثر من وسيلة أيضاً لحماية الكتلة الرئيسية من قوات المسلمين التي كان يقودها عمرو بن العاص. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن مبدأ أمن العمل هو من أكثر المبادئ أهمية، وكثيراً ما ضاعت جيوش في القديم والحديث بسبب إهمالها بعض عوامل هذا المبدأ؛ فوقفت عاجزة عن تنفيذ واجباتها. وإذا أمكن تجاوز تاريخ فن الحرب القديم، دفعة واحدة، للوصول إلى العصر الحديث، فإن اجتياح الألمان لحدود الاتحاد

السوفياتي بمثل تلك السهولة، وكذلك فشل القوات العربية عن الاضطلاع بواجبها في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (٥ حزيران ـ يونيو، **١٩٦٧**م)، وفشل القوات الإسرائيلية في الحرب التالية (٦ تشرين الأول ـ أكتوبر **١٩٧٣**م)، إنما يعود في قسم كبير منه، لإهمال مبدأ أمن العمل، والتحرك للحرب بعيون مغمضة، مقابل وضوح كامل في الرؤيا عند الطرف المقابل.

ولعل اهتمام قادة العرب المسلمين عامة، وعمرو بن العاص منهم خاصة، بتطبيق هذا المبدأ بكل أبعاده إنما يبرهن على التطور الكبير الذي وصله قادة المسلمين في عالم فن الحرب. وهنا تبرز أهمية العقيدة الدينية أيضاً في تكوين مفاهيم العقيدة القتالية، لتساعد القادة على ممارسة أدوارهم القيادية. ولم يكن الإصرار المستمر في القرآن الكريم على الحرص على المسلمين والحذر من أعداء المسلمين سوى التحديد النظري لأسس العمل التي يجب على القائد الالتزام بها لتطبيق مبدأ أمن العمل، وقد آمن عمرو بن العاص واستوعب مبادئ العقيدة الإسلامية بقلبه وعقله، فكان بدهياً أن يساعده ذلك على صقل مواهبه القيادية وتطويرها، فأصبح بذلك جديراً بحمل راية الإسلام القيادية وتحقيق الانتصارات الرائعة تحت ظلها.

٣ ـ القدرة الحركية

كانت جيوش المسلمين جيوش فرسان، يوم كانت الخيول والإبل هي وسائط حرب الحركة، وقد انطلقت هذه الجيوش من قلب الجزيرة إلى الشام؛ فكانت في حالة حركة دائمة لتدمير مقاومات الروم القتالية. واستمر الصراع بالنسبة لعمرو بن العاص أربعة أعوام تقريباً حتى أمكن تصفية جميع جيوب المقاومة. وقاد عمرو بن العاص بعد ذلك قواته عبر سيناء حتى وصل مصر، وهناك خاض مجموعة من الأعمال القتالية، بداية من الفرماء وحتى حصن بابليون، أو أم دنين، وبعد ذلك عمل عمرو بن العاص على تطوير القدرة الحركية؛ وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة الروضة واستخدامها لنقل القوات. ولم يكن اتفاق عمرو بن العاص مع القبط على إصلاح الطرق وإقامة الجسور سوى وسيلة لتطوير حرب الحركة، كما أن اختياره للتحرك محور غرب النيل، حيث الصحراء الواسعة، وعدم وجود الحواجز الأرضية لم يكن إلا وسيلة أيضاً لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه؛ وإن إصرار

عمرو بن العاص على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن أكثر من وسيلة لإزالة العوائق التي تعترض حرب الحركة، وتعيق استخدام القدرة الحركية. ويمكن الاستمرار في ذلك للبرهان على استخدام القدرة الحركية على أفضل وجه ممكن.

وتتلخص أساليب عمرو بن العاص في مجال حرب الحركة، على مستوى العمليات، بالمبدأين التاليين:

أ ـ **إزالة جميع العوائق والسدود** والحواجز البرية التي يمكن لها إعاقة القدرة الحركية.

ب ـ **اختيار محاور العمليات** التي تساعد قوات العرب المسلمين على تطبيق استراتيجيتهم المفضلة؛ واستخدام قدرتهم الكامنة في مجال حرب الحركة. وهكذا فإن دور عمرو بن العاص في هذا المجال يتركز على الإفادة من القدرة الحركية العالية للمسلمين والعمل على تطويرها.

ومن المعروف أن القدرة الحركية العالية للقوات الإسلامية كانت تعتمد على مبدأين أساسيين هما: الاعتماد على قوة الفرسان، مع التحرر من الأعباء الإدارية التي كانت ترهق عاتق الجيوش المضادة للمسلمين. وتبرز كفاءة عمرو بن العاص في معرفة ميزات قوات المسلمين واستثمارها إلى أبعد الحدود، مع العمل على تطوير هذه الميزات وإعداد الظروف المناسبة لاستخدامها. وكانت المباغتة والحرص على أمن العمل والمبادأة واستخدام القوة الهجومية والاقتصاد بالقوى والاهتمام بالشؤون الإدارية، وغير ذلك هي من أجل خدمة القدرة الحركية، وتوفير الشروط المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن القضية في أساسها ليست قضية توفر مجموعة من المميزات للجيوش المقاتلة؛ أو وجود بعض الفضائل الحربية وإنما القضية هي قضية معرفة هذه المميزات والفضائل والإفادة منها قدر المستطاع؛ وقد عمل عمرو بن العاص، على الإفادة من فضائل الجيش الإسلامي الحربية، وعمل بدوره على تطوير تلك الفضائل. وإذا ما أمكن بعد ذلك معرفة أن حروب المسلمين كلها كانت نوعاً من حروب الحركة التي تعتمد في أساسها على القدرة الحركية العالية، وإذا ما أمكن أيضاً تحديد موقع عمرو بن العاص، كواحد من قادة الفتح الأوائل، يمكن تقديم أهمية المنجزات التي حققها في مجال استثمار القدرة الحركية لقوات المسلمين وتطويرها، بحيث

أصبحت تطبيقاته العملية هي المنهل الذي يرجع إليه قادة المسلمين في تطويرهم لأعمالهم القتالية التالية.

وقد يكون من المحال تقويم أهمية هذه المنجزات بصورة عملية؛ وما كان لها من دور في تحقيق الانتصارات المتتالية، كما أنه من المحال أيضاً مقارنة هذه المنجزات بمنجزات قادة مماثلين في الجيوش الأجنبية أو حتى الجيوش الإسلامية، ولكن تلك المنجزات ترسل، يقيناً، ظلالها المتقدمة لأكثر من اثني عشر قرناً، حيث يمكن مطالعة بعض ملامح هذه المنجزات، أو كلها، في إطار تطوير القدرة الحركية للجيوش الحديثة، وذلك بصرف النظر عن حجم القوة والوسائط، وبصرف النظر أيضاً عن أنواع وسائط حرب الحركة المتقدمة.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

تبرز مرة أخرى قضية التكامل في العقيدة القتالية للمسلمين من خلال استقراء التطبيقات العملية لمبدأ المبادأة واستخدام القوة الهجومية، إذ أنه من المحال فصل هذا المبدأ عن بقية المبادئ؛ والنظر إليه بصورة مستقلة ـ مثلاً ـ عن القدرة الحركية أو أمن العمل. ويتطلب إبراز هذا المبدأ النظر إليه من الزاوية المضادة، أي من زاوية الدفاع والاعتماد على القلاع والتحصينات، ومن المعروف أن المسلمين كانوا يبتعدون تماماً عن حروب الحصار واستخدام القلاع والحصون، معتمدين في ذلك على ما تضمنه لهم حروب الحركة من مميزات، لعل أبرزها المحافظة على المبادأة؛ وحسم الصراع المسلح لصالحهم. وعلاوة على ذلك فقد كانت قوات المسلمين ضعيفة في عددها، ضعيفة في تسليحها؛ فكان من المحال اللجوء إلى الدفاع وتوزيع الحاميات بحيث يتم استنزاف القوة المقاتلة وتشتيتها في الحصون والقلاع.

كان المسلمون يعتمدون على قدرتهم الحركية لإجراء الحشد السريع، وتوجيه الضربات الحاسمة، ثم التفرق بعد ذلك لمعالجة الأهداف المختلفة، تماماً كحركة السيل الجارف الذي ينحدر من المرتفعات ليزيل جميع العقبات والسدود عند تجمعه، ثم ليتفرق بعد ذلك في المجاري المختلفة، حتى إذا ما صادف سداً جديداً تجمع وأزال السد ليتابع مسيرته بعده، وهكذا. وعلاوة على ذلك كله؛ فقد كان من المحال على المسلمين تحقيق سياستهم الاستراتيجية، وحمل رسالتهم إلى الدنيا من دون الانتقال بها وتعريف الناس بها، وكان عمرو بن

العاص رائداً في هذا المجال أيضاً، فقد استطاع المحافظة على المبادأة في معاركه كلها، ولم يترك لأعدائه أبداً فرصة التدخل في مخططات عملياته، وكان يعمل باستمرار على فرض المواقف القتالية حتى يحرمهم من حرية العمل. وكان يعمل باستمرار على استثمار القدرة الحركية الكامنة وتوجيهها للأعمال الهجومية؛ ولم يكن توقفه أمام بعض التحصينات سوى توقف مرحلي لإعداد الظروف المناسبة من أجل تطوير الأعمال القتالية واستخدام القوة الهجومية.

وقد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان عمرو بن العاص قد أراد فعلاً انتظار الروم عند هجومهم على الإسكندرية حتى يخرجوا من المدينة، وحتى يغادروا المواقع والتحصينات القوية للاصطدام معهم في معركة جبهية يستفيد فيها من القوة الهجومية لقواته، ولكن النتيجة واضحة تماماً؛ فقد استطاع، عن طريق الانتظار، حمل الروم على مغادرة الإسكندرية، ولم يصطدم معهم حتى وصلوا نقيوس، وبذلك أمكن له استخدام القوة الهجومية وتحقيق النجاح في تدمير الكتلة الرئيسية لقوات الروم. وتظهر هذه الملامح ذاتها في عدد من معارك عمرو بن العاص، ولم يكن الكمين في عين شمس سوى برهان واضح على إفادة عمرو من القوة الهجومية لتدمير قوات العدو، كما أن توجيه القوات لفتح سبرت لم يكن إلا استثماراً للقدرة الحركية العالية لقوات المسلمين واستخدامها للهجوم، وكذلك الأمر بالنسبة لقيادة عمرو بن العاص للقوات أثناء الحرب الأهلية، حيث حاول باستمرار الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية بكفاءة.

ولما كانت قوات المسلمين المقابلة تتمتع بهذه الخصائص ذاتها، فقد كان من الصعب على عمرو إحراز النصر الحاسم في ميدان القتال، فلجأ إلى استخدام الوسيلة التبادلية، وهي اللجوء إلى الصراع السياسي، ويظهر هذا المثال، وبشكل واضح، أن ميزة المبادأة واستخدام القوة الهجومية كانت إحدى فضائل الجيوش الإسلامية، وأن كفاءة عمرو بن العاص تكمن في قدرة عمرو بن العاص على معرفة ميزة هذه الفضيلة وتوجيهها بمهارة لتحقيق هدف الحرب، والوصول إلى غاية السلم. وكان استخدام عمرو للمبادأة واستخدام القوة الهجومية مقنناً بدقة في إطار غاية السلم، مما ساعده على تحقيق استراتيجية الهجوم غير المباشر وإقناع خصومه بعدم جدوى مقاومتهم والوصول إلى أهدافه بالجهد المناسب الذي يساعد المسلمين على متابعة أعمالهم القتالية، وعدم استنزاف القدرة الهجومية بهجمات جبهية عقيمة.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

كانت الأعباء التي فرضها الإسلام على العرب المسلمين تتجاوز كثيراً قوتهم العددية، ولم يكن باستطاعة العرب المسلمين حمل الأمانة إلا إذا أمكن لهم التوفيق بين الهدف والوسائط المتوافرة لديهم في جميع معاركهم وحروبهم، والاقتصاد بالقوى حتى تتوفر لهم القدرة على متابعة حمل الأمانة، وبذلك لم تكن فتوح المسلمين مجرد معركة حاسمة، أو حرباً صاعقة تتقرر بنتيجتها مسيرة السلم أو الحرب، وإنما كانت حروباً مستمرة، بعضها يأخذ شكل ما يطلق عليه اسم الصراع المسلح، وبعضها يأخذ ما هو معروف باسم الصراع السياسي، وكانت الحرب في الحالات جميعها حرب تدمير وبناء مستمرة؛ تدمير التكوين القديم للمجتمعات والمفاهيم والقيم، وبناء تكوين جديد لهذه المجتمعات وقيمها ومفاهيمها، وكان ذلك كله يتطلب قدرة هائلة لا من أجل خوض المعارك وتحقيق الانتصار في حروب الجهاد في سبيل الله، وإنما أيضاً من أجل إقامة المجتمعات الجديدة. وعلى هذا فقد كان مبدأ الاقتصاد بالقوى هو القاسم المشترك بين قادة المسلمين جميعاً، بداية من عهد رسول الله ﷺ وحتى آخر قادة فتوح المسلمين، وكان تطبيق هذا المبدأ عند عمرو بن العاص مميزاً وواضحاً بصورة خاصة؛ فقد استطاع عمرو الموازنة دائماً بين مجموعة العوامل التي تتدخل في المعركة، وإجراء التعادل بينها وبين العوامل المقابلة التي تضمن النصر، وكانت خسائر القوات التي يقودها عمرو محدودة باستمرار؛ ولم ينكب المسلمون تحت قيادته أو تنتكس لهم راية في جميع المعارك التي خاضوها معه.

وقد يكون من الصعب تقويم دور عمرو بمعزل عن مجموعة العوامل التي شاركت في تكوين شخصيته القيادية أو معرفة الحوافز التي استخدمها عمرو للوصول إلى أهدافه، ولكن المعلومات المتوفرة عن أسلوب قيادته تبرهن على أنه كان يهتم بتقدير الموقف قبل كل شيء، ثم يعطي الأهداف المتابعة الأفضلية التي تستحقها، ويقوم بحشد قواته كلها، ويقذف بها إلى المعركة بعد إعداد الظروف المناسبة للاشتباك؛ وكان مكيثاً لا يتسرع في حكمه، ولا يستأثر باتخاذ القرار، وكان ذلك يساعده على تكوين القناعة الكاملة بحتمية النصر، فكانت القوات تتحرك بقيادته وهي مدركة لدورها وبذلك كان يتم التنفيذ بصورة متكاملة

ومنسجمة مما كان يضمن تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، وليس المقصود هنا بمبدأ الاقتصاد هو توفير القوى وعدم استخدامها؛ بقدر ما يعني زجها كلها أو بعضها بحسب ما يتطلبه الموقف؛ مع الاحتفاظ دائماً بقوة احتياطية كافية لحسم الصراع المسلح في اللحظة المناسبة، وهذا بدقة ما كان يفعله عمرو، سواء في حروبه ضد الروم أو في معارك الحرب الأهلية.

وقد ذكر في معركة صفين «أن عمرو كان يرسل الكتائب في أثر الكتائب، فكلما تدخلت قوات لدعم أنصار عليٍّ رضي الله عنه زج عمرو كتائبه». وعندما توجه عمرو إلى مصر واصطدم بقوات محمد بن أبي بكر، أرسل إليه الكتيبة بعد الكتيبة. ولعل هذه النماذج وأمثالها هي براهين كافية على تقنين استخدام القوى، والحرص على تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى. ومن المحتمل الاختلاف في مضمون الشعار الذي طرحه عمرو يوم صفين لإيقاف الاقتتال وهو: «من لثغور الشام بعد أهله؛ ومن لثغور العراق بعد أهله؟». ولكن الذي لا يمكن الاختلاف بشأنه هو أن النتيجة كانت إيجابية إذ أمكن إيقاف الاقتتال في الحرب الأهلية وتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، وتوجيه الجهد كله إلى أعداء المسلمين. وقد كانت حروب عمرو كلها؛ حروب دهاء أو حروب تمارس فيها السياسة الاستراتيجية دورها بالدرجة الأولى، حسب التعريف الحديث، ومن الطبيعي والحالة هذه أن يحتل مبدأ الاقتصاد بالقوى مكانته في طليعة المبادئ التي حرص عمرو بن العاص على تطبيقها في حروبه كلها.

٦ ـ المحافظة على الهدف

ما من مبدأ يظهر واضحاً في أعمال عمرو بن العاص القيادية مثل مبدأ المحافظة على الهدف، ولعل مفاوضات عمرو مع المقوقس والاتفاقية المعقودة بينهما تبرهن على حرص عمرو وعمله الدائم للمحافظة على الهدف. كما أن نص اتفاقية عمرو مع معاوية، والتي تنص على تولي عمرو ولاية مصر مدى الحياة، هي نموذج آخر يبرهن على محافظة عمرو على الهدف. وتثير المقارنة بين نصي الاتفاقيتين مجموعة من النقاط المتعلقة بالهدف؛ فقد يكون هذا الهدف بالنسبة لعمرو بن العاص شخصياً، وقد يكون متعلقاً بالسياسة الاستراتيجية للفتوح، أو قد يكون متعلقاً بهدف محدود لا يتجاوز منطقة مسرح الأعمال القتالية. ولعل الظاهرة المذهلة هي محافظة عمرو بن العاص على الهدف في

الحالات جميعها، بصرف النظر عن طبيعة الهدف، ويبرهن ذلك على التكامل في طبيعة هذا القائد واندماج حياته الخاصة بحياته العامة، مما كان يدفعه إلى اعتبار الأهداف العامة، كأهداف السياسة الاستراتيجية وأهداف معارك الحرب، هي أهداف شخصية ترتبط باسمه وتحمل طابعه، ومن هنا يظهر التلاحم القوي بين شخصية عمرو بن العاص وبين أعماله ومنجزاته التي أخذت طابعه الشخصي.

ولعل هذا هو السبب الذي كان يحفز عمرو على تحقيق النصر بكل وسيلة ممكنة؛ فعمرو القائد الطموح لا يقبل الهزيمة؛ وهو لذلك يتخذ جميع تدابير الحيطة الضرورية للوصول إلى الهدف وتحقيق النجاح، ولقد كان هدف السياسة الاستراتيجية للعرب المسلمين، عندما انطلقوا من جزيرتهم هو إقامة المجتمع الإسلامي، وكان عمرو واحداً من القادة الذين حملوا أعباء هذه الأمانة؛ ولكنه لم يتمكن في جميع الأحوال من التغلب على العامل الشخصي؛ وقد ظهر ذلك في مرات كثيرة، سواء في غزوة ذات السلاسل، حيث أصر عمرو على ممارسة دوره القيادي حتى على أولئك الذين كان لهم فضل السبق في الإسلام، وكان شأنه كذلك عندما ولاه أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه إمارة أحد جيوش الشام، حيث أظهر عمرو تطلعه لقيادة الجيوش، بما فيها جيش «أبو عبيدة بن الجراح».
وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن القتال في جيوش المسلمين كان شرفاً كبيراً يتسابق إليه المسلمون الأوائل، وتكون قيادة مثل هذه الجيوش شرفاً لا يضاهيه شيء، وبذلك اجتمع التكليف بحمل الأمانة مع التشريف براية الجهاد. ومع إدراك عمرو لهذه الحقيقة إلا أنه لم يتمكن من تقديم التشريف على التكليف، أو وضعهما في مرتبة واحدة، على الأقل عند عمرو بن العاص، بخلاف بقية القادة من الرواد الأوائل الذين كانوا يطمحون إلى أداء الأمانة والسعي إلى شرف الجهاد والإسراع إلى الشهادة، وكانت ثقة عمرو بن العاص غير المحدودة بإمكاناته، ومعرفته لكفاءته القيادية هي في جملة العوامل التي كانت تحفزه لطلب شرف القيادة كوسيلة لأداء الأمانة.

وقد يكون الاختلاف كبيراً من حيث المضمون، وقد يكون التباعد كبيراً بين المنطلقات، ولكن النتائج كانت يقيناً إيجابية وفي صالح عمرو بن العاص. ولم يكن طغيان دوره الشخصي على أعماله ومنجزاته ضاراً أو مؤذياً بالنسبة للمحافظة على الهدف، أو بالنسبة لتحقيقه. فقد مضى عمرو إلى خالقه، ومضت

دهور وأزمان وهي تتناقل أعمال عمرو ومنجزاته، ويأتي جيل بعد جيل وهو يربط، مثلاً، بين أجنادين وبين اسم عمرو بن العاص، وبين معركة أم دنين وبين اسم هذا القائد المسلم. وقد يكون هناك ضرر كبير عندما يكون هناك اختلاف بين الهدف الشخصي وبين الهدف العام، ولكن دمج الهدفين معاً عند عمرو بن العاص كان خيراً على المسلمين، إذ استطاع عمرو، من خلاله، تحقيق هدفه الذي كان هدفاً للمسلمين جميعاً.

الفَصْلُ الثّالِث

قيادة عمرو بن العاص

أ ـ عمرو بن العاص وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجستيك».

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين.

٣ ـ التحريض والحض على القتال.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ عمرو بن العاص وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ عمرو وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية.

٥ ـ عمرو وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.



أ ـ عمرو بن العاص وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجستيك»

كان جيش المسلمين يمضي إلى أهدافه وهو متحرر من الأعباء الإدارية؛ فكان المقاتل لا يحمل من الزاد إلا ما يكفيه لتجاوز مرحلة المسير؛ وكان هذا الجيش يعتمد في تعايشه على ما توفره البيئة المحيطة من موارد تموينية وغذائية. وقد كان لهذا الأسلوب ميزاته؛ إذ أن عدم الاعتماد على المخازن والمستودعات حرر القوات من أعبائها الإدارية، وضمن لها القدرة على المناورة وسرعة الحركة؛ كما أن التعايش في الوسط المحيط كان من شأنه حرمان العدو من موارده الحياتية والتموينية[1]، ولكن ذلك كان يلقي على عاتق القادة أعباء إضافية؛ ذلك أن أعمال القتال كانت تتطلب تأمين الإمدادات المختلفة، سواء لتغذية آلة الحرب، مثل تأمين أدوات اقتحام الأسوار وأجهزة اقتحام التحصينات، كالسلالم والمجانيق والأوهاق وغيرها من الأعتدة المختلفة الخفيفة منها والثقيلة؛ أو من أجل تأمين إمداد القوات باحتياجاتها التموينية، كالأغذية للمقاتلين والعلف للخيول. وتتعاظم هذه الأعباء بالنسبة للقادة عند معرفة أن تأمين هذه المتطلبات يجب أن يكون متوافقاً مع الهدف السياسي الذي يفرض إقامة علاقات حسنة مع السكان. وقد ظهرت كفاءة عمرو بن العاص في هذا المجال في مواقف كثيرة، لعل أبرزها إرساله من يطلب إلى أهل القرى

(١) لقد بقيت الجيوش الأوروبية تعتمد على المخازن والمستودعات حتى أيام نابليون بونابرت، وكان تحرر جيوش الثورة من أعبائها الإدارية هو في طليعة العوامل التي ساعدت نابليون على الانقضاض بسرعة على إيطاليا؛ وتحقيق انتصاراته الحاسمة، وبذلك يكون النظام الإسلامي قد سبق النظام الغربي بأكثر من عشرة قرون في مجال تأمين المتطلبات الإدارية من مسرح العمليات ودعم القدرة الحركية للجيوش، علماً أن الجيوش الأوروبية لم تتمكن من تحقيق التوازن بين تأمين متطلباتها الإدارية وبين إقامة علاقات جيدة مع السكان لإقامة سلم دائم في حين حقق المسلمون ذلك.

والبلاد البقاء في قراهم وبلادهم بعد أن بلغه أنهم أخذوا في الفرار من وجه جيش المسلمين بعد احتلال بلبيس. وقد توجه الرسل إلى أهل القرى وقالوا لهم: «**لا يرحل أحد من بلده ونحن نقنع بما توصلونه إلينا من الطعام والعلوفة؛ فأجابوا إلى ذلك**».

وتضمنت اتفاقية عمرو مع المقوقس تقديم العون للمسلمين، فقام القبط بفتح الأسواق التي واكبت تحرك الجيش؛ وبذلك اضطلع أهل البلاد بواجب التأمين الإداري للقوات، علاوة على اضطلاعهم بواجب التأمين الهندسي. ومن المعروف أن جيش عمرو بن العاص لم يحمل معه من فلسطين أدوات العبور كالسفن، ولا أدوات اقتحام الأسوار، كالسلالم والحبال، ولا أدوات قصف التحصينات كالمجانيق، وقد اضطر المسلمون إلى تأمين هذه المتطلبات من مسرح الأعمال القتالية ذاته. وكان التأخير في تأمين هذه المتطلبات يؤثر أحياناً على مسيرة الأعمال القتالية؛ فقد أدى غياب وسائط اقتحام الأسوار إلى حصار أم دنين فترة طويلة، كما أدى غياب المجانيق إلى إطالة أمد حصار الإسكندرية، ولكن هذا التأخير كان أهون في جميع الأحوال من إثقال كاهل القوات بالأعباء الإدارية عند تحركها. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن تأمين هذه المتطلبات، حتى ولو جاء متأخراً نسبياً في بعض الأحيان، إنما هو برهان على اهتمام عمرو بن العاص بالتأمين الإداري لقواته وتلبية متطلباتها في جميع الظروف. وصحيح أن المتطلبات الإدارية لجيش المسلمين كانت محدودة ومتواضعة، سواء بالنسبة لأنواعها أو حتى بالنسبة لكمياتها، قياساً على ما كانت تتطلبه الجيوش المقابلة، كجيش الروم الذي كان يزيد في مصر على عشرة أضعاف حجم جيش المسلمين، ولكن قضية اهتمام عمرو بن العاص بالشؤون الإدارية تتجاوز قضايا النوع أو الكمية لتصل إلى قضية المبدأ ذاته، وهو إقامة التوازن بين تأمين متطلبات القوات إدارياً؛ وبين أسلوب العمل لإقامة مجتمع ما بعد الحرب، وبذلك يحتل عمرو المركز المرموق في التوفيق بين مختلف العوامل التي تحقق النصر النهائي.

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

كانت هناك قرية اسمها «خربة» أهلها رهبان كلهم؛ فغدروا بقوم من مؤخرة جيش عمرو ـ ساقته ـ فقتلوهم بعد أن بلغ عمرو الكربون، عند فتح الإسكندرية

الثاني، فأقام عمرو ووجه إليهم مولاه، وردان، فقتلهم وخربها، فهي خراب إلى اليوم، ويعرف موقعها باسم «خراب خربة وردان». وعندما فتح المسلمون الإسكندرية ـ الفتح الثاني ـ أمعن عمرو بن العاص في قتل الروم داخل الإسكندرية، ثم كلموه في ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، وبنى في ذلك الموضع، الذي رفع فيه السيف مسجداً؛ وهو المسجد الذي يقال له مسجد الرحمة في الإسكندرية.

قد تظهر مثل هذه النماذج من الأعمال، وهي متناقضة مع ما هو معروف عن حروب عمرو بن العاص، من أنها حروب هينة، ما لها سطوة ولا سورة كسورات الحروب، ولكن تحليل الأعمال القتالية للقائد المسلم عمرو بن العاص يظهر بوضوح أنه كان يحاول الوصول إلى غاية السلم بصورة غير مباشرة، ولكن، ومقابل ذلك، فقد كان عمرو صلباً عندما يقرر خوض القتال، ويحرص على حسم القتال في المعركة بتصفية قوات العدو وإبادتها إبادة كاملة، على نحو ما فعله في بلبيس وفي عدد من المواقع الأخرى. وتزداد قسوة عمرو وصلابته عندما يتعرض المسلمون للغدر؛ فقد كان عقابه في مثل هذه الحالات صارماً حتى يردع الأعداء عن التفكير بالغدر، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن أمنهم وسلامتهم، وليس من الغريب بعد ذلك أن يكون العقاب مطابقاً للعمل، فالغدر أصلاً يتنافى مع شريعة الحرب عند العرب المسلمين، وهو يلحق الضرر الكبير بمخططات الحرب، أو بمخططات إقامة المجتمع الإسلامي وبصورة خاصة في مرحلة البناء. ومن هنا يظهر أنه ما من تناقض أو تعارض بين قيادة عمرو المرنة والمتساهلة في حدود الهدف، وبين أساليبه الصلبة والقاسية عند مخالفة مراكز القوى المعادية لشروط الصلح، أو غدر هذه المراكز ـ بعضها وليس كلها ـ بالمسلمين. ولكن رغم ذلك يظهر واضحاً أن توجيه الضربة القوية والحاسمة لمراكز الغدر كانت مقننة بدقة وإحكام، ولا تتجاوز حدود منطقة الغدر، كما أن توقيع القصاص كان فورياً وبدون أي تأخير؛ فرغم انصراف قوات المسلمين لحرب صعبة في الإسكندرية، فإن عمرو لم ينتظر انتهاء الحرب حتى يؤدب «خربة» وإنما أرسل وردان مباشرة لإزالة القرية المتمردة الغادرة وإبادة الغادرين؛ بحيث لا يترك في ذلك مجالاً لتفاقم الشر أو تعاظم الخطر؛ وبشكل يأتي تنفيذ العقاب في إطار الحرب وتنفيذ الأعمال القتالية؛ وعمرو حتى في مثل هذه الظروف يترك مجالاً للرحمة؛ فعندما يأتيه من يطلب الرحمة

يستجيب لها، ذلك أنه لا ينطلق من منطلق الحقد؛ وإنما ينطلق من منطلق البناء؛ ومعطيات الخير في البناء لا بد لها وأن تتغلب على معطيات الشر الذي يأتي من طرف أعداء المسلمين ـ بعضهم وليس كلهم ـ. وكان هذا العنف المقنن هو الذي ساعد عمرو على تكوين عتبة من الردع النفسي التي ضمنت بناء المجتمع الجديد في مناخ من الاستقرار والهدوء. ويكون استخدام العنف مجرد وسيلة وليس غاية في حد ذاته... وهو وسيلة خاضعة دائماً لمتطلبات البناء السلمي، وهذا ما كان يفرض استخدامها بمهارة كبيرة وكفاءة عالية، ولم يكن عمرو يفتقر إلى مثل تلك المهارة أو الكفاءة، فجاء النجاح رائعاً في استخدام الوسيلة.

لقد كان عمرو بن العاص ليناً، سهلاً، وكان في الوقت ذاته عضاً قاسياً، ومن هذا التناقض في الطبيعة كان يتحقق التوافق الكامل في معالجة المواقف المتناقضة، فكان «سهلاً إذا ما سوهل وعسيراً إذا ما عوسر»، وتزول كل ظاهرة للتناقض عند وضع هذه المتناقضات ظاهرياً في إطار غاية السلم وهدف الحرب.

٣ ـ التحريض والحض على القتال

يشكل التحريض والحض على القتال قسماً من العقيدة القتالية الإسلامية، وهو يهدف إلى إبراز أهمية المعركة التي يتم خوضها؛ وواجب القوات فيها؛ وتوزيع الواجبات على المقاتلين؛ ومعالجة المواقف المحتملة؛ مع إثارة الحماسة والتذكير بما فرضه الإسلام للمجاهدين من ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. وبذلك كان التحريض ذا هدف مزدوج هو إقناع المقاتل عقلياً وإثارة حماسته عاطفياً. وقد سار القادة جميعهم على سنة رسول الله ﷺ في تنفيذ تقاليد الحرب، كقراءة سورة الجهاد قبل المعركة، وإلقاء كلمة من القائد للتحريض والحض على القتال، مع توجيه الخطباء والشعراء لإثارة الحماسة، ولكن من المؤسف أن ما حفظه التاريخ عن عمرو بن العاص، في هذا المجال، هو قليل جداً ولا يساعد على تكوين فكرة واضحة عن الأسلوب الذي كان يتبعه لتنفيذ تقاليد حرب المسلمين، ولكن مسيرة الأعمال القتالية تبرهن على أن عمرو كان يقود قواته إلى القتال، وينتقل بها من معركة إلى معركة؛ من دون أن يظهر ولو سؤال واحد على لسان المقاتلين لمعرفة هدف الحرب أو مخطط المعركة.

ويظهر أن أوامر القتال التي كان يصدرها عمرو كانت على درجة كافية من الوضوح بحيث أنها لا تترك مجالاً للغموض أو الالتباس؛ على نحو ما فعله عندما وزع قوات الكمين في هليوبوليس، أو عندما أرسل قواته لفتح نبارة ـ أو ـ سبرت. ومن المحتمل أن يكون عمرو بن العاص قد دمج مضمون التحريض والحض على القتال بتعليمات القتال، بحسب ما تظهره أوامر القتال التي حفظها التاريخ. ولكن من الواضح تماماً؛ أنه كان لعمرو أيضاً أساليبه الخاصة في التحريض على القتال، وكانت هذه الأساليب تعتمد على إغناء العقل والإقناع أكثر مما تعتمد على إثارة العاطفة، وقد يكون السبب في ذلك هو قناعة عمرو ذاته بأن لدى قواته رصيداً من الإيمان، وقدراً من الحماسة؛ ما يزيد على مضمون الكلمات الحماسية مهما بلغت هذه الكلمات من القوة والبلاغة. وكان التذكير بآيات قصيرة، أو الإشارة إلى نص معين كافياً لتحقيق هذا الهدف، مثل قول الزبير بن العوام عند فتح بابليون: «إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين»، لا سيما وأن أعمال عمرو بن العاص في فتح مصر قد جاءت بعد فتوح الشام. وشعر المسلمون أن لديهم قدرات كامنة تكفي لتحقيق أهدافهم كلها، وكان الرصيد المعنوي ضخماً ولم يعد في حاجة للمزيد، كما اكتسب المقاتلون خبرة طويلة من خلال العمل الدائم طوال سنوات عديدة في تشكيل مقاتل واحد وبقيادة واحدة. وبذلك أصبح باستطاعة عمرو طرح الفكرة الأساسية للعملية وترك تنفيذها للمقاتلين الذين أصبحوا على معرفة بطرائق تفكير قائدهم، وأساليبه بمجرد الإشارة إليها ومن دون الحاجة لذكر تفاصيلها أو دقائقها.

فإذا ما أمكن تجاوز هذه الظاهرة للوصول إلى أسلوب التحريض والحض على القتال، في الحرب الأهلية، فسيظهر أن عمرو قد حقق نجاحاً رائعاً باستخدامه هذا الأسلوب، أسلوب الإقناع العقلي؛ إذ أن الحرب هنا بين قوات المسلمين بعضها مع بعض؛ ومن المحال في هذه المواقف إثارة مضمون الجهاد في سبيل الله؛ فجاء أسلوب الإقناع العقلي بالهدف السياسي بديلاً عن أسلوب إثارة الحماسة الانفعالية. ولا ريب أن الأسلوب الذي طبقه عمرو قد اعتمد على عاملين: الأول، هو العمل الدؤوب والمستمر لترسيخ القناعات بعدالة الحرب. والثاني، هو تنفيذ أعمال القتال على قاعدة الثقة الشخصية، بحيث أن قادة عمرو ومرؤوسيه لم يكونوا يسألونه عما يريد أو ما يفعل، في حين كان أنصار

علي رضي الله عنه يسألونه ويناقشونه. وبذلك يكون عمرو قد استوعب المضمون الحقيقي لمفهوم التحريض على القتال والحض عليه، وعمل على تطويره مستفيداً في ذلك من مجموعة الخبرات التي اكتسبها خلال ممارسته لأعماله القيادية، ويكون عمرو بذلك قد تقدم أشواطاً بعيدة في تطوير أوامر القتال بحسب مفهومها الحديث.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

اشتد القتال على المسلمين، عند فتح الإسكندرية الثانية، فقام عمرو بن العاص بالناس؛ وصلى صلاة الخوف. ويمكن التساؤل: هل كان خوف عمرو هو نتيجة لمجابهة خطر غير متوقع؛ أم أنه خوف من الفشل؟.

من الواضح جداً أن عمرو كان يمتلك قدراً كبيراً من الشجاعة لمجابهة جميع أخطار القتال، ما كان منها متوقعاً أو غير متوقع؛ فقد عرف الحرب، وعايشها طويلاً؛ واقتحم أهوالها؛ وصبر في المواقف التي تهلع لها قلوب الرجال؛ وليس ذلك فحسب بل إنه كثيراً ما قذف بنفسه إلى قلب موقع الخطر؛ وليس هناك من ينكر أن ذهاب عمرو إلى معقل أرطبون هو اقتحام الخطر ذاته، وكذلك عندما كرر هذه العملية في مصر. وقد جابه عمرو أيضاً مواقف الخطر أثناء الحرب الأهلية، ولم يذكر أحد أن عمرو قد عرف الخوف؛ أو اهتز عند مجابهة الخطر؛ ولكن عمرو يخاف الفشل؛ ويخشى الهزيمة؛ ذلك أن مثل هذا الخطر لن ينال شخصه بقدر ما ينال قوات المسلمين التي تعمل تحت قيادته. وعمرو بن العاص قائد عربي مسلم؛ وهو يعرف أن «النصر من عند الله»، وأنه لا غالب إلا الله، وهو يجابه الخوف بالتوجه إلى الله الناصر الذي يلقي بسكينته في قلوب المؤمنين ويؤيدهم بالنصر. وتصبح بذلك صورة الخوف واضحة تماماً عند القائد عمرو بن العاص، والخوف بعد ذلك صفة طبيعية في الإنسان تقابلها صفة الشجاعة. وطبيعة الخوف أيضاً مختلفة، فهناك الخوف من الظلمة، والخوف من المجهول أو الأمر غير المتوقع؛ والخوف من الفراغ... إلخ. ولكن هذه المواقف تتناقص بحسب الخبرة، وتتراجع عتبة الخوف عند معرفة النتائج الناجمة عن الخطر.

وكانت النهاية العظمى للنتائج في عقيدة المسلمين هي: الشهادة في سبيل الله، وبذلك تكون عتبة الخوف عند الإنسان المؤمن هي خارج حدود القدرة البشرية؛

ومرتبطة بقضاء الله وقدره. ومع القضاء على عامل الخوف يظهر عامل الشجاعة كأول فضيلة يتحلّى بها المقاتلون المسلمون. وقد كان من المحال على عمرو بن العاص قيادة جيش من هذا النوع؛ لو لم يكن يمتلك قدراً من الشجاعة يزيد على ما هو متوافر لدى بقية المقاتلين المسلمين، لا سيما وأنهم كانوا يتباهون بالشجاعة بقدر ما كانوا ينفرون من صفات الجبن والخوف، حتى أصبحت هذه الصفات عاراً كافياً لإبعاد المقاتل عن ميدان الجهاد. وكان في إبعاد الجبان عن مسرح القتال تدبير وقائي حتى لا تشيع روح الضعف أو التخاذل في جيوش المسلمين قليلة العدد، والتي تعتمد على فضيلة الشجاعة كعامل أساسي للتغلب على النقص العددي. وهكذا فإن نوعية المقاتل هي الأساس الذي أكسب الجيوش الإسلامية فضائلها الحربية؛ وتأتي الشجاعة في مواجهة الخطر في طليعة تلك الفضائل كلها.

هذا، ومما تجدر الإشارة إليه أن جيش عمرو قد ضم من المقاتلين ومن القادة ممن عرفوا بشجاعتهم في مواجهة الخطر، أمثال عقبة بن نافع وعبد الله بن سعد وخارجة بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو ومسلمة بن مخلد وعبادة بن الصامت، وأضرابهم ممن يصعب حصرهم، فكان من الطبيعي أن تشيع روح الشجاعة وأن تبرز صفة الإقدام لتشمل كل مقاتل، حتى من كان به ضعف، أو من بقيت في أعماق نفسه بعض رواسب الخوف، وبذلك توفرت جميع الشروط الضرورية لتوفر فضيلة الشجاعة في مواجهة الخطر، وأبرزها الإيمان المطلق بعدالة القضية التي يجاهد المسلمون في سبيلها؛ فيقاتلون ويقتلون؛ والثقة المطلقة بين المسلمين بعضهم ببعض وتضامنهم غير المحدود؛ حتى ليفدي كل مسلم صاحبه؛ ثم ثقتهم بقيادتهم التي كان يقف عمرو بن العاص في موقع القمة منها. وبمثل هذا الإيمان وبمثل هذه الثقة؛ لم يعد للمقاتلين في جيش المسلمين ما يخافونه؛ وظهر الجيش كقطيع من الأُسود يقوده أسد في شجاعته وإقدامه، فأصبح هذا الجيش كثيراً في نظر أعدائه وهو قليل، وأصبح جيش الأعداء قليلاً وهو في عدده كبير، وأصبح النصر حليفاً لعمرو بن العاص وجيشه في فتح فلسطين ومصر.

٥ ـ القرارات الصحيحة

«القرار هو القائد، والقائد هو القرار»، معادلة متكافئة لا يمكن تقويم أحد

طرفيها من دون الطرف الآخر؛ فلا وجود للقرار من دون قائد، ولا معنى لوجود القائد إن لم يتخذ القرار، وليس ذلك فحسب وإنما الإشراف على تنفيذه والمشاركة في هذا التنفيذ، إذا كان ذلك بالمستطاع، وتأتي بعد ذلك النتائج لتبرز أهمية تلك القرارات وقيمتها. فبقدر ما تكون النتائج ناجحة وإيجابية بقدر ما تكون القرارات صحيحة؛ وبقدر ما تكون النتائج فاشلة وسلبية بقدر ما تكون القرارات خاطئة، وتتحدد بذلك المعطيات التي يمكن لها تقويم القائد من خلال قراراته الصحيحة. وقد يكون من الصعب عند التعرض لسيرة عمرو بن العاص القيادية انتقاء موقف محدد للبرهان على قراراته الصحيحة، إذ كانت أعماله القيادية جميعها ناجحة، وكان النصر حليفاً له في معاركه كلها، وكانت نتائج أعماله ثابتة ومتوافقة مع الهدف الذي كان يعمل لتحقيقه، فكان بذلك نموذجاً للقائد المحظوظ الذي يتخذ قراراته الصحيحية دائماً في الوقت المناسب؛ ويعمل على تنفيذها بدقة كاملة حتى تأتي مطابقة للجهد المبذول، من جهة؛ ومتوافقة مع غاية السلم وهدف الحرب، من جهة أخرى. وهل كان فتح مصر أكثر من قرار اتخذه عمرو بن العاص؟ ثم هل كانت موقعة أجنادين قبل ذلك سوى قرار اتخذه عمرو وقام بالإشراف على تنفيذه؟ وقصة التحكيم وحقن دماء المسلمين، هل تتجاوز حدود القرار الصحيح؟ ورأي عمرو قبل ذلك بضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك هل كان أكثر من قرار مسبق تَمَّ اتخاذه وأجمع عليه قادة المسلمين؟.

فإذا أمكن تجاوز ذلك إلى محيط العمليات، ظهرت أمور مذهلة تبرهن كلها على طريقة عمرو في اتخاذه لقراراته، إذ كان يعتمد في قراراته على ما هو معروف حديثاً من أسس اتخاذ القرارات؛ بداية من الاستطلاع وجمع المعلومات ومروراً بتقدير الموقف وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية لاتخاذ القرار، مثل الطبيعة الجغرافية والأهمية الاستراتيجية للموقع والطبيعة البشرية. . .إلخ، إلى أن ينتهي باتخاذ القرار. وكثيراً ما كانت هذه العمليات تتطلب بعض الوقت؛ فكان أسلوب عمرو هو عدم إخضاع قراراته للعامل الزمني وإنما تسخير هذا العامل لمصلحة قراره؛ وذلك عن طريق استخدام عامل الزمن استخداماً جيداً، والقيام بجميع الأعمال الممكنة في حدود هذا العامل إلى أن تنضج اللحظة المناسبة للتنفيذ، فيصدر القرار الذي يظهر أحياناً بصورة متكاملة وفورية مع أن الإعداد له قد تطلب وقتاً طويلاً؛

وظهر ذلك بصورة خاصة عند عقد اجتماع بقيادة معاوية لمناقشة الموقف، فأعطى عمرو قراره بالتوجه فوراً لفتح مصر بالقوة، وخالفه معاوية على أمل أن يتم الفتح وإعادة السيطرة من دون استخدام القوة المسلحة؛ ولكن ذلك لم يتحقق، فرجع معاوية لرأي عمرو ووجهه على رأس قوة لحرب محمد بن أبي بكر، وانتزاع مصر من قبضته.

وقد كان باستطاعه عمرو الإلحاح على بيت المقدس وتشديد الحصار عليها حتى يتم له فتحها، ولكنه عرف أن ذلك قد يكلفه جهداً لا ضرورة له، وهو قد يصل إلى نتيجة أسوأ من تلك التي يمكن الوصول إليها عن طريق الصلح؛ فأرسل إلى الخليفة عمر يعلمه بحقيقة الموقف ويقترح عليه الحضور لعقد الصلح مع أهل بيت المقدس، وكان هذا السلوك هو أفضل نموذج يصور طريقة عمرو بن العاص في اتخاذ قراراته، كما أنه أفضل نموذج للبرهان على هدف المسلمين من الحرب، وهو إقامة المجتمع الجديد، بصرف النظر عن الوسيلة المتوفرة إن كانت سلماً أو حرباً. إن ذلك لا يعني بداهة عدم ارتكاب عمرو لأي خطأ في قراراته، ولكن مثل تلك الأخطاء في تقدير الأمور كانت تقع في الموقع الهامشي أو الجانبي بحيث أنها لم تكن تحمل أي خطر يتهدد مسيرة الأعمال القتالية؛ أو تؤثر على عملية بناء مجتمع المسلمين.

٦ ـ حماية المرؤوسين

ما من حدث، كبيراً كان أو صغيراً؛ يمكن له أن يحمل مضموناً وحيداً، وما من عبارة إلا ويمكن الاختلاف في تفسير ظاهرها وباطنها. وعلى هذا فقد كان اقتحام عمرو بن العاص لمواطن الخطر في مرات كثيرة؛ هو عمل يحمل في مضمونه حماية المرؤوسين، كما أن منع المسلمين من مطاردة خصومهم في غزوة ذات السلاسل هو عمل يتضمن حماية المرؤوسين، وعدم توريطهم في مواقف غير معروفة النتائج، وكذلك منعه للمسلمين من إيقاد النيران في ليالي البرد، أثناء غزوة ذات السلاسل أيضاً، ومثل ذلك يوم وقف على أسوار بابليون ومنع المسلمين من التدافع لصعود السلم. ولكن كل هذه الشواهد التي تحمل ظاهرة الحماية المباشرة للمرؤوسين أقل أهمية من تلك الأعمال غير المباشرة والتي تضمن حماية المرؤوسين. فتأمين القوات إدارياً؛ وتحقيق مبدأ أمن العمل واتخاذ القرارات الصحيحة، كل ذلك مما يؤمن حماية المرؤوسين بصورة عامة

وشاملة. وقد يكون الحرص على النجاح؛ وإعداد الظروف المناسبة لزج القوات في طليعة الأعمال التي تؤمن حماية المرؤوسين، وهي تتجاوز في أهميتها ظواهر الحماية المباشرة.

ومهما كان عليه الموقف؛ فقد ظهر من استعراض الأعمال القيادية للقائد عمرو بن العاص، أنه كان شديد الحرص على حماية مرؤوسيه في جميع الظروف؛ سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وقد يكون التزام عمرو بهذا المبدأ هو في طليعة الأسباب التي ضمنت لعمرو ولاء المقاتلين التابعين له ومبادلته الثقة بثقة مقابلة وبصورة غير محدودة، حتى كانوا لا يسألونه ماذا يريد أو ماذا يفعل. ويمثل مفهوم حماية المرؤوسين في واقعه أبرز مفاهيم فن القيادة، وهو فن لا يعتمد على التعليم بقدر ما يعتمد على الموهبة الفطرية أو الكاريسما القيادية[1]. وقد كان عمرو موهوباً؛ ثم جاءت الممارسة العملية لقيادة القوات في السلم والحرب فطوَّرت موهبته وساعدته على إقامة علاقاته مع مرؤوسيه، وفق أسس ثابتة يشكل مفهوم حماية المرؤوسين قاعدة لها. ويظهر هنا دور العقيدة الدينية الإسلامية؛ ودور العقيدة القتالية التي حددت طبيعة تلك العلاقات، فحمَّلت القائد مسؤولية حماية مرؤوسيه، والحرص عليهم، كما فرضت على المرؤوسين واجب الطاعة المطلقة، في حدود طاعة الخالق، وبمفهوم أكثر تحديداً في حدود تنفيذ الواجب.

وقد يكون من الصعب تصور قدرة القائد على تحقيق النجاح في ممارسة أعمال القيادة إن لم يكن هناك حرص من القائد على حماية مرؤوسيه، وضمان جميع الظروف الممكنة لتنفيذ الواجب. ويختلف الموقف بين الأخذ بهذه المعطيات كوسيلة لتحقيق النجاح ـ ذات صفة مرحلية ـ مما لا يترك لتلك العلاقات صفة القوة والثبات؛ وبين الأخذ بها على أساس أنها قسم من العقيدة الدينية والعقيدة القتالية، بحيث تبقى تلك العلاقات ثابتة وقوية. وقد كانت علاقة عمرو ومرؤوسيه ثابتة وراسخة، بحسب ما برهنت عليه مسيرة الأحداث التالية؛ مما لا يترك مجالاً للشك في أن أسلوب عمرو وطريقته لحماية مرؤوسيه

---

(١) **الكاريسما القيادية**: كلمة يونانية أصبحت شائعة الاستخدام في العصر الحديث في مجالات القيادة والأدب والاجتماع، ويقصد بها الصفات الفطرية التي تؤهل الفرد لممارسة دور قيادي، وتظهر أعماله في نظر أتباعه على أنها خارقة للطبيعة، فيعطونها صفة «القدرة الإلٰهية»، ويُعتبر هتلر وموسوليني ممن تتوفر لديهم «الكاريسما القيادية».

لم تكن مجرد كاريسما قيادية، ولا استجابة لمجابهة ظروف طارئة، وإنما هي تلاحم مجموعة من العوامل تشكل العقيدة الدينية قاعدة لها، وتشكل الموهبة الفطرية عاملاً قوياً فيها، وتشكل الحاجة أو مجموعة الظروف المحيطة بعمل قوات المسلمين عاملاً ثالثاً، أدى إلى المشاركة في الخطر وتحمل أعباء الجهاد مما فرض على القائد عمرو بالتالي مزيداً من الأعباء للقيام بواجبه والعمل على حماية مرؤوسيه بكل ما يستطيعه. وكانت طبيعة حياة المقاتلين المسلمين؛ ببساطتها وتماثلها، حتى كأن القائد واحد من المقاتلين لا يتميز عنهم بشيء، عاملاً أساسياً في فهم ما يتعرض له المقاتلون من معاناة، وإظهار ما يجب على القائد عمله لحماية مرؤوسيه.

ب ـ عمرو بن العاص وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

أ ـ استطلع خارجة بن حذافة حصن بابليون (أم دنين) الذي حاصره المسلمون طويلاً؛ ولم يتمكنوا من اقتحامه؛ وكان الزبير بن العوام قد أعد السلالم لاقتحام الحصن، وعندما اشتد الحصار قال الزبير: إني أهب نفسي لله؛ أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين. ووضع سلماً إلى جانب الحصن، من ناحية سوق الحمام، ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً؛ فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبِّر ومعه السيف. وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر؛ واقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبَّر وكبَّر من معه.

ب ـ خرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة حتى ابتعدوا عن العسكر؛ ثم رجعوا فأصابهم الحر؛ فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتها. فنظر المدلجي وأصحابه، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة؛ ووجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذي غاض فيه البحر؛ فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة؛ وكبَّروا؛ فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم؛ وأبصر عمرو وأصحابُه «الله أكبر» في جوف المدينة؛ فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم. واقتحم عمرو المدينة بعد أن حاصر طرابلس شهراً ولم يتمكن من اقتحامها.

صورتان فقط من مجموعة صور لا نهاية لها تعبر كلها عن موقف قوات العرب المسلمين واستعدادها الدائم للقتال، وقد خرجت هذه القوات من جزيرتها وهي تحمل أمانة نشر الإسلام، وهي لم تخرج وراء غنم تسعى إليه، وكلٌّ قد وهب نفسه لله وهو يرجو أن يفتح الله على المسلمين، وكلٌّ كان يعرف

أن أداء الأمانة ليس مجرد مسيرة سهلة، وإنما هو جهاد وتضحية واحتمال لكره القتال. ولعل مسيرة عمرو بن العاص هي في حد ذاتها برهان على الحالة النفسية، والحالة الجسدية التي كان عليها العرب المسلمون واستعدادهم الدائم للقتال. وقد تطلب فتح فلسطين خوض معارك متصلة لم تكد تصل إلى نهايتها بعد أربعة أعوام ونيف حتى قاد عمرو هذا الجيش «جيش فلسطين» عبر الصحراء التي ابتلعت أصحاب موسى عليه السلام. واحتمل المسلمون مناخ الصحراء؛ وجهد المسير؛ حتى وصلوا إلى مصر ليبدأوا من جديد حروب الجهاد.

ولم يكن فتح مصر سهلاً، بالنسبة لحجم القوات القليلة؛ فقد كان على كل مسلم خوض الحرب مع الاستعداد الدائم لها باستمرار. وقد تضعف الحالة النفسية للإنسان بعد مرحلة من الجهد البدني والضغط النفسي إلا أن قوة الإيمان كانت أعظم من كل ضعف؛ وأقوى من كل تخاذل؛ فتجاوز المسلمون عتبة الضعف الإنساني، وتغلبوا على كل النتائج التي تسببها الحروب المستمرة، فوصلت قواتهم إلى حدود تونس، حالياً، وهي مسيرة شاقة، حتى لو لم تتخللها حروب، وحتى لو لم تعترضها عقبات أو صعاب. وكان على قوات المسلمين بعد ذلك البقاء في حالة استعداد دائم للقتال لمجابهة احتمال قيام الروم بغزو الثغور، على نحو ما حدث في الإسكندرية بعد ذلك. وقد لا تكون هناك حاجة للقول بعد ذلك أن ما تم إنجازه خلال عشر سنوات تقريباً، منذ غادر العرب جزيرتهم، وحتى أمكن لهم الانتهاء من فتح مصر، هو عمل لا يمكن إنجازه إلا بما يشبه المعجزة، لا سيما مع ما هو معروف من ضعف قوة المسلمين العددية. وليس من الغريب بعد ذلك أن تتميز جيوش المجاهدين في سبيل الله، بخصائص ومميزات ما عرف تاريخ فن الحرب لها مثيلاً، وقد يكون شرفاً كبيراً لعمرو بن العاص، القائد المسلم، أن يقود جيشاً من هذا النوع، فيضم إمكاناته إلى ميزات هذا الجيش، ويحقق انتصارات خالدة أبد الدهر.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

«كنت أرعى غنماً لأهلي بالقواصر، يوم نزل عمرو ومن معه؛ فدنوت إلى أقرب منازلهم؛ فإذا بنفر من القبط كنت قريباً منهم؛ فقال بعضهم لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم؛ يقدمون على جموع الروم، وإنما هم في قلة من الناس. فأجابه رجل آخر منهم فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا

ظهروا عليه ـ انتصروا ـ حتى يقتلوا خيرهم»[1].

وكتب عمرو، إلى أمير المؤمنين عمر يستمده، فأرسل إليه قوة من ٤ آلاف رجل على كل ألف منهم رجل، وأرسل إليه رسالة يقول فيها: «إني أمددتك بأربعة آلاف رجل؛ على كل ألف منهم رجل مقام الألف... وأن معك اثني عشر ألفاً، ولا يُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة».

لم يكن عمرو بن العاص يجهل قواعد الحساب، وهو الذي مارس التجارة، وعلى هذا فإنه كان قادراً، بعملية حساب بسيطة، أن يعرف بأن ميزان القوى في غير صالحه بمعدل واحد إلى عشرة فيما إذا جابه قوات الروم وحدها؛ وأن هذا الميزان قد يرتفع ليبلغ واحد إلى ١٥، أو واحد إلى عشرين فيما إذا تعاون القبط والروم ضده، وكان هذا الاحتمال قوياً في بدايته، وقبل أن تتم له تجزئة الحرب إلى مجموعة من المعارك المستقلة. كما أن قوات المسلمين لم تكن تجهل، وهي تتحرك من العريش، أن أمامها مفازة دونها الأهوال والمصاعب غير المحدودة أقلها السير الطويل عبر الصحراء، وقلة المؤونة، وفقدان المواد الحياتية في مناطق جرداء مقفرة، ورغم ذلك؛ لم يتوفر ولو برهان واحد، يشير إلى أن هذه القوات قد أظهرت أي تردد أو حتى مجرد تساؤل عن المصير الذي قد تتعرض له، أو القوات التي ستجابهها.

ولقد كانت هناك مجموعة من المميزات التي تستفيد منها قوات العدو، مثل معرفتها لطبيعة مسرح العمليات من الناحية الجغرافية، ومثل اعتمادها على مخزون ضخم من الموارد الحياتية، ومثل تفوقها بالوسائط التي يمكن إضافتها إلى تفوقها العددي، بالإضافة إلى أنها كانت تخوض حرباً دفاعية في أرضها ومنطقة عملياتها. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعرف هذه الصعوبات كلها مما دفعه إلى التردد في توجيه الحملة لفتح مصر، ولكن أمير المؤمنين أيضاً كان يعرف الميزة الكبرى التي تنفرد بها قوات المسلمين، فقد أرسل دعماً لا

---

(١) فتوح مصر والمغرب ـ ابن الحكم ـ ص٨٥. والمتحدث بهذا القول قبطي أسلم هو «كريب بن أبرهة». والقواصر: بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير، ومكانها الآن القصاصين. وقد جاء في معجم البلدان: إنها موضع بين الفرما وحصن بابليون. وتذكر المصادر التاريخية أن «بحيرة المنزلة» كانت قد طغت على ما حولها بعد استيلاء عمرو بن العاص على الفرما، وأصبح الطريق الساحلي الذي اعتادت الجيوش الغازية عبوره غير مأمون ومسالكه صعبة، فلزم عمرو طريق الصحراء نحو الجنوب حتى وصل إلى وادي الطمبلات، قرب التل الكبير.

يزيد على أربعة آلاف، على رأس كل ألف قائد يعادل ألفاً. فما هو التقدير الذي وضعه ابن الخطاب حتى يعادل الرجل بألف مقاتل من مقاتلي العدو؟ وما هي القوة التي اعتمدها عمرو حتى يخرج بثمانية آلاف مقاتل ليجابه جيشاً أقله مائة ألف، وأكثره مائتي ألف؟. ثم ما هي القوة التي دفعت قوات المسلمين لتجاهل كل المصاعب والأخطار، وحملتها على الإقدام بدون تردد؛ لاحتمال كره القتال؟.

لقد كان العامل المشترك الذي عرف فيه الجميع قوتهم؛ بداية من أمير المؤمنين وحتى آخر مقاتل في جيش المسلمين، هو عامل الإيمان الذي تمت ترجمته فيما بعد باسم الروح المعنوية. ولعل قوات المسلمين هي أول قوات عرفت أهمية هذا العامل، وعرفت دوره في حسم الصراع المسلح لصالحها، مهما كانت عدة قوات العدو؛ ومهما كان حجمها؛ أو درجة استعدادها القتالي؛ أو الظروف التي تقاتل فيها، وبذلك سبق المسلمون قادة الجيوش بأكثر من عشرة قرون في تقويم أهمية عامل الإيمان، أو الروح المعنوية، وقد أطلق العلماء والخبراء، منذ القرن الثامن عشر، على هذا العامل اسم «الروح المعنوية»، وحاولوا بعد ذلك تحديد قيمته؛ وعندما أعجزتهم الحيلة حددوا قيمته بالقوة «س»؛ ولكن أمير المؤمنين عمر حدد قيمته بألف، فهو قد ذكر لقائده عمرو بن العاص أنه أرسل له دعماً على رأس رجال قوة كل واحد بألف وبذلك لم تعد قوة جيش عمرو، بعد الدعم، ١٢ ألف مقاتل فقط، وإنما أصبح يعادل ١٢ ألف ألف، أو ١٢ مليون، ومن الطبيعي ألا يهزم جيش له مثل هذه القوة، وقد أدرك المقوقس قوة هذا الجيش عندما قال: «والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد».

لقد خرج الجيش من جزيرته وهو يحمل على عاتقه أمانة تنوء بحملها الجبال؛ إنها أمانة حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا، وتعريف الناس، كل الناس بها. وكان كل فرد؛ وكل مقاتل؛ قد خرج في جيش المسلمين وهو يهدف الحصول على إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، والشهادة قبل النصر؛ ويظهر ذلك واضحاً في قول الزبير بن العوام: «أيها الناس؛ إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين» ووضع سلماً لاقتحام حصن بابليون، فتدافع الناس، وكلهم وهبوا أنفسهم لله؛ وكلهم يريدون أن يفتح الله الحصن للمسلمين؛ وكلهم يريد السبق إلى الشهادة، حتى يظفر المسلمون؛ وليس من

المهم بالنسبة للمسلم أن يشهد الظفر، وإنما المهم أن يشهده المسلمون. ففي ظفرهم جميعاً خلود الأفراد الشهداء في جنة عرضها السمٰوات والأرض. وضمن هذا المفهوم يذوب الفرد؛ وينصهر الأفراد؛ في كتلة المجموعة المجاهدة. وقد يكون بالمستطاع إلحاق نسبة من نصر المسلمين في مصر إلى تفتت الروح المعنوية للقبط، أو لضعف إرادة القتال عند الروم بعد انتصار المسلمين في الشام والعراق؛ أو لكفاءة عمرو بن العاص القيادية مقابل ضعف المستوى القيادي لقادة الروم، ولكن ذلك كله لا ينتقص من أهمية الإيمان ودوره في تحقيق النصر، وقد كان هذا العامل في جوهره هو العامل الحاسم الذي ساعد المسلمين على تحقيق انتصاراتهم في اليرموك والقادسية، ثم جاء النصر في بابليون تأكيداً لتلك الانتصارات وتثبيتاً لمضمونها.

لقد عرف عالم فن الحرب ظروفاً كثيرة، انتصرت فيها جيوش قليلة على جيوش متفوقة في عددها أو عدتها، سواء كان ذلك قبل فتوح المسلمين أو بعدها. ولكن جيشاً في الدنيا لم يعرف النصر باستمرار وفي حروب متتالية ومستمرة باعتماده على الإيمان أو العامل المعنوي كجيش المجاهدين في سبيل الله، كما أن قوة هذا العامل وتأثيره لم تصل في جيش من الجيوش، قديمها وحديثها، إلى مثل ما كانت عليه قوة هذا العامل في جيوش المسلمين، وبذلك أمكن لهذه الجيوش؛ احتمال كره القتال وتجاوز كل عوامل الضعف المادي سواء في حجم قوات العدو؛ أو في تسليحها، أو في مجموع ظروفها القتالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

أقول لها إذا جشأت وجاشت   رويدك تحمدي أو تستريحي

قاله عبد الله بن عمرو، أثناء قتال الروم في الكريون، وقد أصابته جراح كثيرة، فاحتمل جراحه، وقاتل بصبر وعناد حتى تم له النصر. وعندما بلغ عمرو ما قاله عبد الله، قال: أجل! إنه والله ابني. كان ذلك وعمرو بن العاص شيخ يقترب في عمره من الستين عاماً، وهو يمتطي صهوة جواده ويسير بقوات المسلمين من معركة إلى معركة؛ ومن بلد إلى بلد؛ تحت ظروف قاسية، في حر الصيف وقر الشتاء؛ في الليل والنهار؛ صراع مع الطبيعة؛ وصراع مع العدو؛ ولم تكن قوات الجيش كلها من عنصر الشباب، وإنما فيهم شيوخ حملوا، فوق ما يحملونه، أعباء السنين؛ ورغم ذلك كله فقد أظهروا كفاءة عالية؛ لم يرهقهم

التعب؛ ولم تضعفهم العقبات والصعاب، ذلك أن الأمانة التي كانوا يحملونها جميعاً هي أثقل من كل المصاعب؛ وفوق كل المشاق. ومن المعروف عن الإنسان العربي صلابته وقسوته وقوة بنيته حتى يستطيع احتمال مشاق الحياة الصعبة في الجزيرة؛ ولكن حدود تلك الصلابة بقيت مرتبطة بطبيعة الحياة، في حين جاءت مصاعب التنقل المستمر ومشاق الصراع المتواصل لتتجاوز حدود الكفاءة الطبيعية، وأصبح لزاماً على قوات المسلمين أن تتسلح بحوافز إضافية يمكن لها تحقيق التعادل مع الظروف الجديدة، فكان عمق الإيمان هو الحافز الثابت والقوي الذي دفع المسلمين لتجاوز كل ما هو متوقع من حدود الطاقة البشرية.

قد يكون من السهل تصور تلك الصعوبات لمن يجلس في مقعد وثير ويطالع قصة الحرب، أو يقرأ في جملة قصيرة أن القوات عبرت الصحراء ووصلت إلى مصر، ولكن مبيت ليلة أو بضع ليال في تلك الصحراء، ومعاناة يوم أو بضعة أيام تحت حرِّ شمسها كافٍ لمعرفة ما تحملته قوات المسلمين في مسيرها فقط، فإذا ما أضيف إلى ذلك ما تتركه ظروف الحرب من توتر نفسي، وجهد جسمي في ظروف غير طبيعية، أمكن معرفة تلك القوة الهائلة التي كان يمتلكها جيش العرب المسلمين، وأمكن تقويم الجهد المبذول في سبيل الوصول إلى الهدف، ولقد عرف تاريخ الحرب في القديم والحديث جيوشاً دقت بسنابك خيولها مناطق كثيرة من العالم. فقد استطاع الإسكندر المقدوني قيادة جيشه حتى وصل به إلى مصر، ثم توجه به نحو الشرق حتى وصل إلى قلب دولة الفرس. وجاء التتار (المغول) بعد ذلك من أواسط آسيا، فاجتاحوا القارة الآسيوية حتى وصلوا إلى حطين، ولكن هذه القوات كانت متفوقة في عددها، أو معادلة مع أعدائها في وسائطها، ولكن قوات المسلمين كانت ضعيفة في عددها بشكل مذهل، وضعيفة في وسائطها؛ وكان من الطبيعي، والوضع كذلك، أن تقع أعباء المشاق كلها، في الحل والترحال، في التوقف والمسير، في الحرب والسلم على عاتق هذا العدد القليل، ما كان يضيف أعباء إضافية لا قِبَل للإنسان العادي باحتمالها، فإذا ما أضيف إلى ذلك، العامل الزمني الذي يبرهن على استمرار الأعمال القتالية واتصالها؛ أمكن تصور ما كان عليه جيش الفتح من كفاءة بدنية عالية ومن قدرة على تحمل الصعاب.

وقد لا يكون هناك ثمة مبالغة إذا ما قيل بأن قدرة المقاتل المسلم كانت فوق

قدرة احتمال البشر؛ أو القول إن جيش المسلمين كان متميزاً بقدرة على تحمل الصعاب لم يبلغها جيش من جيوش العالم في القديم أو الحديث.

وقد حاول بعض العسكريين في العصر الحديث إضفاء صفة الكفاءة البدنية العالية على المقاتل الأوروبي الذي خاض غمار الحرب في مختلف مسارح العالم، في آسيا وأوروبا؛ في المناطق الصحراوية والمناطق الباردة؛ في السهول والغابات والجبال؛ ولكن قد لا تكون هناك حاجة للقول بأن التقنيات الحديثة والوسائط التي وضعت في خدمة هذا المقاتل، قد ضمنت له حداً أدنى من الرفاه ومن تأمين المتطلبات الحياتية ما كان حلماً في الماضي. ويبقى جيش العرب المسلمين نموذجاً فريداً ورائعاً في عالم الجيوش، لم تعرف الدنيا له مثيلاً أو نظيراً في كفاءته البدنية العالية وفي قدرته على تحمل الصعاب.

٤ ـ عمرو، وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية

فرض الإسلام الجهاد على كل مسلم؛ واضطلع الرسول الأعظم ﷺ بأعباء تطبيق هذا الفرض، فاشترك في غزواته كل قادر على حمل السلاح، وضمت جيوش فتح الشام والعراق النساء والأولاد، وقام أمراء المؤمنين بتطبيق هذا الفرض. ولم يكن من واجب قادة الجيش الاضطلاع بفرض الجهاد إلا في حدود أوامر أمير المؤمنين، المسؤول عن تطبيق مبادئ الإسلام، وعلى هذا فلم يكن من واجب عمرو الدعوة للجهاد إلا عندما يطلب إليه أمير المؤمنين؛ ويظهر أن عمرو كان أكثر استعداداً لتطبيق هذا المبدأ؛ إذ ما كاد أمير المؤمنين أبو بكر يطلب إليه السير بمن معه من قضاعة وسواهم حتى أسرع لاستنفار المسلمين وقيادتهم، فكان أول من وصل إلى المدينة. وعندما تحدث عمرو إلى أمير المؤمنين عمر يستأذنه في فتح مصر قال له: **إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم**. وقد لا تكون هناك حاجة لتفسير هذه الجملة، إذ أنها تعبر بوضوح عن هدف عمرو من الفتح، وهو إضافة قوة مقاتلة من المسلمين تحمل معهم أعباء الأمانة، ويتأكد ذلك من نص اتفاقية عمرو مع المقوقس، والتي كان أول شرط فيها الدخول في الإسلام «**فإن دخلتم في الإسلام، كنتم إخواننا؛ وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا**». وكان أول واجب يضطلع به المسلمون في تلك المرحلة العبادات، والجهاد في سبيل الله، وبذلك يظهر واضحاً مدى التزام عمرو بتطبيق مبدأ الجهاد على أوسع نطاق.

وإذا كان الإسلام هو الذي فرض الجهاد، ولا فضل لعمرو أو سواه في وضع هذا التشريع الإلهي فإن عمرو وسواه قد اضطلعوا بشرف تنفيذه، فكان لهم فضل سبق قادة جيوش العالم كلها بتطبيق مبدأ الحرب الشعبية وفق مضمونها وشكلها الحديثين، ولكن القضية بالنسبة لعمرو خاصة هي ليست قضية تطبيق مبدأ بروح من السلبية تفقد المبدأ ذاته كل أهمية له؛ بقدر ما كان تطبيقاً إيجابياً، تطبيق القائد المؤمن المسلم؛ الذي يدرك بعمق إيمانه أهمية ما هو مقدم عليه؛ وعلى هذا فقد حرص عمرو منذ البداية على التآلف مع القبط ليتخذ منهم حلفاء وأعواناً، في البداية، مع تجنب الصراع معهم حتى لا تنشأ بين الطرفين جراحات عميقة تعيقه في المستقبل عن الاضطلاع بتنفيذ واجب الجهاد. وضمن هذا الإطار ذاته، أو ضمن هذه السياسة الاستراتيجية ذاتها، سارت عملية بناء المجتمع الجديد، فأمكن بذلك اكتساب الثقة المتبادلة.

وأقبل المصريون على الإسلام، وشاركوا المسلمين أعباءهم، وحملوا معهم أمانة الجهاد، فأصبحت مصر فعلاً قوة للمسلمين وعوناً لهم، ولعل هذا النموذج هو أفضل مثال يمكن الأخذ به للبرهان على صدق المسلمين وإخلاصهم بحيث لم تكن هناك فجوة أو ثغرة بين النظرية وبين الممارسة العملية أو التطبيق، فقد وضع عمرو النظرية قبل الفتح ثم طبَّقها بدقة بعد الفتح، وقاد أعماله كلها وفقاً للهدف النظري، فكان نجاحه رائعاً عند التطبيق العملي. وقد كان من المحال على عمرو تطبيق النظرية لو لم يعرف المصريون في المسلمين جميعهم الصدق والالتزام والوفاء وبقية الفضائل التي كونت الأرضية المناسبة للتفاعل بين هؤلاء الذين حملوا معهم رسالتهم، وأولئك الذين تقبلوا حمل الرسالة مع كل ما تفرضه من أعباء يأتي واجب الجهاد طليعة لها.

وتظهر عبقرية القائد العربي عمرو بن العاص، في الوصول إلى مثل هذه النتائج، بأكثر مما تظهر في الوسائل التي اتبعها؛ أو في الأساليب التي طبقها؛ ويتوافق ذلك مع طبيعة هذا القائد الذي يعمل أكثر مما يتكلم؛ والذي يستعين على قضاء حوائجه بالصمت والكتمان والعمل الدؤوب، فلا غرابة إن جاءت نتائج أعماله بصورة ضخمة وواضحة تشهد بكفاءة هذا القائد الذي كان نسيجاً وحده؛ وقد حقق في حياته كثيراً من الأعمال الرائعة، وترك للعرب المسلمين أمجاداً خالدة، في طليعتها تحويل مصر وجعلها قوة للمسلمين وعوناً لهم، عن طريق حشد قدراتها للجهاد، أو ما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية.

٥ ـ عمرو وحرية العمل

لم يكن طموح عمرو بن العاص لممارسة القيادة العليا إلا تعبيراً عن رغبته في الحصول على حرية العمل السياسي وحرية العمل العسكري، وقد كان الحصول على مثل هذه الحرية في فلسطين محدوداً بسبب اقتراب الإقليم، جغرافياً وإدارياً، من قاعدة العرب المسلمين في الجزيرة العربية. وقد يكون هذا العامل في طليعة الأسباب التي دفعت عمرو ليلتمس من أمير المؤمنين عمر ﷺ الإذن بفتح مصر، ووافق أمير المؤمنين على ذلك، وضمن القائد عمرو بذلك ممارسة أعماله القيادية في إطار من حرية العمل. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إنه كان من المحال أن تكون هذه الحرية مطلقة في عهد أمير المؤمنين عمر، الذي عرف بمركزيته القوية ما دفع عمرو بن العاص إلى الرجوع في كل عمل من أعماله إلى أمير المؤمنين، فاستأذنه في فتح الإسكندرية فأذن له، وتوغل في أفريقيا غرباً حتى وصل إلى طرابلس، وعندما استأذنه في متابعة الفتوح غرباً طلب إليه التوقف، ولم يعد باستطاعة عمرو التوجه إلى الغرب.

وفي الشؤون الإدارية؛ وفي إقامة المجتمع الإسلامي، كان عمرو مقيداً بتعاليم الإسلام؛ ومقيداً أيضاً بتعليمات أمير المؤمنين وأوامره، وكانت تلك هي القيود التي تحدد له حرية العمل، ولكن تلك القيود لم تكن قيوداً بقدر ما كانت حدوداً للتحرك في إطارها. وقد أفاد عمرو من هامش حرية العمل المتروك له، ليمارس دوره القيادي بشكل ناجح. ولكن من الواضح أن عمرو كان يطمح لمزيد من حرية العمل، ولكن قوة شخصية أمير المؤمنين عمر وصلابته لم تترك المجال لأي تجاوز؛ وعندما تولى عثمان بن عفان ﷺ إمارة المؤمنين، حاول عمرو تجاوز الحدود؛ ما دفع أمير المؤمنين عثمان على مخاطبته بقوله: «والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك». فقال عمرو: «قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض». فقال عثمان: «أنا والله لو أخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت؛ ولكني لنت عليك فاجترأت علي». وكان هذا التجاوز سبباً في عزله.

وتطرح قضية حرية العمل عند عمرو بن العاص مشكلة أساسية، هي مشكلة إدارة الأقاليم التي فتحها العرب المسلمون. فقد حدد الإسلام القواعد العامة للمجتمع الإسلامي؛ وترك مجال الاجتهاد مفتوحاً أمام ولاة المسلمين لإدارة

الأمور والتصرف فيها؛ وذلك وفقاً لما تقتضيه الأوضاع الخاصة لكل إقليم. وقد أدرك عمرو خطورة الموقف الخاص لمصر، ودورها بالنسبة للمستقبل، فحرص منذ البداية على إقامة المجتمع الإسلامي برفق ويسر، وترك لأهل البلاد حرية الإدارة؛ ولم يحدث تغييرات جذرية بصورة مباغتة، فكانت عملية هدم القديم وإقامة الجديد تسير بمرونة ودقة، ما ساعد على تحقيق الاستقرار. ولكن ظهرت خلال هذه العملية تناقضات في التوفيق بين متطلبات السلم ومتطلبات الحرب، وهي التناقضات التي عبر عنها عمرو وهو يهاجم عبد الله بن سعد بأنه أفسد عليه جباية الخراج، فيجيبه عبد الله بأنه أفسد عليه مكيدة الحرب[١]. وتعبر هذه التناقضات في واقعها عن رغبة عمرو بالاستئثار بإدارة الحرب وإدارة الخراج وجبايته، وهي رغبة يمكن التعبير عنها بالطموح إلى مزيد من حرية العمل.

ومهما كان عليه الموقف، فقد برهن عمرو، عندما تولى مصر للمرة الثانية، أن حرية العمل التي يطلبها لم تكن ذات نتائج سلبية على عملية إقامة المجتمع الإسلامي. فقد استطاع اكتساب ثقة أهل مصر، وضمن الاستقرار، وقضى على أعمال التمرد، ومهد السبيل لمتابعة فتوح أفريقية، وشكل من مصر قاعدة صلبة يمكن اعتمادها اقتصادياً وعسكرياً، فانطلقت من أرضها الطيبة الفتوحات التي أضاءت لها الدنيا حتى الأطلسي غرباً وحتى حدود بلاد الغال فرنسا. وقد تكون حرية العمل خطرة بالنسبة لقائد ضعيف الإيمان أو محدود الامكانات؛ ولكنها كانت بالنسبة لعمرو بن العاص ضرورة أساسية ساعدت على تحقيق هدف الحرب وغاية السلام على السواء.

٦ ـ الانضباط والطاعة

أول فضيلة ميزت جيوش العرب المسلمين هي فضيلة الانضباط والطاعة؛ فقد خضع المقاتلون جميعاً لأعباء الهدف الكبير الذي حملوا شرف الجهاد من أجله، والذي ما خرجوا ليقاتلوا إلا في سبيله، وكان خضوع الجميع للهدف كافياً لتوحيدهم، ولم يبق على القائد إلا أن يحدد لقواته الأهداف المتتالية حتى يندفعوا لتنفيذها. وعلاوة على ذلك فقد فرض الإسلام أسس الانضباط، وحدد

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٥٠.

المسؤوليات المشتركة بين القائد وقواته، فجاء مضمون الانضباط عميقاً ومرتبطاً بجذور العقيدة الدينية، وأدى ذلك إلى وحدة القيادة. ولم يكن مضمون الانضباط الإسلامي، على قسوته، صارماً أو متصلباً بقدر ما كان مرناً يستجيب للدواعي الإنسانية ويتوافق مع الطبيعة البشرية؛ ولعل أفضل من يمثل مفهوم الانضباط بمرونته وإنسانيته هو القائد عمرو بن العاص. فقد كان يخضع للقائد القوي، مثل أمير المؤمنين عمر، وهو يحاول اكتساب مزيد من حرية العمل وتطبيق مفهوم الانضباط بمرونة أكبر، إذا ما أمكنه ذلك على نحو ما حاوله في عهد أمير المؤمنين عثمان، ولكنه لا يتجاوز في جميع الأحوال حدود مفهوم الانضباط والطاعة. فلم يحاول التمرد على أمير المؤمنين عثمان إذ عزله، ولكنه لا يتردد عن مصارحته برأيه، كما أنه لم يتردد في العمل ضده لإضعاف موقفه على أمل أن يحاول أمير المؤمنين الرجوع عن قراره، وإعادة تعيينه؛ ولكنه عندما يدرك أن أمير المؤمنين قد أصبح في خطر، يربأ بنفسه أن يكون فيمن ينغمس في الفتنة، أو يتجاوز حدود الانضباط والطاعة بمفهومها الديني، فيغادر المدينة ويتوجه إلى فلسطين.

وهو بعد ذلك نموذج للإنسان في حوافزه ونوازعه، فهو في حيرة بين العمل لدنياه أو آخرته، وإذ يجد أنه من الصعب التقرير إلى أي معسكر ينحاز يختار دنياه، بحسب أقواله، ولكنه حتى في هذه الحالة لا ينسى آخرته، ويحاول قدر المستطاع التوفيق بين أمور الحياة الدنيا وما يفرضه عليه العمل لآخرته، ويظهر من ذلك كله أن مفهوم الانضباط عند عمرو بن العاص هو مفهوم خاص ينطبع بطابعه الشخصي، تماماً مثلما كانت عليه بقية أعماله القيادية. وهو إذ يعمل في حدود هذا المفهوم لا يطالب مرؤوسيه إلا بمثل ما يطالب به نفسه. ويظهر ذلك في موقفه، يوم أرسل إلى معاوية بن حديج السكوني يطلب إليه إرسال محمد بن أبي بكر، وعدم قتله، وعندما خالفه معاوية فقتل محمد بن أبي بكر، لم يحاسبه عمرو على مخالفته، وعرف أن روح الثأر ومصرع كثير من أقرباء معاوية على أيدي محمد لا بد لها وأن تترك رواسب يصعب عليه تجاوزها، ولهذا لم يتشدد عمرو في مخالفة معاوية لتعليماته وعدم الانصياع لها، ويظهر ذلك انسجام عمرو مع طبيعته؛ وفهم الأمور من خلال قيمه الخاصة؛ فهو إنسان عقلاني، يزن الأمور بميزان العقل والمنطق، ويجتهد في تفسير الأمور، ولعل موقفه من الإسلام كافياً لإيضاح جميع أعماله، فهو لم يقبل على الإسلام حتى آمن؛

وحتى وغل الإيمان في قلبه؛ وعندما آمن اندفع إلى الإسلام بكل قوته، وسار في مجال العمل للإسلام بكل حماسته. وهو كذلك في فهمه للانضباط والطاعة؛ فهو يستسلم لمضمون الانضباط والطاعة وليس لشكله، ولكنه يناقش في شكل الانضباط وطريقة تنفيذه وهو يطبق المضمون، وفقاً لما يفرضه الواجب أو بحسب مفهومه للهدف.

لم يكن عمرو ثائراً متمرداً، يرفض الطاعة والجماعة؛ ولا كان متحرراً من مضمون الانضباط، بل كان إنساناً مؤمناً، وقائداً إنساناً، يضع إنسانيته في موقعها ويناقش بعقله أمورها ويتحرك في حياته العامة والخاصة بحسب تقويمه للأمور؛ وبحسب اجتهاده وقناعاته، وهو ينظر في الحالات جميعها إلى النتائج بأكثر مما ينظر إلى الأساليب والطرائق؛ فهو والحالة هذه «مكيافيللي»، بحسب المفهوم الحديث؛ ولكن ضمن حدود مضمون الانضباط والطاعة في جميع الأحوال.

وبعد، قد يكون الإنسان مع عمرو بن العاص وقد يكون ضده؛ قد يوافقه في مفاهيمه وأساليبه وقد يخالفه، ولكنه لا يستطيع في جميع الحالات إلا أن يكون به معجباً، ولأعماله مقدراً، ولمنجزاته خاشعاً. فقد أعطى الإسلام والمسلمين كثيراً، وشيد للعرب أمجاداً وصروحاً تشهد بها أجنادين والفسطاط، وكل شبر في فلسطين ومصر. وهو قد أعطى فن الحرب إرثاً خالداً، فكان نموذجاً مميزاً في عالم القيادة، ووضع أسس فن الحرب وطبق مبادئ القتال بشكل رائع وعمل على تطويرها من خلال اجتهاده. وتختلف أهمية مبادئ الحرب عند كل قائد من قادة العرب المسلمين بحسب مجموعة العوامل التي هيمنت على أعمالهم القتالية، ولعل أبرز المرتكزات التي استند إليها عمرو بن العاص هي: الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، وبناء المجتمع الجديد ووضوح الهدف واستراتيجية الحرب التشتيتية وحرب الحركة، والاهتمام بالشؤون الإدارية، ويبرهن ذلك على أنه كان أكثر تركيزاً على السياسة الاستراتيجية، أو الاستراتيجية العليا، ولكن من دون إهمال لبقية مبادئ الحرب، وإنما مع الأخذ بها وفقاً لما تتطلبه الظروف والمواقف.

ويظهر ذلك أن عمرو كان قائداً استراتيجياً بالدرجة الأولى؛ وهو متفوق في هذا المجال، وآثاره جميعها تشهد على ذلك. وقد يكون من الصعب مقارنة قائد بآخر، وتزداد الصعوبة بالنسبة للقائد عمرو بن العاص، فهو عالم وحده، بإيمانه

وتقواه؛ بفهمه للأمور وإدراكه لها؛ بتقديره للمواقف وباجتهاده فيها؛ فهو مزيج متكامل وغير متنافر من الصفات والخصائص، فيه إيمان عمر و«أبو عبيدة»، وفيه دهاء معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، وفيه إقدام خالد وجرأته وشجاعته، ولعل أكثر ما كان يتمثل به عمرو بن العاص قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة/ ٢٠١]. فهو في جميع الحالات مميز بصفاته يتشابه مع الآخرين ولا يشبههم، ويتماثل مع الآخرين ولا يماثلهم؛ ترك للدنيا إرثاً خالداً يميزه عمن سواه من قادة العرب المسلمين، وقد تعجز الكلمات عن وصف عمرو بن العاص ولكن أمجاده وآثاره كافية لوصفه وتحديد أهمية منجزاته في التاريخ عامة وفي تاريخ فن الحرب خاصة، ولعل في ذلك ما ينصفه.

ملاحق الكتاب

وثيقة الصلح مع أهل مصر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر: الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم؛ وبرهم وبحرهم؛ لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص[1] ولا يساكنهم النوب، وعلى أهلِ مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف؛ وعليهم ما جنى لصوتهم «لصوصهم» فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب رُفع عنهم الجزاء بقدرهم؛ وذمتنا ممن أبى بريئة؛ وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى؛ رفع عنهم بقدر ذلك؛ ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب؛ فله مثل ما لهم؛ وعليه مثل ما عليهم؛ ومَن أبَى واختار الذهاب فهو آمن حتى يخرج مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله؛ وذمته؛ وذمة رسوله؛ وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً؛ وكذا وكذا فرساً ومعونة على ألا يغزوا ولا يُمْنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة[2].

---

(١) أو ينقض.

(٢) تبرز من خلال هذه الوثيقة مجموعة من المعطيات الهامة:

١ ـ ضمان الحرية الدينية؛ والتعهد بحماية ممتلكات الكنائس والأديرة.

٢ ـ ربط قضية الجزية بالقدرة على دفعها؛ فإذا كانت السنة خيرة بعطائها الزراعي تم دفع الجزية بحسب ما هو مقرر «خمسين مليوناً». أما إذا كان الفيضان ضعيفاً وكان الإنتاج الزراعي قليلاً تم تخفيض الجزية بما يعادل «إجداب الأرض وضعف إنتاجها».

٣ ـ تقسيم الجزية على ثلاثة أقساط: بما يتوافق والتكون الاقتصادي للإقليم.

٤ ـ إعطاء الأمان لمن يرفض «دفع الجزية» حتى يغادر أرض مصر. =

شهد: الزبير وعبد الله ومحمد، ابناه. وكتب وردانُ وحضر).

= ٥ ـ شمول «الجزية» لمن يريد المصريون إدخاله في الجزية من أبناء الشعوب الأفريقية التي لم يفتح المسلمون بلادهم.

٦ ـ إسقاط «واجب الحرب» عن المواطنين ممن يدفعون الجزية.

٧ ـ إطلاق الحرية التجارية وحرية التنقل دون قيود.

٨ ـ إعطاء ذمة الله ورسوله.

نص اتفاقية عمرو ومعاوية
على طلب دم عثمان

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ببيت المقدس، من بعد قتل عثمان بن عفان، وحمل كل واحد صاحبه الأمانة؛ أن بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام؛ ولا يخذل أحدنا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة، ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبداً ما حيينا فيما استطعنا؛ فإذا فتحت مصر، فإن عمراً على أرضها وإمارته التي أمره عليها أمير المؤمنين؛ وبيننا التناصح والتوازر والتعاون على ما نابنا من الأمور، ومعاوية أمير على عمرو بن العاص في الناس وفي عامة الأمر؛ حتى يجمع الله الأمة، فإذا اجتمعت الأمة، فإنهما يدخلان في أحسن أمرهما على أحسن الذي بينهما في أمر الله الذي بينهما من الشرط في هذه الصحيفة)[١].

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٥٤.

قصة التحكيم في دومة الجندل(١)

تم الاتفاق في صفين على تحكيم «أبو موسى الأشعري» نيابة عن أمير المؤمنين علي، وعمرو بن العاص نيابة عن والي دمشق معاوية بن أبي سفيان؛ كما تم الاتفاق على عقد اجتماع التحكيم في دومة الجندل في رمضان من سنة (٣٨هـ/ ٦٥٨م)؛ على أن يحضر علي ومعاوية، ومع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه. واجتمع الحكمان بأذرح في دومة الجندل ووافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس؛ فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير. ووافى معاوية بأهل الشام، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الراي من قريش: **اترون أحداً من الناس براي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان؟**. قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك. قال: فوالله إني لأظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأراجعهما. فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله؛ أخبرني عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة! قال: **أراكم معشر المعتزلة خَلْفَ الأبرار وأمام الفُجّار!**.

فانصرف المغيرة، ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على «أبو موسى»؛ فقال له مثلَ ما قال لعمرو، فقال أبو موسى: أراكم أثبتَ الناس رأياً، فيكم بقيَّة المسلمين. فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك؛ فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الراي من قريش، فقال: **لا يجتمع هذان على أمر واحد**. فلما اجتمع الحكمان وتكلما، قال عمرو بن العاص: **يا «أبو موسى»، رأيت أول ما تقضي به من الحق على أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر**

(١) يمكن الرجوع، لمزيد من المعرفة في قضية التحكيم، إلى تاريخ الطبري وخاصة ٥/٥٧، ٥٨ و٦٧ ـ ٧١.

بغدرهم. قال أبو موسى: **وما ذاك؟** قال: **ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وَفَوا، وقَدِموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟** قال: **بلى**. قال عمرو: **اكتبها**. فكتبها أبو موسى؛ قال عمرو: **يا «أبو موسى»، أأنتَ على أن نسمي رجلاً يلي أمرَ هذه الأمة؟** فسمِّه لي، **فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليَّ أن أتابعك، وإلا فلي عليك أن تتابعني.**

يا «أبو موسى»، ألست تعلم أن عثمانَ رضي الله عنه قتل مظلوماً؟ قال: **أشهد**. قال: **ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟** قال: **بلى**. قال: **فإن الله عز وجل قال:** ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء/٣٣] **فما يمنعك من معاوية، ولي عثمان يا «أبو موسى»، وبيته في قريش كما قد علمت؟...**

فإن تخوفت أن يقول الناس: ولي معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حَجَّة؛ تقول: إني وجدتُه وليَّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه؛ الحسن السياسة، الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد صحبه، فهو أحد الصحابة.

ثم عرض له بالسلطان، فقال: إن وَلي أكرمك كرامة لم يُكرمها خليفة. فقال أبو موسى: يا عمرو، اتق الله عز وجل! فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل «أبرهة بن الصبّاح»، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته عليَّ بن أبي طالب. وأما قولك: إن معاوية ولي دم عثمان، فولِّهِ هذا الأمر، فإني لم أكن لأوليه معاوية وأَدَعَ المهاجرين الأولين.

وأما تعريضُك لي بالسلطان، فوالله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليتُه، وما كنت لأرتشي في حكم الله عز وجل. ولكنك، إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال له عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني، وأنت تعرف فضله وصلاحه! فقال: إن ابنك رجل صِدْق ولكنك قد غمستَه في هذه الفتنة. وقال عمرو بن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس مجرب يأكل ويطعم. وتدخل عبد الله بن عمر فقال يخاطب عمرو: يا ابن العاص؛ إن العرب أسندتْ إليك أمرَها بعد ما تقارعتْ بالسيوف، وتناجزت بالرِّماح، فلا تُردنَّهم في فتنة. وقال عمرو إلى «أبو موسى»: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرَّجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار

المسلمون لأنفسهم من أحبُّوا. فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يُصلح الله ﷻ به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبرَّ، يا «أبو موسى» تقدم فتكلَّم. فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابنُ عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك ـ وكان أبو موسى مغفلاً ـ فقال له: إنا قد اتفقنا. فتقدم أبو موسى فحمَّد الله ﷻ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس؛ إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نَرَ أَصلح لأمرها، ولا أَلَمَّ لشَعثها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً، ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذه الأمر، فيولُّوا منهم من أحبوا عليهم؛ وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولُّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً؛ ثم تنحى. وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه؛ وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبتُ صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله، غدرت وفجرت! إنما مثلك مثل الذين قال الله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف/ ١٧٥]، وإنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يَلهثْ أو تتركه يلهث. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل «أبو موسى» كمثل الذي قال ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة/ ٥]. وكتب كل واحد منهما مَثَلَهُ الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار. والتمس أهل الشام «أبو موسى»، فركب راحلته ولحق بمكة. ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة. وتمثل علي بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل/ ٩١] وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم/ ٦٠].

عودة عمرو بن العاص إلى مصر والتمهيد لها

عندما انصرف أهل الشام من صفين، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، فلما انصرفا وتفرقا، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة، ولم يزدد إلا قوة. واختلف الناس بالعراق على عليّ، فما كان لمعاوية هَمٌّ إلا مصر، وكان لأهلها هائباً خائفاً، لقربهم منه، وشدتهم على من كان على رأي عثمان. وقد كان على عِلْم أيضاً أن بها قوماً قد ساءهم قتل عثمان وخالفوا علياً. وكان معاوية يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها. قال: فدعا معاوية من كان يعتمد رأيهم... وقال لهم: أتدرون لم دعوتكم؟، إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه. فقال القوم كلهم، أو من قال منهم: إن الله لم يطلع على الغيب أحداً؛ وما يدرينا ما تريد؟.. فقال عمرو بن العاص: أرى والله أمرَ هذه البلاد الكثير خراجها؛ والكثير عددها وعدد أهلها، أهَمَّك أمرها، فدعوتنا إذاً لتسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا؛ وله جمعتنا، فاعزم وأقدم، ونعم الرأي رأيتَ! ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك؛ وذل أهل الخلاف عليك. قال له معاوية مجيباً: أهمني يا ابن العاص ما أهمك. وأقبل معاوية على أصحابه فقال: إن هذا ـ يعني عمراً ـ قد ظن ثم حقق ظنه. قالوا له: لكنا لا ندري. قال معاوية: فإن «أبو عبد الله» قد أصاب، قال عمرو: وأنا أبو عبد الله. قال معاوية: إنَّ أفضل الظنون ما أشبه اليقين.

ثم إنَّ معاوية حمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد. فقد رأيتم كيف صنع الله بكم في حربكم عدوكم. جاؤوكم لا يَرَوْن إلا أنهم سيقيضون دولتكم، ويخربون بلادكم، ما كانوا يَرون إلا أنكم في أيديهم، فردهم الله بغيظهم، لم ينالوا خيراً مما أحبُّوا، وحاكمناهم إلى الله، فحكم لنا عليهم، ثم جمع لنا كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكُفْر، ويسفك بعضهم دم بعض. والله إني لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن نحاول

أهل مصر، فكيف ترون سبيلنا لها!؟ فقال عمرو: قد أخبرتك عما سألتني عنه، وقد أشرت عليك بما سمعت. فقال معاوية: إن عمراً قد عزم وصرم، ولم يفسر، فكيف لي أن أصنع!. قال له عمرو: فإني أشير عليك كيف تصنع. أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجلٌ حازم صارم تأمنه وتثق به، فيأتي مصر حتى يدخلهَا، فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فيظاهره على مَنْ بها من عدونا، فإذا اجتمع بها جندك ومَنْ بها من شيعتك على من بها من أهل حربك، رجوت أن يعين الله بنصرك. قال له معاوية: هل عندك شيء دون هذا يُعمَل به فيما بيننا وبينهم؟ قال: ما أعلمه. قال: بلى، فإن غير هذا عندي، أرى أن نكاتب مَنْ بها من شيعتنا، ومن بها من أهل عدونا، فأما شيعتنا فآمرهم بالثبات على أمرهم، ثم أُمنِّيهم قدومنا عليهم. وأما من بها مِن عدوِّنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا، ونخوفهم حربنا، فإن صلح لنا ما قبلهم بغير قتال فذاك ما أحببنا، وإلا كان حربُهم من وراء ذلك كله. إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة، وأنا امرؤٌ بورك لي في التؤدة. وقال عمرو: فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب العوان.

وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وإلى معاوية بن حديج الكندي السكوني: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. أما بعد؛ فإن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم أعظم به أجركما، ورفع به ذكركما، وزينكما به في المسلمين؛ طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما لله إذ تُرك حكم الكتاب، وجاهدتما أهلَ البغي والعدوان، فأبشروا برضوان الله، وعاجل نصر أولياء الله؛ والمواساة لكما في الدنيا وسلطاننا حتى ينتهي في ذلك ما يُرضيكما، ونؤدي به حقكما إلى ما يصير أمرُكما إليه، فاصبروا وصابروا عدوكما، وادعوا المدبر إلى هُداكما وحفظكما، فإن الجيش قد أضل عليكما، فانقشع كل ما تكرهان، وكان كل ما تهويان. والسلام عليكما».

وأرسل معاوية هذا الكتاب مع مولى له يقال له: سبيع. فخرج الرسول بكتابه حتى قدم عليهما مصر، ومحمد بن أبي بكر أميرها، وقد ناصب هؤلاء الحرب بها، وهو غير متخون بها يوم الإقدام عليه، فدفع كتابه إلى مسلمة بن مخلد، وكتابَ معاوية بن حديج. فقال مسلمة: امض بكتاب معاوية إليه حتى يقرأه، ثم ألقني به حتى أجيبه عني وعنه. فانطلق الرسول بكتاب معاوية بن حديج إليه فاقرأه إياه، فلما قرأه قال: إن مسلمة بن مخلد قد أمرني أن أرد إليه الكتاب إذا

قرأته لكي يجيب معاوية عنك وعنه. قال: قل له فليفعل. ودفع إليه الكتاب. فأتاه، ثم كتب مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج رسالة جاء فيها: «أما بعد. فإن هذا الأمر الذي بذلنا له نفسنا، واتبعنا أمر الله فيه، أمرٌ نرجو به ثوابَ ربنا، والنصرَ ممن خالفنا، وتعجيلَ النِّقمة لمن سعى على إمامنا، وطأطأ الركض في جهادنا، ونحن بهذا الحيِّز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغي وأنهَضْنا من كان به من أهل القسِط والعدل، وقد ذكرت المواساة في سلطانك ودنياك وبالله إنَّ ذلك لأمر ما له نهضنا، ولا إياه أردْنا، فإن يجمع الله لنا ما نطلب، ويؤتنا ما تمَنَّينا، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين، وقد يؤتيهما الله معاً عالماً من خَلَقه، كما قال في كتابه، ولا خلفَ لموعوده، قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران/١٤٨] عجل علينا خيلك ورَجْلك، فإنَّ عدوَنا قد كان علينا حرباً، وكنا فيهم قليلاً، فقد أصبحوا لنا هائبينَ، وأصبحنا لهم مقرنين، فإن يأتنا الله بمدد من قِبلك يفتح الله عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل. والسلام عليك».

وصل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان، وهو يومئذ في فلسطين، فدعا مستشاريه وكبار قادته وقال لهم: ماذا ترون؟ قالوا: الرأي أن تبعث جنداً من قِبلك، فإنك تفتتحها بإذن الله. قال معاوية: فتجهَّز يا «أبو عبد الله» إليها ـ يعني عمرو بن العاص ـ. ونظم جيشاً من ٦ آلاف مقاتل، وأسند قيادتهم إلى عمرو، وخرج معاوية وودعه؛ وقال له عند وداعه إياه: «أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق فإنه يُمن، وبالمهل والتُؤدة، فإن العجلة من الشيطان، وبأن تقبل ممن أقبلَ، وأن تعفو عمن أدبَر، فإن قَبِلَ فَبِهَا ونعِمتْ، وإن أبَى فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ في الحجة، وأحسن في العاقبة، وادعُ الناسَ إلى الصلح والجماعة، فإذا أنت ظهرتَ فليكن أنصارُك آثر الناس عندك، وكل الناس فأوْلِ حُسْناً». ثم خرج عمرو وقاتل محمد بن أبي بكر، فهزمه وفَتح مصر. وقُتِلَ محمد بن أبي بكر، قَتَلَهُ معاوية بن حديج السكوني، وتولى عمرو ولاية مصر حتى نهاية حياته.

مصر قبل الإسلام

توقيت الأحداث	وجيز الأحداث
التاريخ القديم	كانت هناك مملكتان إحداهما في الشمال عاصمتها «طيبة»، والثانية في الجنوب وعاصمتها «منف»
٣٢٠٠ق.م	توحُّد وادي النيل بقيادة الملك مينا
٣٢٠٠ ـ ٢١٦٠ق.م	من الأسرة الأولى ـ حتى الأسرة العاشرة؛ عاصمتهم منف، وأشهرهم الأسرة الرابعة، الذين شيدوا الإهرامات الكبرى وتمثال أبو الهول. «وأبرز ملوك هذه الأسرة خوفو وخفرع ومنقرع»، ثم ضعفت سيطرة هذه الأسر بسبب التمزق الداخلي، وضعفت بذلك وحدة وادي النيل
٢١٦٠ ـ ١٥٨٠ق.م	من الأسرة ١١ ـ ١٧، أعيدت لمصر وحدتها، وكانت طيبة في هذه المرحلة عاصمة لها
١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ق.م	قام «الهكسوس»، وهم عرب من الجزيرة العربية والشام، بغزو مصر وحكمها
١٦٠٠ق.م	نجح «أحمس» الأول من الأسرة ١٧ بإخراج الهكسوس من مصر
١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ق.م	من الأسرة ١٨ ـ ٢٠ عاصمتهم «طيبة»
١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ق.م	قام تحوتمس الثالث بغزو سوريا، وانتصر على السوريين في معركة محدو ١٤٦٨ق.م
١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ق.م	عهد أمنحوتب الرابع «أخناتون» الذي نقل العاصمة من «طيبة» إلى «أخيث ـ آتون» أو «تل العمارنة» حالياً؛ وفرض عبادة الشمس على الشعب
١٢٩٦ق.م	قام «رعمسيس الثاني» بقيادة جيش لمحاربة الحثيين؛ وانتصر عليهم في معركة «قادش» قرب «حمص»، وانتهى الأمر بمعاهدة أخذ الحثيون بموجبها حق ممارسة حكمهم في شمال حمص، وحكم المصريون جنوبها

توقيت الأحداث	وجيز الأحداث
١٠٨٥ ـ ٣٣٢ق.م	من الأسرة ٢١ ـ ٣٠، وتميز حكم هذا الأسر بالضعف وتمزق الدولة: ١ ـ احتل الليبيون الدلتا وحكموها طوال قرنين من الزمن ٢ ـ قامت شعوب البحر ـ اليونانيون على الأرجح ـ بغزو مصر، وأخرجهم المصريون في النهاية.
٧٤٦ ق.م	احتل «الأثيوبيون» الأحباش مصر العليا
٦٧٠ق.م	احتل «الآشوريون» مصر في عهد «أسرحدون»
٥٢٥ق.م	احتل الفرس «مصر» بقيادة «قمبيز الثاني»
٣٣٢ ـ ٣٠ق.م	احتل «البطالسة» مصر بقيادة «الإسكندر المقدوني» وشيدوا الإسكندرية
٣٠ ق.م ـ ٦٤٠م	انتزع «الرومان» مصر من البطالسة وحكموها
٦٤٠م	الفتح الإسلامي لمصر

مصر بعد الإسلام وحتى العصر الحديث

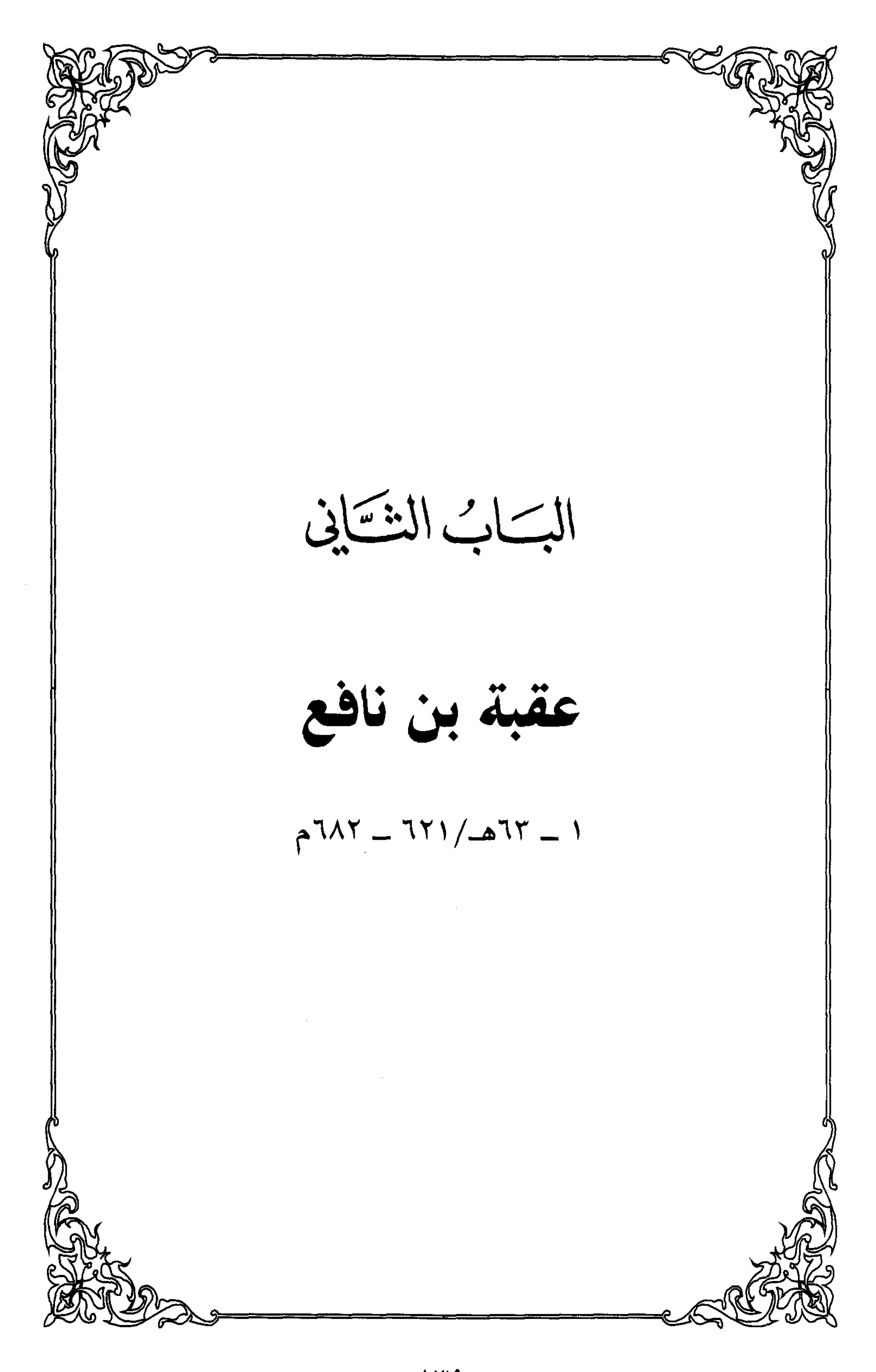
السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
قبل ٣ قبل الهجرة	قبل ٦٣٩م	النيل والدلتا تحت حكم الروم «البيزنطيين»، والصحراء تحت حكم القبائل الوثنية
٢ قبل الهجرة حتى ٧ بعدها	٦١٩ ـ ٦٢٧	«الساسانيون» يهاجمون مصر الفرس
١٨ ـ ٢٢	٦٣٩ ـ ٦٤٢	عمرو بن العاص يفتح مصر
٢٢ ـ ٤١	٦٤٢ ـ ٦٦١	عهد الخلفاء الراشدين
٣٥ ـ ٣٦	٦٥٥ ـ ٦٥٦	الفتنة تسيطر على مصر
٣٩ ـ ٤١	٦٥٩ ـ ٦٦١	
٤١ ـ ١٣٣	٦٦١ ـ ٧٥٠	الأمويون وولاتهم
٦١ ـ ٦٥	٦٨٠ ـ ٦٨٤	عبد الله بن الزبير ينافس الأمويين في حكم مصر
١٣٣ ـ ٢٥٤	٧٥٠ ـ ٨٦٨	ولاة العباسيين
٢٥٤ ـ ٢٩٣	٨٦٨ ـ ٩٠٥	الطولونيون في «القطائع» يخضعون اسمياً للخلافة العباسية ويحكمون «مصر وبرقة» ـ أولهم أحمد بن طولون
٢٩٣ ـ ٣٢٤	٩٠٥ ـ ٩٣٥	ولاة العباسيين يستعيدون الحكم
٣٢٤ ـ ٣٥٨	٩٣٥ ـ ٩٦٨	الأخشيديون في «الفسطاط» وأولهم «محمد بن طغج» ثم «أونوجور بن محمد»، واستولى «كافور» بعد ذلك على الحكم
٣٥٩ ـ ٣٦٢	٩٦٩ ـ ٩٧٢	العبيديون «أو الفاطميون» ـ ويدَّعون بأنهم من «آل البيت». وبدأ الفاطميون حكمهم في القيروان «٩٠٩ ـ ٩٧٢م» ثم وجهوا قائدهم «جوهر الصقلي» ففتح مصر «٩٧٢م» وهم:

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١) ٢٩٧ ـ ٣٢٣	٩٠٩ ـ ٩٣٤	«سعيد عبيد الله المهدي بن حسين» «في القيروان»
٢) ٣٢٣ ـ ٣٣٥	٩٣٤ ـ ٩٤٦	«محمد القائم بأمر الله بن سعيد عبيد الله» «في القيروان»
٣) ٣٣٥ ـ ٣٤١	٩٤٦ ـ ٩٥٢	«إسماعيل المنصور بالله بن محمد القائم بأمر الله» «في القيروان»
٤) ٣٤١ ـ ٣٦٥	٩٥٢ ـ ٩٧٥	«محمد المعز لدين الله بن إسماعيل المنصور بالله» «في القاهرة»
٥) ٣٦٥ ـ ٣٨٦	٩٧٥ ـ ٩٩٦	«نزار المعز لدين الله بن محمد المعز» «في القاهرة»
٦) ٣٨٦ ـ ٤١٢	٩٩٦ ـ ١٠٢١	«المنصور الحاكم بأمر الله بن نزار» «الحاكم المجنون» «في القاهرة»
٧) ٤١٢ ـ ٤٢٧	١٠٢١ ـ ١٠٣٥	«الظاهر بن المنصور» «في القاهرة»
٨) ٤٢٧ ـ ٤٨٧	١٠٣٥ ـ ١٠٩٤	«المستنصر بالله بن الظاهر» «في القاهرة» وتعاقب بعد ذلك عدد من الحكام، ممن لم يكن الحكم في أيديهم
٣٦٢ ـ ٥٦٧	٩٧٢ ـ ١١٧١	الفاطميون «في القاهرة»
٥٦٧ ـ ٦٤٨	١١٧١ ـ ١٢٥٠	الأيوبيون «في القاهرة»
٥٦٧ ـ ٥٩٠	١١٧١ ـ ١١٩٣	«صلاح يوسف بن أيوب، وحكم فعلاً من سنة ١١٦٩م»
٦١٥ ـ ٦١٨	١٢١٨ ـ ١٢٢١	الحملة الصليبية على الدلتا ودمياط «بقيادة جان دوبريين»
٦٤٦ ـ ٦٤٨	١٢٤٨ ـ ١٢٥٠	الحملة الصليبية بقيادة ملك فرنسا «لويس التاسع»
٦٤٨ ـ ٧٨٤	١٢٥٠ ـ ١٣٨٢	المماليك البحرية «في القاهرة» «وهم من الأتراك»
٧٩٢ ـ ٧٩٣	١٣٩٨ ـ ١٣٩٠	
٧٨٤ ـ ٧٩٢	١٣٨٢ ـ ١٣٨٩	المماليك البرجية «في القاهرة» «شراكس»
٧٩٣ ـ ٩٢٢	١٣٩٠ ـ ١٥١٦	

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٧٦٧	١٣٦٥	قيام الصليبيين بنهب الإسكندرية بقيادة «بيير دو لوزينيان»
٩٢٢ ـ ١٢٢٠	١٥١٦ ـ ١٨٠٥	المماليك يخضعون للعثمانيين «في مصر»
١١٨٠ ـ ١١٨٧	١٧٦٦ ـ ١٧٧٣	التمرد على الدولة العثمانية
١٢١٣	١٧٩٨	نابليون يقوم «بغزو» مصر
١٢١٤	١٧٩٩	نيلسون «قائد الأسطول البريطاني» يدمر الأسطول الإفرنسي في «أبي قير»
١٢١٦	١٨٠١	المصريون يتعاونون مع البريطانيين لإخراج الإفرنسيين من مصر
١٢٢٠ ـ ١٢٤٨	١٨٠٥ ـ ١٨٣٢	محمد علي باشا ـ مؤسس الدولة العلوية ـ والياً للعثمانيين على مصر
١٢٢٢	١٨٠٧	احتل البريطانيون الإسكندرية لفترة قصيرة ثم غادروها
١٢٤٨ ـ ١٣٠٠	١٨٣٢ ـ ١٨٨٢	مصر شبه مستقلة عن الامبراطورية العثمانية في حكم محمد علي وسلالته، وإحلال النفوذ الإفرنسي محل النفوذ التركي، إلى أن فرض الإنكليز نفوذهم على مصر في العام ١٨٧٥م
١٢٧٦ ـ ١٢٨٦	١٨٥٩ ـ ١٨٦٩	شق قناة السويس
١٣٠٠ ـ ١٣٥٥	١٨٨٢ ـ ١٩٣٦	الاحتلال البريطاني لمصر
١٣٣٣ ـ ١٣٤١	١٩١٤ ـ ١٩٢٢	اعتبار مصر «محمية» بريطانية، ومنحها الاستقلال الاسمي بعد عام ١٩٢٢م
١٣٥٥	١٩٣٦	إعلان استقلال «مصر»
١٣٥٩	١٩٤٠	إيطاليا تهاجم الحدود المصرية
١٣٦١	١٩٤٢	وصول القوات الألمانية إلى الحدود المصرية
١٣٧٢	٢٣ تموز «يوليو» ١٩٥٢م	ثورة الضباط الأحرار، وخلع الملك فاروق، ورئاسة اللواء «محمد نجيب»

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣٧٣	١٩٥٣	إعلان الجمهورية في «مصر» وتعيين المقدم «جمال عبد الناصر» رئاسة الثورة، ثم رئاسة الجمهورية.
١٣٧٦	٢٦ تموز «يوليو» ١٩٥٦م	تأميم قناة السويس
١٣٧٦	٢٩ أكتوبر ـ ٦ نوفمبر ١٩٥٦م	العدوان الثلاثي «البريطاني ـ الإفرنسي ـ الإسرائيلي» على مصر





البَابُ الثَّاني

عقبة بن نافع

١ ـ ٦٣هـ/ ٦٢١ ـ ٦٨٢م



من وصية عقبة(١)

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۞ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

[آل عمران/١٥٧، ١٥٨]

«**يا بَنِيَّ! إني قد بعت نفسي من الله ﷻ**، فلا أزال أجاهد مَنْ كفر بالله. . . يا بَنِيَّ! أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر، وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله ﷻ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه. وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّيْن ذل بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبقَ لكم أقداركم وأعراضكم وتبقَ لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا. وعليكم سلام الله، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا. اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك».

---

(١) من حديث عقبة بن نافع لبنيه يوم ودعهم، في حربه خلال ولايته الثانية. **رياض النفوس** ١/ ٢٢، ٢٣، وابن الأثير ٤/ ٤٢.



الفَصْلُ الأولُ

عقبة بن نافع الفهري القرشي

١ ـ الطبيعة الجغرافية لمسرح عمليات عقبة بن نافع.
٢ ـ الجغرافية البشرية في أفريقية عشية الفتح.
٣ ـ الموقف العام بعد الفتح.
٤ ـ الموقف الخاص للدولة الإسلامية.
٥ ـ الموقف على مسرح عمليات المغرب.
٦ ـ المرحلة الثانية في حياة عقبة بن نافع القيادية.
٧ ـ عقبة والولاء الشخصي.
٨ ـ أفريقية بين عهدين.
٩ ـ مأساة تهوذة ومقتل عقبة (عقبة في ولايته الثانية)



عقبة بن نافع الفهري القرشي[1]

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

[الحجرات/١٤]

علوٌّ في الحياة وفي الممات، ودوي يملأ دنيا العرب المسلمين عبر الزمان. ففي كل مدينة عربية أثر يحمل اسم القائد العربي عقبة بن نافع. هنا، في دمشق، ثكنة عقبة بن نافع، وهناك مسجد ابن نافع، وفي مدينة ثالثة شارع يحمل اسم عقبة أو كتيبة تحمل علم عقبة، ومؤلفات وسِيَر ضمها التاريخ القديم والحديث تعالج حياة هذا القائد العظيم الذي ترك للدنيا رمزاً خالداً في الإيمان والتضحية. أما منجزات القائد عقبة وأعماله، فما هي إلا الصورة المشرقة للإنسان المسلم، المرابط، المجاهد في سبيل الله. وحياته بعد ذلك، أرق من النسيم في الصحراء القائظة، تهفو من مفاوز أفريقية فتهفو لها القلوب المؤمنة، وتسكن لسيرة عقبة العقول الباحثة فتجد فيها الإشراق والإبداع، القلب المؤمن يغذي العقل المبدع، والعقل المبدع الخلاق يثير في القلب الحماسة، معادلة متكافئة جعلت من القائد عقبة، الإنسان الخالد أبد الدهر. نطالع سيرته، ونردد اسمه، فكأنه غادرنا بالأمس إلى عالم الخلود، أو كأنه لا زال يعيش معنا رغم تباعد العهد بيننا وبينه، ورغم مرور مئات السنين. خلود في الحياة، وفي الممات، وتلك هي سيرة عقبة الذي ولد مسلماً، وعاش مؤمناً مجاهداً ومات شهيداً في سبيل الله فوق السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، في معركة تعرف في التاريخ باسم «معركة تهوذة».

أما نسبه، فهو: عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية[2] ابن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي[3] وأمه سبية من (عنزة). اسمه النابغة، فهو

---

(١) ١ ـ ٦٣هـ/ ٦٢١ ـ ٦٨٢م.

(٢) أسد الغابة ٣/ ٤٣٠، والإصابة ٥/ ٨١.

(٣) الاستقصا ١/ ٦٩، وجمهرة أنساب العرب ١٧٦، ١٧٧.

أخو عمرو بن العاص لأمه[١].

وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص[٢]. وفي رواية أخرى أن عمرو بن العاص خاله[٣]. وفي رواية أيضاً أنه ابن أخي العاص بن وائل السهمي لأمه[٤]، ويلتقي نسب عقبة بن نافع ينسب عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً، ومن جهة الأب ثانياً على اعتبار أنهما من قريش.

عاش عقبة بداية حياته والجزيرة العربية تتمخض بالأحداث الجسام، وعرف الصراع بين المسلمين وبين أعداء الإسلام منذ أن فتح عيونه على الدنيا، فكان في صف المسلمين، وتهيأت له الظروف حتى ينهل من مورد الإيمان والإسلام، فعاش في بيئة إسلامية صرفة.

وكانت حياة العرب في الجزيرة تعتمد على الفروسية، وعلى القتل والقتال، ثم جاء الإسلام فوحد قلوب أبناء الجزيرة، وجعل للعرب هدفاً نبيلاً يقاتلون من أجله، فأصبح مناخ الحرب هو المهيمن على بيوتات العرب في الجزيرة كلها. وعاش عقبة في هذا المناخ، وتفاعل معه، وجعل من الجهاد في سبيل الله حرفة له، فصلب عوده منذ حداثة سنه، وتفتحت فيه إمكانات القيادة المبكرة، شأنه في ذلك، شأن قادة المسلمين الأوائل.

وكانت الأحداث الحاسمة في حياة عقبة، والنقاط المضيئة في سيرته كثيرة، لكن بالمستطاع إيجازها، بهدف الدراسة والبحث، في مضمون الجدول التالي:

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
١	١ق.هـ	٦٢١	ولادة عقبة بن نافع الفهري القرشي في مكة المكرمة.
٢	٢٠	٦٤٠	اشترك عقبة مع عمرو بن العاص في فتح مصر.
٣	٢١	٦٤١	تولى عقبة بن نافع قيادة جيش للمسلمين وفتح زويلة.
٤	٢١	٦٤١	وجَّه عمرو بن العاص قوة للمسلمين بقيادة عقبة لفتح النوبة.
٥	٢٢	٦٤١	عاد عقبة إلى أفريقية، وتولى قيادة حامية برقة.

(١) جمهرة أنساب العرب ١٦٣.

(٢) أسد الغابة ٣/ ٤٢٠، والاستيعاب ٣/ ١٠٧٥.

(٣) الإصابة ٥/ ٨١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٩.

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
٦	٢٦	٦٤٦	اشترك عقبة مع والي مصر الجديد، عبد الله بن أبي سرح، في فتح طرابلس.
٧	٣٩	٦٥٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر بأهل مصر.
٨	٤١	٦٦١	غزا عقبة بن نافع الروم وقبائل لواتة المتمردة في أفريقية.
٩	٤٢	٦٦٢	قاد عقبة المسلمين في برقة وفتح غدامس.
١٠	٤٣	٦٦٣	فتح عقبة كوراً «أقاليم» من السودان.
١١	٤٦	٦٦٦	نزل عقبة بمغداش من سرت وفتح خادر «كادار».
١٢	٤٩	٦٦٩	غزا عقبة بن نافع الروم في البحر، فشتا هناك بأهل مصر.
١٣	٥٠	٦٧٠	اختط عقبة مدينة القيروان وصيرها قاعدة متقدمة للمسلمين يرابطون فيها للغزو والحرب ويقيمون فيها أثناء السلم.
١٤	٥٥	٦٧٤	تولى ولاية مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري لمعاوية بن أبي سفيان، فعيَّن مسلمة مولاه أبا المهاجر دينار لولاية أفريقية، وعزل عقبة عن ولايته، وأساء أبو المهاجر معاملة عقبة وسجنه ثم أطلقه عندما طلب معاوية ذلك وسيره إلى الشام، فوعد معاوية بإنصافه.
١٥	٦٢	٦٨١	أعاد يزيد بن معاوية القائد لولاية أفريقية.
١٦	٦٣	٦٨٢	قاد عقبة جيش الشام إلى برقة، ثم جهز المسلمين، وسار بهم حتى وصل الأطلسي. وخاض خلال مسيرته مجموعة من العمليات القتالية، واصطدم مع قوات البربر والروم خلال عودته فاستشهد في تهوذة.

يظهر مضمون الجدول السابق أن حياة عقبة بن نافع العسكرية قد مرت بمراحل مختلفة.

المرحلة الأولى - العمل بقيادة عمرو بن العاص، ولقد كانت هذه الفترة مفيدة لبناء شخصية عقبة بن نافع القيادية. وقد أفاد عقبة من هذه الفترة فاكتسب من عمرو بن العاص الخبرات القتالية والكفاءات القيادية، كما أفاد من تجاربه الخاصة عند عمله بصورة مستقلة سواء عند فتح زويلة وعقد الصلح مع أهلها، بحيث أصبح ما بين برقة وزويلة[1] سلماً للمسلمين، أو عندما عمل

(١) زويلة: مدينة من مدن فزان القديمة، تقع في الجنوب الشرقي من (مرزوق) بنحو (١٥٠) كم، =

في النوبة[1] فكان أول من مهد السبيل لفتح النوبة من المسلمين.

المرحلة الثانية ـ تولى قيادة مستقلة كقائد لحامية (برقة)[2] طوال الفترة بين **٢٢هـ و٥٥هـ**، أي زهاء اثني وثلاثين عاماً. ولقد استطاع عقبة خلال هذه الفترة أن يحقق منجزات ضخمة أقلها تأمين الحدود الغربية لمصر، كما تخللتها غزوتان بحريتان، ويأتي بناء القاعدة المتقدمة في القيروان بمثابة الذروة في منجزات عقبة بن نافع كلها.

المرحلة الثالثة ـ أعمال عقبة بن نافع أثناء ولايته الثانية، **٦٢ ـ ٦٣هـ**، وهي المرحلة الحاسمة في الصراع من أجل فتح أفريقية كلها.

لقد كان مسرح الغرب العربي (أو ما يطلق الغرب عليه اسم أفريقية الشمالية) هو المسرح الوحيد والأساسي لنشاط عقبة ابن نافع، ولهذا قد يكون من المفيد التعرض لطبيعة هذا المسرح الجغرافي قبل الانتقال إلى الموقف العام خلال فترة ولاية عقبة بن نافع.

١ ـ الطبيعة الجغرافية لمسرح علميات عقبة بن نافع

تتميز الطبيعة الجغرافية بأنها أكثر العوامل ثباتاً واستقراراً في مجموعة العوامل المؤثرة على الحرب ومسيرة الأعمال القتالية، ولقد تناقصت أهمية العامل الجغرافي إلى حد بعيد بسبب التقدم العلمي والتقني، واعتماد الجيوش على التحركات الآلية (الميكانيكية) الأرضية والجوية. وعلى هذا، فعند التحدث عن التحركات من برقة مثلاً إلى طنجة على الأطلسي فإنه من الضروري، رغم ثبات العامل الجغرافي، تصور تلك المسيرة الطويلة والشاقة التي قطعها عقبة بن نافع خلال تحركاته القتالية، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورات التحرك في

= وتبعد عن مدينة طرابلس وإلى الجنوب الشرقي منها مسافة (٧٧٠) كم تقريباً. ويميزها المؤرخون بزويلة السودان للتفريق بينها وبين زويلة أفريقية التي بناها عبيد الله المهدي قرب تؤنس. وكانت زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزان عوضاً عن مرزوق.

معجم البلدان ٤/ ٤١٨، ٤١٩، المسالك والممالك ٣٤، المشترك وصفاً والمفترق صقعاً ١٣٦، وكذلك **تاريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٤**.

(١) **النوبة**: بلاد واسعة عريضة جنوب مصر، أول بلادهم بعد أسوان. **معجم البلدان ٨/ ٣٢٣**.

(٢) **برقة**: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية، واسم مدينتها (أنطابلس) وتفسيره: الخمس مدن ـ **معجم البلدان ٢/ ١٣٣**.

شروط أمن دقيقة وصارمة، ومع العمل على تأمين الإمداد الإداري للقوات وتوفير الحد الأدنى الضروري للشروط الحياتية، وعند ذلك فقط تظهر أهمية العامل الجغرافي بالنسبة للأعمال القتالية خلال الفترة التي قاد فيها عقبة بن نافع جيوش المسلمين لفتح أفريقية.

كانت برقة هي القاعدة المتقدمة في أفريقية، وتشابه في حدودها آنذاك حدود القطر العربي الليبي حالياً، وهي تتألف من هضبة صخرية ورملية تتخللها تلال متوسطة الارتفاع خالية من المجاري المائية الدائمة، كما تنتشر فيها بعض المنخفضات التي تحولت إلى واحات داخلية، أشهرها واحة جغبوب الواقعة على مسافة قريبة من الحدود الليبية ـ المصرية، وهي تنخفض عن مستوى البحر، وكذلك واحة مرزوق أكبر واحات منطقة فزان، ثم غدامس عند ملتقى حدود طرابلس بحدود المغرب العربي (تونس والجزائر ومراكش).

ويفصل بين هذه الواحات مساحات جرداء، وفي الجنوب هناك مرتفعات تصل حتى ٣٣٠٠م، تفصل بين برقة «ليبيا» وبين السودان الأوسط. وبالإمكان تمييز المناطق التالية في سطح برقة «ليبيا»:

أ ـ السهل الساحلي في منطقة أنطابلس «طرابلس» في الغرب وبرقة في الشرق.

ب ـ المرتفعات الساحلية، وتشمل الجبل الأخضر في برقة وجبل نفوسة في طرابلس.

جـ ـ الهضبة الداخلية، وتسود فيها الكثبان الرملية وبعض الواحات في الشرق «الكفرة»، ويتنوع سطحها في الغرب على حين تظهر في الجنوب واحات فزان ومنخفضاتها «الآجال والشاطئ».

ويتميز إقليم برقة «ليبيا» بحرارته المرتفعة صيفاً، والتي تصل حتى ٥٠ درجة في فزان، وتنخفض درجة الحرارة هذه شتاء إلى أقل من الصفر، فالسعة الحرارية كبيرة وتقل كلما اتجهنا شمالاً.

ويظهر العرض السابق للطبيعة الجغرافية أن محور التحرك الإجباري هو المحور السهلي الموازي لساحل البحر، وهذا المحور هو الذي كانت تتبعه قوات العرب المسلمين عند تقدمها من مصر إلى المغرب العربي.

إذا تجاوزنا بعد ذلك إقليم برقة فإننا نصل إلى المغرب العربي «تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا» والتي أطلق عليها ابن خلدون اسم «جزيرة

المغرب» بسبب حدودها الطبيعية العازلة والواضحة. ففي الجنوب الصحارى، وفي الشمال والغرب البحر الأبيض المتوسط «بحر الشام» والمحيط الأطلسي. وسنأخذ هنا بالوصف والتسمية الحديثين لسببين: أولهما، سهولة المأخذ والفهم. وثانيهما، عدم الاختلاف الكبير بين الطبيعة الجغرافية الحالية والطبيعة القديمة زمن الفتوحات، ذلك أنه على الرغم من أن القشرة الأرضية في المغرب العربي لا زالت غير مستقرة، وهي تتعرض باستمرار للهزات الأرضية والزلازل، إلا أن هذه الاضطرابات الطبيعية لم تتمكن من تغيير الطبيعة الجغرافية تغييراً كبيراً.

يشكل المغرب العربي إقليماً طبيعياً واضحاً ضمن حدود الوطن العربي، ويشغل هذا الإقليم، مع الصحراء الكبرى الغربية، القسم الشمالي الغربي من القارة الأفريقية، ويمتد المغرب العربي بطول (٢٠٠٠) كيلومتر تقريباً من خليج قابس حتى المحيط الأطلسي، وتؤلف الصحراء القسم الجنوبي منها وهو الذي يصلها بأفريقية المدارية. ورغم هذا الاتصال الجغرافي فإن طبيعة الصحراء تشكل أداة فصل أكثر مما تشكل وسيلة اتصال، في حين يشكل البحر وسيلة اتصال أكثر مما يكون عائقاً للاتصال. ويقع المغرب العربي بين درجتي العرض ١٦° و٣٧° شمالاً، وبين درجتي الطول ١٣° غرب غرينتش إلى ٩° شرق غرينتش، وتبلغ مساحته ٤ ملايين كيلومتر مربع. ويعتبر المغرب العربي، طبيعياً، منطقة التقاء بين قارتي أفريقية وأوروبة عبر البحر المتوسط ومضائقه، كما تعتبر بشرياً منطقة التقاء بين عالم الوطن العربي وبين العالم الأفريقي. أما من ناحية التضاريس فيتميز المغرب العربي بوجود منطقتين كبيرتين، «منطقة شمالية بحرية ومنطقة جنوبية صحراوية». وتعتبر المنطقة الشمالية بلاداً جبلية بالدرجة الأولى، يبلغ ارتفاعها الوسطي «٧٠٠م» لكن تضاريس هذه المنطقة الجبلية تختلف من مكان إلى آخر، ذلك لأنها ملتقى السلاسل الجبلية الالتوائية الحديثة بالكتل القديمة وهي على العموم مجزأة، تقطعها الوديان والمنخفضات، وتندمج الكتلة الجبلية في الضهرة التونسية فتؤلف كتلة واحدة. ويمكن بصورة عامة تمييز المناطق التالية:

١ ـ **السهول الساحلية**: وهي تتسع عرضاً في تونس وفي المغرب حيث تشكل سهول «السوس والشاوية والغرب»، ثم تضيق وتنعزل في الجزائر لتشكل سهولاً ضيقة أبرزها «سهل المتيجة». هذا، وبينما يأخذ الساحل الشمالي شكل الساحل الصخري ليكون عدداً من الخلجان الصخرية، مثل خليج تونس وخليج بنزرت،

فإنه يأخذ شكل الساحل الرملي الذي تقل فيه التعاريج سواء بالنسبة لساحل الأطلسي أو بالنسبة لساحل تونس الشرقي.

٢ ـ **الأطلس التلي**: ومعظمه كلسي أثرت فيه عوامل التعرية، فيتألف من عدة سلاسل ساحلية «الريف، القبائل، خمير»، وداخلية مثل جبال وارسونيس وبيبان في الجزائر، وجبال الأطلس الأوسط في مراكش التي ترتفع أكثر من ٣٠٠٠م.

٣ ـ **الأطلس الصحراوي**: وهو مجموعة من الطيات الملتوية تفصل بعضها عن بعض محاور اتصال وممرات كثيرة، وأشهر هذه الجبال «القصور» والتي تنتهي بجبال الأوراس في الشرق، وفيها أعلى قمة في الجزائر «٢٣٠٠م»، والضهرة التونسية التي تمتد نحو الرأس الطيب. أما في الغرب فترتفع جبال الأطلس الأعلى التي يزيد ارتفاع قمتها العليا في جبل طوبقال إلى **٤١٦٥** متراً، وهي أعلى قمة في الوطن العربي.

٤ ـ **الهضاب العليا «أو هضاب الشطوط»**: وهي تمتد بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي لتشكل في المغرب «المائدة المراكشية» على حين أنها تشكل في الجزائر «السهوب العليا» التي تضيق من الغرب إلى الشرق، كما يقل ارتفاعها ويتناقص كلما اتجهنا من المغرب في اتجاه تونس. وتوجد داخل هذه الهضاب منخفضات مغلقة تحوي مياهاً مالحة تدعى «الشطوط»، وهي تقابل ما يعرف في بلاد الشام باسم «السبخات». كما يوجد، سواء داخل الهضاب العليا أو بين الجبال، بعض الأحواض التي تشكل مواضع ذات تربة زراعية مثل «سهل طولا» في المغرب.

وبصورة عامة، فإن تضاريس المغرب العربي متميزة بتقطعها وارتفاعها، لهذا فإنها تعيق حركة المواصلات، وعادة ما تقتصر محاور التحرك على الممرات الطبيعية كالمضايق الجبلية والأودية النهرية، وأبرزها ممر تازا بين جبال الريف والأطلس الأوسط، وهو الذي يصل بين المغرب والجزائر، وكذلك وادي المجردة الذي يصل بين الجزائر وتونس. وتأتي بعد ذلك «التضاريس الصحراوية» حيث تشغل صحراء المغرب القسم الغربي من الصحراء الكبرى، وحدود هذه الصحراء نباتية بالدرجة الأولى. ففي الشمال تبدأ عند السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي، وفي الجنوب تنتهي عند ظهور أشجار الدوم والصمغ «وتدعى منطقة الساحل»، أي ابتداء من خط الأمطار ١٠٠مم.

وتتميز الصحراء الكبرى بصخورها المتبلورة القديمة حيث نجد فيها «الحماد

الصحراوي»، وهي هضاب حجرية واسعة تحوي طبقات مائية جوفية، وتحيط بالحماد مرتفعات صخرية تدعى «جبلاً أو ضهراً» كما يشرف الحماد على منخفضات ذات مياه مالحة «سبخة» أو مياه عذبة «دايا». وبالإمكان التمييز في الحماد الصحراوي بين «الرق» وهي الصحارى الحصوية الخالية تماماً من الماء مثل تانزروفت، وكذلك «العرق» وهي الصحارى الرملية التي ترتفع فيها الكثبان الكبيرة والعالية وفيها بعض الآبار، و«الكتل الجبلية» ومن أهمها جبال الأحجار «٣٠٠٤م» ذات الصخور البلورية والبركانية.

هذا، ويمكن تقسيم تضاريس الصحراء إلى قسمين ابتداء من خط طول مدينة الجزائر، فغرب هذا الخط تمتد الصحراء المنخفضة، وفي شرقه تمتد الصحراء المرتفعة.

المياه في المغرب العربي: تعتبر بلاد المغرب العربي فقيرة بالمياه السطحية عامة، إذا استثنيت بعض الأنهار الغزيرة، أمثال نهر السبور ونهر أم الربيع. وتدعى مجاري المياه بالأودية، وهي عبارة عن سيول متقطعة تشبه الأنهار الساحلية في بلاد الشام «سوريا ولبنان وفلسطين»، وتحمل عند فيضانها كميات كبيرة من اللحقيات «الطمي»، هذا وإن الكثير من هذه الأودية لا تصل إلى البحر بل تنحدر نحو الصحراء لتضيع في الأحواض المغلقة. ومن أنهار الجزائر الهامة نهر الشليف، وفي تونس نهر المجردة. وتوجد في الصحراء أودية جافة مما يدل على أن الصحراء عرفت مناخاً رطباً فيما مضى، كما أن هذه الصحراء غنية بالمياه الجوفية «الآبار»، وقد كانت هذه الآبار هي المورد الوحيد للقوافل عند تحركها في الصحراء.

٢ ـ الجغرافيا البشرية في أفريقية عشية الفتح

هناك تشابه كبير في الطبيعة الجغرافية بين المشرق العربي والمغرب العربي، فكان من الطبيعي أن يكون هناك ثمة تشابه أيضاً في التكون السكاني. فقد كان المغرب العربي موطناً لقبائل حملت بمجموعها اسم «البربر»، وكانت هذه القبائل، عشية الفتح، تنقسم إلى قسمين: قسم تجاوز مرحلة التنقل والترحال، مما يميز حياة البداوة، واستقر في السفوح المزروعة والسهول الساحلية. وقسم لا زال يعيش حياة البداوة وموطنه الصحارى والواحات جنوب البلاد وشرقها. ولم تكن صلة القربى ووشائج النسب منفصلة بين هؤلاء وأولئك، ولكن طبيعة

حياة الاستقرار والاحتكاك الدائم بين القبائل البدوية المستقرة قد جعلتهم أكثر استعداداً لتقبل التفاهم مع قوات الغزو القادمة من وراء البحر «كالرومان والبينزطيين والڤندال». وقد أفاد الرومان، وورثتهم البيزنطيون من هذه الظاهرة، فاستعانوا ببربر السهول على بربر الحماد لتأمين حماية مصالحهم ولإشراكهم في الدفاع عن المواقع البيزنطية والحصون التي أقاموها بصورة خاصة في المنطقة الساحلية. وخلال مرحلة الاحتكاك الطويلة حصل التزاوج بين الطرفين، فنشأ عن هذا التزاوج عرق جديد عرف باسم «الأفارقة»، وهم سكان البلاد الأصليون من المولدين، وقد اعتنق أكثرهم الديانة المسيحية التي انتشرت بصورة خاصة بين بربر الساحل أو البربر المتحضرين. أما بقية البربر فكانوا يدينون بالوثنية أو المجوسية، وكان هذا الفارق الديني كثيراً ما يسبب الصدام بين البربر بعضهم مع بعض. وعلاوة على سكان البلاد الأصليين، فقد كانت أقليات يهودية يعود أكثرها إلى أيام اضطهاد الرومان، حيث تسبب الاضطهاد في فرار هؤلاء إلى المغرب وعملوا هناك على نشر الدعوة بين البربر فتكونت أقلية يهودية، بعضها مهاجر وبعضها من أهل البلاد الأصليين.

كان البربر، سكان البلاد الأصليون، مقاتلين أشداء، يتشابهون مع العرب في عدد من الصفات المشتركة حتى ظن بعض المختصين من علماء أنساب العرب أن هناك ثمة قرابة ونسابة بينهم وبين القبائل العربية. وكان هذا التشابه في التكون الطبيعي عاملاً من العوامل التي ميزت الصراع في البداية بالقسوة، ثم ساعد أيضاً في الاندماج مع العرب وتقبل دينهم بمثل الحماسة التي حمل فيها العرب لواء الإسلام.

كان المغرب العربي عشية الفتح تحت حكم الروم «البيزنطيين»، ولم تكن العلاقة بين الروم وبين السكان البربر جيدة باستمرار، وكان السبب في ذلك هو كثرة المغارم التي فرضها الروم على سكان البلاد لتلبية متطلباتهم وتأمين احتياجاتهم. ولم تكن أفريقية البيزنطية تشمل المغرب كله، من حدود مصر إلى المحيط، ومن البحر إلى قلب الصحراء، وإنما كانت شريطاً ضيقاً يمتد مع الساحل ويضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الأوراس، ويضيق هذا الشريط حتى ينتهي عند طنجة وسبتة حيث تبدأ هناك منطقة نفوذ دولة القوط «الأندلس»، والتي كان يحكمها حاكم من قبل القوط. وكان حاكم أفريقية مطلق الصلاحية في استخدام جميع الوسائل لتأمين متطلبات «القسطنطينية»، وكانت البلاد مقسمة

إلى مناطق عسكرية يحكم كل منطقة قائد عسكري. وكانت هذه المناطق تضم تحصينات ومواقع عسكرية منعزلة «ليمات Limes»، تصل بينها شبكة من طرق المواصلات، ولكن هذه التحصينات والمواقع لم تكن على درجة كافية لمقاومة الهجمات المنظمة القوية، وإنما كانت تكفي لرد الغزوات الضعيفة مما يحمل على الاعتقاد بأن واجبها الأول هو ردُّ الغزوات والهجمات البربرية التي كان يقوم بها أهل البلاد بين فترة وأخرى.

٣ ـ الموقف العام بعد الفتح

انطلقت جيوش العرب المسلمين لنشر رسالة الإسلام في عهد الخليفة الأول «أبو بكر الصديق» ﷺ، وتحققت في عهده أول بواكير النصر في معركة اليرموك الخالدة. وتوفي أبو بكر عام **١٣**هـ/ **٦٣٤**م، فتابع الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أعمال الفتوح، فتم في عهده فتح الشام والعراق ومصر. وكان الخليفة عمر ينطلق في سياسته من مبدأ تحقيق التوازن بين قوة العرب المسلمين وبين حجم الفتوحات. ونظراً لعدم التكافؤ بين حجم قوة العرب المسلمين القليلة وبين حجم البلاد الواسعة التي تم فتحها، فقد أصدر أوامره بإيقاف أعمال الفتح، وحجز قوات المسلمين شمالاً عند حدود جبل طوروس، وشرقاً عند حاجز نهري دجلة والفرات، وغرباً عند حدود الصحراء الفاصلة بين برقة وبين أفريقية. وخلال هذه الفترة، انصرف ولاة المسلمين وقادتهم إلى بناء المجتمع الجديد وتأمين قاعدة انطلاق ثابتة بحيث يستطيع المسلمون بعدها «**الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة**» لمتابعة الفتوح، مستفيدين في ذلك من قوة الرجال الذين انضموا حديثاً إلى الإسلام وتحميلهم واجب نشر رسالة الإسلام وتعريف الدنيا بها.

كان نشر رسالة الإسلام يصطدم شمالاً بقوة الدولة البيزنطية التي لم تستسلم رغم ما لحق بها من هزائم قاسية، وكان نشر رسالة الإسلام يصطدم شرقاً بقوة الدولة الفارسية التي تابعت تحدياتها للمسلمين، واستمرت في التحريض ضدهم، فكان أن أصدر الخليفة عمر أوامره إلى قادة المسلمين بالانسياح في بلاد فارس، فكانت معركة فتح الفتوح «نهاوند» عام **٢١**هـ/ **٦٤١**م. وفي أقل من ثلاثة أعوام كانت قوات العرب المسلمين قد أحاطت بالهضبة الفارسية وأزالت الدولة، وأخذت في تغيير معالم المجتمع الفارسي. وفي نفس السنة التي وقعت

فيها معركة فتح الفتوح، كان عمرو ابن العاص قد استقر في مصر وتوقف عند برقه تنفيذاً لأوامر أمير المؤمنين عمر، ولكن الدولة البيزنطية لم تتوقف عن متابعة أعمالها العدوانية، فقامت بتنفيذ عملية إنزال بحري في الإسكندرية عام (٢٥هـ/ ٦٤٥م).

كان والي الشام، معاوية بن أبي سفيان قد نجح في ضبط الروم، عن طريق استراتيجية الردع والهجمات الوقائية ضدهم باستمرار، وذلك باستخدام قوة الصوائف والشواتي وتحصين الثغور. وكان قد استأذن الخليفة عمر بركوب البحر حتى يستطيع ردع قوة الروم البحرية، وحتى يحرم البيزنطيين من مجالهم الحيوي ويمنعهم من الاتصال بأفريقية، ولكن الخليفة عمر منعه من ذلك خشية على المسلمين وتحقيقاً لمبدأ الاقتصاد في القوى. فعندما تولى خلافة المسلمين أمير المؤمنين، عثمان بن عفان (٢٤ ـ ٣٤هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٤م)، عاود معاوية بن أبي سفيان يطلب ركوب البحر، فأذن له الخليفة. وبدأ معاوية ببناء الأسطول، فتشكلت قوة ردع بحرية استطاعت أن تفرض وجودها على مراحل، ونجحت، بفضل تنسيق التعاون بين الشام ومصر، في أن تحقق سيطرتها على القسم الشرقي من بحر الشام، فاضطر الأسطول البيزنطي إلى نقل نشاطه بعيداً في اتجاه الغرب للإبقاء على الاتصال مع مجاله الحيوي الوحيد المتبقي له وهو أفريقية، وكان ذلك بصورة خاصة بعد معركة ذات الصواري. ولقد استطاع هذا الأسطول في الواقع القيام بدور كبير في تنفيذ سياسة الدولة البيزنطية للكيد للمسلمين والنكاية بهم، وكان مما يساعده على ذلك وجود قوى مؤيدة للدولة البيزنطية، وكان ذلك أمراً طبيعياً بسبب الاتصال الطويل والتعامل القديم بين الدولة الرومانية وبين أهل أفريقية، فكان حتماً على المسلمين العمل طويلاً حتى تزول رواسب هيمنة البيزنطيين من نفوس السكان الأفارقة.

٤ ـ الموقف الخاص للدولة الإسلامية

(نصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده). وخفقت رايات الإسلام في أقل من ربع قرن من الهجرة ما بين حدود الهند شرقاً وبين حدود أفريقية غرباً. وكان لا بد لهذه المسيرة السريعة من أن تترك جيوباً للمقاومة تضم في صفوفها الحاقدين على العرب المسلمين، وكان من الطبيعي أن تستطيع هذه

الجيوب اجتذاب الطامحين والطامعين على حد سواء من العرب المسلمين أنفسهم، وخُيِّل لبعض هذه الجيوب أنها تستطيع عن طريق التفتيت الداخلي الوصول إلى ما لم تستطع بلوغه عن طريق الهجمات الخارجية والمجابهات المسلحة في ميادين القتال، فكان مقتل أمير المؤمنين عمر ثم الخليفة عثمان رضي الله عنهما، وكان لليهودي عبد الله بن سبأ[1] قسط كبير في الفتنة ضد عثمان؛ ووقعت الفتنة الكبرى وتمزقت وحدة العالم الإسلامي السياسية. واستمر هذا التمزق السياسي حتى عام الجماعة (٤٠هـ/ ٦٦٠م). وشهد معاوية في عهده نوعاً من الاستقرار ساعده على ضبط الروم والكيد لهم، ولكن الاضطرابات عادت إلى الظهور في عهد يزيد، واستمرت حتى تولى عبد الملك بن مروان إمارة المسلمين، فأعاد للعالم الإسلامي وحدته السياسية، واستطاع المسلمون معاودة الفتوح.

كان لانقسام وحدة العالم الإسلامي السياسية، وظهور الثورات وأعمال التمرد، انعكاساتها الخطيرة على الموقف الخاص في الجبهتين الشرقية «خراسان» والغربية «أفريقية»، ذلك أن سكان هذه الأقاليم كانوا حديثي العهد بالإسلام، وكان خضوعهم للعرب المسلمين بمثابة خضوع للقوة، فإذا عرفوا في العرب المسلمين ضعفاً، أظهروا تمردهم، وإن أعمال التمرد والثورات المضادة تظهر التواقت الواحد، سواء بالنسبة لحدوث أعمال التمرد مع ظهور الثورات الداخلية، أو حتى بالنسبة لترافق أعمال التمرد هذه في خراسان مع مثيلتها في أفريقية. وكان مما يزيد الموقف خطورة على الجبهتين وجود قوة ممثلة بالدولة

---

(١) **عبد الله بن سبأ**: يهودي من أهل صنعاء، أمه سوداء، أسلم زمن عثمان ولما يدخل الإيمان في قلبه، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، فاعتمر فيهم، وأخذ في التحريض على أمراء المسلمين، وبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فشاعت الفتنة، وكانت المؤامرة لقتل عثمان. (انظر: **تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب**: ٣/ ٣٤٠ ـ ٣٩٦، وكذلك **الكامل في التاريخ** لابن الأثير، دار الكاتب العربي ٣/ ٧٧ ـ ٩٠). (وانظر: **الفتنة ووقعة الجمل** لسيف بن عمر ـ دار النفائس).

البيزنطية خاصة، تضطلع بدور المحرض لاندلاع الثورات المضادة، وتقوم بتغذيتها ودعمها، بل إنها كانت تتجاوز ذلك في بعض الأحيان فتحاول تهديد قاعدة الدولة الإسلامية ذاتها في الشام، وبصورة خاصة في عهد معاوية وعهد عبد الملك بن مروان، حيث وصلت قوات الروم وأنصارهم إلى قرب دمشق ما دفع أمراء الأمويين لدفع جزية محددة أسبوعياً حتى يستطيعوا التفرغ لقمع الثورات المضادة. وهنا تظهر نقطة حاسمة ذات علاقة وثيقة بظاهرة التمرد، سواء في خراسان أو في أفريقية، وهذه النقطة تكمن في سياسة الفتوح ذاتها وهي «الهدف من الفتوح»، والأسلوب الذي اتبعه قادة العرب المسلمين لتحقيق الهدف.

لقد كان **الهدف الأول** هو نشر الدين الإسلامي، ولهذا فقد كان الأسلوب المتبع، قبل كل اشتباك، إجراء اتصال يتم فيه طرح خيارات لتجنب القتال، الذي كتب على المسلمين وهو كره، وهذه الخيارات هي، حسب ترتيب الأفضلية: «الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب». وكثيراً ما كان الطرف المقابل للعرب المسلمين يقبل الخيار الأول أو الثاني، ويكتفي المسلمون عندها بترك إدارة البلاد وحكمها لأهلها، مما كان يغري ضعاف النفوس ممن لم يقر الإسلام في قلوبهم إلى إظهار تمردهم، والنكث بالعهود المقطوعة عندما يجدون الفرصة المناسبة لذلك، مما يضطر قادة العرب المسلمين وقوات العرب المسلمين إلى خوض حرب بعد حرب وفتح بعد فتح، حتى استقر الأمر في النهاية وتشكلت قاعدة العرب المسلمين القوية في الأقاليم كلها. وعلاوة على ذلك فإن قوة العرب المسلمين لم تكن كافية لإقامة حاميات قوية في جميع الأقاليم التي يتم فتحها، وكان يتم الاكتفاء، في كثير من الأحيان، بترك عدد قليل واجبهم الأول التعريف بالدين الإسلامي ونشر رسالة الإسلام. فكان شأن من لا يخضعون إلا للقوة الإفادة من هذه الظاهرة، واستثمار ابتعاد قوة العرب المسلمين لإعلان التمرد المرة بعد المرة.

يظهر العرض السابق مدى التفاعل في العوامل التي كان لها دورها في التأثير على مسيرة الفتوحات، وعلى دور القادة عند اتخاذهم لقراراتهم ومواقفهم، ويمكن إيجاز هذه الأحداث بالنسبة لجبهة أفريقية على النحو التالي:

	السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
١	١١ ـ ١٣	٦٣٢ ـ ٦٣٤	خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
٢	١٣ ـ ٢٤	٦٣٤ ـ ٦٤٤	خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
٣	١٩	٦٤٠	فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص.
٤	٢٢	٦٤٢	فتح طرابلس الغرب «أنطابلس» وبرقة.
٥	٢٤ ـ ٣٤	٦٤٤ ـ ٦٥٤	خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.
٦	٢٥	٦٤٥	انتفاض الإسكندرية وغزو الروم لها.
٧	٢٦	٦٤٦	عزل عمرو بن العاص وتعيين عبد الله بن أبي سرح لولاية مصر.
٨	٢٨	٦٤٨	غزو المسلمين لجزيرة قبرص.
٩	٣١	٦٥١	موقعة «ذات الصواري».
١٠	٣٤ ـ ٤٠	٦٥٤ ـ ٦٦٠	خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعهد الفتنة الكبرى.
١١	٣٦	٦٥٦	وقعة الجمل.
١٢	٣٧	٦٥٧	وقعة صفين.
١٣	٣٨	٦٥٨	استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمد بن أبي بكر الصديق، والي مصر للخليفة علي.
١٤	٤٠ ـ ٦٠	٦٦٠ ـ ٦٧٩	خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان.
١٥	٥٤	٦٧٣	غزو جزيرة أرواد.
١٦	٥٩	٦٧٨	حصار القسطنطينية.
١٧	٦١ ـ ٦٤	٦٨٠ ـ ٦٨٣	خلافة يزيد بن معاوية.
١٨	٦١	٦٨٠	مقتل الحسين في كربلاء.
١٩	٦٢	٦٨١	الفتنة في خراسان، وخروج كسيلة في أفريقية.

٥ ـ الموقف على مسرح عمليات المغرب

شهد عقبة بن نافع فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وأقام بها. وفي سنة ٢١هـ بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع فافتتح زويلة صلحاً، وصار ما بين برقه وزويلة سلماً للمسلمين. وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب

يعلمه «أنه قد ولَّى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة، وإن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم، قد أدّى مسلمهم الصدقة، وأقرَّ معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على زويلة، ومن بينه وبينها، ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم».

وفي السنة التالية (٢٣هـ/ ٦٤٣م) سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة، ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها شهراً، فلم يظفر بها. وكان قد نزل شرقيها، فخرج رجل من بني مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلكوا غرب المدينة، فلما رجعوا اشتد الحر عليهم، فأخذوا جانب البحر، ولم يكن السور متصلاً بالبحر، وكانت سفن الروم في مرساها مقابل بيوتهم، فرأى المدلجي وأصحابه مسلكاً بين البحر والبلد، فدخلوا منه وكبَّروا، فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم لأنهم ظنوا أن المسلمين قد دخلوا البلد. ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة، وسمع الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد، فلم يفلت الروم إلا بما خف معهم في مراكبهم. وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا، فلما فتحت طرابلس، جند عمرو عسكراً كثيفاً وسيره إلى سبرة، فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح، لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس، فوقع المسلمون عليهم، ودخلوا البلد مكابرة وغنموا ما فيه، وعادوا إلى عمرو، فرجعوا جميعاً إلى برقة.

وفي سنة (٢٥هـ/ ٦٤٥م) خالف أهل الإسكندرية ونقضوا صلحهم، وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح فأجابوهم إلى ذلك، فسار إليهم من القسطنطينية جيش كثير، فأرسوا بها، واتفق معهم من بها من الروم، ولم يوافقهم المقوقس (حاكم مصر أثناء الفتح) بل ثبت على صلحه مع المسلمين، فلما بلغ الخبر إلى عمرو بن العاص، سار إليهم، وسار الروم إليه، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية، وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة. ثم أن عمرو بن العاص أمر

بهدم حصون الإسكندرية وسورها فهدمت[1] وحين كان عمرو بن العاص على مصر كان عقبة على رأس المسلمين في برقة. وحين عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر، سنة خمس وعشرين، وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره، أقر ابن أبي سرح عقبة على منصبه قائداً لحامية «برقة». وسار عبد الله بن سعد ومن خرج معه حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية، في جيش كثير، عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين، فصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدموا على دخول أفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها. ثم أن عبد الله بن سعد أرسل إلى عثمان يستأذنه في غزو أفريقية، والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين، وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب، فنهبوا من عندها من الروم، وسار نحو أفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ذلك في سنة (٢٦هـ/ ٦٤٦م).

ثم أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عاد من أفريقية إلى مصر، وكان مقامه فيها سنة وثلاثة أشهر، وبقي عقبة بن نافع على ولاية برقة واستقر له الأمر بعد أن قتل ملك أفريقية من قبل الروم، واسمه «جرجير»، وكان كل ملك من ملوك النصارى من أفريقية ومصر والأندلس وغير ذلك يؤدي الخراج إلى هرقل ملك القسطنطينية. فلما صالح أهل أفريقية عبد الله بن سعد أرسل هرقل إلى أهلها بطريقاً له، وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البطريق في قرطاجنة، وجمع أهل أفريقية وأخبرهم بما أمره الملك، وكان قد قام بأمر أفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة فسار إلى الشام وبه معاوية وقد استقر له الأمر، فوصف له أفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً، فسير معاوية بن أبي سفيان جيشاً بقيادة معاوية بن حديج السكوني. ومضى ابن حديج فوصل إلى أفريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم، فنزل عند قمونية، وهي مدينة بأفريقية كانت موضع القيروان، وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل، فلما سمع بهم معاوية، سير إليهم جيشاً من المسلمين

(١) **الكامل في التاريخ** لابن الأثير ـ أحداث سنة ٢٣ و٢٥هـ. والبلاذري ٢٦هـ.

فقاتلوهم، فانهزمت الروم وحصر حصن جلولاء، فلم يقدر عليه، فانهدم سور الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه، وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد معاوية بن حديج إلى مصر.

تلك هي الفترة الأولى لحياة عقبة بن نافع في أفريقية، أمضى خلالها زهاء **٢٠** عاماً كقائد لحامية برقة (٢١ ـ ٤١هـ/ ٦٤١ ـ ٦٦١م). ومن الملامح المميزة لهذه الفترة أن عقبة كان يلتزم فيها **أسلوب الدفاع، وبذلك كانت برقة بمثابة القاعدة المتقدمة المسؤولة عن حماية الجبهة الغربية لمصر**. ومما كان يزيد من أهمية هذه القاعدة، نشاط الروم «البيزنطيين» بصورة مستمرة ومحاولاتهم المحافظة على صلاتهم التقليدية مع أهل البلاد والإبقاء على مصالحهم، ولقد تميزت هذه المحاولات بالشراسة والتصميم العنيد. فقد كانت المحاولات في حد ذاتها بمثابة صراع «حياة أو موت» بالنسبة لبيزنطية، بعد أن انتزع منها مجالها الحيوي في الشام وحصرت في حدود ما وراء طوروس فلم يبق منها سوى البحر، وما وراء البحر. وفي هذا المجال أيضاً، بدأ المسلمون في إحكام الطوق حول الدولة البيزنطية عندما بدأ معاوية بن أبي سفيان في إنشاء أسطول للمسلمين، وأخذ في الهيمنة على الجزر البحرية، جزيرة بعد جزيرة. ولكن الوقت كان لا يزال مبكراً لفرض سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط كله وتحويله إلى «بحر للشام» ومنطقة نفوذ للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع، ولهذا فإن واجب عقبة الدفاعي لم يكن بالواجب السهل، وهذا ما يوضح حرص ولاة المسلمين جميعاً وحكامهم على إبقاء عقبة في هذا المركز القيادي، فقد تعاقب على حكم مصر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح، ومحمد بن أبي بكر، ثم عمرو بن العاص ثم معاوية بن حديج السكوني، وكلهم لم يفكر في استبدال عقبة بقائد آخر، ثقة به، ومعرفة لكفاءته، وتقديراً لجهده واحتسابه وجهاده.

ولقد أفاد عقبة من هذه الفترة لاكتساب خبرة مع أهل البلاد، والاحتكاك بهم، ونشر الإسلام بينهم، وإقامة قاعدة قوية وثابتة في «برقة» تكون للمسلمين قاعدة انطلاق لهجماتهم وتوغلهم في أفريقية، وترد عنهم في الوقت ذاته هجمات الروم وأنصارهم من أهل البلاد، ولا حاجة لإبراز سبب التزام عقبة بأسلوب الدفاع خلال هذه المرحلة، فالهجوم يتطلب في أول شروطه توفر تفوق في القوى، ولم يكن هذا التفوق موجوداً، يتأكد ذلك من خلال رسالة عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى الخليفة عثمان عندما كتب إليه يستأذنه ويستمده بهدف

الاستكثار من الجموع على أفريقية، فكان موقف عقبة والحالة هذه الانضمام إلى كل قوة تتوغل في أفريقية وتقاتل فيها هجومياً. ولا ريب أن دعم عقبة لم يكن يتوقف عند حدود الاشتراك مع قواته بالقتال، وإنما كان يتجاوز ذلك لتقديم الخبرة والمعلومات المتوافرة ما كان يساعد على تحقيق النجاح في قتال المسلمين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قلة عدد العرب المسلمين في برقة، وعدم تمكن عقبة من القيام بالأعمال الهجومية يظهر واضحاً من خلال عدم رد عقبة على قيام بطريق الروم بالاتصال مع أهل أفريقية، وتحريضهم ضد المسلمين، وطرد الحاكم الذي اتفق مع المسلمين، مما حمل عقبة على توجيهه إلى الشام لطلب الدعم من معاوية بن أبي سفيان وإظهار خطورة الموقف، فكانت استجابة معاوية في إرسال جيش بقيادة معاوية بن حديج السكوني، ووصوله إلى أفريقية وهي تضطرم ناراً، فأقام فيها سنة ونيف حتى استتب الأمر للمسلمين.

٦ ـ المرحلة الثانية في حياة عقبة بن نافع القيادية

تبدأ هذه المرحلة، وهي في الواقع امتداد للمرحلة السابقة، مع عام (٤١هـ/ ٦٦١م)، فقد كان استقرار موقف الدولة الإسلامية بعد عام الجماعة، واتفاق المسلمين على حكم معاوية بن أبي سفيان عاملاً مساعداً لتطوير الأعمال القتالية على الجبهة الغربية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تصاعد قوة المسلمين في البحر وسيطرتهم على عدد من الجزر كان عاملاً مساعداً أيضاً لتحقيق نوع من الاستقرار النسبي. وهناك عامل يأتي في طليعة العوامل جميعاً، فقد اكتسب عقبة الخبرة اللازمة، خلال صراعه الطويل والمرير مع الروم، كما أصبحت قاعدته في برقة قوية ومأمونة، بحيث أصبح باستطاعته الاستناد إليها للانطلاق من مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم.

وهكذا انطلق عقبة في هذه السنة بقوات المسلمين حتى انتهى إلى «لواتة»[1] ومزاتة، وكانوا قد أطاعوا ثم كفروا فغزاهم عقبة فقتل وسبى، فتنحوا ناحية طرابلس فقاتلهم عقبة حتى هزمهم، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال: «إنه ليس لمشرك عهد عندنا. إن الله ﷻ يقول في كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ

---

(١) لواتة: من أشهر قبائل البربر، كانت زمن الفتح الإسلامي تسكن برقة، وهي من أكبر بطون البربر (البتر) ـ **تاريخ الفتح العربي في ليبيا ١١، ١٢ وجمهرة أنساب العرب ٤٩٨.**

﴿لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمتي. إن شئنا أقررناكم، وإن شئنا بعناكم». وغزا عقبة «هوارة»[1] فأطاعوا هم ولواتة ثم كفروا، فغزاهم عقبة فقتل وسبى. ثم افتتح في سنة (٤٢هـ/ ٦٦٢م) غدامس[2] فقتل وسبى. وفي سنة (٤٣هـ/ ٦٦٣م) افتتح كوراً من كور السودان[3] وافتتح ودان ثانية، وهي من برقة، وذلك سنة (٤٦هـ/ ٦٦٦م). فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل «مغداش» من سرت، وكانت ودان قد نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أرطاة، سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فترك عقبة جيشه بـ«مغداش» في أرض سرت[4]، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار إليها في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء، على كل جمل قربتان لحمل الماء، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان، وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً، وقبض على ملكهم فجدع أذنه، فقال: «لِمَ فعلت هذا بي؟». فقال عقبة: «فعلت هذا بك أدباً لك، إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب». واستخرج منهم ما كان بسر بن أبي أرطاة فرضه عليهم سنة ثلاث وعشرين الهجرية «ثلاثمائة رأس وستين رأساً من

---

(١) هوارة: اختلفت عليها المصادر العربية فوردت أحياناً (مزاتة) وأحياناً (مرافة) وهي بطن من البرانس، ومن أشهر قبائل البربر. وكان موطنهم زمن الفتح حول طرابلس إلى ما يقارب سرت؛ وإلى قصر ميمون من الجنوب. وكانت هوارة ظواعن وأهلين (بدو وحضر) ـ **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** (١١، ١٢ و٦٦) **والولاة والقضاة ٣٢.**

(٢) **غدامس**: اسمها البربري القديم (سيداموس) وهي واحة من واحات طرابلس الغرب الصحراوية، وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس، وعلى بعد ٥٠٠كم. وهي من أقدم المراكز الحضارية في صحراء طرابلس. **معجم البلدان ٦/ ٢٦٨.**

(٣) كورة: جمعها كور. والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها اسم الكورة. **معجم البلدان ١/ ٣٦.**

(٤) **مغداش**: بلد قريب من سرت في ليبيا. وسرت: مدينة قديمة على الخليج المسمى بها الآن، ويمتد هذا الخليج من مدينة مصراتة إلى الجنوب حتى بويرات الحسون، ثم يتجه شرقاً إلى العقيلة على مسافة ٥٨٥كم، من مصراتة، ثم يتقوس إلى الشمال حتى مدينة بني غازي مسافة ٢٨٥كم، ومدينة بني غازي في الشرق تقابلها مدينة مصراتة في الغرب، ويقع خليج سرت جنوب الخط الوهمي الذي يصل بين المدينتين. وتبعد سرت عن البحر إلى الجنوب مسافة أربعة كيلومترات، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو ٥٥٤كم. وكانت محاطة بسور من التراب، وهي غير سرت المعروفة الآن، لأن سرت الحديثة أنشئت في العهد العثماني سنة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م) ـ **معجم البلدان ٥/ ٦٢ ـ تاريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٦** و«**قادة الفتح الإسلامي ـ المغرب العربي**» اللواء الركن محمود شيت خطاب ١/ ٩٨.

العبيد». ولما استقر الأمر لعقبة في بلاد ودان[١] سأل عقبة أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقيل له: «جرمة»[٢]. فسار إليها ثماني ليال من ودان، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام، فأجابوا، فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، فارسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب ـ تعب حتى أصابه الإعياء ـ وكان ناعماً، فجعل يبصق الدم، فقال له: «لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً؟» فقال عقبة: «أدباً لك، إذا ذكرته لم تحارب العرب». وفرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً.

ومضى عقبة من فوره لإنجاز فتح بلاد «فزان»[٣] حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام على ربوعها، وكانت هذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزان فاتحين. وسأل عقبة أهل «فزان»: هل من ورائكم أحد؟ فقالوا: أهل «خاور». وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ـ وهو قصبة كاوار ـ فلما وصل إليه دعا أهله إلى الإسلام فأبوا، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم، فحاربهم وأقام على حصارهم شهراً بدون جدوى. وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه، فقال: «لم فعلت هذا بي؟» فقال عقبة: «أدباً لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب». ثم فرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً.

أخضع عقبة أهل خاور، وفتح بقية بلاد كاوار[٤] وافتتح عامة بلاد البربر،

---

(١) ودان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية، ويتبعها زلة وهون وسوكنة وما جاورها ويطلق على الكل اسم (بلاد ودان) وكانت ودان زمن الفتح الإسلامي هي القصبة (العاصمة)، وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بمسافة ٧٦٩كم تقريباً، وإلى جنوب سرت بمسافة ٢٨٠كم تقريباً (**المشترك وصفاً والمفترق صقعاً ٤٣٥ ومعجم البلدان ٨/ ٤٠٥**).

(٢) **جرمة**: اسم قصبة (ناحية أو مديرية) بناحية فزان، عاصمة بلاد فزان أيام الفتح الإسلامي.

(٣) **فزان**: واحة من واحات طرابلس الجنوبية، يحدها من الشمال الجبال السود (الهروج) ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين غدامس وغات، ومن الشرق خط الطول في الدرجة ١٨. وطولها من الشرق إلى الغرب ٩٠٠كم، ومن الشمال إلى الجنوب ٨٠٠كم. وارتفاعها عن سطح البحر ٥٠٠م تقريباً. وفيها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الأماكن ١٥٠م عن سطح البحر، ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع. **قادة الفتح الإسلامي ـ المغرب العربي ١/ ٩١، معجم البلدان ٦/ ٣٧٤، ٣٧٥.**

(٤) **خاور**: أكبر مدينة في ناحية كاوار وهي عاصمتها (قصبتها)، وتقع جنوب فزان. وأما ناحية كاوار، فهي ناحية واسعة بها مدن كثيرة ومياه جارية ونخل كثير. **معجم البلدان ٣/ ٢٩٤، و٧/ ٢١٠.**

وكان في نيته التوغل في أفريقية، وأن يمضي قدماً في جوف الصحراء، فسأل أهل خاور: «هل من ورائكم أحد؟». فقال الدليل: «ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة». فانصرف عقبة راجعاً، فمر بقصر خاور، الذي كان قد امتنع عليه في ذهابه، فأعرض عنه، ولم يحاول الهجوم عليه، ومضى بقواته حتى قطع في سيره ثلاثة أيام. وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم «ماء فرس»، ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة، فانفجر الماء منها، فجعل الفرس يمص ذلك الماء، وأبصره عقبة، فنادى في الناس: «أن احتفروا». فحفروا سبعين حفرة قليلة العمق وشربوا واستقوا، فسمي ذلك المكان لذلك «ماء فرس».

أمن أهل خاور عندما عرفوا بابتعاد عقبة وجيشه، ففتحوا مدينتهم، ووضع عقبة ذلك في تقديره، فرجع إلى خاور من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعر به أهل خاور حتى طرقهم ليلاً، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم. وانصرف عقبة بعد فتح خاور حتى نزل بموضع زيولة اليوم، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمت خيولهم وظهورهم.

علم عقبة أن غدامس قد تمردت، وشقت عصا الطاعة، فسار عقبة بجيشه إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم، وهو الطريق الساحلي جنوب جبل نفوسة، وأخذ إلى أرض هوارة، ويقال مزاتة، وهي قبيلة بربرية، فافتتح كل قصر من تلك القصور، ومنها قصر ميمون من ناحية الجنوب، جنوب طرابلس الغرب - سرت، ومضى إلى «صغر» واسمها الحالي «صغرو» وهي مدينة في شمال المغرب وفي قلب جبال أطلس الوسطى، فافتتح قلاعها وحصونها وقصورها، ثم بعث خيلاً إلى غدامس فاستعاد فتحها وتوجه إلى قفصة[1] ثم افتتح قسطيلية[2] ثم انصرف إلى القيروان بعد أن أزال كل المقاومات والجيوب

(١) قفصة: بلدة بتونس، كان لها شأن كبير في عهد الرومان وهي بلدة ليست بالكبيرة، تقع في طرف تونس من ناحية الغرب، من عمل الزاب الكبير، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. **معجم البلدان** ٧/ ١٣٨.

(٢) قسطيلية: إحدى بلاد الزاب الكبير بالمغرب، تقع في أقصى المغرب على حدود الصحراء. **معجم البلدان** ٧/ ٨٨.

المناوئة بين برقة والقيروان، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين.

كانت القوة الأساسية التي اعتمدها عقبة في حربه لا تزيد على ١٠ آلاف مقاتل وبهم دخل أفريقية، فانضاف إليه من أسلم من البربر، فكثر جمعه، ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم. فرأى عقبة أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، وأخذ في البحث عن المكان المناسب[1] لا سيما وأن قاعدته الأساسية «برقة» قد أصبحت بعيدة عن مسرح عملياته المقبل، وأصبح الموقف الجديد بعد عمليات الفتوح يفترض دفع القاعدة إلى الإمام لتكون في موقع مناسب، وأقرب ما يكون إلى قلب المغرب العربي. وكان معاوية بن حديج السكوني قد وضع أساس هذه القاعدة في القيروان الذي كان في مدينة قمونية، ولكن هذا الموقع لم يعجب عقبه لأسباب عسكرية بحتة، فقرر تغيير موقع القيروان.

لقد كان موقع قيروان معاوية بن حديج يفتقر إلى جودة الموقع الاستراتيجي، فقد كان في موقع في الوسط الشرقي لأفريقية، ولم تكن القيروان في الشمال فتكون جبلية، ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية، وكان القيروان منه بجانب سبخة. لقد كان العرب منذ أيام عبد الله بن سعد بن أبي سرح يفضلون النزول بقمونية لأنها بسيط من الأرض، تتوفر فيها المراعي، هواؤها جيد وتربتها خصبة ومياهها ثرة وفيرة، ولكن مكان قمونية لم يكن صالحاً كقاعدة مأمونة للمسلمين، لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنون قمونية مع المسلمين. ونظراً للعلاقة الوثيقة التي لا زالت قوية بين غير المسلمين وبين الروم من جهة، ونظراً لحداثة عهد المسلمين الأفارقة بالإسلام وعدم استقرار الإيمان في قلوبهم من جهة أخرى، فقد كان هؤلاء غير المسلمين خطراً لاحتمال استخدامهم كعيون «جواسيس» للروم، ينقلون إليهم أخبارهم ويدلون على عوراتهم «نقاط الضعف فيهم».

وأراد عقبة أن تكون القيروان بالنسبة للمسلمين محطاً لقوافلهم ومراحاً لعسكرهم فقال لرجاله: «إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر. فأرى لكم يا معشر المسلمين أن

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/ ٢٣٠.

تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر». فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه: «قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين». فقال لهم: «إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً. فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حريس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميتهم في الجنة». فاتفق رأيهم على ذلك، فقال: «قربوها من السبخة». فقالوا: «نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف». فقال: «لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا، وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى. فركب إلى موضع القيروان اليوم، وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه»[(1)].

أمر عقبة ببناء القيروان سنة ٥٠هـ، وأكمل بناءها سنة خمس وخمسين للهجرة، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان دورها «محيطها» ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو، ويرسل السرايا فتغير وتغنم، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة

---

(١) في **الكامل في التاريخ ٣/ ٢٣٠، ورياض النفوس ١/ ٦، ٧**: «أن رجاله قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض. وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله ﷻ وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى إلى السبخة وواديها ونادى، وكان مستجاب الدعوة، فقال: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا، ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجب من أن السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل أولادها. ونادى عقبة في الناس «أن كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا». فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام وهم ينظرون إليها، نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر».

المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وآمنوا، واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام فيها.

كان عقبة خلال هذه المرحلة يدرك بوضوح أهدافه، فقد ركز جهده الرئيسي على بناء الجبهة الداخلية، لأن صراعه مع الروم كان يشكل جبهة ثانوية، إذ كان هذا الصراع يخرج عن حدود إمكاناته ليدخل في حدود إمكانات الدولة الإسلامية ومقرها دمشق، **وكان واجبه الأول دفاعياً** يتلخص في تقليص نفوذ الروم «البيزنطيين» وتدمير الروابط بين الروم وأهل البلاد. ولهذا ركز عقبة جهده لإخضاع حركات التمرد، واتبع في ذلك وسيلتين: الترغيب عن طريق نشر الإسلام فيكون لأهل البلاد ما للعرب المسلمين ويكون عليهم من الواجبات ما عليهم، ثم الترهيب باتباع أساليب الحرب النفسية والردع، مع التركيز بصورة خاصة على قادة البلاد لنزع هيمنة الروم من نفوسهم وإشعارهم بقوة العرب المسلمين.

وإذا أمكن تجاوز هذه النقطة الحاسمة **فهناك نقطة أخرى موازية لها في الأهمية، ومعادلة لها في القوة وهي تحقيق التوازن بين القوى المتوافرة وبين الأهداف المتنوعة** خلال مراحل الصراع المختلفة. ولم يكن تحقيق هذا التوازن ممكناً لولا توافر الإمكانات لتقدير الموقف الصحيح، ولولا المعرفة الثابتة بطبيعة مسرح العمليات وموقف السكان من أهل البلاد. لقد التزم عقبة بموقف الدفاع عندما لم تكن لديه إمكانات جيدة للهجوم، ثم انطلق لممارسة الأعمال الهجومية وفق إمكاناته، ووفق طبيعة مسرح العمليات، وليس المجال هنا هو مجال دراسة الأساليب العملياتية والطرائق التكتيكية التي طبقها عقبة في عملياته، فهذه لها مجال لاحق عند دراسة فن الحرب عند عقبة بن نافع، ولكن بالإمكان هنا التنويه بما يميز المرحلة من توازن بين القوى والأهداف، وهي المعادلة التي تعتبر أساساً لنجاح كل عمل قتالي.

أما النقطة الحاسمة الثالثة، والمعادلة في الأهمية أيضاً، **فهي إقامة القاعدة القوية ودفعها كلما تم بناء المجمع الجديد**. لقد أقام عقبة في برقة عشرين سنة ونيف حتى أصبحت هذه القاعدة هي مركز الإشعاع للإقليم كله والمنطقة بكاملها. وعندما اطمأن عقبة إلى قوة قاعدته، انطلق لبناء قاعدة جديدة، أكثر عمقاً وأكثر قوة، ورغم أن هذه الظاهرة مرتبطة بالسياسة العامة والاستراتيجية الثابتة للعقيدة القتالية عند المسلمين، إلا أنه من الضروري إبرازها هنا كنقطة

مميزة في إطار استراتيجية هذه المرحلة، وليست هذه النقاط الأساسية الثلاثة هي كل المنطلقات وجميع المعطيات التي اعتمدها عقبة في حربه والتي ضمنت له الانتصارات الخالدة خلال هذه المرحلة.

وقد يكون من الصعب فصل العوامل المذكورة عن السياسة العامة للدولة وعن الاستراتيجية العربية الشاملة خلال هذه المرحلة، نظراً للتلاحم الوثيق بين مجموعة العوامل السياسية والاستراتيجية والعملياتية في عقيدة قتالية واحدة تميزت بها العقيدة الإسلامية قبل غيرها، مما يفرض العودة إليها عند دراسة فن الحرب في فصل لاحق. ومهما كان عليه الأمر، فإن شخصية عقبة القيادية تكمن أساساً في تمثل هذه الأسس والمعطيات والتوفيق بينها وبين الموقف الخاص الذي كان يتميز به مسرح العمليات في المغرب العربي. كان عقبة من الرواد الأوائل في رحاب الفكر الاستراتيجي العربي، وهو الفكر الذي كان الأساس لما رفعه العرب المسلمون من منارات في العلم والأدب والفن وفي كل مجال، وهي منارات أضاءت الدنيا فأشرق لها الكون.

٧ ـ عقبة والولاء الشخصي

مرت بالعالم الإسلامي، بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أزمة حادة هزت المجتمع الإسلامي هزاً، وظهرت قضية الولاء لأحد الحزبين الرئيسيين، حزب علي وحزب معاوية، وانتشرت عدوى الولاء إلى كل مصر وبلد فمزقت المجتمع وجعلته شيعاً، ولكن بعضاً من الصحابة وقلة من القادة استطاعوا الارتفاع عن مستوى العصبية الحزبية والسمو عن قضية الولاء الشخصي، بعضهم باعتزال العمل السياسي والابتعاد عن مراكز القيادة، وبعضهم بالالتزام بالقضية الأساسية، قضية نشر الإسلام والجهاد في سبيله، وكان هؤلاء وأولئك نفر من القلة يأتي القائد عقبة بن نافع نموذجاً رائداً لهم. **فقد استطاع عقبة**، رغم **جميع العواصف التي اجتاحت عالم المسلمين، أن يحافظ على موقعه، موجهاً وجهه نحو أعداء الإسلام**، تاركاً ظهره لدولة المسلمين معرضاً عن دنياهم عاملاً من أجل مستقبلهم مؤمناً الحماية لهم. وقد يكون لوجوده في مجابهة أعداء المسلمين، دور كبير في تحسُّسه للمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، والتي حملته على الارتفاع عن مستوى الولاء الشخصي إلى مستوى الولاء للقضية. وهكذا بقي عقبة على رأس حامية برقة

رغم كل التغيرات التي تعرض لها القادة والحكام والولاة، ولكن ريح التغيير لم تلبث أن اقتربت من برقة يوم عمل معاوية بن أبي سفيان على تعيين مسلمة بن مخلد الأنصاري لولاية مصر في العام ٥٥هـ، مكافأة له على تخصيص سيفه للدفاع عن حكم معاوية، فقرر مسلمة تعيين مولاه «أبو المهاجر دينار» لولاية أفريقية وعزل عقبة عنها. وعندما اتخذ مسلمة قراره هذا قيل له: «لو أقررت عقبة، فإن له جزالة وفضلاً». فقال مسلمة: «إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه». وهكذا عقد مسلمة بن مخلد لـ«أبو المهاجر»، وعزل عقبة عن ولايتها.

وقدم أبو المهاجر دينار إلى أفريقية، فأساء عزل عقبة، واستخف به وضيق عليه، وسجنه وأوقره حديداً، فأقام في الحبس شهوراً ثم أطلقه حين أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه إليه. وعندما أطلقه، أرسله برسل من قبله حتى أخرجوه من قابس. وكان أبو المهاجر دينار يوقر عقبة ويعرف ما له من المقام العظيم، فقد بلغ «أبو المهاجر» أن عقبة دعا عليه وقال: «اللهم لا تمتني حتى تمكني من أبي المهاجر دينار بن أبي دينار». فلم يزل أبو المهاجر خائفاً منذ بلغته دعوته.

وتوجه عقبة إلى مصر في طريقه إلى الشام، وحين قدم مصر ركب إليه واليها مسلمة بن مخلد، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر، وأنه قد أوصى «أبو المهاجر» به خاصة. وعندما وصل عقبة إلى الشام عاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر، فاعتذر معاوية إليه ووعده أن يعيده إلى عمله. وبقي عقبة في الشام، وتوفي معاوية سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م، ثم توفي والي مصر مسلمة بن مخلد، وخاف يزيد بن معاوية أن يضطرب الأمر في أفريقية فقال: «أدركوا أفريقية قبل أن يخربها أبو المهاجر». وجهز يزيد جيشاً من عشرة آلاف فارس، وسار عقبة إلى أفريقية من الشام حتى قدم على القيروان، فأخذ «أبو المهاجر» وحبسه وقيده، وأخذ ما معه من الأموال، وجدد بناء القيروان، بعد أن أهملها أبو المهاجر، وشيدها ونقل إليها الناس فعمرت وعظم شأنها، وكان ذلك سنة (٦٢هـ/ ٦٨١م).

كانت هذه الفترة، ومدتها ستة أعوام ونيف، من السنوات العجاف التي نزلت بساحة عقبة بن نافع، ولقد أفنى عقبة شبابه في أفريقية وأحبها وأحبته، وشيد فيها وبنى وأرسى القواعد الثابتة، وكان من الصعب عليه العيش بعيداً عنها،

فعندما أعيد لولايتها، عاد وهو أكثر تصميماً وأكثر إيماناً بضرورة متابعة ما بدأ به، فبدأ من فوره في إكمال الاستعدادات لدولته الجديدة.

٨ ـ أفريقية بين عهدين

لم يكن أبو المهاجر دينار بن أبي دينار مجرداً من الكفاءات القيادية، ولم يكن ولاؤه لمسلمة بن مخلد هو العامل الوحيد الذي أهَّله لتولي ولاية أفريقية، وإنما كان يتميز بكفاءة قتالية عالية وبكفاءة قيادية على المستوى ذاته أيضاً. ولهذا فإنه ما أن تسلم قيادته حتى سار إلى قرطاجنة[١] عاصمة الروم في شمال أفريقية، في محاولة لإزالة هيمنتهم والقضاء على قوتهم في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة[٢]. ونازل أبو المهاجر قرطاجنة فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يتم لهم فتح قرطاجنة، طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر على الجلاء. وأرسل أبو المهاجر قوة بقيادة حنش بن عبد الله الصنعائي إلى جزيرة شريك، التي كان الروم يتخذونها دوماً لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين، ففتحها، وأصبحت قاعدة للمسلمين.

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد حتى وصل ميلة في الجنوب الشرقي لبجاية[٣]، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها، فنازلها أبو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها، واستقر بها. وكانت ميلة تتوسط المغربيين الأوسط والأقصى، فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين، وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة «أَوْرَبَة» وزعامتها لكسيلة بن لمزم الأوروبي. وكان كسيلة قد عسكر بـ«تلمسان»[٤] فقصده أبو المهاجر والتقى الجيشان هناك، فدارت معركة

---

(١) **قرطاجنة**: بلد قديم من ناحية أفريقية، وكانت مدينة عظيمة شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً. **معجم البلدان ٧/ ٥٢**.

(٢) **بنزرت**: مدينة بينها وبين تؤنس يومان. **وطنجة**: مدينة قديمة على البحر، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد. **معجم البلدان ٢/ ٢٩٢ و٦/ ٦٢**.

(٣) **ميلة**: مدينة صغيرة بأقصى أفريقيا إلى الجنوب الشرقي من بجاية وبينهما ثلاثة أيام. **وبجاية**: مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب، **معجم البلدان ٨/ ٢٢٦ و٢/ ٦٢**.

(٤) **تلمسان**: مدينة بالمغرب اسمها القديم أقادير، على بعد مرحلة من وهران، معجم البلدان ٢/ ٤٠٩.

كبيرة بينهما انتصر فيها المسلمون، وأُسر كسيلة، فحمل إلى «أبو المهاجر»، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه وعامله معاملة الملوك، فأظهر كسيلة الإسلام[1] فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون «أبو المهاجر»، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط، فصالح أبو المهاجر بربر أفريقية، وفيهم كسيلة الأوربي، وصالح عجم أفريقية «الروم» ثم رجع إلى القيروان، وأقام به ومعه كسيلة.

٩ ـ مأساة تهوذة ومقتل عقبة (عقبة في ولايته الثانية)

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران/ ١٦٩، ١٧٠].

مضى عقبة بأصحابه وبكثير من أهل القيروان إلى المغرب، بعد أن ترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي، وخرج بـ«أبو المهاجر» معه موثقاً. وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة «باغاية»[2] لا يدافعه أحد، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها، وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم. ورحل عقبة فنزل على تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم، فانضم إليها من حولها الروم والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم لجب.

---

(١) كسيلة بن لمزم الأوربي: رئيس قبيلة (أوربة) كان قوي الشخصية، ذكي الفؤاد، غيوراً، وكان البربر يجلونه ويحبونه. كان نصرانياً، تولى الدعوة لحرب العرب المسلمين وحشد القوى بين المغربين الأقصى والأوسط، واستطاع جمع جيش كبير من البربر والروم وحارب «أبو المهاجر دينار»، فهزمه أبو المهاجر وأسره. وعندما تولى عقبة ولاية أفريقية الثانية أساء معاملته، فاتصل بالروم وراسلهم وراسلوه وتواعدوا على الثورة وحرب المسلمين، ونجح هذا التجمع في قتل عقبة و«أبو المهاجر» وفئة من المسلمين عام ٦٣هـ/ ٦٨٢م. واضطربت أفريقية من أقصاها إلى أقصاها، وبقي هذا الاضطراب أكثر من خمسة أعوام. وفي العام ٦٩هـ/٦٨٨م، استطاع والي أفريقية الجديد زهير بن قيس البلوي القضاء على حركة التمرد، وإخضاع الثورة وقتل كسيلة بن لمزم، ولكن الروم تدخلوا وقاموا بإنزال قواتهم خلال عودة زهير من عملياته ونجحوا في قتله، ودفن زهير وشهداء المسلمين بـ(درنة) قريباً من الساحل.

(٢) **باغاية**: مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين مجانة وقسنطينة، وهي حصن بربري قديم، وكان سكانها من البربر والروم. **معجم البلدان ٢/ ٤١**.

والتحم القتال ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها، وأصابوا منهم غنائم كثيرة. وسار عقبة إلى بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له: «أَرَبَة»[1] وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

توجه عقبة بعد ذلك إلى «تاهرت»[2]، فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة. باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه فأبشروا، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم ﷻ لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله ﷻ جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين». والتقى المسلمون بأعداء المسلمين، وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة الأعداء، لكن المسلمين استقتلوا حتى دان لهم النصر، فانهزمت جموع الروم والبربر، وأخذتهم سيوف المسلمين وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم. وسار عقبة بعد انتصاره في تاهرت حتى نزل على طنجة، فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان[3] فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه.

---

(١) **أربة**: مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب. **معجم البلدان ١/ ١٧٦**.

(٢) **تاهرت**: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لأحدهما تاهرت القديمة، وللأخرى تاهرت المحدثة. **معجم البلدان ٢/ ٣٥٤**.

(٣) **يليان** Julian: كان حاكماً لسبتة. وتذكره المصادر العربية بأسماء مختفة (إليان، يوليان) وقد اختلفت المصادر العربية في أصله فذكر بعضها أنه بربري من غمارة، وذكر البعض الأخر أنه رومي (بيزنطي) في حين تثبت المصادر الأخرى بأنه قوطي (من قوط الأندلس). وقد تولى يليان =

أراد عقبة فتح الأندلس ولكن يليان حاكم سبتة[1] قال له: «أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين مددك». فقال عقبة: «وأين كفار البربر؟». فقال: «في بلاد السوس، وهم أهل نجدة وبأس». فقال عقبة: «وما دينهم؟». فقال: «ليس لهم دين! ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم». وكانوا على دين المجوسية يومئذ. فتوجه عقبة، فنزل على مدينة «وليلى»[2] بإزاء جبل زرهون[3] وهي يومئذٍ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين «سبو وورغة»[4]، وهذه المدينة هي المسماة اليوم، على لسان العامة، باسم «قصر فرعون» فافتتحها عقبة وغنم وسبى.

انتهى عقبة إلى «السوس الأدنى» وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم، وسار عقبة حتى بلغ مالبان[5] ورأى البحر المحيط فقال: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك». ثم قال: «اللهم اشهد. إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك».

كان المحور الذي اختاره عقبة بن نافع، في تحركه ما بين القيروان ومالبان على المحيط الأطلسي، هو محور الأطلس التلي حيث تتوفر فيه موارد المياه، وكان هذا الطريق طويلاً ولكن موارد المياه وتوافر الموارد الحياتية كانتا تعوضان من صعوبة الطريق ومشقته، ومن المحتمل أن يكون عقبة قد علم أن ابن

= حكم سبتة وإقليم طنجة في عهد مبكر من عمره، ولكثرة اختلاطه بالبربر اختلط الأمر، حتى نسبه البعض إلى البربر وإلى قبيلة غمارة. وكان حليفاً لملك القوط في الأندلس، ثم حدث بينهما خلاف فدل العرب على عورات القوط وقاد غزواتهم الاستطلاعية، ثم رافق قوات فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير، وذلك عام ٩٢هـ/ ٧١٠م.

(١) **سبتة**: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة ضاربة في البحر، بينها وبين فاس عشرة أيام. **معجم البلدان ٥/ ٢٦**.

(٢) **وليلى**: مدينة بالمغرب قرب طنجة. **معجم البلدان ٨/ ٤٣٤**.

(٣) **جبل زرهون**: ـ جبل بقرب فاس. **معجم البلدان ٤/ ٣٨٨**.

(٤) **سبو**: نهر بالمغرب قرب طنجة. **معجم البلدان ٥/ ٣٢** وورغة نهر بالمغرب.

(٥) **مالبان**: بلد في أقصى بلاد المغرب، ليس وراءه غير البحر المحيط. **معجم البلدان ٧/ ٣٦٧**.

الكاهنة[1] البربري كان قد خرج في أثره بعد مغادرته القيروان، وأنه كلما رحل جيش عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس، ولهذا قرر العودة من طريق آخر هو طريق الأطلس الصحراوي، وكان هذا الطريق هو أقصر محاور الاتصال للوصول إلى القيروان.

وعلاوة على ذلك فقد عرف عقبة، في محور تقدمه ومن خلال معاركه، قوة التلاحم بين الروم وبين بربر الساحل «الأفارقة» بحيث أنه سيصطدم حتماً بقوات متفوقة إذا ما رجع عن طريق الساحل، في حين أنه لن يجابه على محور تحركه الصحراوي سوى احتمال واحد هو احتمال اصطدامه بقوات متفرقة من البربر. وقرر عقبة العودة عن طريق الأطلس الصحراوي، حيث الصحراء مجال عمل العرب المسلمين وميدانهم الأمثل في حروبهم. ولم يكن في الطريق الجديد الذي قرر عقبة اتباعه سوى صعوبة واحدة في طريق تحرك القوات وهي صعوبة الحصول على الماء والموارد الحياتية بالنسبة لقوات جيش كبير كجيش عقبة بن نافع. وهنا، وفي طريق العودة، تظهر نقطة حاسمة قد يكون من الضروري التعرض لها. فعندما رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقية خرج عقبة سريعاً، فوصل إلى القيروان وقبض على أميرها «أبو المهاجر» دينار، وأوثقه في الحديد، وأساء عزله، وغزا به معه وهو في الحديد. وأساء عقبة كذلك إلى كسيلة، ولم يحفظ له مكانته على الرغم من نصح «أبو المهاجر» وتوصيته به. وكان من استخفاف عقبة بكسيلة أن أتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين، فقال كسيلة: «هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤنة». فشتمه وأمره بسلخها ففعل. فقبح أبو المهاجر هذا عند عقبة فلم يرجع. فقال له: «أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه». فتهاون عقبة، فأضمر كسيلة الغدر.

---

(١) **ابن الكاهنة**: هو ابن لامرأة كان بجبل أوراس، كان جميع من بأفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، وقد اجتمع إليها البربر بعد مقتل كسيلة. وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم. تزعمت قيادة الحرب ضد المسلمين في أفريقية، وألحقت الهزيمة بهم في معركة تعرف بمعركة البلاء على نهر نيني، وتراجع حسان بن النعمان الأزدي الغساني حتى حدود قابس، وأقام حسان في طرابلس زهاء خمسة أعوام يستعد لحربها، واستمرت سيطرة الكاهة على أفريقية طوال الفترة (بين ٧٦ ـ ٨١هـ/ ٦٩٥ ـ ٧٠٠م). وعندما أكمل حسان استعداداته واستقرت أمور الحكم في الشام لعبد الملك بن مروان أمر حساناً بالقضاء على الكاهنة بعد أن وفَّر له الإمكانات الضرورية للنصر، فقاد حسان المسلمين وانتصر على الكاهنة وقتلها في مكان يعرف باسم (بئر الكاهنة).

ثم عاد عقبة عن طريق الصحراء فنفر الروم والبربر عن طريقه، واستمر في طريقه حتى وصل إلى مدينة طبنة «وهي ثغر أفريقية تقع على ضفة الزاب»، لم يكن قد بقي بينه وبين القيروان أكثر من ثمانية أيام. فأمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً، ثقة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحد يخشاه. وسار إلى تهوذة[1] لينظر إليها، في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه، فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه، وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه. وبعث الروم إلى كسيلة وأعلموه حاله، وكان قد أعلم الروم بذلك وأطمعهم، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره من الغدر، وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: «عاجله قبل أن يقوى جمعه». وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة إلى كسيلة، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول «أبو محجن» الثقفي[2]:

---

(١) **تهوذة**: وعند ابن الأثير تهوذا، اسم لقبيلة من البربر بناحية أفريقية، لهم أرض تعرف بهم. وتهوذة مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها بمسافة ٣٧,٥ ميل تقريباً.

(٢) **أبو محجن الثقفي**: شاعر فارس من شعراء المسلمين، كان سعد بن أبي وقاص قد سجنه أثناء معركة القادسية. وفي يوم أغواث ـ اليوم الثاني لمعركة القادسية ـ وعندما اشتد القتال، صعد إلى سعد يستعفيه، فزجره سعد ورده. فنزل وقال لسلمى، زوج سعد: هل لك إلى خير؟ قالت: «وما ذاك» قال: «أن تخلي عني وتعيريني البلقاء، فللّه علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي. فأبت، فقال:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأُترك مشدوداً علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأُغلقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة ... فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى، وأطلقته، وقالت له: «أما الفرس فلا أعيرها». فأخذها بنفسه بعدها ذهبت هي، واقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها، ثم دب عليها حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل معهم على ميمنة الفرس، وكان يقصف الناس قصفاً منكراً. وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه، وقتل رجالاً كثيراً من نساكهم، ونكس آخرين، وتابع قتاله متنقلاً بين الميمنة والقلب والميسرة، لا يخرج له فارس إلا هتكه، ولم يبرز له مقاتل إلا اختطفه. وعجب الناس من أمره، وقال بعضهم: هو من أصحاب هاشم بن عتبة أو هاشم نفسه. وقال أناس: «لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك». ولم يذكره الناس ولا يأبهون له لاعتقادهم أنه بات في محبسه. كل ذلك وسعد مشرف على الناس، مكب من فوق القصر، فقال: والله لولا محبس أبي محجن =

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأُترك مشدوداً علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأُغلقت مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه، وقال له: «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة» فلم يفعل وقال: «وأنا أيضاً أريد الشهادة». فكسر عقبة والمسلمون أجفانهم وكانوا ثلاثمائة فارس تقريباً فيهم عدد من الصحابة. وتقدموا إلى البربر، وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد، وأسر محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير من صحبه، فخلصهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى القيروان، فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه حبيش الصفاني وعاد إلى مصر، فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العود معهم، فسار إلى برقة وأقام بها. وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل أفريقية، وقصد أفريقية وبها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة، فأمنهم. ودخل القيروان واستولى على أفريقية، وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان، فاستعمل على أفريقية زهير بن قيس البلوي، وكان ببرقة مرابطاً، فسار زهير بجيش كبير، سنة تسع وستين، وقضى على كسيلة في معركة ممش أو «ممس».

عندما استقر المسلمون بعد ذلك في أفريقية، جعلوا على عقبة بن نافع والصحابة الشهداء قبوراً لها أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد

= لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء. فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال، أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد، وقال:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم في كل يوم فإن عميوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي وإن أُترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى: «في أي شيء حبسك سعد». فقال: «والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فلذلك حبسني. فلما أصبحت أتت سعداً، وأخبرته بخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه وقال له: «اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله». فقال أبو محجن: «لا جرم. والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً». **الكامل** - ابن الأثير ٢/ ٣٣٠، ٣٣١.

يعرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات. وطويت بوفاة عقبة واستشهاده، صفحة من صفحات الجهاد، حفظها التاريخ وحفظتها الأجيال، وعرفت فيها المثل الأعلى للإيمان وللعمل حتى الشهادة.

المسيرة الكبرى للقائد عقبة بن نافع



الفَصْلُ الثّاني

عقبة بن نافع وفن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا.

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام.

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادئ الحرب.

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ الحركية.

٤ ـ المبادأة، واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.



عقبة بن نافع وفن الحرب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾

[الأنفال/١٥]

يحتل عقبة بن نافع موقعاً أثيراً في قلوب المسلمين، فهو الإنسان المؤمن المجاهد العامل في سبيل الله ونشر رسالته، ما وهن ولا ضعف في مواجهة الشدائد والصعاب حين ضعف أقوى الرجال وأصلبهم عوداً. نذر حياته وباع نفسه حتى لقي وجه ربه راضياً مرضياً.

ويحتل عقبة مكانه مرموقة في صفوف قادة العرب المسلمين، فقد خرج من الجزيرة في أول شبابه، وقضى ما يزيد على ربع قرن مرابطاً في برقة، قائداً لحاميتها، مدافعاً عن المسلمين، عاملاً على ترسيخ دعائم مجتمع جديد قائم على الحق والعدل والخير للناس، كل الناس وللعرب المسلمين منهم خاصة، لا على أساس التمييز العرقي أو العنصري وإنما على أساس ما كرم الله به العرب من واجب حمل الرسالة وتعريف الدنيا بها، وقد أدى عقبة دوره بتجرد وإخلاص وشجاعة حملت له حب المجاهدين ومبادلتهم له حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ووفاء بوفاء.

لقد حقق عقبة بن نافع منجزات رائعة، وقاد المجاهدين في صراع مرير لا هوادة فيه طوال أكثر من ربع قرن. ويظهر العرض السابق الملامح العامة لأسلوب عقبة في حربه، كما يظهر الخطوط الرئيسية للأسس والمبادئ التي اعتمدها عقبة في صراعه السلمي والمسلح على حد سواء. وفي الواقع، فإن إبراز هذه الأسس والمبادئ، وتقييمها تقييماً صحيحاً لإبراز أهميتها، يفرض النظر إلى هذه الأسس وما حققته من منجزات في إطار مجموعة من المعطيات قد يكون أبرزها:

١ ـ النظر إلى هذه الأسس من خلال السياسة الاستراتيجية للعرب المسلمين في فتوحاتهم وحروبهم، وعدم النظر إليها كظواهر منفصلة وكأحداث مستقلة،

وبذلك تصبح صورة الموقف أكثر وضوحاً، وتظهر منجزات عقبة الرائعة في إطار شمولي لا تضيع منه التفاصيل الدقيقة.

٢ ـ النظر إلى هذه الأسس وما حققته من نتائج في إطاريها الزماني والمكاني، ذلك أن فصل الحدث التاريخي عن الأرضية التي تفاعل الحدث فوقها، وإبعاده عن حدوده الزمنية التي أسهمت في صنعه يجرد الحدث من مقوماته الأساسية ويفقده أهميته، فثورة الكاهنة وثورة كسيلة تفقدان كل قيمة لهما إن لم ينظر إليهما من خلال تلك الحقبة، حيث كان للروم «البيزنطيين» فيها نفوذهم وقوتهم، وكان التلاحم بين أهل البلاد «أفارقة الساحل» وبين الروم وثيقاً وحميماً، كما أن أحداث هذه الثورات تفقد مضامينها إن لم ينظر إليها من خلال طبيعة مسرح العلميات وميزان القوى، وطبيعة الأعمال القتالية خلال تلك الفترة فوق أرض أفريقية.

٣ ـ الأخذ بعين الاعتبار، توافق الأسس السياسية والمبادئ الاستراتيجية العامة للعرب المسلمين في حروبهم مع تلك الأسس والمبادئ التي طبقها القائد، وبذلك يظهر الدور الفردي للقائد وما يتميز به من قدرات وكفاءات، سواء من حيث تنسيق سياسته الاستراتيجية مع السياسة العامة لدولة العرب المسلمين، أو من حيث توافق القوى والوسائط المتوافرة مع الواجب المحدد والهدف المطلوب بلوغه، وبذلك أيضاً تظهر كفاءة القائد القيادية ومهارته في صنع الأحداث وتحديد مسيرتها والهيمنة عليها. وتبقى بعد ذلك الصفات والكفاءات الخاصة بالقائد من حيث هو إنسان يخضع لأفكار وعواطف هي التي تميزه ككائن حي له شخصيته، وهي التي تحفزه لاتباع هذا السلوك أو ذاك، ويبقى العامل الحاسم في النهاية هو مقدار تأثير هذه النوازع الشخصية على القرار الذي يتخذه القائد، ومدى خضوع القائد لنزواته وعواطفه وانفعالاته عند اتخاذه لقرار يتعلق بشؤون عامة ومصلحة عليا.

وعلى ضوء هذه المعطيات يصبح بالإمكان تقييم منجزات القائد عقبة بن نافع، ولا حاجة للقول بأنه من الظلم لعقبة ومن الإجحاف لمنجزاته أن تطرح وأن تناقش في حالة من الانفعال العاطفي أو التأمل العقلاني بعيداً عن تلك الظروف التي قاتل فيها عقبة والتي عاشها، والتي أقل ما يقال فيها إنها التقاء مجموعة من الظروف الصعبة والقاسية، وهي ظروف لم يكن باستطاعة إنسان معها صنع حدث تاريخي إلا إذا كان من نموذج عقبة وإخوان عقبة في إيمانهم وإخلاصهم وتجردهم وشجاعتهم.

آ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

وضع الرسول الأعظم مبدأ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة وطبَّقه في حياته، ولم تكن هجرته إلى المدينة المنورة سوى تثبيت لهذا المبدأ، وتأكيد لأهميته في العمل لبناء المجتمع الجديد، مجتمع الإسلام والإيمان. وعندما تولى أبو بكر الصديق خلافة العرب المسلمين وانتقضت أطراف الدنيا على المسلمين، حشد الخليفة جميع القوى والوسائط للقضاء على «الردة» حتى إذا أصبحت القاعدة ـ قاعدة الجزيرة العربية ـ قوية ومأمونة، وجه الخليفة جيوش المسلمين وقواتهم لفتح بلاد الشام والعراق. وعندما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وتم فتح الشام والعراق ومصر، أصدر الخليفة عمر أوامره بالتوقف عن متابعة الفتوح ريثما يتم بناء القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتأمين القاعدة الحربية القوية لمتابعة الفتوح. فإذا انتقلنا بعد ذلك من تطبيق هذا المبدأ على المستوى السياسي الاستراتيجي، إلى تطبيقه على مستوى عملياتي، فإننا نجد ذلك واضحاً كل الوضوح في قيادة عقبة بن نافع وفيما حققه من منجزات.

لقد عمل عقبة في برقة طويلاً، وركز جهده لبناء القاعدة السياسية والاجتماعية، ونشر دين الإسلام، وكانت برقة بحكم موقعها تمثل القاعدة العسكرية المتقدمة، وبذلك اجتمعت فيها القاعدة الاجتماعية والقاعدة العسكرية معاً. وكان عقبة إذا ما خرج لحرب أو غزو ترك فيها من يقوم بأمرها، وذلك لضمان الاستقرار فيها، وحتى يوفر الحماية لمؤخرة المسلمين. وعندما شعر عقبة أن بناء قاعدة برقة قد أصبح قوياً وثابتاً، وتطلبت أعمال الفتوح بناء قاعدة جديدة، أخذ في البحث عن موقع تتوفر له شروط استراتيجية واجتماعية محددة فوقع اختياره على القيروان، ومما تجدر ملاحظته في الحالتين أن عقبة كان

يشترط في القاعدة التي سيعمل على بنائها وإقامتها، مجموعة من الشروط منها:

١ ـ أن تكون القاعدة **قريبة** قدر المستطاع من حدود الأقاليم التي لا زالت غير مستقرة، وذلك حتى يستطيع الاتصال بسهولة بأهل تلك البلاد للتعرف عليهم وتعريفهم بالدين الجديد وهدايتهم.

٢ ـ أن يتوفر للقاعدة موقع استراتيجي يضمن **الحماية** ضد مباغتات العدو وضد هجماته وغاراته. فعندما طلب أصحاب عقبة تقريب القيروان من البحر أجابهم: «أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر».

٣ ـ أن يتوفر للقاعدة قدر كاف من **الأمن**، فعندما فكر في بناء القيروان، كان في جملة ما حمله على التفكير في إقامة القاعدة الجديدة الرغبة في الابتعاد عن قمونية «لأن بعض غير المسلمين كانوا يسكنون قمونية مع المسلمين». وكان يريد لمجتمع المسلمين، العرب وغير العرب، نوعاً من الحماية تبعدهم عن عيون العدو «جواسيسهم»، وتضمن لهم تطبيق تدابير الأمن الحقيقي، وقد ضحى لذلك بعامل المتطلبات الحياتية حيث كانت قمونية في بسيط من الأرض، كثير المراعي، جيد الهواء خصب التربة كثير الهواء، ورغم ذلك فقد فضل عقبة هجر هذه الميزات والإعراض عنها مقابل تأمين عامل الحيطة.

٤ ـ أن تكون القاعدة على **محاور التحرك** الساحلية والصحراوية لتأمين الاتصال والتحرك من القاعدة وإليها، وحتى يكون بالمستطاع الانطلاق للأعمال القتالية سواء كان ذلك على المحور الساحلي أو للتوغل في أعماق الصحراء. وبذلك كانت برقة في البداية، ثم القيروان فيما بعد، قادرة على التحكم بطرق الاتصال لتأمين حرية قوات العرب المسلمين في التحرك من جهة ولحرمان العدو من هذه المحاور من جهة ثانية. وكانت هذه القواعد بحكم موقعها المتوسط من محاور التحرك، وبفضل ما يتوفر لها من شروط استراتيجية، من العوامل الرئيسية التي ساعدت في نجاح القواعد المذكورة للاضطلاع بدورها في نشر الدعوة الإسلامية أولاً، وفي توفير الحماية للمسلمين ثانياً، وفي بناء المجتمع الجديد، مجتمع الإسلام والإيمان.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد

تطلب بناء القاعدة الإسلامية في الجزيرة العربية جهد الرسول الأعظم طوال

٢٣ عاماً تقريباً قضى أكثر من نصفها في مكة المكرمة، ثم انتقل إلى المدينة المنورة، واستمر في بناء القاعدة الإسلامية وإقامة المجتمع الجديد حتى نهاية حياته، وأمكن خلال هذه الفترة إقامة علاقات اجتماعية جديدة لا علاقة لها بعلاقات عالم الجاهلية، وظهر جيل جديد أخذ على عاتقه إكمال الرسالة. وكان عقبة بن نافع صحابياً بالولادة، وله صحبة، وقر الإسلام في نفسه وقلبه، وعرف حقيقته، فأخذ على عاتقه ما فرضه الإسلام على المسلمين من واجب الدعوة والجهاد، واستقر به المقام في برقة فقضى فيها ربع قرن تقريباً يعمل على بناء المجتمع الجديد وإقامة العلاقات الجديدة، وهذا يوضح سبب ما تميزت به قاعدة برقة من ثبات وقوة، ويظهر نجاح عقبة في بناء المجتمع الجديد من خلال مجموعة من الشواهد ليس أقلها:

١ ـ اتساع قاعدة المسلمين في أفريقية. فخلال بناء القيروان «كان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليه من أسلم من البربر، فكثر جمعه... وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يرسل السرايا، فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين».

٢ ـ الحزم في مجابهة غير المسلمين، مقابل التراحم بين المسلمين عملاً بما يعنيه بقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح/٢٩]، وبذلك يخلق الحافز القوي لغير المسلمين من أجل الدخول على هذا العالم الجديد، عالم المسلمين، والتعرف عليه. وهذا يوضح موقف عقبة من المشركين في طرابلس عندما طلب هؤلاء من عقبة أن يصالحهم فأجابهم: «أنه ليس للمشركين عهد عندنا... وكيف يكون للمشركين عهد. ولكن أبايعكم على أن توفوني ذمتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم». وينسجم هذا الموقف في الواقع مع وصية عمر بن الخطاب إلى قائده سلمة بن قيس الأشجعي، وقد وجهه لحرب الأكراد «على جبهة خراسان» حيث قال له: «فإن سألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله، فلا تنزلوهم على حكم الله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم. وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله، فأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إبعاد القيروان، وعزل معسكرات المسلمين عن منازل أهل البلاد تحمل في وجه من وجوهها ضرورة من ضرورات بناء المجتمع الجديد، ويظهر ذلك من وصية أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب إلى قائده سعد بن أبي وقاص: «نحِّ منازلهم ـ منازل الجند ـ عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم صبراً، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح»[1]. أما عن طبيعة هذه العلاقات، فهي معروفة ومحددة بتعاليم القرآن وسنة نبيه، فإذا عرف مقدار ما كان يتميز به عقبة من الورع والتقوى، أمكن معرفة حرصه على تطبيق تعليمات الإسلام وشرائعه مما ضمن له الاستقرار وكفل له النجاح في إقامة المجتمع الجديد.

٣ ـ التركيز في نشر الإسلام وبناء المجتمع الجديد على أهل البلاد الأصليين، وعلى الوثنيين منهم بصورة خاصة، ويظهر ذلك من خلال مسيرة الأعمال القتالية التي اتبعها عقبة بن نافع؛ فيلاحظ أن القسم الأكبر من العمليات قد تركز على الجبهة الصحراوية، حيث يستقر أهل البلاد ويقيمون، وحيث يفتقرون إلى العقيدة والديانة، ويظهر ذلك من وصف يليان، حاكم سبتة، لهم «إن كفار البربر في بلاد السوس، وهم أهل نجدة وبأس، ليس لهم دين، ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم»، وكانوا على دين المجوسية يومئذ. ولقد كانت هذه الأرضية التي استند إليها عقبة في بناء المجتمع الجديد هي التي حققت للإسلام انطلاقته القوية والثابتة في المغرب العربي.

٣ ـ وضوح الهدف

كان الهدف من الحرب واضحاً كل الوضوح عند عقبة بن نافع، مثله في ذلك مثل قادة العرب المسلمين جميعاً من دون استثناء، وكان هدفهم هو نشر راية الإسلام، وقد تجلى هذا الهدف في أقوال عقبة وفي سلوكه في المواقف المختلفة.

كان عقبة بن نافع أول من نشر الإسلام في زويلة وبرقة والنوبة والسودان، وفي المناطق الواسعة من الصحراء ما بين برقة والمحيط، «فأسلم البربر وكانوا نصارى، وفشا الإسلام إلى أن اتصل ببلاد السودان وبالبحر المحيط». وعندما وقف عقبة في مواجهة أخطر المواقف، حيث لم يكن معه إلا قلة من المسلمين،

---

(١) العقد الفريد ١/ ٤٠.

فاستضعفه الروم وطمعوا فيه وأغلقوا الحصن وشتموه «وهو يدعوهم إلى الإسلام»، وعندما سار إلى جرمة ودنا منها «دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منها على ستة أميال». فإذا تجاوزنا الأعمال إلى الأقوال، فسيظهر الوضوح في الهدف عند عقبة بصورته الحقيقية. ولقد كان في أقوال عقبة عندما خرج في حملته الأخيرة وودع أهله وأبناءه بوصيته الخالدة النموذج الرائع لوضوح الهدف حيث قال: «**إني قد بعت نفسي من الله ﷻ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله**»، «**اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك**». وعندما وصل المحيط الأطلسي في أقصى المغرب العربي وقف ليقول: «يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. . . اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك». وعندما وصل إلى بلاد أسفي على المحيط الأطلسي، أدخل قوائم فرسه في البحر المحيط، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه: «ارفعوا أيديكم». ففعلوا، فقال: «اللهم إني لم أخرج بطراً، ولا أشراً، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء. اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا، يا ذا الجلال والإكرام». ثم انصرف راجعاً. وعندما خاض معركته الأخيرة، وكانت نتيجة المعركة مقررة ومعروفة قبل خوضها بسبب الفارق الكبير في ميزان القوى، عرف عقبة النهاية الحتمية، فلم تغب الرؤيا عنه، وظهر الهدف الواضح أمامه مثلما كان واضحاً في جميع أطوار حياته، فقال لـ«أبو المهاجر» دينار: «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة». فلم يفعل وقال: «وأنا أيضاً أريد الشهادة». . . **وقاتل عقبة حتى استشهد وصحابته جميعاً.**

بعد هذه الشواهد جميعها، وهي قليل من كثير، يستحيل القول بأن هناك هدفاً يمكن أن يكون أكثر وضوحاً مما كان عليه عند عقبة بن نافع. **فالحرب وسيلة وليست غاية في ذاتها**، ونشر الإسلام هو الهدف والغاية، ومع الإيمان بعدالة الهدف فقد كان حقاً على المؤمنين خوض معاركهم لتحقيقه متبعين في ذلك وسيلة الإقناع في أقوالهم وفيما يضربونه من مثل أعلى، وتأتي الحرب بعد ذلك وسيلة لتحقيق ما عجزت الوسائل السلمية عن تحقيقه، فيكون الهدف واضحاً في السلم والحرب. ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد، فعقبة بن نافع يعرف أن الهدف واحد بالنسبة له وبالنسبة للمقاتلين المؤمنين معه، وإن هذا

الهدف على درجة من الوضوح للجميع، فهو يذكرهم بهذا الهدف في أقسى ظروف الحرب وأصعبها، فيقول لهم: «إنكم لم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه فأبشروا». ويظهر ذلك مدى الانسجام الكامل والتوافق التام بين أقوال عقبة وأعماله من جهة، وبين هذه الأقوال والأعمال وبين المحيط الذي يعمل فيه، وهو محيط المسلمين المؤمنين من جهة أخرى. ولقد كان هذا الوضوح في الهدف، إلى جانب ما تميز به هذا الهدف في حد ذاته من قيم رائعة، هو الحافز القوي الذي دفع عقبة والمسلمين إلى تحقيق تلك الأعمال الخالدات، وهو السبب الذي تحمل المجاهدون في سبيله ما لقوه، حتى باعوا أنفسهم في سبيل الله وفي سبيل نشر رسالته.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

كان الرسول الأعظم حريصاً كل الحرص على المسلمين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٣٨] وكان قادة العرب عموماً يعرفون قيمة العنصر العربي وأهميته لحمل الرسالة، فكان الخلفاء يخططون للعمليات بحيث يضمنون عدم توريط المسلمين في معارك استنزاف لا طائل تحتها ولا فائدة منها، وكان أمراء المؤمنين يوصون قادتهم بالحرص على المسلمين، وكان القادة جميعاً يحرصون على العنصر العربي المسلم، فيشترطون في معاهداتهم مع أهل البلاد رعاية المسلم وتأمينه وتوجيهه، ويعملون في قيادتهم على توفير أفضل الشروط من أجل حماية المسلمين وزجهم في القتال مع أخذ أقصى تدابير الحيطة، بحيث يمكن تحقيق الهدف ضمن احتمال حدوث الحد الأدنى من الخسائر؛ ويظهر ذلك أهمية العنصر العربي المسلم في منظور القيادة، ما كان يدفع هذه القيادة للحرص على العنصر العربي.

وكان عقبة بن نافع قائداً من قادة العرب المسلمين، فكان من الطبيعي أن تتوافق مفاهيمه وأعماله مع المفاهيم العامة، ولم يكن عقبة في ذلك مجرد منفذ لمفاهيم القيادة العامة، وإنما كان قائداً عاملاً في تطوير هذه القيم والمفاهيم وترسيخها؛ فكان صحابياً نهل من ينبوع الرسالة وفهم عمق الديانة، فانطلق يعمل بوحي من إيمانه وبتوجيه من قناعاته، ولهذا فإن توافق سلوكه وتصرفاته مع مفاهيم القيادة الأعلى كان بعيداً كل البعد عن التقليد، أو حتى التنفيذ الخالي

من المضمون، وإذا كان العمل العظيم في حاجة لأكثر من حافز، فقد كان في جملة حوافز بناء القيروان هو حرص عقبة على العرب المسلمين «حتى تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر».

وعند عودة عقبة من المحيط إلى القيروان، أرسل قواته أفواجاً أفواجاً ليضمن السلامة للمسلمين، وأثناء بناء القيروان كان عقبة يرسل السرايا لتغير وتنهب حتى يضمن الحيطة ضد كل هجوم مباغت. وعندما عرف عقبة أنه يخوض معركته الأخيرة في تهوذة، كان آخر ما فكر فيه هو إسناد قيادة المسلمين لمن يحرص عليهم، فتركز تفكيره على «أبو المهاجر» دينار وقال له: «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة». وإن هذه الشواهد تثبت بشكل قاطع، في القول والعمل، حرص عقبة على المسلمين، وعمله الدائم للمحافظة على العنصر العربي، حامل راية الإسلام، من أجل أداء الأمانة ونشر رسالة الإسلام.

هنا تظهر نقطة تستحق التأمل طويلاً والتوقف عندها. **فالحرص على العنصر العربي لم يكن يعني أبداً السلبية**، والابتعاد عن الخطر، والبحث عن السلامة، بقدر ما كان يعني العيش في خطر واقتحام الأهوال ولكن في إطار من الحذر الكبير والحيطة الضرورية. لقد قاد عقبة آلاف الرجال، وخاض بهم مجموعات من المعارك المتصلة، واقتحم بهم كره القتال، ولكنه، وهو يخوض صراعه المرير، كان يتخذ كل تدابير الحيطة الممكنة مع استعداده للتضحية بنفسه قبل كل شيء وبالمقاتلين معه لتحقيق الهدف من الصراع.

ذلك هو الحرص الذي يوازن بين الهدف والوسيلة، بين التضحية والأمن، بين الحرص والبذل، وتلك هي إحدى الخصائص التي تميزت بها الشخصية القيادية عند عقبة بن نافع.

ولم تكن الأسس الاستراتيجية السابقة هي كل ما استخدمه عقبة وطبقه في عملياته، وإنما هناك أسس أخرى اعتمدها في حروبه وصراعه وليس أقلها حرمان العدو من موارده الاقتصادية عن طريق فرض الجزية وحرمان الروم «البيزنطيين» منها، ما كان يساعده بالتالي على فرض العقيدة الإسلامية وإعداد الأرضية الثابتة لبناء المجتمع الجديد، وإقامة علاقات عامة متطورة، كل ذلك في إطار من التكامل الرائع في عقيدة المسلمين. وإذا كان الدين الإسلامي هو العقيدة المتكاملة في التشريع، وفي معالجة شؤون الناس، فإن التكامل في فن

الحرب وفي الأسس الاستراتيجية عند العرب المسلمين ليس سوى ظاهرة محددة لذلك التكامل والشمولية مما تميز به الإسلام.

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

المقصود هنا باستراتيجية الحرب التشتيتية هو حرمان قيادات العدو من اتخاذ القرارات الصحيحة واتخاذ تدابير ناجحة لمقاومة قوات العرب المسلمين أثناء عمليات الفتوح. وتعتمد استراتيجية الحرب التشتيتية في الواقع على مجموعة من الأسس والمبادئ بعضها يدخل في **تدابير أمن القتال** «كالمحافظة على السر، وتنفيذ تدابير الحيطة، وإخفاء النوايا عن العدو، واستخدام المخططات الخداعية»، ويدخل بعضها في مبادئ الحرب «كالمباغتة، والمبادأة، والتمويه العملياتي».

ولقد كانت استراتيجية الحرب التشتيتية في المغرب العربي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخطط العام لدولة العرب المسلمين، سواء كان ذلك أثناء عهد الخلفاء الراشدين أو في عهود بني أمية. ولم تكن الهجمات البحرية والإغارات على جزائر البحر الأبيض المتوسط «بحر الشام»، في أحد جوانبها، سوى مظهر لاستراتيجية الحرب التشتيتية في إطارها العام. وقد اشترك عقبة بن نافع في تنفيذ هذه الاستراتيجية عندما قاد أهل مصر في غزوتين بحريتين كبيرتين في عامي (**٣٩** و**٤٩**هـ)، كما نفذ عقبة استراتيجية الحرب التشتيتية في عملياته القارية «البرية»، حيث اتبع سياسة واضحة لفصل الروم عن أهل أفريقية من جهة، واتخذ من التدابير ما هو ضروري لعزل مجتمع المسلمين واتخاذ تدابير الحيطة من جهة أخرى. أما على المستوى العملياتي فقد طبق عقبة استراتيجية **الحرب التشتيتية** بطرائق مختلفة وأساليب متنوعة، وكان في جملة هذه الطرائق قيادة قواته بنفسه في أعمال محدودة والتوغل في عمق الصحراء، والظهور في أماكن متنوعة وفي أوقات غير متوقعة ما كان لا يسمح للخصوم بالتجمع وتنظيم مقاومة قوية لمجابهته. وفي أماكن أخرى اتبع أساليب ما يمكن تسميته بـ«العنف الثوري» لردع الأعداء وإرهابهم نفسياً، وبذلك كان يحصل على «التشتيت المعنوي» الذي كان عملاً أساسياً وحاسماً للحصول على «التشتيت المادي» وإبطال مفعول مقاومة العدو.

وفي أماكن أخرى، كان تحرك عقبة بجيشه من دون الإعلان عن هدفه ووضع

مخططات الأعمال الهجومية موضع التنفيذ في اللحظة المناسبة هو العامل الأساسي في استراتيجيته للحرب التشتينية. وكانت مجموعة مبادئ الحرب عند عقبة تخدم في الواقع استراتيجية الحرب التشتيتية وتضمن لها النجاح.

على ضوء هذا الواقع يمكن القول إن الحرب التشتيتية عند العرب المسلمين عامة ـ وعند عقبة خاصة، نظراً لأن البحث هذا مختص بموضوع فن الحرب عند عقبة بن نافع ـ لم تكن مجرد محصلة لمجموع مبادئ الحرب، وإنما كانت هدفاً ووسيلة، هدفاً لتحقيق النصر ووسيلة لتوفير الفرص من أجل تطبيق مبادئ الحرب، وهذا يوضح المرونة في تطبيق هذا المبدأ من مبادئ الحرب أو ذاك بما يتوافق مع الموقف ويتكيف معه للوصول إلى الهدف من استراتيجية الحرب التشتيتية وهو النجاح والنصر...

ولقد ظهرت أساليب الحرب التشتيتية بشكل متطور عند عقبة بن نافع في أكثر من موقعة؛ فعندما وصل إلى أقصى المغرب وانتهى إلى السوس الأدنى «مغرب طنجة» قاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً «وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه»، وقد استخدم عقبة هنا استراتيجية الحرب التشتيتية على المستوى العملياتي حتى لا يسمح للبربر بإعادة التجمع وتنظيم مقاومة قوية، «وهذا يعني أنه طبقها في مرحلة استثمار النصر»، وكان قبل ذلك قد طبق استراتيجية الحرب التشتيتية على المستوى التكتيكي «التعبوي» للإغارة على كل مكان، وبث السرايا في كل اتجاه «أثناء بناء القيروان».

إن استراتيجية الحرب التشتيتية في مضمونها الحديث وفي إطار الحرب النظامية «تعني الهجوم على جبهة واسعة وبالعمق»، ولقد كان توغل عقبة في جميع حروبه نوعاً من استراتيجية الحرب التشتيتية، كما أن تدابيره الأخرى تدخل في إطار استراتيجية الحرب التشتيتية «للحروب الثورية»، وبذلك كان تطبيق عقبة لمبدأ استراتيجية الحرب التشتيتية مزيجاً من الحروب النظامية والحروب الثورية في مضامينها الحديثة المتقدمة، ولهذا يمكن اعتبار عقبة من رواد قادة العرب المسلمين في تطوير استخدام الأسس الاستراتيجية للحرب.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

كانت امبراطوريات العالم القديم، والدولة الرومانية ثم البيزنطية منها خاصة، تقيم على حدودها سلسلة من التحصينات الدفاعية الثابتة التي عرفت في التاريخ

العسكري باسم الليمات، ومفردها «ليم ـ Lime»، وليس جدار الصين سوى نموذج لهذه التحصينات التي كان هدفها رد غارات المعتدين وحماية الحدود ضد كل هجوم مباغت. وكان يقيم في الليم حامية تقوم بأمر الدفاع عن الحصن، وكان هذا الدفاع يأخذ شكل الدفاع الثابت. وعندما أخذ العرب المسلمون في تنظيم دولتهم، وضعوا أساساً جديداً لحماية الحدود، يتناسب مع عقيدتهم القتالية الهجومية، فأوجدوا نظام الثغور وغزوات الصوائف والشواتي، وبذلك عملوا على تنظيم الدفاع بعقلية هجومية فكانت «**استراتيجية الهجوم الوقائي، أو الهجوم الاجهاضي المسبق**»، ويعود الفضل في هذا التنظيم القتالي والأسلوب المتطور إلى عقلية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ الذي وضع أساس تنظيم الثغور ووجه أول الصوائف والشواتي رداً على أعمال الروم العدوانية (عام ١٧هـ/ ٦٣٨م)، ثم طور معاوية بن أبي سفيان، والي الشام وأمير المؤمنين فيما بعد، هذا النظام القتالي، وما لبث أن أصبح هذا الأسلوب القتالي عاماً في جميع المواقع والحدود المتاخمة لبلاد المسلمين المتصلة بحدود غير المسلمين.

وكان عقبة بن نافع يدافع عن ثغر من الثغور، فنظم أعماله القتالية ضمن إطار العقيدة القتالية للمسلمين، فكان ينطلق بغزواته ويبعث سراياه حتى لا يترك لأعداء المسلمين الفرصة للوصول إلى قاعدته، وإن متابعة سيرة عقبة بن نافع ودراسة أعماله القتالية تظهران أن الروم «البيزنطيين» وأنصارهم من الأفارقة لم يجدوا الفرصة للهجوم على قاعدة المسلمين طوال فترة ولاية عقبة لأفريقية ولمدة تزيد على الربع قرن،، ولكنهم وجدوا هذه الفرصة بعد وفاة عقبة واستشهاده في تهوذة حيث هاجم «كسيلة» قاعدة المسلمين «القيروان» ما كان له أسوأ النتائج على العرب المسلمين المرابطين في أفريقية، حيث اضطرت بعض القوى العربية للتراجع حتى وصلت مصر.

ولقد كان تطبيق استراتيجية الهجمات الوقائية يرتبط في الواقع بقوة الدولة وضعفها الناتج في كثير من الأحيان عن الفتن والثورات الداخلية، أو فقد الهيمنة السياسية وتمزق الوحدة السياسية في دولة العرب المسلمين، أو نتيجة لاستنزاف قوة العرب المسلمين على الجبهات الواسعة والتي كانت تزيد كثيراً عن قوة العرب المسلمين. ولهذا فإن ما حدث لعقبة في أفريقية قد تكرر حدوثه على حدود الشام الشمالية وعلى الحدود الشرقية في فارس «إيران»، حيث كانت

القوى المضادة للعرب المسلمين تجد في نفسها القوة مستفيدة من الضعف المرحلي لدولة العرب المسلمين، فتنظم هجومها ضد ثغور المسلمين وقواعدهم. ومهما كان عليه الموقف، فإن استخدام استراتيجية الهجمات الوقائية للدفاع عن حدود المسلمين، كان تطويراً كبيراً لفن الحرب، وقد أخذت بيزنطة، كما أخذت الدولة الكارولنجية والميروفنجية بعدها «فرنسا» عن العرب هذا الأسلوب المتطور واستخدمته ضدهم، «وليست الهجمات الصليبية على قاعدة الإسلام ذاتها، في الشام وفلسطين منها خاصة وعلى مصر، سوى تطبيق لهذا المبدأ الذي طوره ووضع أسسه العرب المسلمون». ولقد صوَّر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ هذا المبدأ بقوله: «**اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا**». ولا حاجة للقول إن من أول نتائج تطبيق هذا المبدأ هو نقل ويلات الحرب إلى بلاد العدو مع ما يتبع ذلك من تخريب ودمار، وحماية بلاد المسلمين من ويلات هذه الحرب، علاوة على ما يحققه المهاجم من فوائد مادية ومعنوية أقلها «الاقتصاد بالقوى، واحتمال نسبة من الخسائر أقل بكثير من تلك التي كان سيحتملها لو لجأ إلى الدفاع وانتظر هجوم العدو». ولقد كان لعقبة بن نافع، مثله مثل بقية قادة العرب المسلمين المرابطين على الثغور المدافعين عن الحدود، الفضل في وضع استراتيجية الهجمات الوقائية وتطويرها، والإسهام بتطوير فن الحرب عند العرب المسلمين.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

المباغتة مبدأ من مبادئ الحرب القديمة والتي لا زالت تحتفظ بأهميتها في الحرب التقليدية والحرب بأسلحة التدمير الشامل سواء بسواء. ولقد كان البحث عن المباغتة ومحاولة الإمساك بها هدف كل قائد مارس القيادة الميدانية وتمرس بالأعمال القتالية. وكان العرب أمة مقاتلة، ثم جاء الإسلام ففرض القتال على المسلمين دفاعاً عن أنفسهم ومن أجل نشر راية الإسلام. واعتمد العرب المسلمون مبادئ القتال وطبقوها، وكان مبدأ المباغتة في طليعة المبادئ التي استخدمها قادتهم كلما توافرت لهم الظروف المناسبة لاستخدامها، وحققوا بواسطتها بعض الانتصارات الحاسمة. وكان عقبة بن نافع قائداً عسكرياً أصيلاً عرف أهمية المباغتة وقدَّر قيمتها وما تتركه من أثر على الخصم، فاستخدمها في عدد من معاركه وكانت وسيلة له أمكنه بواسطتها إحراز رائع الانتصارات وحقق بها أفضل النتائج.

لقد شهد عقبة بن نافع الأثر الحاسم للمباغتة في حربه مع عمرو بن العاص عند فتح مصر في عدد من المواقع والمعارك، وشهد مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح ما حققته المباغتة من نصر حاسم(١)، فكانت هذه التجارب القتالية تثبيتاً

---

(١) عندما وصل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية، تولى قيادة جيش بلغ تعداده عشرين ألفاً، وسار بهم إلى برقة، فلقيهم عقبة بن نافع فيمن معه، فساروا جميعاً نحو أفريقية، وكان ملكهم (جرجير) يحكم مملكته الممتدة من طرابلس إلى طنجة، فجمع جيشاً من مائة وعشرين ألفاً وجابه جيش العرب المسلمين بمكان يدعى عقوبة (بينه وبين سبيطلة يوم وليلة). وطال أمد الحرب ما أقلق أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فأرسل جيش العبادلة للدعم، وفيهم عبد الله بن الزبير. وعندما وصل جيش العبادلة إلى عقوبة، اشترك في القتال، ورأى عبد الله بن الزبير أن قتال المسلمين يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر، فإذا أذن الظهر، عاد كل فريق إلى خيامه، فعقد اجتماعاً للقادة، فقال عبد الله بن الزبير: «إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في أمداد =

لقناعاته وتأكيداً لمفاهيمه وترسيخاً لمبادئه، فعندما تولى قيادته المستقلة في برقة وفي ولايته الثانية، أفاد من هذا المبدأ.

وتشير الشواهد التي حفظها تاريخ حرب المسلمين، على قلة ما وصل منها، إلى أن عقبة قد طبق المباغتة في عدد من معاركه. ففي ولايته الأولى، وعندما قصد خاور وحاصرها شهراً من دون جدوى، رفع الحصار عنها وتركها إلى غيرها، ثم عاد ومر بها وتركها حتى توقف على بعد مسيرة ثلاثة أيام، وعندما ثبت له أن القوم قد اطمأنوا، رجع عقبة إلى خاور من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم، فاستباح ما في المدينة، وقتل مقاتلتهم. ولقد تضمنت هذه المباغتة العملياتية نوعين من المباغتة: «**المباغتة الزمنية**» حيث قاد عقبة قواته ليلاً، و«**المباغتة المكانية**» حيث اختار عقبة طريقاً لتحركه «غير الطريق التي كان قد أقبل منها» وبذلك ضمن لنفسه أسباب النصر.

وعندما رجع عقبة من الأطلسي إلى القيروان، واختار الطريق الصحراوي، على خلاف ما كان متوقعاً، حقق بذلك مباغتة أخرى. وكانت أعماله الهجومية وتوغله العميق في كل عملية من أعماله القتالية تحمل في أعماقها مضمون المباغتة، ولم تكن انتصاراته الحاسمة في ولايته الأولى إلا نتيجة لاستخدامه المباغتة وتوغله بقوات خفيفة إلى أعماق الصحراء، فتم له افتتاح ودان وزويلة وغدامس وغيرها من أقاليم الصحراء، وقد كانت المباغتة عند عقبة من العوامل التي ساعدته على تحطيم ميزان قوى التفوق عند أعدائه، فضمن بذلك فرص النجاح.

٢ ـ أمن العمل

يرتبط أمن العمل بمبدأ المباغتة، فالقائد الذي يقدر أهمية المباغتة ويعرف

= متصلة، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم». وطبقت هذه الخطة، فكان النصر، وكانت المباغتة العامل الحاسم في تمزيق جيش جرجير وقتله. (أحداث سنة ٢٦هـ ـ **الكامل في التاريخ**).

خطورة نتائجها على مسيرة الأعمال القتالية، يعرف أيضاً ما يجب عليه اتخاذه من تدابير وإجراءات مضادة لحماية قواته ضد كل ما هو غير متوقع، وما هو من طبيعة الحرب. وقد كان الرسول القائد يحرص باستمرار على اتخاذ التدابير الضرورية لتحقيق أمن العمل، ما كان يوفر له قدراً كبيراً من حرية العمل ويساعده على تحقيق بقية مبادئ الحرب مما يتطلبه الموقف، واتبع أمراء المؤمنين وقادة العرب المسلمين سيرة النبي ﷺ في سلوكه وأساليبه عند ممارسته قيادة أعمال القتال واضطلاعه بشؤون الحرب.

طبق عقبة بن نافع مبدأ أمن العمل في كثير من المواقف، ولم تكن إقامته الدائمة في برقة سوى مظهر من مظاهر أمن العمل، وتأخذ هذه الظاهرة في الواقع شكل أمن العمل المتعلق بمسرح العمليات، حيث كان يوفر الحماية للجبهة الغربية «مصر»، ووفقاً لهذا المضمون يكون عقبة قد مارس من خلال إقامته في برقة تحقيق أمن العمل على المستوى الاستراتيجي لحماية جبهة كاملة. فإذا تم تجاوز هذه الظاهرة، فسيظهر دور عقبة بن نافع في تحقيق أمن العمل على المستوى العملياتي من خلال ما كان يطبقه من إجراءات، «**فقد كان أهل المدن مرابطين، ومن كان على البحر فهم حرس لهم**»، وفي وصيته لأولاده: «ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا». وخلال بناء مدينة القيروان، وضع عقبة في اعتباره احتمال قيام الروم بهجوم مباغت، والناس منصرفون للبناء، «فكان عقبة يغزو ويرسل السرايا... حتى صارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب».

وتلك هي بعض الشواهد، لا كلها، وهي كافية لإثبات تطبيق مبدأ أمن العمل على المستوى الاستراتيجي وعلى المستوى العملياتي وفي الأساليب التكتيكية. ولم يكن الأمر بالغريب أن يطبق عقبة بن نافع مبدأ أمن العمل على جميع المستويات، بل كان الأمر غريباً حقاً لو أن عقبة لم يطبق هذا المبدأ بكل أبعاده ومضامينه، وحتى لو لم تتوافر الشواهد الكافية لإثبات هذه الحقيقة، لسبب أو لآخر، لكان من الطبيعي افتراض قيام القائد عقبة بن نافع بتطبيق أقسى تدابير «أمن العمل» وأكثرها دقة. فقد بقي في ولايته الأولى زهاء ربع قرن لم ينكب المسلمون خلالها، ولم تنزل بهم نازلة، وكانوا خلال هذه المدة الطويلة في صراع مستمر، وحرب متصلة، مما يثبت بشكل غير مباشر حرص عقبة على اتخاذ ما هو ضروري من إجراءات، وما هو ضروري من تدابير لتحقيق النجاح

في الأعمال القتالية، ولحماية المسلمين، وكان «أمن العمل» هو واحد في جملة مبادئ القتال التي استخدمها عقبة بمهارة وطبقها بدقة حتى أمكن له تحقيق مخططاته والوصول إلى أهدافه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان عقبة تلميذ مدرسة الإسلام، أُشرب مبادئها حتى أعماق نفسه ووجدانه، وقد تميزت عقيدة الإسلام القتالية بحذرها الكبير في مواجهة الأعداء والتعامل معهم، وتطبيق مبدأ أمن العمل حتى في أصعب الظروف وأقساها «مثل السماح بجمع الصلاة، وترك نصف المسلمين وقت الصلاة ظهيراً لمن يقومون بأداء فرض الصلاة ثم يتناوبون فيما بينهم»، وغير ذلك من الأساليب والأعمال التي تضمن تحقيق مبدأ واحد هو «أمن العمل». فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتميز قيادة عقبة بن نافع، مثله في ذلك مثل قادة المسلمين، بتطبيق مبادئ الحرب بدقة وحذر، وبينها مبدأ «أمن العمل» فإذا جُمعت بعد ذلك هذه الشواهد غير المباشرة، إلى الشواهد المباشرة التي حفظها لنا التاريخ من أقوال عقبة وأعماله، تكونت قناعة ثابتة في أن عقبة لم يهمل مبدأ «أمن العمل» أو يسقطه من تخطيطه خلال ممارسته لأعماله القتالية، وخلال نضاله غير المسلح لنشر الإسلام والمحافظة على المسلمين.

٣ ـ الحركية

من المحتمل أن تطول الصورة الأولى المقترنة في الذاكرة لمضمون الحركية هي تلك الأعمال القتالية الضخمة للقوات على جبهات واسعة وبأعماق كبيرة، وصورتها في الحرب العالمية الثانية مناورات القائد الألماني رومل في المغرب العربي ما بين ليبيا وحدود مصر، وكذلك الاجتياح السريع للقوات الألمانية ما بين نهر الأودر وحتى أبواب موسكو ولينينغراد، وأقلها ذلك التحرك الرائع بداية من نهر الموز وحتى باريس، واجتياح فرنسا وأوروبا كلها من قبل القوات الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية. ولكن الصورة المقصودة من الحركية عند العرب المسلمين هي صورة مختلفة تماماً، فلقد وفرت وسائل التحرك السريعة «الطائرات، المدرعات، الآليات والمركبات» كل الضرورات الأساسية لتأمين المرونة الكبرى في التحرك السريع وتطبيق مبدأ الحركية في أرفع مستوياته، **في حين أن الصورة للحركية العربية الإسلامية تقوم على الجهد،** وعلى الإرادة الصلبة وعلى الإيمان العميق بالهدف، **لتجاوز آلاف الكيلومترات**

في ظروف أقل ما هو معروف عنها الحرمان من الموارد الحياتية، وفي إطار من الصراع المرير القادر على استنزاف كل قوة إلا قوة العرب المسلمين المعتمدة في جوهرها وأساسها على إنكار الذات والتضحية، وتحمل كل الصعاب للوصول إلى الهدف.

تركزت أعمال الفتح، خلال ولاية عقبة الأولى، على المناطق الصحراوية بالدرجة الأولى، ومع افتراض التشابه في الطبيعة بين الصحراء العربية والصحراء الأفريقية، فإنه ليس بالإمكان إنكار ما فرضته الضرورات الحركية من جهد ومن مصاعب غير محدودة، وهل هناك من ينكر ما تضمنته حركة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام عبر الصحراء من مشاق ومخاطر؟. ومما لا ريب فيه هو أن الحركية العالية التي تميزت بها قوات العرب المسلمين، خلال عملياتها في أفريقية وفي قلب الصحراء بصورة خاصة، هي إحدى الظواهر الأساسية لعمليات العرب المسلمين، فإذا أمكن تجاوز هذه الظاهرة، فستبقى عمليات عقبة بن نافع خلال ولايته الثانية هي النموذج الرائع للحركية العالية عند العرب المسلمين.

فلقد تجاوز عقبة في مسيرته أكثر من ألفي كيلومتر، استغرقت جهد ما يقارب السنة، تخللتها معارك ضارية واشتباكات مريرة، كل ذلك علاوة على الصعوبات الخاصة بطبيعة الإقليم، وهذا ما يعطي للمرونة الحركية عند عقبة بن نافع طابعاً خاصاً ومميزاً يتجاوز جميع حدود التقديرات المعروفة لمضمون «الحركية». ولم يكن تحرك عقبة بقوات قليلة أو مفارز محدودة، وإنما كان التحرك بجيش أقل تقديراته ١٥ ألف أو يزيد. ومن هنا، فإن التحرك بهذه القوات طوال تلك المسافات الشاسعة، والسيطرة على القوات في جميع الظروف والمواقف إنما هو برهان واضح ودليل قاطع على المرونة الكبرى والحركية العالية التي تميزت بها قيادة عقبة. ولقد استطاع عقبة، بفضل هذه الحركية، أن يحقق إنجازاً رائعاً أقل ميزاته هو أنه مهد السبيل لمن جاء بعده، وأبرزهم موسى بن نصير، وطارق بن زياد، من أجل التوغل في المغرب العربي حتى نهايته، والوصول إلى المحيط الأطلسي، وإقامة كيان واحد في المغرب العربي كله.

من هنا تظهر صعوبة مقارنة الحركية عند عقبة بن نافع بكل مضمون للحركية في المفهوم الحديث، وإذا كانت هناك إمكانات للمقارنة بين الحركية عند عقبة بن نافع، **فإنه لا مجال لمقارنتها إلا بحركية مماثلة لقائد مماثل هو خالد بن**

الوليد، فكلاهما قاد قواته في ظروف صعبة، وكلاهما اقتحم مخاطر الصحراء ومهالك المفاوز، وكلاهما كان في حركيته نوع من المخاطرة وضرب من المجازفة، ولكن خالداً كان في جميع الأحوال على اتصال بقواعد العرب المسلمين، وغير بعيد عن قوات أخرى للعرب المسلمين، في حين كان عقبة منقطعاً عن المسلمين بينما كان خصومه وأعداؤه في بلاد هي بلادهم وعلى اتصال مستمر بقواعد إمدادهم، وهذا ما يعطي الحركية عند عقبة بن نافع طابعها المميز والفريد على كل ما عداها.

٤ ـ المبادأة، واستخدام القوة الهجومية

ما كان الرسول القائد ينتظر في قاعدته حتى يهاجمه المشركون، وما كان قادة العرب المسلمين ينتظرون ذلك، وإنما كانوا يحرصون على الإمساك بالمبادأة بأيديهم، وفرض المواقف على أعدائهم، مستفيدين من القوة الهجومية المتوافرة لديهم، ومستثمرين القدرة الحركية التي يتميزون بها لمبادأة خصومهم، ومباغتتهم، وتحطيم ميزان التفوق لديهم وتحقيق انتصاراتهم، وما «غزوة العسرة»[1]، التي قادها الرسول الأعظم بنفسه، سوى نموذج رائع لتطبيق هذا المبدأ الأساسي من مبادئ الحرب، كما لم تكن مواقف أكثر قادة العرب المسلمين سوى انسجام مع هذا المبدأ وتوافق معه، وكان عقبة في جملة قادة العرب المسلمين الذين حرصوا على المبادأة، واستخدموا القوة الهجومية لتحقيق أهدافهم.

كان أهل «لواتة» قد صولحوا، ثم نقضوا صلحهم في زمن معاوية بن أبي سفيان، فغزاهم عقبة، فتنحوا ناحية أطرابلس، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم. كما نقضت ودان عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أرطاة، سنة ثلاث وعشرين

---

(١) في السنة التاسعة للهجرة، جمع الروم قواتهم وحشدوها في تبوك على حدود الشام بهدف الهجوم على قاعدة الإسلام في المدينة والقضاء على المسلمين، وعلم الرسول القائد ﷺ بتجمع الروم، فأمر المسلمين جميعاً بالخروج لمجابهة الروم، حيث قدرت قوات المسلمين بثلاثين ألف مقاتل ولم يتخلف عن الغزوة سوى نفر قليل من المسلمين وفئة من المنافقين، وقد سميت الغزوة بغزوة تبوك أو (غزوة العسرة). وقد تحرك المسلمون في الصيف القائظ حتى وصلوا تبوك، ما حمل الروم على التراجع، والانسحاب بدون قتال، وصالح الرسول حاكم أيلة (إيلات) وأهالي أذرح، وحقق انتصاراً حاسماً بدون حرب، بفضل الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية بشكل ناجح.

للهجرة، فسار عقبة إليهم في أربعمائة فارس، وحاربهم حتى أخضع البلاد، بلداً بلداً.

لقد كان عقبة يعرف أن نقض الصلح هو إعلان للحرب، ولم يكن يترك الفرصة لخصومه حتى يتجمعوا ويشكلوا قوة يصعب التغلب عليها، وإنما كان يسرع بالتحرك إلى خصومه، فيحرمهم من المبادأة، ويمسك هو بها، ويستخدم قواته للهجوم لا للدفاع. وعندما كان عقبة يفرغ من إخضاع حركات التمرد، كان ينطلق، كلما توفرت له الفرصة، للإفادة من قواته الهجومية فيعمل على فتح أقاليم جديدة، وبذلك أخضع خلال ولايته الأولى أكثر أقاليم أفريقية. ويظهر استخدام عقبة لمبدأ «المبادأة واستخدام القوة الهجومية» بشكل أكثر وضوحاً فيما بعد. فقد اعترضت مسيرة تقدمه مجموعات من المقاومات، حاصر بعضها مدة تقارب الشهر وعندما عرف قوتها ولمس فيها الصمود، تركها إلى غيرها، واكتفى بما حققه من «إحباط لإرادة القتال عند خصومه». إن ممارسة أعمال الفتوح تعني الانتقال إلى البلاد التي يراد فتحها، وإن الوصول إلى بلد العدو «أو بلاده» إنما هو تحقيق للمبادأة واستخدام للقوة الهجومية بأوضح صورة وأعمق مضمون.

إن المبادأة، واستخدام القوة الهجومية، علاوة على ما تحققانه من ميزات، فإنهما تعززان الروح المعنوية للمقاتلين، ولم يكن العرب المسلمون في حاجة للحافز الذي يدعم روحهم المعنوية، ولكن مما لا ريب فيه هو أن استخدام عقبة للمبادأة والإفادة من القوة الهجومية للمسلمين قد ساعدتاه على دعم قوته وتطويرها والمحافظة على كفاءتها، ويعتبر ذلك في جملة الأسباب التي دعمت مكانة عقبة ورسختها في نفوس المسلمين، وضمنت له النجاح في قيادته طوال فترات سنوات الصراع التي حفلت بها حياته.

إن استخدام عقبة لما تحققه المبادأة من ميزات، هو الذي ضمن له الاستقرار في قاعدته المتقدمة «برقة» ومن بعدها «القيروان»، وهو الذي مهد له السبيل لنشر الإسلام بين قبائل البربر، وهو الذي ساعد على إزالة هيمنة الروم عن نفوس الأفارقة، فلم تعد قوة الروم هي القوة الوحيدة التي لا يعرف الأفارقة غيرها في العالم، وإنما هناك قوة أخرى قد جاءت لتفرض تحديها فوق رمال المغرب العربي وفي سهوله وجباله. وإذا كان من الصعب إسناد أعمال النجاح كلها إلى عامل واحد، أو إلى مبدأ واحد من مبادئ الحرب، فإنه من المؤكد أن مبدأ

استخدام القوة الهجومية وتطوير مضمون المبادأة، هو في طليعة المبادئ التي حققت لعقبة أمجاده وانتصاراته.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

اعتمد قادة العرب المسلمين استراتيجية الحرص على العنصر العربي، كاستراتيجية ثابتة عند التخطيط لأعمالهم القتالية، وكانت الترجمة العملية لهذه الاستراتيجية تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى على المستوى العملياتي. وإذا كان قادة العرب المسلمين على جانب كبير من الحرص في تطبيق هذا المبدأ لأسباب دينية «عقائدية» ولأسباب استراتيجية، هي ضعف العنصر العربي عددياً في مواجهة التحديات الضخمة التي كانت تجابه المسلمين، فقد كان عقبة بن نافع أكثر إحساساً بأهمية هذا المبدأ وأكثر التزاماً بتطبيقه. فقد كان يقف وحده في مواجهة التحديات الضخمة التي كان يواجهه بها التحالف البيزنطي ـ الأفريقي (نسبة إلى تحالف الأفارقة الساحليين مع الروم) وكانت الحامية العربية المكلفة بالعمل تحت قيادته غير متناسبة أبداً في حجمها مع الواجبات الثقيلة الملقاة على عاتقها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن العناصر الحديثة العهد بالإسلام من سكان البلاد «البربر»، لم تكن قد تشربت عمق رسالة الإسلام، فكان من الطبيعي أن يحرص عقبة على رعايتها وتجنيبها قدر المستطاع كل ما من شأنه تفتيتها مادياً أو معنوياً، وهذا ما يوضح جانباً كبيراً من سلوك عقبة أثناء قيادته العملياتية وعند تنظيم أعمال القتال. ولقد اتخذ عقبة في قيادته أساليب محددة منها:

١ ـ عدم التفريط بالقوة التي يقودها، أو القيام بمغامرات غير محسوبة، وتخصيص ما يكفي من القوى لتنفيذ الواجب. فعندما تمردت ودان، على سبيل المثال سنة ٣٣هـ، لم يقد عقبة جيشه عبر الصحراء، وإنما قام بعملية انتقاء واصطحب معه أربعمائة فارس وأربعمائة جمل.

٢ ـ عدم استخدام قوته للاصطدام بالتحصينات القوية، ومحاولة فتح التنظيمات الدفاعية، نظراً لما تتطلبه هذه العمليات من استنزاف كبير للقوى والوسائط، **فكان عقبة يحاصر المواقع الدفاعية لفترة محدودة، فإذا لم تستسلم تركها ثم عاود الهجوم بصورة مباغتة،** كما فعل مع أهل خاور.

٣ ـ المحافظة على قوة المسلمين مجمعة، وعدم توزيعها على الحاميات

والمواقع الدفاعية المعادية والمنتشرة على امتداد مئات الكيلومترات، ما بين القيروان والأطلسي، ولا حاجة للقول بأن عقبة لو لم يفعل ذلك، وعمل على توزيع قواته بهدف حماية خطوط مواصلاته لوصل إلى المحيط الأطلسي، وقد أسرف في نشر قواته حتى لم يبق معه من الجند من أحد.

٤ ـ قيادة عقبة لقوات المسلمين بنفسه في المعارك كلها تقريباً، حتى يستطيع اتخاذ الإجراءات المناسبة لحماية قوات المسلمين. وتظهر أهمية هذا السلوك الميداني عند تصور الظروف التي كان يقود فيها عقبة قواته، حيث لم تكن هناك وسائط لقيادة القوات والسيطرة عليها.

٥ ـ تأمين القوات مادياً وتوفير المتطلبات الحياتية والموازنة بين هذا العامل وبين عامل الأمن ومتطلبات العمليات. ومن ذلك إقدامه على تقسيم قواته وإرسالها أفواجاً أفواجاً من طبنة إلى القيروان بعد مسيرته الكبرى حتى البحر المحيط «الأطلسي». وحتى في هذه الظروف لم يكن عقبة ليرسل قواته بأفواج صغيرة إلا بعد أن ضمن لها سلامة الطريق وأمن التحرك. ويظهر ذلك بوضوح مقدار حرص القائد عقبة على تطبيق **مبدأ الاقتصاد بالقوى** في حياته القيادية كلها. وقد يكون هذا المبدأ من أكثر المبادئ التي هيمنت على تفكير عقبة بن نافع القائد، فإذا وضع هذا المبدأ من الناحيتين الاستراتيجية والعملياتية إلى جانب ما عرف عن عقبة بن نافع من التقى والورع والحرص على المسلمين وإيثاره حياة المسلمين على كل ما عداها من متطلبات، ظهرت حقيقة المأساة التي جابهها عقبة والتي انتهت بها حياته القيادية. ولقد وضعنا هنا سيرة عقبة بن نافع وتقاه وورعه جنباً إلى جنب مع مبدأ الاقتصاد بالقوى كعوامل متكاملة في شخصية عقبة، ولكن عقبة لم يكن كذلك في الواقع، وإنما كان قائداً مؤمناً مسلماً، وكان إيمانه وعمق إسلامه هو الذي يحفزه إلى تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى في المواقف القتالية جميعها.

٦ ـ المحافظة على الهدف

جاء ترتيب مبدأ المحافظة على الهدف هنا في نهاية مبادئ الحرب، عند دراسة حياة عقبة بن نافع القيادية، وليس ذلك دليلاً على تناقص أهميته عن بقية المبادئ، وإنما ذلك بطبيعة الدراسة وضرورة إظهار العامل الشمولي في البحث بعد عرض المبادئ التي يهيمن عليها هذا المبدأ. ويتصل مبدأ المحافظة على

الهدف باستراتيجية وضوح الهدف، حتى يمكن القول إن تطبيق مبدأ المحافظة على الهدف، في المستويات العملياتية والتكتيكية، إنما هو تنفيذ لاستراتيجية وضوح الهدف. فالهدف الواضح هو الذي يدفع القيادات إلى تحديد الأساليب القتالية والطرائق العملياتية المناسبة والتي تكفل تحقيق النجاح، ويأتي هذا النجاح ليعزز من قيمة الهدف ما يدفع القادة إلى مزيد من التصميم للمحافظة على الهدف، وبذلك يتحقق التكافؤ في طريق المعادلة: «النجاح يعزز المبادئ والمبادئ تدعم النجاح. . وهكذا». ويظهر ذلك من ناحية أخرى التلاحم القوي بين الأسس الاستراتيجية وبين مبادئ الحرب، كما يظهر مرة أخرى أيضاً التكامل الرائع للعقلية القتالية عند العرب المسلمين.

خرج عقبة، وخرج المسلمون من جزيرتهم لتحقيق هدف واضح هو نشر الإسلام. واستقر عقبة في قاعدته برقة، وأخذ، مع من رافقه من الصحابة، في نشر الإسلام بين القبائل، وكان النضال السلمي والجهاد الأكبر هو الوسيلة التبادلية للصراع المسلح، فما الحرب إلا من أجل تحقيق ما كانت تعجز عنه الوسائل السلمية. ونظراً لانطلاق عقبة في أعماله من قاعدة الإيمان العميق بالهدف ووضوح الرؤيا (انظر وضوح الهدف)، فقد بقي عقبة محافظاً على هدفه، ثابتاً عند قناعاته حتى نهاية حياته، وقد ترك عقبة في أقواله وفي أعماله ما يثبت بشكل قاطع محافظته على الهدف في حياته القيادية كلها. وكانت مبادئ الحرب من مباغتة وأمن عمل وحركية ومبادأة واستخدام القوة الهجومية كلها في إطار مضمون واحد هو خدمة الهدف والمحافظة عليه. ولعل ما يثير الانتباه هنا هو المرونة الكبرى التي اتبعها عقبة في المحافظة على الهدف، فهو لم يسلك سبيلاً واحداً أو طريقة محددة بشكل جامد، وإنما كان يعمل بطريقة الاصطفاء لاختيار هذه الوسيلة أو تلك، ولتطبيق هذا المبدأ من مبادئ الحرب أو ذاك بما يتكيف مع الواقع ومع الظروف المحيطة، فهو يسلك طريق الردع النفسي عندما تكون هذه الوسيلة كافية، وهو يلجأ إلى زج قواته كلها عندما يتطلب الموقف ذلك، ويستخدم ما هو كاف من القوات عندما لا يفرض الموقف استخدام كل القوات، وهو يلجأ إلى استراتيجية الهجوم الوقائي أحياناً وإلى التوغل العميق أحياناً أخرى، كل ذلك في إطار مضمون واحد هو المحافظة على الهدف.

إن ما سبق ذكره لا يمثل كل مبادئ الحرب التي استخدمها عقبة بن نافع في حروبه، فهناك **مبدأ حشد القوى**، وإذا لم يتم تخصيص فقرة مستقلة لهذا المبدأ

فذلك لأن عقبة لم يترك من الشواهد ما يكفي، في أقواله وأعماله، ما يوضح اعتماده لهذا المبدأ. وفي الواقع، فإن المؤرخين العرب هم الذين لم يسجلوا دقائق الأحداث بشكل يوضح بشكل كاف هذه الناحية، ولكن كثيراً من الأعمال تظهر بصورة غير مباشرة، حتى لو لم يكن هناك براهين واضحة عليها. وليس من المقبول أو المعقول، أن يقود عقبة جيش المسلمين تلك الفترة الطويلة من حياته، وأن يخوض معاركه المتصلة من دون استخدام دقيق لمبدأ حشد القوى. ومهما كان عليه الأمر، ومع استحالة طرح الفرضيات بدون الاستناد إلى أحداث تاريخية محددة ـ تتطلبها طبيعة البحث العلمي والدراسة الواقعية ـ فإن مجموعة الشواهد عن تطبيق مبادئ الحرب في الأفق العملياتي، تتضمن مبادئ تابعة بصورة حتمية، سواء ظهرت هذه المبادئ بصورتها الواضحة أو بقيت في حالتها الضمنية.

الفَصْلُ الثَّالِث

أ ـ عقبة بن نافع وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجيستيك».

٢ ـ القضاء على أعداء المسلمين (أو ما يعرف حديثاً بالعنف الثوري).

٣ ـ التحريض والحض على القتال.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين

ب ـ عقبة بن نافع وقوات العرب المسلمين.

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ عقبة والجهاد في سبيل الله.

٥ ـ عقبة وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

جـ ـ عقبة وحرب الحركة في القيادة.

د ـ في القيادة.



أ ـ عقبة بن نافع وفن القيادة

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

[القصص/٥]

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجيستيك»

إن الحديث عن القدرات الفكرية للقائد، إنما يعني معرفته لما هو ممكن ولما هو غير ممكن، وهذا ما يتم عادة ببناء المعرفة الواسعة بآلية الحرب أي الطبوغرافيا، وحركة الجيش والإمداد والتموين. . . إلخ. وهذه هي الأسس الحقيقية للمعرفة العسكرية، لا الاستراتيجية والتكتيك كما يعتقد كثير من الناس؛ ذلك أن أكثر الكتب العسكرية تضع الاستراتيجية وفن العمليات والتكتيك في مركز الصدارة على حساب الشؤون الإدارية. ولو طرح سؤال على عشرة من الدارسين عن الخطوط العامة لحرب العاشر من رمضان **١٣٩٣**هـ، السادس من تشرين الأول ـ أكتوبر **١٩٧٣**م، لجاءت إجاباتهم متقاربة، سواء في مجال الاستراتيجية أو في فن العلميات، ولكن واحداً منهم قد يعرف **الجهد المبذول لتأمين القوات مادياً**، سواء بالنسبة لإمداد القوات **بالمواد التموينية أو بمتطلبات الحرب** من أسلحة وذخائر، أو بالنسبة لعمليات إصلاح الآليات المعطلة والأسلحة وإخلاء الجرحى والمصابين. . . إلخ. وليس من الغريب بعد ذلك أن تحتل الشؤون الإدارية المرتبة الأولى في ذهن القائد الناجح وفي تفكيره.

كان عقبة بن نافع من القادة الذين يعرفون أهمية الشؤون الإدارية، وينظمون تحركاتهم بتأثير هذا العامل. فإذا كان خالد بن الوليد قد لجأ إلى إرواء الإبل وتكميم أفواهها لقطع مفازة الصحراء فإن عقبة «قد سار إلى ودان في أربعمائة

فارس وأربعمائة جمل وثمانمائة قربة ماء على كل جمل قربتان». ولا ريب أن العامل الإداري هو الذي دفع عقبة إلى ترك جيشه بمغداش في أرض سرت، وقيادة أربعمائة فارس فقط للتوغل في قلب الصحراء، وهو إجراء لم يتبعه عقبة إلا في قليل من علمياته. وعندما وضع عقبة أسس بناء القيروان وضع في اعتباره العامل الإداري؛ فقد أراد عقبة من القيروان «أن تكون محطاً لقوافل المسلمين ومراحاً لعسكرهم»، وعندما اقترح بعض صحابة عقبة تغيير موقع القيروان، أجابهم «لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل وهي التي تحمل عسكرنا، فإذا فرغنا نحن من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى». وبتأثير العامل الإداري أيضاً، اضطر عقبة إلى إرسال قواته أفواجاً أفواجاً إلى القيروان. وتكفي هذه الشواهد للبرهان على هيمنة **الفكر الإداري** على القائد عقبة بن نافع عند تخطيطه لعملياته وعند ممارسته لأعماله القيادية.

وفي الواقع فإن اهتمام قادة العرب المسلمين بالشؤون الإدارية، إنما يرتبط بأساس عقيدة الإسلام القتالية وباستراتيجية «الحرص على العنصر العربي - دعامة الإسلام»، وبمبدأ «الاقتصاد بالقوى»، فالحرص على المسلمين وعدم توريطهم في موارد التهلكة، هو الذي كان يحفز القادة، من دون استثناء، لاستخدام الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب التي تضمن سلامة المسلمين وفي طليعتها الاهتمام بالشؤون الإدارية، وقد ضرب الرسول القائد المثل الأعلى في الاهتمام بالشؤون الإدارية عند تجهيز «جيش العسرة» في غزوة تبوك، حيث دفع الصحابة «بعضهم» كل ما يملكون «أبو بكر» وبعضهم نصف ما يملكون «عمر بن الخطاب»، وجميعهم قدم كل ما يستطيعه لتأمين الجيش وتوفير متطلباته. ولم يكن جيش عقبة، كما لم تكن جيوش المسلمين جميعها من الجيوش المترفة التي تثقل تحركاتها الأعباء الإدارية وأرتال الإمداد والتموين على نحو ما كان عليه جيش الروم البيزنطي في عهد الفتوحات الإسلامية. ولقد كان الاهتمام بالشؤون الإدارية عند قادة العرب المسلمين يتركز أساساً على المواد الحياتية للمقاتلين وخيولهم، ولكن، ومهما كان عليه الموقف، فإن اهتمام عقبة بالشؤون الإدارية إنما يشكل نقطة مضيئة في حياة عقبة بن نافع القيادية، رغم أن هذه النقطة كانت في جملة العوامل التي حملته على دفع حياته ثمناً لها.

٢ ـ القضاء على أعداء المسلمين

(أو ما يعرف حديثاً بالعنف الثوري)

استخدم الرسول القائد ما يسمى حديثاً «بالعنف الثوري» للقضاء على خصوم الإسلام، وقصته مع اليهودي كعب بن الأشرف معروفة مشهورة[١]. واستخدم قادة العرب المسلمين، وخالد بن الوليد منهم خاصة، هذا الأسلوب في حروبه. ففي موقعة أليس على الفرات (صفر سنة ١٢هـ/ ٦٣٧م) أظهر العرب من أنصار الفرس مقاومة كبيرة وعناداً في القتال، فأقسم خالد بقوله: «اللهم إن لك عليَّ إن منحتني أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم». وعندما انتهت المعركة بانتصار المسلمين، أصدر خالد أوامره بالمطاردة، وأسر ٧٠ ألفاً عمل على إبادتهم وقتلهم على نهر الفرات حتى سمي رافده بنهر الدم. وفي موقعة عين التمر استخدم خالد أيضاً الأسلوب ذاته لإرهاب خصوم المسلمين[٢]، وفي يوم دومة الجندل كرر خالد العملية ذاتها[٣] ونجح بواسطتها في تحقيق نصر حاسم.

---

(١) كان كعب بن الأشرف اليهودي شاعراً، وكان يهجو الرسول ويحرض عليه، وقد تمادى في إيذاء الرسول والمسلمين حتى أنه شبب بنسائهم، فقال الرسول: (من لي بابن الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى المشركين فجمعهم على قتالنا). فقال محمد بن مسلمة: «يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟». فقال: (فافعل ولا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ).

ووضع بعض المسلمين خطة لقتله، ونفذوها. وكان لمقتله أثر كبير في معنويات اليهود في المدينة، فأصبح المُسلمون وقد خافت اليهود لوقعتهم بعدو الله، فليس في المدينة يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

(٢) حدثت موقعة عين التمر عام ١٢هـ أيضاً، وفيها تولى عقة بن أبي عقة قيادة قبائل النمر وتغلب وإياد للوقوف إلى جانب الفرس ضد المسلمين، واستطاع خالد أسر عقة مع بداية الاشتباك، فهرب المقاتلون إلى الحصون، فأسرع خالد إلى قتل عقة وإلقائه على الجسر حيث يراه الأسرى، ثم دعا بعمرو بن الصعق، من قادة العرب أنصار الفرس أيضاً، فضرب عنقه وألقى به إلى جانب عقة، فلم تلبث المقاومة أن انهارت، واستسلم المقاتلون في الحصن.

(٣) **دومة الجندل**: في العراق ومعركتها في عام ٢١هـ. وقد ألقى خالد القبض على الجودي بن ربيعة وعلى الأقرع بن حابس وأخذهما أسيرين، كما نجح في أسر عدد كبير من المقاتلين وهرب الفرس وأنصارهم من العرب والتجؤوا إلى أسوار دومة الجندل. وتقدم خالد بجيشه وأمر بالأسرى فضربت أعناقهم واحداً واحداً تحت بصر المقاتلين في الحصون، فانهارت مقاومتهم واستسلموا للعرب المسلمين.

وقد لجأ عقبة بن نافع أيضاً إلى استخدام أسلوب القضاء على أعداء المسلمين أو إرهابهم، فقطع أذن أحد القادة وقال له: «ذلك أدباً لك حتى إذا مَسَسْتَ أذنك ذكرته، فلا تحارب العرب». وحال بين أحد ملوك البربر وبين موكبه، وأرغمه على السير حتى أصابه التعب وأصبح يبصق دماً، وقال له مثل قوله السابق. وكرر هذه العملية أيضاً مع ملك كاور، فقطع له إصبعه وقال له أيضاً: «هذا أدب لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب». ولقد كان عقبة في الواقع أقل قسوة في حروبه من خالد بن الوليد، وكان أسلوبه في الإرهاب أقرب إلى الردع النفسي منه إلى العنف الثوري بمضمون الإبادة، فكان يحرص على إدخال الرهبة في قلوب أعداء المسلمين مع ترك الفرصة لهم على أساس احتمال انضمامهم للمسلمين، وفي الوقت ذاته إضعاف مكانتهم القيادية بهدف إخضاعهم أمام أنصارهم مما يزيل جبروتهم وهيمنتهم القوية، ويسمح للمسلمين بالتوغل في صفوفهم لتوجيههم وهدايتهم. ولقد لجأ عقبة لاستخدام هذا الأسلوب ذاته مع كسيلة، ولم يكن إرغامه على «سلخ الشاة» والاستهانة به إلا وسيلة لإضعافه وحرمانه من امتيازاته التي قد تساعده على تشكيل مركز من مراكز القوى التي تهدد العرب المسلمين. ولم يكن فشل هذه الوسيلة في معاملة كسيلة تابعاً لفشل الأسلوب بقدر ما كان تابعاً لمجموعة العوامل الخارجية وفي طليعتها وجود قوة الروم وتحريضهم لكسيلة على الثورة، وقد كان لدى كسيلة هذا الاستعداد، حتى لو لم يقدم عقبة بن نافع على معاملته بأسلوب الإرهاب.

٣ ـ التحريض والحض على القتال

يجد القائد نفسه، في كثير من المواقف، أمام عوامل قد تؤثر على الروح المعنوية لقواته، فيكون لسلوكه، وأقواله، وقراراته الدور الحاسم في تطوير هذه المواقف وتصعيد إرادة القتال عند المحاربين، ولعل هذا الدور من أبرز الأدوار التي يمارسها القادة في الفترات الصعبة من الصراع المسلح. ولقد عرف عن الرسول القائد، كما عرف عن قادة المسلمين أدوارهم في الحض على القتال وتحريض المسلمين على الحرب. ويكتسب التحريض أهمية خاصة عندما يكون وثيق الصلة بهدف الحرب، مرتبطاً بالموقف الراهن الذي تتم مجابهته. وكان عقبة بن نافع قائداً مميزاً في هذا المضمار؛ فقد كان يقف على رأس قواته يستثير حماستها ويحدد لها أهدافها ويذكرها بواجباتها ويطرح عليها خطورة الموقف،

فيدفعها إلى اقتحام المواقف، أصعبها، والأزمات، أشدها، ويخرج من ذلك كله وقد حمل للمسلمين نصراً فيه بعضاً من التعويض عن التضحيات وعن المشاق التي احتملها المسلمون في حروبهم وصراعهم المسلح.

فعندما ودع عقبة أهله في القيروان، كان مما قاله: «اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك». وعندما جابه عقبة قوات الروم وأنصارهم في تاهرت، وعرف صعوبة الموقف الذي يجابهه، وقف يحرض مقاتليه ويحضهم على القتال بقوله: «إنكم لم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا. فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم ﷻ لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة». واقتحم المسلمون المعركة، واستطاعوا بإيمانهم تحطيم ميزان تفوق عدوهم، وانتزعوا انتصارهم. ولا حاجة للقول إنه لم يكن لكلمات عقبة أو أعماله أية قيمة لو لم تكن صادرة عن قلب عامر بالإيمان، فتدخل القلوب المؤمنة وتدفعها إلى القتال.

وعندما وصل عقبة إلى المحيط الأطلسي في أقصى المغرب وقف والمؤمنون المسلمون أمام مياه المحيط، ورفع يديه بالدعاء: «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً... وإنك لتعلم إنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء. اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام». لقد تحمل عقبة والمسلمون معه من المشاق ما لا قبل لأحد باحتماله، فعاد عقبة ليذكرهم بسبب خروجهم وغايته: «اللهم إني لم أخرج بطراً، ولا أشراً». وأمام هذا السبب، وأمام هذه الغاية، تهون المصاعب كلها، وتزول آثار المشاق كلها. ثم هو يشدد في تحريضه على ما يتطلبه الموقف من عناد لمجابهة التحديات: «معاندون لدين الكفر، مدافعون عن دين الإسلام»، وهو يترك الأمرَ في النهاية والبداية لإرادة الله، ولكنه يلتمس من العزيز القدير القوة: «فكن لنا ولا تكن علينا». وهكذا، وبكلمات قليلة، جمع عقبة كل العوامل الكافية للتحريض على الحرب والحض على القتال.

ويرتبط الحض على القتال بالحرب النفسية، وبالموقف النفسي للقائد والقوات معاً. فالتحريض يرتبط بشخص القائد وبقوة إقناعه وكفاءته القيادية، وبقدر ما يوحيه من الثقة والطمأنينة للمقاتلين المجاهدين تحت رايته. كما يرتبط التحريض بالحالة النفسية للمقاتلين، ومدى حاجتهم للتحريض، وهنا تكمن

مهارة القائد في تحسس مشاعر المقاتلين ومعرفة نوازعهم. ولم يكن عقبة بن نافع في حاجة لمعرفة حقيقة مشاعر المؤمنين المجاهدين، فهو يعيش معهم، ويعاني معهم ما يعانون، ويحتمل معهم ما يحتملون، ومن هنا يظهر التجاوب الكامل بين القائد عقبة وبين صحبه من المقاتلين المجاهدين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التحريض على الحرب والحض على القتال يفرض على القائد أن يرتفع عن مستوى الأحداث التي يصنعها لتتوافر له النظرة الشمولية للموقف وحتى يستطيع الهيمنة على هذا الموقف، وكان عقبة في حياته دائماً فوق مستوى الأحداث التي يصنعها، وبذلك ضمن لنفسه وللمسلمين فرص النجاح والنصر.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قالها الرسول الأعظم في غزوة حنين وحصار الطائف، حيث أحيط بالمسلمين، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً، وبلغت القلوب الحناجر، فثبت الرسول في مكانه وهو يرتجز، ويقول: «أين؟ أيها الناس؟ هلموا إلي. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله». وكان لهذا الموقف الشجاع أثره في إيقاظ المسلمين من ذهولهم، والعودة إلى الرسول القائد، والالتفاف حوله، والقتال حتى النصر، وبذلك كان لشجاعة الرسول في مواجهة الخوف الدور الحاسم في تحويل الموقف من الهزيمة إلى النصر.

وقد جابه أمير المؤمنين، الخليفة أبو بكر، مثل هذا الموقف عندما انتفضت الجزيرة، من أقصاها إلى أقصاها، على أثر وفاة الرسول العربي محمد ﷺ، وأخذت جموع المشركين في الزحف إلى المدينة للقضاء على شعلة الإسلام، فكان لشجاعة «أبو بكر» في مواجهة الخوف الدور الأول والأخير في تحويل الموقف. كما شهد قادة العرب المسلمين الكثير من المواقف الخطرة والتي تثير الخوف في قلوب أكثر الناس شجاعة وحماسة، وكان لشجاعتهم في مواجهة الخوف الأثر الكبير في تحويل المواقف اليائسة إلى مواقف مظفرة. ولم تكن المواقف التي جابهها عقبة بن نافع أقل من هذه المواقف حرجاً وخطورة، ذلك أنه كان يقف طوال فترة ولايته أمام تجمع للروم وأنصارهم، وكان هذا التجمع يتفوق عليه بالقوى والوسائط، وكان هو في عزلة عن بلاد المسلمين، وهذا كاف لإثارة المخاوف التي يتطلب قهرها قدراً كبيراً من الشجاعة.

وفي هجوم عقبة على تلمسان «انضم الروم إلى البربر، وخرجوا في جيش ضخم لجب، والتحم القتال، ووقع الصبر، حتى ظن المسلمون أنه الفناء». وفي تاهرت، استغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، وكثر جمعهم «والتقى المسلمون بأعدائهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكنهم انتصروا أخيراً». ووصلت الشجاعة في مواجهة الخوف ذروتها عند القائد عقبة بن نافع في معركة تهوذة، حيث وقف في مجابهة تجمع ضخم وتكتل كبير، وعرف أنها النهاية الحتمية فلم يتراجع أو يحاول التملص، أو يعمل على الفرار مما قد يسيء إلى الروح المعنوية لبقية قوى المسلمين، «فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة». ولم يكن باستطاعة عقبة القائد، التملص من المعركة أو الانسحاب من القتال وهو الإنسان المؤمن بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال/ ١٥، ١٦]. وكان لعقبة أسوة حسنة بالرسول الأعظم في غزوة حنين[1]، حيث صمد الرسول وقلة من المسلمين معه حتى كتب الله لهم النصر.

ومهما كان عليه الموقف، فالقتل والقتال من طبيعة الحرب، والاستشهاد والشهادة من بعض ظواهرها، ولكن ما هو غير طبيعي البحث في الحرب عن تحقيق الهدف من دون وضع احتمال القتل والاستشهاد. وكان عقبة مقاتلاً قبل أن يكون قائداً، ومجاهداً قبل أن يكون والياً، فكانت نظرته إلى القتل والشهادة منطلقة من إيمانه العميق بحتمية القضاء والقدر، وكان ذلك مصدر شجاعته في مواجهة الخوف حتى في أصعب الظروف وأكثرها قسوة، وكان هذا العامل عند القائد عقبة بن نافع مصدر ثقة للمجاهدين في جيش عقبة ومصدراً من مصادر روحهم المعنوية، كما كان له أثره في إحباط إرادة القتال عند أعداء المسلمين.

وبعد، فالخوف والشجاعة من العواطف الإنسانية الطبيعية، والخوف هو أمر طبيعي يتطلب قهره استخدام الإرادة والاستعانة بالشجاعة، وقد تميز عقبة القائد

---

(١) وهي الغزوة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة/ ٥٢] صدق الله العظيم. انظر: الفقرة السابقة (الحض على القتال).

بإرادة قوية وحازمة، وإيمان راسخ عميق، أصبحت معه عاطفة الخوف وانفعالاتها بعيدة كل البعد عن التأثير في قرارات عقبة ومواقفه.

٥ ـ القرارات الصحيحة

القائد هو القرار، واتخاذ القرار هو العمل الطبيعي للقائد، ويتميز قائد عن قائد بقدرته على اتخاذ القرار والحرص على تنفيذه. وليس اتخاذ القرار في حد ذاته هو الذي يظهر كفاءة القائد، وإنما تظهر هذه الكفاءة من خلال «**القرارات الصحيحة**»، وتعتمد عملية اتخاذ القرارات الصحيحة **على تقدير الموقف الصحيح** المستند إلى مجموعة من المعطيات والعوامل، أقلها المعرفة الثابتة لقوة الأصدقاء، والمعرفة الدقيقة لموقف العدو وطبيعته، وتسلحه وقواه المعنوية وتصميمه على القتال، علاوة على المعرفة الضرورية لمسرح عمليات القتال وطبيعته الجغرافية وموارده الاقتصادية والحياتية، وكذلك معرفة المناخ وغير ذلك من العوامل التي يستند إليها تقدير الموقف. ويظهر ذلك الأثر الكبير للقائد في إحراز النصر أو في إلحاق الهزيمة بقواته حتى شاع القول «بأنه لا توجد معركة فاشلة فيما إذا صمم القائد على كسبها وتحقيق النصر فيها». وعلى الرغم مما يتضمنه هذا القول من مبالغة هدفها إظهار الدور الكبير للقائد من دون الأخذ ببقية العوامل، كموقف القوات وحجمها وتسلحها وموقف الخصم منها، إلا أن هذا القول يحمل قدراً كبيراً من الصحة، فإذا عرف ذلك، وعرف أن عقبة قد خاض صراعه المرير وقاد معاركه القاسية في ظروف غير متكافئة في كثير من الأحيان وخرج من ذلك كله بتسجيل انتصارات حاسمة ومتصلة على امتداد ربع قرن تقريباً، من دون أن ينكب المسلمون خلالها أو تنزل بهم نازلة، أمكن القول، دون ريبة أو شك، إن عقبة بن نافع كان قائداً مميزاً بكفاءته في اتخاذ القرارات الصحيحة.

فإذا تجاوزنا هذا الطرح النظري لمتابعة أعمال القائد عقبة خلال ممارسته لقيادته، تكونت القناعة الثابتة بنجاح عقبة الرائع في اتخاذ القرارات الصحيحة كلها، وفي جميع المواقف المتنوعة والظروف المختلفة «وليس بقاء القيروان عامرة في بنيانها، راسخة في إيمانها، رغم ما تعرضت له من نكبات، وما جابهته من تحديات سوى برهان على صحة قرار عقبة في اختيار المكان الصحيح لبناء قاعدة المسلمين المتقدمة». وكانت القرارات الصحيحة لعقبة بن نافع متميزة

بصدورها عن شخصية ثابتة، اتصفت خلال ممارستها لقيادتها بالاتزان والبعد عن التحول والاضطراب والتردد، وهذا ما كان يعطي لقرارات عقبة قوتها. ويظهر الثبات في شخصية عقبة من خلال مواقف كثيرة أبرزها موقفه من «أبو المهاجر دينار»، حيث كان أول عمل له بعد عودته الأخذ بـ«أبو المهاجر» ووضعه في القيود، وكذلك فإنه عندما تهدد «أبو المهاجر»، بعد إطلاق سراحه «أصبح أبو المهاجر خائفاً» وهذا يدل على أن الذين كانوا يعرفون عقبة، كانوا يعرفون فيه ثبات الشخصية، ويعرفون فيه الصدق في الوعيد والتهديد.

وإذا كان هذا موقفاً شخصياً من عقبة فهناك مواقف عامة تؤيد هذا الاتجاه «ومنها موقفه من معارضيه في اختيار موقع القيروان»، وموقفه من «أبو المهاجر» يوم نصحه بالحذر من كسيلة. ويبرهن ذلك كله على أن عقبة كان متميزاً بثبات الشخصية في مواقفه الخاصة ومواقفه العامة. **وهنا لا بد من التمييز بين الثبات في الشخصية وبين العناد.** فالثبات إنما هو نتيجة لاتخاذ القرار بناء على معطيات كثيرة وبناء على دراسة شاملة للموقف، في حين أن العناد يستند إلى منطلقات عاطفية تفتقر إلى الرابطة المنطقية والحجج العقلانية، وإن الشواهد المتوافرة تثبت أن قيادة عقبة تميزت بالثبات ولم تتميز بالعناد، وهذا ما كان يعطي قراراته الصحيحة أهميتها فتحمل المجاهدين العاملين معه للخضوع لإرادته والنزول عند رأيه والانقياد له عن قناعة، وتلك هي من أهم عوامل نجاح عقبة في ممارسة القيادة. وقد يستطيع قائد من القادة كسب رضى قواته، بعضها أو كلها، خلال فترة محددة، إما لنجاحه في عمل معين أو نتيجة لموقف من المواقف، ولكن قليلون هم القادة الذين استطاعوا الحصول على ثقة قواتهم كلها في حياتهم وبعد استشهادهم، وقد كان عقبة واحداً من هؤلاء القادة، ولا ريب في أن قرارات عقبة الصحيحة هي التي كانت تثير إعجاب قواته وتجلب ثقتهم، فكان بذلك من القادة الخالدين.

٦ ـ حماية المرؤوسين

تعتبر حماية المرؤوسين واجباً من واجبات القائد الأساسية، ذلك لأنها تحقق مبدأ الاقتصاد بالقوى. ويتخذ القائد ما هو ضروري من إجراءات الأمن وتدابير الحيطة لضمان حماية مرؤوسيه في كل الأوقات، وفي جميع الظروف، في السلم كما في الحرب. ويتخذ هذا المبدأ أهمية خاصة عند العرب المسلمين

بسبب اعتمادهم على استراتيجية المحافظة على العنصر العربي بصورة أساسية في صراعهم المسلح. فكان من توصيات أمراء المسلمين لقادتهم «لا ترسل طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية»[1]، «ولا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة... ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس»[2]، «وتبصر الله بمن معك من المسلمين... فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار»[3].

وكان القائد عقبة بن نافع يتخذ كل ما يستطيع قائد اتخاذه من تدابير لحماية مرؤوسيه، ولم تكن قيادته المباشرة للأعمال القتالية، كبيرها وصغيرها، سوى ظاهرة تشير إلى تأمين حمايته لمرؤوسيه بنفسه، ولم يكن ذلك عن ضعف ثقته بقادته بقدر ما كان ناتجاً عن حرصه على مشاركته لمرؤوسيه بنفسه، ولم يكن ذلك عن ضعف ثقته بقادته بقدر ما كان ناتجاً عن حرصه على مشاركته لمرؤوسيه في تحمل المشاق وتأمين الحماية لهم. ولعل أفضل صورة لتدابير القائد عقبة بن نافع في حماية مرؤوسيه هو إجراؤه في إرسال قواته إلى القيروان على التتابع بعد تأمين محور تحركهم، والبقاء مع القوة التي تضطلع بحماية مؤخرة المسلمين «الساقة». وكان باستطاعة عقبة التحرك مع أول فوج يعبر مفازة الصحراء للوصول إلى القيروان، أو التحرك مع أي فوج بعدها، والاكتفاء بما اتخذه من تدابير الحيطة، وتكليف أحد قادته بالبقاء مع الساقة، ولكن بقاءه مع الساقة «المؤخرة» وحتى النهاية، إنما هو دليل قاطع على حرص عقبة بن نافع على تأمين الحماية لقواته حتى لو كان ذلك سيكلفه حياته.

«وتثير هذه النقطة بالذات كثيراً من النقاش والحوار والجدل حول الفائدة من بقاء عقبة حتى النهاية، ما تسبب باستشهاده في وقت كان المسلمون في المغرب العربي أحوج ما يكونون إلى قيادته. فالقائد هو القرار (انظر: اتخاذ القرارات الصحيحة)، ولم يكن هناك في جيش المسلمين من يستطيع ممارسة دوره القيادي والاضطلاع بأعبائه، فكانت خسارة المسلمين به تزيد كثيراً على خسارتهم فيما لو فقدوا الساقة وقوة من الجيش مع بقاء عقبة على رأس قواته».

---

(١) من وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى قائده سعد بن أبي وقاص ـ **العقد الفريد** ١/ ٤٠.

(٢) من وصية خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة ـ **الطبري** ٤/ ٥٤.

(٣) من وصية الخليفة عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن وقد وجهه لفتح نهاوند، ٢١هـ.

ولا مجال هنا لمناقشة وجهة النظر هذه بالنسبة للإنسان المؤمن المسلم، فهي تتصل بعقيدة الإسلام والإيمان بقدره وحتمية هذا القدر، ولكن بالإمكان القول إن عقبة قد اتخذ من التدابير كل ما هو ضروري لتأمين الحماية لقواته ولنفسه، وكان بقاؤه مع الساقة يتوافق مع ما تتضمنه العقائد القتالية قديمها وحديثها «**في ضرورة وجود القائد مع القوة المكلفة بتنفيذ الواجب الأكثر خطورة**، ومع القوة المكلفة بتنفيذ الواجب الرئيسي، وكانت الساقة هنا هي التي تضطلع بالواجب الرئيسي، فكان من الطبيعي أن يبقى مع هذه القوة، بل إن وجوده مع غيرها كان هو الأمر غير الطبيعي». وكان في بقاء عقبة نوع من المجازفة وضرب من المغامرة، ولكن ماذا يبقى للقائد من صفات القيادة إن هو لم يكن قادراً على اقتحام المجازفة المحسوبة والمغامرة المقدرة. ولا حاجة للقول بأن في استطاعة كل قائد متوسط القدرات والكفاءات اتخاذ القرارات المناسبة، ولكن قلة هم القادة الذين يضعون قراراتهم ويشرفون على تنفيذها ويستطيعون الموازنة بين الهدف وبين المجازفة باقتحام خطر محتمل تثبت الظروف القتالية صحة وجوده أو عدم وجوده، وكان القائد عقبة بن نافع نموذجاً لهذه القلة التي عرفها تاريخ الحرب. ويكفي القول إن عقبة بسلوكه قد حدد المكان الصحيح لوجود القائد قبل أن تنص التعليمات القتالية وعقائد الحرب الحديثة على مكان القائد بأكثر من ألف عام.

ب ـ عقبة بن نافع
وقوات العرب المسلمين

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء/٧٣] صدق الله العظيم...

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

وهكذا فرض الله تعالى القتال على المسلمين، فانطلقوا من جزيرتهم، يحفزهم الإيمان العميق لتحقيق النصر أو الشهادة، وتلك هي الميزة الأولى والأخيرة التي ميزت جيوش العرب المسلمين عن بقية الجيوش في القديم والحديث. وقد قاد عقبة بن نافع جيشاً من جيوش المسلمين، وحقق بقيادته نصراً بعد نصر، حتى «أخضع أفريقية كلها»، ولم يكن ذلك ممكناً لولا وجود بعض من العوامل المشتركة بين القائد وجيشه وفي طليعتها «الاستعداد الدائم للقتال». فقد خرج العرب المسلمون من جزيرتهم، وقد حددوا هدفهم، وعرفوا مبلغ ما يتطلبه تحقيق هذا الهدف من تضحيات، وكانوا على استعداد كامل «لشراء الحياة الدنيا بالآخرة»، وهذا ما يوضح سبب استعدادهم الدائم للقتال.

لقد برهن تاريخ الحرب أن باستطاعة القائد العظيم تكوين الجيوش وتنظيمها وقيادتها نحو النصر، ولكن ليس باستطاعة كل قائد الاضطلاع بهذا الدور وممارسته. وكان عقبة قائداً عظيماً استطاع تنظيم جيشه وقيادته في ظروف أقل ما يقال فيها أنها ظروف غير عادية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قلة من الجيوش قديمها وحديثها هي التي استطاعت تكوين أجهزة قيادية، أو دعم القيادات والتجاوب معها بعمق لتحقيق النصر، وكانت جيوش المسلمين من هذه القلة، وهذا ما يوضح ظهور «كادرات» قيادية كثيرة، وظهور جيش من القادة

العظام كلهم على مستوى عال من الكفاءة القيادية، فكان عقبة قائداً في جيش قادة العرب المسلمين، **وهذا التوافق بين الاستعداد الدائم للقتال عند القوات والكفاءة العالية عند القادة** هو الذي كان يحقق النصر.

لقد كان عقبة بن نافع قائداً على درجة عالية من القدرة والكفاءة، ولكن هل كان باستطاعة عقبة تحقيق مثل تلك الانتصارات والوصول إلى مثل تلك النتائج، لو لم يتوافر له جيش مثل جيش المسلمين في المغرب العربي؟. إن القادة هم المنارات في حياة الشعوب، وهم الذين يحققون للشعوب تطلعاتها، ولكن إذا لم تكن هناك تطلعات لهذه الشعوب فهل بإمكان القادة الاضطلاع بدورهم؟ ولقد جاء الإسلام فوضع للأمة العربية تطلعاتها وحدد لها أهدافها فتكونت قاعدة من المؤمنين المسلمين المجاهدين، تفاعلت عن ظهور قادة لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في كفاءتهم وعددهم حتى استطاعوا فتح العالم القديم في فترة لا تزيد عن الثمانين عاماً.

«ويطرح هذا الموقف حقيقة رائعة، وهي أن جيشاً من الأسود لا يستطيع حمل قيادته إلا قائد متميز، لا سيما في عهد كانت ممارسة القيادة فيه تتطلب وجود القائد في المقدمة لتوجيهها لا البقاء في الخلف لدفعها، وفي مثل هذا الموقف فإنه ليس بإمكان القائد قيادة القوات إلا إذا كان من أكثر أفراد القوات كفاءة، وأوفرهم شجاعة، وأشدهم صبراً على المكاره، وأقواهم في احتمال مصاعب القتال، وأذكاهم في التوافق مع الظروف المحيطة، وأعمقهم إيماناً بالهدف. وهنا، وعلى ضوء هذه الحقيقة تظهر الحقيقة لقادة العرب المسلمين وفي طليعتهم قائد فتح المغرب العربي، عقبة بن نافع الفهري القرشي».

لقد كان جيش العرب المسلمين في المغرب ضعيفاً في عدده، قوياً في إيمانه يجابه حشداً من القوى المتفوقة، ولم يكن باستطاعته الصمود وخوض الصراع المستمر لو لم يكن جيش العرب المسلمين على استعداد دائم للقتال. ولكن هذا الاستعداد لم يكن ليحقق أهدافه لو لم يوجه الوجهة الصحيحة، وهذا هو الدور الكبير الذي اضطلع به عقبة بن نافع القائد العربي والذي كتب له الخلود. وقد كان التفاعل الكامل بين قيادة عقبة بن نافع وبين مجموع قوى المسلمين، وكفاءة القائد عقبة في تكييف المعطيات الاستراتيجية وتطبيق مبادئ الحرب بما يتوافق مع متطلبات مسرح العمليات، هو أروع ما في صفحة فتح المغرب العربي، خلال ولاية عقبة.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

لا تقاس قوة الجيوش بعددها أو بما يتوافر لها من وسائط، وإنما تقاس بقوة الجيوش وتسليحها مرفوعاً إلى قوة مجهولة هي القوة «س»، ويعبَّر عن هذه القوة بالروح المعنوية. وإذا كانت هناك جيوش في الدنيا قد قاتلت اعتماداً على قوة هذا العامل المعنوي فهي جيوش العرب المسلمين. وكانت الروح المعنوية العالية للعرب المسلمين هي الثقل المقابل لما كان يتمتع به أعداء المسلمين من تفوق في القوى والوسائط، وإذا استعرضت وقائع المسلمين وأيامهم منذ ظهور الدعوة الإسلامية وحتى أقصى ما وصلت إليه فتوحهم عام ٩٣هـ، حيث أمكن لموسى بن نصير فتح الأندلس ولقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي فتح حدود الهند والصين، فإن مقارنة ميزان القوى في المعارك جميعها لم تكن لصالح المسلمين، وكان تفوق أعداء المسلمين يتراوح بين واحد إلى خمسة وحتى واحد إلى عشرة، وقد حقق المسلمون انتصاراتهم في معاركهم جميعاً، وحطموا موازين القوى وجعلوها لصالحهم بفضل إيمانهم وروحهم المعنوية العالية، وكانت الروح المعنوية عند العرب المسلمين تعتمد على معطيات ثابتة، وفي طليعتها:

١ ـ الإيمان بالهدف والاستعداد للتضحية حتى بلوغه، واحتمال الصعاب والمشاق لنيل إحدى الحسنيين، النصر أو الجنة. وكان هذا الإيمان هو الحافز الأقوى للروح المعنوية العالية.

٢ ـ الإيمان بأخوة السلاح، وأخوة الإسلام في الجهاد، وهو ما يصوره الرسول الأعظم في حديثه: (**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على سواهم**).

٣ ـ الإيمان بضرورة الانقياد للقائد والثقة به بدون حدود سوى طاعة الله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وكانت هذه الطاعة والانضباط العميق من العوامل التي ساعدت القيادات العربية الإسلامية في الهيمنة على القوات وتوجيهها نحو أهدافها.

فإذا كان هذا الموقف العام بالنسبة للعرب المسلمين، فقد كان لعقبة بن نافع وجيش العرب المسلمين في المغرب العربي موقف خاص يتميز عن الموقف العام. هذا الموقف الخاص هو ضعف جيش العرب المسلمين عددياً حتى

بالمقارنة مع قوة جيوشهم على الجبهات الأخرى، وإن إيضاح هذا الموقف يتطلب عودة إلى بداية تطور الجيوش العربية. ففي غزوة العسرة، حشد الرسول القائد أقصى قوة ممكنة عند التوجه إلى تبوك، وتشير المصادر التاريخية إلى أن قوة هذا الجيش لم تتجاوز الثلاثين ألفاً. وفي موقعة اليرموك حشد أمير المؤمنين أبو بكر كل ما يستطيعه، فكان عدد جيش المسلمين في حدود ٣٨ ألفاً يقل عن ذلك أو يزيد قليلاً. وفي موقعة القادسية لم يكن جيش سعد ابن أبي وقاص يزيد على ٢٢ ألفاً. وفي موقعة نهاوند «وكانت عام ٢١هـ ـ أو عام ١٩هـ»، وفق ما تذكره بعض المصادر، أمكن حشد ٣٠ ألفاً من المسلمين. وإذا استثنينا الحملات التي كان يقودها ولاة مصر والتي كانت لا تزيد على عشرين ألفاً، ثم لا تلبث هذه الحملات أن تعود إلى مصر، فإن جيش عقبة بن نافع كان **لا يزيد على عشرة آلاف**. ووفق هذا المضمون، فقد اعتبرت جبهة المغرب جبهة ثانوية، من وجهة نظر الدولة العربية الإسلامية، وأعطيت الأفضلية إلى الجبهات القارية التي كانت على اتصال بري بالدولة. فإذا عرف ذلك، وعرف أن جبهة المغرب العربي لم تكن أقل في قوتها من الجبهة الشرقية «فارس»، وإذا عرف أيضاً عزلة بقية الجبهات عن المؤثرات الخارجية، ووجود هذه المؤثرات في جبهة المغرب بسبب اتصال الروم «البيزنطيين» بها وتحريضهم أهلها على حرب المسلمين، أمكن إيضاح الموقف الخاص لعقبة بن نافع والمتمثل بقلة القوة العددية لجيش العرب المسلمين وضعفه في مواجهة التحديات المفروضة عليه، وللأعباء الملقاة على عاتقه، والتي لم يكن هناك من وسيلة للتغلب على هذه العقبات جميعها ومعالجة نقاط الضعف كلها إلا بالروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

القتال كره، صعوبة ومشقة، ولكنه وسيلة عادلة عندما يكون الهدف نبيلاً. ولقد أهلت الطبيعة الإنسان العربي على احتمال كره القتال، وصعوبته ومشقته، ولقد برهن تاريخ الحرب في أكثر من مرة على أن النصر في الحرب يقف إلى جانب الطرف الأقوى على احتمال كره القتال ومن يكون أكثر صلابة وقسوة.

لقد اجتازت جيوش العرب المسلمين، من قواعدها في الجزيرة العربية إلى أهدافها في أقصى بلاد الشام شمالاً وفي أقصى الهضبة الإيرانية شرقاً وحتى الأطلسي غرباً، آلاف الكيلومترات. وحقيقة أن جميع القوى لم تشترك في هذه

المسيرة الكبرى بل إن قوة من القوى عملت على كل جبهة من الجبهات. وصحيح أيضاً أن هذه المسيرة الكبرى لم تحدث في حقبة زمنية واحدة وعلى مرحلة واحدة، ولكن كم هي بعيدة مسافة هذه المسيرة حتى على القوة الواحدة في الجبهة الواحدة خلال فترة محددة، وعلى سبيل المثال تلك المسيرة التي قطعها عقبة بجيش الشام من دمشق حتى القيروان في مرحلة واحدة، ثم الحملة التي أعقبتها من القيروان إلى المحيط جيئة وذهاباً، ولم تكن ظروف مسيرة هذه الحملة ظروفاً سهلة بعيدة عن المشاق بل اعترضتها أهوال كبيرة ومعارك ضارية «حتى حسب المسلمون أنه الفناء». وكانت وسائط التحرك في تلك المسيرات والحملات هي الخيول والدواب، وكان على الفارس المقاتل بعد تجاوز كل مرحلة بذل جهد للعناية بالخيول وتأمين الموارد الحياتية، ثم القيام بأعمال الحراسة وتطبيق تدابير الحيطة، من إرسال مفارز استطلاع ودوريات، وذلك وحده كاف لاستنزاف القوى من دون دخول في قتال أو التعرض لاشتباك، فإذا أضيف إلى ذلك كره القتال ظهر مقدار ما كان يتميز به المقاتل العربي من كفاءة بدنية عالية وقدرة على تحمل الصعاب.

وقد استغرقت حملة عقبة الأخيرة زهاء السنة، كانت كلها مسيرات طويلة، ومعارك متصلة، وصراع مرير واحتمال لظروف الحياة القاسية، وتبدل الأحوال الجوية ما بين العمل في مناطق السهول والجبال والصحارى والسواحل مع ما يرافق ذلك من اختلاف كبير في درجات الحرارة وفي تبدل المناخ، وهذا أيضاً كاف وحده لاستنزاف قوة أقوى الرجال. وما كان أغنى المسلمين عن احتمال هذه المشاق كلها واقتحام هذه الأخطار جميعها لو كان هدفهم الحصول على الدنيا، فلو كانت الحاجة للعيش هي التي دفعتهم لكان لهم في الشام والعراق ما يكفيهم مؤونة الحياة الدنيا ويوفر لهم من العيش أرغده، ولكن حافزهم العقائدي هو الذي دفعهم إلى إنجاز ما حققوه، فتركوا الدنيا وراء ظهورهم، وحملتهم كفاءتهم البدنية العالية وقدرتهم على تحمل الصعاب يقتحمونها، وإلى عالم الخطر فلا يرهبونه بل يخضعونه، وبذلك استطاعوا رفع منارات خالدة أبد الدهر.

لقد كانت الروح المعنوية العالية للمسلمين هي أول عدتهم في الحرب، وكانت الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب هي الوسيلة التكميلية لتحقيق نوازع الروح المعنوية العالية وتنفيذ تطلعاتها وأهدافها، ولولا توافر هذه

الكفاءة البدنية العالية لأصبح من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، على عقبة وأصحاب عقبة، تجاوز تلك المسيرة الطويلة واقتحام تلك المصاعب واحتمال كل تلك المتاعب والمشاق، ولقد برهن هذا العامل على أهميته وقيمته حتى بالنسبة للحروب الحديثة حيث أصبحت وسائط النقل والتحرك براً وبحراً وجواً تتجاوز آلاف الكيلومترات في فترات قصيرة، ورغم توافر هذه الوسائط جميعها فإن متاعب المعركة وحدها تتطلب من الكفاءة البدنية ومن القدرة على تحمل الصعاب قدراً كافياً، ولهذا يتم توفير الوسائط لوضع المقاتل في قلب المعركة للإفادة من كفاءته واستثمار قوته لتحقيق هدف الحرب، وذلك وحده يظهر مقدار ما كان يتميز به جند المسلمين عامة وجيش عقبة منهم خاصة من حيث كفاءته البدنية العالية وقدرته على احتمال كره القتال.

٤ ـ عقبة والجهاد في سبيل الله
«أو ما يعرف حديثاً باسم الحرب الشعبية»

لم تكن قوة العرب المسلمين العددية قادرة على احتمال أعباء نشر الرسالة، وممارسة الفتوح بالاعتماد على جزء فقط من هذه القوة، وقد فرض الله تعالى القتال على المسلمين كافة من دون استثناء إلا لسبب واضح وعذر شرعي، فكان من نتيجة ذلك تطبيق مضمون الحرب الشعبية على أوسع نطاق وبأعمق مضمون، ولم يكن هذا المضمون دفاعياً فحسب، بل كان مضموناً دفاعياً ـ هجومياً، وهذا ما يميز الحرب الشعبية عند العرب المسلمين. فإذا انتقلنا إلى عقبة وجيش المسلمين في المغرب، ظهرت الحاجة لتطبيق هذا المبدأ بوضوح أكثر، ذلك أن هذا الجيش، الذي لم يكن يتجاوز في بداية عملياته قوة عشرة آلاف مجاهد، كان مكلفاً بمجابهة قوى وصلت في بعض المعارك إلى ١٢٠ ألفاً، فكان من الطبيعي الاستفادة من كامل القوة وزجها بدون استثناء أحد منها. ورغم تطبيق قادة العرب المسلمين للحرب الشعبية فقد بقيت قاعدة العرب المسلمين في حاجة للدعم، وكان هذا الدعم ممثلاً بتوسيع قاعدة المسلمين لتحميلهم أعباء نشر الإسلام.

فقد جاء الإسلام للناس كافة، وفرض الجهاد على المسلمين كافة، وللوصول إلى هذه الغاية طبق مبدأ «الضم الزاحف» أو «استراتيجية بقعة الزيت» أو «ما يعرف باستراتيجية تقشير الخرشوفة ـ الأرضي شوكي». ولخص عقبة بن نافع

هذا المبدأ بقوله: «ونحن إذا فرغنا ـ من بناء القيروان ـ لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد ـ في أفريقية ـ ونفتح الأول منها فالأول». وبذلك استطاع عقبة تطبيق مبدأ الحرب الشعبية بمضمون متطور، وكان المسلمون من أهل أفريقية هم الدعم الأساسي لقوة العرب المسلمين، ثم لم يلبثوا غير قليل حتى اضطلعوا هم أنفسهم بحمل الرسالة ومشاركة العرب في حمل رسالة الإسلام إلى الأندلس، وإن ما فعله عقبة وما أنجزه هو صورة لما فعله معاوية بن أبي سفيان في الشام، وعمرو بن العاص في مصر، وما فعله سعد بن أبي وقاص في العراق، وما فعله محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي في أقصى المشرق الإسلامي.

وإذا كان تطبيق مبدأ الحرب الشعبية، في تسميته الحديثة وفي مضمونه الحقيقي القديم، هو إحدى استراتيجيات العرب المسلمين عامة، فإن تطبيق هذه الاستراتيجية على مسرح عمليات المغرب العربي، وما أمكن الوصول إليه من نتائج، إنما هو عمل من إبداع عقبة بن نافع وثمرة لما بذله من جهد هو وصحابته والمسلمون جميعاً من دون استثناء. فقد كان المثل الأعلى الذي ضربه عقبة بنفسه، وما بذله الصحابة والمسلمون من جهود لتعريف الناس بحقيقة الدين الإسلامي هو الأساس الذي حقق تلك المنجزات الضخمة، وأرسى القواعد الثابتة للبناء الراسخ، بناء صرح الإسلام.

لقد عرف أهل أفريقية الدين الإسلامي عن طريق عقبة وأصحاب عقبة بالدرجة الأولى، فأحبوا العرب من خلال حبهم لدينهم، وأخلصوا للعرب من خلال إخلاصهم لدينهم، ونشأ عن ذلك النسيج المتلاحم بينهم وبين العرب المسلمين، فاتسعت قاعدة المسلمين، وتطور مفهوم الحرب الشعبية، ما زاد من قوة العرب المسلمين وضاعف من فاعليتها وقدرتها.

كانت الحرب الشعبية من أسس العقيدة القتالية عند العرب المسلمين، وكان تطبيق أسس هذه الحرب والنجاح فيها مرتبطاً بكفاءة القادة، وكان عقبة من القادة الذين برهنوا على كفاءة عالية في استخدام هذا المبدأ بصورة خاصة وتطبيقه وتطويره، ولو لم يحقق القائد عقبة بن نافع من منجزات سوى العمل على ترسيخ دعائم الحرب الشعبية وتوسيع قاعدتها لتشمل المسلمين جميعاً في أفريقية، لكان ذلك كافياً وحده لوضعه في طليعة القادة الناجحين، فإذا وضعت بعد ذلك مجموعة العوامل الخاصة التي تميز بها العمل في المغرب العربي، تجاوز جهد القائد عقبة ومنجزاته حدود التقدير والتقييم.

٥ ـ عقبة وحرية العمل

تميزت قيادة عقبة بن نافع خاصة بقدر كبير من حرية العمل على خلاف ما كان عليه الموقف على مسرح عمليات قتال العرب المسلمين في الجبهات الأخرى، حيث كانت إدارة الحرب فيها خاضعة لنوع من المركزية القوية، وقد يكون ذلك بسبب قوة شخصية عقبة بن نافع القيادية، أو قد يكون بسبب ما عرف عنه من كفاءة قيادية عالية، أو لعل السبب في ذلك هو العاملان معاً، مضافاً إليهما انشغال أمراء المسلمين في إدارة الحكم وإدارة الحرب في ظروف من الاضطراب وتسارع الأحداث، في حين كان عقبة يكفيهم وحده مؤونة العمل على جبهة واسعة، وبعيدة عن مقر الحكم محققاً فيها الاستقرار، عاملاً على تحقيق الهدف المشترك للمسلمين جميعاً، فحصل على ثقة أمراء المسلمين وولاتهم، ما وفر له الحصول على حرية العمل، فانطلق يعمل بوحي من رقابته الذاتية، وإيمانه بالهدف الذي يعمل له ومن أجله. إن ذلك لا يعني أن أمراء المؤمنين قد أغمضوا عيونهم عما كان يحدث فوق مسرح عمليات أفريقية، فهناك شواهد لا نهاية لها مما حفل بها تاريخ العرب المسلمين، وهي تبرهن كلها على قوة رقابة الدولة ومتابعتها لأعمال الولاة والقادة أينما كانوا، وقد كانت هذه الرقابة تصل أحياناً حتى حدود متابعة السلوك الشخصي للولاة والقادة وأمراء جند المسلمين، ولكن سلوك عقبة كان فوق الرقابة، كما كانت قيادته فوق مستوى النقد، ولهذا لم يظهر لرقابة الدولة على أعماله أو تدخلها في شؤونه أي أثر، وتعتبر هذه الظاهرة في حد ذاتها برهاناً ساطعاً على كفاءة عقبة القيادية، كما تعتبر برهاناً أيضاً على سلوك عقبة بن نافع الذي ارتفع فوق حدود الشبهات.

إن ممارسة القيادة في إطار من حرية العمل يتطلب، علاوة على الرقابة الذاتية، إرادة قوية للعمل، كما يتطلب وضوحاً في الرؤيا، وقدراً غير قليل من تحمل المسؤولية، وهو ما لا قِبَل لأحد من الرجال باحتماله سوى قلة منهم تعرف باسم «كبار القادة» أحياناً، و«القادة العظام» أحياناً أخرى، و«القادة الناجحون» في كثير من الأحيان. وتظهر سيرة عقبة بن نافع القيادية أنه كان من النوع الذي يعرف هدفه جيداً، ويعمل على ما يستطيع لتحقيقه، ويحس بالمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه، ويتحمل برجولة فائقة نتائج أعماله،

وحرية العمل بعد ذلك هي النقيض للمركزية في العمل. وتتطلب المركزية كأساس لها توافر وسائط متطورة للرقابة والسيطرة، ولم يكن ذلك متوافراً بسبب بعد المسافة، وقد يكون هذا العامل في جملة العوامل التي ساعدت على منح عقبة بن نافع حرية العمل كاملة.

ولعل مما تجدر ملاحظته، هو أن القاعدة القيادية عند أمراء المسلمين هي منح حرية العمل إذا ما تطلب الموقف ذلك، والاكتفاء بتحديد الهدف مع توصيات عامة، فإذا ظهر أن القائد دون مستوى المسؤولية، تم عزله فوراً. فقد عزل الخليفة أبو بكر قائده خالد بن سعيد عندما أثبت هذا عدم قدرته على ممارسة دور القيادة بنجاح، كما عزل الخليفة عمر قائده شرحبيل بن حسنة عن قيادة الأردن وولايتها «ولم يكن ذلك عن سخطة، وإنما لاختيار قائد أكثر كفاءة من قائد». .

ويظهر ذلك كله توافر الشروط الكاملة للقائد في شخص عقبة بن نافع مما لم يترك مجالاً لتدخل أمير المؤمنين في شؤون قيادته، فاستمر في العمل للوصول إلى هدفه ضمن إطار حرية العمل الكاملة. وإذا برهن ذلك كله عن شيء، فإنما يبرهن على أن القائد عقبة كان في سلوكه الخاص وسلوكه العام، نموذجاً للقائد العربي المسلم الذي يعمل بوحي من إيمانه وعقيدته، وبتوجيه من رقابته الذاتية، ويعني ذلك أيضاً أنه لم يكن للقائد عقبة سلوك شخصي خاص يؤثر على سلوكه العام في قيادته، وهذا ما ضمن له حرية العمل التي ساعدته على تحقيق منجزاته.

٦ ـ الانضباط والطاعة

يختلف مفهوم الانضباط اختلافاً كبيراً بين العقائد القتالية المعاصرة، وهو يختلف أيضاً في مضمونه بين عصر وعصر وبين أمة وأمة. ويتلخص مفهوم الانضباط في العقيدة القتالية عند العرب المسلمين بالانقياد الكامل لأوامر القائد وتعليماته طالما أن هذه الأوامر والتعليمات لا تتعلق بالمعتقدات (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وهذه هي الحالة الوحيدة التي يحق للمرؤوس فيها الخروج عن إرادة القائد والتمرد على تنفيذ أوامره، ويستمد القائد سلطته الروحية، كما يستمد دعمه المادي، من قائده الأعلى أو من أمير المؤمنين، ويكون الحكم في ممارسة القيادة هو الالتزام بعقيدة الإسلام الدينية، وتعاليمها المتكاملة في القيادة وفن الحرب.

يوضح ذلك جانباً من جوانب القيادة عند عقبة بن نافع، **فقد كان يحرص على فرض الانضباط بمفهومه الأبوي**، ويطلب الطاعة ويشدد عليها. وكانت قوة شخصيته وخلقه القويم عوناً له في فرض الانضباط، ويوضح ذلك أيضاً سبب نقمته وغضبه لعزله بدون سبب يتطلب ذلك، وزاد الأمر سوءاً ما لقيه من إجحاف في المعاملة، فاجتمع في نفسه إباء العربي الذي يكره الظلم ـ وقد كان في عزله ومعاملته ظلم كبير ـ مع المخالفة لمضمون الانضباط وفق المفهوم العقائدي للإسلام طالما أنه لم يرتكب من الأخطاء ما يقتضي العزل، وتركز الغضب على «أبو المهاجر دينار» الذي كان وسيلة هذا الظلم وأداته، وليس بالإمكان اعتبار هذا السلوك نقطة ضعف تؤخذ على عقبة، فهو إنسان قبل كل شيء وليس نبياً له خلق الأنبياء والرسل حتى يترفع عن الغضب، ويتجاوز الإساءة ليقابلها بنقيضها، ورغم ذلك، فإنه في لحظة العسرة، لم ينكر على «أبو المهاجر دينار» كفاءته القيادية، وأنه أفضل خلف له، فقام يطالبه وهو يفك قيوده باللحاق بالمسلمين والقيام بأمرهم، **وهذ يدل على أنه لم يكن، حتى في أقسى الظروف وأصعبها، يترك لعواطفه حرية التدخل في قراراته القيادية.**

ولقد كان الانضباط الذي فرضه عقبة في الواقع هو من العلامات المميزة لقيادته بصورة خاصة، فقد عرفت جيوش العرب المسلمين بانضباطها الحازم، وهيمنة القادة القوية على قواتهم، لكن عقبة القائد تجاوز قادة العرب في هذه الناحية، وليس هناك كثرة تماثله في أسلوبه بين قادة العرب سوى «أبو عبيدة بن الجراح» وموسى بن نصير، ولعل التشابه في صفات هؤلاء القادة، وظهورهم في فترة متقاربة إنما يعود إلى إدراكهم الموحد لمضمون عقيدة الإسلام القتالية وإلى صفاتهم الشخصية وما تميزوا به من خلق كريم، ولذلك فقد كانت قيادتهم، رغم حزمها وشدتها، محببة إلى نفوس المجاهدين وقلوبهم، وكان لهذه المحبة دورها في انقياد الرجال طواعية لتعليماتهم وأوامرهم، ومما يسترعي الانتباه في سلوك هؤلاء القادة أيضاً أنهم كانوا هم أنفسهم نموذجاً للانضباط والطاعة بالنسبة لقادتهم، أمراء المؤمنين، وإذا كانت مقولة «فاقد الشيء لا يعطيه» صحيحة، فإن انضباط هؤلاء القادة كان هو المورد الذي يستلهمون منه سلوكهم وأسلوبهم في فرض الانضباط والطاعة.

وهنا لا بد من القول أيضاً إن الانضباط والطاعة في عقيدة العرب المسلمين القتالية مرتبط بمجموعة من المعطيات العامة، والكفاءات الخاصة للقادة، وفي

مجال المعطيات العامة «تدخل قضية الالتزام بالأسس الاستراتيجية والتطبيق الصحيح لمبادئ الحرب»، أما في مجال كفاءات القادة الشخصية فتدخل العوامل المعنوية والكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب والشجاعة في مواجهة الخوف واتخاذ القرارات الصحيحة، وكان توافر ذلك كله في شخص عقبة القائد هو الذي جعل له شخصية مميزة في مجال الانضباط وفرض الطاعة التي حملت له رهبة الخصوم واحترام المجاهدين في سبيل الله.

بقيت بعد ذلك أكثر من نقطة تستحق الوقوف عندها؛ فلقد أثارت حياة عقبة القيادية في القديم والحديث الكثير من الجدل والحوار، بعضها مؤيد لمواقف القائد عقبة وبعضها معارض لهذه المواقف، وقد يتطلب الأمر أكثر من مجرد التأييد أو المعارضة، إنه يتطلب إيضاحاً لمضامين النقاط المثيرة للجدل وأبرزها:

١ ـ موقف عقبة في حرب الحركة.

٢ ـ موقف عقبة القيادي وسلوكه في مجابهة بعض الحالات: موقفه من كسيلة ومن «أبو المهجر دينار».

ولقد سبقت معالجة هذه النقاط في بعض فقرات البحث، ولكنها تتطلب مزيداً من الضوء لمعالجتها في إطار مستقل.

لقد قدمت حرب الحركة في العصر الحديث، وبصورة خاصة خلال الحرب العالمية الثانية، سواء على مسرح العمليات الأفريقي (عمليات رومل ومونتغومري) أو على مسرح عمليات الغرب (غودريان) كثيراً من البراهين على صحة إجراءات القائد عقبة بن نافع وتدابيره في حرب الحركة، وعلى هذا فقد يكون من الأفضل معاودة دراستها بما تستحقه من إسهاب وتفصيل.

جـ - عقبة وحرب الحركة

تحتل عملية التقدم التي قادها عقبة بن نافع ما بين القيروان والبحر المحيط «الأطلسي» نموذجاً لحرب الحركة في مضمونها الحديث، وهي ذات طابع مميز تنفرد به عن حركة الإسكندر المقدوني عندما هاجم بلاد فارس[1]، وذلك لوجود التفوق بالقوى والوسائط لصالح الإسكندر، كما تتميز حركة عقبة عن حركة القائد هانيبال «هانيبعل»[2] أيضاً بوجود نوع من التوازن في القوى والوسائط لصالح هانيبال. وهكذا تكتسب حرب الحركة عند عقبة بن نافع أهمية خاصة في التاريخ العسكري، نظراً لاعتماد عقبة في حروبه على عامل معنوي وعلى أسس استراتيجية، ومبادئ عملياته تجعل موضوع التفوق في القوى والوسائط في مرتبة لاحقة وليس في مرتبة سابقة عند التخطيط للعمليات، وعند تنفيذها. ومهما كان عليه الموقف، فقد كان توغل عقبة العميق، بقوى ووسائط محدودة، موضع نقد في القديم والحديث. ففي القديم كان في جملة من وجه النقد إلى عقبة القائد العربي موسى بن نصير، حيث علق على عملية عقبة بقوله: «**لقد غرر عقبة بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟**». ولكن موسى بن نصير كاد يجابه الموقف ذاته عندما أوغل في تقدمه وجاوز سرقسطه «ساراغوسا»، واشتد ذلك على الناس وقالوا: «أين تذهب بنا، حسبنا ما في أيدينا». فتقدم حنش الصنعاني من موسى وقال له: ألست أنت القائل عندما ذكر عقبة بأنه «كان قد غرر بنفسه حين وغل في بلاد العدو، والعدو من يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه»، أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم. فضحك موسى وهو يقول: «أما والله لو

---

(١) حدثت قبل ذلك معركة ماراتون الشهيرة، بين اليونان والفرس عام ٤٩٠ق.م. وكانت كذلك نموذجاً لحرب الحركة. ثم جاء الإسكندر عام ٣٣٤ق.م، فقاد (٤٠) ألف مقاتل وفتح سوريا ومصر، ثم توغل في فارس وخاض معركة أربيلا ضد القائد الفارسي داريوس وانتصر عليه.

(٢) حيث حدثت موقعة كاني عام ٢١٦ق.م. وكان ذلك بعد حركة استدارة واسعة عبر الأندلس، شمالي إيطاليا (روما)، قام بتنفيذها هانيبال في ظروف صعبة وقاسية.

انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية ـ روما ـ ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله».
ويظهر ذلك أن طموح القادة العرب المسلمين لتحقيق الهدف الكبير كان فوق مستوى التحديات، فكانت المجازفة المحسوبة ضمن احتمالات القادة، وكانت النجاحات الرائعة والإنجازات العظيمة التي حققتها قوات العرب المسلمين من بعض الحوافز لتحقيق مزيد من الانتصارات واقتحام مزيد من المجازفات على مختلف جبهات القتال.

لقد أوغل عقبة بن نافع في تقدمه بدون ريب، وكان حجم القوى والوسائط في جيشه أقل بكثير من متطلبات مسرح العمليات، ما جعل عملية التقدم بالعمق تكتسب نوعاً من المخاطرة، وكان علاج هذا الموقف يتطلب اللجوء إلى واحد من حلين:

١ ـ ترك قوة من جيش المسلمين عند كل مقاومة للتعامل معها والعمل على تصفيتها مع متابعة التقدم، وكان ذلك يتطلب بالضرورة قوات ضخمة لتصفية جيوب المقاومة قبل تجاوزها أو حتى بعد تجاوزها، ولم يكن ذلك ممكناً لعدم توافر القوى والوسائط الكافية في جيش عقبة، ولتناقض ذلك من مضمون «الاقتصاد بالقوى»، وهو ما كان عقبة حريصاً على تحقيقه والالتزام به في القسم الأكبر من معاركه.

٢ ـ التوقف عند كل مقاومة حتى تصفيتها، ثم الانتقال إلى غيرها مع ما يتطلب ذلك من تناقض مع مضمون حرب الحركة، ومع مضمون العقيدة القتالية للعرب المسلمين، بل حتى مع طموح العرب المسلمين وتطلعاتهم، ومن هنا يظهر التناقض بين مضمون «**حرب الحركة**» و«**حرب المواقع**». وكان الأمر الطبيعي أن يقدم عقبة على اللجوء إلى الاختيار الأول، أي أن يلجأ إلى حرب الحركة مع ما فيها من مجازفة محسوبة، والابتعاد عن «حرب المواقع» مع ما فيها من ضمان لشروط الأمن والحيطة، وعلى هذا كانت حرب الحركة والتقدم بالعمق واحتمال المجازفة ظاهرة طبيعية في قيادة عقبة.

إن ظاهرة التقدم في العمق عند عقبة بن نافع، تجد لها ظاهرة مماثلة في الحرب الحديثة في تقدم الألمان حتى عمق الاتحاد السوفييتي عند تطبيق خطة «بربروسا». فقد كانت الأراضي الروسية واسعة جداً، وتندر فيها المواصلات، فبقيت مساحات هائلة من الغابات أو المستنقعات ممتنعة على القوات الآلية الألمانية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت الجبهة الألمانية تتحرك بسرعة كبرى إلى الشرق، وبمعدل ألف كيلومتر خلال بضعة شهور، فكانت الكثافة القوية للقطعات

الألمانية تتحرك باتجاه الشرق مخلفة وراءها جيوباً للمقاومة، وقد أخذت هذه الجيوب في التلاحم وزيادة قوتها، ما دفع القيادة الألمانية أن تخصص، في منتصف عام ١٩٤٣م، ما يعادل قوة ٥٠٠ ألف رجل لحماية مؤخرتها، ويظهر بوضوح أن التشابه لا يقتصر على «نوعية التقدم بالعمق» وإنما يتجاوزه إلى التشابه في طبيعة مسرح العمليات، وطبيعة التقدم وحتى سرعته، «ألف كيلومتر خلال بضعة شهور». ولكن هناك نقطة اختلاف أساسية هي حجم القوى والوسائط المستخدمة التي كانت متوافرة للقوات الألمانية، وقلة هذه القوى والوسائط بالنسبة لجيش المسلمين الذي كان يقوده عقبة. ويبقى العامل الحاسم في الموقفين واحد، وهو الوصول إلى الهدف، رغم ما يحمله الوصول إلى الهدف من مجازفة ومغامرة. ولقد كان الهدف مختلفاً بالنسبة للموقفين؛ فقد كان معنوياً بالنسبة للعرب المسلمين «نشر الإسلام»، وكان مادياً بالنسبة لألمانيا النازية «وهو الوصول إلى العمق الاستراتيجي والإفادة من إمكانات الاتحاد السوفياتي وموارده». وعلى الرغم من اختلاف الهدف أيضاً فقد كانت الخطة الاستراتيجية واحدة وهي **الوصول إلى العمق الاستراتيجي عن طريق حرب الحركة**.

وتجد حرب الحركة عند عقبة بن نافع أيضاً ما يماثلها في تاريخ العرب المسلمين عند القائد خالد بن الوليد، ولكن، رغم التشابه في موقف القوى وفي الهدف السياسي والأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب، هناك اختلافات جذرية بين موقفي القائدين، أولها أن خالداً كان يعمل وهو على اتصال ببلاد المسلمين؛ بينما كان عقبة بن نافع منقطع عن بلاد المسلمين، فكان سيل الدعم متوافراً للأول وغير متوافر للثاني، وكان خالد يعمل على جبهة رئيسية بينما كان يعمل عقبة على جبهة ثانوية، وكان خالد يعمل في وسط مجموعة من القادة يضعون حداً لاندفاعاته، مثل موقف «أبو عبيدة بن الجراح» عام ١٧هـ عندما رفض مجابهة هجوم الروم المعتاد على حمص وانتظر دعم الخليفة، بينما كان خالد يطالب بالالتحام فوراً مع قوة الروم رغم الفارق الكبير في القوى، وقد عولجت هنا قضية الروم المتعاونين في تقدمهم مع القبائل العربية الموالية لهم «مثل قبائل إياد ونزار» على المستوى السياسي والاستراتيجي بتخطيط من أمير المؤمنين ذاته «عمر بن الخطاب»، بينما كان عقبة مطلق الحرية في العمل، وكانت هذه الفوارق الجذرية من العوامل التي يجدر وضعها عند المقارنة.

وعلى هذا فإن تقدم عقبة، وما نتج عن ذلك من ظروف مأساوية دفع القائد

عقبة بن نافع حياته ثمناً لها، لا يعتبر خطأ فردياً من عقبة، أو تناقضاً مع مبادئ الحرب، أو تقصيراً في التخطيط للعمليات أو حتى قصوراً عن الرؤية الشاملة للموقف، وإنما كان نتيجة لمجموعة معقدة من العوامل المتشابكة سبق إيضاح قسم كبير منها بما يتوافق مع الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب في عقيدة القتال عند العرب المسلمين.

هناك بعض العقائد القتالية تضع مسؤولية الفشل على القائد للمحافظة على قدسية المبادئ والأسس المعتمدة للحرب، وهناك عقائد أخرى تضع الفشل على عاتق صدفة الحرب الخارجة عن كل تخطيط، وهناك عقائد أيضاً تحتمل نصيبها من الفشل، ولكن، وفي موقف عقبة، فإن الفشل يقع على مجموعة هذه العوامل. وعلاوة على ذلك فهناك نقطة غير واضحة فيما سجلته كتب التاريخ العربي حول عمليات عقبة القتالية، ولكن الشواهد تشير إلى أن عقبة، عندما أوغل في تقدمه، قد وضع في اعتباره احتمال دعم المسلمين من أهل البلاد، ولا ريب أنه تلقى مثل هذا الدعم، ولكنه كان دعماً في جميع الأحوال دون مستوى التحديات المفروضة من قبل تحالف الروم والأفارقة، وكان هذا الدعم في حاجة لفترة زمنية أخرى حتى يكتسب مزيداً من القوة وحتى يستطيع فرض وجوده في مسيرة الأحداث وتفاعلاتها.

ومهما كان عليه الموقف، وحتى لو لم تكن حملة عقبة بن نافع الأخيرة سوى غزوة استطلاعية لاكتشاف مسرح العمليات بكامله، وتكوين فكرة شاملة عنه، لكان ذلك جديراً بالمجازفة. ولعل ما يزيد من أهمية عملية عقبة هو أنها كانت البداية لتقدير شامل للموقف، فقد وضع القادة بعد ذلك الأساس الحاسم لنجاح العمليات وهو عزل الروم وتطويقهم داخل حدودهم وتصفية قواعدهم من المغرب العربي، والسيطرة على الجزر القريبة في غرب بحر الشام، «البحر الأبيض المتوسط»، وزيادة أساطيل القوة البحرية الإسلامية ما وفر الفرص المناسبة لمتابعة الفتوح. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مأساة تهوذة واستشهاد عقبة ومن بعده زهير بن قيس البلوي لم تكن عديمة الفائدة، أو بدون جدوى، فقد أفاد المسلمون بعد ذلك من المعلومات التي توافرت لديهم، وأصبحت معرفتهم بأفريقية أكثر عمقاً وأكثر شمولا، ومن هذه الناحية فقط تعتبر حملة عقبة «عملية استطلاع بالقوة ذات نتائج رائعة»، حتى لو لم تحقق هذه العملية نتيجة مباشرة، وحتى لو لم يفد منها القائد الذي قام بتنفيذها.

د ـ في القيادة

عرَّف الحكيم سقراط القائد الناجح بقوله: «هو القائد الذي يعرف كيف يوصل إلى رجاله المؤن اللازمة للحرب، ويجب أن يكون له الخيال القادر على وضع الخطط، والحس العملي والطاقة الكافية لتنفيذها، ويجب أن يكون دقيق الملاحظة، ثاقب الذكاء، لا يتعب ولا يكل، يجمع بين اللطف والقسوة، والبساطة والشدة، ويحسن المراقبة واغتنام الفرص. يجب أن يكون سخياً ومقتراً، كريماً وضنيناً، متهوراً ومتروياً (مكيثاً). كل هذه الصفات وصفات أخرى كثيرة غيرها، من فطرية ومكتسبة، يجب أن تجتمع فيه. وعليه أيضاً، بشكل طبيعي، أن يعرف فن التنظيم الحربي لأن مجموعة من الرجال الذين تسودهم الفوضى لا يمكن أن تسمى جيشاً، إلا إذا اعتبرنا أن كومة من مواد البناء هي منزل جاهز».

لا حاجة للقول بأن سقراط، في تعريفه للقائد الناجح، كأنما كان يضع وصفاً لقادة العرب المسلمين عامة ولعقبة بن نافع خاصة، ولكن ما لم يركز عليه سقراط في وصفه هو ما تميز به عقبة من قسوة وصلابة في الجسم، وروح معنوية عالية، وقدرات فكرية وخلقية لتحمُّل المسؤوليات الجسام والشجاعة الفائقة وقت الخطر.

إن ما هو مطلوب توافره في صفات القائد، قديماً وحديثاً، هو أن تكون لديه المغامرة وأن يهاجم بشدة عندما تلوح له بوادر الخسارة، رافضاً الغلبة لخصمه، وهذا ما يميز القائد البارز عن القائد العادي. ولقد كان نابليون يقول: «لو كان فن الحرب يوصي فقط بالتصرف الخالي من المخاطرة، لكان المجد تحت رحمة المواهب الضئيلة». ولهذا كان نابليون يسأل دائماً عن القائد «المحظوظ» وكان ما يعنيه حقاً «هل هو بطل؟». إن البطل قد يكون محظوظاً، ولكن القائد لا يمكن ن يكون محظوظاً إلا إذا كان بطلاً؛ **ذلك أن القيادة إذا ارتبطت بالنظم والقيود أضاعت على نفسها الكثير من فرص النجاح**. وهناك الكثير من القادة

الكبار الذين يصلحون لأن يكونوا منفذين ممتازين ما داموا تحت إمرة قائد، ولكنهم يتجردون من العمق المعروف عنهم، وأحياناً يخرجون عن طورهم، إذا ما أُعطوا قيادة مستقلة؛ وهناك قلة من القادة المتميزين بصعوبة المراس وبالقدرة على ممارسة القيادة المستقلة بكفاءة عالية، وقد كان عقبة بن نافع من هذه القلة.

إن هذا الوصف الوجيز والتعريف المختصر للقائد يظهر بالضرورة أهمية دراسة التاريخ العسكري، فالأعمال القتالية والمنجزات الرائعة للقادة إنما هي من عمل الإنسان. إنها عمل يتعلق بالجسم والروح، وليست عملاً مجرداً محدد العلاقة بالأشكال الهندسية أو المعادلات الرياضية أو القواعد والآلات. إنها تتعلق بالرجال، ولعل تلك اللوحة التي علقت في قاعة للمحاضرات تابعة لمدرسة المشاة الفرنسية تصور هذه الحقيقة، حيث حملت تلك اللوحة: «الإنسان هو السلاح الأول للمعركة، فلندرس الجندي في المعركة إذن، لأنه هو الذي يجعلها حقيقة واقعة، **إن دراسة الماضي فقط تعطينا الحس بالحقيقة وتظهر لنا كيف سيحارب الجندي في المستقبل**». فالإنسان هو الإنسان منذ بدء صراعه مع من حوله في العصر الحجري وحتى في العصر الذري، بانفعالاته وأحاسيسه، بمخاوفه وشجاعته في مجابهة الخطر. وعلى هذا، وعند دراسة التاريخ العسكري، تظهر ضرورة تجاوز قضية معرفة الخطوط العامة للاستراتيجية أو مبادئ الحرب للوصول إلى قراءة التراجم، والروايات التاريخية، والمذكرات والتعمق فيها من دون الاقتصار على هيكلها العام.

ووفقاً لهذا المضمون، فإننا إذا طالعنا أعمال عقبة بن نافع، على سبيل المثال، ودرسنا طريقة تقدمه من القيروان حتى المحيط، فإننا نكون قد فعلنا القليل، أما إذا أردنا تعلم شيء له قيمة، فهو في معرفة كيف استطاع عقبة قيادة الرجال، وفيهم من هو أكبر سناً، أو أكثر خبرة، وزجهم في أصعب المواقف وأخطرها، وكيف استطاع عقبة استثارة حماسة آلاف المسلمين من عرب وبربر ودفعهم إلى كره القتل والقتال. وإن كل ما يمكن قوله هو أن عقبة بن نافع لم ينجز ما أنجزه ويحقق ما حققه بدراسة النظم العسكرية والاستراتيجية الحربية، وإنما حقق الخلود بفضل معرفته العميقة للطبيعة البشرية في الحرب، وقد يستطيع قائد من القادة أن يدخل في روع رؤسائه أنه قائد جيد، ولكنه لا يستطيع إقناع جيشه أنه كذلك إلا إذا توافرت لديه الميزات الحقيقية للقائد الجيد. وإن ما سجلته كتب التاريخ وما حفظته من شعور عام بالأسى لاستشهاد عقبة بن

نافع، وما أصيب به جيشه من فراغ كبير نتج عن غيابه، إنما هو برهان نهائي على أن عقبة بن نافع كان من نوع القادة الخالدين.

وبعد، ليست هذه الدراسة بهدف تخليد ذكرى عقبة بن نافع، **فذكراه خالدة ما دام هناك وجود للعرب المسلمين**، وإنما هي محاولة لتسليط بعض الأضواء على حياة عقبة بن نافع القيادية في أسلوب متطور يجعلها قريبة المتناول، قريبة المأخذ. وقد يكون هناك من يأخذ على عقبة هذا الموقف أو ذاك، ومع التسليم بوجود أخطاء في شخص عقبة القائد فإنه يمكن القول بأن تاريخ الأفراد، وحتى تاريخ الشعوب، ليس خيراً كله، وليس شراً كله، ففيه الخير وفيه الشر طالما أنه صورة للطبيعة البشرية للتكوين الإنساني. وفي تاريخنا، تاريخ العرب المسلمين، صفحات مشرقات ونقاط بارزة غير مضيئة ولا مشرقة، ولا تنتقص هذه من قيمة تلك أو تشوهها، ويبقى الحكم الأساس والعامل الحاسم في تقييم المواقف وتقديرها هو فيما تضمنته تلك الأسفار الضخمة من صفحات مشرقة ومنجزات خالدة أبد الدهر. وقد أعطى الأجداد في الواقع نتاجاً ثراً وفيراً في كل مجالات الحياة، علماً وأدباً وفقهاً، ما يحمل الأجيال اللاحقة على أن تفخر حقاً بما صنعه السلف، وأن ترسم خطاهم في **بناء المستقبل المأمول على هدى الماضي ومفاخره وأمجاده**.



خاتمة

ما بعد عقبة

اضطرمت أفريقية ناراً بعد مقتل عقبة، وحدثت فيها انتكاسة، وسيطر كسيلة على المغرب، وأطاعه البربر ومن بقي من العرب، وعندما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية، انصرف إلى معالجة أمر أفريقية، فارسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد، واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم أن يلحقوا بزهير بن قيس البلوي الذي كان مرابطاً في برقة. وقاد زهير بن قيس جيش العرب المسلمين وقاتل كسيلة في معركة ممش[1]، وبعد معركة ضارية انتصر المسلمون وقتل كسيلة وانتهت ثورته. ولكن الروم «البيزنطيين» كانوا يعدون العدة لدعم ثورة كسيلة، فقاموا بإنزال قواتهم في برقة، واصطدم زهير في قلة من أصحابه، بعد عودته من معركة ممش، بقوة الروم، فقُتل زهير واستشهد مع طائفة من أصحابه، وعادت أفريقية تضطرم ناراً، وحدثت فيها ردة تزعمتها في هذه المرة ملكة للبربر تدعى الكاهنة.

استمرت **ثورة الكاهنة** حتى أمكن لعبد لملك بن مروان دعم حسان بن النعمان الأزدي الغساني، فقاد حسان جيش المسلمين وقاتل الراهبة وانتصر عليها في معركة بئر الكاهنة، ثم تابع حسان أعماله القتالية لفتح قرطاجنة وفاس وتقليص نفوذ الروم وتصفية قواعدهم، وبقي الأمر في حالة من عدم الاستقرار الكامل حتى تولى موسى بن نصير (٨٥هـ) أفريقية، فاستقر الأمر نهائياً للمسلمين.

استمرت ثورة كسيلة سبعة أعوام تقريباً (٦٣ ـ ٧١هـ/ ٦٨٢ ـ ٦٩٠م)،

(١) ممش: تقع في الجزائر، في الهضبة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من جبال أوراس.

واستمرت ثورة الكاهنة بعد ذلك حتى عام (٨١هـ/ ٧٠٠م)، وبقي نفوذ الروم قوياً حتى استطاع حسان بن النعمان، ومن بعده موسى بن نصير، تصفية قواعد الروم في أفريقية، وقطع الاتصال مع قاعدة العدوان الأساسية «بيزنطة»، بفضل تطوير أسطول العرب المسلمين وبناء القوة البحرية في ثلاثة قواعد «طرطوس ـ الإسكندرية ـ تونس»، والهيمنة على بحر الشام «البحر الأبيض المتوسط»، وعزل جزائر غرب المتوسط، وحصر أسطول الروم في قواعده «القريبة من القسطنطينية». وبذلك أمكن للعرب المسلمين تنسيق التعاون بين عملياتهم القارية «البرية» وعملياتهم البحرية، لعزل المغرب العربي عن المؤثرات الخارجية، فأمكن تحقيق الاستقرار وبناء المجتمع الجديد، مجتمع العروبة والإسلام، بعيداً عن كل تهديد أو حتى الخوف من التهديد الخارجي.

يظهر هذا العرض الموجز أن معاملة عقبة لكسيلة لم تكن لتغير من الموقف شيئاً، فسواء غضب كسيلة أو رضي، وسواء عومل معاملة حسنة أم عومل معاملة سيئة، فإن عوامل الثورة والاضطراب كانت متوافرة لوجود الروم وتغذيتهم للثورة المضادة، ووجود روابط قوية بين الروم والأفارقة «السواحليين»، ما كان يعرض الإقليم بكامله للفوضى والاضطراب والتمرد، وهذا ما يفسر قيام الثورة بعد الثورة، وتعاقب الردة بعد الردة.

لقد كان كسيلة مجرد أداة، وكانت الكاهنة أداة أخرى في قبضة الروم، ودليل ذلك زوال عوامل الثورة لمجرد تحقيق النجاح في عزل الروم وإبعاد نفوذهم نهائياً. وعلاوة على ذلك، فإنه من المستحيل افتراض قبول سكان البلاد (البربر) لدين الإسلام دفعة واحدة. فقد لقي دين الإسلام مقاومة ضارية في الجزيرة العربية ذاتها قبل أن يستقر في القلوب وتتقبله النفوس، ولهذا فإن ظواهر الثورات وأعمال التمرد هي من الأمور الطبيعية. فإذا أمكن تجاوز ذلك، وإذا أخذت ظاهرة معاملة عقبة لكسيلة تلك العاملة غير الطبيعية، فإنه من المستحيل معرفة أسبابها وحوافزها بدقة، لا سيما وأن هذه المعاملة كانت مغايرة لأساليب عقبة في القيادة،بل مخالفة حتى لما عرف عن عقبة من خلق كريم وتقى وورع.

ويظهر أن لدى عقبة من الحجج والأسباب ما حمله على اتباع هذا السلوك، والإساءة إلى كسيلة. فلعله شعر منذ البداية أنه لم يكن صادقاً في إسلامه ولا مخلصاً في إيمانه، وشعر أن الغدر متوقع منه، فلم يقبل منه التمادي في التظاهر وخداع المسلمين، وأراد من استثارته ردعه ووضعه في موقع الاختبار. وترتبط

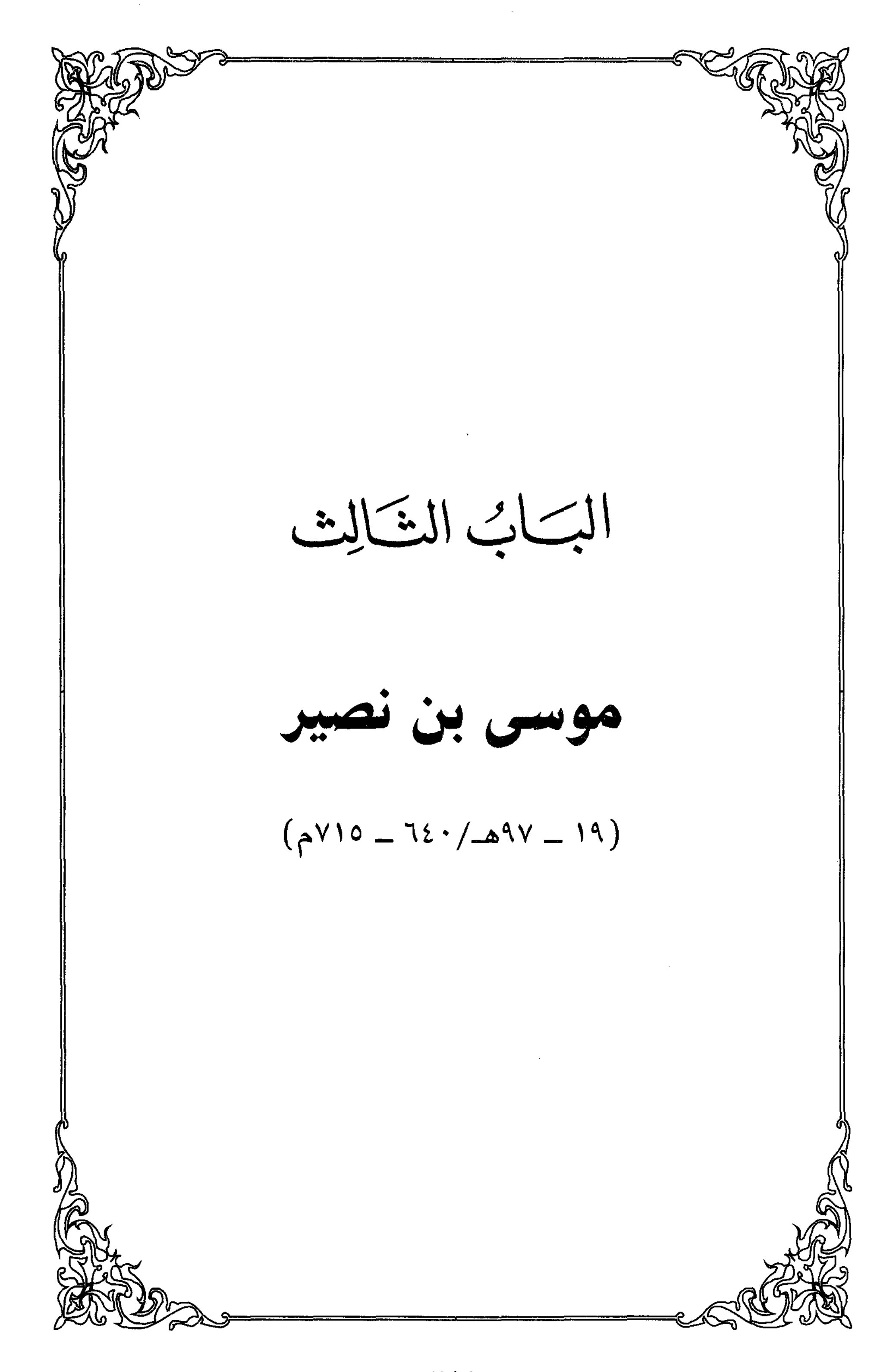
ظاهرة التمرد بعامل آخر هو موقف الدولة الإسلامية الداخلي؛ فقد توافقت هذه الثورات في أفريقية مع ثورات أخرى داخل الدولة الإسلامية ذاتها، فقد استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على ثورة مصعب بن الزبير (عام ٧٢هـ/ ٦٩١م) ثم تصفية ثورة عبد الله بن الزبير في السنة التالية. وجاءت ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث، فأرهقت الدولة الأموية وأضعفتها بحيث تأخر القضاء على ثورة الأشعث حتى (عام ٨٤هـ/ ٧٠٣م)، هذا مع تجاوز حركات التمرد والثورات والاضطرابات ذات الأهمية الثانوية، وكان عدم الاستقرار عاملاً حاسماً في نجاح الثورات المضادة وقيامها، فقد أفاد الروم من هذه الاضطرابات لتوسيع نشاطهم المضاد في الشام ذاتها وفي أفريقية.

وحتى تكتمل صورة الموقف فإنه لا بد من إجراء ما كان يحدث في الشرق الإسلامي مع ما كان يحدث في المغرب الإسلامي، وإن مطالعة مسيرة الأحداث على الجبهة الشرقية وتطوراتها تظهر أن الفتح العربي قد تعرض هنا أيضاً لانتكاسات كثيرة، وحدثت حركات ردة متكررة، سواء كان ذلك خلال فترة الفتنة الكبرى والخلاف بين أمير المؤمنين علي وأمير المؤمنين معاوية، أو خلال الثورات الداخلية قبل إمارة عبد الملك بن مروان، أو حتى أيام فتح قتيبة بن مسلم الباهلي، حيث قام «نيزك» بثورة مضادة تطلبت جهداً كبيراً حتى أمكن القضاء عليها.

وقد تختلف وجهات النظر بالنسبة لحوافز الثورات المضادة وأسبابها وفقاً لطريقة معالجة المادة التاريخية، وليس هذا هو المهم بالنسبة لدراستنا هنا، فالدخول في هذه المتاهة يبعد البحث الموضوعي عن هدفه، ولكن المهم هنا إبراز نقطة رئيسة واحدة «وهي أن ظهور الثورات المضادة كان أمراً طبيعياً يتوافق مع طبيعة الأشياء ذاتها وليس مغايراً لها، وكان وجود التدخل الخارجي عاملاً رئيسياً في ظهور هذه الثورات وتصعيد حدة تفاعلاتها»، وإن ذلك يضع ثورة كسيلة في موقعها الصحيح.

وتبقى استفزازات عقبة بن نافع، وأسلوب معاملته لكسيلة مجرد عامل مساعد لا أكثر، فلولا تحريض الروم ووجودهم القوي على أرض أفريقية، ولولا بقاء المجال الحيوي لبيزنطة وإمكان تحقيق الاتصال مع أهل البلاد وتحريضهم، ولولا توافر الاستعداد الطبيعي لقبول كل ما هو جديد، لما نجح كسيلة أو الكاهنة في إشعال نار الثورة المضادة للمسلمين. ولكن ورغم هذه الانتكاسات

المريرة وما رافقها من أحداث دامية، فإن الشواهد كلها تثبت بشكل قاطع أن الهدف الأساسي للفتوح قد تحقق بدلالة وجود أنصار للمسلمين العرب بين صفوف القبائل من أهل البلاد، بحيث لم تمض سوى فترة قصيرة حتى اشتد ساعد المسلمين وتعاظمت قوتهم، فكانوا هم أنفسهم قوة لمتابعة الفتوح، وإذا كان هناك فضل في ذلك، فإن هذا الفضل للرواد الأوائل الذين قادهم عقبة من صحابة ومجاهدين، فبذلوا ما بذلوه، وضحوا بدمائهم وأرواحهم حتى أمكن لهم إرساء البناء على قاعدة ثابتة أصلها في الأرض وفرعها في السماء، ولئن استشهد عقبة في تهوذة، فإن ما تركه من أعمال ومنجزات قد بقيت خالدة، وشواهدها هي الرابطة بين الماضي والحاضر، وهي أساس بناء المستقبل.



البَابُ الثَالِث

موسى بن نصير

(١٩ ـ ٩٧هـ/٦٤٠ ـ ٧١٥م)



من أقوال موسى بن نصير(١)

«أيها الناس، إنما كان قبلي على أفريقية أحد رجلين، مسالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يكلم، ويحب أن يسلم، أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راضٍ بالهوينى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همَّته، ولم يرض بالدون من الغنم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم. ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجابن إقحاماً، ولا بالمتخاذل إحجاماً. إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً، راجياً من الله حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الحذرين.

وبعد: فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة. وأيم الله، لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

---

(١) خطاب موسى بن نصير عند ولايته أفريقية (الإمامة والسياسة، ٢/ ٦٢، ٦٣).



الفَصْلُ الأولُ

عموميات

١ ـ موسى بن نصير.

٢ ـ الطبيعة الجغرافية للأندلس.

أ ـ الجغرافيا الطبيعية.

ب ـ الجغرافيا البشرية.

جـ ـ الموقف عشية الفتح الإسلامي.

د ـ الغزوات الاستطلاعية.

هـ ـ حملة طارق بن زياد.

٣ ـ موسى بن نصير في الأندلس.



١ ـ موسى بن نصير(١)

«ما هُزمت لي راية قط، ولا فُضَّ لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين» (موسى بن نصير)

موسى بن نصير، عالم وحده في التاريخ، ونسيج فريد في الخالدين، ما من قائد عسكري عرف سيرته إلا ورغب يقيناً في معرفة المزيد عنه، ليجعل منه مثله الأعلى، وما من مؤمن طالع حياة هذا الإنسان إلا وطمح إلى الاقتداء به، وما من رجل بعد ذلك إلا ووجد في موسى بن نصير الصورة الرائعة لما يجب أن يكون عليه الرجال.

لم يكن خالد بن الوليد يعرف ما سيكون عليه أمر واحد من الأربعين غلاماً الذين كسر عليهم الباب المغلق فوجدهم يتعلمون الإنجيل، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: رهن. وكان بينهم نصر الذي تم تصغير اسمه إلى نصير، وهو والد موسى. فسباهم خالد من عين تمر (القريبة من الأنبار غربي الكوفة) وقسمهم في أهل البلاد (في العام ١٢هـ/ ٦٣٢م). وكان نصر (أو نصير) من بني لخم (أو مولى لبني لخم)، فهو عربي عريق في أصالته. وعندما كبر نصير أعتقه بعض بني أمية، فرجع إلى الشام، وعمل في حرس معاوية بن أبي سفيان، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه، وكانت له منزلة كبيرة عنده. وقد أصبح نصير عميق الإيمان، صحيح الإسلام، حتى إنه لم يخرج مع معاوية يوم أن خرج لقتال علي بن أبي طالب، فقال له معاوية معاتباً: «ما منعك من الخروج معي ولي عندك يدٌ لم تكافئني عليها؟. فقال: **لم يمكني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك**. فقال: ومن هو؟ فقال: الله عَجَلَّ. فأطرق معاوية ملياً ثم قال: أستغفر الله. ورضي عنه».

ولد موسى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (١٩هـ/ ٦٤٠م)، بقرية يقال

---

(١) ولد سنة (١٩هـ/ ٦٤٠م) وتوفي سنة (٩٧هـ/ ٧١٥م).

لها كفرمتري (من قرى أرض الشام ـ في جبل الجليل) ونشأ في وسط وثيق الصلة بأمور الحرب والجندية، فتوطدت صلته بقادة الفتح وأعلام الفكر الإسلامي، في دار الخلافة بالشام، وأخذ عن أبيه الجرأة والصراحة والورع، فظهرت عليه علائم الطموح، ومؤهلات القيادة منذ نعومة أظفاره. وكانت نشأته مع أبناء الخلفاء الأمويين، كمروان بن عبد الملك وبشر بن مروان، من العوامل التي مهدت له طريق المستقبل.

عرف معاوية بن أبي سفيان ـ وهو الخبير بمعرفة الرجال ـ ما يتوافر في موسى بن نصير من كفاءات قيادية، فولاه البحر وهو في مقتبل العمر، فغزا موسى قبرص (والعرب يكتبونها قبرس، وهو الصحيح) وبنى هناك حصوناً، وأعد الجزيرة لتكون قاعدة بحرية متقدمة لمجابهة نفوذ البيزنطيين في البحر، وكانت هذه أول تجاربه في فن الحرب.

كانت بلاد الشام مسرحاً للاضطراب، رغم استقرار الأمر للأمويين بفضل معاوية، وفي عام (٦٤هـ/ ٧٨٣م)، وقعت معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبير، وانحاز موسى إلى الضحاك وقاتل معه. ولم يلبث الأمويون حتى انتصروا على الضحاك، فخاف موسى، ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان الذي حماه من بطش أبيه مروان بن الحكم، وبدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وبين موسى بن نصير. وفي العام التالي، توجه مروان بن الحكم إلى مصر فتملكها، واستعمل عليها ابنه عبد العزيز، وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيراً. وكان موسى مع مروان بن الحكم حين دخوله مصر، ما يشير إلى أنه استطاع خلال هذه الفترة الحصول على ثقته. وعندما ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة (سنة ٧٣هـ) ثم جمع له ولاية البصرة، بعد ذلك بسنتين، عين له موسى بن نصير مشيراً ووزيراً، نظراً لأن بشراً كان حديث السن، قليل الخبرة في إدارة الدولة. وأصبح موسى هو المسؤول أمام عبد الملك بن مروان عن كل خلل أو تقصير يقع في ديوان العراق، فدفع بشر إلى موسى خاتمه، وتخلى له عن جميع العمل. ولكن بشراً لم يعمر طويلاً، فقد توفي في عام (٧٥هـ/ ٦٩٤م)، فولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق وأوصاه ألا يفوته موسى لأنه احتجز الأموال لنفسه حين كان على خراج البصرة.

وخاف موسى الحجاج (وعرف خطورة الدسائس التي كانت تحاك ضده،

وتتهمه بما لم يفعل) فلجأ إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مصر، فتوجه عبد العزيز مع موسى إلى الشام ووفدا على عبد الملك، فأغرمه عبد الملك مائة ألف دينار، فغرم عنه عبد العزيز نصفها، وعاد موسى مع عبد العزيز إلى مصر.

بقي موسى بن نصير عشرة أعوام ونيف وهو في مصر قبل أن تتوافر له فرصة ممارسة قيادة كبرى. وكانت أفريقيا طوال هذه الفترة تضطرم ناراً، وتصاب بالنكسة بعد النكسة، فتم تعيين موسى بن نصير لولايتها في بداية عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م). وأمسك موسى بهذه الفرصة وصمم على أن ينجز ما عجز أسلافه عن إنجازه، فتوجه إلى المغرب، وأعاد تنظيم قوات المسلمين وحشدها. وعندما توافت إليه الجيوش، وقف فيها خطيباً، وكان مما قاله: «**إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها** فإني أخطئ كما تخطئون، واصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، مع المواساة إن شاء الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

عندما وصل موسى إلى أفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً أبرز فيه الأسس الاستراتيجية والقواعد العملياتية التي سيعمل على تطبيقها (نص الخطاب في الصفحة ٢٤٥). وتنفيذاً لذلك بدأ باستعادة جبل زغوان، وهو جبل منيع، شاهق الارتفاع، يشرف على تونس بينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل. فأرسل موسى قوة من خمسمائة فارس لإخضاع المتمردين، واستعاد جبل زغوان، كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحي أفريقية، ووجه ابنه مروان أيضاً، حتى تم له إخضاع المتمردين والقضاء على الثائرين. وكانت الغنائم الكثيرة التي حصل عليها برهاناً على قدرته في تصفية جيوب المقاومة، والقضاء على معاقل الثورات المضادة، واستطاع بذلك أن يجعل قاعدة القيروان وما حولها قاعدة متقدمة مأمونة، يمكن له الانطلاق منها للتوغل في المغربين الأوسط والأقصى (الجزائر والمغرب).

كانت قبائل هوارة وزناتة من قبائل البربر المتمردة، فأرسل موسى ألف فارس، بقيادة عياش بن أخيل، فأغاروا وقتلوا منهم وسبوا، فعرضوا الصلح، فصالحهم المسلمون.

---

(١) **الإمامة والسياسة ٢/ ٦١، ٦٢.**

وكانت كتامة، وهي قبيلة من البربر أيضاً، قد قدمت على موسى فصالحته، فولى عليهم رجلاً منهم وأخذ منهم الرهائن، وحاول هؤلاء الفرار للعودة إلى قبائلهم، فوجه الفرسان إليهم وأتى بهم، وأراد صلبهم، فقالوا: «لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبين أمرنا، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ونحن في يدك، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل». فأوقرهم حديداً، وأخرجهم معه إلى كتامة، وخرج هو بنفسه، فلما بلغ كتامة خروج موسى تلقاه وجوههم معتذرين، فقبل منهم، وتبينت له براءتهم، واستحيا رهونهم (وقد كانت كتامة بوادي درعة ـ في المغرب ـ بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ).

وكانت قبائل صنهاجة من قبائل البربر القوية والمتميزة بالعناد وشدة المراس، وكانت تقيم في وادي ملوية في المغرب الأوسط (الجزائر)، فأرسل موسى العيون (الجواسيس) لاستطلاع أخبارها، وأفاد العيون بأن إبل صنهاجة تنتجع، وأن صنهاجة لا تستطيع براحاً عن وادي ملوية، فقرر مباغتتهم، ونظم قوة مكونة من ٤ آلاف مقاتل من الجند النظاميين (أهل الديوان) بالإضافة إلى ألفين من المتطوعين، ومن قبائل البربر، ووضع على المقدمة عياض بن عقبة بن نافع وعلى ميمنته المغيرة بن أبي بردة، وعلى ميسرته زرعة بن أبي مدرك، وسار موسى حتى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر، وهم في غفلة لا يشعرون، فقتلهم قتل الفناء، وسبى منهم سبياً كثيراً، ثم انصرف قافلاً إلى القيروان.

أصبح باستطاعة موسى بن نصير الانطلاق إلى أهداف أكبر، فأخذ في الإعداد لغزو سجلماسة، وكان اسم هذه المدينة يرتبط بمأساة تهوذة ومقتل عقبة بن نافع مع عدد من خيرة الصحابة، فنظم قوة من ١٠ آلاف مقاتل، ووضع على مقدمته عياض بن عقبة بن نافع وعلى ميمنته زرعة بن أبي مدرك، وعلى ميسرته المغيرة بن بردة القرشي، وعلى ساقته نجدة بن مقسم، وأعطى اللواء ابنه مروان بن موسى، وتوجه نحو المغرب الأوسط، حتى وصل موقعاً يقال له سجن الملوك، وخلف الأثقال مع حامية من ألف مقاتل بقيادة عمرو بن أوس، وتجرد في الخيول، حتى انتهى إلى نهر ملوية، فوجده في حالة فيضان، فكره طول المقام عليه خوفاً من نفاد الزاد، وأن يبلغ العدو مخرجه ومكانه، لذلك أحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع التي كره أن يجوز عليها (يعبر منها)، فلما عبرها وانتهى إليهم، وجدهم قد أنذروا وتأهبوا وأعدوا للحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل شديد لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة. وبعد قتال

استمر ثلاثة أيام، انهزم أهل سجومة، ففتح المدينة، وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضاً وعثمان و«أبو عبيدة») أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم، فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم موسى: «كفوا». فكفوا. وقال عياض بن عقبة: «أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم، وفيهم عين تطرف».

خضعت لموسى بذلك قبائل البربر، هذه التي أعلنت تمردها بعد أن عاهدت المسلمين، وتلك التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين، فقاد موسى الجيش نحو المغرب الأوسط، وولاية طنجة، فتبددت القبائل أمامه نحو الغرب خوفاً من العرب، فتتبعها عبر السوس الأدنى، حتى بلاد سجلماسة (في جنوب المغرب، بينها وبين فارس عشرة أيام) ووادي درعة.

عمل موسى بعدها على توجيه مجموعات قتالية إلى أنحاء مختلفة. فوجه ابنه مروان على رأس قوة من ٥ آلاف مقاتل إلى السوس الأقصى (أقصى بلاد البربر على المحيط الأطلسي)، كما سير قائده ذُرعة بن أبي مدرك إلى بربر وصمودة (من قبائل البرانس) في أطلس العليا. وحققت القوتان أهدافهما، فعاد مروان بسبي كثير، أما زرعة فلم يلق حرباً من المصامدة الذين أعلنوا خضوعهم، وقدموا إليه رهائنهم، كما قدم غيرهم الرهائن. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها خيل العرب المسلمين أرض مصمودة بعد دخول عقبة بن نافع لأول مرة، وتأكد انتشار الإسلام في بلاد المصامدة الذين دخلوا فيه طوعاً.

لم يبق أمام موسى، بعد أن تم له إخضاع كل تمرد في المغربين الأوسط والأقصى، سوى طنجة، وكانت هذه المنطقة تخضع ليوليان (جوليان) التابع أصلاً للبيزنطيين والذي ارتبط بالأندلس بعد تقلص ظل البيزنطيين وزوال هيمنتهم عن البحر الأبيض المتوسط. فسار موسى من القيروان لفتح طنجة، ودفع أمامه مقدمة بقيادة مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة، وبث السرايا، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى، فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة، فولى عليهم والياً أحسن حكمهم.

وحاصر موسى طنجة حتى تم له فتحها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، فأسلم أهلها، وخطها موسى قيرواناً للمسلمين. وسار إلى مدائن على شط البحر، فيها ولاة لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن سبتة (المقابلة لجزيرة الأندلس على طرف الزقاق، وهي

بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب) وعليها جوليان، فقاتله موسى، فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يقدر عليه، فرجع إلى مدينة طنجة، وأقام هناك بمن معه، وأخذ في الغارات من حولهم والتضييق عليهم، والسفن تأتي إليهم بالمؤونة والإمداد من الأندلس من قِبَل ملكهم غيطشة، فهم يدافعون عن سبتة دفاعاً شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة. وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس ما ساعد على صمودها في وجه العرب المسلمين. وبقي في طنجة من البربر بطون قبائل (البتر والبرانس) ممن لم يكن قد دخل في الطاعة، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط، مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد، وتم بذلك فتح المغرب الأقصى إلى إقليم سبتة.

عاد موسى إلى القيروان، بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر، بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم عدداً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام.

كانت «مجانة» قلعة تحصَّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان (وهي تقع على مسيرة خمسة أيام من القيروان)، فوجه إليها مجموعة قتالية لاستعادة فتحها، (إذ كان بسر بن أبي أرطأة قد فتحها من قبل). ومع استعادة فتح هذه المدينة الحصينة، تحقق الاستقرار في المغرب، وأصبح بإمكان موسى الانصراف لبناء المجتمع الجديد وإرساء قواعد الإسلام، فأقبل أهل المغرب وأسلموا على يديه، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين. وهكذا لم يبق في أفريقية من ينازعه غير منطقة سبتة.

عرف موسى بن نصير أهمية البحر منذ تولى غزوة قبرس، وقدر الأهمية السياسية والاستراتيجية للسيطرة البحرية، نتيجة لما كان يعانيه المسلمون في فتوحاتهم على أرض أفريقية من تدخل البيزنطيين وتهديدهم المستمر للقوات الأرضية. وكان استشهاد عقبة بن نافع، ثم زهير بن قيس البلوي من بعده شواهد ثابتة على ضرورة حماية قوات المسلمين في البر بقوات بحرية، فأخذ في الإعداد للجهاد في البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس، وتوسيع دار صناعة السفن بها، وشق القناة التي تصل بين المدينة وبين ميناء رادس على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتى للمراكب إذا ساءت الأنواء

وهبت الرياح، ثم أمر بصناعة مائة مركب. وعندما أنهى استعداداته البحرية، أمر بالتأهب لركوب البحر، وأعلم الناس أنه راكب بنفسه، فرغب رجاله بذلك وتسارعوا حتى لم يبق شريف ممن كان معه إلّا وقد ركب البحر، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى وأمره بالتوجه للغزو. وقد أراد موسى بما أشاع عن مسيره، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة «**غزوة الأشراف**». وسار عبد الله بن موسى في مراكبه، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر أفريقية (غربي البحر الأبيض المتوسط) فأصاب في غزوته تلك جزيرة صقلية، وافتتح مدينة فيها، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً، وكان المسلمون ما بين التسعمائة إلى الألف، ثم انصرف قافلاً سالماً، وكان ذلك في سنة (٨٥هـ/ ٧٠٤م).

كان أمير مصر عبد العزيز بن مروان قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر إلى سردانية، فأرسى بسوسة، فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من أرزاق وسلاح وكتب إليه «إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام، فأقم لا تغرر بنفسك فإنك في تشرين الآخر (نوفمبر). فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر». فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى، وشحن مراكبه، ثم دفع متوجهاً إلى هدفه، وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة، وأثناء عودتهم أصابتهم ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه.

عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر أفريقية (سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م) ونزل سردانية وافتتح مدائنها، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى. وفي هذه السنة ذاتها جهز موسى ولده عبد الله فافتتح جزيرتي (ميورقة ومنورقة)[١]، وهما جزيرتان في البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس.

لم تكن منجزات موسى بن نصير الرائعة، حتى هذه المرحلة، سوى مقدمات الفتح العظيم الذي سيرتبط أبداً باسم القائد موسى بن نصير، فقد أصبحت جميع الظروف مهيأة للانطلاق نحو آفاق جديدة، وكانت التجارب البحرية والهيمنة العربية على غربي المتوسط من المراحل التمهيدية نحو هذه الآفاق المتمثلة بفتح الأندلس.

---

(١) منورقة Minorca، ميورقة Maiorca وهي تشكل مع يابسة Iviza مجموعة جزر الباليئار Balearic-Islands وهي تابعة حالياً لأسبانيا.

٢ ـ الطبيعة الجغرافية للأندلس

أ ـ الجغرافيا الطبيعية

تشكل شبه الجزيرة الإيبيرية النهاية الجنوبية الغربية لأوروبا، وتعتبر سلسلة جبال البيرينه (أو جبال البرتات، كما تذكرها المصادر العربية) الفاصل بين أوروبا والجزيرة الإيبيرية. وتتميز طبيعة شبه الجزيرة بالاختلاف الكبير في تضاريسها الجغرافية، والتفاوت الكبير في المرتفعات والمنخفضات. فبينما ترتفع قمم جبال الثلج (سيرانيفادا) في الجنوب حتى **٣٤٧٠**م عن سطح البحر، تنخفض في سهول القلاع (قشتالة) حتى **٥٠٠**م، لترتفع من جديد في البيرينه حتى حدود **٣٦٦٠**م تقريباً وتنحدر الجبال بشكل حاد، مشكلة في بعض الأحيان السهول الخصبة، أما الأنهار فهي جميعها غير صالحة للملاحة تقريباً.

أفاض كتَّاب العرب ومؤرخوهم في وصف طبيعة الأندلس، فكان من أقوالهم فيها:

«**الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين، أهل الحكمة وحاملي الفلسفة**».

تبلغ مساحة شبه الجزيرة الإيبرية **٥٩٦,٨٧٩**كم^{٢} (أسبانيا **٥٠٤,٨٧٩**كم^{٢}، والبرتغال **٩٢** ألف كيلومتر مربع) ويفصل شبه الجزيرة عن المغرب مضيق، أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق (ويسميه كتاب العرب والمؤرخون بدرب الزقاق)، وهو بعرض **١٢,٨** كيلومتر (بين سبتة وجبل طارق).

وعلى الرغم من اتصال شبه الجزيرة الإيبرية بأوروبا، فإن سلسلة جبال البيرينه كانت تشكل فاصلاً حقيقياً. فهذه السلسلة تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى المحيط الأطلسي على امتداد **٤٢٢** كيلومتراً وبعرض **١٤٠** كيلومتراً. وتتميز هذه السلسلة بصعوبة اختراقها، وبينما تغطي الغابات القسم

الغربي من البيرينه (في جهة الباسك) فإن القسم الشرقي يكاد يكون منطقة جرداء، خالية من النبات. ونظراً لصعوبة الاتصال، فقد عاش سكان الأودية في حالة من العزلة بعضهم عن بعض، فليس من الغريب أن تكون هناك أكثر من لهجة (مثل سكان الباسك).

يتميز وسط شبه الجزيرة بوجود هضبة مرتفعة جرداء، وهي منطقة جرداء (تعرف باسم هضبة الميزيتا) وتهب عليها في الشتاء ريح شمالية قارسة البرد اسمها ريح الشمال. أما في الصيف فتهب عليها ريح جنوبية دافئة من أفريقيا اسمها ريح السولانو، تحمل الحر الشديد، وتتربع العاصمة مدريد، وطليطلة فوق هذه الهضبة (على ارتفاع ٦٦٦م).

ب ـ الجغرافيا البشرية

هناك ثمة اختلاف كبير على أصل تسمية الأشبان، أو الإسبان. وتذكر المصادر الغربية أن أصل التسمية هو فينيقي، ومعناها الحرفي أرض الأرانب، وأن سبب هذه التسمية يتلخص في أن الفينيقيين عندما وصلوا للمرة الأولى إلى شبه الجزيرة بقصد التجارة، اكتشفوا أن البلاد تجتاحها أسراب من الأرانب ولا شيء غير ذلك.

وتذكر بعض المصادر العربية أن تسمية الأشبان تعود إلى القبائل الرومانية التي استوطنت في العصور الأولى من التاريخ، وكان ملكهم يحمل اسم أشبان بن طيطش Sphan. وعلى كل حال، فقد ترك السكان الأشبان الأوائل رسوماً رائعة ولوحات مشرقة على جدران الكهوف، ولعل من الأرجح أن جاء الإيبيريون من شمال أفريقيا إلى بلاد الأشبان في عام ٢٥٠٠ق.م تقريباً واستقروا فيها ومنحوا شبه الجزيرة اسمهم، فأصبحت تعرف باسم شبه الجزيرة الإيبيرية. وبقي تاريخ أسبانيا على مدى الألفي عام، التي توالت بعد ذلك، مجهولاً، ولم يعرف عنه سوى القليل، وإن كان من الثابت استيطان الفينيقيين والإغريق في بلاد الإيبيريين Iberians (الأفارقة) وإقامتهم للمراكز التجارية فيها.

وقعت في القرن السادس قبل الميلاد غزوتان، إحداهما من شمال شبه الجزيرة وأخرى من جنوبها. فقد جاء السلتيون عبر جبال البيرنه، وتزاوجوا مع الإيبيريين واستقروا في البلاد، كما جاء القرطاجيون (وهم فرع من العرب الفينيقيين) من شمال أفريقيا، وأقاموا في الجنوب الشرقي من أسبانيا حتى القرن

الثالث ق.م. وانطلقوا من هناك في توغلهم عبر الطريق الساحلي الشرقي، حتى هاجموا إيطاليا من شمالها في عهد الملك هملقار ثم ابنيه من بعده، هانيبال وهاسدروبال. وفي ذلك العهد كانت قرطاجنة مشتبكة في صراع طويل ومرير مع روما، انتهى بهزيمة قرطاجنة وتدميرها، فما لبثت إسبانيا أن غدت مفتوحة أمام الرومان. وبدأت روما منذ نهاية حرب قرطاجنة الثانية، في عام ٢٠١ق.م، في أخذ زمام السيطرة على البلاد عن طريق القتال أول الأمر، ثم ببناء المدن الجديدة وتحسين الزراعة وإدخال نظم العدالة الرومانية وحضارتها.

كان عهد الحكم الروماني في الأندلس عهد سلم ورخاء استمر أكثر من ٤٠٠ عام، ولكن الامبراطورية الرومانية ذاتها تعرضت في القرن الخامس الميلادي لهجمات البرابرة، وهم شعوب مختلفة جاءت من الشرق واستقرت في أوروبا، ومنهم الفاندال Vandals والآلان Alans والسويف Sueve. وقد وصل هؤلاء البرابرة على موجات متعاقبة منذ العام ٤٠٩م، وأخذوا في نهب البلاد وتدمير حضارتها. وكان القوط الغربيون (الفيسقوطيون) Visigoths هم آخر الشعوب البربرية التي غزت الأندلس، وأقامت فيها، وحكمتها على امتداد أكثر من ثلاثمائة سنة.

كان الفيسقوط (أو الفيزيقوط) مقاتلين أشداء، وقد اكتسبوا الحضارة من الرومان، ووطدوا دعائم ملكهم بحيث كان عدد الملوك المتعاقبين من الفيزيقوط على عرش الأندلس ٣٦ ملكاً، قبل دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة، وكانت عاصمتهم مدينة طليطلة.

جـ - الموقف عشية الفتح الإسلامي

كان موسى بن نصير يتطلع ببصره إلى ما وراء درب الزقاق، ويطمح بتفكيره إلى نشر الإسلام في شبه الجزيرة، وكان مولاه طارق بن زياد على مستوى قائده في تطلعاته وآماله، ولكن كانت هناك عقبة مزدوجة تنتظر من الزمن حلها، الأولى تصفية قاعدة سبتة، والثانية جمع المعلومات اللازمة عن مسرح العمليات في الأندلس.

كان يوليان (أو جوليان)، حاكم سبتة، يتابع ما يدور حوله، وشعر بقبضة العرب المسلمين تتزايد إحكاماً من حوله، وأدرك يقيناً النهاية الحتمية لوجود قاعدته طنجة بعد أن أصبحت حدودها ضيقة لا تتجاوز أسوار مدينة سبتة،

وابتعدت عنه بيزنطة، ولم تعد أساطيلها قادرة على دعمه، وبقي مجاله محدداً بعلاقته مع ملك أسبانيا المعروف في التاريخ باسم (غيطشة) Witiza.

كان يوليان قد أقام طويلاً في المغرب؛ فقد تولى الحكم (في ولايتها السابعة) منذ سن مبكر وتوثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر، واكتسب ثقتهم حتى أصبح يعد نفسه واحداً منهم، وحتى اختلط الأمر على الناس فظنوه بربرياً (ومن هنا ظهرت الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة).

توفي ملك أسبانيا إخيكا Egica في تشرين الثاني - نوفمبر عام ٧٠٠م، وتولى عرش البلاد من بعده ابنه غيطشة، لكن قائد الجيش رودريك (أو لذريق) Rodrigo قاد ثورة خلع فيها غيطشة عن العرش، وأثار ذلك نقمة أبناء غيطشة وأنصاره، فاندلعت الثورات ضد المغتصب، وبصورة خاصة في منطقة الباسك (شمالي الأندلس). وفر وقلة Achila ابن غيطشة، الذي تولى العرش بعد أبيه إلى أفريقية، وأقام عند يوليان حاكم سبتة، الذي بقي على ولائه للملك غيطشة وأبنائه، فعمل رودريك على استبقاء ولدي غيطشة الآخرين (أرطباس وألمند) Artavasdes and Olmondo كرهائن في قبضته، يستخدمهما للقضاء على الثورات المضادة لحكمه.

تدهور الموقف الداخلي في الأندلس نتيجة لاندلاع الثورات واضطرار رودريك لفرض ضرائب فادحة أرهق بها شعبه، كما اضطر إلى سلب الكنائس والاستيلاء على ممتلكاتها، وبصورة خاصة ما كان محفوظاً منها في كنيستي (سان بدرو وسان بابلو) في طليطلة، وقد حفظت روايات التاريخ الغربي قصة هذه الأعمال العدوانية المعروفة باسم (أسطورة بيت الحكمة)[1].

---

(١) تتلخص هذه الأسطورة بما يلي: «كانت طليطلة دار الملك بالأندلس، وكان بها بيت مغلق متحامي الفتح على الأيام، عليه عدة من الأقفال، يلزمه قوم من ثقات القوط، قد وكلوا به لئلا يفتح، وقد عهد الأول في ذلك إلى الآخر، فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلاً وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه. فلما قعد رودريك هذا، أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب، فقال لهم: لا أفعل، أو أعلم ما فيه، ولا بد لي من فتحه. فقالوا له: أيها الملك، إنه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك. وتناهوا عن فتحه، فلم يلتفت إليهم، ومشى إلى البيت، فأعظمت ذلك العجم، وضرع إليه أكابرهم في الكف فلم يفعل، وظن أنه بيت مال، ففض الأقفال عنه ودخل، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا تابوت عليه قفل، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة، فألفاه فارغاً لا شيء فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلدي السيوف، متنكبي =

تجمعت عوامل الحقد في نفس يوليان ضد روذريك، فولاؤه للحكام الشرعيين (غيطشة وأبنائه) وسوء إدارة روذريك للأندلس، كل ذلك، مع تقدير يوليان الصحيح لموقف العرب المسلمين ومعرفته لحتمية انتصارهم، علاوة على احتمال ظهور عوامل أخرى[1] حملت جميعها على دفع يوليان للتقرب من موسى بن نصير، وتوطيد الصلات مع قادة المستقبل، فأرسل يوليان إلى موسى يعرض تسليم سبتة، ويدعوه إلى فتح أسبانيا، فاستجاب موسى لدعوة يوليان، واهتم بمشروعه اهتماماً كبيراً.

د ـ الغزوات الاستطلاعية

مضى يوليان في وصفه لمحاسن الأندلس واستثارة موسى لغزوها، وذكر ما تتضمنه من أسباب المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها، وهوَّن عليه مع ذلك حال رجالها. لكن موسى رغم تشوقه للغزو فإنه أخذ بالحزم فيما دعاه إليه يوليان، فطلب إليه قيادة غزوة استطلاعية

= القسي، رافعي الريات على الرماح، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية، فقرئت فإذا فيها: إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت، وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور، فإن هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها. فوجم روذريك وندم على ما فعل» (**نفح الطيب** ١/ ٢٥١، **البيان المغرب** ٢/ ٤، **تاريخ افتتاح الأندلس** لابن القوطية ٣٢، ٣٣).

(١) تذكر المصادر العربية أن سبب اتصال يوليان بموسى هو التالي: «كان من سير أكابر العجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم، الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم، إلى بلاد الملك الأكبر بطليطلة، ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بأدبه، وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم، وحمل صدقاتهم، وتولي تجهيز إناثهم إلى أزواجهن. فاتفق أن فعل ذلك يوليان، عامل لذريق على سبتة، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس وأهلها على النصرانية. ركب الطريق بابنة له بارعة الجمال، تكرم عليه، فلما صارت عند لذريق، وقعت عينه عليها، فأعجبته وأحبها حباً شديداً، ولم يملك حتى استكرهها وافتضها، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها جداً، واشتدت حميته، وقال: ودين المسيح لأزيلن سلطانه، وأحفرن تحت قدميه. ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في ينير (كانون الثاني ـ يناير) قلب الشتاء، فصار بالأندلس، وأقبل إلى طليطلة نحو الملك روذريك، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت، وسأله عما لديه، ولم جاء في مثل وقته؟ فذكر خيراً، واعتل بذكر زوجته وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أحب إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتها منه. وسأل الملك إخراجها إليه، وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها، ففعل. وأجاز الجارية، وتوثق منها بالكتمان عليه، وأفضل على أبيها فانقلب عنه. وذكروا أنه لما ودعه قال له روذريك: إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات (الصقور) التي لم تزل تطرفنا بها، فإنها =

يشترك فيها المسلمون، وكلفه «بمكاشفة أهل ملته من الأندلس المشركين، والاستخراج إليهم وشن الغارة فيها». ففعل يوليان ذلك، وجمع جمعاً من أهل عمله، ودخل بهم في مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء (في الأندلس)، فأغار وقتل وسبى وغنم وأقام بها أياماً ثم رجع بمن معه سالمين، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا بيوليان، واطمأنوا إليه، وكان ذلك عقب سنة تسعين للهجرة (٧٠٨م).

لم يكن موسى بن نصير ليقطع في أمر عظيم كغزو الأندلس من دون الرجوع للخليفة في دمشق، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يوليان من أمر الأندلس ويستأذنه في اقتحامها، فكتب إليه الوليد: «**أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال**». فراجعه أنه ليس ببحر زخار، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه: «وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه».

نظم موسى إغارة استطلاعية جديدة، أسند قيادتها إلى رجل من مواليه من البرابرة اسمه «طريف» يكنى «أبو زرعة» في أربعمائة رجل معهم مائة فرس، سار بهم في أربعة مراكب، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ويقال لها اليوم: (جزيرة طريف)[1] لنزوله بها، وأقام بها أياماً حتى تتام (التأم) إليه أصحابه، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً، ومالاً جسيماً وأمتعة، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الدخول. وقيل دخل طريف في ألف رجل، فأصاب غنائم وسبياً، ودخل بعده أبو زرعة، شيخ من البرابرة، وليس

= آثر جوارحنا لدينا. فقال له: أيها الملك، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط ـ عرَّض له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب وهو لا يفطن ـ فلم يثنهنه عندما استقر بسبتة عمله أن تهيأ نحو موسى». (**نفح الطيب ١/٢٥٢، فتوح مصر والمغرب ٢٧٧**. ابن خلدون ٤/١١٧).

(١) جزيرة طريف، هي المعروفة حالياً باسم لاس بالوماس Islande Las Palomas، وهي قريبة من مدينة طريف Tarifa التي سميت باسمه لنزوله فيها. أما الجزيرة الخضراء فقد جاء وصفها في تقويم البلدان (١٧٣، ١٧٤) بأنها مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي، وهي مدينة طيبة النزهة، توسطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها أحسن المراسي للجواز (للعبور)، وأرضها أرض زرع وضرع، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة، وتحمل الجزيرة الخضراء حالياً اسم الجزيرة: Algeciras.

بطريف، في ألف رجل منهم أيضاً، فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنهم فضرموا عامتها بالنار، وحرقوا كنيسة كانت عندهم معظمة، وأصابوا سبياً يسيراً وقتلوا وانصرفوا سالمين[1].

توافرت المعلومات الكاملة عن الموقف، ونضجت خطة العمليات في ذهن القائد موسى بن نصير، فأخذ في الإعداد للحملة الكبرى، وحشد القوى الضرورية، وجهز جيشاً من العرب والبربر يبلغ ٧ آلاف مقاتل، واستدعى مولاه طارق بن زياد الليثي، وكلفه بقيادة الحملة، والعبور إلى الأندلس. وفي رجب سنة ٩٢هـ (نيسان ـ إبريل ٧١١م) وصل طارق إلى البقعة الصخرية التي لا زالت تحمل اسمه، وتعرف باسم جبل طارق.

هـ ـ حملة طارق بن زياد

بدأ طارق بتنظيم قاعدة عملياته في الجنوب، ففتح مدينة قرطاجنة[2] ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وأقام قاعدة بحرية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء. ووصلت المعلومات إلى رودريك الذي كان يخوض معاركه ضد ثوار (الباسك) في الشمال فتخلى عن عملياته في الشمال وعاد إلى طليطلة، وأخذ في حشد القوى والوسائط. وتوافرت المعلومات عند طارق، فأخذ في الاستعداد للمعركة الحاسمة، وكتب إلى موسى بن نصير يستمده بقوله: (لقد زحف رودريك بما لا قبل له به). وكان موسى منذ وجه طارق لوجهه قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفاً أقوياء، حراصاً على اللقاء، ومعهم يوليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله

(١) يظهر هذا النص، أن موسى قد نظم الاستطلاع على شكل غزوتين متواقتتين في منطقتين مختلفتين، أو غزوتين على التتابع بقيادة طريف، وأبو زرعة. وهناك مصادر تجعلهما غزوة واحدة، وأن «أبو زرعة» وطريفاً هما شخص واحد كما ذكر الرازي (هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري ـ الاسم طبق الكنية). والاحتمال الأرجح هو إرسال أكثر من غزوة استطلاعية، وأن «أبو زرعة»، وطريفاً هما قائدان لغزوتين منفصلتين. (**نفح الطيب ١/ ٢٥٤ والبيان المغرب ٢/ ٦**).

(٢) قرطاجنة (كارتاجينا) Cartagena: تشرف على خليج عميق، تحرسها قلعة، أسسها هاسدروبال، شقيق هانيبال في القرن الثالث ق. م. وكانت دائماً قاعدة بحرية حربية هامة. أقام بها العرب المسلمون قاعدة لصناعة السفن ولا زالت كذلك.

يدلهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار. وانصرف طارق إلى تنظيم قواته، فصيرها عسكرين، أحدهما بقيادته المباشرة، ونزل به جبل الفتح، والآخر بقيادة طريف بن مالك النخعي وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن. ونهض رودريك إليهم يجر الأعاجم والنصارى في زهاء أربعين ألفاً، فالتقوا بفحص شريش في (وادي برباط - أو وادي لكة)[1] قرب مدينة شذونه، واستمرت المعركة ثمانية أيام تقريباً منذ بدايتها[2] وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة.

سمع الناس من أهل بر العدوة بفتح طارق للأندلس، فأقبلوا نحوه من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وهربوا من السهل ولحقوا بالجبال. وعندما علم موسى كتب إلى طارق يتوعده أن توغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، لكن طارقاً رغب في استثمار النصر بعد أن قضى على كتلة المقاومة الرئيسية، فأسرع إلى المدائن يفتتحها، فاقتحم شذونة عنوة، ثم مضى إلى المدور[3] وانتقل منها إلى قرمونة[4] ثم إلى إشبيلية حيث صالح أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى أستجة حيث تجمعت فيها بقايا القوط لتشكل المركز الأول للمقاومة، فظفر طارق بصاحب المدينة، وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية. وشكَّل طارق مجموعة قتالية أطلقها من استجة، فوجه مغيثاً الرومي، مولى الوليد بن عبد الملك، إلى قرطبة في سبعمائة فارس، وبعث جيشاً آخر إلى مالاقا، كما بعث قوة ثالثة إلى البيرة[5] وسار هو

---

(١) معركة وادي لكه (أو وادي بكه - **تاريخ الشعوب الإسلامية** - كارل بروكلمان - ص١٣٨ - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي) - وفيه الذي سمي خطأ في وقت في الأوقات باسم شريش العنرنتيره، وهذا احتمال أقرب إلى الصحة نظراً لبعد وادي شريش عن ميدان المعركة. وأما شذونه Medina-Sidonia فهي كورة متصلة بكورة موررو، في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء (أي على حدود ميدان المعركة بحسب أوثق الروايات التاريخية) (**نفح الطيب** ١/ ١٤١).

(٢) بدأت المعركة يوم الأحد ٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ١٩ تموز - يوليو ٧١١م.

(٣) **المدور** Almodovar: حصن حصين بالقرب من قرطبة (**معجم البلدان** ٧/ ٤١٧).

(٤) **قرمونة** Carmona: كورة (ناحية) تتصل بإشبيلية - غربي قرطبة وشرقي إشبيلية. (**معجم البلدان** ٧/ ٦٢).

(٥) البيرة Elvira: كورة (ناحية) نزلها جند دمشق، وكانت مدينة البيرة قريبة من غرناطة، بينهما ستة أميال. (وفي **المغرب في حلى المغرب** ٢/ ٩١ ما يلي): مملكة جليلة بين مملكتي قرطبة =

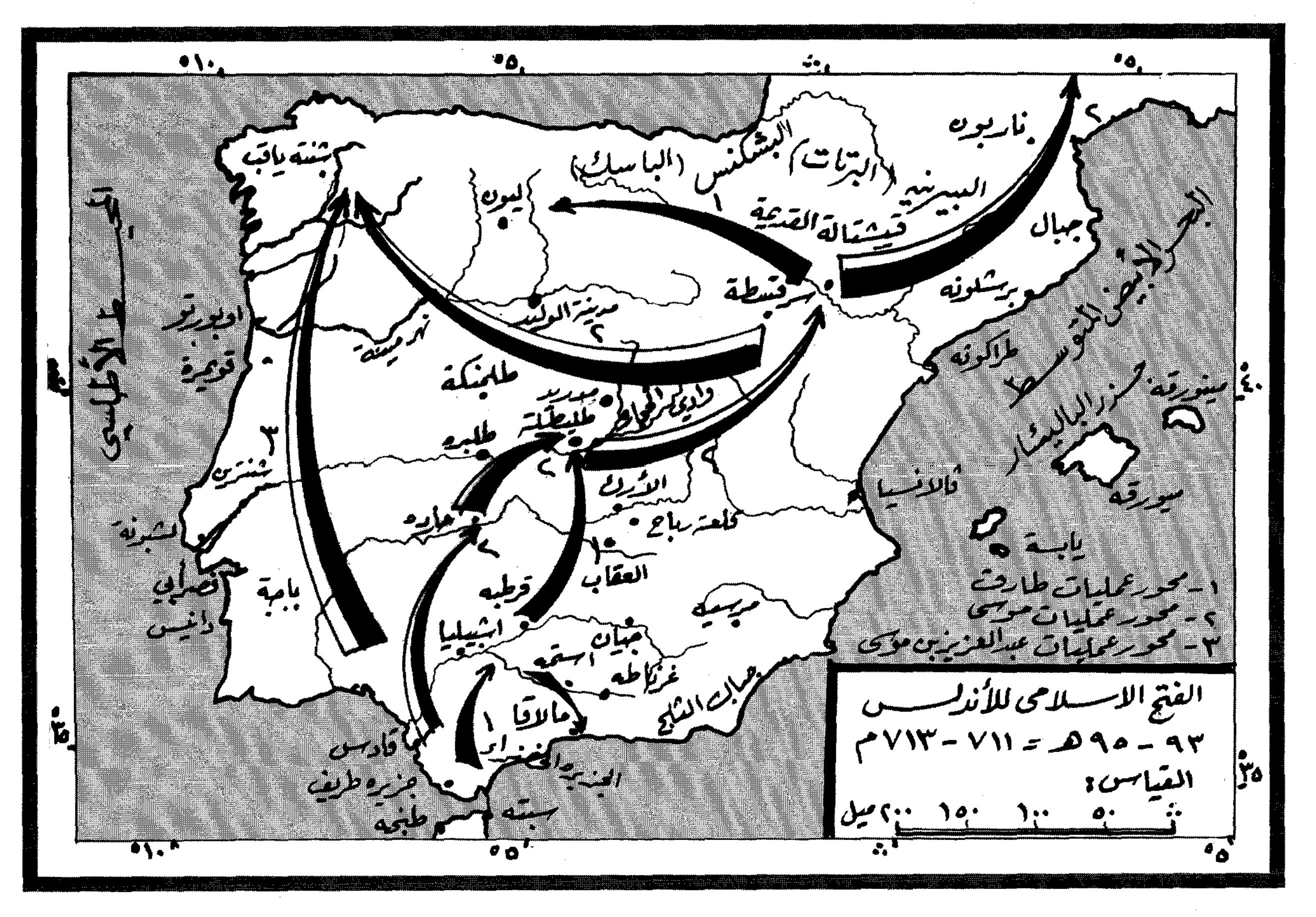
بمعظم جيشه إلى كورة جيان[1] في طريقه إلى طليطلة[2]. وعبر طارق الوادي الكبير فدخل طليطلة (سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م) بدون مقاومة تذكر.

كان موسى بن نصير يتابع تحرك قوات المسلمين عبر الأندلس، **وعرف أن توغلهم العميق أمر لا يتناسب وحجم القوى والوسائط التي يتصرفون بها**، كما كانت لديه أوامر الخليفة الواضحة (**بعدم التغرير بقوة المسلمين**)، وأغضبه خروج طارق بن زياد على تعليماته وتوصياته، وقرر معالجة الموقف بنفسه. فنظم قوة مكونة من ١٨ ألف مقاتل، وقادها إلى الأندلس، لمتابعة أعمال الفتوح من جهة، ولتكوين قوة دعم إضافية تأخذ على عاتقها دعم قوة المسلمين الرائعة التي كان يقودها طارق، وقد أحيطت هذه العملية، عملية عبور موسى بجيش المسلمين ودعمه لطارق بن زياد، بالكثير من التفسيرات، بعضها مجانب للحقيقة، وأكثرها غير واقعي، وسيتم دحضها من خلال مجرى تحليل «فن الحرب» عند القائد العربي موسى بن نصير.

= والمرية ومملكتي جيان ومالتة، وهي كثيرة الكثبان والأشجار والأنهار وما يطول ذكره من صنوف الخيرات. وكانت البيرة قاعدة المملكة في القديم، ولها ذكر شهير، ومحل عظيم، إلا أن رسمها قد طمس، ولم يبق منها إلا بعض أثر.

(١) **جيان** Jaen: مدينة لها كورة (ناحية) بالأندلس، وهي مملكة جليلة بموسطة الأندلس، معروفة بالمحارث والأخشاب. وهي بين غرناطة وطليطلة ومرسية، وقد جمعت تناهي طيب الأرض وكثرة الثمر، وغزر السقيا واطراد العيون وكثرة الحرير. ومدينة جيان من أعظم مدن الأندلس في المنعة، لا ترام بقتال. وتعرف بجيان الحرير لكثرته فيها. (**المغرب في حلى المغرب** ٢/ ٤٩ ـ ٥١).

(٢) **طليطلة** Toledo: كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق، وهي مشرفة على ما يليها من الأندلس إلى الجنوب. وأصل التسمية لاتيني Tuledo ومعناها (أنت فارح) واشتهرت منذ أيام العرب المسلمين بصناعة السيوف المزينة بالنقوش العربية ولا زالت.



الفتح الإسلامي للأندلس

٣ ـ موسى بن نصير في الأندلس

أقبل موسى بن نصير إلى الأندلس ومعه جماعة الناس وأعيانهم، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان (٩٣هـ/ ٧١٢م)، وتنكب الجبل الذي حله طارق، ودخل على الموضع المنسوب إليه، والذي أصبح يعرف بجبل موسى، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال:

«**ما كنت لأسلك طريق طارق، ولا أقفو أثره**». فقال له أصحاب يوليان: «نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطراً، وأعظم خطباً، وأوسع غنماً من مدائنه، لم تفتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى». فملئ سروراً.

حينما وطئت قدم موسى الأندلس، أسرع يوليان للقائه، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر. وأقام موسى أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة، وعندما قرر المسير للقتال، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب، وعددها يزيد على عشرين راية، وتفاوض الجميع في الرأي، وكيف تكون الخطة العسكرية للفتح، فأجمعوا على السير إلى إشبيلية[١] وغزو ما بقي من غرب الأندلس حتى أكشونية[٢]. وكان هذا الاجتماع قد تم عقده في المسجد الذي أقيم فيه (مسجد الرايات)، إذ لم يبرح موسى موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً، وكان يقابل بباب البحر من أبواب المدينة.

سار موسى بجيشه في جانب ساحل شذونة، فافتتحها عنوة، وألقى أهلها

---

(١) إشبيلية Seville: مدينة في جنوب الأندلس، مشمسة، مبهجة، مليئة بالزهور يربطها بالبحر نهر الوادي الكبير R. Guadalquivir من أعظم مدن الأندلس. بناها يوليوس قيصر Julius-Ceasar. (١٠١ ـ ٤٤ق.م.) حيث ردم على النهر الأعظم مكاناً وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد.

(٢) **أكشونية** Ocsonoba: مدينة على المحيط.

بأيديهم إليه. ثم سار إلى مدينة قرمونة[1] وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد من يرومها بحصار أو قتال، فدخلها بحيلة، إذ توجه إليها أصحاب يوليان، ودخلوا إليها وكأنهم فلال (فلول)، وطرقهم موسى بخيله ليلاً، ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس فملكت المدينة.

قاد موسى جيشه بعد ذلك إلى رعواق[2] فافتتحها. وبلغ موسى أن إشبيلية قد نقضت عهدها الذي عقدته مع طارق، فسار إليها، وحاصرها حصاراً شديداً، ولكنها امتنعت عليه أشهراً. ثم فتحها الله عليه، وهربت عاميتها إلى باجة[3] فخلف موسى بها رجالاً.

ومضى من إشبيلية إلى ألفنت[4] حيث سلم له أهلها بدون مقاومة؛ ومضى نحو هدفه متتبعاً طريقاً رومانية قديمة كانت تصل إشبيلية بماردة[5] وسمي الطريق التي سلكها موسى بين ألفنت وماردة باسم (فج موسى). وعندما وصل موسى إلى ماردة، وجد أن أهلها قد تحصنوا، وهم في منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم. وعمل موسى دبابة، دب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم (ألاشه ماشه)[6] فنبت عنه معاولهم وعدتهم. وثار بهم العدو على غفلة، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة، فسمي ذلك الموضع (برج الشهداء). ثم دعا القوم إلى السلم، فتقدم إليه قوم من أماثلهم وأعطاهم الأمان، وأمكن الوصول إلى الصلح (على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جيليقية، وأموال الكنائس وحليها

---

(١) قرمونة Carmona: مدينة إلى الشمال الشرقي من إشبيلية وعلى بعد ٣٥كم منها. معقل عظيم من جهة الارتفاع.

(٢) رعواق Alcala De Guadaira، وهي تعرف بقلعة وادي إبرة أو قلعة جابو.

(٣) **باجه** Beja: كورة (ناحية) متصلة بكورة ماردة - في البرتغال، وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقي الأشبونة، وهي من أقدم مدائن الأندلس، بناها أول قياصرة الرومان. أرضها أرض زرع وضرع ونوارها يحسن للنحل، ويكثر عنه العسل (**المغرب في حلى المغرب** ١/ ٤٠٣).

(٤) **الفنت** Fuente De Cantos وهي غير لفنت في جنوب الشاطئ الغربي من الجزيرة.

(٥) **ماردة** Merida: إحدى القواعد التي بناها الرومان. بينها وبين قرطبة ستة أيام.

(٦) **ألاشه ماشه** Argamasa: أي الإسمنت. وفي المعاجم الإسبانية Laxmax وهي كلمة لاتينية معربة Alaya-Maya.

للمسلمين)، ثم فتحوا له المدينة (يوم الفطر سنة ٩٤هـ الموافق ٣٠ حزيران - يونيو ٧١٣م).

اجتمعت بقايا قوات القوط في مدينتي باجة ولبلة[١] وأعادوا تنظيم أنفسهم، وأعلنوا اعتصامهم في إشبيلية، وقتلوا من المسلمين ثمانين رجلاً تقريباً. ووصلت فلول المسلمين إلى موسى وهو يحاصر ماردة، فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم، ففتح إشبيلية، وقتل أهلها. ونهض إلى لبلة ففتحها، واستقامت له الأمور هنالك وعلا الإسلام، وأقام عبد العزيز بإشبيلية على رأس حامية من المسلمين.

توجه الأمير موسى إلى ماردة، في عقب شوال لمتابعة عملياته بعد أن قضى شهراً في ماردة وهو ينظم أموره ويعيد تنظيم قواته استعداداً للمرحلة التالية وهي فتح شمال - غربي الأندلس، والقضاء على بقايا قوات القوط، وعلى رأسهم روذريك، التي تجمعت هناك مستفيدة من وعورة المنطقة وصعوبة دروبها ومسالكها من جهة، وحتى يكون باستطاعتهم الهرب إلى منطقة القلاع (قشتالة)[٢] و(أسترامادرة) إذا ما وطئت أقدام المسلمين شمال - غربي الأندلس. وتوافرت المعلومات للأمير موسى عن تجمع قوات روذريك في حصون سلسلة جبال (سيرا ديفرانسيا)[٣] للوثوب على جيش المسلمين وضرب مؤخراته.

كان هدف موسى الوصول إلى طليطلة، ولهذا طلب موسى إلى طارق أن يلقاه في طلبيرة[٤] لإحباط خطة روذريك، وحتى يتم له القضاء على قواته. وخرج طارق بجيوشه ملبياً أوامر موسى، وسار مسافة ١٥٠ كيلو متراً تقريباً بحذاء وادي يقال له الأروكامبو[٥]. وانتظر موسى في مكان من هذا الوادي بين التاجة ونهر التيتار؛ أصبح فيما بعد يعرف باسم المعرض[٦].

---

(١) لبلة Niebla: كانت مركز ناحية تعرف باسمها وهي على بعد خمسين كيلومتراً غرب إشبيلية وتتبع مديرية ولبه Huelva. (**نفح الطيب ١/ ١٦٨ ومعجم البلدان ٧/ ٣١٩**).

(٢) **قشتاله**: إقليم عظيم بالأندلس (في هضاب الميزيتا الصعبة من وسط الأندلس).

(٣) **سلسلة جبال دي فرانتيا** Sirra De Francia: مما يلي وادي أنه إلى الشمال.

(٤) **طلبيرة** Talavera: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، كبيرة، قديمة البناء على نهر تاجة.

(٥) **الأروكامبو** Valle De Arrocampo.

(٦) **المعرض** Almaraz: سمي بهذا الاسم، لأن موسى استعرض قواته عند الوصول إلى هذا الوادي (**تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ٩٨**).

خرج طارق معظماً للأمير موسى، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في تسرعه لاقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق، وقال له: «إنما أنا مولاك، وقائد من قوادك وما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك» فاصطلح موسى مع طارق، وأظهر الرضى عنه، وأمَّره على مقدمته، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه.

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة[1] حتى وصل نقطة التقاء طريق ماردة - سلمنقة مع طريق ألبه دي تورميس - إلى ثيوداد رودريكو[2]، ومضى في فج أصبح يعرف باسم (فج أو وادي موسى)[3]. وظن رودريك أن الفرصة قد أصبحت مناسبة للانقضاض على جيش المسلمين، نتيجة لتوسطهم ذلك الطريق الطويل وابتعادهم عن كل مركز يمكن له تقديم دعم لهم. فقام بهجوم مباغت عرفه المسلمون باسم «معركة السواقي»[4] بالقرب من مدينة تمامس[5] حيث وقعت المعركة الحاسمة الثانية (عام ٩٤هـ/ ٧١٣م). وفي هذه المعركة لقي رودريك مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير، وتمزقت بقية قوات القوط[6]. وعندما كان القائد موسى بن نصير يخوض معركته الحاسمة ضد رودريك وبقايا القوط، أعلن أهل طليطلة نقضهم للعهد، مستفيدين من انشغال المسلمين عنهم، وانصراف طارق عن حاضرتهم، فأعاد موسى فتحها. وسلم طارق لموسى ما كان قد حصل عليه من مغانم الأندلس[7]. وأقام

---

(١) سلمنقة Salamanca مدينة بثغر الأندلس.

(٢) **ألبه دي تورميس** Alba De Tormes وثيوداد رودريكو Giudad Rodrigo.

(٣) **وادي موسى** Valmuza.

(٤) **السواقي**: وهي سيجويلادي لوس كورنيجوس Segoyuels De Los Cornejos.

(٥) **تمامس** Tamames المجاورة لنهر باربالوس Barbalos.

(٦) تذكر بعض المصادر العربية أن رودريك قتل في معركة وادي لكه، ولكن المصادر الأكثر وثوقاً، والتي تؤيدها أيضاً دراسات الباحثين الغربيين، تثبت أن رودريك لقي مصرعه في هذه المعركة. ولمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى **فجر الأندلس** - الدكتور حسين مؤنس ص٩٨، وكذلك **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس** - الدكتور السيد عبد العزيز سالم. ص٩٨ - ١٠٠.

(٧) كان من بين المغانم التي أحدثت دوياً هائلاً، تلك المائدة التي قيل خطأ إنها مائدة سليمان بن داود ﷺ، ويجمع المؤرخون تقريباً على أن طارق قد غنم هذه المائدة - التي هي مذبح لكنيسة طليطلة - من مدينة المائدة (التي هي في الغالب قلعة هنارس Acala De Henares). وأوضح ابن حيان قصة المائدة بقوله: «وهذه المائدة المنوه باسمها، المنسوبة إلى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام، لم تكن له فيما زعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم =

موسى بطليطلة طوال فصل الشتاء (من عام ٩٤هـ/ ٧١٣م) بهدف تنظيم المجتمع الجديد وإعادة تنظيم قواته، ثم ضرب النقود الذهبية والبرونزية لصرف أعطيات الجنود وذلك بدار السكة القوطية بطليطلة[(١)].

بعث موسى وهو في طليطلة رسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينقلان إليه أخبار الفتح العظيم، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح[(٢)] وكان رجلاً صالحاً في الثمانين من عمره تقريباً ومغيث الرومي[(٣)] فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك فلما دخل وفد موسى على الوليد، قال علي بن رباح: «يا أمير

= كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها. فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل، وتأنقت الأملاك في تفخيمها، يزيد الآخر منهم فيها على الأول، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات، وطار الذكر مطاره عنها. وكانت مصوغة من خالص الذهب، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد، لم تر الأعين مثلها، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلا دون ما يكون فيها. وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة، فأصابها المسلمون هناك، وطار النبأ الفخم عنها. وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذي فعله على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه، فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده، فكان من فلجه به على موسى عدوه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور» ـ انتهى. وقال بعض المؤرخين إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد، وكلها مكللة بالجواهر ـ انتهى. (**فتح الطيب** ١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(١) رسمت هذه الدنانير الذهبية فكتب على وجه منها (محمد رسول الله) باللغة اللاتينية:

In Nomine Don Deux Nisi. Solus Spiens-Non Deo Similis Alius.

وفي الوجه الثاني نجمة ذات ثمانية أشعة (أذرع) وعليها:

.Solidus Feritus In Spania

ويلي ذلك تاريخ سكها وهو سنة ٩٧هـ. وقد تكون هذه استمراراً لما تم ضربه منها في عام ٩٤هـ.

(٢) **علي بن رباح اللخمي**، أبو عبد الله، من التابعين الداخلين للأندلس، ولد سنة ١٥هـ (عام اليرموك) وكان أعور، ذهبت عينه يوم ذات السواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة ٣٤هـ. وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان. وكانت له عند عبد العزيز منزلة، وهو الذي زفَّ أم البنين، بنت عبد العزيز، إلى الوليد بن عبد الملك، ثم عنت عليه عبد العزيز فأغزاه أفريقية، فلم يزل بأفريقية حتى توفي بها عام ١١٤هـ. (**نفح الطيب** ٤/ ٨).

(٣) **مغيث الرومي**: وذكر ابن حيان أنه ليس برومي، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن =

المؤمنين! تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه». ثم رفع إليه الكتاب من عند موسى، فقرأه الوليد، فلما أتى على آخره خر ساجداً.

قرر موسى متابعة فتح شبه جزيرة الأندلس، بعد أن انقضى فصل الشتاء، واطمأن إلى رسوخ دعائم المجتمع الجديد، فجمع جيوشه وزحف نحو سرقسطة[1] وكان طارق على مقدمته وقد أمره بالتقدم أمامه في أصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه. فارتقى إلى الثغر الأعلى، لا يمر بموضع إلا افتتحه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه. وعندما أشرفت طلائع المسلمين على سرقسطة، أسرع أسقفها بنسيو[2] وقد تملكه الرعب، فانصرف ومن معه من الرهبان لجمع كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة، وأجمعوا على الفرار من البلد والفرار بهذه الذخائر. وعندما علم موسى بذلك أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم، وعدلوا عن مغادرة المدينة، وفتحت سرقسطة أبوابها للمسلمين (٩٤هـ/ ٧١٣م)[3]. وانطلق موسى نحو الشمال ففتح وشقة ولاردة وطركونة، وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً جرداء، يتحدث أهلها بلغة

= الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، سبي من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد. وأنجب في الولادة، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم وتفرعت دوحتهم. وقد كلفه طارق بفتح قرطبة، فأظهر كفاءة حتى فتحها ثم فتح الكنيسة التي تحصن بها ملك قرطبة، كان شديد الذكاء، عظيم الدهاء، زلق اللسان لم يذكر له مولداً ولا وفاة. (**نفح الطيب** ٢/ ١٢).

(١) **سرقسطة** Saragossa: أهم مدن أراغون في شمال شرقي الأندلس، تقع على نهر إبره Ebro، وقد بناها القيصر أوغست Caesar-Augusta عام ٢٣ق.م. على أنقاض المدينة الإيبيرية القديمة التي كانت تعرف باسم سلدوبا Salduba.

(٢) الأسقف بنسيو Bencio: (**فجر الأندلس** ـ الدكتور حسين مؤنس ١٠٢).

(٣) وكان التابعي حنش **الصنعاني** (من صنعاء الشام) في جيش موسى، وهو الذي أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة. وعندما وصل سرقسطة أسس جامعها مناراً للإسلام، وبها مات، وقبره بها معروف عند باب اليهود، غربي المدينة، وهو الذي أخذ أيضاً قبلة جامع البيرة، وعدل وزن قبلة جامع قرطبة الذي هو فخر الأندلس. (**نفح الطيب** ٣/ ٨).

لاتينية، لا يفهمها الأسبان الآخرون الملازمون لموسى، فزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم. وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس، وقالوا: «أين تذهب بنا؟ حسبنا ما في أيدينا». وكان موسى قال حين دخل أفريقية، وذكر عقبة بن نافع: «لقد كان غرر بنفسه حين وغل في بلاد العدو، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟». فسمعه حنش الصنعاني، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح، قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال: «أيها الأمير، إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم. أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا؟ أو تلتمس أكثر مما آتاك الله ﷻ، وأعرض مما فتح الله عليك ودوخ لك. إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا الدعة». فضحك موسى ثم قال: «أرشدك الله وكثر في المسلمين أمثالك». ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول: «**أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية «روما» ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله**». ثم إن موسى أقام لتمييز ذلك وقتاً، وأعاد تنظيم قواته، وبعث سراياه بقيادة طارق فملكت مدينتي برشلونة[١] وأربونة[٢] وصخرة أبينيون[٣] وحصن لوذون[٤] على وادي رُودنه[٥]، وكان وادي رُودنه، «هو أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم (فرنسا)».

في الوقت الذي كان فيه موسى يطهر الشمال من بقايا القوط، كان ابنه

---

(١) **برشلونة** Barcelona، عاصمة كاتالونيا Catalonia. ثاني الأندلس في الأهمية. يزيد عمر المدينة على ألفي عام. تقع المدينة فوق سهل مستو رملي، تحيط بها الطنف المكونة من الحجر الرملي، وتعتبر ضاحية جبل الشويخ Mont Juich بحدائقها ومنتزهاتها وشوارعها المتعرجة الضيقة نموذجاً للمدن العربية القديمة. وتقع برشلونة على البحر الأبيض المتوسط، ويعتبرها بعض جغرافيي العرب ليست من مدن الأندلس وإنما من مدن الإفرنج (فرنسا).

(٢) **أربونة** Narbona: مدينة على البحر الأبيض المتوسط، عند السفح الشرقي لجبال البيرنه من المدن الإفرنسية، اتخذها المسلمون ثغراً متقدماً وهي إلى الشمال الشرقي من قرقشونه.

(٣) **صخرة أبينون** Avignon: مدينة صغيرة في جنوبي فرنسا، إلى الشمال من آرل على نهر الرون.

(٤) **لوذون** Leon: (ليون) من المدن الإفرنسية في وادي الرون، وهي غير ليون في جيليقية.

(٥) **وادي رودنه** V. Rhone: هو وادي الرون حيث يخترقه نهر الرون الذي يصب في مرسيليا.

عبد العزيز ينطلق بجيش من المسلمين لفتح غرب الأندلس (البرتغال حالياً). فانطلق من باجه إلى يابرة[(١)] ومنها إلى شنترين[(٢)] ثم إلى قلمرية[(٣)] وتابع تقدمة حتى استرقة في جيليقية[(٤)]، وقد استغرقت هذه العملية سنة **٩٥هـ/ ٧١٤م** كلها. وفي أسترقة تم لقاء موسى بابنه عبد العزيز، وقيل: «إن موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدمير[(٥)] ففتحها، وإلى غرناطة[(٦)] ومالاقا[(٧)] وكورة ريا ففتح الكل»[(٨)].

خضعت الأندلس في معظمها لقوات المسلمين، ولم تبق إلا منطقة واحدة لم تدخلها قواتهم هي جيليقية، وكانت نفسُ موسى بن نصير في ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر (جيليقية). فبينما هو يعمل في ذلك ويعدله، إذ أتاه مغيثٌ الرومي، رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه، يأمره بالخروج عن الأندلس، والإضراب عن الوغول فيها، ويأخذه بالقفول إليه، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته. فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة، وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياماً، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة،

---

(١) **يابرة** Evora: من المدن المشهورة في المملكة البطليوسية، وهي في غرب الأندلس.

(٢) **شنترين** Santarem: مدينة في كورة باجة من منطقة البرتغال، وتبعد **٦٧** كيلومتراً عن الأشبونا شمالاً. تقع على نهر التاج (تاجة) قرب انصبابه في المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً وبينها وبين باجة أربعة أيام. (**معجم البلدان ٥/ ٣٠٠**).

(٣) **قلمرية** ـ Coimbra: تقع شمال شنترين.

(٤) **أسترقة** Astorga: من مدن إقليم جيليقية، تتميز بمنعتها ووعورة المسالك فيها. تقع إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلة Niebla. أما جيليقية فهو أصعب أقاليم الأندلس، يقع إلى الشمال الغربي من شبه الجزيرة. ويلفظ غاليسيا Galicia.

(٥) **تدمير** Tadmeer: من كور الأندلس الشرقية، وتسمى مصر أيضاً لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها، فتزرع كما ترزع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير (مرسية) وتسمى البستان لكثرة جناتها. (**نفح الطيب ١/ ١٦٤**).

(٦) غرناطة Granada: مثل شعارها (الرمانة المفتوحة) تقع فوق ثلاثة تلال جنوب جبال الثلج (سيرا نيفادا). من أشهر بلاد الأندلس، وهي دمشق بلاد الأندلس، وتسمى كورة البيرة التي منها غرناطة دمشق، لأن جند دمشق نزلوها عند فتحها، وقيل: إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار وكثرة الأشجار. (**نفح الطيب ١/١٤٨**).

(٧) مالاقا Malaga: مدينة عامرة. تعتبر ميناء لغرناطة، لا زالت تحتفظ بآثار رومانية وعربية. أما البيرة Elvira فهي بلدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس.

(٨) **نفح الطيب ١/ ٢٧٥**.

ففعل، ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو[1] وحصن لك[2] فأقام هناك، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي[3] على البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) فلم تبقَ كنيسة إلا هدمت، وسكنت العرب المفاوز. وكان العرب والبربر كلما مرَّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين، فاتسع نطاق الإسلام بأرض أندلس. ووهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب إليه وهو (بلاط مغيث) بجميع أرضه، من أرض الخمس، نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته في غزو جيليقية.

عندما حقق موسى أهدافه، بادر بالسير شمالاً لفتح قشتالة القديمة، وكان يتفرع من سرقسطة طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب، الأول يذهب بحذاء نهر إبرة (الأبرو) حتى هارو[4] ومن هناك يتبع برفيسكا[5] ثم أماية ثم ليون[6] وأسترقة. والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايته، ويتجه إلى قلونية

---

(١) **حصن بارو** ـ وهو يقابل Viseu الواقع إلى الجنوب الشرقي من أويورتو. ويرى بعض المؤرخين أن وصول موسى إليها، حيث كان في وقت قصير، أمر عسير جداً، ولذا قدروا أن تكون بارو، أو بارو في منطقة بلد الوليد، أي البلد المسماة Villa Baruz.

(٢) **حصن لك** هي Lucus Aspurum وتسمى اليوم Maria De Lugo.

(٣) **صخرة بلاي** Pena De Pelayo، وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي. أما بلاي الذي تنسب الصخرة إليه فقد جاء ابن حيان على ذكره: «بعد أن فتح المسلمون الأندلس، قام بجيليقية علج خبيث يدعى بلاي، فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه. ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من أرضهم... وقيل: إنه لم يبق بأرض جيلقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العلج. ومات أصحابه جوعاً، إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جياح (خلايا) معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين بوعرها، إلى أن أعيى المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم. فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها مدن الأندلس العظيمة». (للمزيد عن بلاي: راجع **نفح الطيب** ٣/ ١٧ و٤/ ٣٥٠ و٣٥١. وكذلك **أخبار مجموعة** ٦١، وابن عذارى ٢/ ٢٩ **وفجر الأندلس** ـ الدكتور حسين مؤنس ٣١٣ ـ ٣٤٢).

(٤) نهر إبرة R. Ebro: نهر ينبع من القلاع وترفده روافد كثيرة في شمال الأندلس. يصب في البحر الأبيض المتوسط عند طرطوشة. وأشهر المدن التي تقع عليه: مكناسة، وسرقسطة، وتطيلة، وهارو Haro.

(٥) **برفيسكا** ـ Bariviesca. **وأماية** Amaya.

(٦) **ليون** ـ Leon بلد في منطقة جيليقية.

وبلنسية[١]، ويلتقي بالطريق الممتد من ماردة إلى أسترقة[٢] في مدينة بنافنتي. وقسَم موسى جيشه إلى مجموعتين قتاليتين: مجموعة بقيادته، والأخرى بقيادة طارق. وعهد موسى إلى طارق بالسير في الطريق الأول، أدنى سفوح جبال كنتبريه، واختار موسى الطريق الثاني. وقد شرع طارق بمهاجمة البشكنس (الباسك) غربي نهر إبرة، فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فرتون) بداً من الدخول طاعة المسلمين، ثم اعتنق الإسلام، ولهذا أعفيت شية[٣] (منطقته) من التخميس (وإليه ينسب بنو قسي، أصحاب الثغر الأعلى الذين كان لهم شأن في تاريخ مسلمي الأندلس)، ثم تابع طريقه ففتح أماية وأسترقة كما فتح ليون أيضاً.

في الوقت الذي كان فيه طارق يسير على محور تقدمه، المحور الشمالي، كان موسى يسير على الضفة الشرقية لنهر إبرة في إقليم قشتالة، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤوساء هذه الناحية. وبدلاً من أن يعرج على أسترقة ليلتقي بجيش طارق، فقد انحرف إلى الشمال، ثم سار حتى بلغ خيخون[٤] ومنها أرسل سراياه إلى جميع النواحي.

أصبح على موسى بن نصير، وقد أنهى الأعمال القتالية، أن ينظم المجتمع الجديد، حتى أنه «**لم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم، وتصيرت ملكاً لهم، إلا قسم بينهم أراضيها**، إلا ثلاثة بلاد، هي شنترين، وقلمرية في الغرب، وشية في الشرق، وسائر البلاد خمست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير».

وأصبحت الحدود الشمالية مع بلاد الإفرنج (فرنسا) آمنة، فنظم موسى الثغور مع فرنسا[٥]. وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل، إذ قدم عليه

---

(١) بلنسية ـ Balencia كورة ومدينة بالأندلس شرق قرطبة.

(٢) أسترقة ـ Astorga.

(٣) شية ـ Ejea.

(٤) جيجون ـ Gijon.

(٥) تذكر بعض المصادر أنه عندما تجاوزت قوات المسلمين جبال البيرينه «اجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله Carlus = Charle شارل المطرقة، وقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل، وقلة عدتهم، وكونهم لا دروع لهم». فقال لهم ما معناه: «الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا =

رسولٌ آخر من الخليفة يكنى «أبو نصر»، أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى في القفول، وكتب إليه يوبخه، ويأمره بالخروج، وألزم رسوله إزعاجه. فانقلع حينئذ من مدينة لك بجيليقية، وخرج على الفج المعروف بفج موسى، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى، فأقفله مع نفسه، ومضيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها، وقفل معه الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا بإشبيلية، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس، وأقره بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان المجاز، وركب موسى البحر إلى المشرق، بذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه (٧١٤م).

= المساكن، ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر».
عن الحجازي في المسهب (نفح الطيب ١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

الفَصْلُ الثَّاني

موسى وفن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي (دعامة الإسلام).

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.



أ ـ في الاستراتيجية العليا

«أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية (روما) ثم يفتحها الله على يديَّ إن شاء الله»

(موسى بن نصير)

يظهر العرض السابق، على ما به من إيجاز، الملامح العامة لكفاءة موسى بن نصير القيادية، وهي كفاءة تمتزج فيها أسس الاستراتيجية العليا بمبادئ الحرب في إطار التكامل الرائع، والتوازن الدقيق المحكم وذلك عند مجابهة كل موقف من المواقف. وربما كانت المعرفة الدقيقة لميزات العدو والصديق، والتقدير الصحيح للمعطيات الثابتة والمتغيرة هي ما تميزت به شخصية موسى القيادية.

جلس موسى بن نصير يوماً إلى سليمان بن عبد الملك، بعد عودته إلى دمشق واستقراره فيها، فسأل سليمان: «**أي الأمم كانوا أشد قتالاً؟**». وأجاب موسى: «إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم!». فقال له: «**أخبرني عن الروم**». فقال موسى: «أُسود في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم. إن رأوا فرصة افترصوها، وإن خافوا غلبةً فأوعال ترقل ـ تسرع ـ في أجبال، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة!». قال سليمان: «**فأخبرني عن البربر**». فقال: «هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب: لقاء ونجدة، وصبراً وفروسية، وسماحة وبادية، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر ـ قبل إسلامهم». قال: «**فأخبرني عن الأشبان ـ الإسبان**»، فقال: «ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون». فقال: «**فأخبرني عن الإفرنج**» فقال: «هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة، والجلد والشدة، وبين ذلك أمم كثيرة، ومنهم العزيز ومنهم الذليل، وكلاً قد لقيت بشكله، فمنهم المصالح ومنهم المحارب المقهور، والعزيز البذوخ». فقال: فأخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم، أكانت عقباً ـ بمعنى التناوب بين النصر والهزيمة ـ؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، **ما هزمت لي راية قط. ولا**

فُضَّ لي جمع، ولا نكب المسلمون معي نكبة، منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين». وهنا رغب سليمان بممازحته فقال له: «فأين الراية التي حملتها يوم مرج راهط مع الضحاك؟». فأجابه موسى فوراً: «تلك يا أمير المؤمنين زبيرية، وإنما عنيت المروانية». فقال سليمان: «صدقت». وأعجبه قوله.

تلك هي بعض من ميزات موسى القيادية: معرفة شاملة وعميقة، وقوة في الشخصية، وحضور بديهة، يمكن من خلالها تحديد معالم الاستراتيجية العليا عنده، وتطبيق مبادئ الحرب وفقاً للظروف والمواقف.

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

عندما وصل موسى بن نصير أفريقية، حدد مخطط عملياته، على أساس **عدم التعرض للعدو الأقصى قبل القضاء على العدو الأدنى، وكذلك عدم التوغل قبل احتلال القلاع جميعها، وتصفية كل مقاومة في الجبال**. وقد طبق موسى هذه الاستراتيجية بدقة، منطلقاً من القيروان إلى ما حولها، وأخضع القبائل المتمردة على التتابع. وعندما أصبح الأمن مستتباً، انتقل إلى المغربين الأوسط والأقصى (الجزائر والمغرب) من دون أن يخشى انتفاض قبيلة أو ثورة مدينة.

طبق موسى بن نصير هذه الاستراتيجية ذاتها عندما وجه طارقاً لفتح الأندلس، فأوصاه بعدم مغادرة مواقعه في وادي لك. وعندما بلغه توغل طارق، غضب، وأسرع إلى قواته يحشدها، وينقلها عبر مضيق طارق، ثم يقودها في الأندلس وفق هذه الاستراتيجية ذاتها، بحيث لم يتقدم من موقع إلى موقع قبل القضاء على كل مقاومة.

إن هذا يوضح استمرار الصراع لمدة ثلاثة أعوام، كان العمل يتم خلالها بالتوسع التدريجي، على محاور واضحة وفي مناطق مميزة. وعندما وجد موسى نفسه مرغماً على ترك مسرح عملياته، بذل كل ما يستطيعه حتى يترك قاعدة قوية ومأمونة، فأقنع مغيثاً الرومي بالتأخر لتصفية بقية قوات القوط في جيليقية وفي المناطق الشاملية (قشتالة والباسك)، وبعد أن أكمل تحصين قاعدة الأندلس، غادرها وهو مطمئن إلى سلامة موقف المسلمين فيها.

لقد جابه القائد موسى بن نصير مواقف جديدة تتناقض مع استراتيجيته في الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة. فقد كانت بعض المقاومات تعتصم في حصونها المنيعة، وترفض التسليم أو الاستسلام، على نحو ما حدث في سبتة،

حيث امتنع يوليان عن التسليم واستمر في المقاومة. كما تكرر مثل هذا الموقف في الأندلس، وكانت طريقة معالجة هذا الموقف هي ترك حامية قوية تحكم الحصار على الأعداء، ولا تغادرهم حتى ترغمهم على الاستسلام، وقد أصبحت هذه الطريقة بمثابة عقيدة ثابتة عند موسى بن نصير. فقد بعث سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى أرض الروم، ووجه معه خمسمائة وثلاثين ألف رجل وخمسمائة ممن ضمه الديوان واكتتب في العطاء. ودعا سليمان موسى بعد أن رضي عنه، على يد عمر بن عبد العزيز، فقال سليمان له: «**أشر علي يا موسى، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل الله، بعيد الأثر، طويل الجهاد**». فقال له موسى: «أرى يا أمير المؤمنين أن توجهه بمن معه، فلا يمر بحصن إلا صيَّر عليه عشرة آلاف رجل، حتى يفرق نصف جيشه، ثم يمضي بالباقي من جيشه حتى يأتي القسطنطينية، فإنه يظفر بما تريد يا أمير المؤمنين». فدعا سليمان مسلمة، فأمره بذلك عن مشورة موسى.

تظهر على ضوء هذه الاستراتيجية الملامح الواضحة لتطلعات القائد موسى بن نصير، «لقد أجمع موسى، **أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام دروبه** ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة». إن هذه التطلعات ليست ضرباً من الخيال الطوباوي، وإنما هي خطة استراتيجية تعتمد على الوسع التدريجي والانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، إلى قاعدة جديدة، تماماً كما حدث عند فتح الشام والعراق، حيث توقف المسلمون، وأعادوا بناء القاعدة، وأفادوا من إمكاناتها للانطلاق شرقاً حتى أزالوا الامبراطورية الفارسية، وغرباً حتى أزالوا الوجود البيزنطي من أفريقيا. وقد أفاد موسى من نجاح تجربته في أفريقية أولاً، ثم في الأندلس ثانياً، ليعزز يقينه في صحة هذه الاستراتيجية وإمكان تطبيقها لتحقيق تطلعاته الطموحة. لقد كان نجاح هذه الخطة يعتمد على مجموعة من العوامل، أولها العامل الزمني، ولم يكن القائد موسى في عجلة من أمره عندما قال: «أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى روما ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله»، فقد كان يشعر أن باستطاعته تحقيق ذلك على مراحل زمنية متتابعة. والثاني هو عامل القوى والإمكانات، ولا ريب أنه كانت لدى موسى القوى اللازمة لتحقيق مخططه الطموح. وعلاوة على ذلك، فقد كان باستطاعته الإفادة من قوى القاعدة المأمونة السابقة، لمهاجمة القاعدة

التالية واحتلالها، ثم تجنيد إمكانات وقوى هذه القاعدة للانتقال إلى غيرها، وهكذا.

إن التزام القائد موسى بن نصير بهذه الاستراتيجية، وتمسكه بها، يوضح سبب غضبه عندما بلغه توغل طارق بن زياد ومخالفته لتعملياته، ويدحض بالتالي قصة الغيرة والحسد، وغير ذلك من الصفات التي لصقت باسم القائد المسلم عن قصد وعن غير قصد. فالخلاف هو خلاف مبدئي، يرتفع عن النوازع الشخصية، ونقاط الضعف الناتجة عن الانفعالات الإنسانية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن عمل موسى بهذه الاستراتيجية إن هو إلا برهان عميق على صدق إيمان الرجل بما جاء به الإسلام من تعاليم قتالية، وما طبقه الرسول القائد ﷺ في حروبه، وقلده القادة التابعون بعد ذلك.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد

عندما عاد موسى إلى القيروان، بعد فتح المغرب أدناه وأقصاه، استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده ١٩ ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم. وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلِّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام. فقد كان الهدف من الفتوحات: تعليم القرآن ومبادئ الإسلام، وإعادة تنظيم المجتمع بشكل يؤدي إلى سيادة قيم مختلفة عن السابقة، ومثل لم تكن له من قبل، وكان واجب العرب هو الاضطلاع بهذا العبء. وقد استمر موسى بتنفيذ هذا الواجب بدقة في كل موقع ينزله، وعند كل مدينة يقتحمها، وكانت طريقته هي ترك حامية من أهلها مع عدد يسير من العرب لتعليم القرآن وفرائض الإسلام.

وعندما نزل موسى بالأندلس، وقبل أن يغادر الجزيرة الخضراء، عقد اجتماعاً في المسجد الذي أقيم فيه (مسجد الرايات)، إذ لم يبرح موسى موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً، وقد كرَّر ذلك في قرطبة، وإشبيلية، وسرقسطة، وفي كل مدينة وصلها موسى من مدائن أفريقية والأندلس، ليكون ذلك حجراً أساسياً في بناء المجتمع الجديد، وهو مما يدل على تصميم موسى وحفاظه على الهدف.

كان بناء هذه القاعدة الروحية يتطلب إعادة بناء القاعدة المادية أيضاً، فعمل موسى على ضرب عملة ذهبية للتداول عندما كان في أفريقية، وعندما استقر به

الأمر في طليطلة، اعتبر موسى أن إقليم الأندلس يتبع ولايته في أفريقية، فأعاد العملية ذاتها وضرب نقوداً ذهبية، للتعامل بدينار يحمل شعار المسلمين.

وكانت عملية بناء المجتمع الجديد تتطلب تحديد العلاقة بين السكان بعضهم مع بعض من جهة، وبينهم وبين المسلمين من جهة أخرى. ونظراً لما كان يتطلبه ذلك من وقت، فقد كان أحد العوامل التي فرضت على موسى بن نصير التوقف في كل منطقة قبل متابعة الفتوح، وعدم الانتقال من قاعدة إلى قاعدة قبل تحديد العلاقات الجديدة وفقاً للتشريع الإسلامي، وكان هذا العامل هو أحد عوامل تثبيت القاعدة القوية والمأمونة للمسلمين. وعندما غادر موسى الأندلس عائداً إلى الشام كان الوضع كما ذكرنا سابقاً: «لم يبق بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصيَّرت ملكاً لهم، إلا قسم أراضيها عليهم... وخمست سائر البلاد، وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير».

كان موسى في عمله هذا، متبعاً غير مبتدع، ومقلداً غير مجتهد، فقد كانت أمامه سيرة الخالدين من الفاتحين المسلمين، أبو عبيدة وسعد وعمرو بن العاص وغيرهم. وكانت أسس الشريعة، واجتهادات أُمراء المؤمنين قد عالجت المواقف المختلفة جميعها، وحددت العلاقات بدون لبس أو غموض. ولكن القواعد والقوانين تبقى نصوصاً جامدة، إن لم تبعث فيها الحياة عند تطبيقها، وهنا تظهر كفاءة موسى بن نصير، فقد كان يعمل بعيداً عن مقر الخلافة، وكانت مجابهة المواقف تتطلب السرعة في اتخاذ القرار والحزم في تنفيذه، لا سيما وأن مصير المجموعات الإنسانية مرتبط بهذه القرارات، وعلاوة على ذلك فقد كان بناء المستقبل أيضاً متعلق بعدالة هذه القرارات وصحتها. ولم يكن موسى ينفرد بالأمر، بل كان يعقد الأمور، بحضور التابعين في كثير من الأحيان، وكان يلجأ إلى الخليفة إذا ما وجد ضرورة لذلك. وقد حفظت المصادر التاريخية سلوك موسى مع أبناء غيطشة (ملك الأندلس الذي خلعه رودريك واستولى على سلطته وأملاكه، فكان أولاده من أنصار المسلمين في فتوحاتهم). وقد توجه أولاد غيطشة إلى طارق بالأمان، بعد أن استقر له الأمر، وقالوا له: أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟. فقال: بل على رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم. فاستأذنوه باللحاق بموسى بن نصير بأفريقية ليؤكد سببهم به، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه، وما أعطاهم من عهده، ففعل. وساروا نحو موسى، فتلقوه في انحداره إلى الأندلس بالقرب من بلاد البربر، وعرفوه بشأنهم، ووقف على ما

خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد، بالشام بدمشق، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم. فلما وصلوا إلى الوليد أكرمهم، وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم، وعقد لكل واحد منهم سجلاً، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخل عليهم، فقدموا الأندلس، وحازوا ضياع والدهم أجمع، واقتسموها على موافقة منهم، فصار منها لكبيرهم (ألمند) ألف ضيعة في غرب الأندلس، فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها. وصار (لأرطباش) ألف ضيعة، وهو تلوه في السن، وضياعه في موسطة الأندلس، فسكن من أجلها قرطبة. وصار لثالثهم (وقلة) ألف ضيعة في شرق الأندلس وجهة الثغر، فسكن من أجلها طليطلة، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية.

لقد كان استخدام القوة عند موسى بن نصير وسيلة لا غاية، وقد استطاع استخدام هذه الوسيلة بكفاءة عالية، وفي إطار لا يتعارض مع إقامة سلم مقبل، فضمن بذلك تنفيذ أساس الاستراتيجية العليا في بناء المجتمع الجديد.

وكان التنفيذ الرائع في تحقيق التوازن بين استخدام القوة المسلحة وبين الوصول إلى الهدف في ضمان سلم دائم، هو أبرز ما تميزت به شخصية موسى بن نصير القيادية.

٣ ـ وضوح الهدف

لم يكن باستطاعة القائد موسى بن نصير تحقيق ما أنجزه، والوصول إلى ما يريده لولا وضوح الهدف له، وكان هذا الوضوح يظهر في أموره العامة والخاصة على حد سواء.

لقد كان هدف موسى في حربه تكوين قواعد قوية ومأمونة، وبناء مجتمع جديد، وكان قد جاوز الثمانين من عمره، فكان طموحه يتركز عند هدفه الواضح. ولم تكن قيادته لجيوش المسلمين سوى وسيلة هذا الهدف، وعلى هذا فعندما اجتمع بطارق، وعاتبه على توغله بالمسلمين قال له: «يا طارق، إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً». وبرهن بقوله أنه معرض عن الهدف المادي بجعل الولاية هدفاً، وأن هدفه يتجاوز ذلك إلى آفاق بعيدة هي تحقيق المزيد من الفتوح. ولم يكن طارق دون قائده في هذ المجال، ولكن إغراءات النصر، قد خلقت ثغرة لسوء التفاهم حول (**الهدف**).

وفي أفريقية، أصيبت البلاد بقحط شديد، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء للصلاة، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب الناس، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟. فقال: «هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى»، ولم يكن ذلك تمرداً من موسى على سلطة الوليد، فقد استشاره عندما قرر اقتحام الأندلس، وأعلمه عن مراحل الفتح، ورجع إليه في كل أموره، ولكن لكل عمل هدفه ووسيلته. إنه تمييز واضح للمقولة الشائعة «ما لله هو لله وما للقيصر هو للقيصر». ففي الفتح، وفي إدارة الحرب والسلم، يبقى الهدف محدداً بالواجب والمسؤولية، وهو لهذا يرتبط بالسلطة الدنيوية المتمثلة بأمير المؤمنين ـ وهو الوليد هنا ـ أما في الأمور كلها، فالأمر لله من قبل ومن بعد، وهو عندما يتوجه إلى الله، لا يريد أن يتصل هدفه بأي هدف آخر، حتى لو كان له علاقة بالتقرب من أمير المؤمنين.

إذا ما تم الانتقال بعد ذلك إلى وضوح الهدف عند القائد موسى بن نصير، على المستوى العملياتي، فسيظهر بأن إجراءات موسى جميعها كانت تلتقي عند الهدف. **فهو يقود القوات وفقاً للسياسة الاستراتيجية التي حددها والتي تعرف حالياً باستراتيجية الخرشوفة أو بقعة الزيت**، وهو يزج بالقوى والإمكانات بما يتناسب مع الهدف المرحلي، وهو يضع مخططات العمليات المقبلة، واضعاً في حسابه الاحتمالات جميعها. وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، وهو عندما يحمل على مغادرة الأندلس يقنع مغيثاً الرومي بالانتظار، حتى يكمل فتح جيليقية، وذلك حتى يكمل هدفه في فتح الأندلس، وتأمين القاعدة القوية، ثم هو يعين ابنه عبد العزيز لولاية الأندلس ويترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وزيراً له ومعيناً، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد، وسد الثغور وجهاد العدو.

وفي هذه الحالات جميعها، ومع وضوح الهدف، يتخذ موسى من الإجراءات ما هو ضروري لتجاوز المرحلة الراهنة. فهو يقسم الهدف الاستراتيجي إلى أهداف عملياتية، ويحدد لها مراحلها الزمنية، ويخصص لها من القوى والوسائط ما هو ضروري لنجاحها، وبذلك يظهر وضوح الهدف عند القائد موسى بن نصير بصورته الكاملة. ويكاد التلاحم في خيوط الصورة

المتكاملة يخفي الجزئيات التكتيكية والعملياتية، مما يبرهن على تلك الكفاءة العالية في التحكم بالمواقف جميعها، ولم يكن ذلك بالأمر المستطاع، يقيناً، لولا تلك الحالات الذهنية المشرقة التي تحدد الهدف العام، والأهداف الفرعية، ثم تعزلها عن جميع المعوقات التي قد تعترض طرائق تنفيذها.

لقد كان وضوح الهدف عند القائد موسى مرتبطاً بصورة وثيقة بمجموعة من معطيات الاستراتيجية العليا ومبادئ الحرب، فتوافرت له بذلك، ومع وضوح هذا الهدف، الطرائق التي يمكن اتباعها للوصول إلى الهدف، وكذلك القوى والوسائط الضرورية لإنجاز الهدف، وتحقيق التوافق في إشراك هذه العوامل ضمن حدود إطاري **زمان تحقيق الهدف ومكانه**، وزج الإمكانات وفقاً لذلك، وإن هذا التكامل هو ما يميز أعمال ابن نصير بصورة خاصة.

نتحدث هنا عن وضوح الهدف، ولكن ما هو هدف حرب المسلمين؟ إن لكل حرب هدفها، وقد يكون هدفاً عادلاً أو غير عادل، فإذا كان الإصلاح الاجتماعي والتقدم هما هدف الحرب كانت حرباً عادلة أما إذا كان هدف الحرب هو مجرد احتلال للأرض أو مجرد نهب للموارد فإنها تكون حرباً غير عادلة، ولا حاجة هنا للبرهان على عدالة حروب العرب المسلمين، فقد خرجوا من جزيرتهم بأعداد قليلة. كانوا في اليرموك **٢٤** أو **٣٠** ألفاً، وكانوا في القادسية في عدد مماثل تقريباً، ولم يزد عددهم في فتح مصر على **١٢** ألف، وعند فتح الأندلس كان عددهم مماثلاً، فما كان أغناهم عن فتح الدنيا لو كان هدفهم كسب الأرض، ولكان لهم في بساتين الشام والعراق ما يكفيهم مؤونة احتمال كره القتال. فإذا ما أمكن تجاوز هذه النقطة للوصول مباشرة إلى النتائج، ففي منارات الحضارة التي رفعها المسلمون في كل شبر من أرض الدنيا جميع البراهين على عدالة حروب المسلمين وعدالة أهدافها، ومن عدالة هذه الحروب كان قادة العرب يدركون أهدافهم بوضوح لا لبس فيه ولا غموض.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

استنزفت الفتوحات قوة العرب المسلمين، وقد وقعت أعباء الفتوحات الأولى (الشام، العراق، مصر) على عاتق العرب وحدهم، وكان عدد العرب المسلمين أصلاً أقل من مستوى الفتوحات، واستخدم قادتهم مجموعة العوامل للتعويض عن هذا النقص العددي، ولم تكن كفاءة القادة، والتطبيق الصحيح

لأسس الاستراتيجية العليا ومبادئ فن الحرب، بالإضافة إلى قدرة التحمل الكبرى والشجاعة الفائقة للمجاهدين في سبيل الله، سوى بعض وسائل التعويض عن النقص العددي. ولقد لجأ هؤلاء القادة إلى زج المسلمين من غير العرب في أعمال الفتوح وأشركوهم في حمل أعباء الرسالة، رسالة الإسلام، مع احتفاظهم بالقيادة والتوجيه، ولكن موسى بن نصير نهج أسلوباً جديداً؛ فقد كان مسرح الأعمال القتالية كبير الاتساع، سواء في أفريقية أو في الأندلس، وكان طموح موسى وتطلعاته تتجاوز مسارح الأعمال القتالية، على كبرها واتساعها، فلجأ إلى تشكيل الجيوش الكاملة من سكان البلاد ـ الأفارقة ـ وتسليم قيادتها إلى أبناء البلاد أنفسهم، ولم يكن طارق بن زياد، بحسب أكثر الروايات وثوقاً، إلا قائد أفريقي بربري. وبذلك حمل الأفارقة أعباء نشر الإسلام في أفريقية ذاتها وفي الأندلس بعد ذلك بقسط متعادل مع العرب سواء بسواء. ولكن موسى حمل العرب الواجب الأساسي وهو نشر الدين الإسلامي، فقد ترك عند طارق بن زياد عندما كلفه بحصار سبتة خلقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام وأسلم المغرب على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن، فكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، حتى لم يبق في أفريقية من ينازعه. وعندما وجه موسى مولاه طارق بن زياد، وعقد له الراية لفتح الأندلس، بعثه في سبعة آلاف من المسلمين جُلهم البربر والموالي، وليس فيهم عرب إلا قليل.

لقد كان الحرص على العنصر العربي عند موسى محدداً بقيود الهدف فقط، وكان وضوح الهدف عند موسى كافياً للتمييز بين متطلبات المواقف. فعندما كان الموقف يتطلب زج كل القوى لتحقيق الهدف لم يكن موسى ليتردد في زج القوى بكاملها، سواء في البر أو البحر، فقد عمل في (غزوة الأشراف) على توجيه كل القوى لركوب البحر، كما قاد جميع القوى المتوافرة في جيش من ١٨ ألف مقاتل لدعم طارق في الأندلس عندما استنجده بقوله: «الغوث، الغوث، فقد تداعت علينا أمم الأرض».

وكان الهدف، وهو نشر الإسلام، يوفر له وسائل مشروعة عمل موسى بن نصير على استخدامها كلها. فقد ساعد أولاد غيطشة الذين دعموا الفتح وساعدوه، من أجل استعادة أملاك أبيهم، وكانت ثلاثة آلاف قرية. وعندما أسلم فرتون أعفيت (شية) ومنطقتها من التخميس. وبرهن موسى على أن نشر

الإسلام هو الهدف وليست المغانم. وكانت هذه الوسائل تضمن لموسى من ناحية أخرى هدفه في الحرص على العنصر العربي، حتى يستطيع الاضطلاع بواجبه وهو حمل الرسالة إلى أرجاء الدنيا، ونشرها وتعريف الناس بها.

إذا تجاوزنا ذلك، فإن حرص موسى بن نصير على العنصر العربي يظهر واضحاً في المجال العملياتي، فعندما طلب يوليان إلى موسى غزو الأندلس، وعلى الرغم من تجاوب موسى مع هذا الطلب، لم يقبل إرسال المسلمين قبل أن يتأكد من صدق يوليان وصحة عزيمته، فكلفه الاتصال بأنصاره في الأندلس مع القيام بغارة استطلاعية، ولم يكن ذلك إلا حرصاً على العنصر العربي.

وكانت تعليمات موسى إلى طارق بعدم التوغل، وكذلك انتقاده لسلوك عقبة في التوغل والتغرير بمن معه هي من قبيل الحرص على العنصر العربي. وهنا تبرز أكثر من نقطة تستحق الوقوف عندها:

١ ـ كان المسلمون في أفريقية على عهد حديث بالإسلام فكان حرص موسى شديداً على عدم زجهم في أي معركة قد تنتهي بالفشل، الأمر الذي يضعف الإسلام في قلوب المؤتلفة قلوبهم، مما قد يشكل انعكاسات سيئة على إدارة العرب المسلمين.

٢ ـ كان أسلوب موسى في تكليف البربر المسلمين بالفتح وتعيين القادة منهم، تجربة رائدة أخذت أبعاداً غير محدودة، فقد ساعدت على تحقيق التلاحم بين المسلمين من العرب والبربر، وخلقت المناخ الملائم للتفاهم المتبادل، فتشكل النسيج القوي وتوثقت العرى الخالدة، ولعل هذا الإنجاز وحده يزيد في أهميته على كل ما حققه موسى من منجزات عظيمة حفظها له التاريخ.

تظهر هنا القوة المحرضة التي حددت لموسى بن نصير سلوكه العملياتي في مجال التطبيق. لقد كان الإيمان العميق هو القوة المحرضة، فإيمان موسى هو الذي حمله على اتخاذه كل ما من شأنه المحافظة على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام وكانت هذه القوة ذاتها هي التي دفعته إلى المحافظة على المسلمين من غير العرب، التزاماً بقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وكان هذا الحرص المقيد بحدود الهدف الواضح هو الذي ساعد موسى على تحقيق منجزاته. وعلى هذا، **لم يكن حرص موسى حرصاً تعصبياً جاهلياً، وإنما كان حرصاً واعياً يعتمد في سداه ولحمته على الإيمان والعمل.**

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

كانت استراتيجية الحرب التشتيتية في طليعة الاستراتيجيات التي أتقن قادة العرب المسلمون استخدامها في فتوحاتهم. فكانت قواتهم تعمل على محاور مستقلة في وقت واحد أو في توقيتات مختلفة، وتتجمع هذه القوات عندما تجابه قوات متفوقة لتخوض معركتها الحاسمة، ثم لا تلبث أن تعاود سيرتها في العمل على محاور منفصلة ومتباعدة، ما كان يعيق العدو عن زج قواته واستخدام قواه ووسائطه بصورة صحيحة. وتم تطبيق ذلك في الشام، وفي العراق وفي فارس (إيران) وفي مصر، وحتى في عمليات الثغور. فكان من الطبيعي أن يستخدم موسى هذه الاستراتيجية، ويعمل على تجريبها فيتم له بذلك إغناء المعرفة العسكرية بتجارب جديدة، مع تطوير فن الحرب عند العرب المسلمين.

فعندما وصل إلى أفريقية وجه ثلاث مجموعات قتالية، مجموعة بقيادة ابنه عبد الله ومجموعة بقيادة ابنه عبد العزيز ومجموعة بقيادة ابنه مروان. وعندما وصل إلى سجلماسة ودرعة في المغرب الأقصى وجه قوة من خمسة آلاف رجل بقيادة ابنه مروان إلى السوس الأقصى، كما سير قائده زرعة إلى مصمودة في أطلس العليا، وعندما وصل إلى طنجة بث السرايا التي وصلت حتى السوس الأدنى.

يظهر ذلك سبب إلحاح موسى على اتباع محور جديد للتقدم بعد عبوره المضيق ووصوله إلى الجزيرة الخضراء «ما كنت أسلك طريق طارق ولا أقفو أثره». وقد أدرك أصحاب يوليان ما يريده القائد موسى عندما أجابوه: «نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً، وأوسع غنماً من مدائنه، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى». وبعد أن ناقش موسى الموقف اختار محور قرقونة ـ ماردة ـ طلبيرة؛ أي إلى يسار محور تقدم طارق. كما وجه ابنه عبد العزيز، بعد القضاء على ثورة إشبيلية، للعمل على محور مواز لمحوره وإلى اليسار منه أيضاً محور باجه ـ شنترين ـ قلمرية ـ أسترقة، موازياً لساحل البرتغال على المحيط الأطلسي. وهكذا حدد موسى للعمل ثلاثة محاور أساسية متوازية. وعلاوة على ذلك، فقد كان يتم إرسال السرايا للاستيلاء على مواقع مختلفة ومتباعدة، ويمكن اعتبار هذه العمليات المستقلة كلها في إطار من الحرب التشتيتية. وكذلك عمل

موسى، عندما قرر تطهير شمال الأندلس من بقايا القوط، فقد كلف طارقاً بقيادة مجموعة قتالية تتحرك على محور سرقسطة - تطيلة - قلهرة - أماية - حتى ليون، في حين قاد موسى بنفسه المجموعة القتالية الثانية على محور مواز لمحور طارق وإلى الجنوب منه انطلاقاً من سرقسطة حتى بلد الوليد، لينعطف منها شمالاً فيصل إلى أوبيدو والمناطق النائية من إقليم جيليقية على المحيط الأطلسي.

كان هدف الحرب التشتيتية في حروب موسى بن نصير متغايراً، فقد كان في أفريقية من أجل حرمان القبائل من تبادل الدعم، وعدم تنسيق التعاون فيما بينها وضرب بقايا قوات البيزنطيين (الروم) وهم بمعزل عن كل دعم من قبائل الأفارقة. أما في المرحلة الأولى من عمليات الأندلس، فقد كان هدف موسى هو تضليل رودريك، وعدم السماح له باتخاذ إجراءات مناسبة، ثم أصبح الهدف من جديد، وبعد زوال القيادة العسكرية الواحدة، حرمان فلول المقاومة من التجمع وتنسيق التعاون بعضها مع بعض. ولقد كان هذا الأسلوب في استراتيجية الحرب التشتيتية يتوافق تماماً مع طبيعة الأرض الأندلسية، حيث المدن الكثيرة، والمواقع الحصينة المتباعدة، والأراضي الوعرة، والمقاومات المتناثرة، والتي كانت تتطلب معالجة منفصلة لكل موقف من المواقف.

لقد كان لاستراتيجية الحرب التشتيتية إنعكاساتها النفسية في إحباط إرادة القتال، سواء عند تنفيذ العمليات في المغرب، أو في الأندلس، فقد أسلم المغرب الأقصى في عام ٨٥هـ/ ٧٠٤م، وحوَّلوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات، فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، وكان البربر قد ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة. وفي الأندلس انطلق موسى وطارق، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح.

إن ما سبق ذكره يدحض المقولة التي طالما كانت موضع جدل ونقاش حول رغبة موسى في اختيار طريق غير طريق طارق بتأثير الحسد أو الحقد، فقد عمل موسى على استخدام هذه الاستراتيجية في أفريقية، واستخدمها عند فتح بقية الأندلس، واستخدمها أيضاً عند العمل في مناطق الشمال الصعبة، ولم يكن للحسد أو الحقد أو الانفعالات الإنسانية الأخرى دور في التخطيط لهذه العمليات وفي تنفيذها، وإنما كانت هناك استراتيجية عليا تحدد طرائق العمل المختلفة وتوجه الجهد نحو الهدف.

طبقت استراتيجية الحرب التشتيتية للمرة الأولى، بصورتها الواضحة، عند فتح الشام (عام ١٣هـ/ ٦٣٤م)، ثم تكرر تطبيق هذه الاستراتيجية على مسارح العمليات المختلفة، وجاء موسى بن نصير، فأعاد تطبيقها بأسلوب متطور (في عام ٩٣هـ/ ٧١٢م) وبين التاريخين فاصل زمني في حدود الثمانين عاماً. **وإذا لم يكن القائد موسى بن نصير هو واضع هذه الاستراتيجية أو مبدعها، إلا أنه باعثها في إطار متقدم وأسلوب متطور، وليست العبقرية دائماً في إبداع ما هو جديد، وإنما كثيراً ما تكون في التوفيق بين الوسائل المتوافرة والهدف المطلوب، وهذا هو بدقة ما فعله القائد موسى بن نصير.**

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

كانت أفريقية دائمة الانتقاض، دائمة التمرد والثورة، حتى جاءها موسى بن نصير فكانت أعماله الهجومية ذات هدف وقائي لحماية حدود المسلمين وأقاليمهم، وفي هذا الإطار أيضاً يمكن اعتبار فتوح الأندلس بمثابة هجوم وقائي لحماية أفريقية، ولكن الهجمات الوقائية الحقيقية هي تلك التي قادها موسى ضد قوات الروم البيزنطيين في البحر. فقد نظم موسى قواعد المسلمين البحرية في تونس، وأخذ في تنظيم الهجمات ضد صقلية وسردينية وجزر الباليئار، وشكَّل من مجموعة هذه الجزائر ستاراً وقائياً لحماية القوات البرية العاملة في مسرح عمليات أفريقية، وكان القضاء على القوة البيزنطية في غرب المتوسط والهجمات الوقائية ضد القواعد البحرية للروم هي المرحلة التمهيدية لفتوح الأندلس.

وهنا كانت استراتيجية الهجمات الوقائية في مخططات موسى بن نصير، إكمالاً لتلك التي بدأ العمل بها منذ دفع معاوية بن أبي سفيان بقوات المسلمين لارتياد البحر وانتزاعه من قبضة البيزنطيين، الذين تعاظم نفوذهم في غربي المتوسط على حساب انحسار ظلهم من شرقيه حتى جاء موسى بن نصير فعمل على تطبيق الاستراتيجية ذاتها، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بكامله بحراً عربياً، حتى أُطلق عليه اسم بحر الشام، وأصبح البحر عازلاً وقائياً للشواطئ الإسلامية بعد أن كان مصدر تهديد لها.

إن عملية فتح الأندلس، في حد ذاتها، تتضمن نوعاً من استراتيجية الهجمات الوقائية، فقد بقيت سبتة في المغرب ممتنعة طويلاً على المسلمين بسبب ارتباطها

بالأندلس، وكان وجود هذه القاعدة يهدد مجنبات المسلمين في المغرب (أفريقية). وعندما خضعت سبتة، بقيت الأندلس القريبة من المغرب مصدر تهديد قوي، فكان من الطبيعي بالنسبة لقائد كموسى بن نصير أن يضع في اعتباره ضرورة كبح جماح الجزيرة وإخضاعها في جملة الجزائر التي أخضعها العرب المسلمون وشكلوا منها ستاراً وقائياً يحمي استراتيجيتهم القارية. وعلى ضوء هذه الحقيقة تتوضح بصورة كافية مطامح موسى بن نصير في فتح رومية، والاستمرار حتى الوصول إلى القسطنطينية من غربها، وهي التي استنزفت قوة المسلمين في الشام وهددت أمن مجتمعهم الجديد، وأثارت الاضطراب فيه على امتداد ثمانين عاماً منذ فتح الشام وحتى فتح الأندلس. وتلتقي استراتيجية وضوح الهدف مع استراتيجية الهجمات الوقائية على صعيد واحد من حيث التكامل؛ فنشر دين الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي هما هدف الحرب، والهجمات الوقائية هي لتأمين إقامة المجتمع الإسلامي بعيداً عن كل خطر وبمعزل عن كل تهديد، وفي إطار هذا التكامل تظهر الصورة الرائعة لفن الحرب عند العرب المسلمين.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

كان موسى منذ تولى قيادته في أفريقية وحتى غادر الأندلس عائداً إلى دمشق، وهو يقود الجيوش من موقع إلى موقع، ويبعث السرايا للإغارة على مواقع العدو، فكانت قواته تباغت الأعداء باستمرار، سواء بظهورها في أماكن لم يكن من الموقع ظهورها فيها، أو بتدخلها في وقت لم يكن يتوقعه العدو. أراد موسى مهاجمة صنهاجة وهي بغرة وغفلة. . . فأغار عليها، ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون. وقد حفظت صفحات التاريخ أعمال القائد موسى بن نصير، وتكررت في هذه الصفحات كلمات، بعث السرايا ومهاجمة العدو بغفلة، وأخذه على حين غرة، ويثبت ذلك كله اعتماد موسى على المباغتة في جملة المبادئ التي كان يطبقها في حروبه. وتتطلب المباغتة توافر المعلومات الكافية عن الهدف، ولهذا فقد كان موسى يعتمد كثيراً على سيل المعلومات التي تؤمنها عناصر الجاسوسية (العيون) وكذلك عناصر الاستطلاع، ومعلومات الأنصار، وكان كثيراً ما يلجأ إلى الحيلة لتحقيق المباغتة؛ فعندما امتنعت عليه قرمونة، بعث أصحاب يوليان، فدخلوا إليها كأنهم فُلَّال، وطوقهم موسى بخيله ليلاً، ففتحوا لهم الباب، وقد نتج عن ذلك، أن بوغتت الحامية، وأمكن القضاء على المقاومة والاستيلاء على المدينة بسرعة، وهي التي كان من الصعب اقتحامها بحصار أو قتال.

لقد استخدم قادة العرب في فتوحاتهم المباغتة على نطاق واسع، وفي كثير من معاركهم الحاسمة، لكن طبيعة مسرح العمليات، سواء في أفريقية أو في الأندلس، جعلت من الصعب تحقيق المباغتة بالقوات الكبيرة، وهذا ما يفسر لجوء موسى إلى الإكثار من استخدام السرايا ـ المجموعات القتالية الصغيرة ـ ومحالة الإفادة من كل فرصة ممكنة لتوجيه مثل هذه المجموعات لتحقيق عامل

المباغتة وللقضاء على المقاومات المعادية أو الحصون الممتنعة. وقد استخدم هذا الأسلوب منذ كان في أفريقية، فقد امتنعت عليه مجانة فتجاوزها، ثم نظم مجموعة قتالية بقيادة بشر بن فلان، وقامت هذه المجموعة بمباغتة مجانة الواقعة على بعد خمسة أيام من القيروان، على الحدود الجزائرية التونسية حالياً، وأمكن الاستيلاء على قلاعها الحصينة.

إن استخدام مبدأ المباغتة في إطار العمليات الصغرى بصورة خاصة، يشكل تطوراً متقدماً يلقي بظلاله إلى ما بعد اثني عشر قرناً ونيف، حيث يتم التركيز في عصر الحروب الحديثة على استخدام الوحدات الصغرى المنقولة جواً أو بحراً أو أرضاً للإفادة من عامل المباغتة في الإغارات على المراكز الصناعية أو العسكرية أو المواقع القتالية. وإذا فرضت طبيعة مسارح العمليات على القائد موسى بن نصير مواقف معينة، فإن حلول هذه المواقف هو لا ريب من نتاج العقل المبدع والفكر العسكري المتطور لرجل الحرب الذي كان يحمل على كاهله ثمانين عاماً ونيف، ويحمل معها أعباء أمة وتطلعات أجيال.

٢ ـ أمن العمل

«ما هزمت لي راية قط، ولا فضَّ لي جمع ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين».

أربعون عاماً وموسى بن نصير يقود قوات المسلمين، في البر والبحر، ما نكب المسلمون خلالها ولا انتكست لهم راية. وإذا تم استعراض العمليات القتالية في السنين العشر الأخيرة، منذ ولاية موسى على أفريقية وحتى مغادرته الأندلس فسيظهر أن موسى كان خلال هذه الفترة في شغل شاغل، فهو ينظم القواعد، ويطلق القوات إلى أهدافها المختلفة، ويعمل على إعادة التنظيم في كل مرحلة، ويحشد القوى والوسائط، فكانت مناطق العمليات حركة دائمة لا تهدأ، ونشاطاً متصلاً لا يتوقف، ولم يكن العمل بمثل هذه الفاعلية ممكناً لولا توافر مبدأ أمن العمل. وقد تكون أسس الاستراتيجية العليا التي طبقها موسى هي التي ضمنت له تحقيق هذا المبدأ بكل أبعاده، وقد يكون التزامه أيضاً بمبادئ الحرب قد مهد له السبيل لذلك، ولكن يبقى التركيز على تحقيق هذا المبدأ هو السبب في عدم نكبة المسلمين طوال فترة قيادته.

لقد كانت القوات البيزنطية البحرية هي مصدر تهديد أمن العمل في غرب

المتوسط، فشكل موسى ستارة وقائية ضدها. وكان التمرد بين القبائل هو المصدر الثاني لتهديد أمن العمل فيشغل القبائل بنفسها عند تطبيقه لاستراتيجية الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة ثم وجه الجهود نحو أهداف كبرى، عندما ألقى على عاتق المسلمين في أفريقية أعباء الجهاد بحيث لم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى البحر إلى الأندلس، وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب، وأذعن البربر لحكمه، وتناسوا الردة. وفي الأندلس، طبق القائد موسى الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب ذاتها؛ فركز جهده للقضاء على رودريك، ودمر بقايا المقاومة، ثم انطلق لبناء المجتمع الجديد، وبذلك ضمن لقواته أمن العمل، لكن ذلك كله لم يكن كافياً وكان لزاماً تطبيق مبادئ الحيطة، فنظم شبكة من الاستعلامات غطت أفريقية كلها، واستعان بالأنصار في فتح الأندلس بعد أن ضمن ولاءهم وتأييدهم ومساندتهم، وبذلك ضمن لقواته عدم التعرض لمباغتة العدو، وإحباط كل تمرد في بدايته. ولم تكن الغزوات الاستطلاعية التي وجهها موسى إلى الأندلس قبل العبور الكبير، سوى إجراء وقائي هدفه ضمان أمن العمل. وإذا كان الخليفة الوليد قد طالب موسى بإجراء هذا الاستطلاع فإن موسى ذاته أيضاً كان قد سبق ذلك عندما طلب يوليان القيام بغزوة استطلاعية، والاتصال بالأنصار وتنظيمهم حتى قبل أن يطلب إليه الخليفة ذلك.

لقد أفاد القائد موسى بن نصير، من دون ريب، من تجارب المسلمين السابقة، فكان مقتل عقبة بن نافع واستشهاده على أيدي البربر والروم، ثم استشهاد القائد زهير بن قيس البلوي بعد ذلك، من الدروس التي كان ثمنها غالياً، وعندما جاء موسى على أثرهم، آلى على نفسه أن لا ينكب المسلمون تحت قيادته، فحرص على تطبيق كل ما هو ضروري من الإجراءات حتى لا تقع انتكاسة جديدة. وربما قيل إن عهد الاستقرار الذي جاء به عبد الملك بن مروان ثم الوليد من بعده قد ساعد على توجيه الجهد نحو عاصمة البيزنطيين ذاتها، القسطنطينية، وإشغال الروم بأنفسهم عوضاً عن انصرافهم لتهديد أمن عمل المسلمين على مسارح العمليات المختلفة، ودليل ذلك هو توسع أعمال الفتوح في المشرق الإسلامي في تواقت واحد مع تطور عمليات موسى بن نصير، ولكن متابعة مسيرة الأعمال القتالية تبرهن على أن الصراع لم يكن سهلاً أو هيناً. وهنا يمكن الوصول إلى النتيجة التالية: «**لقد كان استقرار الدولة الإسلامية عاملاً**

مساعداً في توفير أمن العمل لقوات المسلمين فوق ميادين القتال، ولكن ذلك لا يلغي دور القادة الذين قادوا الأعمال القتالية، كمحمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، ولا ينتقص من كفاءتهم، وإن مجرد إفادتهم من الموقف العام، لضمان أمن العمل على مسارح عملياتهم، هو مأثرة ستبقى مرتبطة أبداً بجهدهم وإمكاناتهم القيادية».

لقد كان من عادة قادة المسلمين أو خلفائهم، إرسال الولاة والقادة إلى مسارح العمليات البعيدة، وترك إدارة الحرب للقادة أنفسهم، وكان من أول واجبات هؤلاء القادة تحقيق مبدأ أمن العمل، ولقد أصيبت أعمال الفتوح بكثير من الانتكاسات في الشرق والغرب على حد سواء. وعلى هذا، فإذا ما ضمنت الدولة أمن العمل، على المستوى الاستراتيجي، فقد كان أمن العمل على المستوى العملياتي هو من مسؤولية قائد مسرح العمليات. وإن نجاح موسى في قيادة قواته، على امتداد مسارح واسعة وفوق آلاف الكيلومترات من الأرض وطوال عشر سنوات، إن هو إلا برهان قاطع على نجاح القائد موسى بن نصير في ضمان أمن العمل لقواته مما ساعدها على الوصول إلى ما وصلت إليه، وإلى إنجاز ما أنجزته.

هنا، لا بد مرة أخرى من التنويه إلى أن حرص القائد موسى بن نصير على ضمان أمن العمل لقوات المسلمين هو في جملة الأسباب التي أثارت غضبه عندما خالفه مولاه طارق بن زياد، فأوغل في الأندلس، وترك قاعدته في الجنوب بحيث أصبحت قوات المسلمين معرضة لتهديد حقيقي، كان من المحتمل له تحويل الانتصارات الأولى إلى انتكاسة مدمرة لو لم يسرع موسى إلى معالجتها، وحشد القوات، وقيادة العمليات بنفسه.

٣ ـ الحركية

كانت حروب المسلمين كلها نوعاً من حرب الحركة، وهي حرب تتميز عن حروب الحركة التي قام بها البرابرة منذ القرن الخامس ق. م (الهون ـ الآلامان ـ الفاندال ـ القوط)، وهي تختلف أيضاً عن حروب الحركة التي قام بها التتار في القرن الثاني عشر للميلاد (المغول بقيادة جنيكيزخان وتيمورلنك). ولعل من أبرز خصائص حرب الحركة عند المسلمين هي قلة عدد العرب المسلمين بالنسبة لحجم الفتوحات وأبعادها الجغرافية، وكذلك اعتمادها على تغيير البنية

الاجتماعية للبلاد التي يتم فتحها، واستخدام أساليب فن الحرب المتقدمة في إطار متكامل تحدد أبعاده قبل كل شيء العقيدة الإسلامية، وتنفذ الأعمال القتالية لهذه الحروب من قبل المجاهدين في سبيل الله، الذين لديهم القدرة على احتمال كل أنواع الصعوبات وتقديم كل أنواع التضحيات للوصول إلى هدف الحرب، وهو إقامة المجتمع الإسلامي العالمي. وهكذا فإن المعطيات الإنسانية الشاملة هي الحافز الذي كان يوجه فعاليات حرب الحركة عند المسلمين، ويعطيها الميزات عن كل ما سبقها وما تبعها من حروب الحركة المتباينة، وهي من هذه الناحية تتشابه مع طبيعة حروب الحركة في العصر الحديث، حيث أصبح الحافز الأيديولوجي هو العامل الأساسي في كل صراع محدود أو غير محدود بأسلحة تقليدية أو بأسلحة التدمير الشامل. ولكن رغم الطابع المشترك لحروب الحركة عند المسلمين، فهناك خصائص مميزة لحرب الحركة التي قادها موسى بن نصير، وهي تتشابه في طبيعتها وخصائصها مع حرب الحركة عند عقبة بن نافع، وتزيد عليها بما تم تنفيذه على مسرح عمليات الأندلس، وهي ميزات يمكن إنجازها بما يلي:

١ ـ اعتمادها على القوة المتحركة المتمثلة بقوة الفرسان، بحيث كان دور المشاة فيها تابعاً ومكملاً وليس أساسياً. وكان اعتماد حرب الحركة هو الذي ساعد المسلمين على تجاوز المسافات البعيدة في زمن قياسي نسبياً. فقد استطاع موسى تنفيذ عملياته في أفريقية خلال سنتين، وتجاوز آلاف الأميال خلال هذه المسيرة الشاقة.. والعمل بعد ذلك فوق آلاف الأميال لفتح الأندلس خلال ثلاثة أعوام.

٢ ـ العمل على عدد من المحاور المتوازية، أو المتباعدة، بحسب الموقف، وتأمين الاتصال بين الأرتال المتحركة على محاور متباعدة بطريقة مثيرة للإعجاب، وتنسيق التعاون بين القوات بحيث يتم الالتقاء بسرعة لنقل الجهد من محور إلى محور عند الضرورة.

٣ ـ المطاردة الحاسمة، بعد كل معركة كبرى، وإزالة المقاومات بصورة جذرية، في إطار من التصميم العنيد على تدمير القوات المسلحة للخصم.

٤ ـ تحديد هدف الحرب بالقضاء على القوات المقاتلة وبشكل لا يتعارض فيه تحقيق هذا الهدف مع هدف إقامة سلم دائم.

وتتشابه حرب الحركة في الأندلس، تحت قيادة موسى بن نصير، مع تلك

التي قادها هانيبال وأخوه هاسدروبال ضد روما (عام ٢٠٦ق.م. في معركة متورس) من حيث تجاوز مسافات بعيدة خلال مدة قصيرة، ولكن هناك ثمة فوارق أيضاً. فقد عمل هانيبال وهاسدروبال على اتباع الطريق الساحلي الموازي للبحر الأبيض المتوسط من أجل مهاجمة إيطاليا من الشمال، في حين تم تقدم المسلمين على عدد من المحاور المتوازية. كما كان تقدم القرطاجيين (هانيبال وأخيه) في بلاد صديقة، إذ كانت إسبانية تابعة لقرطاجنة وحليفة لها في حروبها ضد روما، في حين كان تقدم المسلمين في بلاد معادية ما فرض على حرب الحركة قيوداً صارمة للمحافظة على أمن العمل. وعلى هذا لم تكن حرب الحركة عند موسى بن نصير مجرد مسيرة عادية لقوات ضخمة، وإنما كانت حرب قوات قليلة أمام قوات متفوقة، وفي أقاليم يتطلب العمل فيها اتخاذ جميع تدابير الأمن والحيطة، وهذا ما يعطي حرب الحركة عند موسى بن نصير ظلالاً متقدمة تصل في أبعادها إلى حروب القرن العشرين.

كان القائد موسى بن نصير، وهو يقود حرب الحركة، ويحدد لها أسسها ومعطياتها، يدرك تناقض أسس هذه الحرب مع حرب الثبات، أو حرب الموانع الدفاعية، وقد أوضح ذلك بنفسه، عندما جلس في يوم من الأيام إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، فسأله سليمان: «ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوك؟. قال: التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين. قال سليمان: فهل كنت تمتنع في الحصون والخنادق، أو كنت تخندق حولك؟. قال موسى: كل هذا لم أفعله. قال: فما كنت تفعل؟. وأجاب موسى: كنت أنزل السهل، وأستشعر الخوف والصبر، وأتحصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله، وأرغب إليه في النصر».

لقد كان تنفيذ حرب الحركة في مثل هذه الظروف، ومع وجود مثل تلك القيود التي كانت تفرض وجودها على مخططات موسى بن نصير، يتطلب الأخذ بمعطيات استراتيجية شاملة تكون حرب الحركة قسماً تنفيذياً لها، وليست مستقلة عنها. وعلى هذا فإن إدراك أهمية هذه الحرب وخصائصها يتطلب قبل كل شيء المعرفة الشاملة لتلك الاستراتيجية ولمبادئ الحرب التي تعهدت بتنفيذها، وعندئذ تظهر الصورة المتكاملة لحروب موسى بن نصير ولدور حرب الحركة فيها، وليست القضية بعد ذلك قضية إبراز لأمجاد خالدة ولمبادئ ثابتة برهنت على صحتها، بقدر ما هي عملية إيجاد الصلة بين فن الحرب، قديمه وحديثه،

وما كان للمسلمين من دور ريادي فيه، وهو دور لم يكن ليثبت وجوده بمعزل عن العقيدة الإسلامية، ومن دون وجود طبقة قيادية احتلت قمم التاريخ في البذل والعطاء.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

يرتبط مبدأ المبادأة واستخدام القوة الهجومية في عقيدة المسلمين القتالية، ارتباطاً وثيقاً بحرب الحركة، ذلك أنه كان من المستحيل على قادة المسلمين إدارة حروبهم، من دون تمسكهم دائماً بالمبادأة، وحرمان العدو من حرية العمل. وكان فقدهم للمبادأة، مع ما هم عليه من الضعف العددي إنما كان يعني انتكاسة خطيرة، وهو الأمر الذي تكرر حدوثه عند الفتوحات في المشرق الإسلامي وفي مغربه، وكانت التجارب المريرة التي دفع المسلمون ثمنها سيولاً من دمائهم وتلالاً من شهدائهم، قد عززت لديهم المضمون العميق للربط الوثيق بين متطلبات حرب الحركة وبين الإمساك بالمبادأة وعدم التفريط بها. وعندما تولى موسى بن نصير قيادته، ركز جهده حتى لا يفقد المبادأة ولو مرة واحدة، وكانت قيادته للمسلمين وتوجيهه للسرايا، وحرصه على تحقيق المباغتة وتشكيل الستارة الوقائية من جزائر البحر الأبيض المتوسط، إنما تنتهي كلها عند نهاية واحدة هي حرمان العدو من حرية العمل، والإمساك بالمبادأة باستمرار.

لقد اضطر موسى بن نصير في بعض المواقف إلى استخدام البعض من قواته لأعمال الحصار والتطويق كما فعل في طنجة وفي قرمونة من الأندلس، ولكنه حتى في هذه الحالات لم يتخل عن المبادأة، فقد كان من واجب قواته إزعاج الخصم باستمرار، والتضييق عليهم، والنكاية بهم، وحرمانهم بالتالي من حرية العمل العسكري، فتحقق لهم بذلك المحافظة على المبادأة، وعلى هذا لم تكن أعمال الحصار مجرد عمليات دفاعية جامدة، وإنما كانت عمليات هجوم نشطة امتزج فيها العمل الدفاعي بالنشاط الهجومي.

استطاع القائد موسى بن نصير، عن طريق إمساكه بالمبادأة، واستخدامه للقوة الهجومية أن يخلق حركة قوية تواكب فتوحاته في كل الأقاليم، فكأنما كانت ضرباته المتلاحقة وهجماته المتصلة بركاناً زلزل الأرض، وقد أدرك موسى هذا الواقع بكل أبعاده عندما كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول له: «إنها ليست الفتوح ولكنها الحشر»، وربما كان يقصد بالحشر ما يحدث من الذهول في ذلك

اليوم العظيم، «حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى». وربما كان هذا الذهول الناتج عن اقتران عاملي المباغتة والإمساك بالمبادأة هو الذي ساعد موسى على تحقيق النجاح في أعماله القتالية كلها. وقد يكون من الصعب إبراز أهمية عامل من العوامل أو مبدأ من مبادئ الحرب لتحديد أهميته في تحقيق النصر، ذلك لأن هذه العوامل تتداخل بصورة دقيقة ويتشابك بعضها مع بعض بصورة محكمة، فتؤلف بمجموعها ذلك النسيج الرائع لفن الحرب. ولكن رغم ذلك فإن بالإمكان القول بدون مبالغة في أن إمساك موسى بن نصير بعامل المبادأة وحرمان العدو من حرية العمل، هو الذي ضمن للمجاهدين في سبيل الله حربة العمل الكاملة وضمن لهم الشروط لاستخدام قواتهم الهجومية على أفضل وجه.

٥ ـ الاقتصاد بالقوى

يهدف مبدأ الاقتصاد بالقوى إلى تحقيق التوازن بين الهدف وبين القوى والوسائط المطلوبة لبلوغ هذا الهدف، وإن كل إخلال بهذا التوازن من شأنه تعريض العمل العسكري للفشل أو الانتكاسة، فاستخدام قوات كبيرة ضد هدف صغير، يشابه صيد عصفور بمدفع أو صاروخ، واستخدام قوات صغيرة ضد هدف كبير هو تقديم لقمة هينة يبتلعها الخصم، وبالتالي استنزاف للقوى من دون تحقيق أي نتيجة، وترتبط عملية التوازن بالتقدير الصحيح للموقف من جميع جوانبه.

لقد ظهر حرص القائد موسى بن نصير على تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى في كل أعماله القتالية، فهو لم يوجه في بداية عملياته على مسرح أفريقية سوى مجموعات قتالية صغيرة، وعندما قرر الوصول إلى المغربين الأوسط والأقصى سار بمعظم جيشه، وعندما تطلب الموقف حصار طنجة، ترك حامية كافية بقيادة مولاه طارق بن زياد وعاد بجيشه إلى القيروان. وفي مجال العمليات البحرية، ونظراً لخطورة الموقف، فقد زج بكل القوى المتوافرة لديه، كما أنه لم يزج بالقوى كلها على مسرح عمليات الأندلس وإنما كان زجها على مراحل متتابعة، فحقق بذلك هدفين: أولهما تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، وثانيهما الاحتفاظ بقوات احتياطية تساعده على تطوير المعركة من جهة، وعلى مجابهة ما هو غير متوقع من جهة أخرى. كما أنه استطاع بفضل هذا التوازن إعطاء الأعمال

القتالية قوة متجددة تساعدها على البقاء والاستمرار والتطور.

بدأ موسى بن نصير عملياته في أفريقية بقوات لا تتناسب واتساع مسرح العمليات، وعندما استطاع حشد قوات كبيرة أخذت ميادين القتال أبعاداً جغرافية جديدة تزيد في اتساع آفاقها على ما أمكن حشده من القوى والوسائط. وعندما كادت عمليات فتوح الأندلس تقترب من نهاياتها، رسم موسى بن نصير آفاقاً جديدة لعملياته المقبلة، فكانت القوات المتوافرة، على كبر حجمها، أقل من الأعباء الملقاة على عاتقها، فكان على موسى باستمرار إجراء التوازن بين متطلبات أهدافه، وبين حجم القوى المتوافرة، وكان العامل الحاسم في الموقف هو الحرص على تنفيذ مبدأ الاقتصاد بالقوى بكل دقة وبكامل أبعاده، وهذا ما فعله موسى بن نصير في عملياته كلها. ولعل أبرز ما حققه في هذا المجال هو احتفاظه الدائم بقوات احتياطية، ونظراً لما تتطلبه هذه العمليات من إعادة تنظيم مستمر، وحشد قوات جديدة، فلا غرابة أن تكون عملياته كالحشر.

وهنا يظهر السؤال الحاسم: ترى هل كان باستطاعة موسى تحقيق ما أنجزه لولا وجود عقيدة دينية تهز أعماق النفس، فتدفع المؤمنين إلى حمل الرسالة وتحمُّل كره القتال؟. لا ريب أن الإسلام الذي توغل في القلوب، وملك المشاعر هو الذي ساعد على تحقيق المنجزات كلها. ولكن ذلك لا ينتقص من دور القادة الذين حملوا أعباء هذه الرسالة إلى أنحاء الدنيا، وكان ذلك الإيمان هو الذي ألهم القادة اتباع السبيل الصحيح والسلوك القويم لانتقاء ما هو ضروري من المبادئ وتطبيقها حسب المواقف.

٦ ـ المحافظة على الهدف

يمر كل عمل بمراحل ثلاث: التخطيط، التحضير، والتنفيذ. ففي مرحلة التخطيط، تطرح الأفكار الأساسية للعمل ويحدد الهدف، ويتم العمل بعد ذلك لتوفير الوسائل الضرورية، ثم يأتي التنفيذ تتويجاً للجهود كلها. وتأتي بعد ذلك المراحل التالية التي تكمل الهدف من العمل العسكري أو غير العسكري. وكثيراً ما تقف الصعوبات وتعترض العوائق كل مرحلة من هذه المراحل، فبعض هذه الصعوبات ما هو متوقع وأغلبها غير متوقع. وفي حالات الحرب المعقدة قد تزيد الصعوبات غير المتوقعة إلى درجة تهدد المشروع بكامله وتعرضه للفشل. وهنا تظهر كفاءة القادة في مجابهة ما هو غير متوقع، وما هو من طبيعة الحرب.

ولقد كان موسى بن نصير النموذج الأعلى للقائد الميداني الذي تتوافر له القدرة على مجابهة أكثر المواقف تعقيداً، من دون أن تحرفه هذه المواقف عن هدفه أو تبعده عنه أو تضعف من تصميمه على بلوغ هدفه، وأن متابعة مسيرة عملياته على امتداد عشر سنوات تثبت هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة. فقد تولى أمر أفريقية في أعقاب انتكاسات مريرة، فوضع مخططه لإزالة المقاومات تدريجياً، الأدنى فالأقصى ونفذ هذه الاستراتيجية بدقة محكمة، وانتقل بعدها إلى عمليات التوغل الكبرى، مدعماً في كل خطوة إنجازاته السابقة، وجاء الانتصار النهائي في تحقيق الاستقرار على امتداد أفريقية بكاملها، الشمال الأفريقي، تتويجاً لتلك الانتصارات الجزئية المتتابعة. بدأت بعد ذلك عملية فتوح الأندلس، فخطط لها، وأعد التحضيرات اللازمة وزج القوى الضرورية، ثم تابع خلال ذلك الإعداد لتطوير العمليات، حتى إذا جابهه موقف غير متوقع، وهو توغل طارق حتى طليطلة، أسرع بزج القوى والوسائط التي جهزها لهذه الغاية، وانتقل إلى إدارة الحرب بنفسه حتى أكمل عملية الفتح. وعندما باغته طلب أمير المؤمنين بالعودة إلى الشام، بذل جهده حتى أقنع مغيثاً الرومي بالبقاء معه وعدم التعجل قبل الوصول إلى هدفه النهائي، وهو إزالة كل مقاومة لبقايا القوط، وفتح شمال غربي الأندلس وشمالها، إقليم جيليقية ومنطقة الباسك ـ البشكنس.

وتبرهن هذه الحادثة وحدها على تصميم موسى ومحافظته على الهدف حتى النهاية، والأمر بعد ذلك ليس بمثل هذه البساطة. فمن المعروف في ظروف القيادة الموحدة والمسؤولة، أن هناك قادة يجيدون أعمال التخطيط وفق معطيات ثابتة وواضحة، فيضعون من المخططات أجملها ومن الأفكار أروعها، ثم إذا بهم عند التحضير يتخلون عن مخططاتهم بسبب كثرة الصعوبات التي تجابههم، ثم يظهر نوع ثان لا يجيد التخطيط، ولكنه يجيد الإعداد والتحضير وفق مخططات مدروسة وأفكار ثابتة، ولكن سرعان ما يتخلى هؤلاء عن إبداعهم عند أول تحديات تجابههم عندما يبدأ التنفيذ، وهناك بعدهم قادة يجيدون التنفيذ بشكل مثالي ولكنهم لو أقحموا في مجال التخطيط أو الإعداد لكان فشلهم ذريعاً.

لقد عرف تاريخ الحروب نماذج قليلة لقادة توافرت لهم الإمكانات الكبرى لممارسة واجباتهم القيادية في مراحل القتال المختلفة، بداية من التحضير السياسي والعسكري للحرب وحتى الوصول إلى الهدف، ولقد كان هؤلاء القادة

هم القمم البارزة في التحولات التاريخية والحضارية، وقد كان موسى بن نصير واحداً من هذه الأعداد القليلة. وإن ما تجدر الإشارة إليه هنا، هو العلاقة المتبادلة بين وضوح الهدف، وبين المحافظة على الهدف، فالطرفان يشكلان معادلة متكافئة، أو علاقة جدلية ديالكتيكية، يتأثر كل واحد منهما بالآخر سلباً وإيجاباً. فالوضوح في الهدف يحفز التصميم للمحافظة على الهدف، والمحافظة على الهدف تحتاج بدورها للوضوح في رؤية هذا الهدف وتحديد أبعاده، وتحليل معطياته. ويصبح بالإمكان بعد ذلك، وعلى ضوء هذا التحليل، معرفة صحة الاحتمالات التي طرحها موسى بن نصير في تحديد هدفه من الحرب بعد أن أنهى احتلال الأندلس (أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما حتى يلحق بدار الخلافة)، وكذلك قوله عندما طلب إليه التوقف عن متابعة التوغل: «أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية. ثم يفتحها الله على يديَّ، إن شاء الله». لقد كان هذا الهدف كبيراً دون من ريب ولكنه كان يستند إلى أرضية واقعية. فمن الناحية العملياتية لقد سبق للقادة القرطاجيين أن هاجموا روما بالاستدارة عبر الأندلس، وعلاوة على ذلك فقد توافرت لموسى الإمكانات التي لم تتوافر لسواه. فقد استطاع أن يوحد أفريقية في إطار هدف واحد، وهو نشر الإسلام، واستطاع حشد القوى كلها لتحقيق هذا الهدف، وكان باستطاعته حشد مزيد من القوى بالاستفادة من القاعدة البشرية والقاعدة الاقتصادية بعد إعادة تنظيم الأندلس. وهكذا كانت محافظته على الهدف ترتبط بتقديره الصحيح للموقف وبناء القوة اللازمة للوصول إلى الهدف. وهنا قد يكون من الضروري إبراز أهيمة هدف موسى بن نصير من الوصول إلى القسطنطينية ومهاجمتها عن طريق الغرب، فقد بقيت الدولة البيزنطية هي القوة الوحيدة التي حافظت على عدائها واستمرت في حربها ضد المسلمين، وقد فشلت الحملات البحرية والبرية كلها في إخضاع القسطنطينية، رغم الحصار الذي ضرب حولها لمدة سنة في عهد معاوية، ثم في عهد عبد الملك، ومن بعده عاصمة البيزنطيين على الغرب، فكان تحديد هذا الهدف من قبل موسى بن نصير، علاوة على واقعيته، يحمل مضامين استراتيجية أصيلة في حسم الصراع مرة واحدة بالهجوم عن طريق الغرب، وهذا في حدِّ ذاته أيضاً برهان على التكافؤ بين وضوح الهدف وبين المحافظة على الهدف مما تميز به القائد موسى بن نصير عن سواه من القادة.



الفَصْلُ الثَّالِث

قيادة موسى بن نصير

آ ـ موسى بن نصير وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك).

٢ ـ التحريض على الجهاد.

٣ ـ العنف في القضاء على أعداء الإسلام.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخوف.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ موسى بن نصير وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ موسى بن نصير، وما يعرف حالياً بالحرب الشعبية.

٥ ـ موسى وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

أ ـ موسى بن نصير وفن القيادة

«والله لو أردت الامتناع في الأندلس لما نالوا من أطرافي طرفاً ـ يقصد سليمان بن عبد الملك ـ ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة»

(موسى بن نصير في حديثه مع يزيد بن المهلب)
نفح الطيب ١/٢٨٣

الإنسان هو لعبة القدر، وهو أيضاً صانع الحدث العظيم، ما في ذلك ريب، أو هو وسيلة صنع الحدث بحسب المعطيات الميثولوجية، وفقاً لما يرسمه القدر، وعلى الرغم من تناقض وجهات النظر حول دور الإنسان في صنع الحدث التاريخي والتطور الاجتماعي، فإن أحداث التاريخ، قديمها وحديثها، قد برهنت على العلاقة الوثيقة بين دور الفرد ودور المجتمع. وبالنسبة لنا نحن المسلمين، وعلى الرغم من تسليمنا بأن الإسلام هو وحده الذي بعث هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس، إلا أنه لا يمكن إنكار دور الإنسان في حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا الواسعة، وتعريف الناس، كل الناس، بما جاء به الإسلام من مضامين اجتماعية وإنسانية فيها خير الإنسان والمجتمع على حد سواء، وليس باستطاعة إنسان أن يعرف ما كان عليه حال الإسلام لولا وجود الخليفة «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه ومجابهته للردة وتدميرها، وكذلك لولا وجود إنسان مثل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وما قام به من إدارة للدولة في أصعب مراحل قيام الدولة الإسلامية. وهنا يبرز دور القادة، «أبو عبيدة» وخالد وسعد وابن العاص ومعاوية، مروراً بقادة النسق الثاني، القعقاع ومعاذ وطارق، ونهاية بموسى وقتيبة.

ولو أمكن تحليل المنجزات الإسلامية لأمكن وضعها في إطار معادلة، فقد جاء الإسلام ليخلق تيار التطور، وقد عمل تيار التطور على خلق الأحداث، ثم

جاء دور القادة في جميع المجالات العلمية، والفنية، والعسكرية، ليعملوا على تطوير هذه الأحداث أو إعاقتها، فتكون المعادلة (**تيار تطور + حدث + قائد**).
وعلى هذا الأساس فقد يكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، بحث ما قام به موسى بن نصير بمعزل عن تلك التيارات القوية التي جاء بها الإسلام، كما أنه ليس بالإمكان أيضاً عزل الأحداث عن دور القادة. فقد كان لاستشهاد عقبة وزهير بن قيس دورهما في تحديد الأسس الاستراتيجية التي اتبعها موسى وعمل على تطبيقها، كما أنه ليس باستطاعته عزل هذه الأحداث عن نشاط البيزنطيين البحري الذي اتضح للمسلمين خطورته منذ بداية الفتح وحتى وصول موسى إلى أفريقية. ونظراً لما قام به موسى بن نصير من أعمال، وما حققه من منجزات، فإنه من الضروري التعرض لبعض ملامح فن القيادة عند هذا القائد العربي المسلم، وما تركه من أثر متبادل في العلاقات بينه وبين مرؤوسيه من جهة وعلى مسيرة الأعمال القتالية من جهة أخرى، وما كان لذلك كله من دور في الأحداث التاريخية التي قدر له أن يصنعها.

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك)

لم تكن جيوش المسلمين عامة تعاني من الصعوبات الكبرى في مشكلات الشؤون الإدارية، ذلك لأنها في الأصل جيوش صغيرة الحجم بالنسبة لاتساع مسارح العمليات، ولهذا فإنها لم تكن مثقلة بالذيل الإداري، أو مرتبطة بمخازن التموين ومستودعات الإمداد، وهذا أحد العوامل الرئيسية التي كانت تضمن لها حرية العمل والمرونة في التحرك، ما كان يتوافق ومتطلبات حرب الحركة التي كانت تطبق استراتيجيتها. وكانت قوات المسلمين تعتاش من البلاد التي تفتحها، الأمر الذي لم يطبق في الجيوش الغربية حتى أيام نابوليون بونابرت في بداية القرن الثامن عشر، حيث لجأ إلى تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها لتأمين حرية العمل لجيوشه.

ولكن رغم ذلك فقد كانت طبيعة مسارح العمليات تفرض قيوداً إدارية صعبة على المسرح الأفريقي؛ فحتمية التحرك على محور رئيسي واحد هو المحور الساحلي، وصعوبة تأمين المواد التموينية لقوات كبيرة عندما تتحرك على هذا المحور، كان في جملة العوامل التي كان لها أثرها في تنفيذ الأعمال القتالية. وهنا تظهر كفاءة القائد موسى بن نصير في التوفيق بين مخططاته الاستراتيجية

وبين أهدافه العملياتية، إذ لم يكن توجيه المجموعات القتالية الصغرى لمعالجة الأهداف المنعزلة والتعامل مع المقاومات المنفردة من الناحية الإدارية إلا توافقاً مع طبيعة مسرح العمليات وما توفره من إمكانات تموينية ولكن كفاءة موسى بن نصير الإدارية تظهر بصورة خاصة في مجالين:

١ ـ تأمين وسائط النقل الضرورية لنقل القوات، وكمية كافية من الخيول لعنمليات المرحلة الأولى من عملية فتح الأندلس، بقيادة طارق بن زياد، ثم تأمين وسائط النقل البحري الكافية لنقل الموجة التالية التي قادها بنفسه، ولا ريب أن نقل ١٨ ألف مقاتل للإنزال البحري مع عدد مناسب من الخيول قد تطلب جهداً إدارياً كبيراً.

٢ ـ تأمين المتطلبات الإدارية لإقامة ميناء تونس وتطويره وإمداده بالفنيين والأيدي العاملة الاختصاصية لصنع المراكب، وتوفير المواد الأولية لدار الصناعة.

وتظهر كفاءة موسى الإدارية في إقامة مستودعات احتياطية للإمداد، فعندما وصل أسطول مصر الذي وجهه والي مصر عبد العزيز بن مروان لفتح سردانية بقيادة عطاء بن أبي نافع، أرسى هذا الأسطول في سوسة، فأخرج إليه موسى بن نصير ما يحتاجه من الأرزاق والمواد التموينية، بما فيها الأسلحة والوسائط الضرورية، ونصح قائد الأسطول بالإقامة حتى يصبح بالإمكان ركوب البحر، حتى يطيب البحر نظراً لقدوم فصل الشتاء. ويبرهن هذا الحادث الذي حفظه التاريخ أن موسى قد أقام من المستودعات ما يكفي لمجابهة حالة الطوارئ. فقد وصل عطاء بن أبي نافع بصورة مباغتة فوجد في مستودعات موسى كل ما يحتاجه من مواد تموينية، وعلاوة على ذلك فعندما طلب موسى إلى عطاء البقاء في سوسة وعدم الإبحار، كان يعرف أن قوات هذا الأسطول ستكون في حالة عطالة عن العمل، ونظراً لتوقف هذه القوات في منطقة عمليات موسى، فقد كان هو المسؤول عن توفير متطلباتها التموينية. ولا ريب أنه كان يعرف وهو يطلب إليها عدم ركوب البحر، أن لديه من المخزون الاحتياطي ما يكفي لإمدادها طوال فترة توقفها، ويبرهن ذلك بداهة على أن موسى كان يضع ما يكفي من الاحتمالات، وأنه يتخذ من التدابير الإدارية ما يكفي لمجابهة هذه الاحتمالات.

هنا، وفي مجال التأمين الإداري للقوات، لا بد من ذكر إجراء موسى بن

نصير لسك النقود العربية، فعلى الرغم من أن هذا الإجراء يعود في الأصل إلى عبد الملك بن مروان، أول من عرَّب الدواوين وضرب الدينار العربي، وأن موسى بن نصير قد حصل على التفويض لضرب النقد العربي في أفريقية، كولاية مستقلة، فإن إسراع موسى بن نصير لضرب دينار عربي في الأندلس إنما يحمل مضامين إدارية عميقة. ذلك أن التعايش بين البلاد يتطلب بالضرورة التعامل بوسيلة التبادل، فعمل موسى يتضمن تسهيل عملية التأمين الإداري للقوات. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد كان لضرب الدينار العربي في الأندلس دلالة عميقة برهنت على تصميم المسلمين، بقيادة موسى بن نصير، على تعميق جذور الفتح الإسلامي، وإقامة المجتمع الجديد في الأندلس على أسس جديدة في كل مجال، فكان اهتمام موسى بن نصير بالشؤون الإدارية شاملاً، عالج مشكلة قوات المسلمين في الأندلس من ناحية، وشكل دعامة بناء المجتمع الجديد من جهة أخرى، فكان اهتمام موسى من هذه الناحية يلتقي بالهدف الاستراتيجي الذي عملت له قوات المسلمين.

لم يحفظ لنا التاريخ بعد ذلك مزيداً من الشواهد حول اهتمام القائد العربي موسى بن نصير بالشؤون الإدارية. وفي الواقع فإن هذه النقطة هي القاسم المشترك بين المؤرخين والكتاب، قديمهم وحديثهم، إذ يتركز اهتمام هؤلاء على الأشكال النبيلة للحرب، كالاستراتيجية وفن العمليات والأسلحة وقيادة القوات، في حين يكاد الاهتمام بشؤون الأفراد والشؤون الفنية والإدارية أن يكون معدوماً تماماً، مع أن هذه النقاط قد أخذت في العصر الحديث باستقطاب مزيد من الاهتمام. ومهما كان عليه الموقف فإن ما سبق ذكره من شواهد هو أمرٌ كافٍ لإكمال بقية صورة الشؤون الإدارية في قيادة موسى بن نصير، إذ أنه من غير المعقول ظهور هذه الملامح من دون أن تكون لها خلفيات متكاملة تبرهن على اهتمام موسى بن نصير كاملاً، ومما يبرهن على ذلك عدم ظهور أي عائق إداري أمام تحرك القوات وانتقالها. فلو كان هناك ثمة قصور لظهر بشكل واضح، ولكان له أثره على مسيرة العمليات مما كان استرعى انتباه الكتاب والمؤرخين، ولا ريب أن قيادة موسى الناجحة باستمرار هي تأكيد قاطع على شمول الشؤون الإدارية في مجموعة المعطيات التي كان يركز موسى جهده على الاهتمام بها.

٢ ـ التحريض على الجهاد

لم يكن المجاهدون في سبيل الله، وقد انطلقوا من جزيرتهم البعيدة، وتحملوا مشاق السير الطويل وكره القتال، في حاجة لما يستثير هممهم ويوقظ عواطفهم لخوض الحرب بقدر ما كانوا في حاجة لمعرفة **الهدف المرحلي لكل معركة** والحل المتبع لمجابهة كل موقف. وقد تميز أسلوب القائد العربي موسى بن نصير في التحريض على الجهاد بتغطية هذه النقطة، والتركيز عليها من دون سواها، يظهر ذلك من خطاب موسى الذي ألقاه عندما وصل أفريقية، وتسلم قيادة العمليات فيها (وهو النص المثبت في صدر هذا الباب). وعلى هذا فقد كان موسى في تحريضه على القتال يخاطب العقول أكثر مما يخاطب العواطف، ويستثير الاهتمامات أكثر مما يحفز الانفعالات، ولم يكن سبب ذلك قصوراً في بلاغة الإنسان العربي موسى بن نصير، فقد اشتهر موسى بالبلاغة وقوة الحجة وجمال الأسلوب، (وهو ما سيتم إيضاحه عند التعرض لميزات موسى الشخصية)، وإنما كان السبب هو الرغبة في أن يكون التحريض على الجهاد عميق الأثر بعيد المدى، يتوافق مع معطيات الواقع، ومع مسيرة العمليات المتوقعة.

ويتأكد ذلك من نص الخطاب الذي ألقاه موسى بن نصير: «إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها. . .» إلخ. (انظر: الفصل الأول ـ موسى بن نصير)، وفي هذا الخطاب القصير، الذي لا يتجاوز أسطراً قليلة غطى موسى النقاط التالية:

١ ـ حرض المجاهدين في سبيل الله على الالتزام بتعاليم الإسلام، وتبادل المشورة وتقديم النصح، وتقبل هذا النصح للاشتراك في الواجب والمسؤولية.

٢ ـ بلاغ المجاهدين بأمر أمير المؤمنين في مضاعفة أعطيات الجنود ثلاثاً، لتغطية الشؤون الإدارية. وقد جاء توقيت هذا الإبلاغ مع مرحلة الاستعداد للعمليات الشاقة والبعيدة، بحيث يطمئن المجاهدون إلى أن أمورهم الشخصية ستكون مؤمنة، فيتركز بذل جهدهم على تحقيق الواجب المطلوب.

٣ ـ الطلب إلى المجاهدين في رفع متطلباتهم وشكاواهم، والوعد بإيجاد الحلول الفورية لها مهما كانت صعبة «وله عندنا قضاؤها على ما عزَّ وهان، مع المواساة، إن شاء الله».

وكان تحريض موسى بن نصير للمجاهدين في سبيل الله يتخذ مظهراً خاصاً من خلال المثل الذي يضربه لهم، في تحمل المشاق، وفي تقدم الصفوف، وفي إنكار الذات، وفي الاستعداد الدائم للتضحية، وفي الشجاعة في مواجهة الخوف، وبعد ذلك في الروح المعنوية العالية التي كانت تفيض على كل ما حولها عزماً وتصميماً وإرادة على القتال.

وبذلك يكون تحريض موسى على الجهاد، في القول، وفي العمل، ومن خلال المثل الأعلى الذي يقدمه هو تحريض للعقل، أكثر منه تحريض للعاطفة التي سرعان ما تزول إن لم تكن لها أرضية صلبة تستند إليها.

٣ ـ العنف في القضاء على أعداء الإسلام

كانت حروب المسلمين كلها حروباً هادفة من أجل إقامة مجتمع جديد يدين بالإسلام، فكانت الأعمال القتالية تلتزم في حدود عدم التعارض مع إقامة سلم مقبل، ولهذا كانت ظاهرة العنف فيها محدودة جداً، وفي نطاق متطلبات العمليات وضمن أبعاد ميدان القتال.

ولكن ذلك لم يكن ليتناقض مع اتخاذ أقسى أنواع العنف للقضاء على من يثبتون عداءهم للإسلام والمسلمين، ويبرهنون على تصميمهم للاستمرار في الكيد للمسلمين والنكاية بهم. وقد لجأ الرسول ﷺ إلى أسلوب تدمير أعداء الإسلام بعد أن عرف استحالة إصلاحهم، ولجأ الخلفاء الراشدون وقادة قوات المسلمين إلى اتباع هذا الأسلوب ذاته. وفي مواقف موسى بن نصير تجلت ظاهرة العنف عندما اقتحمت قوات المسلمين مدينة سجومة، التي برهنت على استمرار مناصبتها العداء لقوات المسلمين، فكلف موسى أبناء عقبة بن نافع بأخذ الثأر لأبيهم وقتل ملوكهم، فانطلق أبناء عقبة حتى قتلوا ستمائة رجل من كبار أهل سجومة. وأدرك موسى أن حقد أبناء عقبة لمقتل أبيهم ورغبتهم للأخذ بثأره قد تتجاوز حدود هدف الحرب، فأمرهم بقوله: «كفوا» فكفوا. فقال عياض بن عقبة: «أما والله لو تركني موسى ما أمسكت عنهم وفيهم عين تطرف».

ولقد اضطر موسى بعد ذلك إلى استخدام العنف لتدمير قوات القوط التي تجمعت من لبلة وباجة واعتصمت في إشبيلية، وأعلنت خروجها على اتفاقها مع المسلمين ونقضها لميثاق المعاهدة معهم، وكذلك فعل بالنسبة لطليطلة التي

أعلنت تمردها بعد أن غادرها طارق للقاء موسى، حيث عمل المسلمون على قتل أهلها. ولقد كان لهذا السلوك حجته وذريعته، فقوات المسلمين قليلة بالنسبة لمسارح العمليات، ولم يكن بالمستطاع ترك حامية كافية في كل موقع وكل مدينة، وكان لا بد من إعطاء المعاهدات درجة من الثقة والقوة حتى يمكن اعتمادها كبديل لوجود الحاميات الإسلامية. ويظهر أن موسى لم يكن ليلجأ إلى هذا الأسلوب إلا مرغماً، فعندما بلغه عزم قساوسة سرقسطة على مغادرة المدينة أرسل إليهم من يفاوضهم للبقاء في مدينتهم وعدم مغادرتها، مع إعطائهم الضمانات الضرورية، وبقي أسقف سرقسطة وقساوستها وقبلوا بحكم المسلمين وحمايتهم لهم. وإذا كان سلوك القائد موسى بن نصير قد تميز في بعض المواقف بلجوئه إلى العنف للقضاء على أعداء الإسلام، فإن سلوكه مع أسقف سرقسطة يتميز بالتزامه بهدف الحرب وعدم تناقض العنف مع إقامة سلم دائم. ويفسر السلوكان المتناقضان ظاهرياً وضوح الرؤيا عند موسى بن نصير، وقدرته على معالجة كل موقف ضمن إطار مفهوم الهدف الواحد الذي كانت حروب المسلمين كلها تتجه لتحقيقه، وهو الحرب من أجل السلم أو الحرب العادلة، بكل معطياتها وأبعادها.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخوف

الشجاعة نقيض الخوف والعلاقة بينهما جدلية ديالكتيكية، بحيث لا يتضح مضمون أولهما بدون ربطه ربطاً وثيقاً بالطرف الآخر، ووجود هذه العواطف هو من طبيعة النفس الإنسانية. ويتمايز الرجال بالقدرة على مجابهة مخاوفهم، وكان لموسى بن نصير من إيمانه العميق معيناً قوياً يدعم مواقفه في مجابهة مخاوفه أمام التحديات التي تنخلع لها قلوب أقوى الرجال وأثبتهم جناناً، ويظهر ذلك من إجابة موسى لسليمان عندما سأله: «ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوك؟. قال: التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين». وتظهر شجاعة موسى في مواجهة الخوف من خلال ما حفظه التاريخ لمآثره، ومنها تلك الرواية: قال الراوي: «كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيماً، بضعاً وعشرين ليلة، ثم لم نقدر عليه. فلما طال ذلك عليه، نادى فينا: أن أصبحوا على تعبئة!. وظننا أنه قد بلغه مادة من العدو، وقد دنت منا، وأنه يريد التحول عنهم، فأصبحنا على تعبئة، فقام فحمد الله، ثم قال:

أيها الناس إني متقدم أمام الصفوف. فإذا رأيتموني قد كبَّرت وحملت، فكبروا واحملوا. فقال الناس: سبحان الله! أترى فقد عقله أم عزب عنه رأيه؟! يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه؟. فتقدم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره. فاستعددنا، ثم إن موسى كبَّر، وكبر الناس، وحمل وحمل الناس». ففي هذا الموقف خاف كل الناس حتى اتهموا موسى بأنه فقد عقله، ولكن موسى لم يستشعر الخوف، وأوحى للناس بالثقة، وعزز المشاعر في نفوسهم لإحباط عاطفة الخوف، ثم أنه لم يحرضهم على القتال بإثارة عاطفتهم، وإنما بالبرهان العقلي المحسوس والقيادة الحازمة بقوله: «إني متقدم أمام الصفوف» ثم هو بعد ذلك يستمد الشجاعة له وللمقاتلين من أجل إحباط عاطفة الخوف باللجوء إلى الله تعالى، حيث رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة.

قد تكون الشجاعة في مواجهة الخوف في القتال أسهل بكثير من تلك الشجاعة المطلوب توافرها في القائد عند مجابهة المخاوف الناتجة عن الصدام مع السلطات المسؤولة، وهو الأمر الذي يتعرض له القادة عموماً، والذي يطلق عليه عادة اسم الشجاعة الأدبية أو الخلقية. فالشجاعة في مجابهة مخاوف الميدان قد يمكن اكتسابها بالممارسة والمعاناة، وقد يمكن تنميتها بالتجربة والخبرة، ولكن ذلك النوع المطلوب توافره في القادة هو من طبيعة الإنسان، وهذا سبب نجاح قليل من القادة بالتحلي بهذه الصفة وفشل كثير من الرجال في مقاومة مخاوفة بطش السلطة، أو حتى التغلب على مغرياتها، وقد تميز موسى بن نصير، بصورة خاصة، بهذا النوع من الشجاعة الخلقية الأصيلة التي حملته على مجابهة أكثر المواقف تعقيداً، وأخطرها في التأثير على مستقبله.

كتب عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر إلى موسى بن نصير، أثناء ولايته على أفريقية، رسالة يتهدده فيها ويتوعده، فكان رد موسى: «أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما وصفت فيه من إركاني إلى أبويك وعمك، ولعمري إني كنت لذلك أهلاً، ولو خبرت مني ما خبرا، لما صغَّرت مني ما عظَّما، ولا جهلت من أمرنا ما علما، فكيف أتاه الله لك. فأما انتقاصك لهما فهما لك، وأنت منهما ولهما منك ناصر لو قال وجد عليك مقالاً، وكفاك جزاء العاق. فأما ما نلت من عرضي، فلذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك. وأما تهديدك إياي بأنك واضع مني ما رفعا، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعُد

وابرق لغيري. وأما ما ذكرت مما كنت آتي به عمك عبد العزيز، فلعمري إني مما نسبتني إليه من الكهانة لبعيد، وإني من غيرها من العلم لقريب، فعلى رسلك، فكأنك قد أظلك البدر الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع، فقد تم لها وتمت له. ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي، فلم نشعر به حتى يحل بعقوتك (الشعر الذي يولد عليه كل مولود) فيسلبك سلطانك، فلا يعود إليك، ولا تعود إليه، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم، وتوقن أينا النادم السادم ـ الحزين ـ والسلام».

وإذا ما أمكن تجاوز ما تضمنه النص من بلاغة، تخرج عن إطار الدراسة، وتخالف مضمونها، والتي تبرهن على علو مقام موسى بن نصير في مجال الأدب العربي، وتمكنه من اللغة وأساليبها، فإن هذا النص هو وثيقة رائعة لشجاعة موسى الأدبية، وهناك أكثر من حادثة تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها.

فعندما وصل موسى إلى فلسطين في طريق عودته من الأندلس إلى دمشق، كان الوليد مريضاً على فراش الموت، فبعث سليمان إلى موسى من يلقاه في الطريق حتى يتريث في مسيره وألا يعجل، وحتى يكون شرف فتح الأندلس له في بداية توليه الخلافة. فكان جواب موسى على سليمان: «خنت والله وغدرت وما وفيت، والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت! ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حياً لم أتخلف عنه، وإن عجلت منيته فأمره إلى الله». فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه. وقدم موسى على الوليد وهو حي، يحمل إليه من الغنائم الكثيرة التي ما رئي ولا سمع بمثلها، وسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر، فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى، وتوفي. واستخلف سليمان، فحقد عليه وبعث إليه فأتى به ليعنفه بقوله: «اجترأت، وأمري خالفت، والله لأقللن عددك، ولأفرقن جمعك، ولأبددن مالك، ولأضعن منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور، وتخدعه من آل أبي سفيان وآل مروان». فكان جواب موسى «والله أمير المؤمنين ما تعتل علي بذنب، سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه، فأما ما ذكر أمير المؤمنين، من أنه يقل عددي، ويفرق جمعي ويبدد مالي ويخفض حالي، فذلك بيد الله وإلى الله، وهو الذي يتولى النعمة على الإحسان إلي، وبه أستعين، ويعيذ الله ﷻ أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقه، ولم يبلغه ذنب اجترحته».

وتصل شجاعة موسى في مجابهة مواقف الخوف ذروتها يوم أن قتل ابنه عبد العزيز[1] في الأندلس، وحمل رأسه إلى دمشق، فبعث سليمان إلى موسى فأتاه، فلما جلس وراء القوم قال له سليمان، وقد ألقى برأس ابنه بين يديه: «أتعرف هذا الرأس يا موسى؟». فقال: «نعم هذا راس عبد العزيز بن موسى». فقام الوفد الذي جاء من الأندلس برأس عبد العزيز، فتكلموا بما تكلموا به مما استوجب قتله. ثم إن موسى قام فحمد الله ثم قال: «وهذا راس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين، فرحمة الله تعالى عليه، فلعمر الله ما علمته نهاره إلا صواماً، وليله إلا قواماً، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين، وهنيئاً له الشهادة. قتلتم والله صواماً قواماً».

ودخل موسى يوماً على سليمان وعنده الناس، فلما رآه سليمان قال: «ذهب سلطان الشيخ». وأبصره حين تكلم، فلم يفهم ما قال، فلما سلم قال: «رأيتك يا أمير المؤمنين لما نظرتني داخلاً، تكلمت بكلام ظننتك عنيتني به». قال: «نعم. قلت: ذهب سلطان الشيخ». فقال له موسى: «أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ، لقد أثر الله في دينه أثراً حسناً، ولقد كنت طويل الجهاد في الله، حريصاً على إظهار دين الله حتى أظهره الله، وكنت ممن أتم الله به موعده لنبيه. ولئن أدبر معك، لقد كان مع آبائك، ناضر الغصن ميمون الطائر». فقال سليمان: «هو ذاك؟!». فقال موسى: «وهو ذاك». ولم يزل يرددها سليمان، ويرددها موسى، حتى سكت سليمان.

هذا بعض ما حفظه التاريخ من مواقف موسى وشجاعته في مجابهة الخوف، ثم هو يحدد شجاعته في الميدان من خلال وصفه للآخرين. فعند وصفه للروم يقول: «أُسود في حصونهم، عقبان على خيولهم. . . لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة». فهو يصفهم بالأسود، والعقبان، ولكنهم لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة، ومعنى ذلك أن موسى يعتبر من العار الهزيمة مهما تكن النتائج، وهذه هي أعلى مراحل الشجاعة في مجابهة الخوف عند موسى القائد، الذي لم تهزم لهم راية قط. وقد يكون هناك ثمة تشابه بين شجاعة موسى وشجاعة خالد في مجابهته لابن الخطاب يوم عزله، فقال خالد للخليفة: «لقد شكوتك للمسلمين. فبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر». وقد يكون في

(١) راجع قصة مقتل عبد العزيز في آخر الباب «موسى وعودته إلى الشام».

موقف موسى ما يشابه موقف عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم عزله، ولكن رغم كل تشابه في هذا المجال مما ينسب إلى الديمقراطية الإسلامية والإباء العربي، فقد كان موسى بن نصير عالماً وحده في شجاعته المادية والمعنوية ونسيجاً فريداً بين القادة وبين الرجال.

٥ ـ القرارات الصحيحة

ترتبط عملية الوصول إلى القرارات الصحيحة بمجموعة من المعطيات والعوامل، بينها المعرفة الصحيحة لأبعاد الموقف من مختلف النواحي، مما يساعد على تقدير الموقف السليم والوصول بالتالي إلى القرارات الصحيحة. وقد أبرز عرض الأعمال القتالية لموسى بن نصير، وكذلك ما تبع ذلك من عرض للأسس الاستراتيجية ولمبادئ الحرب، مما كان يطبقه هذا القائد العربي المسلم، أنه كان يبحث عن المعرفة التامة للعدو والأرض وطبيعة منطقة العمليات من دون إغفال لميزات القوات الصديقة وكفاءتها وقدراتها القتالية.

وقد ساعده ذلك على اتخاذ قراراته بصورة صحيحة في جميع المواقف التي جابهها على مستوى العمليات القتالية بصورة خاصة. وربما كان من الصعب انتقاء موقف معين يبرهن على نجاح موسى في الوصول إلى القرارات الصحيحة. فالرجل الذي ما انتكست له راية، والقوات التي لم تعرف تحت قيادته الهزيمة، فذلك يعتبر في حد ذاته دليلاً كافياً على أن قرارات موسى كانت دائماً صحيحة. فقرار موسى بتطبيق استراتيجية الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة وإخضاع المقاومات على التتابع، الأدنى فالأقصى، وقراره في عزل نفوذ الروم (البيزنطيين) ومنعهم من التدخل في مسيرة عملياتها، وحرص موسى على بناء المجتمع الجديد بعد كل عمل قتالي مباشرة، واستخدام أساليب الحرب التشتيتية، وكذلك تطبيق ما هو صالح من مبادئ الحرب لمجابهة كل موقف، إنما هو كله برهان على القرارات الصحيحة للقائد موسى بن نصير.

ولقد عرف تاريخ الحروب أعمال عدد كبير من القادة في اتخاذ قرار صحيح أمام موقف معين، ولكنهم قليلون هم الذين تميزوا بوصولهم في المواقف جميعها إلى اتخاذ القرارات الصحيحة. وهنا قد يظهر ثمة تناقض بين قرارات موسى الصحيحة على المستوى العملياتي، وبين قرارات موسى المتعلقة بسلوك موسى الشخصي، سواء في معاملته لمرؤوسيه (موقفه من طارق) أو في تعامله

مع رؤوسائه (سليمان بن عبد الملك). وتتعلق قرارات هذه المواقف في الواقع بمعطيات مختلفة. إنها تتعلق قبل كل شيء بمفهوم موسى بن نصير للانضباط والطاعة، كما تتعلق أيضاً بقيمه الدينية، بحيث لا يمكن إيضاح هذه القرارات بدون استعراض الأحداث المحيطة بها، وهذا ما سيتم التعرض له عند دراسة مفهوم موسى للانضباط والطاعة؛ وعند ذلك وعلى ضوء تلك المعطيات يمكن معرفة ما إذا كانت قرارات موسى الشخصية صحيحة أم هي غير ذلك؟ . . . ولكن مهما كان عليه الموقف، فإن التقويم السليم للقرارات الصحيحة يتعلق أصلاً بنتائج هذه القرارات، وقد كانت النتائج رائعة على المستوى العملياتي، وهذا هو الأمر الأكثر أهمية. أما قرارات موسى المتعلقة بشخصه فقد احتمل هو نتائجها، بالدرجة الأولى، ولو أنها كانت ذات انعكاسات سيئة على مستقبل الفتوحات، ولكن تبقى هذه خارجة على إرادة موسى، وبعيدة عن إرادته وحده.

٦ ـ حماية المرؤوسين

ما من قائد في تاريخ الحرب، قديمه وحديثه، إلا أظهر اهتماماً خاصاً بتأمين الحماية لمرؤوسيه. فهؤلاء المرؤوسون هم الذين يضطلعون بأعباء القتال، وهم الذين يحملون على أكتافهم النصر، وهم الذين يحتملون المصاعب، فيقتلون ويقتلون. ولكن عقيدة الإسلام الدينية، وما تفرع عنها من عقيدة قتالية، حرضت القادة باستمرار على حماية مرؤوسيهم. وقد سن الرسول محمد ﷺ السنة لحماية المسلمين وتبعه الخلفاء وقلدهم قادة الجيوش فساروا على السنة ذاتها. وكان موسى بن نصير إنساناً مسلماً وقائداً مؤمناً، فكان من الطبيعي أن تتمثل في تدابيره كلها متطلبات حماية المرؤوسين. ولم تكن حماية موسى لمرؤوسيه تقتصر على المسلمين التابعين لقيادته، وإنما للمسلمين قدر ما يستطيع، ويظهر ذلك خاصة في نصيحته لابن عطاء حتى لا يركب البحر في فصل الشتاء وألا يغرر بنفسه خوفاً عليه وعلى المسلمين معه، وكذلك عندما طلب إلى يوليان استطلاع الأندلس حتى لا يغرر بالمسلمين، وكذلك أيضاً عندما طلب إلى طارق عدم مغادرة الجزيرة الخضراء، ثم إسراعه للعبور عندما تطلب الموقف نجدة المسلمين ودعمهم، وخضع لإرادة المقاتلين عندما شعر أنهم حملوا من كره القتال ما كفاهم حتى أصبحوا بحاجة للراحة. وأما تدابير حماية المرؤوسين على المستوى العملياتي فتظهر في تطبيقه لاستراتيجية الحروب التشتيتية، وتنسيق

عمليات القوات لتتبادل الدعم فيما بينها، مع تأمين مؤخراتها وحمايتها من كل مباغتة.

وكان موسى يؤمن حماية مرؤوسيه بنفسه، ويدفع أبناءه على رأس الحملات، ليحمي قواته بأقرب الناس إليه، وأعزهم على نفسه. فكان ابنه عبد الله على حرب أفريقية، وهو الذي فتح جزيرة ميورقه من جزر الباليئار، كما كان ابنه عبد الملك على حرب طنجة وما يليها من المغرب، وبقي ابنه عبد العزيز على حرب الأندلس، وقد كلفه موسى بسد ثغورها وحرب عدوها. وموسى يعتبر بذلك أن ممارسة القيادة تكليفاً لا تشريفاً، وأعباء أكثر منها ممارسة للسلطة أو إشباعاً لحب السيطرة. فلا ريب أن اندفاع موسى على رأس القوات، وكذلك تقدم أبنائه، كان يجعلهم أكثر عرضة للقتل، وكان هذا القتل تشريفاً، وهذا في حد ذاته يدحض كل مقولة في التحكم والسيطرة، ويبرهن على أن هذا الإجراء إنما كان بهدف حماية المرؤوسين، وإعطائهم الأمثولة في التضحية وإنكار الذات. **أما تدابير موسى الوقائية والمعروفة بتدابير الحيطة والأمن فهي مما** كانت تطبقه قوات المسلمين جميعها في حروبها كلها، ولكن الحرص على تطبيق هذه المبادئ، بتأثير القائد موسى بن نصير، وتحريضه عليها، هو الذي يبرز من خلال النتائج التي أمكن لموسى تحقيقها. وإذا كانت متطلبات مسرح العمليات التي كانت تزيد على الحجم العددي لقوات المسلمين هي التي حملت موسى على تطبيق كل ما من شأنه حماية مرؤوسيه، فلقد كان له من دينه وعقيدته ما يدفعه أيضاً لأن يكون أكثر حرصاً على حماية المسلمين.

ب ـ موسى بن نصير وقوات المسلمين

سأل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك مولاه مغيثاً الرومي عن طارق بن زياد، وقد أراد أن يوليه الأندلس بعد موسى، فقال: «كيف أمر طارق بالأندلس؟. قال مغيث: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا!».

وسهر يزيد بن المهلب ليلة عند موسى فقال له: «يا أبا عبد الرحمٰن! في كم تعتد من مواليك وأهل بيتك؟. فقال له موسى: في كثير. فقال يزيد: يكونون ألفاً؟. فقال له موسى: وألفاً وألفاً إلى منقطع النفس؟». هذان هما القائدان اللذان فتحا الأندلس، وإليهما وحدهما يعود الفضل فيما حققه المسلمون من انتصارات رائعة، وكان كلاهما قوي العدة والعدد، قوي الإرادة والعزم، قوي التأثير على من حوله، ولكن كان موسى بدون ريب، هو الأقوى، ليس ذلك لأن طارقاً كان مولاه، ولكن لأنه الأقوى في حوار الإرادات.

ولقد أبرزت مسيرة الأحداث ما كان عليه موسى من قوة الشخصية، وليست هذه النقطة هي موضع البحث، وإنما النقطة الأساسية هي أن قيادة رجال من أمثال طارق ليست بالعملية السهلة، ولقد كان في صفوف المسلمين من التابعين من هم من أمثال طارق في رجولتهم وفروسيتهم وكفاءتهم. وهنا تبرز قدرة موسى بن نصير، فقد كان أسداً يقود جيشاً من الأسود، لا أسداً يقود جيشاً من النعاج. ولقد كان لجيوش المسلمين ميزات معروفة ليس أقلها الشجاعة، والصبر على احتمال الصعاب، والرغبة في القتال وإن توافر هذه الصفات في جيش المسلمين هو مما كان يفرض على القائد أعباء إضافية، وهنا يظهر التأثير المتبادل بين موسى بن نصير، وبين جيش المسلمين في المغرب والأندلس.

لقد ضم جيش موسى بن نصير عنصرين متمايزين، العنصر العربي والعنصر الأفريقي، واستطاع أن يحقق الانسجام الكامل بينهما. وكان البربر، باعتراف موسى، هم أقرب الناس للعرب، في طبيعتهم، وتكونهم الطبيعي، وظروفهم

الحياتية، حتى في حميتهم، وكان ها التشابه هو الذي بنى موسى على أرضيته قاعدة الانسجام في العمل الواحد. فبعد أن عرَّفهم بالإسلام، اندفعوا إلى حمل الرسالة، تماماً كما فعل العرب الذين قاوموا الرسالة عند ظهورها ثم قاموا بحملها إلى أرجاء الدنيا، فتكونت لموسى بن نصير قاعدة قوية، وتوافرت له قدرة بشرية لم تتوافر لسواه. وقد عرف موسى أهمية هذه القوة فوجهها للفتح، ووضع أمله بها، وأخذ ينظر إلى الأفق البعيد من خلالها، ولم يكن هذا الأفق البعيد هو الحصول على مكاسب دنيوية، على الرغم من المغانم الكبيرة التي تم الحصول عليها، وإنما كان الهدف هو ديني في أساسه. وهكذا، فإن أول ميزات جيش موسى بن نصير هو اعتماده على عنصرين متمايزين وموحدين بأهدافهما وبقيادتهما، علاوة على الميزات القتالية التي يمكن استعراض بعضها في الصفحات المقبلة.

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

لم ينكب المسلمون، ولم تنتكس رايتهم في فتوح المغرب منذ تولى موسى بن نصير قيادتهم، وهذا برهان واضح على أنه كان من المحال على خصومهم النيل منهم أو مباغتتهم، بسبب استعدادهم الدائم للقتال. وقد يكون من الصعب إدراك مضامين هذا الاستعداد بدون أساليب فهم حرب الحركة التي كان يطبقها المسلمون في حروبهم.

إن الاستعداد الدائم للقتال يعني على مستوى القيادة اتخاذ جميع التدابير الضرورية لحماية القوات ضد كل مباغتة، واتخاذ تدابير الحيطة عند التوقف وأثناء التحرك وخلال المعركة، وهو يعني بالنسبة للقوات الانضباط الدقيق في العمل وقدرة الاحتمال والصلابة والقسوة، وكان الإنسان العربي، بطبيعة حياته القاسية، وبفضل نمط حياته البسيط، مؤهلاً لكل ذلك، ثم جاء الإسلام، فخلق الذريعة في النفوس وغرس الإيمان في القلوب وكلفهم بحمل الرسالة، فظهرت تلك القدرات المبدعة في مستويات القيادة وعلى مستوى المقاتلين على حد سواء.

نطلق من هذا الإطار العام بعد ذلك، إلى الإطار الخاص بموسى بن نصير، فقد تولى موسى قيادته بعد مجموعة من الانتصارات والانتكاسات، دفع المسلون في الحالين ثمنها غالياً، فكان لا بد من وضع حد نهائي وحاسم

للمواقف جميعها. وأخذ موسى في قيادة أعماله القتالية ضمن إطار «حرب الحركة» فكانت قوات المسلمين تتحرك فوق الرمال الأفريقية كالسيل الجارف، وكالزئبق المرن؛ كالسيل الجارف في مجابهته لسدود المقاومة وفي الالتفاف حولها ثم صدمها بقوة لتدميرها، والتفرق عند الوصول إلى السهول أو عند التحرك في الأودية والجبال للاتقاء من جديد عند ظهور سد جديد للمقاومة، وبفضل هذه الاستراتيجية أمكن إزالة المقاومات جميعها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن طبيعة هذا التحرك وأسلوبه جعل قوات المسلمين بعيدة عن أهداف الأعداء في كل وقت، تماماً كمحاولة الإمساك بالزئبق، وبذلك حافظ موسى بن نصير على استعداد قواته، وضمن لها الحماية حتى لم تنتكس لها راية قط.

إن حركة موسى بن نصير في أفريقية، ثم في الأندلس بعد ذلك، تشابه إلى حد بعيد تحرك قوات المسلمين عند انطلاقتهم الأولى من الجزيرة العربية حتى معركة اليرموك الخالدة، ثم فتوح الشام بعد ذلك. وكانت قوات المسلمين هنا وهناك على مستوى الاستعداد للقتال ذاته، ولكن كان في القيادة شيء مختلف، **هو شخص موسى بن نصير الذي جمع في شخصه تسرع خالد بن الوليد واندفاعه في حرب الحركة وكفاءة «أبو عبيدة بن الجراح» وتقديره الصحيح للأمور**، وبفضل ذلك استطاعت قوات المسلمين بقيادة موسى بن نصير تحقيق تلك الإنجازات الخالدة التي حفظها لها التاريخ.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

تجمع الأبحاث الحديثة في موضوع الروح المعنوية على أنها **محصلة للثقة بالقائد ثم الثقة برفاق السلاح** من المقاتلين، ثم بعد ذلك **الثقة بالسلاح** ذاته، وبقدر ما يمكن توفيره من هذا العامل بقدر ما ترتفع الروح المعنوية، ويأتي بعد ذلك الإيمان بالهدف تتويجاً لهذه المحصلة كلها. وفي موقف موسى بن نصير، كانت كفاءته العالية في القيادة وحرصه على أمن مرؤوسيه، وقيادته لهم وهو في مقدمتهم، والعدالة في معاملة المرؤوسين هي بعض الصفات التي ضمنت لمرؤوسيه قدراً من الثقة لا يتنابه الشك، حتى أصبح أتباعه ألفاً وألفاً إلى منقطع النفس. ورغم هذه الثقة المطلقة فإن عامل شخص القائد وتأثيره على الروح المعنوية، ذو أهمية تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للعقيدة القتالية عند المسلمين.

فالثقة يستوحيها المسلم من إحدى الحسنيين، الشهادة أو النصر، وقصة عزل خالد، حتى لا يفتن المسلمون به، معروفة في التاريخ، كما أن تناوب القيادة، وانتخاب المسلمين لمن يقودهم، عند استشهاد القائد، هي من الشواهد التي تبرهن على أن المسلمين يستمدون من عقيدتهم روحهم المعنوية العالية أكثر مما يستمدونها من أشخاص القادة. ولكن ممارسة القيادة بنجاح كانت تفرض على هؤلاء القادة إعطاء المثل الأعلى في كل أمورهم بما يوحي بالثقة لجنودهم والمقاتلين تحت رايتهم.

وكان موسى بن نصير نموذجاً فريداً بين القادة في قدرته على اكتساب ثقة مرؤوسيه والمقاتلين معه، وكان وجوده وممارسته لقيادته كافياً لرفع الروح المعنوية، بدلالة قدرته على استئناف الفتوح بعد كل مرحلة تصل فيها قوة المسلمين إلى الاستنزاف الكامل عند فتح الأندلس. أما بالنسبة للثقة المتبادلة بين المقاتلين وأثرها على الروح المعنوية، فهي تستند إلى تعاليم الإسلام أكثر مما تستند إلى كفاءة القائد أيضاً؛ فقد ساوى الإسلام بين المسلمين جميعهم على أساس العمل والتقوى، وكان واجب القادة هنا الحرص على تحقيق هذه المساواة. ولقد ضمت جيوش موسى بن نصير المسلمين، من عرب وبربر وغيرهم، واستطاع موسى تحقيق المساواة بما ضمن له تلاحم القوى كلها للوصول إلى الهدف، وكانت الروح المعنوية العالية تتغذى بهذا المعين من المساواة والتلاحم. أما بالنسبة للثقة بالسلاح وأثره في ارتفاع الروح المعنوية فهي ليست عند موسى بن نصير قضية حجم أسلحة أو نوعية معينة، بقدر ما هي تطوير في الفكر الاستراتيجي لاستخدام ما هو متوافر من الأسلحة على المستوى العملياتي، ولقد سبق ذكر المنجزات التي حققها موسى بالنسبة لبناء القوة البحرية ووضع الاستراتيجية المناسبة التي تضمن للعمليات أكبر فرص من النجاح، وبذلك استطاع موسى أن يحافظ على الروح المعنوية للمسلمين في إطار العقيدة القتالية التي جاء بها الإسلام ورسم لها كل أبعادها.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

شيخ في الثمانين من عمره، يمتطي صهوة جواده، بدون ركاب، يسير على رأس جيشه آلاف الأميال، في الحر والقر، في السهول والجبال، في الليل والنهار، ثم هو بعد ذلك يقتحم المعارك في مقدمة الصفوف، ويسير في ركابه

من التابعين شيوخ مقاتلون، كلهم قد ابتعد عن عمر الشباب وقوته، ومعهم شيوخ البربر، فيتشكل من ذلك كله مشهد لا نظير له ولا شبيه، مشهد هو النموذج الأعلى للكفاءة البدنية العالية، والقدرة على تحمل الصعاب، وليس باستطاعة المقاتلين من الشباب بعد ذلك إلا الاندفاع قدر استطاعتهم وإلا احتمال المزيد من الصعاب، والمزيد من المشاق ليبرهنوا لشيوخهم أنهم جديرون بأن يكونوا من أبنائهم، ويستحقون أن يفخروا بهم. تلك هي صورة القائد العربي موسى بن نصير وجيشه العربي الأفريقي الذي فتح المغرب، ثم فتح الأندلس تحت راية الإسلام.

لقد حفظ التاريخ القديم والحديث نماذج مختلفة جداً لكفاءة المقاتلين العالية، وقدرتهم على تحمل الصعاب. فمقاتلو الهون كانوا نماذج رائعة لقدرة الاحتمال، والمقاتل الأسبارطي مقاتل كان يعيش حياته للحرب وفي الحرب، والجندي الروماني أقام امبراطوريته الواسعة بفضل ما تميز به من الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب. ولقد أظهر الجندي النازي في العصر الحديث بطولة رائعة في كفاءته، وفي قدرته على احتمال كره القتال، وكذلك الجندي السوفييتي الذي صمد للمحن التي نزلت ببلاده، ولكن في هذه الحالات جميعها كانت هناك مقادير متوازية من التحديات والاستجابات لها. فقد كان الغزو النازي للاتحاد السوفييتي تحدياً جابهه المقاتلون باستجابة مناسبة مارس فيها العامل المعنوي الدور الأول، وعند صراع الإرادات لم تلبث أن انهارت الإرادة الأضعف في مقاومتها إرادة الغزو. أما في الفتوح الإسلامية فهناك عامل أكبر يضم فيما يضمه التحدي والاستجابة، ولكنه لا يتجاوز ذلك أيضاً لتحقيق هدف نبيل فيه خير الإنسانية، ومن هذا الهدف النبيل كان المقاتلون يستمدون عوناً معنوياً لا ينضب يساعدهم على تحمل الصعاب مهما عظمت، وتلك هي الميزة الكبرى للمقاتلين من العرب المسلمين الذين لم تعرف الدنيا لهم مثيلاً أو نظيراً.

مرة أخرى، قد يكون من الصعب فصل عامل من العوامل عن بقية مجموعة العوامل التي تتداخل في نظام محكم لتكوين فن الحرب ومبادئ الحرب. فالكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب تتداخل بصورة وثيقة بعامل الروح المعنوية العالية، وبالاستعداد الدائم للقتال، ولكن رغم ذلك، فإن النظر إلى المسافات الشاسعة التي تجاوزها العرب المسلمون في فتوحاتهم، حتى

الوصول إلى بلاد الغال (فرنسا)، ثم تصور ظروف الحرب القاسية هو وحده برهان ساطع على ما كانت تتحلى به قوات العرب المسلمين التي قادها موسى بن نصير، وما كانت تتميز به من كفاءة بدنية عالية، وقدرة على تحمل الصعاب، بداية من القائد ذاته وحتى آخر مقاتل في جيش المسلمين.

٤ ـ موس بن نصير وما يعرف حالياً بالحرب الشعبية

يعتبر موسى، في مضمار حشد القوات وتعبئتها، مقلداً لا مجتهداً، ومتبعاً لا مبتدعاً، ولكن حتى في التقليد والاتباع هناك ثمة كفاءة عالية لا يمكن إنكار دورها أو تجاهل أثرها. فلقد كان الرسول الأعظم ﷺ، وهو أول من عبأ قوات المسلمين جميعها للجهاد، وهو واضع أول أساس لما أصبح يعرف حالياً باسم «الحرب الشعبية»، وقد كان في عمله هذا منفذاً لتعاليم الإسلام، ونهج الخلفاء الراشدون وأمراء الأمويين من بعدهم على نهج السنة في حشد القوات وتعبئتها. وعندما تولى موسى بن نصير قيادته، وجد في سنة السلف ما يكفيه مؤونة الاجتهاد، فعمل على تطبيق المبادئ وفقاً لموقفه الخاص على مسارح العمليات المختلفة.

لقد تولى موسى بن نصير أفريقية وهي تضطرم ناراً، فكان أول عمل له هو تأمين قواعد انطلاقه، ثم انصرف لإخماد الفتن والقضاء على الثورات وتصفية قواعد العدوان وبناء المجتمع الإسلامي الجديد، ووجد بعد ذلك في أفريقية طاقات ضخمة وإمكانات جبارة، فأفاد من حرية العمل المتوافرة له، وانصرف إلى متابعة حشد القوات وتعبئتها وقيادتها من نصر إلى نصر، وإشراكها في شرف الفتوح وبتحميلها أعباء نشر رسالة الإسلام، فدانت له أفريقية وخضعت له الأندلس. ويذهب بعض المؤرخين من المسلمين القدماء والمحدثين، إلى أن تطبيق موسى لهذا المبدأ هو الذي ضمن استقرار الإسلام نهائياً في المغرب العربي، ذلك أن توجيه موسى بن نصير قوات المسلمين من عرب وبربر لفتح الأندلس صرف المسلمين عن الاقتتال الداخلي إلى الاقتتال مع أعداء المسلمين، وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن موسى بن نصير لم يجعل من الحرب الشعبية إذا صح التعبير هدفاً له لمنع الاقتتال الداخلي، وإنما وسيلة لنشر الإسلام بدلالة حدوث أمور مشابهة عند فتح المشرق الإسلامي منذ الأيام الأولى للفتوح، ومنذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن العامل الأساسي في الحرب الشعبية، بمضمونها الحديث، هو هدف الحرب، وهذا يبرهن على أن تطبيق موسى بن نصير لهذا المبدأ لم يكن هدفاً في حد ذاته وإنما وسيلة لخدمة هدف الحرب، على نحو ما كان عليه قبل موسى بن نصير. وإذا عدنا مرة أخرى إلى سيرة الفتوحات، نجد أن أعباء الفتوح وأبعادها كانت تتجاوز كثيراً قدرة العرب وقوتهم، فكان نظام التعبئة عندهم تلبية لحاجة واستجابة طبيعية لتحديات كبيرة، ورغم ذلك فقد كان نجاح موسى بن نصير رائعاً عند تطبيقه لهذا المبدأ. فقد استطاع حشد قوات ضخمة، رغم حداثة المغرب في عهده بالإسلام والمسلمين، وسار بهم إلى الأندلس، وكان يطمح للسير إلى أبعد من الأندلس بفضل استخدامه الماهر لنظام التعبئة عند المسلمين، وكفاءته العالية في تحقيق المساواة بينهم وإيجاد الحوافز التي تستجيب للتحديات المفروضة عليهم.

٥ ـ موسى وحرية العمل

قاد موسى بن نصير جيوش المسلمين في أفريقية وفي الأندلس، وكلاهما مسرح عمليات بعيد جداً عن مركز الدولة في دمشق، وهذا لا يعني انعزال مسرح العمليات بقدر ما كان يعني توافر قدر كبير للقائد من حرية العمل. فلقد كان الخليفة الأموي على اتصال دائم بمسيرة الأحداث، وكان موسى يحرص في كل أموره على إطلاع الخليفة على تطورات الموقف، ولكنه مع ذلك لم يكن يرجع لأحد في اتخاذ قراراته النهائية. هنا تظهر الكفاءة العالية للقائد في الإفادة من حرية العمل، لإجراء موازنة دقيقة بين أهدافه السياسية ـ الاستراتيجية، وبين قدرة قواته العملياتية، ثم بعد ذلك في إحكام مخططاته وفق هذه المعطيات. ويتشابه موقف موسى بن نصير بموقف عقبة بن نافع في هذا المضمار، كما يتشابه موقفه مع موقف رومل في الحرب العالمية الثانية على مسرح العمليات الأفريقي ذاته، وإن مجرد هذه المقارنة في الظروف المتباينة على مسرح عمليات واحد تظهر الكفاءة الخاصة التي انفرد بها موسى بن نصير.

لقد ربط موسى بن نصير، قبل كل شيء، بين الاستراتيجية البرية أو القارية والاستراتيجية البحرية، فضمن لنفسه بذلك حرية العمل التامة، وهذا ما لم يتحقق لرومل بسبب ضعف حلفائه الإيطاليين، وبسبب عدم وحدة القيادة.

لقد كانت الدولة البيزنطية، بالنسبة للقوة البحرية في عصر فتوحات موسى بن

نصير، تشابه قوة البحرية البريطانية في البحر المتوسط خلال الحرب العالمية الثانية، ولو استطاع رومل الانفراد بحرية عمل تضمن له استراتيجية قارية ـ بحرية متكاملة، لتغير وجه العالم تماماً كما استطاع موسى بن نصير تغيير خارطة العالم قبل اثني عشر قرناً تقريباً.

لقد توافر لعدد كبير من القادة في تاريخ الحرب، قديمه وحديثه، ما يكفي من حرية العمل لإنجاز الأعمال الرائعة، وتسجيل المنجزات الخالدة، ولكن هممهم قصرت عن مطامحهم فقعدت بهم عن استثمار حرية العمل بشكلها الصحيح، وغابت شمسهم من دون أن يسجلوا في صفحات التاريخ حتى ما يذكِّر بوجودهم، ولكن الشيخ ذا الثمانين عاماً انطلق لاستثمار هذا العامل حتى أقصى الحدود، وقد قصرت حرية العمل عن تحقيق تطلعاته والوصول إلى مطامحه، فكانت حرية العمل بعضاً من عوامل انتصاراته.

لقد ضمنت حرية العمل لموسى بن نصير القدرة على وضع استراتيجية قارية ـ بحرية متكاملة، كما ضمنت له أيضاً زج كل القوى المتوافرة، واستخدام ما يعرف حالياً بالحرب الشعبية ثم تطبيق مبادئ الحرب بما يتوافق مع المواقف المتنوعة، وقيادة جند المسلمين في هذا الإطار للوصول إلى هدف الحرب. ولكن وبقدر ما كان موسى يستثمر حرية العمل، فإنه كان مركزيَّ السلطة، وموقفه مع طارق بن زياد هو نتيجة لمركزية السلطة لا أكثر. فهل كان اعتماد موسى على كفاءته وخبرته الطويلة، وخوفه من تهور قادته، هو سبب مركزيته؟ أم هو خوفه على المسلمين؟ الشواهد تشير إلى أن سبب مركزيته يخضع للعاملَيْن معاً.

٦ ـ الانضباط والطاعة

سأل يزيد بن المهلب يوماً موسى بن نصير وهو يحادثه: «كيف ألقيت بيدك إلى التهلكة وأنت على ما وصفت من المنعة والقوة؟. أفلا أقمت في قرار عزك وموضع سلطانك، وامتنعت بما قدمت به؟ فإن أعطيت الرضى وإلا كنت على عزك وسلطانك؟». فقال له: «والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة».

لقد أوضح موسى بن نصير، بشكل واضح وصريح، مفهومه في الانضباط والطاعة، وهو إيثار الله ورسوله، وعدم الخروج على الطاعة والجماعة. ومن

المحتمل أن تطرح في هذا المجال قضية خروج موسى على الطاعة والجماعة عند خروجه على الأمويين ووقوفه إلى جانب عبد الله بن الزبير في بداية حياته، وأن ما وصل إليه من نتائج عن تصميم الأمويين وأمرائهم للدفاع عن حكمهم هو الذي حمل موسى على الخضوع لسلطانهم والاستسلام لإرادتهم. وواضح أن هذا الطرح إنما يهدف لتجريد موسى من عاملي الشجاعة والإيمان، وهما من الميزات الرئيسية التي اتصف بها موسى بن نصير في قيادته. ولكن هناك أكثر من موقف يبرهن على أن موسى كان يستلهم سلوكه من إيمانه العميق، ويقينه المسلم، وسبق استعراض عدد من النصوص التي تثبت وجهة النظر هذه وتؤكدها، وبالإضافة إليها يمكن الاستشهاد بالنص التالي: «كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة من أقرب المقربين إلى سليمان بن عبد الملك، وكان لموسى يد على المهلب. وسأل يزيد يوماً موسى فقال له: «أريد أن أسألك فاصغ إلي... إني لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحرب ومداراة الدنيا. فقل لي كيف حصلت في يديٍّ هذا الرجل - يعني سليمان بن عبد الملك - بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها (افترعتها - أو فتحتها) واستملكت رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك. ثم إنك علمت أن سليمان ولي العهد، وأنه المولَّى بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً)، وما رضى هذا الرجل إلا بعيد، ولكن لا آلو جهداً». فقال موسى: إذا جاء الحين غطى على العين؟. فقال يزيد: ما قصدت بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً، وإنما قصدت تلقيح العقل، وتنبيه الرأي، وأن أرى ما عندك!. فقال موسى: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينيه؟... وتظهر المناقشة في هذا النص مجموعة من النقاط:

١ - إيمان القائد موسى بن نصير بقدره الحتمي ومصيره الذي كتبه الله له «إذا جاء الحين غطى على العين»، ثم يضرب لذلك مثلاً بالهدهد الذي يرى الماء تحت الأرض عن بعد، ثم هو يقع في الفخ وهو بمرأى عينه؟. وهذا يبرهن على أن مفهوم الانضباط والطاعة عند موسى هو موضوع يرتبط بعقيدته الدينية ﴿أَطِيعُوا

﴿ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء/٥٩] ومن المحتمل أن تكون تجربته في التمرد مع ابن الزبير قد دعمت لديه هذا الشعور الديني، فأصبح أكثر التزاماً بالطاعة والجماعة وهذا ينفي عنه العمل بتأثير عامل الخوف.

٢ ـ يبرهن حديث يزيد إلى موسى، ما كان معروفاً عن تمرد القادة كلما عرفوا في أنفسهم القوة، وأدركوا أن باستطاعتهم التمرد على سلطة الدولة والخروج على طاعتها. فيزيد، وهو أقرب المقربين إلى سليمان، يلوم موسى لعدم تمرده، وبقائه في موطن عزه، من البلاد التي فتحها والتي لا يعرف أهلها في الخير والشر سواه، وهذا كان يقيناً من الأسباب الرئيسية التي حملت الوليد على استدعاء موسى للحضور إلى الشام.

ضمن إطار هذا المفهوم في الانضباط والطاعة، يصبح بالإمكان إدراك سبب غضب موسى لمخالفة طارق ما تلقاه من أوامر. فموسى لا يطالب طارق بغير ما يلزم به نفسه من الانضباط والطاعة، فهو يريد من مرؤوسيه أن يلتزموا بما يلتزم به، وعلاوة على ذلك، فقد كان موسى هو المسؤول عن العمليات في منطقة خطرة، وكان يعرف أهمية وحدة القيادة، فهو يمسك القيادة بمركزية قوية، وبقبضة حازمة حتى يستطيع التنسيق بين مختلف العمليات، وهذا سبب كاف لإثارة غضب موسى عند خروج قائده على تعليماته وتجاوزه لها، ورغم ذلك، فإنه لم يفعل معه أكثر من أن يقنع موسى بالسوط بحركة من الأبوة الطاغية، ثم هو يرضى عنه ويقبل اعتذاره ويدفعه على مقدمته ويشركه في فتوحاته، مما يبرهن مرة أخرى على أن غضبه كان فكرياً مبدئياً، لا علاقة للعواطف والانفعالات فيه.

بقيت النقطة الثانية في خلاف موسى مع مولاه طارق، وهي نقطة الغنائم. فهو المسؤول أمام الله وأمام الناس، عن تقسيم الغنائم، وتوزيع أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين وإرسال الخمس إلى بيت الله، بيت مال المسلمين. وكان حرص موسى على تطبيق هذا المبدأ، هو التزام من موسى بالممارسة لحقوقه وواجباته الدينية والدنيوية من جهة، وهو تأمين للإجراء الإداري وتحقيق العدالة في توزيع الغنائم من جهة أخرى، لا سيما وقد حفظت المصادر التاريخية أن إغراء مغانم الأندلس كان كبيراً، بحيث غلَّ أكثر المجاهدين ـ بمعنى استأثروا بالمغانم قبل تقسيمها ـ ولقد رغب موسى من دون ريب عدم انصراف المجاهدين إلى الأمور الدنيوية، كما أنه لم يكن يرغب في أن يتبع

أفراد جيوشه سابقة في خرق تعاليم الدين، فطلب تسليمه الغنائم ليوزعها وفق الشريعة. أما القول بأن موسى كان يرغب في الغنائم لنفسه، فلا حاجة لمناقشته أو دحضه، إذ كان نصيب موسى من الغنائم كبيراً يكفيه بحلاله عن حرامه، كما عرف عن موسى أنه كان كريماً معطاء لا يدخر لنفسه شيئاً، ومن كان هذا أمره، فلا حاجة به للمزيد من الغنائم.

خاتمة

١ ـ موسى وعودته إلى الشام

ابتليت الدولة الأموية بطمع الطامعين فيها، وطموح الطامحين للوثوب عليها، وخروج الخارجين على سلطتها، وكان في طليعة هؤلاء جميعاً قادة الجيوش الذين ما أن يبتعدوا عن مركز الدولة، ويجدوا أنفسهم في مركز القوة حتى يغتنموا كل فرصة للتمرد والثورة، وكانت بعض هذه الثورات من القوة ما كادت تطيح بالدولة الأموية، فكان من سياسة خلفاء الأمويين عدم السماح لمراكز القوى بالتعاظم إلى الدرجة التي تسمح لها بتشكيل خطر يهدد أمن الدولة وسلامتها. ولقد وصل موسى بن نصير إلى تكوين (مركز قوة) لا يضاهيه مضاه، ولا ينافسه منافس، فلا غرابة إن استشعر الوليد خطر هذا المركز، وما يتضمنه من احتمالات فرضت استدعاء موسى في اللحظة التي وصل فيها إلى الذروة في اشتداد الظهور وقوة الأمل، ومما يبرهن على صحة ذلك حديث سليمان إلى يزيد بن المهلب الذي توسط لموسى عند أمير المؤمنين، فكان جوابه «**إنه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور، وانقياد الجمهور، والتحكم في الأموال والأبشار، على ما لا يمحوه إلا السيف، ولكن قد وهبت لك دمه، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غلَّ من مال الله**».

وإذا ما تجاوزنا قضية غلِّ موسى من مال الله التي تشير الشواهد كلها على أنها كانت محض افتراء، فإن السبب الذي تم استدعاء موسى من أجله هو أنه قد اشتمل بما تمكن له من الظهور، فأصبح في مركز للقوة يشكل خطراً على أمن الدولة وسلامتها، ومما يؤكد ذلك تحريض سليمان على قتل عبد العزيز حتى لا يثور إذا ما بلغه عزل والده واضطهاده. وتذكر بعض المصادر التاريخية حول مصرع عبد العزيز ما يلي: «عندما قفل موسى عن الأندلس، أنزل الرابطة والحامية بثغورها، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، وأنزله بقرطبة

فاتخذها دار إمارة، وكان عبد العزيز خيِّراً فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة، وقد دس سليمان إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس، وهو عبد العزيز بن موسى. وقد انصرف عبد العزيز فضبط سلطان الأندلس، وضم نثرها، وسد ثغورها، وافتتح ما كان قد بقي على أبيه موسى منها. وكان من خيرة الولاة، إلا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إياه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لأشياء نقموها عليه، منها زعمهم أنه تزوج بزوجة لذريق ـ رودريك ـ المكناة أم عاصم، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن أنكحها عبد العزيز فحظيت عنده. ويقال: إنه سكن بها في كنيسة بإشبيلية، وإنها قالت له: لِمَ لا يسجد لك أهل مملكتك، كما كان يسجد للذريق ـ زوجها الأول ـ أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك. وفهم لكثرة شغفه بها، أن عدم ذلك مما يزري بقدره عندها، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه فينحنون، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له، فرضيت بذلك. فنمي الخبر إلى الجند، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله، فقتلوه. كما عزل سليمان عبد الله بن موسى عن ولاية أفريقية».

ويتوافق مضمون هذا النص مع الاحتمالات المطروحة. فلولا تحريض سليمان، لترك أمر محاسبة عبد العزيز على تصرفه للخليفة في دمشق، ولما استطاع الجند أن يجدوا من الجرأة ما يسمح لهم بقتل والي الأندلس. ويتأكد ذلك أيضاً من عزل عبد الله عن ولاية أفريقية، ثم يتأكد ذلك كله من عدم تعيين طارق بن زياد لولاية الأندلس على ما له فيها من الفضل والغناء في الجهاد، نظراً لمكانته في نفوس الجند، حتى لو طلب إليهم الصلاة إلى أية قبلة لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا، وليس لذلك سوى تفسير واحد هو القضاء على مراكز القوة وعدم السماح لها بالتعاظم.

هناك أيضاً نقطة ثانية لا يمكن إغفالها عند ذكر أسباب استدعاء موسى إلى دمشق، فقد كان الوليد بن عبد الملك يخشى على المسلمين من انقطاعهم في الأندلس، وكان منذ البداية قد كتب إلى موسى يحذره لاتخاذ كل التدابير لوقاية المقاتلين، وعدم التغرير بهم في بحر شديد الأهوال، ثم بلغه ما يعتزم عليه بأن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية حتى يلحق بدار الخلافة، فاشتد قلق الوليد

بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همَّ به موسى غررٌ بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع، وكتب له بذلك عهده، ففتَّ ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس.

ركب موسى البحر إلى المشرق، بذي حجة سنة خمس وتسعين للهجرة، يجر معه الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة، يحملها على العجل والظهر، ومعه ثلاثون ألفاً من السبي، والمائدة منوهاً بها، ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته، أسيف على ما لحقه من الإزعاج.

استصحب موسى معه مائة رجل من أشراف الناس من قريش ومن الأنصار وسائر العرب ومواليها، وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل منهم أبناء كسيلة، وملك السوس الأقصى، وملك قلعة أوساف، وملك ميورقة ومنورقة، ومعه من الذهب والفضة والجوهر حمولة ثلاثين ومائة عجلة. واختار موسى ثلاثين من خيرة أسرى القوط، وذلك حتى يلبسهم أفخر الثياب عند دخوله دمشق ليدل على عظم الفتح الذي تم على يديه.

مرَّ موسى في طريق عودته بـ(القيروان) ثم قدم مصر وأقام فيها ثلاثة أيام، يأتيه أهل مصر في كل يوم، فلم يبق شريف إلا وقد أوصل إليه صلة ومعروفاً كثيراً، وأهدى لولد عبد العزيز بن مروان فأكثر لهم وجاءهم بنفسه فسلم عليهم، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين، ثم قدم على الوليد، وهو في آخر شكايته التي توفي فيها، فسلم له الأخماس والمغانم، والتحف والذخائر. ولكن الوليد لم يحسن لقاء موسى، فكان منحرفاً عنه، بعد أن سبق إليه طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة، وقالا له: إنه قد غلَّ جوهراً عظيم القدر أصابه، لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله. واستقبل الوليد موسى بالتأنيب والتوبيخ، فاعتذر موسى له ببعض العذر. وسأله عن المائدة، فأحضرها، فقال له: زعم أنه الذي أصابها دونك. قال: لا، وما رآها قط إلا عندي. فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التي تنقصها. فسأله، فقال: هكذا أصبتها، وعوضتها رجلاً صنعتها لها. فحول طارق يده إلى قبائه فأخرج الرجل، فعلم سليمان، خليفة الوليد صدقه وكذب موسى، فحقق جميع ما رُمي به عنده، وعزله عن جميع أعماله، وأقصاه وحبسه، وأمر بتقصي حسابه، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه، حتى اضطره إلى أن سأل العرب معونته، فيقال: إن لخماً

حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً، وقيل حُمِّل موسى غرم مائتي ألف، فأدى مائة ألف فعجز، فاستجار بيزيد بن المهلب أمير سليمان، فاستوهبه سليمان فوهبه إياه.

هذه الرواية التاريخية هي أقل الروايات غمزاً من قناة موسى بن نصير القائد العربي المسلم، وهناك روايات أكثر قسوة في تصوير ما لحق بموسى، هدفها المزاودة على الأمويين. وفي الواقع، فبقدر ما تكون الشجرة عالية بقدر ما تتعرض للعواصف والأنواء، وكان موسى بن نصير قمة فوق القمم، فكان من الطبيعي أن تكثر الروايات المتناقضة التي يدحض بعضها بعضاً، فلا تستقيم أمام براهين الواقع وقرائن مسيرة الأحداث التاريخية، وعلى كل حال، فقد وقع موسى بن نصير ضحية جو المؤامرات التي أحاطت به والتي قادها بصورة خاصة مولاه طارق بن زياد، ومغيث الرومي، وتوافق ذلك مع رغبة الخلفاء الأمويين في القضاء على مركز المقاومة المتعاظم الذي يمثله موسى بن نصير، فكان من جديد ضحية مجموعة الظروف المحيطة به. وعلى الرغم من أن خلاف موسى مع طارق ومغيث هو موضوع جانبي، إلا أنه قد يكون من المفيد ذكر بعض جوانبه.

كان طارق يطمح لولاية الأندلس، وكان يجد في مولاه موسى قوة طاغية لا يمكن زحزحتها عن موقعها من دون النكاية بها والكيد لها. ولا ريب أن مواقف موسى القاسية، قد جعلت طارقاً يحمل الضغينة في نفسه. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمغيث الرومي، الذي كان يطمح إلى ولاية الأندلس، فأخذ في الكيد لموسى وطارق معاً، ولم يكن ينكر ذلك. فقد قال يوماً لهما: أعنتكم ولكن ما وفيتم: فسوف أعيث في غرب وشرق.

وعارض يوماً مغيث في محفل من الناس موسى بن نصير، فقال له موسى: «كف لسانك». فقال مغيث: «لساني كالمفصل، ما أكفه إلا حيث يقتل».

المهم في الأمر، أن الوليد مات بعد وقت قصير من وصول موسى، وتولى الحكم سليمان وهو أكثر حقداً على موسى، لمخالفته له من جهة، ولاتفاقه مع الوليد في وجهة نظره بالنسبة لما يشكله موسى من الخطورة، فاستدعى موسى ووبخه بقسوة، وأغرمه، ولكن يزيد بن المهلب وعمر بن عبد العزيز توسطا في الأمر، وأصلحا الموقف، حتى خف غضب سليمان وزال ما به من حقد على موسى.

* * *

جمع موسى من خِلال الخير، ما أعانه الله به على ما بنى به من المجد المشيد، والذكر الخالد، إلا أنه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيسٌ يسلم منه، وهو الحقد والحسد، والمنافسة لا تخلو من ذلك، فقد أنشد بعضهم بحضور موسى: (وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا)، ثم قال: إن السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة عليهما، اجتُرئ عليه، ونسب للضعف والغفلة، وهل رأيت صفة أخسر، من غفلة رئيس أحقده غيره، فنسي ذلك أو تناساه، وعدوه لا يغفل عنه، وحاسده لا ينفعه عنده إلا الراحة منه، وهو في واد آخر عنه، ولله در القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلا مُضِر كوضع السيف في موضع الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً: لا يزن الوافي لناقص، ولا يزن الناقص لوافٍ ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان، ويقدر فيه حسن العاقبة.

* * *

في عام ٩٧هـ، خرج سليمان بن عبد الملك لأداء فريضة الحج، واصطحب معه موسى بن نصير فيمن رافقه للديار المقدسة، وبينما كان يسير يوماً إذ دعا سليمان بموسى، فدعاه أحد رجال سليمان، وكان موسى يساير رجلاً، فلم يلتفت موسى إلى ندائه. ثم دعا به سليمان، فناداه ذلك الرجل أيضاً، فلم يلتفت إليه، فقال له الرجل: «غفر الله لك! ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين؟ إني أخافه وأخاف أن يغضب». فقال موسى: «ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد، فأما هذا فإنه يرضيه ما يرضي الصبي، ويسخطه ما يسخطه، وسترى ذلك». ثم تقدم موسى حتى لحق ولصق بسليمان، فقال له: «أين كنت يا ابن نصير؟!». فقال له: «يا أمير المؤمنين، أين دوابنا من دوابك! إني لمنذ دعاني أمير المؤمنين لفي كد، حتى لحقت أمير المؤمنين». فضحك سليمان، وأمر له بدواب من مركبه، فسايره وحادثه، ثم انصرف عنه، فلحق الرجل إليه، فقال له موسى: «كيف رأيت؟». فقال: «أنت كنت به أعلم».

وفي وادي القرى، أغمض القائد العربي موسى بن نصير عينيه، تاركاً للدنيا منارات خالدة، وللعرب المسلمين أمجاداً رائعة، ولفن الحرب تراثاً مجيداً.

٢ ـ ما بعد موسى

تعاقب على حكم الأندلس، بعد موسى بن نصير، عشرون أميراً خلال أربعين

سنة وخمسة أيام، ثم جاء عبد الرحمٰن الداخل، ليؤسس الدولة الأموية التي استمرت زهاء ثلاثمائة سنة تقريباً.

وقد اتخذ الأمراء الأوائل إشبيلية عاصمة لهم حتى زمن أيوب بن حبيب اللخمي، فانتقلت إلى قرطبة. وفيما يلي مدة حكم كل منهم:

التسلسل	اسم الأمير	السنة الهجرية	مدة الولاية	ملاحظات
٠	طارق بن زياد	٩٢	١ سنة	
٥	موسى بن نصير	٩٣ ـ ٩٥	٣ سنين	
١	عبد العزيز بن موسى	٩٦هـ	٦ أشهر	
٢	أيوب بن حبيب اللخمي	٩٦هـ	٦ أشهر	بعده نُقلت العاصمة إلى قرطبة
٣	الحر بن عبد الرحمٰن الثقفي	٩٧ ـ ١٠٠	٢ سنة و٨ أشهر	
٤	السمح بن مالك الخولاني	١٠٠ ـ ١٠٢	٢ سنة و٤ أشهر	قتل يوم التروية
٥	عبد الرحمٰن الغافقي	ـ	فترة انتقالية	
٦	عنبسة بن سحيم الكلبي	١٠٣ ـ ١٠٧	٤ سنين و٤ أشهر	
٧	عذرة بن عبد الله الفهري	ـ	أشهر قليلة	
٨	يحيى بن سلمة الكلبي	١٠٧ ـ ١٠٨	سنة وأشهر	
٩	عثمان بن أبي سعة الخثعمي	١٠٨	٥ أشهر	
١٠	حذيفة بن الأحوص القيسي	١٠٩	أشهر قليلة	
١١	الهيثم بن عدي الكلابي	١٠٩	أشهر قليلة	
	عبد الرحمٰن الغافقي	١٠٩ ـ ١١٢	سنتان تقريباً	ولاية ثانية واستشهد في بلاط الشهداء
١٢	محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٣	أشهر	
١٣	عبد الملك بن قطن الفهري	١١٤ ـ ١١٦	سنتان	
١٤	بلج بن مبشر بن عياض القشيري	١١٧	أشهر	
١٥	عقبة بن الحجاج السلولي	١١٧ ـ ١٢١	٥ سنين وشهران	
١٦	ثعلبة بن سلامة العاملي	١٢٢ ـ ١٢٥	ثلاث سنين	
١٧	أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	١٢٥	سنة	
١٨	ثوابة بن سلامة الجذامي	١٢٦ ـ ١٢٩	ثلاث سنين	
١٩	يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري	١٢٩ ـ ١٣٨	١٠ سنين	



عبد الرحمٰن الدَّاخِل

(صقر قريش)

(١١٣ ـ ١٧٢هـ/٧٣١ ـ ٧٨٨م)



من شعر عبد الرحمٰن الداخل

أ - في الحنين إلى الشام

أيـهـا الـراكـب الـمـيـمـم أرضـي أَقِرْ مني بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما علمتَ بأرض وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قُدِّرَ البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى اللّه بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ب - في نخلة رآها

تبدَّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتئابي عن بني وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي يسحُّ ويستمري السماكين بالوَبلِ

ومما قيل فيه

«كان الإمام عبد الرحمٰن الداخل، راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم ترفع له راية على عدو قط إلا هزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً، مقداماً، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمر إلى غيره، كثير الكرم، عظيم السياسة، يلبس البياض ويعتمُّ به، ويعود المرضى ويشهد الجنائز، ويصلي بالناس في الجمع والأعياد، ويخطب بنفسه، جنَّد الأجناد وعقد الرايات، واتخذ الحجاب والكتاب، وبلغت جنوده مائة ألف فارس».

(ابن حيان ٢/ ٣٧)

الوجيز في حياة عبد الرحمٰن الداخل

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١١٣	٧٣١	ولادة عبد الرحمٰن بدير حنا، من أرض دمشق، وقيل بالعلياء من تدمر. أبوه معاوية وأُمه بربرية من قبيلة نغزاوة اسمها (راح) أو (رداح).
١٣٢	٧٤٨	زوال الدولة الأموية، وفرار عبد الرحمٰن من الشام إلى أفريقية.
١٣٨	٧٥٥	دخول عبد الرحمٰن إلى الأندلس.
١٣٩	٧٥٦	القضاء على ثورتي يوسف الفهري والصميل.
١٤٦	٧٦٣	القضاء على ثورة العلاء بن المغيث اليحصبي، وإرسال رؤوس قادة الثورة إلى القيروان ومكة المكرمة في موسم حج أبي جعفر المنصور.
١٤٧	٧٦٤	القضاء على ثورة هاشم بن عروة في طليطلة.
١٤٩	٧٦٦	القضاء على ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بكورة لبلة.
١٥٠	٧٦٧	ثورة البربر في شنت بريه (سانتا ماريا).
١٥٢	٧٦٩	ثورة رجل من البربر اسمه: سفين بن عبد الواحد المكناسي (شقنا)، واستمرت ثورته حتى تمَّ قتله سنة ١٦٠هـ، وكان يزعم أنه من أهل البيت.
١٥٦	٧٧٣	ثورة إشبيلية بقيادة عبد الغافر اليحصبي.
١٥٧	٧٧٤	ثورة سرقسطة بقيادة الحسين بن يحيى (الخزرجي).
١٦٤	٧٨٠	ثورة الرمامس بأرض الجزيرة (جنوب الأندلس).
١٦٨	٧٨٤	ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية.
١٧٠	٧٨٦	البدء ببناء جامع قرطبة.
١٧٢	٧٨٨	وفاة عبد الرحمٰن الداخل عن عمر يناهز الاثنتين وستين سنة، ودفن بالقصر من قرطبة، وكانت مدة حكمه في الأندلس ثلاث وثلاثين عاماً قضاها في جهاد مستمر وعمل دائم.



المقدّمة

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

[الحج/٣٩]

مضت السنوات، آحادها وعشراتها ومئاتها وحتى ألفها، ولا زال صقر قريش ملء سمع الدنيا وبصرها، فهو واحد من أعظم الرجال في السياسة والحرب، وهو مؤسس دولة بقيت زمناً طويلاً رمزاً للحضارة العربية الإسلامية، وتلك هي بضع بقايا متناثرة فوق الأرض الأندلسية تشهد بما حققه العرب المسلمون من معجزات حضارية رائعة. فجامع قرطبة، وقصر الحمراء في غرناطة ومئذنة الجيرالدا في إشبيلية، والأسماء العربية المحرَّفة لا زالت تشغل حيزاً كبيراً في اللغة الأندلسية، ولو أمكن لتراب الأندلس أن ينطق لشهد بأنه امتزج حتى أعماق الأرض بدماء المسلمين الذين ناضلوا طويلاً لرفع راية الإسلام ونقل تراث الحضارة العربية، وتلك هي مكتبة «الأسكوريال» تحفل بأضخم ما في التراث الأندلسي، وهو تراث لا يشكل أكثر من حبات قليلة في سلك ممدود كان يزين جيد الزمان يوم كان للعرب المسلمين وجودهم في العالم.

فهل نبكي مجداً ضائعاً كما فعل أبو عبد الله (الصغير) يوم ودع غرناطة؟

ليس ذلك هو الهدف، فلا دموع «أبو عبد الله» أعادت للأندلس إسلامها، ولا المسيرة الشاقة على درب الأحزان والآلام قد ساعدت على مجابهة الحروب الصليبية التي ما تكاد تنطفئ لظاها حتى تعود بأشكال جديدة مسايرة «لروح العصر»، وهي تعود في كل مرة بأقوى مما كانت عليه.

قضية الأمير عبد الرحمٰن الداخل هي قضية العصر، وكل عصر، قضية الاعتماد على القدرة الذاتية التي وفرها الإسلام للعرب المسلمين. ومن هنا فإن سيرة صقر قريش، تكتسب أهميتها وتكتسب قيمتها، لا في مجال الحرب فقط،

وإنما في مجال السياسة الاستراتيجية، أو السياسة العليا، وفي مجال بناء الدولة وإقامة الحضارة، والإسهام في الاتصال العالمي.

ذلك هو الأمير عبد الرحمٰن الداخل، صقر قريش، يمضي والخوف يطارده، وخطر القتل يلاحقه، ليس لديه من المال إلا القليل، وليس لديه من الأنصار إلا النذر اليسير، ولكن كان لديه عقل مبدع، وتصميم كبير، وإرادة صلبة، سهلت له العسير، وقربت إليه ما كان صعب المنال، فبقي رجل الدنيا وواحدها في علم السياسة، وفن الحرب، وأقام دولة ستبقى حديث الزمان.

ولكن ما فائدة تلك الدولة وما أهميتها، طالما لم يتمكن الأحفاد من المحافظة على تراث الأجداد؟ وماذا تفيد بقية من الأوابد، أو مجموعة من الأطلال، أو شذرات من محيط، طالما لم يبق من أندلس المسلمين غيرها، وهل تفيد بقايا الماضي في إغناء الحاضر والمستقبل؟ ثم ما أهمية ذلك كله أمام واقع لم يبق فيه من تراث الماضي غير اسم، أو مع تنكر حتى للاسم ذاته؟ ذلك هو بعض ما تطرحه سيرة الأمير عبد الرحمٰن الداخل «صقر قريش».

وقضية البحث في «فردوس الأندلس المفقود» غير بعيدة، ولا منفصلة عن «قضية الفردوس المفقود في فلسطين»، على الرغم مما بينهما من تباعد في حدود الزمن، وفي الحدود الجغرافية، والقضيتان من المنظور التاريخي وجهان لحرب واحدة متصلة. ومن هنا تبرز أهمية البحث في التجربة التاريخية، ثم إن التراث التاريخي لأي أمة هو القاعدة الأساسية لمعالجة قضايا الحاضر المصيرية ولبناء المستقبل.

ولعل أخطر ما تتعرض له الأمة العربية ـ الإسلامية في حاضرها، كما في ماضيها، هو تركز الجهد المعادي للأمة العربية الإسلامية لضرب هذه القاعدة، وإبعاد قضية الصراع عن صورتها الحقيقية، وتلك هي الأهمية الثانية في العودة إلى القاعدة التاريخية.

وتبقى دروس الأندلس، (أندلس العرب المسلمين)، محتفظة بكل دفئها وبكل حرارتها وبكل أهميتها على الرغم من كل تباعد جغرافي أو تقادم زمني؛ ذلك أن عوامل الصراع لا زالت كما هي في الصراع الذي يعيشه عالم العرب المسلمين بعد أكثر من ألف ومائتي عام.

وفي كل الأحوال، فليست الصورة قاتمة مظلمة، على نحو ما يحاول فرضها أعداء العرب المسلمين. إذ على الرغم من الحرب الشاملة، وعلى الرغم من

قوى الضغط والقهر، فلا زال العرب المسلمون يعيشون مرحلة المخاض الكبير، الذي سينفجر يوماً عن فجر جديد، تعود فيه الأمة العربية لتحرير أراضيها وتوحيد كلمتها، وتجاوز السدود والقيود المفروضة عليها.

لقد أصبحت قضايا العرب والمسلمين مطروحة عالمياً، ومع هذا الطرح تتزايد قوى الضغط في ممارسة دورها من خلال العمل على تفتيت وحدة العالم العربي وتمزيقه، وتدميره من الداخل.

وتظهر للمرة الثالثة، والعاشرة أهمية العودة للقاعدة التاريخية من أجل معرفة عوامل الأصالة التي مكنت العرب من التغلب على كل أشكال العدوان، ما خفي منها وما ظهر.

وتبقى قصة الأمير عبد الرحمٰن الداخل «صقر قريش» منارة مضيئة في عالم العرب المسلمين، إنها ليست مجرَّد سيرة قائد كبير، وإنما هي قصة رجل في أمة وحكاية أمة في رجل.

وعسى أن يكون في تلك القصة الفائدة والمتعة والفائدة قبل المتعة.

والله أسأله التوفيق.



الفَصْلُ الأولُ

عبد الرحمٰن الداخل

«صقر قريش»

١ ـ نهاية العهد الأموي في المشرق.
٢ ـ الأندلس قبل العهد الأموي.
٣ ـ الرحلة الشاقة ـ وإقامة الدولة الأموية في الأندلس.
٤ ـ يوم المصارة ـ النصر الحاسم.
٥ ـ الطريق لبناء الدولة.
٦ ـ القضاء على مراكز القوى (الفتن والثورات).
٧ ـ الحزم في بناء الدولة.
٨ ـ الحرب والحضارة.
٩ ـ عبد الرحمٰن وولاية العهد.



١ ـ نهاية العهد الأموي في المشرق

ارتفعت الأعلام السوداء، وانطلقت حشود قوات المسلمين الهادرة الثائرة من جوف الهضبة الإيرانية وهي تجتاح في طريقها كل ما بقي من مقومات الأمويين. لقد بقيت بلاد فارس وهي تضطرم ناراً طوال العهد الأموي، واستطاع ولاة بني أُمية قمع الفتن وإخضاع الاضطرابات والقضاء على الثورات، ولكن قوى الثورة تجمعت في النهاية تحت راية نصرة «آل البيت» من بني العباس، أبناء عمومة الأمويين، وانطلقت إلى هدفها الوحيد «إزالة حكم بني أُمية» الذي بقي رمزاً لقوة العرب المسلمين.

لم يكن الأمر مباغتاً، فقد مضت سنوات والأخبار تترى على حكام بني أُمية تنذرهم بالشر المستطير. لقد كان نصر بن سيار آخر ولاة الأمويين في خرسان، وكان نصر عربياً مسلماً مؤمناً، توافرت له كفاءة قيادية عالية في مجالي الإدارة والحرب، وقد أقام في خراسان طويلاً وهو يحاول جهده ويبذل قدر استطاعته للسيطرة على الموقف المتفجر، لكن جهوده كانت تصطدم المرة بعد المرة بمقاومة دعاة بني العباس الضارية، وظهر له في النهاية أن الثورة قد وصلت إلى مرحلتها النهائية، وأسعفه الموت فلم يشهد نهاية الحكم الذي دافع عنه، والذي أخلص له طوال حياته[1].

كان هشام بن عبد الملك قد اختار نصر بن سيار الكناني «من اليمنية» لولاية خراسان بسبب ما اشتهر به من الفضائل، وذلك في سنة (١٢٠هـ/ ٧٣٧م). وقد

---

(١) كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد، ينذره بخطر «أبو مسلم الخراساني»، ومما كتبه له (شعراً):

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ ... فأحج بأن يكون له ضرامُ
فإن النار بالعودَيْن تُذكى ... وإن الحربَ مبدؤها الكلامُ
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيْقاظٌ أُمية أم نيامُ

(الطبري ٧/ ٣٦٩).

وصف نصر بأنه «أرجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة». وقيل عنه أيضاً: «بأنه عفيف مجرب عاقل» ولما قيل لهشام: بأن عشيرة نصر بن سيار قليلة في خراسان، أجاب قائله: «لا أبا لك. أتريد عشيرة أكثر مني. أنا عشيرته».

وكان اختيار هشام لنصر بن سيار اختياراً موفقاً؛ فقد كانت خراسان تضطرم ناراً منذ عهد طويل، فمضى نصر بعزم لا يلين وإرادة لا تفل لإدارة البلاد، ولم تمض سوى أربع سنين حتى عمرت خراسان عمارة لم تعمر قبل ذلك مثلها، ووضع الخراج، وأحسن الولاية والجباية[1] ومضى لإخضاع المناطق المتمردة فيما وراء النهر (نهر جيحون ـ أو أموداريه)، حيث باب الحديد وسمرقند والشاش وفرغانة والصغد، فأخضع الثورات وقضى على الفتن.

وعندما توفي هشام، سنة ١٢٤هـ، وولي الوليد بن يزيد الخلافة، عمل الوليد على تعيين نصر مرة أخرى لولاية خراسان. وتابع نصر بن سيار بذل كل جهد مستطاع، حتى إذا ما ظهر له تفاقم خطر الدعوة العباسية، تصدى لها، وجابهها بحزم، وعرف فيها حركة هدفها القضاء على العرب[2]. وحاول جمع العرب وحشدهم لقتال «أبو مسلم الخراساني». لكن المنية وافته في مرو سنة (١٣١هـ/ ٧٤٨م)، فمضى إلى ربه راضي النفس، قرير العين.

لم يكن بنو أُمية نياماً عن خطر الدعوة العباسية، وكان ولاتهم وعيونهم يحملون إليهم الأخبار تباعاً. وعندما باع عيسى بن معقل العجلي خادمه «أبو

---

(١) وفي ذلك قال سوار بن الأشعر يمتدح نصر بن سيار:

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة ... من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفاً أخبار ما لقيت ... اختار نصراً لها ـ نصر بن سيار

(الطبري ٧/ ١٥٨).

(٢) وفي ذلك قال نصر بن سيار منذراً العرب، طالباً إليهم حشد طاقاتهم لمجابهة ما يتهددهم ويطالبهم بنبذ خلافاتهم:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن ... أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غيبُ
وتتركون عدواً قد أحاط بكم ... ممن تأشب لا دين ولا حسبُ
لا عرب مثلكم في الناس تعرفهم ... ولا صريح موال إن هم نسبوا
من كان يسألني عن أهل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العربُ
قوم يقولون قولاً ما سمعت به ... عن النبي ولا جاءت به الكتبُ

(الطبري ٧/ ٣٦٤).

مسلم الخراساني» بمبلغ أربعمائة درهم إلى بكير بن ماهان في سنة (١٢٤هـ/ ٧٤١م) وعاد أبو مسلم إلى خراسان لبثِّ الدعوة العباسية، كانت عيون الأمويين تتابع رصد حركاته وسكناته.

ولكن هشام بن عبد الملك بن مروان توفي في السنة التالية (١٢٥هـ/ ٧٤٢م)، فماتت بميتته عظمة بني أُمية وقوتهم وبأسهم، إذ تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ولم يكن له من صفات هشام شيء، لا في حلمه ولا في حزمه، ولا في تقاه وورعه[1]، ولم تزده الخلافة إلا سوءاً على سوء. فكان حكمه كما وصفه المؤرخون: «لما ولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأفضت إليه الخلافة، لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً وحداً ـ فتركتُ الأخبار الواردة عنه بذلك كراهية إطالة الكتاب بذكرها ـ فثقل ذلك من أمره على رعيته وجنده، فكرهوا أمره. وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه وإفساده على نفسه ابني عميه ـ هاشم وولد الوليد ـ ابني عبد الملك بن مروان، مع إفساده على نفسه اليمانية، وهم أعظم جند أهل الشام»[2]، فكان أن قام يزيد بن الوليد ـ الناقص ـ بقتل الوليد بن يزيد ولم تمض على إمرته أكثر من خمسة عشر شهراً[3].

---

(١) جاء في **تاريخ الطبري** ٧/ ٢١٠، طبعة ذخائر العرب ـ ما يلي: «تمادى الوليد في الشراب وطلب الملذات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد! والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر، فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكرِ
نشربها صرفاً وممزوجة ... بالسخن أحياناً وبالفاترِ

فغضب هشام على ابنه مسلمة ـ وكان يكنى أبا شاكر ـ وقال له: يعيرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة! فالزم الأدب واحضر الجماعة. وولاه موسم الحج سنة تسع عشرة ومائة، فأظهر النسك والوقار واللين، وقسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة وهو يعرض بالوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكرِ
الواهب الجرد بأرسانها ... ليس بزنديق ولا كافرِ

(٢) **تاريخ الطبري** ٧/ ٢٣١.

(٣) توقع العباس نهاية الحكم الأموي عندما رأى الاضطرابات، فقال: يا بني مروان. إني أظن الله قد أذن في هلاككم، وتمثل قائلاً:

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبل تتسامى ثم تندفعُ
إن البرية قد ملَّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا =

ولكن الأمر لم يستقم ليزيد بن الوليد، فقد خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان ودمشق، وخرج عليه أيضاً مرون بن عبد الله بن عبد الملك الذي كان عاملاً للوليد على حمص، وأعلنت الأردن وفلسطين تمردهما، ووجه يزيد قواته لإخضاع حركات التمرد المضادة له.

وكان مروان بن محمد في أرمينية، فما أن بلغه مقتل أخيه حتى قدم إلى الجزيزة الشامية متظاهراً بأنه يطلب دم أخيه الوليد من يزيد الناقص، ولكن موت يزيد بن الوليد سنة (١٢٦هـ)، ولم تمض على إمارته ستة أشهر، وضع حداً للخلاف، فقد تولى مروان بن محمد إمرة المؤمنين، وكان عليه قبل كل شيء القضاء على إبراهيم بن الوليد «أبو إسحاق»، فتم له ذلك بعد سبعين يوماً من وفاة يزيد، ولكن نيران الثورة لم تلبث أن اندلعت في الكوفة بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب، وأمكن القضاء على هذه الثورة بعد جهد، ولكن حمص والشام أعلنتا تمردهما ضد مروان، ثم أعلن سليمان بن هشام الثورة ضد مروان بن محمد وأيده أهل الرصافة.

وتطلب إخماد هذه الثورات جهوداً جبارة؛ إذ تطلب إخضاع ثورة حمص حصارها عشرة أشهر ونصب نيفاً وثمانين منجنيقاً عليها، واستمرت الثورة في العراق وخراسان ما تكاد نارها تنطفئ في بلد حق تندلع في بلد آخر.

وتفاقم الخلاف بين القيسية واليمنية، وزادت قوة الخوارج والحرورية، ولم يكن دعاة بني العباس في حاجة لما هو أكثر من ذلك، إذ ضمن لهم مناخ الاضطراب الذي يريدونه لتنظيم دعوتهم وحشد قواتهم. وهكذا، لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى بلغت قوة العباسيين درجة من البأس والقوة أصبحت معها مقاومتها صعبة، وفي سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٦م) دخل أبو مسلم الخراساني بقواته مدينة مرو.

وبدأت الأحداث بالتسارع المذهل، ولم تمض سنة حتى اجتاحت قوات الثورة العباسية خراسان وسيطرت على العراق، ولم تفلح جهود مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، في إيقاف حشود العباسيين التي تقدمت حتى

= لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تغني ولا جزعُ
(الطبري ٧/ ٢٣٩).

وصلت الزاب. ودارت معركة أظهرت فيها قوات الأمويين التخاذل والتمزق في حين أظهرت قوات العباسيين، بقيادة عبد الله بن علي، قدراً غير قليل من التصميم. وانتصر العباسيون، وهرب مروان ومعه بعض أنصاره وأهله، وغنم العباسيون كل ما كان في معسكر مروان من سلاح وفير وأموال كثيرة[1].

ومضى مروان إلى حران، وبها أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، ابن أخيه وعامله عليها، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. ولكن عبد الله بن علي قاد قوات العباسيين ومضى لمطاردة مروان، فلما دنا من حران، غادرها مروان ومعه أهله وولده وعياله ومضى منهزماً، وخلف بمدينة حران أبان بن يزيد (وزوجته ابنة لمروان يقال لها أم عثمان). وقدم عبد الله بن علي فتلقاه أبان وأعلن تأييده للعباسيين وبايعه ودخل في طاعته، فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

ومضى مروان حتى مر بقنسرين وعبد الله بن علي متبع له، ثم مضى من قنسرين إلى حمص، فتلقاه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم غادرها، فلما رأى أهل حمص قلة من معه طمعوا فيه، وقالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم، فلحقوه على أميال، فلما رأى غبرة خيلهم، أكمن لهم في واديين قائدين من مواليه (يقال لأحدهم: يزيد والآخر: مخلد). فلما دنوا منه وجاوزوا الكمينين ومضى الذراري صافهم فيمن معه وناشدهم، فأبوا إلا مكاثرته وقتاله، فنشب القتال بينهم، وثار الكمينان من خلفهم، فهزمهم وقتلهم حيلة حتى انتبهوا إلى قريب من المدينة.

ومضى مروان حتى مرَّ بدمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، وهو أيضاً ختن (صهر) لمروان (متزوج بابنة له يقال لها: أم وليد)، فمضى وخلَّفه بها حتى قدم عبد الله بن علي عليه، فحاصره أياماً، ثم فتحت المدينة، ودخلها عنوة معترضاً أهلها، وقتل الوليد بن معاوية فيمن قتل، وهدم عبد الله بن علي حائط مدينتها.

---

(١) كان جيش مروان في معركة الزاب يضم ١٢٠ ألف مقاتل، على ما تذكره المصادر التاريخية، وعلى الرغم من ذلك، فلم يتمكن هذا الجيش من خوض المعركة بسبب انهياره المعنوي.
وعندما هرب مروان، عيَّره من ولد سعيد بن العاص بقوله:

لحج الفرار بمروان فقلت له	عاد الظلوم ظليماً همه الهربُ
أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت	عنك الهوينا فلا دين ولا حسبُ
فراشة الحلم فرعون العقاب وإن	تطلب نداه فكلب دونه كلبُ

ومر مروان بالأردن فانضم إليه واليها بمن معه. وسار إلى فلسطين، ثم إلى مصر، وعبد الله بن علي يطارده، إلى أن دارت المعركة الحاسمة في «بوصير»، وقتل مروان بنَ محمد ومن كان معه. وطويت صفحة العصر الأموي في بلاد الشام، وأُرسل رأس مروان إلى السفاح بالكوفة[1].

لكن القصة لم تقف عند هذا الحد، فقد تفجَّر الحقد في نفس السفاح وفي نفوس الفرس الذين أثملهم الانتصار، فمضوا يتابعون أعمال الإبادة. وكان السفاح، قد اتخذ من فارسي، اسمه «سديف»، مستشاراً له ومعيناً، ودخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح، فقال سديف:

لا يغرنَّك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ. ودخل السفاح وأخذ سليمان، فقتل.

ودخل شبل بن عبد الله، مولى بني هاشم، على عبد الله بن علي، وعنده من بني أُمية نحو تسعين رجلاً على الطعام، فأقبل عليه شبل واستثاره بأبيات من الشعر[2]، فما كان من السفاح إلا أن أمر بهم عبد الله، فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليهم، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وأمر عبد الله بن علي، بنبش قبور بني أُمية بدمشق، فنبش قبر معاوية بن أبي

---

(١) وتمثل أبو العباس السفاح بالبيت التالي:

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ابن الأثير ـ **الكامل في التاريخ** ـ دار الكتاب العربي ـ ٤/ ٣٢٨ و٣٣٢.

(٢) كان مما قاله شبل بن عبد الله لاستثارة عبد الله بن علي، ما يلي:

أصبح الملك ثابت الأساسِ ... بالبهاليل من بني العباسِ

طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباسِ

لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراسِ

ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحر المواسي

ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي

أنزلوها بحيث أنزلها اللّه ... بدار الهوان والأتعاسِ

واذكروا مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلاً بجانب المهراسِ

والقتيل الذي بحران أضحى ... ثاوياً بين غربة وتناسي

سفيان، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح. وتتبع بني أُمية، من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي فطرس.

وكان فيمن قُتل: محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك، وقيل إن إبراهيم بن يزيد المخلوع قد قتل معهم، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك، فلما فرغ عبد الله بن علي من مصرعهم أنشد شعراً عبر فيه عن شماتته[١]، وقيل: إن سديفاً هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح، ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم.

وقتلَ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضاً جماعة من بني أُمية عليهم الثياب الموشاة المرتفعة، وأمر بهم فجروا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب، فلما رأى بنو أُمية ذلك اشتد خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء[٢].

تلك هي لمحات خاطفة من مأساة رهيبة قد يصعب وصفها وتصويرها، فقد تفجر الحقد دفعة واحدة، وكما يحدث عادة في الفتن والثورات، لم تعد للحياة الإنسانية قيمتها، وكان لزاماً على كل من يحمل اسم «أُمية» أو ينتسب لها دفع الثمن من أجل عمل لا علاقة له به، «فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»، كما يقول المثل العامي.

---

(١) ما قاله سديف (أو عبد الله بن علي) ما يلي في (ابن الأثير ـ دار الكتاب العربي ـ ٤/ ٣٣٣).

بني أُمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عرضتم من لظاها شر معتاضِ
فنيتم لا أقال اللّه عثرتكم ... بليث غاب إلى الأعداء نهاضِ
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد ... منيت منكم بما ربي به راضِ

(٢) وجه العباس قوة لقتال الأمويين فانطلق قائد القوة وهو ينشد شعراً يصور حال الأمويين:

يا آل مروان إن اللّه مهلككم ... ومبدل بكم خوفاً وتشريدا
لا عمر اللّه من إنشائكم أحداً ... وبثكم في بلاد الخوف تطريدا

وهكذا سقط أبناء الأمويين ضحايا أعمال أسلافهم وأجدادهم، وكان ثمناً فادحاً، دفع الأمويون ثمنه المباشر، ودفع العرب جميعاً ثمنه بصورة غير مباشرة، ودفع العباسيون ثمنه الكامل بعد ذلك.

٢ ـ الأندلس قبل العهد الأموي

لم يكن الغزو والفتح هو هدف العرب المسلمين منذ انطلقوا من جزيرتهم، وإنما كان هدفهم إقامة المجتمع الإسلامي ونشر الإسلام وتنظيم الدولة العربية الإسلامية. وقد اضطلع الأمويون بالقسط الأوفى والنصيب الأكبر من نشر الإسلام وتنظيم الدولة الإسلامية حتى دقت سنابك خيولهم حدود الصين شرقاً، وبلاد الغال «فرنسا» غرباً.

ولقد جاء فتح الأندلس في الفترة من (٩٢ ـ ٩٥هـ/ ٧١١ ـ ٧١٤م) على يد القائدين الشهيرين موسى بن نصير وطارق بن زياد. ولقد أثار فتح الأندلس المشاعر في الشرق والغرب على حد سواء، وألهب الحماسة ما دفع، على سبيل المثال، الشاعر الإنكليزي «روبرت سوزي» إلى النطق بقصيدة يشيد فيها بقوة المسلمين وروحهم المعنوية[١]. إلا أن الأمور لم تعرف الاستقرار في

(١) أورد «عبد الله عنان» في كتابه «**تاريخ العرب في إسبانية** ـ الطبعة الأولى عام ١٩٢٤م ص٣٥، نص القصيدة كالتالي: جمع لا يحصى ـ من عرب وبربر وشآم وروم.
وفرس وقبط وتتار عصبة واحدة.
يفيض شبابها إيماناً فتياً وطيد الدعائم.
وتستمر حماسة برائع ماضيها.
تتوق إلى سلب مدن النصرانية واثقة من هول بأسها.
ولم يك الزعماء ـ أقل ثقة بالنصر، وقد أخلصوا في محالفتهم.
يتيهون كثيراً بتلك القوة الجارفة.
التي وثقوا من أنها حيث اندفعت.
تستمر ظافرة، دون منازع، إلى الإمام.
حتى يصبح الغرب مقهوراً كالشرق.
يطأطئ الرأس إجلالاً لمحمد.
وينهض الحجاج من أقاصي المتجمد.
ليطؤوا بأقدام التوبة والإخلاص، الرمال المحرقة.
المتناثرة فوق صحارى العرب وأرض مكة الصخرية.

الأندلس، وزاد الأمر سوءاً بسبب انصراف أمراء بني أُمية إلى مجابهة متاعبهم الداخلية، ثم متاعبهم على جبهة خراسان، الأمر الذي انعكس بصورة سلبية على صفحة الأندلس، فتعاقب على حكم الأندلس، منذ ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير، أول ولاة الأندلس، سنة (٩٦هـ/ ٧١٤م)، وحتى سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٥م)، عدد من الولاة بلغ ٢٠ والياً، لم تدم فترة ولاية بعضهم أكثر من شهور قليلة، في حين استمرت ولاية البعض الآخر لمدة سنوات عديدة.

ووقعت على جبهة الأندلس مجموعة من الأحداث المثيرة، منها ما كان فتناً وثورات داخلية، ومنها ما كان في مجال الصراع على جبهة الفرنج، ومنها ما كان على مستوى الصراع مع أهل البلاد الأصليين، الأمر الذي كاد يتهدد عملية فتح الأندلس بكاملها ويعرضها للفشل.

وقد ظهر، خلال فترة عهد الولاة، بعض القادة الذين نجحوا بإيجاد الحلول المناسبة للتناقضات القائمة، وتوجيه الجهد نحو العدو الخارجي، إلا أن تلك الجهود لم تؤد إلى نتائج مثمرة، لأنها لم تكن قائمة على سياسة ثابتة من جهة، كما أنها كانت تفتقر إلى القوة اللازمة، والتي تتناسب مع الهدف الكبير. وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند بعض الظواهر الرئيسية لتلك الفترة.

أ ـ الموقف على جبهة الفرنج

عندما فتح المسلمون الأندلس، كانت فرنسا (أو بلاد الغال) خاضعة لحكم الملوك الكسالى (أو الميروفنجيين)[1]، ولم تكن الحدود بين إسبانية، التي أصبحت تحت حكم المسلمين، وبلاد الغال مماثلة لما هي عليه اليوم، فقد كانت حدود إسبانية، أيام الفتح الإسلامي، تمتد إلى ما وراء جبال البيرنة (أو البرتات أو البرانس كما كان يسميها المسلمون)، فكان يتبعها من أرض فرنسا

(١) الملوك الكسالى أو الميروفنجيون، نسبة إلى ملك الفرنج «ميروفي Mérovée» الذي ملك الفرنج (٤٤٨ ـ ٤٥٧م) وقادهم في معركة حقول كاتلونيا Champ Catalaunique الممتدة بين شالون على المارن وتروي، وأعطى اسمه للأسرة المالكة الميروفنجية التي حكمت بلاد الغال القديمة حتى سنة (٧٥١م). وقد أطلق على الميروفنجيين اسم الملوك الكسالى، لأنهم تركوا السلطة لوزرائهم في الفترة الأخيرة من حكمهم، فنشأت أسر متوازية تتنازع على مركز الصدارة مما ساعد «ببيان الهيريستالي»، وزير قصر مملكة أوسترازية، على سحق جيش أوسترازية، وإعادة تنظيم المملكة والتمهيد لقيام حكم الكارولنجيين.

مقاطعة روسيون، وهي المقاطعة المسماة اليوم بالبيرنة الشرقية[1]، كما كان يتبعها أيضاً قسم من «اللانغدوك»[2]، و«البروفانس»[3].

وكان موسى بن نصير قد أوغل في الفتح على محور «ناربون - أو - أربونة»[4] حتى وصل مدينة ليون، تاركاً لخلفائه من بعده متابعة التقدم على المحاور الأخرى.

وقد تولى إمارة الأندلس، بعد الفتح، عبد العزيز بن موسى بن نصير، لكن أمرته لم تستمر طويلاً، فقد تمَّ اغتياله سنة (٩٦هـ/ ٧١٥م)، واتفقت كلمة إشبيلية على تسليم الإمارة في الأندلس إلى يوسف بن حبيب اللخمي، ابن أخت موسى بن نصير، لكن ولايته لم تستمر لمدة تزيد على الستة أشهر، فتولى حكم الأندلس والي أفريقية الحر عبد الرحمٰن الثقفي الذي بقي على ولاية الأندلس لمدة سنتين وثمانية أشهر، عمل خلالها على تنظيم الثغور وإقامة الحاميات وإدارة شؤون البلاد.

وعندما تولى الخلافة في دمشق عمر بن عبد العزيز، أظهر اهتماماً خاصاً بالأندلس، ففكر في تعيين والٍ مستقل لها، ووقع اختياره على السمح بن مالك الخولاني[5]، الذي وصل إلى الأندلس في سنة (١٠٠هـ/ ٧١٨م)، فانصرف إلى

---

(١) **روسيون** Roussillon: مقاطعة مركزها بيربينيان Perpignan استولت عليها فرنسا عام (١٦٥٩م).

(٢) **اللانغدوك** Languedoc: هي المقاطعة الواقعة إلى الشمال من روسيون ومركزها تولوز، استولت عليها فرنسا عام (١٢٧١م).

(٣) **البروفانس** Provence: مقاطعة جنوب فرنسا تضم جبال الألب السفلى ومصب نهر الرون وبلاد الغار والفوكلوز.

(٤) ناربون Narbonne: مدينة تقع في البيرنة قريباً من البحر الأبيض المتوسط. وقد أفاد السمح بن مالك الخولاني من موقعها الهام جيواستراتيجياً فجعلها قاعدة متقدمة للمسلمين من أجل غزو بلاد الغال.

(٥) جاء في **أخبار مجموعة** ص٣٢، حول تعيين السمح بن مالك الخولاني ما يلي: «كان من عادة الخلفاء الأمويين إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق أن يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وحتى يحلف الوفد بالله الذي لا إلـٰه إلا هو، ما فيها دينار ولا درهم إلا من فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية، وإلا بعد أن أخذ كل ذي حق حقه، فأتى وفد أفريقية بخراجها... في زمن سليمان، وأمروا أن يحلفوا، فحلف ثمانية ونكل سهيل بن عبيد الله، مولى بني مخزوم، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني، فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما، =

تنظيم البلاد. وعندما اطمأن إلى قوته الداخلية، حشد قواته في «ناربون» ومضى لغزو ما وراء الدروب الأندلسية، حيث بلاد الغال. فتقدم على محور تارن وغارون، وأخضع سبتمانية وبروفانس، وتوجه نحو الشمال الغربي، وأوغل في تقدمه حتى وصل تولوز حيث دارت معركة حاسمة (حملت اسم يوم التروية) وهو يوم ٩ حزيران ـ يونيو سنة (١٠٢م/ ٧٢١هـ)، وانتهت المعركة باستشهاد السمح وتمزق جيش المسلمين، فتولى عبد الرحمٰن الغافقي مهمة الانسحاب بفلول الجيش إلى قاعدة الانطلاق في ناربون «أربونة»، وكان سبب الهزيمة يعود إلى تفوق قوات الفرنج تفوقاً كبيراً.

جاء بعد ذلك، «**عنبسة بن سحيم الكلبي**» والياً على الأندلس في عام (١٠٢هـ/ ٧٢١م)، فأمضى أربعة أعوام في إعادة التنظيم والاستعداد للحرب، ثم قاد قوات المسلمين إلى قاعدة الانطلاق «ناربون»، وبدأ عملياته بالاستيلاء على إقليم «سبتمانية» ثم توجه إلى حوض الرون، وتابع تقدمه في إقليم برغنديا، واستولى على مدينة «قرقشونة»(١)، وانطلق منها شمالاً، فاحتل ماكون وشالون، وتابع تقدمه حتى سانس، على بعد ثلاثين كيلو متراً من لوتس «باريس».

واكتفى عنبسة بما حققه من نصر، فقرر الرجوع إلى قاعدته إلا أن قوات الفرنج كانت قد أخذت في التجمع، وأخذت عليه طريق عودته، فاضطر إلى خوض معركة حاسمة ضدها، وكان التفوق في ميزان القوى كبيراً لمصلحة الفرنج، فاستشهد عنبسة وتمزق جيش المسلمين، في شهر شعبان (١٠٧هـ/ ٧٢٥م).

وتوقفت بعد ذلك عمليات غزو ما وراء الدروب، إلى أن جاء **عبد الرحمٰن الغافقي**، فقاد المسلمين في صيف (١١٤هـ/ ٧٣٢م)، فتقدم حتى مدينة تور، حيث دارت معركة بلاط الشهداء المشهورة واستشهد عبد الرحمٰن في المعركة، وانسحبت فلول جيش المسلمين إلى الأندلس.

ولم تكن نتائج معركة بلاط الشهداء خطيرة على النحو الذي تصوره المصادر

= ثم ضمهما إلى نفسه، فلما ولي عمر ولى سهيل أفريقية وولى السمح الأندلس، وأمره أن يخمس أرضها وعقارها، ويقر القرى في يدي غنامها، بعد أن يأخذ الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين».

(١) **قرقشونة** «كاركاسون حالياً» Carcassonne: جنوب تولوز، على طول خط عرض غرينيتش في جنوب فرنسا، وقريبة من الحدود الإسبانية.

الغربية، إلا أن هذه المعركة قد أضافت إلى التجارب السابقة براهين جديدة تؤكد تعاظم قدرة الفرنج وزيادة قدراتهم القتالية، وتأثيرهم على مراكز القوى المضادة للمسلمين في الأندلس ذاتها، ما كان يفرض زيادة القدرة لدى مسلمي الأندلس، ولم يكن تحقيق ذلك ممكناً نظراً لما كانت تعانيه الدولة الأموية من اضطراب في أيامها الأخيرة.

ب ـ مراكز القوى المضادة في الأندلس

ذكرت المصادر العربية: «أن أول من جمع ذل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم، علج يقال له «بلاي»[1] من أهل أشتوريش من جليقية»، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمٰن الثقفي، الثاني من أمراء العرب بالأندلس، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها (٩٨هـ).

وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمٰن، فطردوه وملكوا البلاد... وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بجيليقية العلج الخبيث «بلاي» فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي من أرضهم والحماية عن حريمهم، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك، وقيل: إنه لم يبق بأرض جيليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العلج، ومات أصحابه جوعاً، إلى أن بقي مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جياح (خلايا) معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجاً، ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة، والاستيلاء ما لا خفاء به. وملك بعده أذفونش «ألفونسو»، جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة.

ويظهر ذلك أن الوضع الداخلي في الأندلس بات يحتاج لقيادة تتوافر لها كفاءة قيادية عالية حتى تتمكن من مجابهة الأخطار الداخلية المرتبطة بالأخطار الخارجية.

---

(١) بلاي: Pelayo وباللاتينية Pelagius: ـ أول من قاد النصارى ضد المسلمين، وتوفي سنة (١٣٣هـ/ ٧٥١م) وخلفه زوج ابنته ألفونسو Alphonso ابن بدرو Pedro وكان اسم ابنة بلاي (أرمنسندا: Ermensinda). **نفح الطيب** ـ دار صادر ـ بيروت ٣/ ١٧ و٤/ ٣٥٠، ٣٥١.

جـ - الموقف على جبهة مسلمي الأندلس

ما أن استقر المسلمون في الأندلس حتى ظهرت الصراعات التي كان من أخطرها الصراع بين المسلمين القدامى من العرب والمسلمين الجدد من البربر، ولم يقف الصراع عند هذه الحدود، وإنما تجاوزها إلى بعث الصراعات بين المضرية والقيسية.

وقد تفاقمت الصراعات حتى بلغت هشام بن عبد الملك، فيما ذكره ابن حيان على النحو التالي: «لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس، وخلعهم لطاعته، وعيثهم في الأرض، شق عليه، فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن أفريقية، وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها، سبعون ألفاً، ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربري المدعي للخلافة هزمه ميسرة، وجرح كلثوم ولاذ بسبتة، وكان بلج، ابن أخيه، معه. فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه، فوجه لهم حنظلة بن صفوان، فأوقع بالبربر، ففتح الله عليه».

ولما اشتد حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فل أهل الشام بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات، وبلغوا من الجهد إلى الغاية، استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحب الأندلس «عبد الملك بن قطن» لخوفه على سلطانه منهم، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة أمسكا من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط، ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه، فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلبه وصلب عن يساره كلباً.

واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدوة على العرب، انتقضوا على عرب الأندلس، واقتدوا بما فعله إخوانهم، ونصبوا عليهم إماماً، فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن، واستفحل أمرهم، فخاف ابن قطن أن يلقى منهم ما لقي العرب ببر العدوة من إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام (أصحاب بلج الموتورين) فكتب لبلج، وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت، فأسرعوا إلى إجابته، وكانت أمنيتهم، فأحسن إليهم، وأسبغ النعم عليهم، وشرط عليهم أن

يأخذ منهم رهائن، فإذا فرغوا من البربر، جهزهم إلى أفريقية، وخرجوا له عن أندلسه، فرضوا بذلك، وعاهدوه عليه، فقدم عليهم وعلى جنده ابناه (قطن وأمية) والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها، فاقتتلوا قتالاً صعب فيه المقام، إلى أن كانت الدائرة على البربر، فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور، وخفوا عن العيون.

فكر الشاميون، وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم، وثابت همتهم، وبطروا، ونسوا العهود، وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلى أفريقية، فتعلوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم في سبتة، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة، فخلعوه، وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، وتبعه جند ابن قطن، وحملوا عليه في قتل ابن قطن، فأبى، فثارت اليمانية وقالوا: قد حميت لمضرك، والله لا نطيعك. فلما خاف تفرق الكلمة، أمر بابن قطن فأخرج إليهم، وهو شيخ كبير كفرخ نعامة، قد حضر وقعة الحرة مع أهل اليمامة، فجعلوا يسبونه ويقولون له: أفلتَّ من سيوفنا يوم الحرة، ثم طالبتنا بتلك الترة، فعرَّضتنا لأكل الكلاب والجلود، وحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتَّنا جوعاً. فقتلوه وصلبوه، كما تقدم.

وكان أمية وقطن، ابناه، عندما خلع، قد هربا وحشدا لطلب الثأر، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر، وصار معهم عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند، وكان في أصحاب بلج، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ما صنع، فارقه، فانحاز فيمن يطلب ثأره، وانضم إليهم عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة، وكان فارس الأندلس في وقته، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون، وبلج قد استعد لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين، فاقتتلوا، وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط، وقال عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي: أدوني بلجاً؟ فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه. فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها الشاميون، والراية في يده، فضربه عبد الرحمٰن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل.

ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون، فكان عسكراً منصوراً مقتولاً أميره. وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة، وكانت مدته أحد عشر شهراً، وسريره قرطبة، والعرب

الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين.

ولما هلك بلج، قدَّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك، فسار فيهم بأحسن سيرة. ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب والبربر سموا بعد الوقعة لطلب الثأر، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة، وهم لا يشكون في الظفر، إلى أن حضر عيد تشاغلوا به، فأبصر ثعلبة منهم غرة وانتشاراً وأشراً (غروراً) بكثرة العدد والاستيلاء، فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون، فهزمهم هزيمة قبيحة، وأفشى فيهم القتل، وأسر منهم ألف رجل، وسبى ذريتهم وعيالهم، وأقبل إلى قرطبة من سبيهم بعشرة آلاف أو يزيدون، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس، وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة.

وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب، فنظروا فإذا أبو الخطار «حسام بن ضرار الكلبي» قد أقبل والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان صاحب أفريقية، «والخليفة حينئذٍ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان»، وذلك في شهر رجب سنة خمس وعشرين ومائة (٧٤٣م) بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة.

وكان أبو الخطار «حسام بن ضرار الكلبي» مع فروسيته شاعراً محسناً، أظهر العدل في أول ولايته، فدانت له الأندلس إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المضرية، فهاجت الفتنة العمياء. وكان سبب هذه الفتنة أن «أبو الخطار» بلغ به التعصب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة، كان أبلج حجة من ابن عم «أبو الخطار»، فمال أبو الخطار مع ابن عمه، فأقبل الكناني إلى الصميل بن حاتم الكلابي، أحد سادات مضر، فشكا له حيف «أبو الخطار»، وكان «الصميل» أبياً للضيم حامياً للعشيرة، فدخل على «أبو الخطار» وأقضَّ عتابه، فنجهه أبو الخطار وأغلظ له، فرَّد الصميل عليه، فأمر به أبو الخطار، فأقيم وَدُعَّ قفاه حتى مالت عمامته، فلما خرج قال له بعض من على الباب: «أبو جوشن»! ما بال عمامتك مائلة؟ فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها.

وأقبل إلى داره، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين فباتوا عنده. فلما أظلم الليل، قال: ما رأيكم فيما حدث عليَّ فإنه منوط بكم؟ فقالوا: أخبرنا بما تريد، فإن رأينا تبع رأيك. فقال: أريد والله إخراج هذا الأعرابي من

هذا السلطان على ما خيَّلت، وأنا خارج لذلك عن قرطبة، فإنه ما يمكنني ما أريد إلا بالخروج. فإلى أين ترون أقصد؟. فقالوا: إذهب حيث شئت، ولكن لا تأتِ «أبو عطاء القيسي» فإنه لا يواليك على أمر ينفعك.

وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة، وكان مشاحناً للصميل مسامياً له في القدر، فسكت عند ذكره «أبو بكر ـ أبو الطفيل العبدي»، وكان من أشرافهم، إلا أنه كان حديث السن، فقال له الصميل: ألا تتكلم؟. فقال: أتكلم بواحدة ما عندي غيرها. قال: وما هي؟. قال: إن عَدَوْت إتيان «أبو عطاء» وشتتت أمرك به، لم يتم أمرنا وهلكنا، وإن أنت قصدته لم ينظر في شيء مما سلف بينكما، وحركته الحمية لك، فأجابك إلى ما تريد. فقال له الصميل: أصبت الرأي. وخرج من ليلته.

وقام أبو عطاء في نصرته على ما قدره العبدي، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الجذامي، أحد أشراف اليمن وساداتهم، وكان ساكناً بمورور، وقد استفسد إليه أبو الخطار، فأجابهما في القيام والتقدم على المضرية، فاجتمعوا في شذونة، وآل الأمر إلى أن هزموا «أبو الخطار» على وادي لكة، وحصل أسيراً في أيديهم فأرادوا قتله، ثم أرجأوه، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة، وذلك في رجب سنة (١٢٧هـ) بعد ولاية «أبو الخطار» بسنتين.

ولما سجن أبو الخطار في قرطبة، امتعض له عبد الرحمٰن بن حسان الكلبي، فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرجالة، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه، ومضوا به إلى غرب الأندلس، فعاد في طلب سلطانه، ودب في يمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه ثوابة ومعه الصُميل، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته: يا معشر اليمن! ما لكم تتعرضون إلى الحرب وترون المنايا عن «أبو الخطار». أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا، لكننا مننا وعفونا وجعلنا الأمير منكم، أفلا تفكرون في أمركم، فلو أن الأمير من غيركم عُذرتم، ولا والله لا نقول هذا رهبة منكم ولا خوفاً لحربكم ولكن تحرجاً من الدماء ورغبة في عافية العامة. فتسامع الناس به، وقالوا: صدق. فتداعوا للرحيل ليلاً فما أصبحوا إلا على أميال.

وولي الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامي، ولما اتفقوا عليه، خاطبوا بذلك عبد الرحمٰن بن حبيب صاحب القيروان، فكتب إليه بعهد الأندلس، وذلك سلخ رجب سنة (١٢٧هـ)، وقام بأمره كله الصميل، واجتمع عليه أهل الأندلس،

وأقام والياً سنة أو نحوها، ثم هلك فولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وجده عقبة بن نافع صاحب أفريقية وباني القيروان، وقد اجتمع عليه أهل الأندلس بإشارة من الصميل لسبب أنه قرشي رضي به الحيان، فرفعوا الحرب، ومالوا إلى الطاعة، فدانت له الأندلس في ربيع الآخر سنة (١٢٩هـ).

ولكن ما أن سمع أبو الخطار بتقديمه حتى حرك يمانيته، فأجابوا دعوته، فأدى ذلك إلى وقعة شقندة بين اليمانية والمضرية، ويقال: إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالاً، طال صبر بعضهم على بعض، إلى أن فني السلاح وتجاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدي وكلَّ بعضهم عن بعض.

وثابت للصميل غرة في اليمانية في بعض الأيام، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة، فخرجوا في نحو أربعمائة رجل من أنجادهم، بما حضرهم من السكاكين والعصي ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلاً، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة، وما فيهم من يبسط يداً لقتال، ولا ينهض للدفاع، فانهزمت اليمانية، ووضعت المضرية السيف فيهم، فأبادوا منها خلقاً، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحى «جسر طاحونة» فقبض عليه وجيء به إلى الصميل فضرب عنقه[1].

تلك هي ملامح عامة في صورة الموقف الخطير الذي كانت عليه الأندلس في عهد الولاة، وهي ملامح مثيرة للفزع في قلوب أقوى الرجال؛ أخطار خارجية، وأخطار داخلية، ويبقى أخطر ما فيها تمزق قوات المسلمين شيعاً وقبائل أنهكتها الحروب المتلاحقة، واستنزفت قوتها الصراعات المستمرة، حتى بات من المشكوك فيه، أن يصمد المسلمون لأعدائهم الخارجيين، وبات وضع الأندلس بحاجة للإنقاذ مما هو فيه. ولم يكن باستطاعة الأمويين في الشام، تقديم دعم حقيقي بعد أن أصبحت الأخطار المحيقة بهم تتهدد وجودهم، ثم زاد الأمر الرايات السوداء (رايات العباسيين) وهي تسحق بسنابك خيولها وأسنة رماحها كل ما يمت إلى الأمويين بصلة من النسب أو القرابة، حتى القبور لم تسلم من الحقد، فتم نبشها، وحتى الأموات لم يسلموا من الأذى، فحملت أجداثهم وأُحرقت لتذروها الرياح في كل اتجاه.

(١) نفح الطيب، المقري ـ دار صادر، بيروت ٣٠/٢٠ ـ ٢٦.

٣ ـ الرحلة الشاقة
وإقامة الدولة الأموية في الأندلس

ما أبعد الشقة بين بلاد الشام والأندلس، وما أشد وعورة الطريق للسائر وحده، وما أقسى الرحلة وما أثقل وطأتها عندما يضطر الراحل لمسيرتها، لا رفيق له إلا وجيب قلبه، ولا أنيس له غير ظله، في الصحارى المقفرة الموحشة، والسهول الفسيحة المترامية الأطراف، ويبقى أصعب ما في ذلك هو السير تحت كابوس الخوف وتوقع خطر المجهول، في كل خطوة، وفي كل مرحلة، وفي كل وقت، والأمل بعد ذلك في المستقبل ضعيف. فما هو الحافز الذي يمكن له أن يدفع إنساناً لاحتمال كل الصعوبات والأخطار، واجتياز الوهاد والقفار سعياً وراء هدف مجهول وأمل غامض؟ ذلك هو حال عبد الرحمٰن الداخل في رحلته الشاقة. ولكن هل كان عبد الرحمٰن محروماً فعلاً من الأمل؟ وما هو الأمل الذي رافق عبد الرحمٰن في بداية رحلته؟

لقد وفر عبد الرحمٰن على الباحثين عناء البحث، فذكر بنفسه بداية رحلته بقوله: «نُسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمور الحدثان والملاحم، وكان يرى أن نهاية بني أُمية قد اقتربت، وأنه تنبأ بظهور عبد الرحمٰن، وسمع عبد الرحمٰن من مسلمة ذلك مشافهة، فكان يحدث نفسه بذلك، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك...».

«ولما وقع الاختلال في دولة بني أُمية واشتد الطلب عليهم، فرَّ عبد الرحمٰن، ولم يزل في فراره، متنقلاً بأهله وولده، إلى أن حل بقرية على الفرات ذات شجر وغياض، يريد المغرب. ويصف عبد الرحمٰن ما حدث له بعد ذلك فيقول: وإني لجالس يوماً في تلك القرية، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي، وابني سليمان، بكر ولدي، يلعب قدامي وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت

أدفعه لما كان بي، ويأبى إلا التعلق، وهو دهش، يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخ لي حديث السن كان معي، يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة. فضربت بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فلما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً.

ومضيت، ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدل عليَّ عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا، فخرجنا واشتددنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما. فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصَّر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوِّي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تُقتَل يا أخي، إليَّ إليَّ. فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد همَّ بالتجرد للسباحة في أثري، فمنعه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدميَّ، فلجأت إلى غيضة أشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت أؤم المغرب»[1].

تلك هي بداية الرحلة، وذلك هو زادها لشاب لم يكد يتجاوز العشرين من عمره. فقد ولد بالعلياء من تدمر، وقيل بدير حنا من أرض دمشق، في سنة ثلاث عشرة ومائة، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدهم هشام، ووهب لعبد الرحمٰن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إياها. وكان اسم أبيه «معاوية» وأما أمه فهي أم ولد بربرية اسمها «راح».

ولم تكن رعاية هشام لحفيده عبد الرحمٰن، وحدبه عليه، وتخصيص الأموال

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٣٣، ٣٣٤ و٣/ ٢٧ ـ ٥٤.

اللازمة له ولإخوته هي كل ما قدمه الجد لحفيده، وإنما قدم له ما هو أثمن من ذلك؛ لقد قدم له الأمل الكبير الذي على هديه بات يسير، ومن ضيائه تشرق له الدنيا وتستنير.

«ويحكى أن عبد الرحمٰن بن معاوية دخل يوماً على جده هشام، وعنده أخوه مسلمة بن عبد الملك، وكان عبد الرحمٰن إذ ذاك صبياً، فأمر هشام أن ينحني عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين. وضمه إليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين! هذا صاحب بني أُمية، ووزرهم عند زوال ملكهم، فاستوصِ به خيراً. قال عبد الرحمٰن: فلم أزل أعرف مزية من جدي من ذلك الوقت».

ومضى عبد الرحمٰن بن معاوية على الدرب الوعرة حتى وصل أفريقية، وألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدراً ومولاه سالماً ومعهما دنانير للنفقة وقطعة من جوهر، فنزل بأفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية. وكان عند واليها، عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري، يهودي حدثاني صحب مسلمة بن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمٰن، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويورثها عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمٰن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله. فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غُلبت على تركه إنه هو.

وثقل قلُّ بني أُمية على ابن حبيب صاحب أفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافة، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمٰن فاستخفى[1]. وأقام عبد الرحمٰن ببرقة مستخفياً خمس

---

(١) حدثت في هذه الفترة حادثة لعبد الرحمٰن أوردها المقري في نفح الطيب ١/ ٣٣٣ كالتالي: «حكى غير واحد أنه لما هرب عبد الرحمٰن من الشام إلى أفريقية قاصداً الأندلس، نزل بمغيلة، مضاربها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس، ويكنى أبا قرة، فاستتر عنده وقتاً، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهب أنفذته أخته إليه. فلمّا دخل الأندلس واستتب أمره به، سار إليه أبو قرة، وانسوس البربري، فأحسن إليه، وحظي عنده، وأكرم زوجته «تكفات» البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمٰن مداعباً، حين استظلت بظله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف. فكان جوابها له مسرعة: بل كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك. فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح».

سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم، ملوك تيهرت من المغرب الأوسط (الجزائر حالياً)، وتغلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زناتة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أُمية وشيعتهم بها.

وكان الموالي المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم قيادة، وكانت رياستهم إلى شخصين: «أبو عثمان عبيد الله بن عثمان» وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أُمية، يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة. فعبر بدر مولى عبد الرحمٰن إلى «أبو عثمان» بكتاب عبد الرحمٰن، يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية، وسببه بهم، ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق بوراثته، ويسأله القيام بشأنه، وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبلي عذراً في الظهور عليها، ويعده بإعلاء الدرجة ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من الثارات.

فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم، وجه دولة يوسف بن عبد الرحمٰن صاحب الأندلس. فقال لصهره، عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا. وكانا على ثقة في أنه لا يُظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة، فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا. قال أبو عثمان: فنمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك. فاتفقا على هذا.

فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة (ناحية) سرقسطة. فقال لهما: **أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر، سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيافنا، وصرفنا الأمر عنه إليه. فشكراه وقبَّلا يده ثم ودعاه.**

وأقام بطليطلة، وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة، وقد كانا لقيا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر عبد الرحمٰن بن معاوية، ثم دسا في الكور (النواحي) إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر.

وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس، لكن الصميل لم يلبث أن تراجع عن موقفه بعد أن فكر بالأمر ملياً، فطلب إلى «أبو عثمان» وصهره عبد الله بن خالد العودة إليه، وقال لهما: **إني رويت في الأمر الذي أدرته معكما، فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا ـ يقصد يوسف، والي الأندلس ـ رجل نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه. ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسل عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما.**

فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانفصلا عنه إلى «إلبيرة» عازمين على التصميم في أمره، ويئسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهييج أحقاد اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بُعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً، ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول وفيهم تمام بن علقمة وغيره.

كان عبد الرحمٰن قد وجه خاتمه إلى مواليه؛ فكتب تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات ما دب به أمرهم. ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشط فعيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمٰن: ما اسمك؟ **قال: تمام. قال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب. فقال: الله أكبر! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته. وأدنى منزلة «أبو غالب» لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمٰن.**

وبادر عبد الرحمٰن بالدخول إلى المركب، فلما همَّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا

دونه، ففرق فيهم، من مال كان مع تمام، صلات على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه. فلما صار عبد الرحمٰن بداخل المركب، أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب، فحوَّل رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم حتى حلوا بساحل إلبيرة في جهة المنكب وذلك في ربيع الآخر سنة (١٣٨هـ).

فأقبل إليه نقيباه، أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه إلى قرية «طرش»[1] منزل «أبو عثمان»، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية. وجاءه جدار بن عمرو المذحجي (ويقال: جديران أو حدران) من أهل «مالقة»[2]، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبده حسان بن مالك الكلبي من «إشبيلية» فاستوزره، وانثال الناس عليه انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمده الله بقوة عالية[3].

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عُنق عامر العبدري وابن عامر، برأي الصميل، إذ جاءه، قبل أن يدخل رواقه، رسول يركض من عند ولده عبد الرحمٰن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمٰن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامر وابنه،

---

(١) **طرش** Torrox: على الساحل الشرقي، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.

(٢) **مالقة** (Malaga): إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، كالتين والعنب والرمان واللوز، قال فيها أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي:

مالقة حييت يا تينها ... الفلك من أجلك يأتينها

نهى طبيبي عنه في علتي ... ما لطبيبي عن حياتي نهى

نفح الطيب ١/ ١٥١، **والمسالك والممالك** ٣٥، ومعجم البلدان ٧/ ٣٦٧.

(٣) جاء في نفح الطيب ٣/ ٤٢ ما يلي: «لما خرج ـ عبد الرحمٰن ـ أول قدومه على الأندلس، أتوه بخمر فقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه. فعرفوا بذلك قدره، ثم أهديت إليه جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن. وردها على صاحبها».

وخَتره (غدره) بعهدهما، فسارع عدد كثير إلى الدار لعبد الرحمٰن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه، **فأقبل إلى طليطلة، وقال للصميل: ما الرأي؟. فقال: بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره، فإني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا. فقال له يوسف: أتقول ذلك؟ ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا؟ وقد أنفضنا من المال، وأنضينا من الظهر، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه، ولكن نسير إلى قرطبة، فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره، فلعله دون ما كتب إلينا. فقال الصميل: الرأي ما أشرت به عليك، وليس غيره، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه. ومضوا إلى قرطبة.**

وصل عبد الرحمٰن الداخل أخيراً إلى الأندلس، بعد سنوات ست من الفرار، وبعد معاناة طويلة من الخوف، وبعد شقاء لا حدود له. ولم تكن مشاق الطريق وصعوباتها وأهوالها أكثر من بداية قصيرة لملحمة طويلة، فقد كان على عبد الرحمٰن الداخل القضاء على مراكز القوى المتنافسة، وصحيح أن قوة كبيرة قد انضمت إليه، ولكن هذه القوة لم تكن في كل الأحوال قوة متفوقة بدرجة ساحقة، غير أن رصيد عبد الرحمٰن (وهيبة الشرعية الأموية) كانت دعماً لا يستهان به، وكان لا بد من وضع هذا الرصيد موضع الاختبار من أجل حسم الموقف، واكتساب القاعدة لبناء مستقبل الدولة.

٤ ـ يوم المصارة ـ النصر الحاسم

لم يعد عبد الرحمٰن في حاجة للانتظار، فقد اشتدت شوكته وتكاثر أنصاره، فارتحل من المنكب إلى كورة (ناحية) «رية»، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي، ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح، وبايعه جند مالقة ورندة وشريش. وسار عبد الرحمٰن إلى إشبيلية، وتلقاه رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة. فلما نزلوا «بطشانة»[١]، قالوا: كيف نسير بأمير لا لواء له ولا عَلَم نهتدي إليه؟، فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه، فكرهوا أن يميلوا القناة لتعقد، تطيراً، فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين، فصعد رجل فرع إحداهما، فعقد اللواء والقناة قائمة[٢].

---

(١) طشانة (Tocina) من إقليم إشبيلية.

(٢) مما يحكي في موضوع هذا اللواء: «أن فرقداً (العالم صاحب الحدثان) مر بذلك الموضع، فنظر إلى الزيتونتين، فقال: سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء إلا كسره... وتبرك عبد الرحمٰن هو وولده بهذا اللواء، فكان بعد أن بلي لا تحل منه العقدة التي عقدت أولاً، بل تعقد فوقها الألوية الجدد، وهي مستكنة تحتها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وقيل إلى ابنه محمد، : فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء، فلما رأوا تحت اللواء أسمالاً خلقة ملفوفة معقدة، جهلوها فاسترذلوها، وأمروا بحلها ونبذها، وجددوا غيرها، وكان جهور بن يوسف بن بخت، شيخهم، غائباً، فحضر في اليوم الثاني وطولع بالقصة، فأنكرها أشد إنكار وساءه ما فعلوه، وقال: إن جهلتم شأن تلك الأخلاق فكان يجب أن تتوقفوا عن نبذها حتى تسألوا المشايخ وتتفكروا في أمرها. وخبرهم خبرها، فتطلبوا تلك الأخلاق فلم توجد. ويقال، كما قال «ابن حيان»: إنه لم يزل يعرف الوهن في ملك بني أُمية بالأندلس من ذلك اليوم، وقد كان الذي عقده أولاً عبد الله بن خالد، من موالي بني أُمية، وكان والده خالد عقد لواء مروان بن الحكم، جد عبد الرحمٰن الأعلى، لما اجتمع عليه بنو أُمية وبنو كلب بعد انقراض دولة بني حرب على قتال الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط فانتصر على الضحاك وقتله. ولما عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشد حزن، وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام، وكانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء، لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته... وتولى حمل هذا اللواء =

ونظر عبد الرحمٰن فيما حوله، ووجد ريح النصر، فها قد مضت سبعة أشهر منذ وصلت به المركب إلى الأندلس، وتذكر كيف استقبله القوم بالإعظام والإكرام، وعلى رأسهم عبيد الله بن عثمان، وكان وقت العصر، فصلى بهم العصر، وركبوا معه إلى قرية طرش، وتذكر كيف أنه غادر إلبيرة، وليس معه أكثر من ستمائة فارس من موالي بني أُمية ووجوه العرب، وها هي الآن قوته قد وصلت إلى درجة كافية لمقارعة خصومه ومحاربة أعدائه، فمضى نحو قرطبة، وخرج يوسف الفهري بجيشه من قرطبة، وكان نهر قرطبة حائلاً، أو فاصلاً بين الجيشين.

وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين، فأورثت أهل الأندلس ضعفاً، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر، ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من إشبيلية إلا الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم، وكان الزمان زمان ربيع، فسمي ذلك العام عام الخلف.

ولما رأى يوسف الفهري تصميم عبد الرحمٰن وعزمه على اقتحام قرطبة، استشار وزيره الصميل بن حاتم فيما يفعله، فأشار عليه الصميل بالتلطف له والمكر به لكونه صغير السن، حديث عهد بنعمة، متراسلاً «يوسف وعبد الرحمٰن»، وخادع يوسف عبد الرحمٰن لمدة يومين، آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائة، وأظهر عبد الرحمٰن قبول الصلح، فبات الناس على ذلك ليلة العيد، وكان قد أسرَّ خلاف ما أظهر، واستعد للحرب.

ومقابل ذلك، ونظراً لما عرفه يوسف من ضعف جيش عبد الرحمٰن، فقد أصدر أمره بذبح الجزر، وتقدم بعمل الأطعمة في محاولة للتأثير على الروح المعنوية لجيش عبد الرحمٰن، ولكن هذا لم ينخدع بتلك التظاهرات، فمضى وهو يعد للحرب عدتها، واستكمال أهبتها، وسهر الليل كله على نظام أمره.

ووكل عبد الرحمٰن بخالد بن يزيد الكاتب ورسول يوسف ومعه جماعته، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه، وإلا فلا. فكان خالد يقول: «ما كان شيء في ذلك الوقت أحب إليَّ من غلبة عبد الرحمٰن الداخل عدو صاحبي».

= لعبد الرحمٰن الداخل أبو سليمان داوود الأنصاري، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمٰن». **نفح الطيب** ٣/ ٥٠، ٥١.

وركب عبد الرحمٰن جواداً، فقالت اليمانية الذين أعانوه: «هذا فتى حديث السن تحته جواد، وما نأمن أول ردعة يردعها أن يطير منهزماً على جواده ويدعنا». فأتى عبد الرحمٰن أحد مواليه فأخبره بمقالتهم، فدعا «أبو الصباح»، وكان له بغل أشهب يسميه «الكوكب»، فقال له: «**إن فرسي هذا قلق تحتي لا يمكنني من الرمي، فقدم إليَّ بغلك المحمود أركبه**». فقدمه. فلما ركبه اطمأن أصحابه.

وطاف عبد الرحمٰن بعسكره في المصارة، غربي قرطبة، وقال لأصحابه: أي يوم هذا؟. قالوا: الخميس - يوم عرفة. فقال: فالأضحى غداً يوم الجمعة، والمتزاحفان أموي وفهري، والجندان قيس ويمن، قد تقابل الأشكال جداً، وأرجو أنه أخو يوم مرج راهط، فأبشروا وجدوا. فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده، مروان بن الحكم، وبين الضحاك بن قيس الفهري، وكانت يوم جمعة ويوم أضحى، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك، فقتل الضحاك وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم، وقيل: إنه لم يحضر مرج راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر: عبد الرحمٰن بن مسعدة الفزاري وابن هبيرة المحاربي وصالح الغنوي، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمٰن الداخل يوم المصارة غربي قرطبة من قيس غير ثلاثة: جابر بن العلاء بن شهاب، والحصين بن الدجن، العقيليان، وهلال بن الطفيل العبدي.

لما أصبح يوم الأضحى، لم ينشب أن غشيت الخيل، ودارت رحى المعركة الحاسمة، وأظهر الطرفان قدراً كبيراً من الصبر. ولما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمٰن، ورأى شدة مقاساة أصحابه، قال: «**هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه الملك، إما ذل الدهر، وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون**».

وصبر أصحابه الساعة بعد الساعة حتى تمَّ لهم الظفر، وانهزم يوسف، وصبر الصميل بن حاتم بعده معذراً وعشيرته يحفونه، فلما خاف انهزامهم عنه، تحول على بغله الأشهب معارضة لعبد الرحمٰن الداخل، فمر به أبو عطاء فقال له: «**يا أبا جوشن! احتسب نفسك، فإن للأشباه أشباهاً؛ أموي بأموي، وفهري بفهري، وكلبي بكلبي، ويوم أضحى بيوم أضحى، ويمني بقيسي، والله إني لأحسب هذا اليوم بمثل مرج راهط سواء. فقال له الصميل: كبرت وكبر علمك، الآن تنجلي الغماء وسحرك (رئتك) منتفخ، فانثنى أبو عطاء لوجهه منقلباً، وانهزم الصميل. وانتهت المعركة بانتصار عبد الرحمٰن.**

وهنا تفجر الحقد في صدور اليمانية الذين أرادوا إبادة خصومهم «القيسية»، لكن عبد الرحمٰن نهاهم عن ذلك. ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة، قال: «**لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشد عداوة منهم**». يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين.

كان انتصار عبد الرحمٰن كبيراً، وجد فيه بعض التعويض عما عاناه طوال سنوات الشتاء، وكان من حقه أن يشعر بنشوة النصر، ولكن الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره لم تبهره الفرحة، ولم تتملكه روعة الانتصار، لقد عرف أن كل ما حققه ليس أكثر من بداية، فقد نجح بإقامة الدولة، ولكن بقي أمامه توطيد دعائم هذه الدولة والمحافظة عليها، وكان ذلك أصعب من إقامة الدولة ذاتها.

٥ ـ الطريق لبناء الدولة

ما كاد عبد الرحمٰن بن معاوية ينفض عنه غبار المعركة، معركة يوم المصارة أو معركة قرطبة، حتى وصله قول زعيم اليمانية ورئيسها «أبو الصباح»، وهو يخاطب قومه بعد أن فرغوا لتوهم من القضاء على خصومهم، الذين كان يقودهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، فيقول لهم: «يا معشر يمن! هل لكم إلى فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا، نقدم عليه رجلاً منا؛ ونحل عنه هذه المضرية». ولكن أحداً لم يجبه لذلك. ولم يكن عبد الرحمٰن بن معاوية ليتجاهل ذلك، إلا أنه أسرها في نفسه، وأرجأ قصاصه على مقولته ريثما تحين الفرصة المناسبة، وحانت هذه الفرصة بعد سنوات، فعمل على اغتياله سنة (١٤٩هـ).

لم يكن عبد الرحمٰن بن معاوية في عجلة من أمره، لقد انتظر، وطال انتظاره إلى أن وصل قرطبة، وها هو يقف أمام أبوابها منتصراً، فلا ضير عليه إن هو انتظر ثلاثة أيام أُخرى إلى أن يخرج من دار الإمارة فيها عيال يوسف الفهري، وإلى أن يصبح القصر معداً لاستقباله، وأظهر بذلك عفته، وأحسن السيرة. غير أنه لما استقر بدار الإمارة، لم يستقر به قرار من إفلات يوسف والصميل، فخرج في أثر عدوه، واستخلف على قرطبة القائم بأمره «أبو عثمان»، واستكتب كاتب يوسف «أُمية بن زياد» واستنام إليه إذ كان من موالي بني أُمية. ونهض في طلب يوسف فوقع يوسف على خبره فخالفه إلى قرطبة ودخل القصر، وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمٰن بصومعة الجامع، فاستنزله بالأمان، ولم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين عبد الرحمٰن بن معاوية، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصميل في صفر سنة (١٣٩هـ)[1].

---

(١) **يوسف الفهري**: هو ابن عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، «باني القيروان» وأمير معاوية على أفريقية والمغرب. وأما **الصميل** فهو ابن حاتم بن شمر بن =

وشارطه على أن يخلي بينه وبين أمواله حيث كانت، وأن يسكن بلاط الحر (منزله بشرقي قرطبة) على أن يختلف كل يوم إلى عبد الرحمٰن بن معاوية ويريه وجهه، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه «أبو الأسود» محمد بن يوسف الفهري، زيادة على ابنه عبد الرحمٰن الذي أسره ابن معاوية يوم الوقعة.

ورجع العسكران وقد اختلطا إلى قرطبة. وعرف عبد الرحمٰن منذ البداية أن صلحه مع يوسف الفهري ووزيره الصميل لن يكون صلحاً ثابتاً أو مستمراً بعد أن انتزعت منهما السلطة بالقوة فاتخذ منهما موقف الحذر، ولم يكن حرصه على مقابلة يوسف الفهري في كل يوم، واحتجاز ولديه رهينة عنده، إلا واحداً من ترتيبات الحيطة، لا سيما وأنه بلغه ما كان يردده في مجالسه الخاصة من الأسف لمجده الضائع[1].

أصبح باستطاعة فلال بني أُمية أن يجدوا لهم ملاذاً في الأندلس. وفي سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، وصل إلى الأندلس عبد الملك بن عمر المرواني، ومعه عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة، فأكرمه عبد الرحمٰن ونوَّه به، وولاه إشبيلية لأنه كان قعدد بني أُمية، كما عين ابنه «عمر بن عبد الملك» والياً على «مورور».

ولاحظ عبد الملك أن الأمير عبد الرحمٰن لا زال يخطب في المساجد للخليفة العباسي «أبو جعفر المنصور»، فأشار عليه بقطع اسمه من الخطبة، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أُمية، ولكن عبد الرحمٰن تمهل في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له، وذلك أنه قال له، حين امتنع عن

= ذي الجوشن. وقيل: الصميل بن حاتم بن عمرو بن جندع بن شمر بن ذي الجوشن. كان جده شمر من أشراف الكوفة، وهو أحد قتلة الحسين رضي الله عنه. ودخل الصميل الأندلس حين دخل كلثوم بن عياض المغرب غازياً وساد بها، وكان شاعراً كثير السكر أمياً لا يكتب، ومع ذلك فانتهت إليه في زمانه رياسة العرب بالأندلس، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب (على أمره) معه. وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر، وعنه، كما مر، انتقل سلطانها إلى بني أُمية. وقد أظهر الصميل الخضوع لعبد الرحمٰن الداخل، لكنه لم يلبث أن قتل بيد عبد الرحمٰن عندما قام يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري بثورته. **نفح الطيب** ١/ ٣٢٨، ٣٢٩ و٣/ ٥٣.

(١) جاء في **نفح الطيب** ٣/ ٢٥ أن يوسف الفهري كان يتمثل قول حرقة بنت النعمان بن المنذر، وفيه البيت التالي:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيها سوقة نتنصف

ذلك: إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي، فقطع حينئذٍ عبد الرحمٰن الخطبة للمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر.

تحرك يوسف الفهري في السنة التالية (١٤١هـ/٧٥٨م) من أجل إشعال نار الفتنة، فهرب من قرطبة، وسعى بالفساد في الأرض، وقد كان الحال قد اضطربت به في قرطبة، ودسَّ له قوم قاموا عليه في أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدفع معهم إلى أحكام الحكام، فأعنتوه (ظلموه) وحُمل عنه في التألم بذلك كلام رفع إلى الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه، فاشتد توحشه، فخرج إلى جهة ماردة، واجتمع إليه عشرون ألفاً من الشتات، أكثرهم من البربر، فغلظ أمره.

ولما فرَّ يوسف الفهري، أسرع عبد الرحمٰن فاستدعى الصميل وقال له: «أين توجه يوسف؟». فأجابه الصميل: لا أعلم. فقال له الأمير عبد الرحمٰن: ما كان ليخرج حتى يعلمك، كما أن ولدك معه. وأكد عليه في أن يحضره، فقال له الصميل: **لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه، فاصنع ما شئت.**

فحينئذٍ أمر به للحبس وسجنَ معه ولدي يوسف، «أبو الأسود محمد»، المعروف بعدُ بالأعمى، وعبد الرحمٰن، فتهيأ لهما الهرب من نقب، فأما أبو الأسود فنجا سالماً، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حتف أنفه. وأما عبد الرحمٰن فأثقله اللحم فانبهر فرد إلى الحبس. وأنِفَ الصميل من الهرب، فأقام بمكانه ينتظر ما سيقرره الأمير عبد الرحمٰن بشأنه.

ومضى الأمير عبد الرحمٰن، فأسرع بحشد قواته وقادها إلى حصن المدور حيث التقى بابن عمه صاحب إشبيلية «عبد الملك بن عمر بن مروان» ومعه ابنه أُمية ومعظم جيشه. والتقى هذا الجيش بقوات الثورة القادمة من غرب الأندلس نحو قرطبة يقودها يوسف الفهري، **ودفع عبد الملك مقدمة، لملاقاة قوات الثورة، بقيادة ابنه أُمية في أكثر العساكر، فخالطهم أُمية، فوجد فيهم قوة، فخاف الفضيحة معهم، فانحاز منهزماً إلى أبيه. فلما جاءه سقط في يده، وقال له: ما حملك على أن استخففت بي، وجرأت الناس عليَّ والعدو؟ إن كنت قد فررت من الموت فقد جئت إليه. فأمر بضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصته، وقال لهم: طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونحسد على لقمة تبقي الرمق، اكسروا جفون السيوف، فالموت أولى أو الظفر. ففعلوا وحملوا، وتقدمهم، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً، وجرح**

عبد الملك، فأتاه الأمير عبد الرحمٰن، وجرحه يجري دماً، وسيفه يقطر دماً، وقد لصقت يده بقائم سيفه، فقبَّل بين عينيه، وجزاه خيراً، وقال له: يا ابن عم، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة، وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا، ولأولادك كذا، وأقطعتك وإياهم كذا؛ ووليتكم الوزارة[1].

أما بالنسبة لقائد الثورة، يوسف الفهري، فإنه لما رأى شدة الحرب، وما تكشفت عنه، أبلى بلاء حسناً، ثم ولى منهزماً، وقد استمر القتل في أصحابه وهلك منهم خلق كثير، ومضى نحو طليطلة، فلقيه في قرية من قراها عبد الله بن عمرو الأنصاري، فلما عرفه قال لمن معه: هذا الفهري يفرُّ، قد ضاقت عليه الأرض، وقتْله الراحة له والراحة منه. فقتله واحتز رأسه وقدم به إلى عبد الرحمٰن، فلما قرب وأوذن عبد الرحمٰن به، أمره أن يتوقف به دون جسر قرطبة، وأمر بقتل ولده عبد الرحمٰن المحبوس عنده، وضم إلى رأسه رأسَهُ، ووضعا على قناتين مشهرين إلى باب القصر.

ولما قتل يوسف، أرسل عبد الرحمٰن بن معاوية على الصميل من خنقه في السجن فأصبح ميتاً، فدخل عليه مشيخة المضرية في السجن، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس ونقل، كأنه بغت على شرابه، فقالوا: والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها، ولكن سُقيتها. ودفع إلى أهله فدفنوه[2].

أفاد ألفونسو (أو الأذفنش، كما يذكره المؤرخون العرب) من الصراعات بين قادة المسلمين، فتابع سياسته في قيادة الصراع ضد المسلمين، وقوي أمره في

---

(١) ويذكر أن عبد الملك كان شاعراً أيضاً، ومن شعره، لما نظر نخلة منفردة بإشبيلية، فتذكر وطنه بالشام، وقال:

يا نخل أنت فريدة مثلي	في الأرض نائية عن الأهلِ
تبكي وهل تبكي مكممة	عجماء لم تجبل على جبلي
ولو أنها عقلت إذاً لبكت	ماء الفرات ومنبت النخلِ
لكنها حرمت وأخرجني	بغضبي بني العباس عن أهلي

ونسب ابن الأبار هذه الأبيات لعبد الرحمٰن الداخل (**الحلة**: ٣٧) ثم قال: (وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأول: (تبدت لنا وسط الرصافة نخلة...) لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك. وقيل في الأبيات الأخيرة: (يا نخل أنت غريبة...) إنها لعبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم.. ثم عاد فذكر أن هناك ما يقوي نسبتها إلى عبد الرحمٰن. (**نفح الطيب** ٣/ ٥٩، ٦٠).

(٢) **الكامل في التاريخ** (ابن الأثير)، طبعة دار الكتاب العربي ٤/ ٣٦٤، وقد ذكرها في أحداث سنة (١٤٠هـ)، ونفح الطيب ٣/ ٣٥، ٣٦.

غاليسية (أو جيليقية) وأخرج المسلمين من ثغور البلاد، وملك مدينة «لك» وشلمنقة وسمورة وأيلة وشقوبية وقشتالة، وقد مات ألفونسو فجاء ابنه «فرويله» ليتابع هذه السياسة ذاتها.

وأصبح على عبد الرحمٰن مجابهة الخطر الخارجي، ولكن تفاقم الأحداث الداخلية وزيادة خطورتها على التهديد الخارجي اضطره إلى إعطاء الأفضلية لتصفية خصوم الداخل، قبل الانصراف كلياً لمجابهة الأخطار الخارجية. ومن أجل ذلك، توجه إلى ملك الفرنج، شارل مارتل، أو «قارله» بحسب ما تذكره المصادر العربية التي أوردت ما يلي: «خاطب عبد الرحمٰن قارله ملك الفرنج، وكان من طغاة الفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صَلب المكسر تام الرجولية، فمال معه إلى المداراة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم، ولم تتم المصاهرة»[1]. ولكن الصراع لم يتوقف ضد الملوك الكارولنجيين الذين اشتهر منهم ببيان الحاسم[2] وشارلمان[3] اللذان ركزا جهدهما لانتزاع ناربون[4] من المسلمين.

---

(١) **نفح الطيب** ١٠/ ٣٣٠، وفي ابن الأثير ٤/ ٣٦٥. وقد أثارت المصادر الغربية كثيراً قضية «المصاهرة» في حين لم تتعرض لها المصادر العربية إلا بصورة عارضة، على نحو ما هو وارد في النص.

(٢) ببيان الحاسم ـ Pepin Le Bref: ولد عام (٧١٤م) في جوبيل Jupille (من بلجيكا حالياً)، وهو ابن شارل مارتل. وفي عام (٧٤١م) عينه والده دوقاً على نستريا وبورغونيا والبروفانس مع أخيه شارلمان، وقام بقيادة القتال ضد أكتانيا والآلامان وبافاريا والساكسون والعرب المسلمين، وتوّجه البابا زكريا عام (٧٥١م) ملكاً على الفرنج بعد أن جمع حوله الأوفياء (Troste) في سواسون، وأرغم لومبارديا على إعطاء إيتين للبابا مقابل تتويج البابا له، فاعتبر أول ملوك الأسرة الكارولنجية، وتوفي عام (٧٦٨م) تقريباً.

(٣) **شارلمان** ـ Charlemagne: كان ملك نوستريه، ثم أصبح ملك الفرنج (٧٧١ ـ ٨١٤م) وأمبراطوراً للغرب (٨٠٠ ـ ٨١٤م). خلف أباه ببيان وحكم مع أخيه كارلومان حتى موت هذا الأخير عام (٧٧١م). حارب الأكيتانيين واللومبارديين وقاد حملة ضد العرب في إسبانية حيث هزمت مؤخرة جيشه في رونسفو Roncevaux وقتل قائدها رولان سنة (٧٧٨م). قام بحروب كثيرة، وتوجه البابا امبراطوراً عام (٨٠٠م).

(٤) **ناربون** (أربونة) (Narbonne) ـ سبق الحديث عنها ـ وقد حاول شارل مارتل فتحها عام (٧٣٢م) لكنه عجز عن ذلك، وجاء ابنه ببيان الحاسم لفتحها، ولكن قوات المسلمين أحبطت محاولته. وجاء شارلمان فأفاد من الاضطراب الذي رافق صعود الأمير عبد الرحمٰن لحكم الأندلس، فهاجمها سنة (٧٥٩م)، بعد أن حاصرها مدة سبع سنين، وقد أدى هذا الحصار إلى ثورة الأهالي الذي ملوا الحصار، فاندفعوا إلى ذبح الحامية الإسلامية. ثم عاد المسلمون سنة =

٦ ـ القضاء على مراكز القوى

(الفتن والثورات)

لم يكن التحريض الخارجي من الشمال (الكارولنجيين) هو مصدر قلق الأمير عبد الرحمٰن الداخل، وإنما كان هناك تحريض خارجي أكثر قوة وأبعد تأثيراً وهو تحريض العباسيين لمراكز القوى المضادة للأمويين، وقد ظهر ذلك في ثورة **العلاء بن مغيث اليحصبي** بباجة «أو باغة»، وكان قد وصل من أفريقية على أن يظهر الرايات السود بالأندلس في سنة (١٤٦هـ/ ٧٦٣م)، وأخذ منذ وصوله الأندلس بالدعوة لـ«أبو جعفر المنصور»، واجتمع إليه خلق كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمٰن، فالتقيا بنواحي إشبيلية، ثم تحاربا أياماً، فانهزم العلاء وأصحابه وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف، وقتل العلاء وجيء به وبأعلام أصحابه، فقطع يديه ورجليه بعد أن ضرب عنقه وأعناق أصحابه. وأمر ـ عبد الرحمٰن ـ فقرطت الصكاك في أذانهم بأسمائهم، وأودعت جوالقاً محصناً، ومعها اللواء الأسود، وأنفذ بالجوالق تاجراً من ثقاته، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم، ففعل. ووافق «أبو جعفر المنصور» قد حج، فوضعه على باب سرداقه، فلما كشفه ونظر إليه سقط في يده. وفي الوقت ذاته بعث بكثير منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سراً، ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء. وارتاع المنصور لذلك وقال: عرضنا هذا البائس ـ يعني: العلاء ـ للحتف، ما هذا إلا شيطان، وما في هذا الشيطان مطمع، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر[1].

= (٧٢٩م)، في عهد هشام بن عبد الرحمٰن الداخل فحاصروا ناربون، فبعث شارلمان بعثاً، عدته عشرون ألف مقاتل، عقد لواءه للفارس الشهير غليوم. وتلاقى الجمعان بقرب ناربون، فاستأصل المسلمون جيش الفرنج، ولم يبق من هؤلاء إلا غليوم، وثلاثة عشر من رفاقه، وصلم أنف غليوم في المعركة، ولقب من ذلك اليوم بذي الأنف القصير .Guillaume. Au Court Nez

(١) **الكامل في التاريخ** ابن الأثير ٥/ ٢١ (أحداث سنة ست وأربعين ومائة). **ونفح الطيب** ١/ ٣٣٢ =

وفي سنة (١٤٧هـ/ ٧٦٤م) وجه عبد الرحمٰن الداخل جيشاً، بقيادة مولاه بدر وتمام بن علقمة، إلى طليطلة لإخضاع **تمرد هاشم بن عذرة، وضيقا عليه، ثم أسراه هو وحياة بن الوليد اليحصبي وعثمان بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**، وأتيا بهم إلى عبد الرحمٰن في جباب صوف وقد حلقت رؤوسهم ولحاهم، وقد أركبوا الحمير وهم في السلاسل، ثم صلبوا بقرطبة، وفي هذه السنة ذاتها أرسل عبد الرحمٰن رسولاً من قبله إلى الشام من أجل إحضار ولده الأكبر سليمان، وعاد الرسول ومعه سليمان إلى الأندلس[١].

وفي سنة (١٤٨هـ/ ٧٦٥م) أعلن سعيد اليحصبي (المعروف بالمطري) تمرده بمدينة «نبلة»[٢]، وسبب ذلك أنه سكر يوماً فتذكر من قتل من أصحابه اليمانية مع العلاء، فعقد لواء، فلما صحا رآه معقوداً، فسأل عنه، فأخبر به، فأراد حله، ثم قال: ما كنت أعقد لواء ثم أحله بغير شيء. وأعلن تمرده، فاجتمعت اليمانية إليه، وقصد إشبيلية، وتغلب عليها. وكثر جمعه، فبادره عبد الرحمٰن صاحب الأندلس في جموعه، فامتنع المطري في قلعة «رعواق» لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فحضر عبد الرحمٰن وضيق عليه، ومنع أهل الخلاف «المتمردين» من الوصول إليه.

وكان قد وافقه على التمرد **غياث بن علقمة اللخمي، وكان بمدينة شذونة**، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد المطري وهم في جمع كثير، فلما سمع عبد الرحمٰن ذلك سيَّر إليهم بدراً، مولاه، في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري، فطال الحصار عليه، وقلَّت رجاله بالقتل، ففارقه بعضهم، فخرج يوماً من القلعة وقاتل فقتل، وحمل رأسه إلى عبد الرحمٰن، فقدم أهل القلعة خليفة بن مروان، فدام الحصار عليهم، فأرسل

= و٣/ ٣٦. وباجه (Beja) في البرتغال حالياً. وكانت تضم كورة «ناصية» واسعة، بها ولد المعتمد بن عباد. اشتهرت بمناجم الفضة والدباغة وصناعة الكتان أيام المسلمين. وباجه هذه من أقدم مدن الأندلس وأرضها أرض زرع وضرع، ونوارها يحسن للنحل ويكثر عنه العسل. **المغرب في حلى المغرب** ١/ ٤٠٣.

(١) ابن الأثير ٥/ ٢٥.

(٢) **نبلة** (Neibla): قصبة (مركز ناحية) بالأندلس كبيرة، شرق أكشونية وغرب قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام (أربعة وأربعون فرسخاً)، وهي جامعة لكل وجه من الفوائد؛ جمعت البر والبحر والزرع والضرع والنحل والنتاج وأجناس الثمار وكثرة الزيتون والأعناب. (**المغرب في حلى المغرب** ١/ ٢٣٩، ومعجم البلدان ٧/ ٣١٩).

أهلها يطلبون الأمان من عبد الرحمٰن ليسلموا إليه خليفة، فأجابهم إلى ذلك وأمنهم، فسلموا إليه الحصن وخليفة، فخرب الحصن وقتل خليفة ومن معه. ثم انتقل إلى غياث الثائر في شذونة فحصر المتمردين وضيق عليهم فطلبوا الأمان فأمنهم إلا نفراً كان يعرف كراهتهم لدولته، فإنه قبض عليهم وعاد إلى قرطبة، فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيان، فاجتمعت إليه جموع، فأغار على قرطبة فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشاً فتفرق جمعه، فطلب الأمان فبذله له عبد الرحمٰن ووفى له[1].

وفي السنة التالية (١٤٩هـ/٧٦٦م)، وجه عبد الرحمٰن بن معاوية ـ الداخل ـ جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى بلاد العدو فجاوز إليه وأخذ جزيتها، وكان أبو الصباح يحيى بن يحيى «اليحصبي»، كما سبق ذكره، أميراً على إشبيلية، وقد اتخذ من المواقف وقال من الأقوال ما أوجب فتك عبد الرحمٰن به. ولما كان أبو الصباح رئيساً لليمانية، فإن عبد الرحمٰن لم يرغب في مجابهته، فعزله، ونهض أبو الصباح للثورة وأعلن تمرده، فأنفذ إليه عبد الرحمٰن وخدعه حتى حضر عنده فقتله. (أنظر ما قاله أبو الصباح في أول فقرة ـ الطريق لبناء الدولة).

ولما قتل عبد الرحمٰن خصمه «أبو الصباح» ثارت اليمانية بإشبيلية **تحت زعامة غياث بن المسير الأسدي** طلباً للثأر، فطلب عبد الرحمٰن من ولاته في الأقاليم توجيه ما يتوافر لهم من القوات، وحشد حشداً كبيراً في سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، وسار إلى غياث فواقعه، فانهزم غياث ومن معه، وقتل غياث وبُعث برأسه إلى عبد الرحمٰن بقرطبة.

وكان لثورة اليمانية وتمردهم دور كبير في التأثير على عبد الرحمٰن، وذكرت

---

(١) **الكامل في التاريخ** ـ ابن الأثير ٥/ ٢٦، ٢٧. وشذونة التي ورد ذكرها تقع في الجزيرة جنوب الأندلس «وهناك مدينة شذونة وناحية (كورة) شذونة». والمدينة من مدن الأندلس المليحة ظاهراً وباطناً، في نهاية العمارة وكثرة الأرزاق، من متفرجاتها ـ الحلقة ـ وفيها نهر «لك»، حيث خاض طارق معركته الحاسمة ضد رودريك ـ لذريق ـ وهو نهر مستحسن عليه بساتين ومناظر ـ متنزهات. أما كورة (ناحية) شذونة فهي من كور إشبيلية وأجلها محرثاً وشجرة ومياهاً وضياعاً وما شابه إلى جانب المحيط، (**المغرب في حلى المغرب** ١/ ٣٠١، ٣٠٢، **ومعجم البلدان** ٥/ ٢٤٤).

وأما **جيان**: Jaen: فهي مملكة جليلة بموسطة الأندلس، معروفة بالمحارث والأخشاب، وهي بين غرناطة وطليطلة ومرسية، جمعت تناهي طيب الأرض وكثرة الثمر وغزر السقيا واطراد العيون وكثرة الحرير. (**المغرب في حلى المغرب** ٢/ ٤٩ ـ ٥١).

بعض المصادر التاريخية في هذا الصدد ما يلي: «ولما أوقع عبد الرحمٰن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي، وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دغل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية، واعتضد أيضاً بالبرابر، ووجه عنهم إلى بر العدوة، فأحسن لمن وفد عليه إحساناً رغب من خلفه في المتابعة واستكثر منهم ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب، فاستفاقت مملكته وتوطدت»[1].

ويذكر في هذا المجال أيضاً، أن غياث بن المسير الأسدي لم يكن وحده الذي ثأر لمقتل زعيم اليمانية «أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي»، وإنما ثأر أيضاً **حيوة بن ملابس الحضرمي في إشبيلية، وعبد الغفار بن حميد اليحصبي في لبلة**، وعمرو بن طالوت رئيس باجة، واجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة وهم يطلبون دم رئيس اليمانية «أبو الصباح»، فقتلوا في هزيمة عظيمة وقيل: نجوا بالفرار فأمنهم الداخل[2].

كان من أصعب ما جابهه عبد الرحمٰن الداخل بعد ذلك ثورة «**شقنا بن عبد الواحد**» في الشرق من الأندلس، وهو من بربر مكناسة، كان يعلم الصبيان، وكانت أمه تسمى فاطمة، وادعى أنه من ولد فاطمة عليها السلام، ثم من ولد الحسين عليه السلام، وتسمى باسم عبد الله بن محمد وسكن «شنت بريه»[3]، واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعظم أمره. وسار إليه الأمير عبد الرحمٰن الداخل، فلم يقف له وراغ في الجبال، فكان إذا أمن أنبسط وإذا خاف صعد الجبال،

---

(١) **الكامل في التاريخ** - ابن الأثير ٥/ ٢٨، ٢٩، **ونفح الطيب** ٣/ ٣٦، ٣٧. وستأتي مناقشة هذه النقطة فيما بعد، إذ أن لجوء عبد الرحمٰن لاصطناع الموالي لم يكن إلا بسبب نقص القدرة البشرية، فقد قام البربر بعدد من الثورات، وعلى الرغم من ذلك فقد أفسح لهم عبد الرحمٰن مكاناً في جيشه، وكذلك الأمر بالنسبة لليمانية، غير أن الجهد القتالي المستمر لقمع الثورات ومجابهة الأخطار الخارجية فرض زيادة الاعتماد على الجيش العامل، المنظم دائماً والمستعد أبداً للحرب.

(٢) **نفح الطيب** ٣/ ٤٨.

(٣) **شنت بريه** - وتكتبها المصادر العربية أيضاً «شنتمرية - وشنت مرية»: ويعرف بهذا الاسم مدينتان شنتمرية الغرب (Santa - Maria De Algarve) وتسمى اليوم Faro وهي بالبرتغال. والثانية شنتمرية الشرق، وهي السهلة: Albarracin والأولى هي المقصودة هنا. (**نفح الطيب** ١/ ١٣١).

بحيث يصعب طلبه، فاستعمل عبد الرحمٰن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فاستعمل حبيب على شنت بريه سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان، وأمره بطلب شقنا ومطاردته، فنزل شقنا إلى شنت بريه وأخذ سليمان فقتله، واشتد أمره وطار ذكره وغلب على ناحية «قورية»[1] وأفسد في الأرض، وكان ذلك في سنة (١٥١هـ/ ٧٦٨م).

وعاد عبد الرحمٰن فغزاه بنفسه في سنة (١٥٢هـ/ ٧٦٩م) فلم يثبت له، فأعياه أمره، فعاد عنه، وسير إليه سنة ثلاث وخمسين بدراً مولاه، فهرب «شقنا» وأخلى حصنه «شيطران». ثم غزاه عبد الرحمٰن بنفسه سنة (١٥٤هـ/ ٧٧١م) فلم يثبت له شقنا. ثم سيَّر إليه سنة (١٥٥هـ/ ٧٧٢م) «أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان» فخدعه «شقنا» وأفسد عليه جنده، فهرب عبيد الله وغنم شقنا عسكره وقتل جماعة من بني أُمية كانوا في العسكر. وفي سنة (١٥٥هـ) أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكر عبيد الله إلى حصن الهواريين المعروف بمدائن وبه عامل لعبد الرحمٰن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه فقتله شقنا وأخذ خيله وسلاحه وجميع ما كان معه.

وفي سنة (١٥٦هـ/ ٧٧٣م) سار عبد الرحمٰن بنفسه إلى حرب شقنا وقصد حصن شيطران، فحصره وضيق عليه، فهرب إلى المغارة كعادته، وكان قد استخلف على قرطبة ابنه سليمان، فأتاه كتابه يخبره بخروج أهل إشبيلية، فرجع عبد الرحمٰن إلى قرطبة للقضاء على ثورة إشبيلية، حتى إذا ما تم له ذلك عاد في سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٥م) فغزا مدينة «قورية» وقصد البربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا، فقتل منهم خلقاً من أعيانهم واتبع شقنا حتى جاوز القصر الأبيض والدرب، ففاته.

وعاد شقنا ليبسط نفوذه على شنت بريه، فسير إليه عبد الرحمٰن، سنة (١٥٩هـ/ ٧٧٦م)، جيشاً كبيراً، ففارق شقنا مكانه، وصعد الجبال كعادته، فعاد الجيش عنه، كعادته أيضاً.

وجاءت أخيراً سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٧م) وفيها أرسل الأمير عبد الرحمٰن جيشاً بقيادة «أبو عثمان عبيد الله بن عثمان» وتمام بن علقمة لحصار شقنا، فحاصراه

---

(١) **قورية** Coria: من مدن كورة ـ ناحية ـ ماردة، وكانت تعرف قبل الفتح العربي الإسلامي باسم كوريوم Caurium وهي تقع إلى الشرق من قلمرية Coimbra من مدن البرتغال.

شهوراً بحصن شيطران وأعياهما أمره فقفلا عنه. ثم إن شقنا بعد عودهما عنه خرج من شيطران إلى قرية من قرى شنت بريه راكباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتاله أبو معن وأبو خزيم، وهما من أصحابه، فقتلاه ولحقا بعبد الرحمٰن ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره[1].

وهكذا استمرت ثورة «شقنا» لمدة عشر سنوات، كان عبد الرحمٰن خلالها أحوج ما يكون للاستقرار الداخلي من أجل مجابهة الأخطار الخارجية، وقد استنزفت الحروب ضد شقنا جهداً كبيراً، كما أنها ملأت الفراغ الزمني الذي كانت تتطلبه عملية بناء الدولة.

والأمر المثير على كل حال التواقت في ظهور شقنا البربري وادعائه النبوة في الأندلس مع ظهور المقنع بخراسان الذي ادعى الألوهية، والغريب في الأمر هو التواقت أيضاً في القضاء عليهما. أولهما قضى عليه عبد الرحمٰن الأموي، والآخر موسى الهادي العباسي.

وفي سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٧م) عبر عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري، «المعروف بالصقلبي»، وإنما سمي به لطوله وزرقته وشقرته، من أفريقية إلى الأندلس محارباً لهم ليدخلوا في الطاعة للدولة العباسية، وكان عبوره في ساحل (تدمير)[2]. وكاتب سليمان بن يقظان بالدخول في أمره، ومحاربة عبد الرحمٰن الداخل والدعاء إلى طاعة المهدي، وكان سليمان ببرشلونة، فلم يجبه، فاغتاظ عليه وقصد بلده فيمن معه من البربر، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تدمير، وسار الأمير عبد الرحمٰن نحوه في العدد والعدة، وأحرق السفن تضييقاً على الصقلبي في الهرب، فقصد الصقلبي جبلاً منيعاً بناحية بلنسية، فبذل عبد الرحمٰن ألف دينار لمن أتاه برأسه، فاغتاله رجل من البربر، فقتله وحمل رأسه إلى عبد الرحمٰن فأعطاه ألف دينار، وكان قتله سنة **(١٦٢هـ/ ٧٧٩م)**.

وفي هذه السنة ذاتها (١٦٢هـ)، أرسل عبد الرحمٰن قوة مقاتلة بقيادة شهيد بن

---

(١) **الكامل في التاريخ** (ابن الأثير) أحداث السنوات المذكورة.

(٢) **تدمير**: من نواحي «كور» الأندلس الشرقية، وتسمى أيضاً مصر، لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها فتزرع كما تزرع أرض مصر، وصارت القصبة (مركز الناحية) بعد تدمير مدينة «مرسية»، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها. وفي كورة تدمير حجر المغناطيس الجاذب للحديد، ومعادن الفضة كثيرة في كورة تدمير. (**نفح الطيب** ١/ ١٦٤ و٢٣٧).

عيسى لقتال دمية الغساني الذي كان عاصياً في بعض حصون (إلبيرة)[1] فقتله، وسير بدراً مولاه إلى إبراهيم بن شجرة البرلسي، وكان قد عصي فقتله، وسير أيضاً تمامة بن علقمة إلى العباس البربري، وهو في جمع من البربر، وقد أظهر العصيان، فقتله أيضاً وفرَّق جموعه. وفيها سير جيشاً مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السلمي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمٰن أمير الأندلس، فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سكر منه، فمنعه الحرس فعاد، فلما صحا خاف فهرب إلى طليطلة، فاجتمع إليه كثير ممن يريد الخلاف والشر، فعاجله عبد الرحمٰن بإنفاذ الجيوش إليه، فنازله في موضع قد تحصن فيه وحصره، ثم إن السلمي طلب البراز فبرز إليه مملوك أسود فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين، ثم ماتا جميعاً.

كان من أبرز الثورات المضادة للأمير عبد الرحمٰن في سنة (١٦٣هـ/ ٧٨٠م) ثورة «سرقسطة»[2] بقيادة سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان[3]، فوجه الأمير عبد الرحمٰن إليهما جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد، فقاتلهما ثعلبة قتالاً شديداً، وفي بعض الأيام عاد إلى مخيمه فاغتنم سليمان غرته فخرج إليه وقبض عليه وأخذه، وتفرَّق عسكره.

وكان سليمان هذا على اتصال بملك الفرنج «شارلمان»، فحاول على ما يظهر الكتابة للأمير عبد الرحمٰن من أجل مساومته وخداعه، فأجابه عبد الرحمٰن على رسالته برسالة جاء فيها: «أما بعد! فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف

---

(١) **إلبيرة** Elvira: بلدة قريبة من ساحل البحر في الأندلس، وكانت مملكة جليلة بين مملكتي قرطبة والمرية، ومملكتي جيان ومالقة، وهي كثيرة الكتان والأشجار والأنهار، كما كانت قاعدة المملكة في القديم، ولها ذكر شهير ومحل عظيم إلا أن رسمها قد طمس، ولم يبق منها إلا بعض أثر، وصارت غرناطة كرسياً. (**المغرب في حلى المغرب** ٣/ ٩١ ـ ٩٣، ومعجم البلدان ٢/ ٣٣٠).

(٢) **سرقسطة**: مدينة بناها القيصر أغسطس فحملت اسمه (Augusta Ceasar) عام (٣٣ق.م) على أنقاض مدينة إيبيرية اسمها (سلدوبا Selduba). وقيل إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة فاستعذبه وسأل عن اسمه، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام. وتقع سرقسطة على نهر إبرة يشتق منه نهر جلق Gallego جارياً إلى الشمال، بينما يسير نهر شالون Jalon وهرفا Huerva إلى الجنوب. وكان استيلاء موسى بن نصير عليها سنة (٩٤هـ/ ٧١٢م) وأصبحت عاصمة للثغر الأعلى. (**معجم البلدان** ٥/ ٧١، **والحلل السندسية** ١/ ١١٩ و٢/ ١٩١، **والمغرب في حلى المغرب** ٢/ ٤٣٤).

(٣) جعلها المقري في **نفح الطيب** ٣/ ٤٨ من أحداث سنة (١٥٧هـ)، وابن الأثير ٥/ ٦٤ من أحداث (١٦٤هـ).

عن جادة الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأزوين بنانها عن رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد».

وفي السنة التالية (سنة ١٦٤هـ/ ٧٨١م) استدعى سليمان ملك الفرنج «شارلمان» ليستعين به على عبد الرحمٰن، ووعده بتسليمه سرقسطة، وأن يسلمه أيضاً قائد عبد الرحمٰن «ثعلبة». وأسرع ملك الفرنج لاغتنام هذه الفرصة، ولكن الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان بن عبادة الخزرجي استصعب خيانة المسلمين والتعاون مع أعدائهم، فأسرع إلى سرقسطة وقاد المقاومة فيها. ودارت معارك ضارية لم يتمكن خلالها شارلمان من فتح سرقسطة، وقتل سليمان بن يقظان، الأعرابي الكلبي، رأس الفتن.

ويظهر أنه حدث، خلال تلك الفترة، أن قام الساكسون بالزحف في شمال بلاد الغال (فرنسا) ما اضطر شارلمان إلى الانسحاب وحمل معه ثعلبة بن عبيد، قائد عبد الرحمٰن، والذي كان أسيراً في قبضة سليمان المقتول.

أما عبد الرحمٰن الداخل، فنظم قواته وسار إلى سرقسطة عندما بلغه تقدم شارلمان، بعد أن وزع مجموعات قتالية بقيادة أولاده في الجهات المختلفة لتدمير كل قوات متمردة، على أن يتم الاجتماع بعد ذلك في سرقسطة، وسبقهم عبد الرحمٰن إليها، فوجد أن الحسين بن يحيى قد فزع من قتل سليمان بن يقظان، وانفرد بحكم سرقسطة متابعاً تمرده، فما كان من عبد الرحمٰن إلا أن ضيَّق عليه تضييقاً شديداً، وأتاه أولاده من النواحي ومعهم كل من كان متمرداً، وأخبروه عن طاعة غيرهم، فرغب الحسين في الصلح وأذعن للطاعة، فأجابه عبد الرحمٰن وصالحه، وأخذ ابنه سعيداً رهينة ورجع عنه. وغزا بلاد الفرنج، فدوَّخها، ونهب وسبى وبلغ «قلهرة»[1]، وفتح مدينة فكيرة، وهدم قلاع تلك الناحية، وسار إلى «البشكنس»[2] ونزل على حصن «مثمين» الأقرع فافتتحه، ثم

---

(١). **قلهرة** Calahoria: غرب نطيلة على نهر إبرة (وفي البيان المغرب ٢/ ٢٦٧: وكان شانجه قد اتخذه معقلاً ومسكناً).

(٢) **البشكنس** Les Basques: قوم كانوا يسكنون في جبال البرتات «البيرنة» جنوب فرنسا وشمال الأندلس. وتزوج الحكم بن الناصر منهم بالسيدة صبح البشكنسية التي كان لها دور كبير في إدارة الدولة. ومن أشهر مقاطعاتها إلبة (Alpa أو Alava). وقد عرف عن البشكنس عنادهم وشدة بأسهم ونزوعهم القوي إلى الحرية، وهذا ما كان يجعلهم عبر التاريخ، في القديم والحديث، في حالة ثورة دائمة.

تقدم ملاوثون بن أطلال، وحصر قلعته، وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربها ثم رجع إلى قرطبة، ولم يكد يبلغها حتى علم بنشوب الفتنة بين بربر بلنسية وبربر شنت بريه، ووقوع معارك طاحنة بين الطرفين قتل فيها خلق كثير من الطائفتين.

وعمل عبد الرحمٰن بعد ذلك على الاتصال بملك الفرنج وطلب إليه إطلاق سراح قائده «ثعلبة»، فعمل شارلمان على إطلاق سراحه وإرساله إلى قرطبة. غير أن الحسين بن يحيى لم يلبث أن غدر بوعده، ونكث بعهده، فأعلن التمرد من جديد بسرقسطة، فما كان من الأمير عبد الرحمٰن إلا أن وجه جيشاً بقيادة «ثمامة بن علقمة» في سنة (١٦٥هـ/ ٧٨٣م)، فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستطاع ثمامة أسر جماعة من أصحاب الحسين فيهم ابنه يحيى، فسيرهم إلى الأمير عبد الرحمٰن، فقتلهم، وأقام ثمامة بن علقمة على الحسين يحصره.

ثم إن الأمير عبد الرحمٰن سار سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٣م) إلى سرقسطة بنفسه فحصرها وضايقها، ونصب عليها من المجانيق ستة وثلاثين منجنيقاً، فملكها عنوة، وقتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل سرقسطة ليمين تقدمت منه، ثم ردَّهم إليها.

ويذكر أنه لما فتح الداخل سرقسطة، وحصل في يده ثائرها الحسين الأنصاري، وشدخت رؤوس وجوهها بالعمد، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله، أقبل خواصه يهنئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند، فهنأه بصوت عالٍ، فقال: **والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ فيه من النعمة من هو فوقي، فأوجب عليَّ ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني، لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال. من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة.** فقال: ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى. فتهلل وجه الأمير، وقال: ليس هذا باعتذار جاهل. ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها، ورفع مرتبته، وزاد في عطائه»[1].

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٤١، ٤٢.

جاءت **سنة** (١٦٨هـ/ ٧٨٥م) بعد ذلك، فحملت معها ثورة «أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري»، وقد سبق الحديث أنه كان في سجن عبد الرحمٰن بقرطبة من حين هرب أبوه وقتل أخوه عبد الرحمٰن سنة (١٤١هـ/ ٧٥٨م) وحبس أبو الأسود وتعامى في الحبس، فصار يحاكي العميان ولا يطرف عينه لشيء، وبقي دهراً طويلاً حتى صح عند الأمير عبد الرحمٰن الأموي ذلك. وكان في أقصى السجن سرداب يفضي إلى النهر الأعظم يخرج منه المسجونون فيقضون حوائجهم من غسل وغيره. وكان الموكلون يهملون «أبو الأسود» لعماه، فإذا رجع من النهر «الوادي الكبير» يقول: من يدل الأعمى على موضعه. وكان مولى له يحادثه على شاطئ النهر لا ينكر عليه، فواعده أن يأتيه بخيل يحمله عليها، فخرج يوماً ومولاه ينتظره، فعبر النهر سباحة وركب الخيل ولحق بطليطلة، فاجتمع له خلق كثير، فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمٰن الأموي، فالتقيا على الوادي بقسطلونة[1]، واشتد القتال ثم انهزم أبو الأسود وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردى في النهر، واتبعه عبد الرحمٰن الداخل يقتل من لحق حتى جاوز قلعة رباح[2].

ثم جمع وعاد إلى قتال عبد الرحمٰن في سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٦م)، فلما أحسَّ بقدوم عبد الرحمٰن انهزم أصحابه وهو معهم، فأخذ عياله وقتل أكثر رجاله، وبقي إلى سنة (١٧٠هـ)، فهلك بقرية من قرى طليطلة، وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمعاً، فغزاه الأمير عبد الرحمٰن، فجاء إليه بغير أمان فقتله.

وتصادف في سنة (١٦٨هـ) أيضاً أن هلك شيلون، ملك جيليقية، فولَّوا مكانه ألفونسو، فوثب عليه «مورقاط» فقتله. واجتاحت الاضطرابات ممكلة جيليقية، وأفاد عبد الرحمٰن الداخل من ذلك، فوجه إليها نائبه «أمير طليطلة» فقتل وغنم وسبى ثم عاد سالماً.

وفي هذه السنة ذاتها (١٧٠هـ/ ٧٨٧م) ثار البرابر (برابر نفزة) فوجه عبد الرحمٰن جيشاً لقتالهم فأذلهم وقتل فيهم. وبذلك **استطاع عبد الرحمٰن قمع**

(١) **قسطلونة** (هكذا جاءت في **الكامل** ـ ابن الأثير ـ أحداث سنة ١٦٨هـ)، وهي في **نفح الطيب** ١/ ١٦٥ قسطلة Calzalilla: تبعد نحو عشرين ميلاً إلى الشمال من جيان، والتي تقع بدورها على بعد ٩٧ كيلومتراً شمالي غرناطة، فتكون على بعد ١٢٥ كيلومتراً تقريباً إلى الشمال من غرناطة.

(٢) **قلعة** رباح: مدينة تابعة لطليطلة، وموضعها يسمى اليوم Castillo De Caltarava La Vieja وكان لها دور كبير في أعمال التمرد بسبب موقعها المنيع. **نفح الطيب** ١/ ١٦٦.

كل الثورات وأعمال التمرُّد، حتى لم يبق في الأندلس من ينازعه، وحتى أصبح باستطاعة أندلس الأمويين أن تنعم بالاستقرار.

وقد يصاب الإنسان بالذهول وهو يطالع قصة الصراع المرير الذي خاضه عبد الرحمٰن على امتداد اثنين وثلاثين عاماً، ما تعب فيها ولا وهن؛ ففي كل عام ثورة، وفي كثير من الأحيان كانت هناك أكثر من ثورة في أكثر من ولاية أو إقليم، وقد يكون ذلك طبيعياً لأسباب ثلاثة؛ فقد توافرت عوامل الثورة في الأندلس ذاتها بحكم تعدد مراكز القوى وتنافرها أولاً، كما توافرت عوامل التحريض على الثورة من الجنوب حيث أنصار العباسيين، ومن الشمال حيث الكارولنجيين «بيبان وشارلمان».

والغريب في الأمر هو توافر الروح الثورية بمثل تلك القوة، إذ ما يكاد يظهر زعيم للثورة في أي منطقة (وفقاً لما سبق عرضه) حتى تنثال جموع الثائرين الحاقدين من كل مكان، ويؤكد ذلك صعوبة الصراع المرير الذي خاضه الأمير عبد الرحمٰن الداخل حتى استطاع قمع الثورات، وحتى أمكن له تكوين قناعات لدى مراكز القوى بعجزها عن مجابهته.

٧ ـ الحزم في بناء الدولة

لقد توافرت للأمير عبد الرحمٰن الداخل مجموعة من الصفات القيادية التي أبرزتها أعماله، بحسب ما سبق ذكره، وهي الصفات التي ورد بعضها في مقدمة الكتاب، والتي يمكن إكمالها وفقاً لما أوردته المصادر التاريخية بما يلي:

«كان عبد الرحمٰن ثاقب الفهم، بريئاً من العجز، سريع النهضة متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان، يخطب على المنبر ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم، إلى أن حضر يوماً جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال: أصلح الله الأمير، إن قاضيك ظلمني وأنا أستجيرك من الظلم. فقال له: تنصف إن صدقت. فمدَّ الرجل يده إلى عنانه وقال: أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي، فإنه معك. فوجم الأمير والتفت إلى مَن حوله من حشمه، فرآهم قليلاً، ودعا بالقاضي، وأمر بإنصافه، فلما عاد إلى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى، ومما قيل له: إن هذا الخروج الكثير، أبقى الله تعالى الأمير، لا يجمل بالسلطان العزيز، وإن عيون العامة تخلق تجلته، ولا تؤمن بوادرهم عليه، فليس الناس كما عُهدوا. فترك الأمير من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل، ووكل بذلك ولده هشاماً».

عندما استقر ملك الأمير عبد الرحمٰن، استحضر الوفود إلى قرطبة، فانثالوا عليه، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم، مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين، يتدارسون كلامه، ويتهافتون بشكره، ويتهانون بنعمة الله تعالى عليهم فيه.

وفي بعض مجالسهم هذه مَثَلَ، أو حضر، بين يديه رجل من جند قنسرين، يستجديه. فقال له: «يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم ودهر غشوم، قلل المال وكثرة العيال وشعث الحال، فصير إلى نداكَ المال، وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد».

فقال له عبد الرحمٰن مسرعاً: «**قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودن ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطلبة. وإذا ألمَّ بك خطب أو حزبك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلتك، وتكف شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية**»[1]. وأمر له بجائزة حسنة، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه، وبراعة أدبه. وكفَّ فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه.

ولما استقامت الدولة للأمير عبد الرحمٰن، بلغه عن بعض من أعانه أنه قال: «لولا أنا ما توصل لهذا الملك، ولكان منه أبعد من العيوق». وأن آخر قال: «سعده أعانه لا عقله وتدبيره». فحرَّكه ذلك إلى أن قال شعراً رد فيه على المقولتين، وذكر لهم أن حزمه وعقله هما اللذان أوصلاه إلى ما يريد[2].

وكان عبد الرحمٰن الداخل يرتاح لما استقر سلطانه بالأندلس، إلى أن يفد عليه فَلُ بيته بنو مروان حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه، وتظهر يده عليهم. ويحكى أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام، حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من «الغمر بن يزيد بن عبد الملك» أيام محنتهم، وكلامه لعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، الساطي بهم، وقد حضروا رواقه وفيه

---

(١) **نفح الطيب ٣/ ٣٧ و٣٩، و٤٢، ٤٣.**

(٢) كان مما قاله عبد الرحمٰن في شعره:

لا يـلـف مـمـتـن عـلـيـنـا قـائـل	لـولاي مـا مـلـك الأنـام الـداخـلُ
سـعـدي وحـزمـي والـمـهـنـد والـقـنـا	ومـقـادر بـلـغـت وحـال حـائـلُ
إن الـمـلـوك مـع الـزمـان كـواكـب	نـجـم يـطـالـعـنـا ونـجـم آفـلُ
والـحـزم كـل الـحـزم أن لا يـغـفـلـوا	أيـروم تـدبـيـر الـبـريـة غـافـلُ
ويـقـول قـوم سـعـده لا عـقـلـه	خـيـر الـسـعـادة مـا حـمـاهـا الـعـاقـلُ
أبـنـي أُمـيـة قـد جـبـرنـا صـدعـكـم	بـالـغـرب رغـمـاً والـسـعـود قـبـائـلُ
مـا دام مـن نـسـلـي إمـام قـائـم	فـالـمـلـك فـيـكـم ثـابـت مـتـواصـلُ

وجوه المسودة «العباسيين» من دعاة القوم وشيعتهم، حيث عمل الغمر على مجابهة عبد الله وردَّ عليه فيما أراقه من دماء بني أُمية، وثلبهم والبراءة منهم، وكيف أن «الغمر» لم تردعه هيبة خصمه عبد الله كما لم يضعف من عزمه قوة خصمه، فوقف لمعارضته والرد عليه وتفضيله لأهل بيته ـ الأمويين ـ والدفاع عنهم.

وأنه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصه بريقه، ما عاجل الغمر بالحتف، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام. وكثر القوم في تعظيم ذلك، إلا أن عبد الرحمٰن الداخل احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوهم، والأنف من طاعتهم، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه، وقام من مجلسه فصاغ بعضاً من الشعر أشاد فيه بما أنجزه، وعبر فيه عن مشاعره تجاه ما قام به قريبه «الغمر الأموي»[1].

وكان عبد الرحمٰن الداخل يقول: «**أعظم ما أنعم الله تعالى به علي، بعد تمكني من هذا الأمر، القدرة على إيواء من يصل إلي من أقاربي والتوسع في الإحسان إليهم، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لأحد غيره**».

ولكن ماذا كان موقف أهله منه؟ هناك من اعترف للأمير عبد الرحمٰن الداخل بالفضل، وبذل قصارى جهده لدعمه وتأييده، مثل ابن عمه عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، الذي سبق ذكره في قتال اليمانية وقتله لابنه أُمية لأنه تراجع في القتال، ومنهم من بادل الأمير عبد الرحمٰن وفاء بغدر مثل ابن أخيه المغيرة بن الوليد، كما كان لعبد الرحمٰن الداخل مواقف مشهورة ممن ساندوه ودعموه في

---

(1) كان مما قاله الداخل. (نفح الطيب ٣/ ٣٨، والحلة السيراء ١/ ٣٩).

شتان من قام ذا امتعاض	منتضي الشفرتين نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً	مسامياً لجة ومحلا
دبر ملكاً وشاد عزاً	ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أردى	ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله إليه	حين انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع	شديد روع يخاف قتلا
فنال أمناً ونال شبعاً	ونال مالاً ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا	أعظم من منعم ومولى

بداية الأمر، ثم لم يلبث أن بطش بهم الواحد بعد الآخر، وذلك كلما أنس من أحدهم غروراً أو مطاولة أو عرف فيهم غدراً أو نزوعاً لمنافسته على السلطة.

وقد يكون من المناسب استقراء بعض قصصهم بشيء من الإسهاب، وفقاً لما ذكرته المصادر التاريخية.

أ ـ عبد الرحمٰن وابن أخيه المغيرة

وفد إلى الأندلس، فيمن وفد إليها، بعد أن استقر الأمير عبد الرحمٰن الداخل فيها، من الأمويين، الوليد بن معاوية، ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، أخو الأمير الداخل، ومعه ابنه المغيرة، وكذلك ابن عمه عبد السلام بن يزيد بن معاوية بن هشام (المعروف باليزيدي) وكذلك أيضاً عبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام، وهو ابن أخي الداخل. وما كاد هؤلاء يستقرون في الأندلس، بعد أن أكرم الداخل وفادتهم، حتى بدؤوا في التآمر ضده والسعي في طلب الأمر لأنفسهم، وقد ظهرت مؤامرة المغيرة بن الوليد بن معاوية سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م)، وعرف الأمير عبد الرحمٰن بالأمر، فلم يلبث أن تربص به حتى قتله في السنة التالية (١٦٧هـ/ ٧٨٣م).

وقد ذكرت المصادر العربية، عن أحد موالي عبد الرحمٰن الخاصين به، أن هذا المولى دخل على عبد الرحمٰن إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور وهو مطرق شديد الغم، فرفع رأسه إلى مولاه وقال له: «ما عجبي إلا من هؤلاء القوم. سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة، وخاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسر الله تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف. ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا، وردت عليهم أخلاف النعم هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء ظنه فينا، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما علي في ذلك أخي، والد هذا المخذول، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره؟ اخرج له الساعة فاعتذر إليه، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه، واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدوة».

وخرج مولى عبد الرحمٰن لتنفيذ مهمته التي وصفها بقوله: «لما وصلت إلى أخيه ـ يعني: الوليد ـ وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء، فآنسته وعرفته، ودفعت له المال، وأبلغته الكلام. فتأوه وقال: إن المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية، وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معرة الزمان وكلَّه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا مرد لما حكم به وقضاه».

ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بر العدوة ـ المغرب حالياً ـ قال المولى: ورجعت إلى الأمير عبد الرحمٰن فأعلمته بقوله. فقال: «إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عف عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، وأذلهم بما نووه فينا».

وأما بالنسبة لمؤامرة عبد السلام بن يزيد بن هشام، المعروف باليزيدي، وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام ـ ابن أخي الداخل أيضاً ـ فقد استطاع عبد الرحمٰن اكتشافها عن طريق مولى لعبيد الله بن أبان في سنة (١٦٣هـ/ ٧٧٩م). وظهر للأمير عبد الرحمٰن أن «أبو عثمان» (عبيد الله بن عثمان) أول من ناصر عبد الرحمٰن ومهَّد له الدخول إلى الجزيرة وحارب إلى جانبه، حتى تم له النصر، وعمل إلى جانبه حتى أصبح من كبار الدولة.

وتذكر المصادر التاريخية قصة العلاقة بين عبد الرحمٰن و«أبو عثمان» هذا كالتالي: «لما توطدت دولة الداخل استغنى عبد الرحمٰن عن أبي عثمان وعن أمثاله، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره وينظر في شيء يحتاج به إليه، فجعل ابن أخته ـ أي: ابن أخت أبي عثمان ـ يثور عليه في حصن من حصون إلبيرة، فوجه عبد الرحمٰن من قبض عليه وضرب عنقه.

ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخي الداخل، عبيد الله بن أبان، وزين زين له القيام عليه، فسعى لعبد الرحمٰن بابن أخيه قبل أن يتم أمره، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه، وقيل له: «إن أبا عثمان كان معه، وهو الذي ضمن له تمام الأمر». فقال: «هو أبو سلمة هذه الدولة[1]، فلا يتحدث الناس عنه بما

---

(١) يشير إلى أبي سلمة الخلال، الذي كان يلقب وزير آل محمد، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة. **نفح الطيب ٣/ ٤٤ ـ ٤٧**.

تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة، لكن سأعاتبه عتباً أشد من القتل، وجعل يوعده، ثم رجع له إلى ما كان عليه في الظاهر».

ويذكر هنا أن عبد الله بن خالد، صهر «أبو عثمان عبيد الله بن عثمان» كان ثاني الرجلين اللذين قاما بالتمهيد لقيام حكم عبد الرحمٰن الداخل ونصرته وتأييده، ولم يكن نصيبه بأفضل من نصيب «أبو عثمان»، وذكر أن **عبد** الله بن خالد هذا، كان قد ضمن لـ«أبو الصباح»، «يحيى بن يحيى اليحصبي» رئيس اليمانية، بالنيابة عن الداخل أشياء لم يف بها الداخل، وقتل «أبو الصباح»، فانعزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته، فمات منفرداً عن السلطان.

وكان الرجل الثالث في نصرة الأمير عبد الرحمٰن، على نحو ما سبق ذكره، هو تمام بن علقمة، وهو الذي عبر إليه البحر إلى المغرب ورافقه في رحلته إلى الأندلس وقاتل إلى جانبه. ولكن عبد الرحمٰن أقدم على قتل ولد تمام المذكور عندما أعلن تمرُّده، وكذلك فعل بولد «أبو عثمان» المتقدم الذكر، فذاقا من ثكل ولديهما على يدي أعز الناس عليهما ما أراهما أن أحداً لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته، ويصبح من الطبيعي بعد ذلك أن يتوجس الأمير عبد الرحمٰن من كل طامع حوله، وأن يقمع بدون هوادة كل مدل عليه بالفضل، ولعل قصته مع مولاه بدر أفضل نموذج لسلوك الأمير عبد الرحمٰن تجاه خاصته.

ب ـ عبد الرحمٰن ومولاه بدر

صحب بدر الأمير عبد الرحمٰن طوال رحلته الشاقة، وسعى في تكميل دولة عبد الرحمٰن من ابتدائها إلى استقرارها، ثم صحبه عجب وامتنان كادا يردان به حياض المنية، فأول ما بدأ به أن قال: بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله.

وقال، وقد أمره بالخروج إلى غزاة: إنما تعبنا أولاً لنستريح آخراً، وما أرانا إلا في أشد مما كنا. وأطال أمثال هذه الأقوال، وأكثر الاستراحة في جانبه، فهجره وأعرض عنه، فزاد كلامه، وكتب له رقعة منه، جاء فيها: «أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذني، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني

على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

فلما وقف الأمير عبد الرحمٰن على رقعته اشتد غيظه عليه، فوقع عليها بالرسالة التالية: «**وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أربك ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك، فلعل ذلك يقمع منك ويردعك حتى تبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثالبنا وخيرك معدود في مناقبنا**».

فلما ورد هذا الجواب على بدر سقط في يده وسلم للقضاء، وعلم أنه لا ينفع فيه قول. ووجه عبد الرحمٰن من استأصل ماله وألزمه داره، وهتك حرمته وقصَّ جناح جاهه، وصيَّره أهون من قعيس على عمته، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه، تارة يستلينه وتارة يذكره، وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه، غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: «قد طال هجري، وتضاعف همي وفكري، وأشد ما عليَّ كوني سليباً من مالي، فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي، وأتحد به في معزل، لا أشتغل بسلطان، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت».

فأجابه الأمير عبد الرحمٰن: «**إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك، لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى رد مالك، فإن تركك بمعزل في بلهينة الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك، فإن اليأس مريح**».

فسكت بدر لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به، وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه في ذلك رقعة منها: «وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك، ممن عفوت عنه، فتبنَّكَ النعمة في ذَراك، واقتعدَ ذِرْوَةَ العز، وأنا على ضد من هذا، سليباً من النعمة، مُطَّرَحاً في حضيض الهوان، أيأس مما يكون، وأقرع السن على ما كان».

فلما قرأ الأمير عبد الرحمٰن هذه الرقعة، أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى

الثغر، وكتب له على ظهر رقعته: «**لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر، فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك**»[(١)].

يظهر ذلك السبب الذي دفع الأمير عبد الرحمٰن لإدارة حكم الأندلس بمركزية قوية، وعدم الاعتماد على عناصر ثابتة في خدمته حتى لا يستطيع هؤلاء تشكيل مراكز للقوى، يمكن لها إفساد ما كان يدبره الأمير عبد الرحمٰن في شؤون دولته. وهكذا، فبينما كان تمام بن علقمة هو أول حجاب الداخل (ذي العمر الطويل)، فقد استخدم عبد الرحمٰن بعد ذلك يوسف بن بخت الفارسي، مولى عبد الملك بن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران، من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني، ثم عبد الرحمٰن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، وأباه مغيث الرومي (فاتح قرطبة) ثم منصور الخصي، وكان أول خصي استحجبه بنو مروان بالأندلس، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل.

ولم يكن للداخل من ينطلق عليه تسمية وزير، لكنه عين أشياخاً للمشاورة والمؤازرة، أولهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، وأبو عبدة صاحب إشبيلية، وشهيد بن عيسى بن شهيد، مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وكان من سبي البربر، وقيل إنه رومي، وبنو شهيد الفضلاء من نسله، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجذامي، صاحب سرقسطة لعبد الرحمٰن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته، وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة.

أما أول من كتب له عند خلوص الأمر إليه واحتلاله بقرطبة كبير نقبائه أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر، ثم لزم كتابته أُمية بن يزيد، مولى معاوية بن مروان، وكان في عديد من يشاوره أيضاً ويفضل أمره وآراءه، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري، وقيل: إنه ممن اتهم في ممالأة اليزيدي في

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٤٠، ٤١.

إفساد دولة عبد الرحمٰن، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمٰن على الأمر..

وألفى الداخل عندما استقر له الأمر، أن يحيى بن يزيد اليحصبي كان على قضاء الجماعة، فأقره حيناً، ثم ولى بعده «أبو عمرو معاوية بن صالح الحمصي»، ثم عمر ابن شراحيل، ثم عبد الرحمٰن بن طريف، وكان جدار بن عمرو يقضي في العساكر.

الأمر الواضح بعد ذلك هو أن بطش الأمير عبد الرحمٰن بخصومه كان مقنناً بأحكام، وكان أيضاً عطاؤه لحلفائه وأصدقائه مقنناً، فهو يعطي بقدر ما يريد ويمنع بقدر ما يريد، وفي الحالين يلتزم بمبدأ الثواب والعقاب على قدر العمل، وهو يترك أكثر من فرصة لخصومه إلى درجة المنافسة والمطاولة حتى ينازلهم بدون أدنى شفقة أو رحمة حتى يبيدهم ويستأصل شأفتهم.

ولقد غضب على مولاه بدراً، وعاقبه، وكان عقابه متدرجاً في القسوة والشدة، فمع كل زيادة كان يزيدها بدر، كان الأمير عبد الرحمٰن يزيده من القصاص حتى وصل به الأمر إلى نبذه في أقصى جنوب الأندلس إلى أن مات. كما أن موقفه من أولئك الذين دعموه في البداية، ثم قلبوا له ظهر المجن بقي مرتبطاً بعامل الوفاء لهم، فهو يرفض سلوك مسلك العباسيين مع «أبو سلمة الخلال»، ويرفض تلويث صفحته القيادية بدماء من كانوا أنصاراً له بالأمس، إلا أنه لا يتساهل بشأنهم، فهو يقتل أبناءهم المتمردين عليه، ولا يأخذهم بجريرة أبنائهم، ولكنه في الوقت ذاته يبعدهم عنه، إذ إنه يعرف بأنه من المحال على هؤلاء نسيان ثاراتهم لأبنائهم، ولهذا فهو يستغني عن خدماتهم ويستكفي بمن هم أصدق ولاء منهم، وأكثر تأييداً لحكمه.

والأمر الواضح أيضاً، أن أولئك الذين دعموه وأيدوه كانو يظنون أن بناء الدولة ينتهي عند إقامتها، ولهذا فإنهم تعبوا مع عبد الرحمٰن الذي عرف أن بناء الدولة لا يبدأ إلا بتحقيق الاستقرار لها، وكانت هذه النقطة هي نقطة الخلاف مع بدر الذي أراد الركون إلى الراحة والتنعم بمباهج الحكم، فكان أن نبذه عبد الرحمٰن وأبعده، أما أولئك الذين دعموا عبد الرحمٰن وأيدوه ظناً منهم أن باستطاعتهم التحكم بأمر هذا الشاب، فإن ظنونهم خابت، وعرف عبد الرحمٰن كيف يتعامل معهم وكيف يعاملهم، فكان في ذلك نصره وهلاكهم.

٨ ـ الحرب والحضارة

توجه الأمير عبد الرحمٰن (صقر قريش) إلى الأندلس ومعه حصالة ضخمة من التجارب في مجالي الحرب وبناء الدولة، ولهذا فقد توجه بجهده لإقامة الدولة على الأسس الحضارية التي قامت بها دولة الأمويين في بلاد الشام، وقد اتخذ في ذلك من جده الأعلى «معاوية بن أبي سفيان» إماماً، وجعل من أعماله نبراساً يهتدي بهداه ويحتذي حذوه.

وكان قد مضى على الفتح، عندما دخل عبد الرحمٰن الأندلس، زهاء نصف قرن تقريباً، وعلى الرغم من ذلك فقد صدمه عدم الانتظام في كيان الدولة، وهو ما أبرزته المقولة التاريخية (التي وردت في المقدمة) وفيها: «ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، فأرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحنكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب، فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة... وبدأ فدوَّن الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك، وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقل له الأمر فيها».

ويمكن على أساس هذه «العموميات» الانطلاق إلى أعمال الأمير عبد الرحمٰن في الاتجاهات المختلفة، وأبرزها:

أ ـ السياسة الاستراتيجية للأمير عبد الرحمٰن الداخل.

ب ـ التنظيم الدفاعي للبلاد.

جـ ـ الاعتماد على الجيش العامل وتنظيمه.

وفي مجال البناء الحضاري، وعلاوة على ما سبق ذكره من التنظيمات الإدارية والتعريب، فإنه قد يكون من المناسب التوقف عند ظاهرتين حضاريتين لازالتا قائمتين أمام أنظار الدنيا وهما جامع قرطبة والرصافة.

أ ـ السياسة الاستراتيجية (الأحلاف)

لقد سبق الحديث عن موقف بلاد الغال «فرنسا» خلال مرحلة حكم الولاة المسلمين للأندلس، والمهم في الأمر هو أن الإمارات في البروفانس وسبتمانيا[1]، شعرت بضعف الحكم الإسلامي في الأندلس وتمزُّقه، فأخذ الأمراء المحليون (كونتات) في نيم والمدن المجاورة وفي بيزيه وماغلون في تنظيم إدارة محلية مستقلة مع بقاء الاعتراف بسيادة المسلمين ودفع الجزية لهم.

وفي عام (١٣٠هـ/ ٧٤٧م)، وجَّه يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري قوة إلى البيرينه بمهمة متابعة الفتح، لكن قوات الفرنج جابهت المسلمين وقاومتهم بعناد. ونظراً لصعوبة الاتصال بين العاصمة، قرطبة، وبين ناربون (أربونة)، وبصورة خاصة في فصل الشتاء، فقد اضطر المسلمون للتراجع، وبدأت حركات التمرد ضد المسلمين، لكن النزاع بين بيبان بن شارلمان وبين فيفر[2] ابن دوق أكيتانيا حول حكم سبتمانيا، وضع حداً مرحلياً للانتقاض ضد المسلمين.

وفي عام (١٣٥هـ/ ٧٥٢م)، سار بيبان بجيش كبير فاستولى على نيم وأوقت وماغلون وبيزيه، وسيطر على اللانغدوك[3]، ثم تابع تقدُّمه حتى وصل ناربون، فتصدَّت له الحامية الإسلامية وقاومته بضراوة، فضرب حصاراً حولها، وطال أمد الحصار حتى يئس بيبان من فتحها، فترك قوة لمحاصرتها بقيادة قائد من أمراء القوط هو «أنسينوندس»[4]، لكن هذه القوة لم تنجح في إخضاع مقاومة حامية «ناربون». وطال أمد الحصار لمدة سبع سنوات، وكانت الاتصالات الخفيَّة مستمرة بين الملك بيبان وبين الأمراء المحليين المتعاونين مع الكارولنجيين، وأمكن من خلال هذه الاتصالات عقد اتفاق للغدر بالمسلمين وإبادتهم، لقاء ترك الحرية لناربون من أجل إقامة حكم محلي تُدار فيه الأمور حسب عادات القوط وتقاليدهم.

---

(١) **سبتمانيا**: الإقليم الذي ضم المدن السبعة الآتية: ناربون ونيم وأوقت وبيزييه ولوديف وكاركاسون وماغلون: Narbonne, Nime, Agde, Beziers, Loodéve, Carcassonne. et Maguelon.

(٢) **فيفر**: Vaifre.

(٣) **اللانغدوك** Languedoc: وهي المقاطعة إلى الشمال من روسيون Roussillon وقاعدتها تولوز، وقد استولت عليها فرنسا سنة ١٢٧١م.

(٤) **أنسينوندس**: Anseniundus.

وفي عام (١٤٢هـ/ ٧٥٩م)، وبينما كانت الحامية الإسلامية في ناربون منصرفة لمتابعة الصراع ضد قوات الفرنج القائمة على الحصار، بوغتت بالسكان المحليين في ناربون وهم يقومون بالانقضاض عليهم. وأُبيدت الحامية الإسلامية، وسقطت ناربون بقبضة بيبان، ولم يبقَ فيما وراء البيرينه سوى أعداد قليلة من المسلمين الذين انتشروا في مقاطعات دوفينيه ونيس أو (نيقية)، وأعاد بيبان تنظيم الأقاليم، فرمَّم الحصون وشحنها بالمقاتلين، وأقام الحاميات على امتداد الرون وفي أكيتانيا وعلى امتداد الحدود.

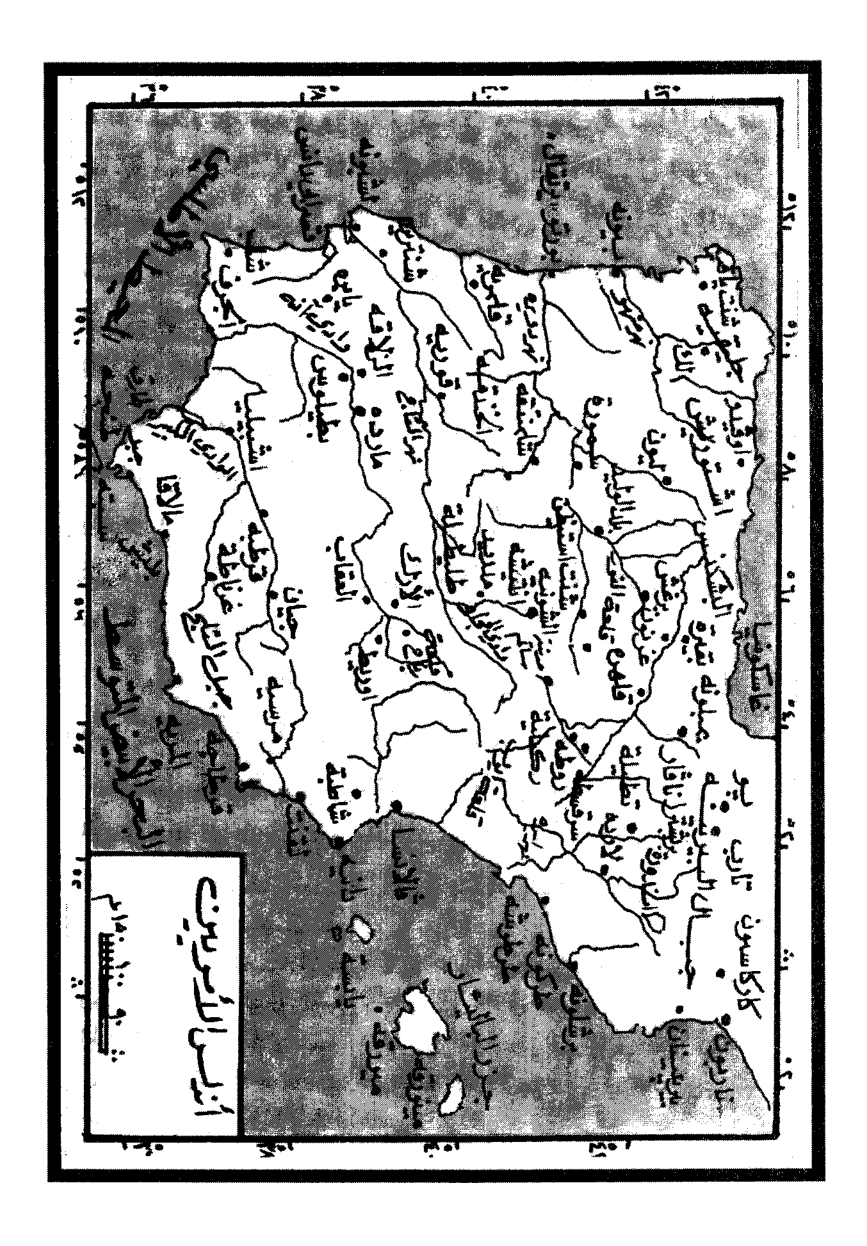
ونتيجة لهذه الانتصارات الموضعية، وبعد أن تمَّ للكارولنجيين توحيد الفرنج تحت قيادة واحدة، لم يعد هناك خطر يتهدد فرنسا، وأصبح باستطاعة بيبان وابنه شارلمان من بعده الانطلاق من مواقع القوة، والاستعانة عند الضرورة بجيوش من بلجيكا وألمانيا وإيطاليا لدعم الجيوش المحلية. وتحوَّل بيبان من خنادق الدفاع إلى خنادق الهجوم، وأخذ بإجراء الاتصالات السرية مع زعماء كاتالونيا وآراغون ونافار، ليوحدوا جهودهم ضد المسلمين وليشكلوا معه حلفاً دفاعياً. ولم يقف نشاط بيبان وابنه شارلمان من بعده عند هذا الحد، بل أخذ في إثارة الفرقة بين أمراء المسلمين وتحريض بعضهم على بعض.

وكان بيبان الحاسم يعتبر سلسلة جبال البيرينه هي الحد الطبيعي الفاصل بين مملكته وبين أندلس الأمويين، وعندما تمَّ له الاستيلاء على ناربون وإجلاء المسلمين من جنوب فرنسا، انصرف لمعالجة هجمات الشمال ومتابعة فتوحاته في اتجاه الشرق، وتوافق ذلك مع دخول عبد الرحمٰن (صقر قريش) إلى الأندلس وإقامته للدولة الأموية والانصراف لتنظيمها، فشهدت الحدود فترة من الهدوء النسبي، وترافق ذلك أيضاً مع نزوح عناصر المقاومة المحلية من النصارى إلى الشمال وتمركزهم في جيليقية حيث الجبال الصعبة والمواقع المنيعة. وقد أفاد هؤلاء من الاضطرابات التي سبقت قيام العهد الأموي ورافقته، فاستولت على براغة وبورتو وفيزو[1]، وسيطرت على الساحل الغربي (البرتغال) حق مصب نهر دورو، وأصبح الإقليم بين الساحل والوادي الجوفي (دورو) خالياً من المسلمين.

---

(١) الأسماء باللغة الأجنبية كما يلي: براغة Braga وبورتو Porto وفيزو Viseu ودورو، أو الوادي الجوفي Duero. وجاء في نفح الطيب ١/ ٣٣٠: أن الجلالقة استولوا خلال هذه الفترة على لك Luco وبرتقال Porto وشلمنقة Salamanca وقشتالة Castillos وشقوبية Secovia... وكلها في شمال غرب شبه جزيرة الأندلس، على المحيط الأطلسي.

وهكذا، وجد الأمير عبد الرحمٰن نفسه أمام موقف صعب، فقد كان عليه مجابهة خطر الفرنج (الكارولنجيين)، علاوة على كيانات نصارى الشمال (أشتورية ونافار وجيليقية)، مما جعل الأمير عبد الرحمٰن يفكر بأسلوب درء خطر هذا العدو المشترك الذي ظهر واضحاً خلال ثورة سليمان الكلبي أمير برشلونة.



وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان أسلوب عبد الرحمٰن الداخل ومركزيته الشديدة وبطشه بكل من ينازعه السلطة، من الأسباب التي أقنعت ضعاف النفوس، بالتعاون مع الكارولنجيين، الذين أظهروا قوة كبرى على تخوم بلادهم.

وقد انتهج بيبان ومن بعده شارلمان أسلوب الاتصال بأمراء مقاطعات الشمال من المسلمين، وأصبح أسلوب الكلبي نموذجاً يحتذيه كل متمرد في الشمال، فإذا حاول أمير المسلمين بقرطبة ممارسة ضغط عليهم هربوا إلى الكارولنجيين أو استعانوا بهم، وإذا لمسوا خطر الكارولنجيين عادوا إلى أمير قرطبة، وقد ساعدتهم طبيعة الإقليم الوعرة على هذا الاستقلال الذاتي، وقام الكارولنجيون بدور كبير في تعزيز هذه النزعة ودعمها.

وكان الأمير عبد الرحمٰن في حاجة لفترة من الهدوء النسبي حتى يستطيع إكمال بنيانه الداخلي. ومقابل ذلك، وجد بيبان (ملك الكارولنجيين) في انقسام الدولة الإسلامية فرصة مناسبة لضرب المسلمين بعضهم ببعض، فأرسل في عام (١٤٨هـ/ ٧٦٥م) وفداً إلى بغداد لعقد أواصر الصداقة، ومكث هذا الوفد في بغداد ثلاث سنين، ثم رجع إلى فرنسا وبرفقته وفد من المسلمين (رسل الخليفة المنصور). وقد لقي الوفد رعاية كبيرة، فتمَّ إنزاله في «متز»[١] باللورين، ثم نُقل إلى قصر «سلس»[٢] على ضفاف اللوار، واستمرت إقامته في فرنسا ثلاثة أعوام.

وكانت الدولة العباسية تحاول باستمرار تحطيم الكيان الأموي بالأندلس، كما كان عبد الرحمٰن الداخل يطمح لاستعادة حكم الأمويين في الشام، وقد عمل لهذا الهدف بصورة جدِّية عام (١٦٣هـ)، واستمر النزاع بين أمراء قرطبة وخلفاء بغداد. ولهذا، وبينما كان خلفاء المشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الكارولنجيين الذين كانوا في حروب مستمرة مع أمراء قرطبة، كان أمراء قرطبة يعقدون معاهدات مماثلة مع ملوك القسطنطينية الذين كانوا بدورهم في حرب مستمرة مع أمراء بغداد. وهكذا انتهى الصراع إلى نشوء محورين متضادين: محور بغداد ـ الكارولنجيين، مقابل محور قرطبة ـ البيزنطيين، كل ذلك والعلاقات التجارية مستمرة في التطور والازدهار، بحيث كانت سفن المسلمين

---

(١) متز .Metz

(٢) سلس .Sels

وأساطيلهم تنقل البضائع من الهند والصين إلى بغداد ففرنسا (مرسيليا وفريجوس) عبر موانئ سوريا ومصر.

والمهم في الأمر هو أن «استراتيجية الأحلاف» قد ساعدت عبد الرحمٰن على تحقيق نوع من الهدوء النسبي على حدود الشمال، وأصبحت سياسة الأحلاف الاستراتيجية هي أساس العلاقات التي بقيت سائدة طوال العهد الأموي في الأندلس.

ب ـ تنظيم الصوائف والثغور

لقد عرف الأمير عبد الرحمٰن يقيناً ذلك التشابه بين الموقع الجيواستراتيجي لبلاد الشام والموقع الجيواستراتيجي للأندلس، وإذا كانت جبال طوروس هي الحد الفاصل بين بلاد الشام والبيزنطيين في الشمال، فقد كانت جبال البيرينه هي الحد الفاصل بين الأندلس الإسلامية والدولة الكارولنجية في الشمال، وهنا وهناك كانت الممرات الإجبارية هي محور التحرُّك للعمليات، والتي سمَّاها العرب المسلمون «الدروب».

ولقد طبَّق العرب المسلمون طوال العهد الأموي استراتيجية ثابتة قائمة على تنظيم الحرب بصورة دائمة، من خلال تنظيم الثغور وتوجيه الصوائف والشواتي، وذلك بهدف إرباك العدو وإشغاله بنفسه وعدم السماح له بالتعرُّض لبلاد المسلمين، وهو ما يشبه اليوم تماماً عمليات الهجوم الإجهاضي المسبق.

وقد حفظت المصادر الأندلسية شواهد كثيرة تؤكد ما أنجزه الأمير عبد الرحمٰن الداخل في هذا المجال، حيث نقل معه خلاصة التجارب القتالية للأمويين في تعاملهم مع الأعداء.

وهكذا، ففي مجال تنظيم الثغور، تمَّ تقسيم مناطق الشمال إلى ثلاثة ثغور (مناطق عسكرية)، أولها: الثغر الأعلى (أو الثغر الأقصى) ويشمل سرقسطة وناحيتها (كورتها). وثانيتها: الثغر الأوسط، ويشمل مدينة سالم[1] ويمتد حتى طليطلة. وثالثتها: الثغر الأدنى، ويشمل قويمرة والناحية (الكورة) المحيطة بها.

أما في مجال الصوائف، «فقد نظَّم الأمير عبد الرحمٰن الصوائف ـ وهي جمع

---

(١) **مدينة سالم** Medinacali: تضم الناحية (الكورة) المسماة بكورة سالم أيضاً، وفيها قبر «المنصور بن أبي عامر» في مدينة سالم، وهي من المدن الجليلة. ويقال: إن طارقاً وجد فيها المائدة المعروفة بمائدة سليمان.

صائفة ـ نسبة إلى فصل الصيف، وهي الحملات التي جرت عادة بني أمية وحلفائهم على توجيهها إلى دار الحرب خلال فصل الصيف. وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يُعهد بها إلى أحد القواد الكبار، أو إلى واحد من أفراد الأسرة المالكة، وكثيراً ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هوالذي يضطلع بقيادتها، وكان الاستعداد لها يبدأ في شهر حزيران ـ يونيو، وكانت قيادة الجيش تتكتم دائماً أخبار الطريق الذي ستنتهجه حملة الصائفة حتى تكون ضرباتها مفاجئة للعدو، وقد وافتنا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات، التي أصبحت على طوال أيام الدولة الأموية وفي ظل العامريين بعدهم تقليداً محترماً سنوياً.

ويُذكر للأمير عبد الرحمٰن أنه هو الذي عمل أيضاً على تنظيم البدل والتناوب بين حملات الصوائف، نظراً لما قد تتعرض له من الخسائر، وحتى يستطيع المحافظة باستمرار على قوة الهجوم وشدته. وقطع الأمير البعوث على الأجناد، وجعلها بينهم دولاً في كل ستة أشهر، فإذا انقضت دولة ندب أُخرى[1].

جـ ـ الاعتماد على الجيش العامل وتنظيمه

كانت حياة الأمير عبد الرحمٰن الداخل في الأندلس جهاداً مستمراً وصراعاً متصلاً، وقد يكون من الطبيعي والحالة هذه أن يكون أول عمل له هو الاعتماد على جيش دائم، ومن الطبيعي أيضاً، بحسب ما سبق ذكره، ألّا يعتمد هذا الجيش على عناصر معينة، فقد كانت القبائل اليمانية هي أول من ناصرت الأمير عبد الرحمٰن وأيّدته وقاتلت تحت رايته، غير أن اليمانية ذاتها انتقضت عليه وأعلنت تمرُّدها بعد ذلك، كما كان من المحال عليه الاعتماد على المضرية أو على البربر المسلمين وحدهم، ولهذا فقد بدأ بتكوين جيشه اعتماداً منه على المتطوعين من الصقالبة والموالي والبربر.

ويرى المؤرخون العرب، ابن خلدون والمقري وابن بسام وابن الأثير، أن سبب اعتماد الأمير عبد الرحمٰن على الصقالبة من دون سواهم، هو كثرة الثورات وأعمال التمرُّد بين العرب، بعضهم مع بعض، والبربر، بعضهم مع بعض، علاوة على الحروب بين العرب والبربر، وهو ما تبرزه المقولة االتالية:

---

(١) المقتبس ٢٦٧، وقد بقي لفظ الصائفة بعد أن انتقل إليها من العربية في صورة Aceifa. وانظر أيضاً: أخبار مجموعة «مؤلف مجهول» ١٠٣.

«كثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمٰن الداخل ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة مَنْ قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي»[1].

غير أن التوقف عند هذه المقولة يخفي في الواقع جانباً من الحقيقة، ذلك أن حاجة الدولة لجيش دائم، ثم كثرة الأعباء القتالية، فرضت الاعتماد على جيش عامل كبير في حجمه، قوي في تنظيمه، ولهذا تمَّ العمل بالاعتماد على جميع العناصر المتوافرة أو التي يمكن إغراؤها للعمل في الجيش الدائم، وذلك على نحو ما فعل مع البربر، إذ حرص على الإحسان إليهم والتجاوز عن أخطائهم من أجل التطوُّع في الجيش، ولعل في مقولته يوم معركة المصارة، عندما أوقف اليمانية عن الفتك بالمضربة بقوله: «لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشد عداوة منهم». لعل هذا هو أفضل برهان على صحة تقويم الأمير عبد الرحمٰن لأهمية العامل البشري المتوافر، وضرورة المحافظة عليه قدر المستطاع، من أجل مجابهة الأعداء المختلفين في مشاربهم والمتنوِّعين في أهدافهم، والمتفاوتين في درجة عدائهم وخطورتهم.

المهم في الأمر هو أن عملية تنظيم الجيش الدائم قد تطلَّبت تخصيص موازنات ضخمة، ولهذا فرض الأمير عبد الرحمٰن ضريبة على العرب لقاء إعفائهم من الخدمة في الجيش العامل، ثم خصَّص ثلث موازنة دولته لبناء الجيش، وبذلك أمكن له حشد قوات مقاتلة كبيرة، وقد بلغت موازنة الدولة في عهد الأمير عبد الرحمٰن ثلاثمائة ألف دينار «فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك (مائة ألف دينار)، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهلهم مائة ألف دينار، ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار»[2].

واعتمد الأمير عبد الرحمٰن في تنظيم الجيش على تقسيمه إلى أسلحة رئيسية ثلاثة، وضع على كل سلاح قائداً مستقلاً وولى الجميع قائداً عاماً، وكان في كثير من الأحيان يقود الجيش بنفسه. وكانت تقسيمات الجيش هي: ١ ـ الفرسان، ٢ ـ المشاة او الرجالة، ٣ ـ الهندسة (التي تعمل على المجانيق وأدوات الحصار). ويظهر ذلك بوضوح من تصرُّف الأمير عبد الرحمٰن يوم وجَّه

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٣٣.

(٢) نفح الطيب ١/ ١٤٦.

قواته لقمع حركة تمرُّد عبيد بن أبان «حيث دعا صاحب خيله وقال له: امضِ فيمن أمكنك من أصحابك، ثم دعا عبد الحميد بن غانم صاحب الرجالة». «وفي حصار سرقسطة... خرج الأمير غازياً، فعند ذلك نصب عليها المجانيق من كل جانب، فيقال إنه حفَّها بستة وثلاثين منجنيقاً»[1].

واعتمد في تسليح جيشه على مصانع برديل (بوردو) حيث اكتسبت شهرة خاصة بصناعة السيوف، ثم طوِّرت هذه الصناعات بعد ذلك وأصبح الاعتماد في توفير الحاجة منها على ما تنتجه طليطله...

وإذا كان معاوية بن أبي سفيان هو «أبو البحرية العربية الإسلامية»، إذا صحَّ التعبير، وإذا كان الأمويون هم الذين طوَّروا هذا السلاح ومنحوه دعمهم وثقتهم، فقد جاء هذا السلاح عند حسن الظن به، إذ أمكن بواسطته حماية السواحل الإسلامية من تهديد البحرية البيزنطية، كما أمكن، نتيجة لذلك، نقل التهديد لعاصمة البيزنطيين ذاتهم، وتمثَّل ذلك في حصار القسطنطينية مرات عديدة في عهد معاوية وحفيده سليمان بن عبد الملك (٩٩هـ/ ٧١٧م)، وكان من نتيجة ذلك تقلُّص دور البحرية البيزنطية وتحوُّل البحر الأبيض المتوسط إلى «بحر الشام».

ولم يكن نجاح الفتوحات الإسلامية في أفريقية، واستقرار المسلمين فيها غير نتيجة من نتائج تفوُّق البحرية الإسلامية بعد تلك الانتكاسات المريرة التي نزلت بالمسلمين، وأودت بكبار قادتهم، مثل فتح الإسكندرية (٢٥هـ)، ومأساة «تهوذة» التي ذهبت بالقائد عقبة بن نافع (٦٣هـ/ ٦٨٣م)، وكذلك مأساة «ممس» التي سقط فيها القائد زهير بن قيس البلوي (٧١هـ/ ٦٩٠م). ولهذا، كان من الطبيعي أن يبدأ موسى بن نصير عملياته بفتح جزر الباليئار، مينورقة وميورقة ويابسة، وذلك في سنة (٩١هـ) وقبل الانتقال لفتح الأندلس.

وكان أسطول أفريقية، وقاعدته تونس، هو الذي يقوم بواجب حماية السواحل في غرب المتوسط، ويضمن تأمين الاتصال وإمداد المسلمين في الأندلس. وعندما استقل الأمير عبد الرحمٰن الداخل بفتح الأندلس وإقامة حكم الأمويين فيها، ظهرت له الحاجة لإنشاء أسطول بحري مستقل يتولى أمر حماية السواحل على جبهتي المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، وتعاظمت

(١) أخبار مجموعة ١٠٣ و١٠٤.

الحاجة بعد أن قام المغيث اليحصبي بغزو الأندلس، في محاولة للقضاء على الحكم الأموي وإقامة الحكم العباسي، فما كان من الأمير عبد الرحمٰن إلا أن أصدر تعليماته لإقامة دور الصناعة، والعمل على بناء السفن، وتعيين أمير الماء (أميرال) لتنظيم قوة الأسطول.

ولم تمضِ فترة حكم الأمير عبد الرحمٰن، على الرغم من كل ما رافقها من أحداث وما تخللها من اضطرابات، حتى اكتمل بناء الأسطول، وأصبحت القواعد والمصانع منتشرة في موانئ طراكونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية والمرية وغيرها، وأصبح للأندلس، أندلس الأمويين، أسطولها القوي الذي يدرأ عنها الأخطار الخارجية. وقد ظهرت أهمية الأسطول لا في زمن عبد الرحمٰن الداخل، وإنما في العهود التالية، حيث كان للأسطول الأندلسي دوره في حماية البلاد من غزوات النورمان وسواهم ممن كانوا يتطلعون لتهديد قاعدة المسلمين في الأندلس[1]، وتوافرت بذلك مصادر القوة المتكاملة في البر والبحر لحماية أندلس الأمويين، علاوة على ما توافر لها من التماسك في ظل وحدة القيادة.

وإذا كان جهد الأمير عبد الرحمٰن قد تركّز على إقامة الدولة وتنظيمها، وتأمين مصادر القوة لها، فإنه لم يكن أقل اهتماماً بالنهضة العمرانية، التي تمثل

---

(١) توفي الأمير عبد الرحمٰن الداخل في قرطبة سنة (١٧٢هـ/ ٧٨٨م). وقد ظهرت فائدة إنجازه البحري بعد وفاته بعهد قصير، حيث أخذت الأساطيل الأندلسية في فرض وجودها على جزر الباليئار وسردينية وكورسيكا. وعندما اشتدت وطأة إغارات المسلمين على هذه الجزر، أرسل أصحابها إلى شارلمان واضعين أنفسهم تحت حمايته.

وفي عام (١٩١هـ/ ٨٠٦م)، اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا، وكان بيبان ابن شارلمان ملكاً على إيطاليا، فأرسل قواته البحرية لمجابهة المسلمين. وشعرت البحرية الأندلسية باقتراب أسطول الفرنج، فعملت على الانسحاب. وظن آدمر Admer، كونت جنوة، أنه يستطيع مناهضة بحرية المسلمين، فتوجه بقوة بحرية لمطاردتهم، فعادت القوات البحرية الإسلامية وخاضت معركة ضد أسطول جنوة، ونجحت في إلحاق الهزيمة به وقتل آدمر، وأسر ستين راهباً، أرسل شارلمان فدية عنهم وفك أسارهم.

وفي عام (١٩٣هـ/ ٨٠٨م)، توجهت قوة بحرية أندلسية إلى سردينية فاصطدمت بمقاومة ضارية اضطرتها للانسحاب إلى كورسيكا، حيث جابهتها مرة أخرى حامية الجزيرة بقيادة بورشارد Burchard وأغرقت لها ثلاثة عشر مركباً وأرغمتها على الانسحاب.

وفي عام (١٩٤هـ/ ٨٠٩م)، توجهت قوة بحرية من الأندلس إلى كورسيكا، ووصلت في الوقت ذاته قوة بحرية أخرى من أفريقية، وتم الإنزال في الجزيرة، وخيم المسلمون في الجهة الشرقية من الجزيرة، بين أطلال مدينة آليريه Aleria.

وجهاً حضارياً من أبرز ما تميَّزت به الحضارة الإسلامية، ولعل من أبرز ما حفظه التاريخ للأمير عبد الرحمٰن هو: بناء الرصافة، وجامع قرطبة.

رصافة الأمير عبد الرحمٰن[1]

كان مما ابتناه عبد الرحمٰن بن معاوية في أول أيامه لنزهه وسكناه أكثر أوقاته «منية الرصافة» التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناناً واسعة ونقل إليها غرائب الفردوس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه «يزيدٌ وسفرٌ»، رسولاه إلى الشام، من النوى المختار والحبوب الغريبة، حتى نَمَتْ بيُمْن الجدِّ وحُسن التربية في المدة القريبة أشجار معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها. سمَّاها باسم رصافة جدِّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، وامتثله في اختيار رصافته هذه، وكلفه بها، وكثرة تردده عليها، وسكناه أكثر أوقاته بها، فطار لها الذكر في أيامه، واتصل مَن بعده في إيثارها، وكلهم فضَّلها وزاد في عمارتها، وانبرى وصّاف الشعراء لها، فتناغوا في ذلك فيما هو إلى الآن مأثور عنهم، مستجاد منهم.

وقال بعضهم في ترجمة عبد الرحمٰن الداخل ما صورته: إنه لما تمهَّد ملكه شرع في تعظيم قرطبة، فجدَّد مغانيها، وشيَّد مبانيها، وحصَّنها بالسور، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع، ووسَّع فناءه، وأصلح مساجد الكور، ثم ابتنى

---

(١) **الرصافة**، في الأصل: موضع رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة. وهناك أيضاً رصافة بغداد، وهي محلة كبيرة جداً أنشأها المنصور لابنه المهدي، وتلقب بعسكر المهدي، منها أئمة. ورصافة البصرة قرية: منها شيخان رويا. ورصافة قرطبة: بلدة صغيرة أنشأها عبد الرحمٰن بن معاوية الداخل، سماها باسم رصافة جده هشام، خرج منها فضلاء. ورصافة الكوفة صغيرة، ورصافة نيسابور قرية، ورصافة الأنبار بناها السفاح، ورصافة بليدة بأفريقية، والرصافة قلعة أحدثها الإسماعيلية بالشام... والرصافة، كمكناسة: بلد بالشام منه أبو منيع عبد الله بن أبي زياد وابن ابنه الحجاج، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن علي، وبلد بالبصرة منها محمد بن عبد الله بن صيفون، وقرية بواسط منها عبد المجيد، وقرية بنيسابور وبالكوفة، وبلد بأفريقية. وتبقى رصافة هشام ورصافة عبد الرحمٰن في الأندلس هي الأكثر شهرة، وفيها قال الرصافي:

ولا كالرصافة من منزل ... سقته السحائب صوب الولي
أحن إليها ومن لي بها ... وأين السري من الوصلي

(**نفح الطيب** ١/ ١٨١ و٤٦٧ ـ ٤٦٩).

مدينة الرصافة متنزهاً له، واتخذ بها قصراً حسناً، وجناناً واسعة، نقل إليها غرائب الغراس وكرام الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار.

وكانت أخت الأمير عبد الرحمٰن الداخل (أُم الأصبغ) ترسل إليه من الشام بالغرائب وكرائم الشجر، مثل الرمان العجيب المعروف بـ«الرمان السفري» الذي فاض على أرجاء الأندلس، وصاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من هذه الرصافة.

وقد وصفه أحد المؤرخين (ابن حيان) وأفرد له فصلاً، فقال: «إنه الموصوف بالفضيلة، المقدَّم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم، ورقة العجم، وغزارة الماء، وحسن الصورة. وكان رسول الأمير عبد الرحمٰن إلى الشام في توصيل أخته منها إلى الأندلس، قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام، فعرضه الأمير عبد الرحمٰن على خواص رجاله مباهياً به، وكان فيمن حضره منهم «سفر بن عبيد الكلاعي» من جند الأردن، ويقال هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله ﷺ في غزواته، وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني أمية، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فراقه حُسنه وخبره، فسار به إلى قرية بكورة «رية» فعالج عجمه (بذوره) واحتال لفرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع، فنزع إلى عرقه، وأغرب في حسنه، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمٰن، فإذا هو أشبه شي بذلك الرصافي، فسأله الأمير عنه، فعرَّفه وجه حيلته، فاستبرع استنباطه، واستنبل همَّته، وشكر صنعه، وأجزل صلته، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته، فانتشر نوعه، واستوسع الناس في غراسه، ولزمه النسب إليه، فصار يُعرف منذ ذلك الوقت بالرمان السفري»[(١)].

(١) وصف هذا الرمان أحمد بن فرج، الشاعر، في أبيات، منها:

ولابســة صــدفاً أحــمــرا ... أتــتــك وقــد مــلــئــت جــوهــرا
كــأنــك فــاتــح حــق لــطــيــف ... تــضــمــن مــرجــانــه الأحــمــرا
حــبــوباً كــمــثــل لــثــات الــحــبــيــب ... رضــابــاً إذا شــئــت أو مــنــظــرا
ولــلــســفــر تــعــزى ومــا ســافــرت ... فــتــشــكــر الــنــوى أو تــقــاســي الــشــرى
بــلــى فــارقــت أيــكــهــا نــاعــمــاً ... رطــيــبــاً وأغــصــانــهــا نــضــرا
وجــاءتــك مــعــتــاضــة إذ أتــتــك ... بــأكــرم مــن عــودهــا عــنــصــرا
بــعــود تــرى فــيــه مــاء الــنــدى ... ويــورق مــن قــبــل أن يــثــمــرا
هــديــة مــن لــو غــدت نــفــســه ... هــديــتــه ظــنــه قــصــرا

(نفح الطيب ١/ ٤٦٨).

جامع قرطبة

لما استقر عبد الرحمٰن الداخل بالأندلس وعظم أمره، بنى المسجد الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وهو مسجد ليس في بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة، وكلما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله.

وتبقى شهرة مسجد قرطبة تغني عن كثرة الكلام فيه. وهذا المسجد العظيم الذي ابتدأ بنيانه عبد الرحمٰن الداخل لم يكمل في زمانه، وكمله ابنه هشام، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه، حتى صار المثل مضروباً به. والذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على مَن قبله، إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء.

وقال بعض المؤرخين: إن عبد الرحمٰن الداخل أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار، واشترى موضعه، إذ كان كنيسة، بمائة ألف دينار، وجاء هشام فعمل على إكمال بناء الجامع بقرطبة، ثم جاء عبد الرحمٰن الناصر فعمل على زيادة الجامع في قرطبة[١] بمقدار رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمَّه ابنه محمد. وفي عهد الحكم تمَّ إنفاق مائة ألف وواحد وستين ألف دينار ونيف.

وعندما جاء الحاجب المنصور عزم على زيادة المسجد الجامع، ومن أجل ذلك جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المنزل، فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطط واطلب ما

---

(١) رامتدح شاعر الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم في زيادته لجامع قرطبة:

بنيت لله خير بيت ... يخرس عن وصفه الأنامُ
حج إليه بكل أوب ... كأنه المسجدُ الحرامُ
كأن محرابه إذا ما ... حف به الركن والمقامُ

وقال آخر:

بنى مسجداً لله لم يكُ مثله ... ولا مثله لله في الأرض مسجدُ
سوى ما ابتنى الرحمٰن والمسجد الذي ... بناه نبي المسلمين محمدُ
له عمد حمر وخضر كأنما ... تلوح يواقيت بها وزبرجدُ
ألا يا أمين الله لا زلت سالماً ... ولا زلت في كل الأمور تسددُ
فيا ليتنا نفديك من كل حادث ... وأنك للدنيا وللدين تخلدُ

(نفح الطيب ١/ ٣٤٨).

شئت. فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، وأن تُشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها، حتى أُوتي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة، فقال: تبتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيت المال. فاشتُريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن.

وعندما انتهى العمل من جامع قرطبة، أصبح جميع ما فيه من الأعمدة **١٢٩٣** عموداً رخاماً كلها، وباب مقصورة الجامع ذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجري فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محضة، وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا، وعدد الكؤوس **٧٤٢٥** كأساً. وكان عدد مَن يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر، ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذِّنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين **١٥٩** شخصاً، وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً.

وبالمسجد منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلي، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أُحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صنَّاع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي[١]، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً، وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده، وبهذا الجامع مصحف عثمان.

وذكر غير مؤرخ أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر (رضي الله تعالى عنه) بالشام، من مشاطرة الروم في كنائسهم، مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها «بشنت بِنْجَنْت»، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما في أيديهم، إلى أن كثروا، وتزايدت عمارة قرطبة، ونزلها أمراء العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة

---

(١) يقال إن الدنانير المحمدية منسوبة إلى محمد الناصر الموحدي، . وفي الأوقية الواحدة **٢٣** درهماً. وهناك دنانير محمدية تنسب إلى محمدية العراق، وأخرى إلى مدينة المحمدية بالمغرب. (**نفح الطيب ١/ ٥٥٩**).

يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة، لتلاصُق تلك السقائف، وقصر أبوابها، وتطامن سقفها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض.

ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية المرواني إلى الأندلس، واستولى على إمارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت به، فنظر في أمر الجامع، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى، وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه، وأوسع لهم البذل وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجد بهم أن يُباحوا بناء كنائسهم التي هُدمت عليهم بخارج المدينة، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به، فتمَّ الأمر على ذلك، وكان ذلك سنة، (١٦٨هـ)، فابتنى عند ذلك عبد الرحمٰن المسجد الجامع[١]، الذي كمل بناؤه بعد ذلك بثلاثمائة سنة في زمن الحاجب المنصور.

وفي عهد الحكم المستنصر (٣٠٢ ـ ٣٦٦هـ/ ٩١٤ ـ ٩٧٦م) تمَّ بناء أربع ميضآت (برك للوضوء) في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي، منها اثنتان، كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة، إلى أن صبَّت ماءها في أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذها على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث، الشرقية والغربية والشمالية، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنسيتر بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير، وألقاه الرخَّامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى استوَتْ في صوَرها البديعة لأعين الناس... أما مئذنة الجامع فيصعب وصفها والحديث عنها. وليس ذلك كله سوى بعض أوصاف الجامع العظيم.

---

(١) وفي ذلك قال دحية بن محمد البلوي من قصيدة طويلة امتدح فيها عمل الأمير عبد الرحمٰن الداخل في بناء المسجد:

وأنفق في دين الإلٰه ووجهه ... ثمانين ألفاً من لجين وعسجدِ
توزعها في مسجد أسه التقى ... ومنهجه دين النبي محمدِ
ترى الذهب الناري فوق سموكه ... يلوح كبرق العارض المتوقدِ

(نفح الطيب ١/ ٥٦١).

٩ ـ عبد الرحمٰن وولاية العهد

كان في جملة هموم الأمير عبد الرحمٰن الداخل مسألة «ولاية العهد»، تماماً على نحو ما كان عليه جدُّه الأعلى معاوية بن أبي سفيان، غير أن مهمة معاوية كانت أكثر سهولة، إذ لم يكن له من الولد غير يزيد، فلم يكن أمامه خيار آخر، غير أنه كان لعبد الرحمٰن ولد أكبر هو سليمان، ولقد وضع الأمير عبد الرحمٰن ولديه سليمان وهشام موضع الاختبار الدائم. فقد عانى الأمير عبد الرحمٰن معاناة لا حدود لها حتى توطدت له السلطة، وتحمَّل من الصعاب وجابَة من العقبات ما لا يمكن وصفه، وكان حريصاً لهذا أن يترك أندلس الأمويين في يدٍ أمينة، ولهذا فقد كان لا بد له من إعمال الفكر مليّاً والتمهل كثيراً حتى يثق بمن يأتي بعده، وحتى يعرف أن معاناته وجهده لم يذهبا هدراً.

وكان (الداخل) كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام، فيُذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال وما أشبه ذلك، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان. وقال يوماً لهشام: لِمَن هذا الشعر:

وَتَعْرِفُ فيه من أبيه شمائلاً ... ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ

سماحة ذا، وبرّ ذا، ووفاء ذا ... ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكر؟

فقال له هشام: يا سيدي لامرئ القيس، ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير أعزَّه الله. فضمَّه إليه استحساناً بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير وزاد في عينه.

ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وانشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب. أمَا لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب!. فأطرق عبد الرحمٰن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية.

ومن حكايات هشام مع أبيه الأمير عبد الرحمٰن، أن هشاماً كان قاعداً لراحته في عِليَّة على النهر، فنظر فإذا رجل من قدماء صنائعه من أهل جيان قد أقبل يوضع السير في الهاجرة، فأنكر ذلك، وقدَّر شراً وقع به من قِبَل أخيه سليمان

(وكان والياً على جيان)، فأمر بإدخاله عليه، فقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت، وما أحسبك إلا مزعجاً لشيء دهمك. فقال: نعم يا سيدي، قتل رجلٌ من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية على العاقلة، فأخِذَ بها من كنانة عامة، وحُمِلَ عليَّ من بينهم خاصة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك. فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كناني، وشراؤه عليَّ ثلاثة آلاف دينار، فلا تُخْدَعنَّ عنه، وبِعْهُ، وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تمكن الرجل من اهتضامك. فقال: يا سيدي! لم آتك مستجدياً ولا لضيق المال عما حُمِّلته، ولكني لما اعتمدت بظلم صراح أحببت أن يظهر عليَّ عز نصرك، وأثر ذبِّك وامتعاضك وعنايتك، فأتمجَّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك. فقال هشام: فما وجه ذلك؟ فقال: أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني، والقيام بذمتك لي. فقال: أمسك العقد. وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مقلق، إئذنوا له. فلما دخل سلَّم عليه، ومَثَلَ قائماً بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام!. فقال لوالده: **أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوسي بهمٍّ وذلٍّ مزعج! وحُقَّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلا مطمئناً، ولن يقعدني إلا طيب نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعت على عقبي. فقال له: حاشى لك من انقلابك خائباً، فاقعد مجاباً مشفعاً**. فجلس، فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟. فأعلمه، فأمر بحمل الدية عن الرجل وعن عشيرته من بيت المال، فسُرَّ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأمير عبد الرحمٰن إلى ولده سليمان في ترك التعرُّض للكناني.

ولما دخل الكناني لوداع هشام، قال له: يا سيدي! قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة، فتعيده إلى صاحبته. فأبى من ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، فلا غرو بعد ذلك أن يقع اختيار الأمير عبد الرحمٰن عليه، ليكون ولياً لعهده، ووريثاً لإمارته وخليفة لحكمه[1].

---

(١) مما حفظه التاريخ للأمير هشام التزامه بسياسة أبيه، واتصافه بفضائله، وهو ما عبر عنه نفسه بأبيات من الشعر، ومنها: =

ولكن، ومع هذا الهاجس الذي كان يؤرق الأمير عبد الرحمٰن الداخل، كان هناك هاجس آخر رافق الداخل، وهو استعادة حكم الأمويين الضائع في المشرق، إذ كان في نيَّته أن يجدد دولة بني مروان بالشام. وأشاع سنة (١٦٣هـ) الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته، ثم أعرض عن ذلك بسبب الاضطرابات التي اجتاحت الأندلس في تلك الفترة. ومات الأمير عبد الرحمٰن الداخل سنة اثنتين وسبعين ومائة (١٧٢هـ) دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وخلَّف من الولد عشرين، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث. «ذلك هو الأمير عبد الرحمٰن الداخل».

عودة إلى البداية

«قال أبو جعفر المنصور يوماً لأصحابه: مَن صقر قريش؟. قالوا: أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكَّن الزلازل وحسم الأدواء. قال: ما صنعتم شيئاً. قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان. قال: لا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمٰن بن معاوية، الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف، يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلداً أعجمياً، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبير، وشدة عزمه. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللا له صعبه. وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمٰن منفرداً بنفسه، مؤيداً برأيه، مستصحباً لعزمه»[1].

= رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً ... وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضي السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً ... كأقحاف شريان الهبيد لوامعا
تنبيك أني لم أكن في قراعهم ... بوان، وأني كنت بالسيف قارعا
وأني إذا حادوا سراعاً عن الردى ... فما كنت ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذماري فاستبحت ذمارهم ... ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا نهال حروبنا ... سقيتهم سجلاً من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدرت ومصارعا

(المغرب في حلى المغرب ـ ذخائر العرب ١٠ ـ دار المعارف بمصر ١/ ٤٤، ٤٥).

(١) أخبار مجموعة ١١٨، ١١٩، والكامل لابن الأثير ٥/ ١٨٢ و٦/ ٣٧، والاستقصا ١/ ٥٣، ٥٤).

الفَصْلُ الثّاني

صقر قريش والدولة الأموية

١ ـ الأمويون في الأندلس.
٢ ـ عز الإسلام بالأندلس.
٣ ـ القوة درب العزة.



صقر قريش والدولة الأموية

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ﴾

[النساء/٩٥]

كان للأمويين في الشام دور لا يُنْكر في رفع شأن العرب المسلمين وتعريف الدنيا برسالة الإسلام، ولم يكن دور عبد الرحمٰن الداخل أقل من دور أمويي المشرق في تعريف الغرب بحضارة الإسلام، فقد أنشأ دولة بقيت متشامخة على أنف الزمن زهاء قرنين ونصف، وكان من أبرز أمراء الدولة الأموية في الأندلس من يلي[(١)]:

	س.هـ.	س.م.	أمراء الأمويين	مدة حكمهم
١	١٣٨	٧٥٦	عبد الرحمٰن الداخل (صقر قريش)	٣٣ عاماً
٢	١٧٢	٧٨٨	هشام بن عبد الرحمٰن الداخل	٨ أعوام
٣	١٨٠	٧٩٦	الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن	٢٦ عاماً
٤	٢٠٦	٨٢٢	عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام	٣٠ عاماً
٥	٢٣٨	٨٥٢	محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم	٣٤ عاماً
٦	٢٧٣	٨٨٦	المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن	سنتان
٧	٢٧٥	٨٨٨	عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن	٢٤ عاماً
٨	٣٠٠	٩١٢	عبد الرحمٰن بن محمد عبد الله (الناصر)	٥٠ عاماً
٩	٣٥٠	٩٦١	الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر (المستنصر)	١٦ عاماً
١٠	٣٦٦	٩٧٦	هشام بن الحكم المستنصر (المؤيد)	٣٣ عاماً[(٢)]

(١) استمرت سلالة الأمويين حتى سنة (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)، وتعاقب، من سلالتهم على حكم الأندلس، ٦ أمراء، غير أن حكمهم كان متقطعاً بحكم الحموديين ومن قبلهم العامريين، ولم يكن لأمراء الأمويين دور يذكر.

(٢) حكم الأندلس عملياً المنصور أبو عامر (٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٠٢م)، وأعقب حكمه قيام ملوك الطوائف، وكان في ذلك نهاية أمجاد العرب المسلمين في الأندلس وبداية انهيارهم.

١ ـ الأمويون في الأَندلس

«لما صارت الأندلس لبني أمية، وتوارثوا ممالكها، انقاد إليهم كل أبيٍّ فيها، وأطاعهم كل عصيٍّ، فعظمت الدولة بالأندلس، وكبرت الهمم، وترتبت الأحوال، وترتبت القواعد، وكانوا صدراً من دولتهم، يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة، وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة، وتمكُّن الناموس من قلوب العالم، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء، والعمل بأقوالهم، وإحضارهم في مجالسهم، واستشارتهم. ولهم حكايات في التاريخ من توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق، لهم أو عليهم، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة... إلى أن وقعت الفتنة، وتمَّ ابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه، فاستبدَّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها، وسُمُّوا بملوك الطوائف واستبدُّوا. وكان فِيهم مَن خطب للخلفاء المروانيين وإن لم يبقَ لهم خلافة، ومنهم مَن خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم. وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بألقاب الخلفاء، وترفَّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى»[١].

تظهر المقولة السابقة، على قصرها، مجموعة من المعطيات المتعلقة بالدور

---

(١) أصبح من عادة الأمراء والحكام في عهد ملوك الطوائف مباهاة بعضهم بعضاً بالألقاب ومنافسة الخلفاء في ألقابهم، وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد، مقتفياً سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين، وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد، وفي ذلك قال الشاعر ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس ... تلقيب معتضد فيها ومعتمدِ
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

(**وفيات الأعيان** لابن عمار الأندلسي ٤/ ٥٢، **ونفح الطيب** ١/ ٢١٤).

الأموي في بناء الأندلس، وستأتي بعد ذلك مناقشة بعض هذه المعطيات، إلاّ أن الأمر المهم هنا هو الإشارة إلى حالة الأندلس قبل قيام العهد الأموي وأثناءه وبعد انقضائه، وفقاً لجميع الشواهد التاريخية. فقد كانت الأندلس قبل العهد الأموي ممزقة بين مراكز القوى المتناحرة، ثم جاء العهد الأموي فوحَّد الجزيرة، ونظم قدراتها وإمكانتها، وحشد كل القوى المتوافرة للبناء الحضاري ولتلبية متطلبات الحرب، وبذلك ازدهرت حضارة العرب المسلمين وأينعت. وعندما انتزعت القيادة من الأمويين عادت الجزيزة مزقاً بين مراكز القوى (ملوك الطوائف)، الأمر الذي أدَّى إلى ضعف المسلمين في الأندلس، فكان في ذلك بداية الانهيار الذي لم يلبث مع الزمن أن انتهى إلى مأساة الأندلس، وانهيار حكم المسلمين والقضاء على وجودهم بأحكام «محاكم التفتيش». ذلك هو فضل الأمير عبد الرحمٰن الداخل (صقر قريش) على العرب المسلمين وعلى الحضارة الإنسانية كلها.

وقد يكون من المناسب هنا استقراء بعض الملامح للأجهزة التنظيمية والتقاليد التي وضع أساسها الأمير عبد الرحمٰن الداخل، ثم جاء خلفاؤه فعملوا على تطويرها، فكان في ذلك بعض قوة الأندلس ـ أندلس الأمويين ـ وذلك وفقاً لما أوردته المصادر التاريخية، وبالأسلوب الذي أوردته أيضاً.

أ ـ **الوزارة**: وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب. وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك، إلى أن كانت ملوك الطوائف، فكان الملك منهم يسمى بالحاجب (لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وأنه كان نائباً عن خليفتهم). ويرى أن هذه السمة هي أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزارة عاماً لكل مَن يجالس الملوك (ملوك الطوائف) ويختص بهم، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرَف «بذي الوزارتين»، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، كابن زيدون، وقد لا يكون كذلك بل عالماً بأمور الملك خاصة.

ب ـ **الكتابة**: وأما الكتابة فهي على ضربين: أعلاهما كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه «الكاتب»، وبهذه

السمة يخصه مَن يعظمه في رسالة. وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه، من تسلط الألسن في المحافل، والطعن عليه وعلى صاحبه. والكاتب الآخر هو كاتب الزمام، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة. ولا يكون بالأندلس وبرِّ العدوة لا نصرانياً ولا يهودياً البتة، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم.

جـ ـ الخراج: وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير، وأكثر أتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تُمَدُّ الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظّار. ومع هذا، إن تأثلت حالته، واغترَّ بكثرة البناء والاكتساب، نُكب وصودر، وهذا راجع إلى تقلُّب الأحوال وكيفية السلطان.

د ـ القضاء: وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلُّقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي. هذا وضعها في زمان بني أمية ومَن سلك مسلكهم، ولا سبيل أن يتسمى بهذه السمة إلَّا مَن هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها إلا مسدد، خاصة، وقاضي القضاء يقال له: قاضي القضاة وقاضي الجماعة.

هـ ـ خطة الشرطة: وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة، وهي معروفة بهذه السمة، ويُعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل. وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب عليه بدون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحدُّ على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي. وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك.

و ـ الحسبة: وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَن، وكان صاحبها قاضٍ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثُّمْن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء، فيستويان

فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللحم عليه ورقة بسعره، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حَدَّ له المحتسب في الورقة، ولا يكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدسُّ عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر المحتسب الوزن، فإنْ وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس، فلا تسأل عما يلقى، وإنْ كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والفضح والتشهير (التجريس) في الأسواق، نُفي من البلد. ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره.

ز ـ **خطة الطواف بالليل**: وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق، فإنهم يُعرفون في الأندلس بالدرّابين، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تُغلَق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلَّق وكلب يسهر وسلاح مُعَدٌّ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم، وإغيائهم في أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة، ويفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرَّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك. ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع «دار فلان دُخِلت البارحة» و«فلان ذبحه اللصوص على فراشه». وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي ولينه، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دماً، فإن تلك لا يعدم. وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخص من كرم وما أشبه ذلك، فلم ينتهِ اللصوص[1].

واستطاع الأمير عبد الرحمٰن الداخل (صقر قريش) أن يسوس الناس ويصرف فاعلياتهم للإبداع، فتكوَّن بذلك مجتمع عربي ـ إسلامي يختلف في كثير من خصائصه عن مجموعة الشرائع الديموغرافية (السكانية) التي تكوَّن منها المجتمع الأندلسي ذاته. وبكلمة أخرى، فقد كان قيام الدولة الأموية بجهد الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية بمثابة البوتقة التي صهرت مسلمي الأندلس، من عرب وصقالبة وأجناس مختلفة من كل شعوب الأرض، وكوَّنت منهم مجتمعاً فريداً أسهبت المصادر التاريخية، العربية والغربية، في التعرض له ووصفه.

وقد يكون من المناسب استقراء بعض ملامح ذلك المجتمع، لمعرفة ما تميَّز به من خصائص، وما انفرد به من الفضائل والعادات.

(١) نفح الطيب ١/٢١٦ ـ ٢١٩.

أ ـ الأندلسيون والتشريع

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم، فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان. وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم. وهذا كثير في أخبارهم. وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال، إذا لم يعدلوا، فكل يوم.

ب ـ الأندلسيون والتصوف

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّرْوزة (التسوُّل والكدية) التي تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق، فمستقبحة عندهم إلى النهاية. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب (يتسوَّل) سَبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر.

جـ ـ الأندلسيون والعلوم والآداب

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز. فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح. والعالِم عندهم مُعَظَّمٌ من الخاصة والعامة، يُشار إليه ويُحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويُكْرَم في جوار أو ابتياع حاجة أو ما أشبه ذلك.

ومع هذا، فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً. فالعالِم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم. وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم، ولا يُتظاهر بهما خوفَ العامة، فإنه كلما قيل: «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم»، أطلقت عليه العامة اسم «زنديق» وقيدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ في

شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرُّباً لقلوب العامة. وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن.

وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم.

وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين (المرابطين) كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه، بالفقيه، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات.

والنحو عندهم في نهاية من علوِّ الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر ـ وبعد زوال العصر الإسلامي من الأندلس ـ لا زالوا كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدَّة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه، كمذاهب الفقه. وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو ـ بحيث لا تخفى عليه الدقائق ـ فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية. وإذا تكلم الخاص منهم بالإعراب، وأخذ يجري على قوانين النحو، استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم. ومَن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل.

والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، ولكن هذا الغالب، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً، فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العُجب... عادة قد جُبلوا عليها.

د ـ الزيُّ الأندلسي في السلم والحرب

وأما زيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو

بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك. ولقد رأيت عزيز ين خطاب[1]، أكبر عالم بمرسية، حضرة السلطان في ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بذلك في تلك الجهة، وهو حاسر الرأس، وشيبه قد غلب على سواد شعره. . . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم مَن تراه بعمة في شرق منها أو في غرب. وابن هود، الذي ملك الأندلس في أواخر الأيام الأندلسية، رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس بقيت في يده.

وكثيراً ما يتزيَّا سلاطينهم وأجنادهم بزيِّ النصارى المجاورين لهم. فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من «الإشكرلاط»[2] وغيره، كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم، ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن. ولا يعرفون الدبابيس ولا قسيَّ العرب، بل يعدون قسيَّ الفرنج للمحاصرات في البلاد، أو تكون للرجالة عند المصافقة للحرب، وقليلاً ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يُوتِروها.

ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم مَن يمشي بدون طيلسان، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون. وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمم البتة. والذؤابة لا يرخيها إلا العالِم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى.

وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلاً منها، أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفصيل الثياب.

هـ ـ تدبير الأندلسيين ومروءتهم

وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم مَن لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً،

---

(١) عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي، أبو بكر مرسي، سرقسطي الأصل، كان زاهداً عابداً ناشراً للعلم، حتى امتحن برياسة بلده فلم تحمد سيرته، وقتل سنة (٦٣٦هـ/ ١٣٣٨م). (نفح الطيب ١/ ٢٢٢).

(٢) الإشكرلاط، ويقال أيضاً الإشكيلاط Ecarlate: نوع من الجوخ (الصوف) قرمزي أحمر.

ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها.

والأندلسيون أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في إيديهم خوف ذلِّ السؤال، فلذلك قد يُنسَبون للبخل، ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فَطِنَ لها حاتم لفضَّل دقائقها على عظائمه. ولقد اجتزتُ مع والدي على قرية من قراها[١]، وقد نال منا البرد والمطر أشد النَّيل، فأوينا إليها، وكنا على حال ترقُّب من السلطان، وخلوٍّ من الرفاهية، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة مقتدمة، فقال لنا: إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به، فإني أمضي. فأضرم ناراً، فجاء ابن له صغير ليصطلي، فضربه، فقال له والدي: لمَ ضربته؟ فقال: يتعلم استغنام أموال الناس والضجر للبرد من الصغر. ثم لما جاء النوم قال لابنه: أعطِ هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه. فدفع كساءه إليَّ. ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبهاً ويده في الكساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال: هذه مروءات أهل الأندلس، وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضَّلك على نفسه، ثم فكَّر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يَطِب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم. وعلى هذا الشيء الحقير فقِس الشيء الجليل.

و ـ قرطبة عاصمة الدنيا

اتخذ الأمويون من قرطبة عاصمة لهم، ووسموها بميسمهم، واختصوها بفضلهم ورعوها بعنايتهم، ففاضت على الدنيا علماً ونوراً، وزَهَتْ بأمجادهم فخراً وسؤدداً، ولا زال جامعها قائماً يذكر سكان الأرض بما وصل إليه المسلمون من القوة والعزة، يوم حمل العرب رسالة الإسلام وعملوا بها. وفي ذلك تقول المصادر التاريخية:

«وأما قرطبة فكرسي المملكة في القديم، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم والتقديم، بها استقرَّت ملوك الفتح وعظماؤه، ثم الملوك المروانية... ومعروف عن أهلها تعظيمهم للشريعة، ومناقشتهم في السؤدد بعلمها وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها، ويرفعون أقدارهم، ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدِّمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً، حتى إن الحكمَ المستنصر، لما كره له العلماء بُغض الخمر، همَّ بقطع شجرة العنب من الأندلس، فقيل له:

---

(١) الحديث للمقري في نفح الطيب ١/٢١٩ ـ ٢٢٤.

فإنها تُعصر من سواها، فأمسك عن ذلك. وأنهم كانوا لا يقدِّمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره، وتُعقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال في غالب الحال، خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس، فيبيع به حقوق الدين.

وقد أراد الحكم الربضي ـ على ما هو معروف ـ تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى، راوية مالك، وعبد الملك بن حبيب وغيرهما من أعلام العلماء، فقالوا له: هو أهل، ولكنه شديد الفقر، ومَن يكون في هذه الحالة لا تأمنه على حقوق المسلمين، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في المواريث والوصايا وأشباه ذلك. فسكت ولم يرَ منازعتهم.

وبقي مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله، فنظر إليه ولده عبد الرحمٰن ـ الذي وليَ الملك بعده ـ وعلى وجهه أثر ذلك، فقال: ما بالك يا مولاي؟. فقال: ألا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم وننوِّه عند الناس بمكانهم، حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شطط، بل ما لا يعيبهم أو يعنيهم، ولا هو مما يرزؤهم شيئاً، صدُّونا عنه وغلقوا أبواب الشفاعة. وذكر له ما كان منهم، فقال: يا مولاي! أنت أولى الناس بالإنصاف، إن هؤلاء ما قدَّمتهم أنت ولا نوَّهت بهم، وإنما قدَّمهم ونوَّه بهم علمهم. أوَكنتَ تأخذ قوماً جهّالاً فتضعهم في مواضعهم؟. قال: لا!. قال: فأنصفهم فيما فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة. قال: صدقت. ثم قال: وأما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره، فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقى لك في الصالحات ذكراً. قال: وما هو؟. قال: تعطيه من مالك قدر ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة، ويزيل عنك هذا خجل ردِّهم لك، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد. فتهلَّل وجه الحكم وقال: إليَّ.. إليَّ.. إنها والله شنشنة عبشمية، وإن الذي قال فينا لصادق:

وأبناء أملاك خضارم سادة ... صغيرهم عند الأنام كبير

ثم استدعى عبد الملك بن حبيب، وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى، فذكر له عدداً، فأمر له به في الحين، ونبَّه قدره، بأن أعطاه من إسطبله مركوباً. ثم إنه إذا كان له من الغنى ما يكفه عن أموال الناس، ومن الدين ما يصدُّه عن محارم الله تعالى، ومن العلم ما لا يجهل به التصرف في الشريعة أباحوا له الفتوى والشهادة، وجعلوا علامة لذلك بين الناس: القالس والرداء.

٢ ـ عز الإسلام بالأندلس

وضع الأمير عبد الرحمٰن الداخل أساس بنيان ملك بني أُمية بالأندلس، وجاء أمراء بني أُمية تباعاً وهم يزيدون من رفعة البنيان سمواً وشموخاً، حتى إذا ما جاء عهد الأمير عبد الرحمٰن الناصر، ثامن الأمراء الأمويين بالأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) بلغت الدولة الأموية غاية الضخامة ورفعة الشأن. وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبقَ أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وافدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى (وهو يومئذ قسطنطين) فإنه هاداه، ورغب في موادعته، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٩م).

وتأهّب الناصر لورودهم وأمر أن يُتلقوا أعظم تلق وأفخمه وأحسن قبول وأكرمه، وخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبية فتلقوهم قائداً بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين، ياسراً وتماماً، إبلاغاً في الاحتفال بهم، فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه، وبيدهم القصر السلطاني، وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة في الربض، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة، ومن ملابسة الناس طراً، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربع منهم.

ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد

من بنيه الحكم، ثم عبيد الله ثم عبد العزيز أبو الأصبغ ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يطق الحضور. وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم.

وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك (السجاد)، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى «قسطنطين بن ليون» وهو في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان في ترجمته عنوان الكتاب في سطر منه: قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان ملكا الروم. وفي سطر آخر: العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمٰن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه، وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته. وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه، ولي عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره.

وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هولُ المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتدِ إلى لفظة، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض، فقيل لأبي علي البغدادي، إسماعيل بن القاسم القالي، صاحب الأمالي والنوادر، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة: «قم فارفع هذا الوهي. فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى

على نبيه ﷺ ـ ويذكر المؤرخون أن القالي كان هو المأمور بالكلام أولاً والمعَدُّ لذلك ـ ثم انقطع القول بالقالي، فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، لكن أبا علي القالي انقطع، وبهت وما وصل إلا قطع، ووقف ساكتاً متفكراً لا ناسياً ولا متذكراً، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ـ وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء ـ قام من ذاته، بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحاً كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي».

ثم انصرف الرسل بعد انتهاء مراسم الاحتفال، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما جاء، وجاءت معه رسل قسطنطين. ثم جاء رسول من ملك الصقالبة (وهو يومئذ هوتو)[1] ورسول آخر من ملك الألمان، ورسول آخر من ملك الإفرنج وراء البرت ـ البيرنة ـ (وهو يومئذ أوقة)[2] ورسول آخر من ملك الإفرنج بقاصية المشرق (وهو يومئذ كلدة)[3] واحتفل الناصر لقدومهم، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة للهجرة (٩٥٥م) جاء رسول أردون يطلب السلم، فعقد له، ثم بعث في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة يطلب إدخال فرذلند قومس قشتالة في عهده فأذن له في ذلك وأدخل في عهده، وكان «غرسية بن شانجة»[4] قد استولى على جيليقية بعد أبيه «شانجة» بن فرويلة[5] ثم انتقض عليه أهل جيليقية، وتولى كبرهم قومس قشتالة فرذلند المذكور ومال إلى أردون بن رذمير، وكان غرسية بن شانجة حافداً ـ حفيداً ـ لطوطة[6] ملكة البشكنس، فامتعضت لحافدها غرسية، ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة (٩٥٨م) ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير

---

(١) **هوتو**: Otton وورد اسمه في المصادر العربية بكتابات مختلفة (دوقو وذواقو وذوقوه وذوفو).

(٢) **أوقة**: Hugo وهو Hugues D'Arles مركيز البروفانس.

(٣) **كلدة**: Guido وهو ابن أدلبرت مركيز تسكانية.

(٤) **شانجة**: Sancho ملك البشكنس (الباسك) أي منطقة نبرة (Navarra) نافار.

(٥) **فرويلة**: Fruela.

(٦) **طوطة**: Teoda وفي تاريخ بروفنسال: ٢/ ٧٣ Tdoa.

الملك، وإعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه، ونصره من عدوه.

وجاء الملكان معها، فاحتفل الناصر بقدومهم، وعقد الصلح لشانجة وأمه، وبعث العساكر مع غرسية ملك حيليقية فرد عليه ملكه، وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فرذلند قومس قشتالة في نكثه ووثوبه، ويعيره بذلك عند الأمم. ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك. ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنج بالشرق كما تقدم، وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح، فأجابه الناصر، ووصل بعده رسول صاحب روما يخطب المودة فأجيب.

جاءت بعد ذلك فترة حكم المستنصر «الحكم بن عبد الرحمٰن» (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م) فزادت دولة بني أمية عزاً على عزتها، وسمت رفعة على رفعتها، وتعاظمت بقوتها حتى ازدهت على الدنيا. وتابع الحكم سيرة أبيه في بذل المستطاع، وأكثر من المستطاع، من أجل زيادة قوة الدولة ورفعتها[١].

ويمكن هنا العودة مرة أخرى لما بلغته أندلس المسلمين من المجد والسؤدد من خلال مطالعة مراسم الاستقبال أيام الحكم المستنصر، بالنص التاريخي الذي وردت فيه، حيث جاء ما يلي: «وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (٩٦٢م) أخرج الخليفة الحكم المستنصر مَوْلَيَيْه محمداً وزياداً، ابني أفلح الناصري، بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري صاحب مدينة سالم، المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة، المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجة بن رذمير، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد، وذلك بعدما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على

---

(١) جاء في **نفح الطيب** ١/ ٣٧٩ و**أزهار الرياض** ٢/ ٢٨٢ و**المغرب** ١/ ١٧٧ ما يلي: «حكي أنه وجد بخط الناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيام السرور التي صنعت له بدون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر، حلف السعود، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً، فسبحان ذي العزة القائمة، والمملكة الدائمة، لا إلـٰه إلا هو».

الغزو إليه، وأخذه في التأهب له، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه، وخرج قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه، في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنفهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية وتقدموا إلى باب قرطبة، فمروا بباب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة، فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر، ودعا، ثم رد قلنسوته إلى رأسه.

وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة، وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع في الكرامة له ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة. وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس، فيهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي والحكام والفقهاء، فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه (لباسه) ثوب ديباجي رومي أبيض، و«بليوال»[1] من جنسه وفي لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر.

وقد حفَّته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما، فدخل بين صفي الترتيب يقلب الطرف في نظم الصفوف، ويجيل الفكر في كثرتها، وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلَّبوا على وجوههم، وتأمَّلوا ناكسي رؤوسهم، غاضِّين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم، حتى وصلوا إلى باب الأقباء، أول باب قصر الزهراء، فترجَّل جميع مَن كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى

(١) بليوال: Palio أو Pluvial، وهي تعني الممطر الذي يتم ارتداؤه فوق اللباس، ووردت في المصادر العربية بليون وبلبوال وبلنوال وبليوان.

انتهوا إلى باب السيدة، فأمر القوامس بالترجل هناك والمشي على الأقدام، فترجَّلوا، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طُمْلُس[1]، فأنزل في «برطل»[2] البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند، على كرسي مرتفع مكسو الأوصال بالفضة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن رُذْمير الوافد على الناصر لدين الله (رحمه الله تعالى).

فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلما قابل المجلس الشرقي، الذي فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه، وبقي حاسراً إعظاماً لما بان له من الدنوِّ إلى السرير، واستُنْهِض فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلما قابل السرير خرَّ ساجداً سويعة، ثم استوى قائماً، ثم نهض خطوات، وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة، وأهوى إلى يده فناوله إياها، وكرَّ راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه، والبهر قد علاه، وأنهض خلفه مَن استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع، وناولهم الخليفة يده، فقبَّلوها، وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم.

ووصل بوصولهم «وليد بن خيزران، قاضي النصارى بقرطبة»[3]، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه، فلما رأى أن قد خفض عليه، افتتح تكليمه فقال: ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا، ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته.

---

(١) **محمد بن قاسم بن طملس**: كان يشغل، في أيام المستنصر، منصب الوزير صاحب الحشم، وقد قتل في حروب العدوة أول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بفحص مهران. (**نفح الطيب** ١/ ٣٨٩).

(٢) برطل (يقصد المدخل)، وفي الإسبانية Portal.

(٣) **وليد بن خيزران**: هو القاضي ـ فيما يبدو ـ الذي أعان على ترجمة كتاب «هروشيوش»، حين أهداه امبراطور القسطنطينية إلى الناصر. وقد ورد اسمه في المصادر العربية بأشكال مختلفة، منها: خيزان وحيزون وخيرون. وفي **المقتبس** ـ ابن حبان ـ أحداث سنة (٣٦٠هـ)، أن قاضي النصارى بقرطبة كان اسمه أصبغ بن نبيل.

فلما ترجم له كلامه إياه تطلَّق وجه أردون، وانحطَّ عن مرتبته، فقبَّل البساط وقال ما ترجمته: أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنيَّة صادقة ونصيحة خالصة. فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل ملَّتك ما يغبطك، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا، واستظلاك بظل سلطاننا.

فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعياً، وقال: إن شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم، وكان قصْدُه قصْدَ مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارتني لمكانه من غير سعي مني، علم الله ذلك، ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته من ملكه مضطراً مضطهداً، فتطول عليه رحمه الله بأن صرفه إلى ملكه، وقوَّى سلطانه، وأعزَّ نصره، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أُسديت إليه، وقصَّر في أداء المفروض عليه، وحقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده. وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة، ومن قرارة سلطاني وموضع أحكامي، محكِّماً له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومَن تحويه من رعيتي، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة. فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية شأنه، ويترادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان أبينا (رضي الله تعالى عنه) إلى ندِّك، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك مما يؤخرك عنه، ولا ينقصك مما أنلناك، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك، ونشد أواخيَّ ملكك، ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك، ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد إلى يدك، وسيترادف عليك من إحساننا فوق ما احتسبته، والله على ما نقول وكيل.

فكرر أردون الخضوع، وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقراً لا يولي الخليفة ظهره، وقد تكنفه الفتيان فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح، وقد علاه البَهْر وأذهله الرَّوْع، من هول ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة.

فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه، انحطَّ ساجداً إعظاماً له، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذي بجَوْفَي هذا المجلس، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب. وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلما بصر به قام إليه، وخنع له، وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه فعانقه وجلس معه، فغبطه ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره، ثم أمر الحاجب جعفر، فصبَّتْ عليه الخِلَع التي أمر له بها الخليفة، وكانت دُرّاعة منسوجة بالذهب، وبرنساً مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصَّعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج تجلة، فخرَّ ساجداً وأعلن بالدعاء.

ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً، فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم، وخرَّ جميعهم خانعين شاكرين.

ثم انطلق الملك أردون وأصحابه، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب، عليه سرج حلي ولجام حلي مفرغ. وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه، وقد أُعدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقرَّ أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش.

واستشعر الناس من مسرَّة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجُّح به والتحدث عنه أياماً، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان، وإنشادات لأشعار محكمة مثان، يطول القول في اختيارها، فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة، حيث يقول[1]:

ملك الخليفة آية الإقبالِ ... وسعوده موصولة بتوالي
والمسلمون بعزةٍ وبرفعةٍ ... والمشركون بذلّةٍ وسَفالِ
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه ... متوقعين لصولة الرئبالِ
فالحمد للّه المُنِيل إمامنا ... حظ الملوك بقدره المتعالي
هو حشر يوم الناس إلا أنهم ... لم يُسألوا فيه عن الأعمالِ
أضحى الفضاء مفعماً بجيوشه ... والأفق أقتم أغبر السربالِ
لا يهتدي الساري لليل قتامه ... إلا بضوء صوارم وعوالي

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٨٨ ـ ٣٩٤.

وكأن أجسام الكماة تسربلت ... مذ عريت عنه جسوم صِلالِ
وكأنما العقبان عقبان الفلا ... منقضَّة لتخطف الضُّلّالِ
وكأن منتصب القنا مهتزَّة ... أشطان نازحة بعيدة جالِ
وكأنما قُبْلُ التجافيف اكتست ... ناراً توهُّجها بلا إشعالِ

٣ ـ القوة درب العزة

كانت جهود الأمراء الأمويين لبنات متراصة أحكم بعضها فوق بعض، وسارت لبنات البناء الحضاري جنباً إلى جنب مع لبنات بناء القوة الذاتية، ويمكن متابعة ذلك من خلال إلقاء لمحات سريعة على عهود الأمراء الأمويين المتتالية.

فعندما جاء هشام بن عبد الرحمٰن (١٣٩ ـ ١٨٠هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٩٦م)، كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزير، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور (النواحي) فيسألون الناس عن سير عماله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد. وفي أيامه فتحت أربونة (ناربون) الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جيليقية، من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة، وبنى منه المسجد الذي قدام باب الجنان.

وقصد الأمير هشام إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع، فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه، سنة خمس وسبعين ومائة (٧٩١م)، وبعث العساكر إلى جيليقية مع يوسف بن بخت، فلقي ملكها «برمند»[١] وهزمه، وأثخن في العدو.

وفي السنة التالية، بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو، فبلغ ألبة والقلاع، فأثخن في نواحيها، ثم بعثه في العساكر، سنة سبع وسبعين ومائة، إلى أربونة و«جرندة»[٢] فأثخن فيها، ووطئ أرض برطانية، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة (٧٩٤م)، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد

(١) برمند: Vermudo، وأوردته المصادر العربية بأشكال مختلفة (ابن منده وأبرمندة وبرمود).

(٢) جرندة: Gerona إلى الشمال الشرقي من برشلونة.

إلى بلاد جيليقية، فانتهى إلى «أسترقة»[1] فجمع له ملك الجلالقة، واستمد بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء، ورجع أدراجه، واتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش، من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء، ثم خرجوا سالمين ظافرين.

وفي عهد الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢م) انتهج سياسة جديدة في بناء الدوله، فكان أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة، واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل. وكان أول من جند الأجناد والمرتزقة بالأندلس، وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشي والحشم، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم.

وكان «الحكم» أفحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقداماً ونجدة، وكان يشبَّه بـ«أبو جعفر المنصور»، من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء. وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويقرب الفقهاء والصالحين.

ومن أبرز أعماله أنه عندما علم بإقدام ملك الفرنج «للذريق ابن قارلة»[2] على حشد جيوشه لقتال المسلمين وتوجه لحصار طرسونة «أو طرطوشة»، بعث ابنه عبد الرحمٰن ومعه قوات كبيرة (١٩٢هـ/ ٨٠٧م) فهزمه، ففتح الله على المسلمين، وعاد ظافراً.

ولما كثر عيث الفرنج في الثغور، بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه، سار بنفسه إلى الفرنج سنة (١٩٦هـ/ ٨١١م) فافتتح الثغور والحصون، وخرب النواحي وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قرطبة ظافراً.

جاء بعد ذلك عبد الرحمٰن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م)، وكان من أخباره في الجهاد أنه وجه جيشاً إلى بلاد المشركين سنة (٢٠٩/ ٨٢٤م)، وهو جيش الصائفة بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وأصيب

---

(١) أسترقة: «أو أشترقة» Astroga من منطقة جيليقية Galicia إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلة (Neibla).

(٢) لذريق: (Ludovico).

عبد الكريم بمرض أعاقه عن قيادة الجيش ولم يلبث أن توفي، فخلفه في القيادة أمية بن معاوية بن هشام، فتقدم بجيشه إلى ألبة والقلاع، فتم نهب ألبة وإحراقها، كما تمت محاصرة عدة حصون وفتحت بعضها، وصالح بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين، وغنم الجيش أموالاً جليلة القدر، واستنقذ الأسرى المسلمين وسبيهم، وعاد الجيش ظافراً غانماً. وتكررت مثل هذه العمليات في السنوات التالية.

وكان من أكبر الوقعات المعروفة في عهده وقعة البيضاء سنة (٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، وفيها قاد موسى بن موسى جيش الصائفة حتى وصل إلى بلدة «البيضاء»، وهناك اصطدم بجيش كبير من غاسكونيا أو «الجاشغبين»، كما يسميهم العرب، ودارت معركة صعبة لقي المسلمون فيها عناء كبيراً وبذلوا جهداً رائعاً حتى أمكن لهم الصمود، وأصيب موسى نفسه بخمسة وثلاثين جرحاً. وفي اليوم التالي، وعلى الرغم مما نزل بجيش المسلمين وقائدهم، أعاد تنظيم جيشه وتحامل على نفسه وانطلق بهجوم حاسم استطاع به أن يحرز النصر، وهزم جيش الغاسكون هزيمة منكرة، وتكبد فادح الخسائر **حتى فرشت الأرض بصرعاهم**(١).

وكان من أعظم أعمال الأمير عبد الرحمٰن الحكم قضاؤه على ثورة ماردة وتدمير المدينة الثائرة سنة (٢١٣ ـ ٢٢٠هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٣٥م)؛ فقد كانت ماردة قريبة من الشمال، وكان ملوك فرنسا يحرضون أهلها باستمرار على الثورة والتمرد.

---

(١) **البيضاء**: Albeida ـ وفي **المقتبس** ـ علي مكي ـ صفحة ١٥٦ ما يلي: «البيضاء: حصن صغير شيده موسى بن موسى القسوي على بعد كيلو مترات قليلة من مدينة لوغرون Logrone، وهي على مسافة قريبة من بنبلونة، وهي الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كم إلى الشمال الغربي من تطيلية. ويتردد ذكر البيضاء في الحوليات المسيحية التي تذكر أنه لم يكد موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصره ملك جيليقية، واشتوريش ـ أردون الأول Ordone 1 فخرج موسى للقائه. ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية تعرف في الحوليات المسيحية باسم معركة كلافيجو Clavijo. وتقول هذه المصادر إن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة منكرة وأن موسى أصيب بجراح شديدة وقتل زوج ابنته غارسية. وتحدد هذه المصادر المسيحية تاريخ المعركة بسنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩ ـ ٨٦٠م)، على أن المصادر الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه المعركة مما يجعل الشك محيطاً بصحة الرواية المسيحية. وقد ذكر ابن الأثير معركة البيضاء بكلمات قليلة في أحداث سنة (٢٣٧هـ) وقال إنها وقعة عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين، وهي الوقعة المعروفة بوقعة البيضاء وهي مشهورة بالأندلس.

وقد كتب ملك فرنسا «لويس الحليم» إلى أهلها رسالة جاء فيها: «باسم ربنا الإلـٰه، وباسم مخلصنا يسوع المسيح، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الإلـٰهية إلى الأساقفة والشعب في ماردة. قد اتصل بنا ما تقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمٰن الذي لا يزال يرهقكم عسراً، متبعاً في ذلك طريقة أبيه «أبولاز ـ الحكم» الذي كان يبتزُّ أموالكم، بعد أن جعل أصدقاءه أعداء وجعل الطامع عاصياً، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وأن يثقلوا كاهلكم بالضرائب وأن يمسوا كرامتكم، وقد علمنا أنكم أبيتم تحمُّل الإهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوكهم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم. وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة، فرأينا أن نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه، ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه. ولما كان هذا الملك البربري عدواً لنا، كما هو عدو لكم، فإننا على استعداد للاشتراك معكم في قتاله، وسنرسل لكم ـ بعون الله تعالى ـ في هذا الصيف جيشاً يجتاز البيرينه، ويعمل بإشارتكم، فإذا زحف إليكم عبد الرحمٰن كان جيشنا بالمرصاد له. كما نعلمكم منذ الآن أنكم إذا ما خلعتم طاعة عبد الرحمٰن وأصبحتم من رعايانا، فسنعيد لكم حريتكم الأولى دون مساس بها، ودون مطالبتكم بأدنى مال تؤدُّونه لنا، ولكم أن تختاروا القانون الذي تريدون السير عليه، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون الاشتراك في الدفاع عن سلطتنا»[1].

وقام أهل ماردة بذبح المسلمين، وقادوا ثورة استمرت سبعة أعوام. وضاق الأمير عبد الرحمٰن ذرعاً، فقاد جيشاً كبيراً بنفسه، وشدَّد قبضته.

وأوردت المصادر العربية المرحلة النهائية لثورة ماردة بما يلي: «أشفى أهل ماردة على العطب، ونظر الأمير عبد الرحمٰن إلى جنده وقد تعلقوا بشرفات السور وتغلبوا عليه، وضعف أهل ماردة عن مدافعتهم، فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء، فأمر بالإمساك عنهم، وأوقف الجند عن الاستمرار في قتالهم، ثم دعا بوزرائه وقواده وقال لهم: قد علمنا ما كان من تغلُّب رجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم، ولم يكن رفعنا ما رفعناه عنهم إلا

(١) **الكامل لابن الأثير**، أحداث سنة (١١٣هـ). **تاريخ غزوات العرب**، أرسلان، وفيه أن الرسالة كتبت عام (٨٢٦م)، والاحتمال الأكثر صحة هو أنها كتبت سنة (٨١٦م)، وفقاً لمسيرة الأحداث عند المؤرخين العرب.

قربى لله ﷻ فيهم، ورأفة من قتل أولادهم وأطفالهم ومَن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم. ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوَّدنا الله وعرفنا من العفو والصفح، وقد عزمت على الانتقال عنهم، فإن أبصروا قدر يدنا في الإبقاء عليهم ومراقبة الله فيهم، وإلا كان الله من ورائهم محيطاً وعلى الانتقام منهم قديراً، فهو الذي أيَّدنا وقهرهم، ونصرنا وكبَتهم»[1]. فلم ينتقل من موضعه حتى وافته رسلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم وإخراج أصحاب الفتنة من بينهم. وكان قضاء الأمير عبد الرحمٰن على ثورة قرطبة من أبرز الأعمال التي ميَّزت عهده[2].

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمٰن، بعد ذلك، إمارة الأندلس (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦م)، فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة، فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع. وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من برشلونة ورجعوا. ولما استمد أهل طليطلة، المخالفون (المتمردون) من أهل بلاد الأمير محمد، عليه بملكي جيليقية وقشتالة والبشكنس، لقيهم الأمير محمد على وادي سليط[3]، وقد أكمن لهم فأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

وفي سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، ظهرت مراكب المجوس «الأردمانيين أو

(١) أخبار مجموعة ١٣٩.

(٢) تذكر المصادر التاريخية عن ثورة قرطبة: «ذات يوم، وبينما كان القسيس «هارفكتس» يسير في قرطبة، تعرض له أحد المسلمين لاستشارته حول أمور زواج المسيحيات بالمسلمين، ثم تطور الحديث إلى مناقب نبي الإسلام، فكان في بعض إجابات القسيس ما ينال من مكان النبي العربي ﷺ. وانتشر قول القسيس بين المسلمين فاعتقلوه وذهبوا به إلى قاضي قرطبة، فلم ينكر أقواله، وقذف الإهانات والشتائم، فأصدر قاضي قرطبة حكمه بإعدامه، فأعدم مع عدد من أنصاره، أمثال «يولوجيوس وألفارو»، ومن النساء فلورا Flora، نظراً لما كانوا يقومون به من الدعاية المضادة للمسلمين وإثارة الحماسة لقتالهم».
وكان لهذا الحدث دور كبير في إشعال نار الحقد في صدور المتعصبين الذين انطلقوا يصورون الحادث «بمأساة إنسانية». وتطور الوضع إلى ما يهدد بالانفجار، وخشي قسس الأندلس فقد الحرية الدينية التي ضمنتها لهم الدولة الإسلامية، فأسرعوا إلى عقد اجتماع عام (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، قرروا فيه منع شتم النبي العربي «وأن القذف بنبي الإسلام عمداً، حباً بالقتل والشهادة، هو مخالف لروح الإنجيل».

(٣) **وادي سليط** Auzalete: هو نهير يصب في نهر التاجة جنوبي طليطلة.

النورمان» وعاثوا في الأندلس، فلقيهم الأمير محمد، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين.

وفي سنة (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، أغزى محمد إلى نواحي بنبلونة، وصاحبها حينئذٍ «غرسية بن ونقة»[١]، وكان يظاهر «أردون بن أذفنش»، فعاث في نواحي بنبلونة، ورجع وقد دوَّخها وفتح كثيراً من حصونها، وأسر فرتون، ابن صاحبها، فبقي أسيراً بقرطبة عشرين سنة. وفي عهد الأمير محمد عادت ماردة إلى التمرُّد، فتمَّ تدميرها[٢]، كما عاد النصارى في قرطبة للتمرُّد، فتمَّ قمع ثورتهم[٣].

يمكن بعد ذلك تجاوز عهد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨م) والأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢م) للوصول إلى عهد عبد الرحمٰن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) وعهد الحكم بن عبد الرحمٰن «المستنصر» (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م)، حيث بلغت الأندلس في عهدهم عصر القوة.

ففي عهد الناصر، استفحل ملك بني أمية، إذ كان الناصر كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب. ومن أخباره أنه غزا سمورة، دار الجلالقة، في مائة

---

(١) غرسية Garcia ابن ونقة Inigo وحليفه أردون Ordano.

(٢) وفي تدمير ماردة، قال شاعر عربي:

ويل لماردة التي مردت ... وتكبرت عن عدوة النهرِ
كانت ترى لهم بها زهر ... فخلت من الزهرات كالقفرِ
فالويل ثم الويح حين غزا ... بجميعهم من صاحب الأمرِ

(نفح الطيب ١/ ٣٥١).

وفي مدح معركة الأمير محمد بوادي سليط، قال عباس بن مرداس قصيدة منها:

بكى جبلا وادي سليط فأعولا ... على النفر العبدان والعصبة الغلفِ
يقول ابن يوليس لموسى وقد أتى ... أرى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي
قتلنا لهم ألفاً وألفاً ومثلها ... وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألفِ
سوى من طواه النهر في مسلحبه ... فأغرق فيه أو تدأدأ من جرفِ

(ابن عذارى ٢/ ١٦٦).

(٣) في عهد الأمير محمد، تم القضاء مرة أخرى على ثورة النصارى المتعصبين بقرطبة، وحوكم القس «إيلوج»، المحرض الأول على الثورة، وقضي بإعدامه، ونفذ الحكم، كما أُعدمت صاحبته ومعاونته «ليو كريسيا» في آذار ـ مارس سنة (٨٥٩م).

لمطالعة المزيد عن تحريض النصارى، انظر: **Histoire des Muslmans de L'Espagne**, Paris, 1932 - V.I.P. 355.

ألف أو يزدون، ومُنح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم، وكان له في جهاد العدو اليد البيضاء. فمن غزواته أنه غزا سنة (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) إلى جيليقية، وملكها أردون بن أذفونش، فاستنجد بالبشكنس والفرنج، فهزمهم الناصر، ووطئ بلادهم، ودوَّخ أرضهم، وفتح معاقلهم وخرَّب حصونهم. وصار الناصر يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد، وبعث جيوشه إلى المغرب فملك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب.

وعندما توفي الناصر، طمع الجلالقة في الثغور، فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فرديناند، فنازل شنت أشتيبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل، فبادروا إلى عقد الصلح معه... وعظمت فتوح الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس، ثم فتح قطوبية (قرطبة).

كانت حياة أمراء الأمويين بالأندلس، متشابهة في أيامها، جهاد مستمر في سبيل الله، وعمل دؤوب لعزة الإسلام والمسلمين. وكانت دولة بني أُمية بالأندلس نموذجاً لبناء الدولة العصرية التي يرتبط فيها البناء الحضاري ببناء القوة الذاتية.

الفَصْلُ الثّالِث

صقر قريش وفن الحرب

١ ـ السياسة الاستراتيجية لصقر قريش.
٢ ـ صقر قريش وفن القيادة.
٣ ـ في مبادئ الحرب.

صقر قريش وفن الحرب

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

[العنكبوت/٦٩]

ليس من الصعب أو العسير فهم العوامل التي ساعدت الأمير عبد الرحمٰن الداخل في إحراز ما حققه من انتصارات، وليس من المتعذر إدراك الأسس التي عمل بها الأمير عبد الرحمٰن الداخل حتى وصل إلى ما وصل إليه، ولكن هل من السهل على أي إنسان إلزام نفسه بمثل ما ألزم الأمير عبد الرحمٰن الداخل نفسه به، حتى وصل إلى هدفه العظيم؟

قد يقال بأن الأمير عبد الرحمٰن اقتحم الأندلس التي تمَّ فتحها في زمن الأمويين، فكانت العصبة الأموية فيها قوية لدرجة كافية، بحيث استطاع الداخل أن ينطلق من قاعدة صلبة. وقد يقال إن الوضع المتدهور في الأندلس، والتمزق الداخلي بين مراكز القوى، قد ساعد الداخل في تحقيق أهدافه. وقد يقال إن ما أقدم عليه الأمير عبد الرحمٰن لم يكن إلا نتيجة لِما تعرَّض له الأمويون، بحيث كان الداخل مدفوعاً لاقتحام أهوال لا خيار له في بديل عنها. كل ذلك، ومقولات لا نهاية لها يمكن افتراضها، ولكنها كلها لا تصمد أمام الرد الساطع، وهو: لقد تعرَّض بنو أُمية كلهم لموقف واحد، فلماذا لم يخرج من بينهم غير عبد الرحمٰن الداخل؟

لقد كان الأمير عبد الرحمٰن الداخل هو قدر الأندلس، وكانت الأندلس هي قدر عبد الرحمٰن الداخل. لم تكن القوة اليمانية التي ناصرته هي أقوى مراكز القوى الأندلسية، ولا كانت القوى التي تجمعت له كافية لتثبيت بنيان دولة قوية. وهنا تكمن عبقرية الأمير عبد الرحمٰن الداخل، الذي أفاد من مراكز القوى بقدر ما تتطلبه كل مرحلة من مراحل بناء الدولة، ثم ضم مراكز القوى كلها تحت جناحه، ومضى بها بتصميم لا نظير له وكفاءة لا مثيل لها، وشجاعة لا يمكن

وصفها، فكانت حياته صراعاً دائماً وجهاداً مستمراً ضد أعداء الداخل والخارج. وكان أعداء الداخل أشد خطراً من أعداء الخارج، وكان خطر الخارج غير منفصل عن تهديد الداخل، فكانت الموازنة صعبة، وكانت الخيارات عسيرة.

غير أن الأمير عبد الرحمٰن عرف كيف يرسم سياسته الاستراتيجية وكيف ينفذها في إطار الظروف المحيطة به، مستخدماً من القوى الوسائط ما يتناسب مع تلك الظروف، وبذلك أمكن له الانتقال من نصر إلى نصر، ومن مرحلة إلى مرحلة، دونما زلل أو خطأ، فكان في ذلك انتصاره الكبير.

ولم تكن أهمية انتصارات الأمير عبد الرحمٰن الداخل، في كل الأحوال، تعبيراً عن مجد فردي، فقد حقق عدد كبير من قادة التاريخ انتصارات رائعة، إلا أنها لم تترك من الأثر ما يزيد على أسطر قليلة في صفحات التاريخ. وهنا تلتحم أمجاد انتصارات الأمير عبد الرحمٰن باسم «العائلة الأموية» التي تميَّزت بصنع أمجاد العرب المسلمين، وهنا أيضاً تلتحم أمجاد الأمويين بعقيدة الإسلام وجهاد المسلمين. وهكذا، فلولا الإسلام ما كان بنو أُمية، ولولا بنو أُمية ما كان الأمير عبد الرحمٰن، ولا كانت أمجاد الأندلس على الرغم من كل الانتصارات.

لقد كان الأمير عبد الرحمٰن الداخل نسيجاً وحده في عالم العرب المسلمين، فيه شجاعة جده الأعلى مؤسس دولة الأمويين في الشام «معاوية بن أبي سفيان»، وفيه عزم نظيره في عصره، مؤسس الدولة العباسية «أبو جعفر المنصور»، ولكنه ينفرد عنهما، ويتفوق عليهما في عدد من الخصائص والفضائل. وكان أكبر ما أبرز تفوُّقه هو إقامته للدولة الأموية في الأندلس، والتي حفظت عز المسلمين وأمجادهم على امتداد قرون متتالية.

ومن المحتمل هنا القول: إن الإسلام قد دفع إلى الدنيا مجموعة من القادة لا نظير لهم في التاريخ، وإنه لو لم يظهر الداخل لكان هناك أشباه للداخل وأمثال. وقد تصعب مناقشة أحداث التاريخ من منطق الافتراضات «لو، وإذا»، إذ أن أحداث التاريخ لا تقبل النقض والإبرام. وتبقى الحقيقة التي لا تقبل النقض والإبرام، وهي أن الأمير عبد الرحمٰن الداخل هو رجل الدنيا وواحدها، وهو الذي لم يعوِّل في الدنيا على أحد، فكان له من تصميمه وعزمه أمضى سلاح، وكان له من عقله وقلبه أقوى عدة، فكان منارة خالدة في طليعة منارات قادة العرب المسلمين.

١ ـ السياسة الاستراتيجية لصقر قريش

لقد كانت دمشق هي قاعدة العرب المسلمين، منها انطلقت جيوشهم ففتحت المشرق والمغرب ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، ثم عدت عوادي الليالي على دمشق، واهتزت قاعدة العرب المسلمين، وانتقل دورها إلى شقيقتها بغداد، وخرج عبد الرحمٰن طريداً يحاول العثور على قاعدة تكون خلفاً لدمشق «**فوجد في قرطبة دمشق الأندلس**»، وانطلق من قرطبة إلى ما يحيط بها من مدن وأقاليم، وأمضى حياته في دعم هذه القاعدة وتقويتها وتحصينها. ولم تكن قوة قاعدة الأندلس مرتبطة فقط بتحصينات قرطبة وأسوارها وقلاعها، وإنما كانت قوتها بوفرة عتادها وكثرة عدد قواتها وبتلاحم هذه القوات ووحدة قيادتها ووحدة هدفها.

وكانت قوة قاعدة الأندلس كلها بتحقيق العدالة فيها، ومن هنا تظهر أهمية اعتماد الأمير عبد الرحمٰن على طبقة العلماء والفقهاء، ووضع الأسس لبناء الدولة على أساس التضييق الحازم لأسس الدين الإسلامي والالتزام بقواعد الشريعة الإسلامية. وبذلك أمكن تحقيق قوة البناء مادياً ومعنوياً، وأمكن بذلك أيضاً القضاء على النوازع المختلفة وحشد القدرات كلها تحت راية الجهاد في سبيل الله.

وهنا تظهر مشكلة طالما أثارت المؤرخين، وهي الاعتماد على «الصقالبة والموالي»[1]؛ ذلك أن الأمويين قد عرفوا في التاريخ بتعصبهم الشديد للعرب

---

(١) **الصقالبة**: كانت كلمة الصقالبة في الأندلس تعني جميع الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية ـ السلافية، الحقيقية، ثم أصبحت تطلق على جميع الأجانب الذين يضمهم القصر من جلالقة وألمان وفرنسيين ولومبارديين وإيطاليين من جنوة وصقلية، وكان معظمهم يحملون صغاراً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق، وكانوا يختارون من الجنسين، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ويلقنون مبادئ الإسلام، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وألفوا الكتب والقصائد. ثم تعاظم نفوذ الصقالبة في عهد الناصر لسيطرتهم على شؤون الإدارة =

المسلمين، وجاء عبد الرحمٰن الداخل، فبدل قاعدة أسلافه بزيادة اعتماده على الصقالبة - غير العرب - ونسبوا ذلك إلى كثرة ثورات العرب. وفي الواقع فإن دولة أُمية في المشرق جابهت كثيراً من الثورات وأعمال التمرد، غير أن أمراء بني أُمية لم يحاولوا أبداً الاعتماد على غير العنصر العربي، ولهذا فمن الصعب إرجاع هذا التبديل لأعمال التمرد أو الثورات وحدها، بل إن هناك عاملين ظهرا في الأندلس وهما الحاجة إلى الجيش الدائم لمجابهة الأخطار الخارجية والداخلية، ثم الحاجة لدعم العنصر العربي الذي استنزفته الحروب، علاوة على الحاجة لعناصر أكثر ولاء للحكم ولا تعرف لها قيادات غير الأمراء الأمويين.

وتتأكد هذه الحقيقة باعتماد بني العباس على عناصر غير عربية بسبب وفرة الأعداد التي دخلت في الإسلام من غير العرب، فكان من غير المقبول عدم السماح لها بممارسة دورها في بناء الدولة الإسلامية. وإن اتساع الفتوحات قد زاد على حجم القدرة العربية (البشرية)، وكان ذلك في جملة الأسباب التي دفعت الداخل إلى تبديل الأساس في بناء الدولة، غير أن الأمر الواضح والذي لا يقبل المناقشة أو الجدل هو أن العنصر العربي بقي هو المهيمن في دولة بني أُمية، سواء في الشام أو في الأندلس، وذلك بفضل قوة الأمراء الأمويين وكفاءتهم العالية في إدارة الدولة، تماماً على نحو ما كان عليه موقف الدولة العباسية في بداية عهدها، «خلال المائتي سنة الأولى تقريباً من العصر العباسي».

مهما كان عليه الموقف، فقد استطاع الأمير عبد الرحمٰن بناء قاعدة قوية وصلبة بدأت من قرطبة وانتهت بالأندلس كلها، باعتراف المؤرخين جميعهم، وبتأييد الشواهد التاريخية كلها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن بناء هذه القاعدة، بالاعتماد على عناصر مختلفة من عرب وبربر وصقالبة وسواهم، إنما يبرهن على كفاءة الأمير عبد الرحمٰن العالية. صحيح أن الإسلام قد ساوى بين

= والحكم والقصر، وصارت إليهم المناصب الكبرى في الدولة والجيش، وتزايدت أعدادهم، وامتلكوا الضياع، وأصبح لديهم أموال ضخمة، وكان الناصر يدعم سلطانهم ونفوذهم، فكان منهم قائد الجيش «نجدة الصقلبي» وصاحب الخيل - أو قائد الفرسان - «أفلح»، كما كان منهم قائد الشرطة «ودري» بالإضافة إلى «ياسر وتمام» صاحبا النظر في الشؤون الخاصة. (**البيان المغرب** ٢/ ١٢٣، **ونفح الطيب** ١/ ٣٦٣، **وأخبار مجموعة** ١٥٥، **ودولة الإسلام في الأندلس** - عنان - ص١٠٥، ١٠٦، **وتاريخ المسلمين في إسبانيا** - دوزي، باريس ١٩٣٢م مجلد ٢ ص١٥٣ «فرنسي»).

المسلمين غير أن توحيد جهد المسلمين لم يكن عملاً سهلاً، لا سيما بالنسبة لمراكز القوى التي دخلت حديثاً في الإسلام، أو تلك التي لم تتمكن من التحرر نهائياً من عصبياتها الجاهلية، والتي ساعد انعزالها بالأندلس وخوفها من الضياع على زيادة حدة تمسكها بولاءاتها لقياداتها العصبية، ولا ريب أن بعث روح الجهاد في سبيل الله قد ساعد كثيراً على صهر النوازع الفردية وعلى توحيد جهد المسلمين.

وكان لا بد لبناء القاعدة القوية والصلبة من تبني سياسة استراتيجية طالما حقق العرب المسلمون نجاحاً رائعاً فيها، وهي «**بناء المجتمع الإسلامي الجديد**». فقد جاء الأمير عبد الرحمٰن إلى الأندلس فوجدها مجموعة من المجتمعات المتنافرة، تماماً على نحو ما كانت عليه زمن الفتح، وكان لا بدَّ من دمج هذه المجتمعات في المجتمع الجديد، وكانت هناك مجموعة من العوامل التي تفرض ذاتها، مثل الوضع الخاص للأندلس كشبه جزيرة منعزلة نسبياً، ثم اقترابها من بلاد الغال ـ فرنسا ـ ووجود مجتمع مميز، فكان لا بد من التكيف نسبياً مع مجموعة الظواهر المميزة للمجتمع الأندلسي، مع المحافظة على الأصالة العربية والمبادئ الإسلامية، فنشأ عن ذلك كله مجتمع جديد مميز بنموذج حياته وبطرائق تفكيره وبأخذه بكل المعطيات الخاصة التي أخذت ظواهرها حتى في أسلوب اللغة، وقد حفظت المراجع الأندلسية مجموعة لا نهاية لها من الشواهد التي تؤكد الطابع الخاص للمجتمع الأندلسي الإسلامي الذي لا زالت بعض أوابده خالدة في فن العمارة والأدب والعلم والفن.

وكانت عملية بناء المجتمع الإسلامي الجديد مرتبطة أيضاً باستراتيجية ثالثة هي «**وضوح الهدف**». فقد خرج الأمير عبد الرحمٰن من بلاد الشام وهدفه إقامة دولة تعيد لبني أُمية ملكهم المفقود وتجدد لهم عزهم الضائع ومجدهم الغارب. وبقي هذا الهدف ماثلاً أمام الأمير عبد الرحمٰن طوال حياته المديدة، لم يفارقه يوماً، ولم يغب عن ناظره لحظة واحدة، فكان كل عمل من أعماله إنما يسير لخدمة هذا الهدف.

ولم يكن قضاء الأمير عبد الرحمٰن على مراكز القوى وإضعافها وإبدال الولاء القبلي، ذلك، بالولاء للدولة، ثم الانصراف للبناء الحضاري المستمر، ونقل تراث المشرق إلى المغرب، إلا هو نتيجة لوضوح الهدف. ولعل من وضوح الهدف ربط دولة الأمويين بالأندلس بالخلافة العباسية على الرغم مما كان بينهما

من عداء، وعلى الرغم مما كان بينهما من منافسة، وقد ظهر ذلك في البداية باستمرار الدعاء للخليفة العباسي، ثم بعدم تسمية الأمير عبد الرحمٰن لنفسه بالخليفة، والاكتفاء بلقب أمير المؤمنين.

ولا ريب أن إدراك الأمير عبد الرحمٰن لوحدة الخلافة الإسلامية في كل أقطار العالم الإسلامي، والتزامه بالشريعة الإسلامية كانا هما الدافع الذي حمل الأمير عبد الرحمٰن على ترك اسم الخلافة للعباسيين الذين أصبحوا هم القوة المهيمنة على العالم الإسلامي. فهل كان الأمير عبد الرحمٰن يأمل في إعادة توحيد القيادة الدينية والسياسية للعالم الإسلامي؟.

لقد بقي الأمل الكبير للأمير عبد الرحمٰن هو العودة إلى الشام وإقامة الحكم الأموي فيها، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بالرغبة في العمل لإعادة توحيد العالم الإسلامي. ولم يكن أمراء بني أُمية، لا في الشام من قبل ولا في الأندلس من بعد، بحاجة للمزيد من المجد والسلطان، وكانت لديهم متاعبهم المتعاظمة مع كل جهد إضافي للمحافظة على وحدة العالم الإسلامي غير أن الالتزام بمبدأ وحدة العالم الإسلامي كانت تفرض عليهم تحمل كل الأعباء لتحقيق الهدف العظيم الذي عرف فيه العرب المسلمون أسباب القوة التي ساعدتهم على حمل رسالتهم إلى أرجاء الدنيا وتعريف العالم بها، ويظهر ذلك الالتزام العميق لأمراء بني أُمية بحمل رسالة الإسلام، وبذل كل جهد مستطاع في هذا السبيل، ولقد سار الأمير عبد الرحمٰن على درب الإسلام وهدف نصره، فأيده الله بنصره.

وكان حرص الأمير عبد الرحمٰن الداخل على العنصر العربي، دعامة الإسلام، هو وسيلة لتحقيق أهدافه في مجال السياسة الاستراتيجية؛ وقد أظهر الأمير عبد الرحمٰن ذلك منذ البداية، إذ لم يكد يبصر بواكير النصر في معركة المصارة «قرطبة» حتى طلب إلى أنصاره اليمانية رفع السيف عن خصومهم، بقوله الخالد: «**لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشد عداوة منهم**».

وقد استمر الأمير عبد الرحمٰن بالعمل بهذه السياسة الاستراتيجية طوال حياته، وكلما وجد فرصة لذلك، وهذا ما يفسر عفوه عن المتمردين كلما أذعنوا له، والتجاوز عن أعمالهم، غير أن تطبيق هذا المبدأ بقي محكوماً بمتطلبات بناء الدولة: شدة من غير بطش ولين من غير ضعف، أو كما يقول المثل العامي: «لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم»، أو كما قال معاوية بن أبي سفيان: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن هم شدوها أرخيتها وإن هم أرخوها

جذبتها، أو شددتها». وهكذا جاء الحفيد ليسير على سياسة الجد وليطبق مبادئه في بناء الدولة بكفاءة عالية، واضعاً باعتباره كل المتحولات الجديدة.

ولقد بقيت شعرة معاوية هي الرباط القوي الذي ربط بين الأمير عبد الرحمٰن وبين مراكز القوى في أندلس المسلمين، ويظهر ذلك مدى الجهد المبذول لتقنين العنف في حروب الأمير عبد الرحمٰن، حيث كان الهدف هو ترويض مراكز القوى وإخضاعها لا تدميرها وإبادتها، وقد نجحت هذه السياسة الحازمة إلى أبعد الحدود؛ إذ أنها لم تلبث أن حولت الأعداء إلى حلفاء والخصوم إلى أصدقاء، ولم يخرج على ذلك إلا أولئك الطامعين بمنافسة الأمير عبد الرحمٰن في سلطته، وكان نصيب هؤلاء من الأمير عبد الرحمٰن البطش بدون رحمة أو شفقة.

ومن هنا يظهر أيضاً أن اصطناع الصقالبة، وتكوين جيش نظامي من العناصر المختلفة، لم يكن بديلاً عن العرب المسلمين، وإنما كان لدعمهم وزيادة قوتهم في مجابهة أعداء الخارج، الذين كان تهديدهم قائماً ومستمراً، والذين لم يكن باستطاعة الأمير عبد الرحمٰن تجاهل خطرهم أو الإنقاص من درجة الاستعداد لمجابهتم، ذلك أنه إذا ما كان خطر الداخل يتهدد حكم الأمير عبد الرحمٰن، فإن الخطر الخارجي كان يتهدد المسلمين جميعاً، ومن البدهي بعد ذلك أن يحرص الأمير على حشد القوى والوسائط المتنافرة ضمن إطار وحدة الهدف المشترك ضد أعداء الدين.

استخدم الأمير عبد الرحمٰن الداخل مجموعة من الاستراتيجيات التكميلية، وأولها «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، ويظهر ذلك في أسلوب القضاء على ثورة العلاء اليحصبي وإرسال رؤوس الثوار إلى القيروان ومكة المكرمة لإقناع العباسيين بعقم محاولاتهم، وحملهم على التخلي عن الهجوم المباشر، وكذلك الأمر بالنسبة للتعامل مع الفرنج ومع زعماء حركات التمرد، حيث كانت انتصارات الأمير عبد الرحمٰن تعتمد على الهيبة المعنوية وعلى القناعة، أكثر مما تعتمد على وسيلة الصدام المباشر، ولو أن وسيلة الصدام المباشر لم تكن بعيدة عن ممارسة دورها في تكوين تلك القناعات. وإذا ما تمَّ الانتقال من مستوى السياسة الاستراتيجية إلى مستوى العمليات، فسيظهر تطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر على شكل أساليب عزل وتطويق لمراكز القوى وحرمانها من إمكانات الدعم الخارجي، وذلك قبل الدخول معها بصدام مباشر.

ولقد كان هدف الأمير عبد الرحمٰن الدائم القضاء على الأعداء بأقل جهد ممكن، وهذا ما يفسر استمرار ثورة «شقنا بن عبد الواحد» لمدة عشر سنوات، إذ كان على الأمير عبد الرحمٰن الداخل مجابهة عدد من أعمال التمرد والثورات في وقت واحد، علاوة على ضرورة الاحتفاظ بالقوة لمجابهة أعداء الخارج. ولهذا فقد تعامل الأمير عبد الرحمٰن مع هذه الثورة بصورة مزيجة من الهجوم المباشر والتقريب غير المباشر، إلى أن أمكن في النهاية القضاء على هذه الثورة.

والأمر مماثل أيضاً بالنسبة لأسلوب الداخل في التعامل مع الأعداء في الداخل والخارج، حيث كان يحرص على تطويق الخطر بأسرع ما يمكن وحصره، ثم التعامل معه بهدوء وبحسب ما يمثله التهديد من درجة الخطر على عملية بناء الدولة. وفي الحالات كلها، كانت حروب عبد الرحمٰن حروب دهاء وعقل، وحروب حذق ومهارة، تضمن باستمرار تحقيق التوازن بين درجة الخطر وبين الأسلوب الناجح للقضاء عليه.

وطبَّق الأمير عبد الرحمٰن بكفاءة عالية «**استراتيجية الحروب التشتيتية**»، وتُظهر سيرةُ أعماله القيادية أنه كثيراً ما كان يجابه مجموعة من الأخطار ومن أعمال التمرد في وقت واحد وفي أماكن متباعدة، فكان يسرع لتوجيه مجموعات قتالية واجبها عزل المقاومات المعادية بعضها عن بعض، وعدم السماح لها بتنسيق التعاون فيما بينها. وهكذا كان الأمير عبد الرحمٰن يستفيد من الميزة المتوافرة له في «وحدة القيادة» ويحرم خصومه من هذه الميزة، فكانت النتيجة الطبيعية توافر الفرصة أمام عبد الرحمٰن للقضاء على ثورة بعد ثورة، ومجابهة معركة بعد معركة، وتحريك القوات في إطار من حرية العمل المطلقة مع حرمان الأعداء من حرية العمل، مما كان يضمن توافر الفرص أمام تحقيق النصر الحاسم لقوات الداخل.

ولا حاجة للقول إن الأمير عبد الرحمٰن الداخل قد أدرك أهمية هذه السياسة الاستراتيجية منذ كان بالشام، فقد عرف عن الأمراء الأمويين قدرتهم العالية وكفاءتهم النادرة في مجابهة أخطار كثيرة تبرز في وقت واحد. **وهنا تمتزج في شخصية الأمير الداخل الخبرات المتوارثة والشخصية الفريدة، لتسهم معاً في صنع الحدث التاريخي.**

وقد امتزجت استراتيجية الحروب التشتيتية في كثير من الأحيان «**باستراتيجية**

الهجمات الوقائية»، إذ من الواضح في سيرة الأمير عبد الرحمٰن أنه كان يبادر إلى مهاجمة أعدائه بمجرد أن تتوافر له المعلومات عن احتمال تحرُّك هؤلاء الأعداء، ليس ذلك فحسب، بل إنه كان يستبق الأحداث فيضع الخصوم المحتملين تحت قبضته، ولم يكن احتفاظه بالرهائن من أبناء الذين يحتمل لهم التمرد، سوى نوع من الهجوم الوقائي، كما أن تنظيمه للثغور، وترتيب الصوائف، لم يكن إلا إعادة لأسلوب الأمويين في الشرق (بلاد الشام)، وتطبيقاً «لاستراتيجية الهجمات الوقائية».

وتظهر متابعة هذه الاستراتيجية كلها، أنها تشكل القاسم المشترك عند قادة العرب المسلمين جميعهم. وعلى هذا، فليس الأمير عبد الرحمٰن الداخل أكثر من قائد عربي مسلم استوعب الأسس والمبادئ التي جاءت بها العقيدة الإسلامية، والتي أنضجتها التجارب القتالية لقادة العرب المسلمين طوال نيف ومائة سنة، حيث تشكَّلت من هذه التجارب حصالة ضخمة، إلا أن ذلك لا ينتقص من كفاءة الأمير عبد الرحمٰن الداخل في شيء، فالتجارب والخبرات، هي الثروة المشتركة لكل طامح ولكل قائد يعمل على استثمارها والإفادة منها.

وهكذا، **لم تكن وحدة القيادة وتكوين القاعدة القوية والصلبة، وكذلك بناء المجتمع الجديد ووضوح الهدف والحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، واستراتيجية الهجوم غير المباشر والحرب التشتيتية والهجمات الوقائية، غير استراتيجيات متكاملة أمسك الأمير عبد الرحمٰن بخيوطها في قبضته القوية، وأخذ في تطبيقها وتطويرها عند تعامله مع كل حالة من الحالات بما تتطلبه تلك الحالات المختلفة في ظروفها ومعطياتها**، وذلك مما يبرهن بوضوح على ما تميَّزت به شخصية القائد عبد الرحمٰن الداخل من كفاءة قيادية نادرة وفريدة، ويصبح النصر محصلة طبيعية للقائد الذي لم تُهزَم له راية، منذ وطئت أقدامه الأندلس وحتى مضى إلى ربه.

لقد اقتحم الأمير عبد الرحمٰن الأندلس، وهو شاب في مقتبل العمر، وفي الأندلس قادة ممن صهرتهم التجارب وزادتهم قوة وصلابة على قسوتهم وصلابتهم، فجعلت منهم قادة على درجة رائعة من الكفاء، ودليل ذلك تلك المناقشات التي حدثت قبل وصول عبد الرحمٰن إلى الأندلس وفي طريقه لبناء الدولة، وعلى الرغم من ذلك كله، فقد برهن الداخل على تفوُّقه القيادي المطلق.

لقد استصغر القوم شأن هذا الشاب الذي اقتحم عليهم جزيرتهم، وذهبت بهم الظنون إلى أنه سيكون تحت رحمتهم وفي قبضتهم عندما يستقر له الأمر، غير أنه برهن على أنه ليس بذلك الشاب الغض الذي يمكن ترويضه أو إخضاعه، فلانَ له قساةُ الرجال، وخضع له كبار القادة، وابتعد بنفسه كلُّ مَن ظنَّ في نفسه القدرة على منازعة الأمير الداخل نفوذه وسلطانه، واعترف الجميع ـ الأصدقاء والأعداء ـ بقدرة هذا الأمير الطريد الذي مكَّنت له كفاءته من إقامة دولة كانت أبداً رمزاً لعزة المسلمين ونموذجاً لأمجادهم.

٢ ـ صقر قريش وفن القيادة

كان من أبرز الفضائل القيادية عند صقر قريش، وفقاً لما تظهرها سيرة حياته، اهتمامه بالتنظيم الإداري، والشجاعة في الخطر، والعنف في القضاء على الأعداء والطامعين، والتحريض على القتال، واتخاذ القرارات الصحيحة ثم حمايته لأتباعه المرؤوسين.

ويظهر اهتمام صقر قريش بالتنظيم الإداري من خلال إرساء قواعد الدولة على أُسس ثابتة، سواء في إدارة الأقاليم، أو في جبايات الأمصار، أو في تنظيم القوات، أو في توزيع الموازنة وتنظيم أوجه الصرف، وقد أخذت هذه التنظيمات كلها شكلاً إبداعياً ومتطوراً، أمكن له الاستجابة لمتطلبات بناء الدولة من جهة، وأمكن له تلبية احتمالات المستقبل من جهة أخرى، بحيث لم يجد أمراء الأمويين بعد ذلك ضرورة لتغيير الأسس التي وضعها الأمير عبد الرحمٰن الداخل أو تبديلها.

وفي مجال عمل القوات المقاتلة، لم تظهر في سيرة صقر قريش القيادية وأثناء إدارته للحرب، أية مشكلة تتعلق بقصور القوات أو نقص إمداداتها أوضعف قدرتها الحركية، ما يؤكد اهتمام صقر قريش **بالتأمين الإداري للقوات**. ولا غرو في ذلك، فقد خصص الأمير عبد الرحمٰن ثلث موازنته (جبايات الأمصار) لبناء القوات المسلحة البرية والبحرية، وهي نسبة عالية لم تبلغها، على ما هو معروف، دولة في التاريخ القديم والحديث.

ولقد كان الأمير عبد الرحمٰن يعرف ثقل التحديات المفروضة عليه، بقدر معرفته أيضاً لأهمية القدرة الذاتية، ومن هنا جاء اهتمامه ببناء القدرة البحرية وتكوين الجيش النظامي العامل (الصقالبة) الذين كانوا يعيشون دائماً في حالة الحرب والاستعداد لها، وبذلك أمكن مجابهة الصراعات المفروضة بحزم وبسرعة، مما ضمن أفضل الظروف للنجاح.

وفي مجال «**الشجاعة في مواجهة الخطر**» يمكن اعتبار حياة صقر قريش كلها

نموذجاً لهذه الفضيلة. فقد بدأت رحلته من الفرات بنموذج أعلى للشجاعة في مواجهة الخطر، يوم أسرعت قوات العباسيين لمطاردته، فما فَقَدَ صوابه، ولا اهتزَّت أعصابه، ومضى يجتاز النهر سباحة بعزم ثابت وتصميم أكيد. وهو إذ يدرك نوايا أعدائه، فإنه لا ينخدع بوعودهم، ويحذِّر أخاه، الذي تضعف إرادته، فيعود ليلقى مصرعه على مرأى عبد الرحمٰن وتحت بصره، وهو يحزن لمصرع أخيه، ولكنه يحمل معه جراحه ويمضي بتصميم أكبر نحو أفريقية.

وعند وصوله إلى الأندلس، يصل إليه ما يقوله المقاتلون وهو يمتطي جواداً من كرام الخيل، عن احتمال هروبه إذا ما التحمت القوى وحمي وطيس المعركة، فيعمل على استبدال جواده ببغل يخوض عليه معركته ويجابه أخطار المعركة ويعمل على إدارتها بشجاعة خارقة. ثم هو لا يغترُّ بما أحرزه من نصر، ولا يستكين لما وصل إليه من قوة، فيندفع بشجاعة لمجابهة المقاومات والثورات، يقود الجيش بنفسه ويقف دائماً في مواقع الخطر.

ولم تكن شجاعة صقر قريش، في كل الأحوال، نوعاً من التهوُّر الخطر، كما لم تكن نوعاً من الإحجام في بعض الأحيان، إذ من الممكن اعتبار فرار عبد الرحمٰن في الفرات، نوعاً من الجبن عن مواجهة الواقع، كما يمكن اعتبار اختفاء عبد الرحمٰن تحت طيّات ثياب «تكفات البربرية»، يوم دهمته قوات أمير أفريقية، نوعاً من الفرار غير الشجاع. ولكن هل كان باستطاعة الأمير عبد الرحمٰنن مجابهة هذين الموقفين بغير ما جابههما به؟. وهل كان مصير عبد الرحمٰن غير القتل لو أنه سلك سلوكاً مغايراً؟. لقد جابه بعض أقارب عبد الرحمٰن العباسيين بغير أسلوب الأمير عبد الرحمٰن، فكان مصيرهم القتل، وبلغ ذلك الأمير عبد الرحمٰن فاستصغر فعلتهم تجاه ما أقدم عليه.

ولقد اعتبر الأمير عبد الرحمٰن أن النتيجة هي التي تقرر أهمية الوسيلة المستخدمة، وهكذا فإن الاختفاء والتستر كانا وسيلة الأمير عبد الرحمٰن للوصول إلى هدفه، ويبرز ذلك أسلوب الأمير عبد الرحمٰن في مجابهة مواقف الخطر، إذ إنه يخضع لِما لا سبيل له إلى دفعه حتى يستطيع الوصول إلى ما يساعده على تحقيق هدفه. وقد برهن الأمير عبد الرحمٰن على شجاعة فائقة في ميادين القتال، كما برهن على تصميم رائع في اقتحام مواقع الخطر، غير أن ذلك كله في إطار عقلاني بعيد كل البعد عن الاستثارات العاطفية أو الانفعالات الطارئة، أو حتى ردود الفعل التي تتناقض مع التخطيط المبرمج

الذي برهن الأمير عبد الرحمٰن على كفاءته العالية في سلوكه وممارسته.

عُرف عن صقر قريش بعد ذلك بطشه الشديد بخصومه، وتدميره لأعدائه بدون رحمة أو شفقة، بحيث أنه قضى على كل أنصاره الذين حملوا معه في البداية أعباء إقامة الدولة، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن الغدر كان من صفات الأمير عبد الرحمٰن، لكن استقراء حياة الأمير عبد الرحمٰن القيادية تدحض مثل هذه الصفة التي تتناقض مع ما عرف عن صقر قريش من الفضائل، ولقد أكد الأمير عبد الرحمٰن ذلك عندما رفض معاملة «أبو عثمان عبيد الله بن عثمان» بمثل ما عامل العباسيون «أبو سلمة الخلال»، وامتنع عن الغدر به على الرغم من ثبوت تآمره، واكتفى بتجريده من سلطته والحد من خطره.

أما قضية إعدام الأمير عبد الرحمٰن لأقاربه بمن فيهم أبناء أخويه، فتلك قضية تتعلق ببناء الدولة وتدمير مراكز القوى، وهي قضية لا مجال للمهاودة فيها أو المساومة، وكذلك الأمر بالنسبة لأولئك الذين ساندوا صقر قريش في بداية أمره ثم انقلب الأمير عبد الرحمٰن ضدهم وأبعدهم، وفي الواقع فليس الأمير عبد الرحمٰن هو الذي غدر بهم، وإنما هم الذين أرادوا الغدر به منذ البداية، ولم يكن تحالفهم معه إلا تحالفاً مرحلياً أرادوا تقوية نفوذهم من خلاله، وقد عرف الأمير عبد الرحمٰن ذلك، ولهذا وضع مخططاً محكماً للحد من نفوذ حلفائه وعدم السماح لهم بدخول دائرة المنافسة للسيطرة على مراكز القوى.

وقد استخدم الأمير عبد الرحمٰن أولئك الذين ساندوه ولم يظهروا طمعاً في منافسته طوال حياته، ومنهم من استمر في خدمة الأمويين حتى إلى ما بعد عهد صقر قريش، وليس ذلك إلا برهاناً قاطعاً على أن أسلوب الأمير عبد الرحمٰن في «**القضاء على الأعداء**» كان أسلوباً مقنناً بإحكام وضمن إطار مصلحة «بناء الدولة».

وهو مع ذلك يضع النوازع الإنسانية كعامل أساسي في تعامله مع المنافسين له؛ فعندما قتل ابن أخيه لم يرغب بعد ذلك بلقاء أخيه، وطلب إليه، بالواسطة، اختيار أية بقعة قاصية في الأندلس لإقامته، وأمده بالمال الذي يحتاجه وصرفه عنه. وكذلك الأمر بالنسبة لمولاه بدر الذي ظنَّ أن جهده في بداية إقامة الدولة، سيشفع له في ممارسة السلوك الذي يريده ولو كان في ذلك ما يتناقض مع متطلَّبات بناء الدولة، فكان أن لقي من عبد الرحمٰن الجفاء والبعد وسوء المعاملة، مما ردع كل طامع، وأدخل الرعب في نفس كل من يفكر بمشاركة صقر قريش في سلطته.

وفي مجال «**الحض على القتال والتحريض على الجهاد**» كان أسلوب عبد الرحمٰن مميزاً، فهو يستثير الهمم بتحديد الهدف؛ فهو يقول للمقاتلين في معركة يوم المصارة: «هذا اليوم هو أُس ما ينبني عليه الملك، إما ذل الدهر، وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون». وهو يحرض على القتال بتقريب النصر عن طريق المشابهة، فهو يشبِّه معركة المصارة بمعركة مرج راهط، ويثير بذلك حلفاء اليمانية ويذكرهم بأمجادهم وما نالوه نتيجة نصرتهم للدولة الأموية، ثم ما حققوه من نصر حاسم في ذلك اليوم.

وعبد الرحمٰن يستثير أصحابه ويحرضهم على القتال بالأمثولة؛ فهو يتقدم الصفوف ويعمل على إدارة المعركة برباطة جأش. وفي المعركة ضد الفهري يسرع إلى ابن عمه عبد الملك، وقد شهد منه إقدامه وشجاعته وحسن بلائه، فيغدق عليه من المنح والأعطيات ما يستحقه: «فأتاه عبد الرحمٰن، وجرحه يجري دماً، وسيفه يقطر دماً ولقد لصقت يده بقائم سيفه، فقبَّل بين عينيه، وجزاه خيراً، وقال له: يا ابن عم، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً، ابنتك فلانة، وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا ولأولادك كذا، وأقطعتك إياهم كذا، ووليتكم الوزارة».

وهكذا يأخذ الحضُّ على القتال أسلوباً عملياً وفورياً عند صقر قريش، فهو كريم إلى أبعد حدود الكرم والعطاء إلى من يخلص في الدفاع عن الدولة، وهو عنيف إلى أقصى درجات العنف في القضاء على الأعداء. ويصبح الثواب مقابلاً للعقاب ومعادلاً له في القوة ما يحمل المقاتل على الاندفاع بإخلاص لأداء واجبه ويحمِّل المقصر ثمن تقصيره.

ويبقى العامل الحاسم في التحريض على الجهاد واحتمال كره القتال هو رؤية المقاتلين لقائدهم الأمير عبد الرحمٰن وهو يشرف على المعركة بنفسه ويقتحم مواطن الخطر بذاته، على نحو ما شهده المقاتلون في معركة يوم المصارة، وذلك هو الأسلوب العملي الذي تميز به قادة المسلمين جميعاً.

ويبقى من أهم مميزات القائد هو «**اتخاذه للقرارات الصحيحة**»؛ فالقيادة إنما تعني قبل كل شيء اتخاذ القرارات الصحيحة والإشراف على تنفيذها في الوقت المناسب بعد تحويلها إلى تعليمات وأوامر دقيقة وواضحة. وقد عرف عن الأمير عبد الرحمٰن اتخاذه القرارات الصحيحة في كافة المواقف، في تعامله مع

الأصدقاء والأعداء، وفي معالجته للأمور الخاصة والقضايا العامة، ثم في عدم التسرع بمعالجة الأمور إن لم يكن فيها تناقض مع متطلبات الموقف.

وعلى سبيل المثال هناك موقفان حدثا يوم معركة المصارة تطلَّب أحدهما حلاً فورياً، وتطلَّب الآخر إرجاء القرار إلى ما بعد أكثر من سنة. ففي الموقف الأول، وعندما بلغ الأمير عبد الرحمٰن ما يقوله المقاتلون عن احتمال هروبه على ظهر جواد أصيل إذا ما احتدمت المعركة، لم يحاول إقناع المقاتلين بخطبة عصماء أو بمناقشة مقنعة، وإنما عمل بهدوء، فتظاهر بعدم الرغبة في القتال على ظهر جواد سريع الحركة، واستبدله ببغل بطيء يستطيع احتمال الصدام والقتال، فدحض الأقاويل بأسلوب عملي، وبدون أن يفصح عما يهدف إليه أو ما بلغه من المقولات.

أما الموقف الثاني فهو ذلك الذي اتخذه عندما وصله قول زعيم اليمانية الذي صرح برغبته في تحقيق نصرين في يوم واحد، والانقضاض على الأمير عبد الرحمٰن بعد أن تم النصر على أنصار الفهري - المضرية -. أمام هذا الموقف لم يحرك الأمير عبد الرحمٰن ساكناً، ولا تظاهر بأنه علم شيئاً مما قيل، وكل ما فعله هو أنه حرض المقاتلين على استثمار النصر وتطوير الأعمال القتالية إلى إن تمَّ ذلك، ثم عاد إلى قرطبة منتصراً، وانتظر لأكثر من سنة حتى تمَّ له القضاء على خصمه زعيم اليمانية. والمواقف بعد ذلك كثيرة، تظهر بصورة واضحة في معالجة الأمير عبد الرحمٰن للأمور من خلال سيرة حياته.

ولكن لا بد من الإشارة إلى أن العامل الأساسي الذي ساعد الأمير عبد الرحمٰن على اتخاذ قراراته الصحيحة، هو اعتماده على شبكة دقيقة من عناصر الاستطلاع الأمناء، الذين كانوا ينقلون إليه المعلومات الصحيحة بصورة فورية، وقد كان من المحال على الأمير عبد الرحمٰن اتخاذ مقرراته بمثل الدقة وبمثل الحزم اللذين تميزت بهما القرارات لو لم تكن هناك معلومات دقيقة تتوافر له بصورة منتظمة. والأمر الواضح هو أن شبكة عناصر الاستطلاع قد حظيت باهتمام صقر قريش من قبل أن يصل شبه جزيرة الأندلس، إذ ظهر عملها، وبرز دورها، منذ اليوم الأول لوصوله إلى الأندلس، مما يؤكد اهتمامه الشخصي بعناصر الاستطلاع وتنظيمها ما ضمن له مجابهة المواقف المختلفة في الوقت المناسب.

ويبقى هناك أيضاً مبدأ هام يبرز في سيرة صقر قريش القيادية وهو «**حمايته**

لأتباعه ومرؤوسيه» ممن يخلصون له القول والعمل. فالأمير عبد الرحمٰن يدعم، وإلى أقصى الحدود، أولئك الذين يعملون معه بإخلاص، ويسهمون معه بتجرد في بناء الدولة، فيرفعهم إلى ما يحبون، ويصل بهم إلى ما يشتهون، يفرج عنهم كرباتهم إذا ما حلت بهم ضائقة ولا يتمهل في الإسراع لنجدتهم إن نزلت بهم نائبة، فيشعرون أن جهدهم معه وعملهم له وإخلاصهم من أجله هو بعض ما يجب عليهم تجاه من يبادلهم الإخلاص بالوفاء والحب بالعرفان.

وبعد، فليست تلك هي كل خصائص الأمير عبد الرحمٰن القيادية، ولا هي كل مميزاته الشخصية التي جعلته مرهوب الجانب بقدر ما جعلته قريب المنال من أنصاره وأتباعه. فهو يعالج الأمور كلها من منطلق الإيمان ومن نهج الإسلام، منطلقاً في أعماله وممارساته من منطلق المصلحة العامة لجمهور المسلمين، غير منحاز إلى فئة دون فئة، وغير متحيز لجماعة دون جماعة، وهو إذا ما اضطر إلى الاستعانة باليمانية للتغلب على خصومه في بداية أمره فإنه لم يلبث حتى حقق التوازن في علاقاته مع جميع مراكز القوى، وأخضعها كلها، من خلال توجيه فعالياتها ونشاطاتها إلى الهدف المشترك وهو بناء قاعدة قوية للعرب المسلمين، ولكل المسلمين في الأندلس، وقد أتت جهوده أُكلها، إذْ لم تلبث قاعدة الأندلس أن زهت وازدهرت على الدنيا، وأصبحت رمزاً لقوة المسلمين وحضارتهم طوال قرون عديدة.

٣ ـ في مبادئ الحرب

إذا كان الأمويون هم ساسة الدنيا في السياسة وإدارة الحكم، فإن مرتبتهم في إدارة الحرب لم تكن أقل من مرتبتهم في مجال السياسة، بل لعلهم هم أفضل رمز للتكامل بين «السياسة والحرب»، وتكفي قراءة سيرة الأمير عبد الرحمٰن الداخل أو «معاوية بن أبي سفيان» بصورة خاصة، لإبراز هذا التكامل.

وتظهر كفاءة الأمير عبد الرحمٰن في مجال إدارة الحرب، من خلال استخدامه الماهر لمبادئ الحرب. فالمباغتة، وأمن العمل، والقدرة الحركية، والمبادأة، واستخدام القوة الهجومية، والاقتصاد بالقوى والمحافظة على الهدف... لم تكن سوى بعض مبادئه في إدارة الحرب. كما أن اهتمامه بالاستعداد الدائم للقتال والمحافظة على الروح المعنوية للمقاتلين، والكفاءة البدنية والقدرة على تحمُّل الصعاب وتطوير القوات المسلحة وفرض الانضباط والطاعة، لم تكن أيضاً سوى بعض الأسس والعوامل التي استخدمها لضمان النجاح في إدارته للحرب، بل إن شخصية القائد عبد الرحمٰن ذاته، كانت نموذجاً لرجل الدولة والقائد المحارب في وقت واحد، فهو يبحث عن النصر باستمرار في ميدان الحرب، ليدعم جهده السياسي في بناء الدولة، وهو يبذل كل كفاءته السياسية لدعم جهده الحربي، ومن خلال هذا التكامل، بين الجهد السياسي والجهد الحربي، أقام الأمير عبد الرحمٰن دولته على قواعد ثابتة وأُسس راسخة، تعتمد قبل كل شيء على موارد القدرة الذاتية للعرب المسلمين.

والأمر الواضح قبل كل شيء، هو اهتمام صقر قريش بتطبيق **«مبدأ المباغتة»** و**«الحرص على المبادأة»**. فهو يخطط بدقة من أجل الوصول إلى أهدافه، ثم هو لا يترك لخصومه الفرصة، بل يسرع ليباغتهم وهم في بداية أعمالهم القتالية المضادة له. وقد تكررت في سيرة الأمير عبد الرحمٰن مرات كثيرة عبارة «وما أن بلغه خبر التمرُّد حتى أسرع بتوجيه قواته للقضاء على الخارجين عليه». ولا حاجة للقول إن تجارب التاريخ كلها قد أكدت على أن أفضل وسيلة لقمع

أعمال التمرد، هي تطويقها منذ بداياتها الأولى، وعدم السماح لها بالتطور، والعمل على خنقها وهي لا تزال في مهدها.

وكان الأمير عبد الرحمٰن يعرف بأن الطامعين في الحكم كُثر، فيهم الأقرباء والخصوم، وأنه لا مجال للانتظار حتى لا تتعاظم قوى الثورة، ولهذا كان يسرع للقاء خصومه ويباغتهم قبل أن يتمكنوا من مباغتته. والأمر مماثل في تعامله مع الأعداء، فما أن تتوافر له المعلومات عن حشد قوات الفرنج أو إمارات الشمال النصرانية، حتى يسرع بقيادة قواته ويعمل على تدمير أعدائه قبل أن تتوافر لهم فرصة لخلق حقائق يصعب عليه التعامل معها.

ويظهر ذلك أن المباغتة عند الأمير عبد الرحمٰن الداخل لم تكن مباغتة بسيطة مرتبطة بأفق المعركة على شكل مباغتة زمنية أو مباغتة مكانية، وإنما كانت مباغتة مركبة (معقدة) يشترك فيها عامل الزمن بعامل مكان الهجوم، قدر اشتراك العوامل الأخرى للمباغتة، مثل حجم القوات التي يتم زجُّها وطريقة إدارة الحرب.

وقد أبرزت معركة «يوم المصارة» والتي كانت أول معركة يخوضها الأمير عبد الرحمٰن، حرصه على تحقيق المباغتة. فقد بات ليلته وهو يستعد للحرب، في حين كان خصمه يحاول خداعه بحجة تأجيل القتال. وكانت المباغتة كاملة، بحيث لم تتمكن القوات المضادة من الصمود، على الرغم مما أظهرته في البداية من ضروب الصمود والشجاعة. والأمر مماثل بالنسبة لبقية حروب الأمير عبد الرحمٰن ومعاركه، حيث كان للمباغتة دور كبير وحاسم في تقرير نتائج القتال من قبل أن تبدأ المعركة.

ولم يكن حرص صقر قريش على الاحتفاظ بالمبادأة أقل من حرصه على المباغتة، فهو يحاول باستمرار وضع خصومه أمام مواقف تحرمهم من حرية العمل، ويفرض عليهم زمن المعركة ومكانها. وكان في معاركه كلها يجابه قادة على درجة عالية من الكفاءة، فكان لا بد له من البحث عن الوسيلة التي تحرمهم من استخدام قدراتهم وإمكاناتهم، ومن هنا تظهر أهمية احتفاظه بالمبادأة لفرض المواقف التي تجعله أكثر قدرة على استخدام قواته. ولا ريب أن كفاءته العالية في توزيع القوات على الأقاليم المتباعدة واحتفاظه بالقوة الضاربة الرئيسية، قد ضمنا له الوسيلة من أجل مجابهة كل خطر بصورة فورية، ثم التحرك لمجابهة هذا الخطر والقضاء عليه بعد أن يتم تطويقه وحصاره.

ويظهر من خلال ذلك أن المبادأة عند صقر قريش كانت تعتمد على مبدأين يتم تنفيذهما على مرحلتين: المبدأ الأول، تطويق القوات المعادية بقوات قريبة منها من قوات الأقاليم، وتلك هي المرحلة الأولى لاستيعاب الخطر، ثم التحرك بالقوة الرئيسية (جيش قرطبة من الصقالبة) لتدمير الخطر وهي المرحلة الثانية. ومن الملاحظ أن معظم تحركات الأمير عبد الرحمٰن لمجابهة الأخطار الخارجية والداخلية كانت تعتمد على هذه الطريقة ذاتها.

وبدهي أن النجاح في تطبيق هذه الطريقة إنما كان يعتمد على تطبيق مبدأ آخر وهو «**أمن العمل**»، إذ كان من المحال على صقر قريش تطبيق المباغتة أو الاحتفاظ بالمبادأة، لو لم تتوافر له شبكة منظمة من عناصر الأمن التي تضمن له حماية قواته من كل مباغتة، وتوفر له المتطلبات الضرورية للتحرك بدون احتمال لمجابهة خطر غير متوقع. وبقدر ما كان أمن العمل مضموناً، كانت **القدرة الحركية للقوات عالية**، إذ كان باستطاعة تلك القوات، المكوَّنة في معظمها من «الفرسان»، أن تصل إلى أهدافها بأقصى سرعة تستطيعها للتدخل في الوقت المناسب.

والأمر الواضح هو أن «أمن العمل» كان عاماً وشاملاً، ولا يقتصر على محاور العمليات فقط، وإنما يتجاوزها إلى مسرح العمليات ذاته، إذ ظهر في مرات كثيرة أن الأمير عبد الرحمٰن كان يحيط بموقف أعدائه إحاطة شاملة، وكان يكتفي في كثير من الأحيان بعدم مجابهتم، وإنما يعمل على نصب الكمائن لهم، مستفيداً في ذلك من الطبيعة الطبوغرافية لمسرح العمليات، فكان يحقق بذلك «استراتيجية الهجوم غير المباشر». وكان أعداء الأمير عبد الرحمٰن، وكما سبق ذكره، يحاولون تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها، مستثمرين كفاءتهم القيادية العالية وتجاربهم القتالية الوفيرة، فكان الصراع، كما هو معروف، يأخذ شكل حوار صعب للإرادات المتصارعة، وكان الأمير عبد الرحمٰن يبرهن دائماً أنه الأقوى إرادة والأكثر تصميماً على انتزاع النصر. وكان «أمن العمل» يضمن له توفير أفضل الظروف لتحقيق النجاح في حوار الإرادات.

أما النسبة للقدرة الحركية العالية للقوات، فيظهر من خلال الاهتمام بتطوير القوات وتحويلها إلى قوات من الفرسان. وكان الأمير عبد الرحمٰن **يستخدم هذه القدرة الحركية للهجوم باستمرار**، ونقل الحرب إلى مواقع أعدائه، وكان ينفذ بذلك **استراتيجية الهجمات الوقائية**. ويظهر ذلك مرة أخرى تداخل

الاستراتيجيات المختلفة وتطبيقاتها في مجال «مبادئ الحرب»، ما يؤكد الكفاءة القيادية العالية التي انفرد بها صقر قريش في إدارة الحرب.

وتبقى هناك ضرورة للتوقف عند مبدأين آخرين كان لهما دور كبير في أعمال صقر قريش، وهما: «**الاقتصاد بالقوى، والمحافظة على الهدف**». وتظهر أهمية المبدأين المذكورين عند مطالعة سيرة صقر قريش، فقد كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والمعارك، وكان لا بد له من الموازنة المستمرة بين الأهداف المتتالية للحرب، وبين القوى والوسائط اللازمة للتعامل معها، مع إعطاء الأفضلية للأهداف عندما يظهر أن هناك أكثر من هدف يجب التعامل معه في وقت واحد، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان. وأمام هذه المواقف بمجموعها كان لا بد من إجراء حساب دقيق لموازين القوى، بحيث يمكن استخدامها على أفضل صورة وفي أحسن وجه، وهذا ما أكدته مجموعة الأعمال القتالية لصقر قريش.

وتصعب الإحاطة بأعمال الأمير عبد الرحمٰن، ويصعب الحديث عنها، ذلك أنها تشكل محيطاً واسع الأرجاء، بعيد الأغوار. وليس من أكثر منجزاته أو أقلها، تأسيسه للبحرية الأندلسية، التي تصدَّت بعد ذلك للنورمان وجابهت غزواتهم، وأغلقت في وجههم الطريق إلى بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط). وإذا كان ضياع بلاد الشام من قبضة الأمويين قد حرمهم فرصة الإبقاء على هذا البحر عربياً إسلامياً، فقد جاء عبد الرحمٰن ليجعل من البحرية الأندلسية سدّاً منيعاً أمام قراصنة البحر من شعوب الشمال وسواهم، وبقي البحر الأبيض المتوسط بفضلهم، ولحقبة أخرى من الزمن، بحراً عربياً إسلامياً لا يصله طامع ولا تمتد إليه يد غادر.

تلك هي أسطر قليلة في صقر قريش، فكيف كانت حياته؟.

لم تكن للأمير عبد الرحمٰن حياة خاصة ـ إذا صح التعبير ـ لقد كانت حياته وقفاً على الجهاد، وإقامة دولة العرب المسلمين وتثبيت بنيانها وإرساء دعائمها ورد الطامعين فيها. فكانت الأيام التي عاشها صقر قريش في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة، وكانت حياة صقر قريش حركة مستمرة في تنظيم الجيوش وعقد الرايات وتوجيه القوات وتحصين الثغور والقضاء على الفتن والثورات ووضع أسس البنيان الحضاري.

ولقد ظهر في العالم القديم والحديث زعماء وقادة تركوا بصماتهم القوية على

صفحات التاريخ، غير أن هذه البصمات كانت فردة. فها هو الإسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، وحتى أمراء الكارولنجيين والميروفنجيين «شارل مارتل وبيبان وشارلمان»، قد أسسوا امبراطوريات ضخمة غير أنهم لم يتركوا من الأثر بمثل ما تركه صقر قريش، فقد أسس هذا دولة أورثها لعقبه من بعده، فكان فيهم هشام، وكان فيهم عبد الرحمٰن الناصر، وكان فيهم الحكم المستنصر، وكلهم كانوا منارات رائعة، زادت من أهمية الدولة التي أسسها صقر قريش ولم تنقص منها شيئاً.

فهل الفضل في ذلك لتفوق الأمويين كقادة عظام في الحرب، ورجال كبار في السياسة؟.

لقد كان لبني أمية دور رائع في بناء الدولة العربية ـ الإسلامية، وكان لهذه السلالة الفضل، كل الفضل، فيما بلغه العرب المسلمون في المشرق والمغرب.

ولكن هل كان لهذه السلالة دورها لولا الإسلام؟.

الفضل، كل الفضل، للإسلام ولرسالته الإنسانية والحضارية، إلا أن ذلك لا ينتقص من دور حملة شعلة الإسلام الذين أضاؤوا بها المشرق والمغرب.

أولئك هم الأجداد.

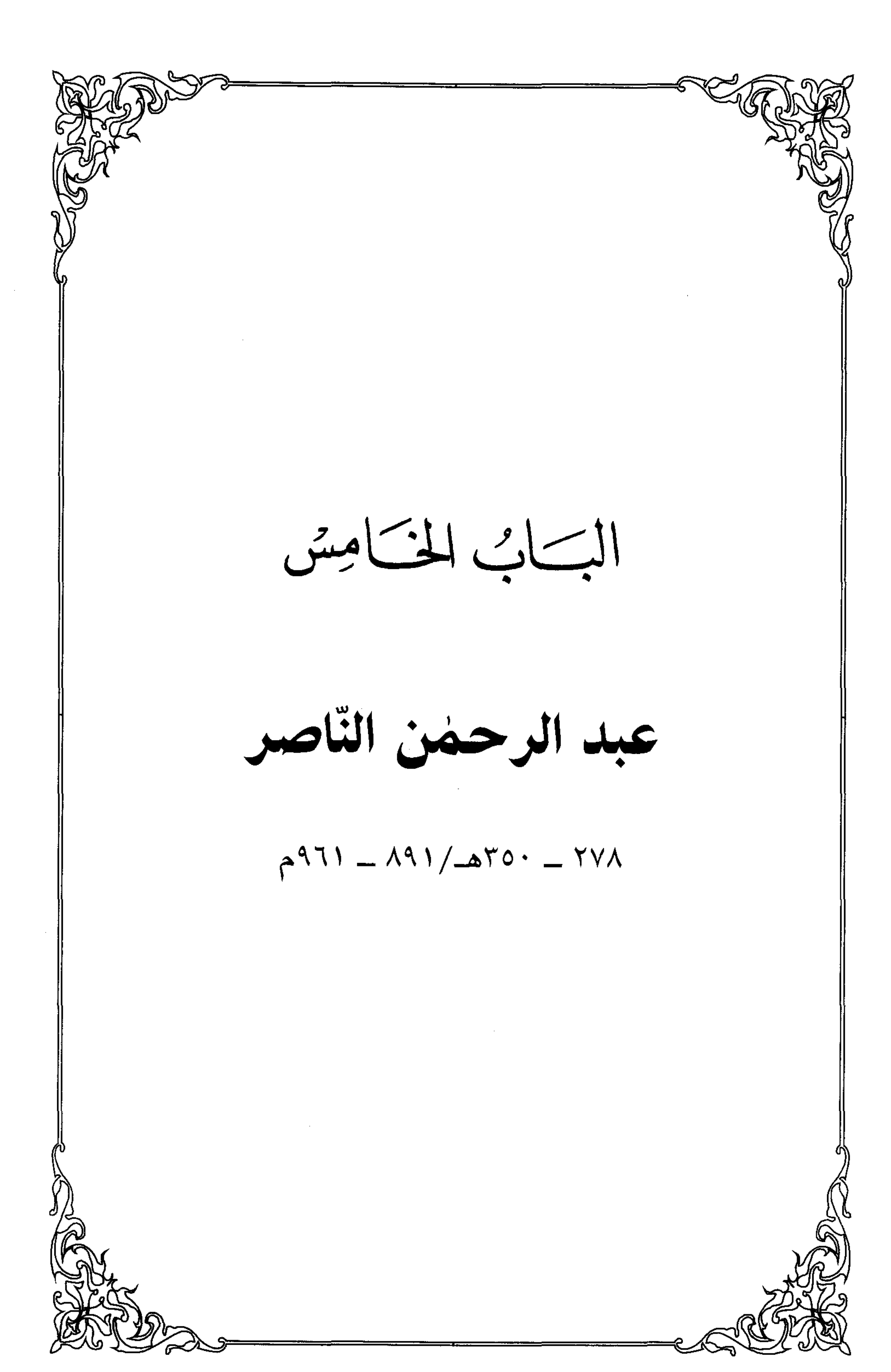
وتلك هي أمجادهم، وأعمالهم.

ويبقى الأمير عبد الرحمٰن ـ صقر قريش ـ منارة في دنيا العرب المسلمين.

خرج طريداً، شريداً، مجاهداً، وصدق قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.





البَابُ الخَامِسُ

عبد الرحمٰن النّاصر

٢٧٨ ـ ٣٥٠هـ/٨٩١ ـ ٩٦١م



مقدمة

خمسون سنة قضاها في جهاد دائم، لم يعرف خلالها من أيام الهناء إلا قليلاً، ولم يركن إلى الراحة أثناءها إلا نذراً يسيراً. اضطلع بأعباء المسؤولية وهو شاب قوي المنكبين، لا يزيد في عمره على العشرين إلا قليلاً، وترك هموم الدنيا وهو شيخ وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً. ولكن كم كان الفارق كبيراً بين ما كانت عليه أندلس المسلمين يوم تولاها الناصر، وبين ما أصبحت عليه يوم سلَّم الأمانة لابنه الحكم المستنصر حتى يتابع السير بأندلس المسلمين على النهج الذي سار والطريق الذي رسم.

كانت الأندلس تضطرم ناراً، والفتن في كل مكان، وأعداء الخارج يتربصون بأعداء الداخل، وهؤلاء يتربصون بعضهم ببعض، قد شغلتهم صغائر الأمور عن كبائرها، وصرفتهم الدعة والسكون عن التفكير بعظائمها، فجاء الخليفة الناصر لدين الله، يحمل هَمَّ الشباب وحكمة الشيوخ، ويتمثل في تكوينه كل الإرث الأموي الذي ما عرف إلا العزة للعرب المسلمين، عن طريق رفع راية الإسلام والجهاد في سبيل الله، فالعزة لله ولرسوله وللمسلمين، لا يرضون بالهوان مذهباً ولا بالذل لغير الله ملتمساً ومسلكاً.

ولم يكن مجتمع المسلمين في الأندلس فقيراً بموارده، ولا ضعيفاً بإمكاناته، غير أن تلك الموارد كانت تذهب مزقاً وتتفرق بدداً، وهي تضيع في صراعات تبتعد بالمسلمين عن السبيل القويم. وارتفع الناصر بثاقب نظره عن مسيرة تيار الأحداث، فعامل أعداء الداخل بمزيج من اللين والعنف، وعفا وصفح عن كثير، وتآلف القوم، حتى لانت له النفوس، وهدأت الخواطر الثائرة، فانصرف لبناء القدرة الذاتية ووجَّهها نحو الأعداء الحقيقيين، الخارجيين، فأخضعهم المرة بعد المرة وأقنعهم في النهاية بقصورهم عن مجابهته، وعجزهم عن النيل منه، فاستكانوا له وخضعوا، وأسلموا إليه قيادهم.

ذلك هو الخليفة الناصر لدين الله، الذي ما ذكرت أندلس المسلمين إلا ذكر

بها، مقترناً بأروع آيات المجد والعزة للإسلام والمسلمسن. ولئن كان ذكر الأندلس يرتبط بأسماء أولئك القادة من رواد الفتح الأوائل، أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمٰن الغافقي والسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي، وسواهم من القادة والولاة، ولئن كان تجديد الفتح، إذا صح التعبير، يرتبط باسم صقر قريش عبد الرحمٰن الداخل، فإن مجد الإسلام والمسلمين سيبقى أبداً شديد الالتصاق بسيرة الخليفة الناصر لدين الله.

ولم يكن مجد أندلس المسلمين أيام الخليفة الناصر قائماً على القدرة الاقتصادية، وإن كانت هذه القدرة هي القاعدة الأساسية لبناء الدولة العظمى، كما أنه لم يكن قائماً على القدرة العسكرية وإن كات هذه القدرة هي أداة بناء الدولة المزدهرة، وكذلك لم يكن مجد أندلس المسلمين أيام الناصر لدين الله قائماً على العلم والمعرفة، وإن كان ذلك هو الترجمة العملية والأمينة لاقتران القوة العسكرية بالقوة الاقتصادية. وإذن فقد كان مجد أندلس المسلمين قائماً على التكامل في دفع القدرات والإمكانات المتوافرة عبر كل الاتجاهات التي تخدم الغرض الواحد وهو تعزيز دولة الإسلام والمسلمين من خلال حشد كل قوى المسلمين، فكيف استطاع رجل واحد تحقيق ذلك كله؟.

الجواب كامن في التجربة التاريخية التي عرفها العرب المسلمون بفضل معاناتهم الذاتية، وهي التجربة القائمة على الاقتران الناجح بين العوامل الثلاثة: الإخلاص في حمل رسالة الإسلام، وحشد المجاهدين، وتوجيههم للجهاد تحت قيادة مؤمنة ومخلصة. وتظهر سيرة الخليفة الناصر لدين الله مدى خضوع الناصر للمخلصين بصدق لقضية الإسلام والجهاد في سبيل الله، واستجابة المسلمين لنداء الجهاد عندما عرفوا صدق الدعوة الموجهة إليهم.

وتبقى سيرة الخليفة الناصر لدين الله خالدة مدى الدهر، رغم زوال الزهراء، ورغم إخراج المسلمين من أندلسهم، ذلك لأنها سيرة رجل في حياة أمة، وحياة أمة في تاريخ رجل.

العهد الأموي في أندلس المسلمين

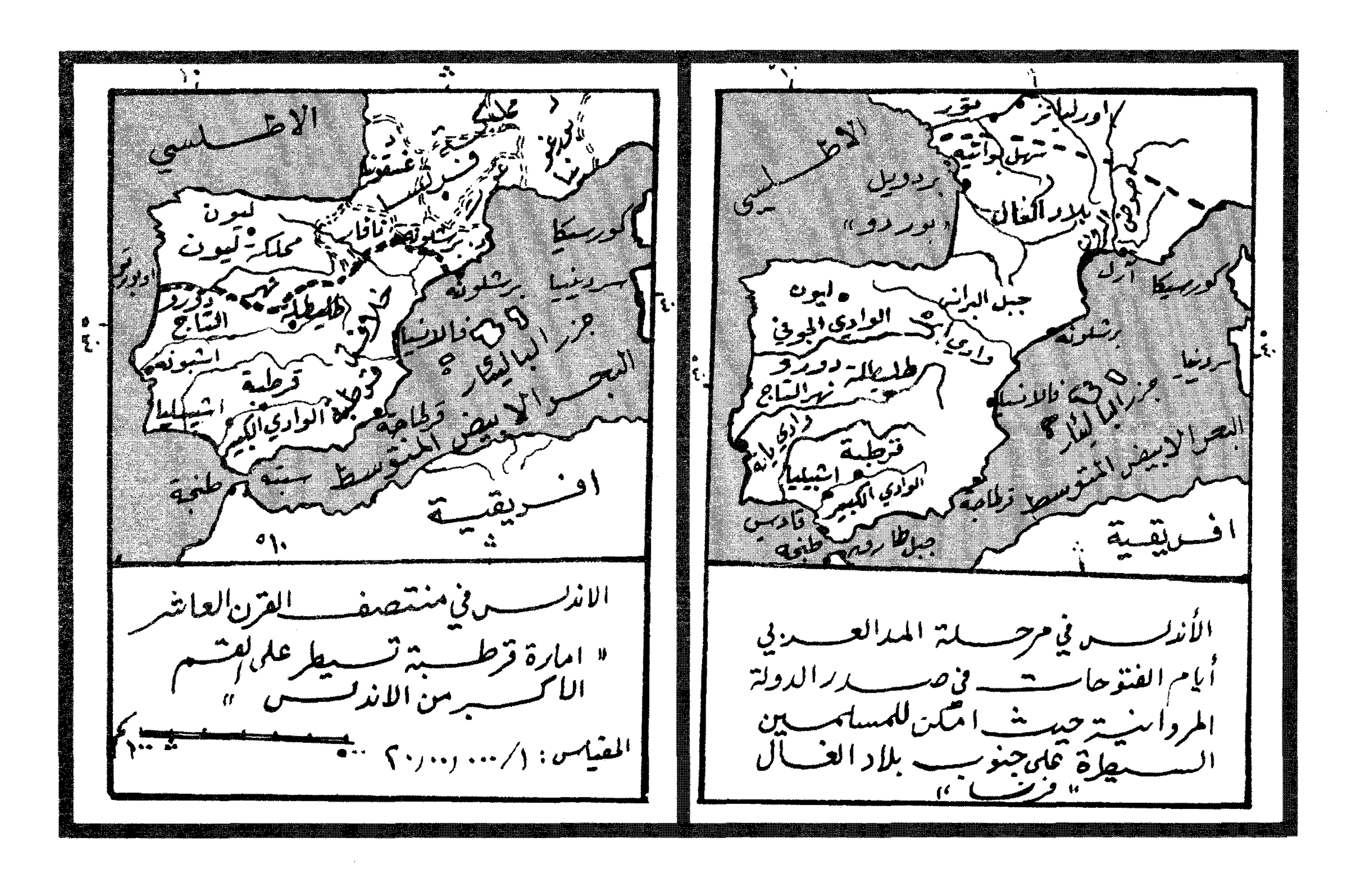
التسلسل	السنة الهجرية	السنة الميلادية	أمراء بني أمية	مدة الحكم
١	١٣٨	٧٥٦	عبد الرحمٰن الداخل، صقر قريش	٣٣ عاماً
٢	١٧٢	٧٨٨	هشام بن عبد الرحمٰن «الأول»	٨ أعوام
٣	١٨٠	٧٩٦	الحكم بن هشام «الأول»	٢٦ عاماً
٤	٢٠٦	٨٢٢	عبد الرحمٰن بن الحكم «الثاني»	٣٠ عاماً
٥	٢٣٨	٨٥٢	محمد بن عبد الرحمٰن «الأول»	٣٤ عاماً
٦	٢٧٣	٨٨٦	المنذر بن محمد	سنتان
٧	٢٧٥	٨٨٨	عبد الله بن محمد	٢٤ عاماً
٨	٣٠٠	٩١٢	عبد الرحمٰن الناصر «الثالث»	٥٠ عاماً
٩	٣٥٠	٩٦١	الحكم بن عبد الرحمٰن المستنصر «الثاني»	١٦ عاماً
١٠	٣٦٦	٩٧٦	هشام بن الحكم المستنصر المؤيد «الثاني» (لم يكن الحكم بيده وإنما للحاجب المنصور)[١]	٣٣ عاماً

(١) تعاقب بعد ذلك، وفي فترات مختلفة، ظهور عدد من أمراء بني أمية، زاد عددهم على ١٣ أميراً، لم تتجاوز فترة حكم معظمهم أكثر من شهر أو بضعة شهور، ومنهم من حكم لفترة ثلاثة أعوام، غير أن معظمهم لم يكن لهم من الحكم إلا اسمه.

الوجيز في حياة عبد الرحمٰن الناصر

٢٧٨ ـ ٣٥٠هـ/٨٩١ ـ ٩٦١م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٢٧٨	٨٩١	ولادة عبد الرحمٰن (الثالث)
٣٠٠	٩١٢	ولاية أمير المؤمنين عبد الرحمٰن في قرطبة
٣٠٢	٩١٤	هجوم أردونيو ملك ليون على ماردة وبطليوس
٣٠٤	٩١٦	جيش قرطبة ينتقم من ملك ليون
٣٠٥	٩١٧	هجوم أردونيو من جديد على طلبيرة (تالفيرة)
٣٠٦	٩١٨	جيش قرطبة يهاجم معاقل ليون
٣٠٨	٩٢٠	عبد الرحمٰن يتولى بنفسه قيادة حملة (موبش) الظافرة
٣١١	٩٢٣	هجوم ملك نافار على الحدود الإسلامية
٣١٢	٩٢٤	عبد الرحمٰن يتولى قيادة الحملة ضد (بنبلونة) عاصمة نافار
٣١٤	٩٢٦	القضاء على ثورة (ابن حفصون) بعد أن تولى الأمير عبد الرحمٰن قيادة الهجوم في سنوات ٩١٣ و٩١٨ و٩٢٠ و٩٢٣ و٩٢٦م
٣١٨	٩٣٠	الثورة في طليطلة والقضاء عليها بعد سنتين
٣٢٠	٩٣٢	عبد الرحمٰن يخضع ليون
٣٢٢	٩٣٤	قيادة عبد الرحمٰن للصائفة وإخضاع وخشمة
٣٢٧	٩٣٩	جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمٰن يتعرض لهزيمة كبرى في (غزاة القدرة)
٣٣٦	٩٤٧	قرطبة تشهد ذروة مجدها (الوفود على الناصر) من كل الدول
٣٤٤	٩٥٥	استسلام ليون ثم قشتالة ثم جيليقية للخليفة الناصر
٣٥٠	٩٦١	وفاة الناصر وولاية المستنصر



الأطلسي
بردويل
«بوردو»
بلاد الغال
سهل بواتييه
اربونة
ليون
الوادي الجوفي
جبل البرانس
طليطلة
نهر التاج
قرطبة
اشبيلية
الوادي الكبير
قادس
طنجة
جبل طارق
قرطاجنة
برشلونة
كورسيكا
سردينيا
جزر البليار
البحر الابيض المتوسط
افريقية
الأندلس في مرحلة المد العربي
أيام الفتوحات في صدر الدولة
المروانية حيث امكن للمسلمين
السيطرة على جنوب بلاد الغال
«فرنسا»
الاطلسي
ليون
مملكة ليون
نافار
سرقسطة
برشلونة
طليطلة
نهر التاج
قرطبة
اشبيلية
الوادي الكبير
طنجة
سبتة
قرطاجنة
جزر البليار
كورسيكا
سردينيا
البحر الابيض المتوسط
افريقية
الاندلس في منتصف القرن العاشر
« امارة قرطبة تسيطر على القسم
الاكبر من الاندلس »
المقياس: ١/٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠

مما حفظه التاريخ عن الخليفة الناصر

١ ـ تولى عبد الرحمٰن الناصر إمارة المؤمنين في أندلس المسلمين، وهو شاب، غض الإهاب، لا يتجاوز الثانية والعشرين ربيعاً، وفي ذلك يقول (ابن عبد ربه)[١]، صاحب العقد الفريد:

بـــدا الـــهـــلال جـــديـــداً ... والـمـلـك غـض جـديـدُ
يـــا نـــعـــمـــة الله زيـــدي ... إن كـــان فـــيـــك مـــزيـــدُ
إن كـــان لـــلـــصـــوم فـــطـــر ... فـــأنـــت لـــلـــدهـــر عـــيـــدُ

٢ ـ ومما نسب إليه قوله:

لا يضر الصغير حدثان سن ... إنما الشأن في سعود الصغيرِ
كم مقيم فازت يداه بغنم ... لم تنله بالركض كف مغيرِ

٣ ـ ومن غريب ما يحكى:

أن أمير المؤمنين الناصر أراد الفصد، فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته الزهراء واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة، وجس يد الناصر، فبينما هو على هذه الحال، إذ أطل زرزور ـ ببغاء ـ فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيـــهـــا الـــفـــاصـــد رفـــقـــاً ... بـــأمـــيـــر الـــمـــؤمـــنـــيـــنـــا
إنـــك تـــفـــصـــد عِـــرقـــاً ... فـــيـــه مـــحـــيـــا الـــعـــالـــمـــيـــنـــا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف، وسر به غاية السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك، وَعَلَّم الزروزر، فذكر له أن السيدة الكبرى (مرجانة)، أم ولده ولي عهده الحكم المستنصر بالله، صنعت ذلك، وأعدته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

---

(١) ابن عذارى ٢/ ٢٣٦، والمغرب ١/ ١٧٧، ونفح الطيب ١/ ٣٥٤ و٣٥٥ و٣٥٦ و٣٦٠ و٣٧٩.

٤ ـ ومما ينسب للناصر قوله:

ما كل شيء فقدت إلا عوضني الله منه شيّا
إني إذا ما منعت خيري تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه فإنها نعمة عليَّا

٥ ـ وحكي أنه وجد بخط الناصر، رَحِمَهُ اللَّهُ، أيام السرور التي صفت له من دون تكدير، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً... وهذا الخليفة الناصر، حلف السعود، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً.



الفَصْلُ الأولُ

عبد الرحمٰن ـ الأموي الثالث

١ ـ البداية الشاقة.
٢ ـ الموقف في مراكز القوى العالمية المعاصرة للناصر.
٣ ـ القضاء على ثورة «عمر بن حفصون».
٤ ـ نشوء مملكة نافار، أو البشكنس، في الشمال.
٥ ـ نشوء مملكة جيليقية، ثم أشتوريش، ثم ليون.
٦ ـ مراكز القوى العربية المنافسة لقرطبة.

١ ـ البداية الشاقة

قُتل الأمير محمد بن عبد الله على يد أخيه مطرف في عهد أبيهما (عبد الله)، وترك للدنيا ابنه عبد الرحمٰن ولما يتجاوز من العمر سوى عشرين يوماً، فعاش يتيم الأب، متقد الفؤاد. ولم يكن البلاط الأموي في قرطبة ليشغل نفسه كثيراً بأمر هذا الصبي، فقد كانت للبلاط مشاغله اليومية المتجددة، فالثورات الداخلية تندلع في كل مكان، وأعداء الشمال من النصارى في حرب دائمة مع قرطبة، وأمراء المدن ينافسون عاصمة الأمويين في قدراتها وإمكاناتها وحتى في نفوذها، وفوق ذلك كله، جاءت المطامع ـ أو المطامح ـ سيان، لتزيد من الأمر سوءاً. ألم يسقط والده محمد قتيلاً على يد عمه مُطرف بنتيجة هذه المطامع؟. . . وفتح الصبي عينيه للدنيا، ليجد أمامه صورة الحياة قاتمة مظلمة، فعرف أول ما عرف أنه ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأن أمه أم ولد تسمى ماريا «مرته أو مزنة». وتوقف الصبي عبد الرحمٰن عند سيرة جده الذي حمل اسمه «عبد الرحمٰن الداخل». لقد احتمل هذا الجد فوق ما يحمله البشر حتى أقام دولة ثابتة البنيان، مكتملة الأركان، وها هي العواصف الهوجاء تعصف بها من كل مكان حتى تكاد تقتلعها من الجذور. ولكن هل هذه العواصف مجتمعة أقل قوة من تلك التي جابهها الجد؟. أنه ينتمي إلى تلك الشجرة المباركة التي حملت راية الإسلام إلى كل الدنيا، والتي أنجبت الرجال تلو الرجال، والأبطال تلو الأبطال، حتى أصبح ذكرها خالداً على الدنيا. وإذن، فلماذا لا يجد في سيرة جده قدوة مثلى، وسيرة تقتدى، ولكن كيف السبيل، وأمامه كبار رجال أمية وساداتهم، وكلهم له مركزه الثابت في البلاط، وله الأفضلية في الحكم والسطوة؟. . . لقد كان يحمل في جسده روحاً طموحة تنتظر فرصتها، وجاءت هذه الفرصة على غير موعد.

فقد توفي جده عبد الله، وهو لما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، غير أن حداثة سنه لم تكن عائقاً على طريق طموحه، فقفز إلى الإمارة، وتصدى لحمل

المسؤولية بحضور أعمامه وأعمام أبيه، واحتاز قيادة البيت الأموي من دونهم. واستقبل الناس الأمر بفرحة طاغية، فقد أظهر الأمير الشاب من الحزم ومن القوة، ما كانت تحتاجه الدولة في تلك الفترة العصبية، غير أن الإمارة لم تكن في نظر الأمير الشاب أكثر من وسيلة لإعادة بناء الدولة القوية والقادرة على مجابهة كل الصعوبات والتحديات، غير أن هذه الصعوبات وتلك الأخطار تتساوى في تهديداتها لقرطبة، فمن أين سيبدأ الأمير الشاب؟...

كان لا بد من معالجة المشكلات كلها في وقت واحد، وبدون إنقاص الاهتمام ببعضها على حساب بعضها الآخر، إذ من المحال التصدي لأعمال التمرد بالقوة بدون اللجوء إلى عمل سياسي يضمن ولاء المدن المتنافرة والتي زاد من تباعدها التنافس الحاد بين حكامها وأمرائها. وكان من المحال أيضاً مجابهة الأخطار الخارجية في الشمال، حيث ممالك النصارى، وفي الجنوب، حيث خطر الفاطميين، بدون القضاء على أعداء الداخل. وفي مجابهة هذه المواقف جميعاً كان لا بد من توافر قدرة اقتصادية كافية لتجنيد الجيوش وتأمين «وقود الحرب». ويظهر من خلال ذلك أنه كان لا مناص من إطلاق كل الفعاليات واستثارة كل القوى الكامنة من أجل تحقيق التكامل في بناء الدولة. ولكن، وعلى الرغم من هذه «التعادلية» في الأخطار، فقد أدرك الأمير الشاب، أن خطر أعداء الداخل هو أشد هولاً، وأكثر وطأة، من خطر أعداء الخارج، ولهذا لم يكن غريباً على الأمير عبد الرحمٰن الناصر، أن يتولى بنفسه قيادة جيش قرطبة، ولما تمضي أكثر من أيام قليلة على مبايعته بالإمارة، لحرب (ابن حفصون)، وهو الذي أضنى بثورته حكم أسلافه أمراء قرطبة، ثم هو ينصرف عن ابن حفصون ليترك حامية قوية لحصاره بقيادة ابن عمه سعيد بن المنذر، ولكنه لا يتركه قبل أن يوصيه محذراً من غدر هذا الخائن، فيقول له في كلمات قليلة:

«... **مهما تحققت من غدر بني حفصون ومكرهم، فزد فيه بصيرة، واثبت على تحقيقك، ومهما ظننت فصيِّر ظنك يقيناً، فإنهم شجرة نفاق، أصلها وفروعها تسقى بماء واحد، فاهجر فيهم المنام والدعة، فالعيون إليهم تنظر والآذان نحوهم تسمع. فمتى استنزلتهم من معقلهم أغناك ذلك عن مكابدة غيرهم...**». ويظهر بوضوح أن تقويم الأمير عبد الرحمٰن لخطر بني حفصون لم يكن محدداً بقوة هؤلاء، وإنما بقدر ما تثيره قوتهم ومقاومتهم من تحريض لبقية القوى المناوئة والتي يمكن لها أن تنتهج نهجهم وتسلك سلوكهم. ومن هنا

فقد اعتبر أن «استنزال بني حفصون من معقلهم» هو السبيل للقضاء على غيرهم من الثائرين.

ولقد جاءت مسيرة الأحداث لتؤكد للأمير صحة هذا التقويم، فما كادت تستقيم له الأمور بالقضاء على (بني حفصون) حتى نجح في إخضاع ثورة طليطلة، وبدأت المقاومات المحلية بالانهيار، ولكن الأمير يرفض من زعماء هذه المقاومات أو الثورات، ولاءً منقوصاً أو مجرد مهادنة فرضتها سيادة القوة وهيبة الدولة، إنه يطالبهم بالولاء قولاً وعملاً.

وها هو محمد بن عبد الرحمٰن، المعروف بالشيخ، يطلب الصفح عن عصيانه وتمرده في حصن «لقنت» فيجيبه الأمير: «... **ولما رأيناك قد تذرعت بإظهار اتقاء الله، رأينا أن نعرض عليك أولاً ما لا بد لك منه آخراً. وليس من أطاع بالمقال كما أطاع بعد بالفعال...**». فأسرع الشيخ إلى قرطبة، وغادر حصن «لقنت» واستسلم لإرادة الخليفة.

ولقد عرف الأمير من تجربة أبيه وعمه أنه لا مجال للتساهل مع العصاة والمتمردين، والمتآمرين أو الطامعين، حتى لو كان هؤلاء من كبار رجال البلاط، أو حتى من زعماء البيت الأموي وشيوخه، ولهذا لم يتردد أبداً في إنزال العقاب بأقرب الناس إليه: «**إذ ما كاد يعرف بمحاولة ابنه عبد الله لتنظيم مؤامرة لقتله وأخذ الإمارة حتى أمر بإحضار ابنه عبد الله وقتله ذبحاً بيده**».

وعرف الأمير عبد الرحمٰن، أن قوة الدولة بقوة رجالها، وأنه من المحال عليه الاضطلاع بأعباء الدولة وحده، فاختار من الرجال أكثرهم كفاءة وعدلاً، وأقواهم عقلاً وأغناهم نفساً وأكرمهم يداً.

فاشتهر في عهده وزيران تميزا بالكفاية والقدرة والعقل الراجح، وهما: «عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد»، وهما الرجلان اللذان كان لهما دور كبير في إدارة شؤون الدولة وتعزيز قدرتها. وهكذا مضى الأمير عبد الرحمٰن الناصر في تدبير أمور دولته بعزيمة لا تلين، وإرادة لا تقهر، حتى أمكن له إخماد الفتن الداخلية والقضاء على حركات التمرد، واستنزل العصاة من معاقلهم وحصونهم، وعمل على نشر الأمن والاستقرار في ربوع الأندلس، فأخذت المدن الأندلسية في الخضوع له، وتسليمه قيادها مدينة بعد أخرى، بداية من إشبيلية والجرف ونهاية بعمر بن حفصون في بربشتر وطليطلة. وكان الأمير عبد الرحمٰن الناصر يعامل الناس حسب درجة عدائهم لإمارته. فكان

يغدق على العصاة الذين يستسلمون له، ويكرمهم، ويوسع عليهم، وكان مقابل ذلك شديد الوطأة على من يستمرون في مقاومته، ويظهرون تصميماً على متابعة مناوئته. أما موقفه من النصارى فقد كان موقفاً ممزياً بخصوصيته نتيجة ما أظهره النصارى من التنكر المستمر لدولته والتحريض المستمر ضد الإسلام والمسلمين. وكان له أيضاً موقفه الخاص من دول «نصارى الشمال»، وهو الموقف الذي كان يتلخص: «بالتدمير المستمر لهذه الدول دونما هوادة، وعدم إعطائها الفرصة للقيام بهجوم ضده»، مع تركيز الجهد على تمزيق كل تحالف ضده وإحباطه في مهده.

ازدهرت الأندلس بنتيجة هذه السياسة الحكيمة، وبلغ فيها الرفاه مبلغاً لم تصل إليه من قبل «فارتفعت الجباية في عهد عبد الرحمٰن الناصر حتى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان...»، وهذا يعني أن موازنة الدولة بلغت في عهد الأمير عبد الرحمٰن مقدار ستة ملايين ومائتين وخمسة وأربعين ألف دينار بالإضافة إلى أخماس الغنائم. وكان الأمير يقسم هذا الدخل إلى ثلاثة أقسام، ثلث للجند، وثلث للبناء وثلث مدخر. وساعد ذلك على تنظيم جيش قوي وصل عدد أفراده إلى أكثر من مائة ألف جندي، كما زاد في قوة الأسطول حتى بلغ عدد السفن أكثر من مائتي سفينة.

وعرف الأمير عبد الرحمٰن ضرورة تنظيم جيش دائم، نظامي يضطلع بأمور الحرب ويتفرغ لها، لا سيما وأن أعباء هذه الحرب كانت أكبر من احتمال مسلمي الجزيرة الأندلسية، علاوة على الحاجة لاستخدام هذا الجيش ضد أعمال التمرد والثورات، وإذا كان خلفاء «بني العباس» قد اصطنعوا الموالي من الترك والفرس وسواهم، فلماذا لا يعتمد هو على الصقالبة ـ السلافيين ـ. وفي الواقع، إن أجداده من أمويي الأندلس قد ضموا في جيوشهم بعضاً من هؤلاء الصقالبة، وفقاً لما كان يتوافر لهم، غير أن كلمة «الصقالبة» تجاوزت في مفهومها العنصر السلافي الصقلبي، فباتت تشمل كل أولئك الأسرى في الحروب من جميع البلاد الأوروبية؛ ذلك أن أوروبا الغربية عرفت في هذا العصر ازدهاراً كبيراً في تجارة الرقيق. وكان اليهود في الأعم الأغلب، هم القابضون على زمام هذه التجارة التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على أسرى

الحروب الناشئة على امتداد المستنقعات الألمانية الشرقية المأهولة بالسلاف، بعد أن يباعوا بأسواق الرقيق بالأندلس ـ عن طريق فرنسا ـ. وكانت (فردون) مركزاً رئيسياً لإعداد الخصيان الذين كان أهل الأندلس يصطنعونهم في خدمة النساء.

وكانت بيزنطة تقدم أنواعاً أخرى من الرقيق، تغنمه من غزواتها لشواطئ البحر الأسود. ليس هذا فحسب، بل إن «خوارج البحر ـ القراصنة» كانوا يغذون سوق الرقيق بالأولاد الصغار خاصة، يحملون من الجلالقة والألمان والإفرنسيين واللومبارديين والإيطاليين، ثم يحملون إلى الأندلس عن طريق تجار الرقيق. وكانوا يختارون من الجنسين، ويربون منذ الحداثة تربية عربية ـ إسلامية حسنة، ويلقنون مبادئ الإسلام، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم، وألفوا الكتب والقصائد. ثم تعاظم نفوذ الصقالبة في عهد الناصر، لسيطرتهم على شؤون الإدارة والحكم والقصر، وصارت إليهم المناصب الكبرى في الجيش والدولة، وتزايدت أعدادهم، وامتلكوا الضياع، وأصبح لديهم أموال ضخمة، وكان الناصر يدعم سلطانهم ونفوذهم، ويرغم زعماء العرب وأشرافهم على الخضوع لهم، فكان منهم قائد الجيش «نجدة الصقلبي» وصاحب الخيل، أو قائد سلاح الفرسان «أفلح»، كما كان منهم صاحب الشرطة «ودري»، بالإضافة إلى «ياسر وتمام» صاحبا النظر في الشؤون الخاصة»[1].

ولم يغفل الأمير عبد الرحمٰن، وهو يوطد دعائم دولته الأموية في الداخل، عن خطر الفاطميين الذين نشطت دعوتهم في تلك الفترة، فبسطوا سلطانهم في المغرب وغيره، واحتلوا «تاهرت» في سنة (٣١٤هـ/ ٩٠٨م)، وإذ ذاك، تصدى الأمير عبد الرحمٰن لمعارضتهم، ودفع أسطوله سنة (٣٣٨هـ/ ٩٣١م) لسبق الفاطميين في احتلال «سبتة» على الطرف الشرقي من مضيق جبل طارق على شاطئ المغرب، ولم يلبث أمراء المغرب الإسلامي أن طلبوا دعمه لمجابهة الفاطميين عندما أنسوا فيه القدرة لتقديم مثل هذا الدعم، فأمكن له بذلك أن يمتد بنفوذه حتى «تاهرت»، ولم يعد بذلك يخشى أي خطر أو تهديد يأتيه من

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٢٣، ونفح الطيب ١/ ٣٦٣، وأخبار مجموعة ١٥٥، ودولة الإسلام في الأندلس ـ عبد الله عنان ـ ١٠٥، ١٠٦، وتاريخ الشعوب الإسلامية ـ بروكلمان ـ ٢٩٤ و٢٩٥ وكذلك: Histoire Des Musulmans De L'Espagne ((Dozi)) Paris- 1932 II P.153.

الجنوب، وأصبح من واجب أمير مكناسة «موسى بن أبي العافية» متابعة مطاردة الفاطميين بعد أن تم تمزيق جيشهم الذي كان يقوده «عبيد الله الفاطمي»، غير أن الصراع لم يتوقف، ولكن بقيت كفة «الناصر» هي الراجحة في هذا الصراع المديد.

لقد كان عبد الرحمٰن هو أول من تسمى، من أمراء بني أمية بالأندلس، باسم «أمير المؤمنين»، وذلك بعد أن استقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه، ودامت أيامه نحو خمسين سنة، استفحل فيها ملك بني أمية بتلك الناحية. وعندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة (٩٣٩م) فتلقَّب بألقاب الخلافة، كما خلع على نفسه، تبعاً للتقليد الشرقي، لقب «الناصر لدين الله».

٢ ـ الموقف في مراكز القوى العالمية المعاصرة للناصر

اشتهر الأمير عبد الرحمٰن الناصر بأنه كان من أعظم رجال الدنيا في عصره. وقد حملته همته إلى ارتقاء مرتقى الخلود في الذكر، فعظمت الأندلس الإسلامية به، وعظم هو بعظمتها، فأصبحت قرطبة عاصمة الدنيا، تؤمها الوفود، وتسعى إليها الحشود، وتستقطب إليها العلماء والأدباء والفنانين من كل أصقاع الأرض، فيزيدون من ثراء أندلس المسلمين وتزيدهم هي مجداً وشهرة. وبينما كانت قرطبة الناصر تتألق مزهوة شامخة بما توافر لها، كانت عواصم الدنيا تعاني النكبات تلو النكبات، وتتعرض للانتكاسات بعد الانتكاسات. ولم يكن تدهور عواصم العالم هو سبب ظهور قرطبة على كل حال، كعاصمة للدنيا، وإنما كان ارتفاع قرطبة هو الذي أبرز ذلك التناقض الفاضح الذي عرفته العواصم العالمية عندما كانت تنظر رانية بخشوع إلى عظمة قرطبة وما بلغته رقياً وقوة وعلماً وأدباً وفناً، ومن هنا قد يكون من المناسب إلقاء لمحة عجلى على مراكز القوى العالمية (عواصمها) في عهد الخليفة ـ الناصر لدين الله.

أ ـ **بغداد**: عاشت بغداد ذروة أمجادها في بداية العصر العباسي الأول، غير أن تلك الأيام قد انقضت منذ وفاة الرشيد سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٨م)، إذ أعقب ذلك، على ما هو معروف، صراع مرير سقط فيه الأمين وانتصر المأمون (١٩٨هـ/ ٨١٣م) فكان في ذلك نصر للشعوبية الفارسية على العرب. وعندما توفي المأمون سنة (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) وخلفه المعتصم، ظهر عنصر جديد هو العنصر التركي. وتعاقب بعد ذلك الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين وبقية خلفائهم ممن أصبحوا لا يملكون من الخلافة إلا اسمها، وأصبحت العناصر الشعوبية هي المسيطرة على بغداد وسامراء، وشغلت الدولة العباسية بهمومها الداخلية، وأدى ذلك إلى التمزق، فحلت الممالك والإمارات المستقلة محل

الدولة القوية. وجاءت بعد ذلك الأحداث الكبرى التي زادت الدولة ضعفاً على ضعف، فقد اندلعت ثورة الزنج التي استمرت ثمانية أعوام (٢٦٢ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٧٥ ـ ٨٨٣م)، وأعقبتها ثورة القرامطة (٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) وهي الثورة التي تفاقمت حتى وصلت شبه الجزيرة العربية واجتاحت مكة المكرمة سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، حيث سرقت الحجر الأسود. وهكذا، فعندما تولى الأمير عبد الرحمٰن الناصر خلافة الأندلس، وبدأ في إعادة تنظيم الدولة الأموية، كان قد مضى زهاء قرن على أيام بغداد الرائعة. وفيما كان الناصر يمضي لدعم دولته وزيادة قدرتها، كانت بغداد تفقد سيطرتها على أقاليمها، وأصبحت المناطق القاصية في أفريقية وآسيا مستقلة عن الدولة العباسية، أو شبه مستقلة، ولم يعد لقرطبة ما تخشاه من تهديد عاصمة الإسلام المنافسة لها في بغداد.

ب ـ القسطنطينية: فقدت هذه المدينمة مكانتها في قيادة العالم منذ أن اجتاح العرب المسلمون بلاد الشام ومصر، وتقلصت رقعة سيطرة البيزنطيين حتى اقتصرت أيام الأمويين على المدينة ذاتها، عندما انتزع معاوية السيادة البحرية من الروم البيزنطيين وحاصر عاصمتهم، ثم سار خلفاء بني أمية على هذا النهج ذاته في السياسة الاستراتيجية، تطبيقاً لما قاله معاوية في وصيته: «شدوا وثاق ـ أو خناق ـ الروم، فبها تضبطون شعوب الأرض». وخلق انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية شعوراً بالارتياح في الأوساط الحاكمة البيزنطية التي أخذت في دفع الثغور والهجوم على عواصم المسلمين في بلاد الشام. وفي هذا الوقت ذاته أخذ الأمويون في الأندلس بتهديد دول النصارى في الشمال (الكارولنجيين والميروفنجيين) في بلاد الغال ـ فرنسا ـ وأدى ذلك في أيام شارلمان إلى إقامة تحالف بين بغداد وريمس، قابله قيام تحالف بين القسطنطينية وقرطبة، غير أن قوة هذا التحالف وضعفه كانت تتأرجح بحسب قوة القائمين على الحكم في العواصم المتصارعة. وعندما بدأ نجم الأمير عبد الرحمٰن الناصر بالصعود، وارتفعت مكانة قرطبة، كانت القسطنطينية غارقة في متاعبها على الحدود وداخل المملكة البيزنطية ذاتها، فعاد ملك الروم إلى إحياء السياسة التقليدية، وبعث الهدايا والوفود إلى قرطبة، ورد أمير قرطبة على ذلك بوفود مماثلة، فكان في ذلك ما زاد في هيبة قرطبة معنوياً، فكانت هذه الهيبة تدعيماً لتعاظم القدرة المادية لقرطبة.

جـ ـ ممالك الغرب: عندما انطلق الأمير عبد الرحمٰن الناصر لبناء دولته،

كان عصر الملوك الأقوياء (الكارولنجيين) قد انقضى منذ عهد بعيد. فقد توفي شارلمان الكبير سنة (١٩٩هـ/ ٨١٤م)، أي بعد وفاة الرشيد بستة أعوام تقريباً. وعرفت الدولة الكارولنجية ما عرفته الدولة العباسية من التمزق والضعف، إذ اقتسم خلفاء شارلمان مملكته الواسعة، وقام هؤلاء الخلفاء بتقسيم ممتلكاتهم على ورثتهم، وكان يتم في بعض الأحيان صراعات دموية لاقتسام الإرث، على نحو ما حدث بصورة خاصة سنة (٢٧٤هـ/ ٨٨٧م)، حيث اجتاحت نار الثورة مملكتي الإفرنج الرئيسيين «ألمانيا وفرنسا»، وانتهى الأمر بانتخاب أرنولف الكارنثي ملكاً على الجرمان، بينما تم انتخاب أود ملكاً على شمال فرنسا، وأُقيمت ممالك مستقلة في كل من البروفانس، وبرجنديا وإيطاليا. وبينما كانت هذه الممالك تسير نحو المزيد من التمزق، كانت قرطبة تسير نحو المزيد من التماسك والقوة، وكان ذلك يعني أن ما تلقاه دول النصارى في الشمال الأندلسي «ليون ونافار» من دعم بات محدوداً، وكان ذلك في مصلحة قرطبة، لا سيما خلال تلك الفترة التي كان على أميرها خوض صراع شامل على كل الجبهات.

لقد كان هذا الموقف العام مساعداً للأمير عبد الرحمٰن الناصر للمضي قدماً في طريق القوة والبناء، غير أن هذا الطريق لم يكن سهلاً، أو مفروشاً بالورود كما يقال، فكان لا بد من خوض صراع مرير وشاق لا للقضاء على ظواهر الضعف والتمزق التي طالما أرهقت حكام أمراء قرطبة من أسلاف الأمير، وإنما من أجل اجتثاث جذور الضعف والقضاء على عوامل التمزق، وقد بدأ الأمير جهده بمحاربة أخطر أعداء الداخل «ابن حفصون».

٣ ـ القضاء على ثورة «عمر بن حفصون»

يُنسب «عمر بن حفصون» إلى أسرة تزعم أنها تنحدر من نسل نبيل قوطي يدعى «ألفونسو»، وكان جعفر، والد جد الثائر، أول داخل في الإسلام. وذكر ابن عذارى نسبه كما يلي:

«عمر بن حفصون، المعروف بحفص بن جعفر بن شيتم بن ذبيان بن فرغلوش بن أذفونش ـ ألفونس ـ، من مسالمة الذمة، ومن كورة «تاكرنا» التابعة لرنده، وكان الذي أسلم منهم جعفر بن شيتم فغشا نسله في الإسلام»[1]. وكان حفص، والد الثائر، ذا مال ووجاهة فأضاف إلى اسمه «ون» لتأكيد صلته بأصله القوطي، فأصبح يعرف باسم «حفصون»، وترك ثلاثة أبناء، أكبرهم عمر الذي تميز عن أخويه بمزاجه الحاد وشراسة طباعه، فقتل في حداثة عمره جاراً له، ما دفعه إلى الهرب والإقامة في الجبال، حيث ألف حياة التشرد ومارس حياة قطاع الطرق وأعمال السلب والنهب، فقبض عليه، وكان حاكم الإقليم يجهل ماضيه، فأشفق على حداثة سنه، ولم يقتله كما كان يفعل مع الخارجين على القانون، واكتفى بجلده ثم أطلق سراحه. وخاف عمر بن حفصون افتضاح أمره، فهرب إلى المغرب الإسلامي، واستقر بتاهرت، وعمل عند خياط ذمي من أهل جلدته، وتعرف عليه أحد شيوخ المولدين، وخاف الوشاية، فرجع إلى الأندلس، ولجأ إلى «بربشتر»[2] حيث بدأ ظهوره فيها.

كان عمر بن حفصون شجاعاً، كريماً، شديد البأس على أنصاره، يلزمهم بطاعته طاعة عمياء، ويقتل منهم كل خارج على تعاليمه وأوامره، فانتشر الأمن في الربوع التي سيطر عليها، وأطاعه العصاة لتأمين موارد حياتهم، كما خضع له

---

(١) **البيان المغرب** ـ ابن عذارى ٢/ ١٥٦.

(٢) بربشتر: (Bobastro) من أمنع حصون الأندلس، على بعد ٥ كيلومتر إلى الشمال الغربي من بليش حالياً (Velez De Malaga) على الساحل الجنوبي للأندلس.

الأغنياء اتقاء لشره، وضم في عصابته مجموعة متناقضة يجمعها عامل واحد هو الحقد على الحكم الأموي الإسلامي، فكان بين أنصاره جموع من العرب والبربر والمولدين والمستعربين والنصارى والمسلمين. ولعل أفضل وصف له هو قول ابن حيان فيه: «... **إنه إمام الثائرين وقدوتهم، وهو أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً وأبعدهم قوة**»[(١)].

بدأ عمر بن حفصون ثورته سنة (٢٦٧هـ/ ٨٨٠م) في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦م). وكانت قوته في بداية الثورة لا تزيد على أربعين رجلاً، وجعل من بربشتر قاعدة له، واستقطب حوله قطاع الطرق والعصاة والمتمردين، فسيطر بهم على المناطق الجبلية الوعرة بين رندة ومالاقا. وقد حاول حاكم رية ـ عاملها ـ القضاء على الثورة في مهدها، فتوجه إلى بربشتر، لكن ابن حفصون انتصر عليه، فعزل الأمير محمد العامل المهزوم، وعين عاملاً جديداً عجز بدوره عن إخضاع ابن حفصون، فاكتفى بعقد هدنة معه. وعندما وجه الأمير محمد وزيره «هاشم بن عبد العزيز» على رأس جيش كبير فشدد الحصار على بربشتر، وأسر عدداً من أنصار ابن حفصون، اضطر هذا في النهاية للاستسلام، وحمل إلى قرطبة ومعه سائر أفراد عصابته، فعفا عنه الأمير محمد وضمه إلى جيشه. ثم توجه المنذر بن محمد إلى الثغر الأعلى لقتال «محمد بن لب، من بني قس، المولدين أيضاً» في سنة (٢٧٠هـ/ ٩٨٣م)، وكان معه ابن حفصون كواحد من كبار قادة الجيش، غير أن ابن حفصون لم يرض قتال ابن لب، وأظهر عدم رضاه عن منصبه، ففر تحت جنح الظلام ومعه نفر من أصحابه، وعاد إلى قاعدته بربشتر حيث استأنف ثورته، وانضمت إليه جموع الخوارج والمتمردين.

وفي سنة (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)، خرج المنذر لقتال ابن حفصون وبدأ عملياته بالتوجه إلى «الحامة» شمال مالاقا، حيث الثائر ابن حمدون، حليف ابن حفصون، وأسرع هذا لنجدة حليفه. وحاصر المنذر «الحامة» مدة شهرين، وعندما أشرفت المدينة على الاستسلام وقد نفدت مؤونتها، خرج الحليفان، ابن حفصون وابن حمدون، للقاء المنذر، ودارت معركة انتصر فيها المنذر، وهزم

(١) المقتبس ـ ابن حيان ١٩.

الثوار، وجرح ابن حفصون، وارتد مع فلول أصحابه إلى «الحامة» واعتصم بحصونها من جديد. وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة، علم بوفاة أبيه، فاضطر لرفع الحصار والعودة إلى قرطبة.

وأفاد عمر بن حفصون من فترة انتقال الحكم للمنذر فسيطر على القواعد والحصون الجنوبية كلها، وخضعت له كورة «ناحية» رية وأرشدونة ومالاقا وجيان وأستجة وغيرها، واجتمع إليه المغامرون والخوارج من كل أنحاء الأندلس، فأظهر الدعوة لبني العباس، وكاتب «ابن الأغلب، في المغرب الإسلامي»، ودعم مركزه في «بربشتر» بعد أن طرد عامل أمير قرطبة منها، وسبى جاريته وتزوجها، وكانت هذه أم ولده الأكبر سليمان الذي قاد ثورته بعد وفاة أبيه.

لم يلبث الأمير المنذر أن قاد جيشاً كبيراً بنفسه، وأظهر تصميمه على سحق تمرد ابن حفصون فتوجه في سنة (٢٧٤هـ/ ٨٨٧م) إلى رية، وحاصر أرشدونة الواقعة غربي لوشة حتى خضعت له، وحاصر حصون باغة ـ بريجو ـ وافتتحها وقبض على عيسون، حاكم أرشدونة المتمرد، كما قبض على بني مطروح حلفاء ابن حفصون في باغة، وبعث بهم إلى قرطبة حيث قتلوا جميعاً، وصلب مع عيسون خنزيراً وكلباً إمعاناً في التشهير به.

ثم تابع المنذر تقدمه حتى وصل بربشتر وحاصرها وعزلها عن كل ما يحيط بها وضيق عليها، وعندما اشتد الأمر على ابن حفصون لجأ إلى الحيلة والخداع، فطلب الصلح، وعرض التسليم، وأعلن عزمه على السير بأهله إلى قرطبة، غير أنه اعتذر عن عجزه عن التحرك بسبب افتقاره لوسائط النقل، فأمده المنذر بما طلبه من الغذاء والدواب والثياب، وبعث بها إلى ابن حفصون في قلاعه، وقفل المنذر بجيشه عائداً إلى قرطبة، يتبعه ابن حفصون الذي لم يلبث أن اغتنم فرصة للهرب وعاد من جديد إلى بربشتر، فعاد المنذر وهو أكثر تصميماً على سحق الثائر لخيانته وغدره، وحاصر بربشتر مصمماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، ومرض المنذر فاستقدم أخاه عبد الله من قرطبة ليتابع الحصار عوضاً عنه.

وتوفي المنذر تحت أسوار بربشتر في منتصف صفر سنة ٢٧٥ للهجرة الموافق سنة ٨٨٨م، وعندها طلب ابن حفصون الصلح من الأمير عبد الله حتى تتاح فرصة إعادة تنظيم قواته.

وكان الأمير عبد الله في حاجة لمثل هذا الصلح لإنهاء استعداداته أيضاً، فوافق على الصلح، غير أن ابن حفصون لم يلبث طويلاً حتى نكث بوعده وأخذ في توسيع نطاق عملياته. وقاد الأمير جيشاً في السنة التالية لإخضاع ابن حفصون واستطاع تدمير الإقليم، غير أنه لم يتمكن من إخضاع الثائر، ما ضاعف من قوة ابن حفصون الذي بات يهدد قرطبة ذاتها، وينازع أميرها سلطته، فما كان من الأمير عبد الله إلا أن حشد قوة مكونة من (١٨) ألف مقاتل في سنة (٢٧٨هـ/ ٨٩١م)، وأسند قيادتها إلى قائد فرسانه عبيد الله بن محمد بن أبي عبيدة، ووجهه إلى بلاي التي كانت من أمنع حصون قبرة وأقواها.

والتقى جيش قرطبة بجيش ابن حفصون الذي بات يضم (٣٠) ألف مقاتل، وتجاه هذه التفوق ركز عبيد الله ثقل هجومه على الجناح الأيسر لقوات ابن حفصون، فسحقه، ثم نقل مركز ثقل الهجوم إلى الجناح الأيمن واستطاع تمزيقه، وهربت فلول جيش ابن حفصون من بلاي إلى بربشتر، وتابع عبيد الله تقدمه حتى وصل إلى أستجة فأخضعها، وأرسل زعاء الثورة إلى قرطبة. واستقبلت قرطبة جيشها المنتصر بفرحة عارمة، وكافأ الأمير عبد الله قائد فرسانه بتعيينه وزيراً، وانطلق الشعراء في امتداح القائد، والإشادة بنصره في معركة بلاي. وفي سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م)، ، توجه المطرف، ابن الأمير عبد الله، إلى بربشتر وحاصرها، ودارت معارك طاحنة قتل، خلالها، حفص ابن المرة، أشجع قادة ابن حفصون، وتم الاستيلاء على أستجة للمرة الثانية، غير أن ابن حفصون استطاع في سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) إعادة سيطرته على أستجة.

وفي السنة التالية أرسل الأمير عبد الله جيشاً كبيراً بقيادة ابنه، المطرف، ومعه أحمد بن أبي عبيدة لقتال ابن حفصون، وقام هذا الجيش بجولة واسعة في الإقليم، مروراً برية ومالاقا، وخاض مجموعة من المعارك الثانوية، غير أنه لم يحقق أي انتصار حاسم. وأثناء ذلك، عقد ابن حفصون حلفاً مع محمد بن لب القسوي المولد أيضاً، وأرسل محمد بن لب ابنه، لبا، في بعض قواته إلى ابن حفصون لتوثيق عرى التعاون فيما بينهما، ولكن لبا تلقى بعد فترة قصيرة نبأ وفاة أبيه محمد أمام أسوار طليطلة، فغادر بربشتر، بدون أن يبرم أمراً مع ابن حفصون، وفشل هذا التحالف وهو لا يزال في بدايته.

وظن ابن حفصون أن القوة التي بات يمتلكها قد وصلت إلى مرحلة كافية تسمح له بإظهار حقيقة أهدافه ونواياه، والانتقال في العمل من السر إلى العلن،

فأعلن اعتناقه وسائر أفراد أسرته النصرانية، وأشهر ارتداده عن الإسلام، واستبدل اسمه باسم «صاموئيل»، وفاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي لتشكيل حلف ضد قرطبة، كما فاوض بعض أمراء المغرب من الفاطميين وطلب دعمه ضد إمارة قرطبة. وكان إشهاره النصرانية وارتداده عن الإسلام سبباً في امتناع عدد كبير من المسلمين عن نصرته والامتناع عن تأييدهم له. كما تحالف ابن حفصون مع سيد إشبيلية «إبراهيم بن حجاج»، وحاول أمير قرطبة الوصول إلى تسوية سلمية مع ابن حفصون، غير أن هذا امتنع عن مهادنة عبد الله أمير قرطبة لفترة طويلة.

وجه الأمير عبد الله جيشاً كبيراً لقتال ابن حفصون في سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م)، فأرسل عمر بن حفصون قواته المدعمة بفرسان أمير إشبيلية «إبراهيم بن حجاج»، والتقت قوات الطرفين عند مدينة أستبة على مقربة من نهر شنيل. ودارت رحى معركة رهيبة، انتهت بانتصار جند قرطبة، وأعدم الأمير عبد الله رهائن ابن حفصون، فخاف إبراهيم بن حجاج أن يقدم الأمير عبد الله على إعدام ابنه عبد الرحمٰن، الذي كان يحتفظ به أمير قرطبة رهينة عنده، ففاوض الأمير عبد الله في الصلح، واستجاب الأمير لطلبه، وأطلق سراح عبد الرحمٰن وأعاده مكرماً إلى أبيه، فعاد إبراهيم إلى سابق عهده وولائه لأمير قرطبة.

عاد الأمير عبد الله، أمير قرطبة، فوجه جيشاً لقتال ابن حفصون سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٨م)، ووصل هذا الجيش إلى قاعدة ابن حفصون في بربشتر، غير أنه عجز عن إحراز نصر حاسم، فاكتفى بتدمير الإقليم وعاد إلى قرطبة. وفي سنة (٢٩٧هـ/ ٩١٠م) توجهت حملة قوية من قرطبة، بقيادة أحمد بن أبي عبيدة، فوصلت كورة «رية» (ناحيتها)، واشتبكت مع قوات ابن حفصون في عدد من المعارك الثانوية، التي كانت بعيدة كل البعد عن النصر الحاسم. واستمرت قرطبة بتوجيه الحملات السنوية لقتال ابن حفصون وإخضاعه، غير أن كل الحملات لم تزد ابن حفصون إلا قوة وعناداً.

كان ذلك هو الموقف يوم تولى عبد الرحمٰن الناصر إمارة قرطبة، (في ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/ تشرين الأول ـ أكتوبر ٩١٢م)، وقد أبرز العرض السابق مدى الخطر الذي بات يتهدد قرطبة من ثورة هذا الثائر. ولهذا، فقد انصرف الأمير عبد الرحمٰن فوراً لإعداد حملة قوية قادها بنفسه من قرطبة في (شهر شعبان ٣٠٠هـ/ آذار ـ مارس سنة ٩١٣م).

بدأ الأمير عبد الرحمٰن الناصر عملياته بإنقاذ مدينة رية، ورفع الحصار الذي ضربه ابن حفصون عليها، ثم انتزع منه حصون منتلون وشمنتان ومنتيشة وغيرها، وتابع تحرير المدن الموالية لابن حفصون في كورة البيرة وتطهيرها من أنصاره، وتوجه بعد ذلك إلى وادي آش، فاحتل الحصون والقلاع المنتشرة فيه، وأوغل في تقدمه عبر شعاب جبل الثلج «سيرانيفادا»، وعاد إلى قرطبة بعد مضي ثلاثة أشهر قضاها في قتال مستمر. وفي السنة التالية (٣٠١هـ/ ٩١٤م)، تقدم الأمير عبد الرحمٰن لحرب ابن حفصون في غزاته الثانية، وسلك محور وادي رية، ووقعت معركة بينه وبين ابن حفصون أمام قلعة «طرش» قتل فيها عدد كبير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى. واستطاع أسطول عبد الرحمٰن أن يستولي على مجموعة من السفن المحملة بالمؤن والإمداد، التي أرسلت من الفاطميين في عدوة المغرب لدعم ابن حفصون، وعمل على إحراقها. ثم سار الأمير عبد الرحمٰن بعد ذلك إلى «شذونة» ومنها إلى «قرمونة» وحاصرها حتى استسلمت له.

توفي عمر بن حفصون في سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٨م)، وخلف أربعة أبناء هم: جعفر وعبد الرحمٰن وسليمان وحفص وابنة هي «أرجنتا»، فقام جعفر مكان أبيه في ببشتر، واستقل عبد الرحمٰن في حصن طرش، بينما تمركز سليمان في أبدة.

أسرع الأمير الناصر، فوجه جند الأندلس إلى «أبدة» واستولى عليها وأخذ سليمان أسيراً إلى قرطبة، فأكرمه الأمير الناصر وعفا عنه، وضمه إلى جيشه، واستسلم عبد الرحمٰن بن حفصون من دون قتال.

قتل جعفر في ببشتر سنة (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م)، فقام أخوه سليمان مكانه، وأقره الأمير الناصر على ولايته، ولكنه نكث عهد الطاعة، فسار الأمير عبد الرحمٰن لحصاره، فامتنع في حصونه، ولم يتمكن من إخضاعه. واستمر أمير قرطبة في إرسال الحملات السنوية حتى سنة (٣١١هـ/ ٩٢٣م) حيث تولى بنفسه قيادة جند الأندلس من أجل حصار ببشتر، غير أنه عجز عن إخضاعها.

وتتابعت الحملات دونما أي نجاح حتى سنة (٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، حيث وجه الأمير عبد الرحمٰن جند الأندلس إلى ببشتر بقيادة الوزير عبد الحميد بن سبيل. وخرج سليمان بن عمر بن حفصون للقائه، فهزمت قوات ابن حفصون وقتل سليمان، واحتل حفص أخاه مكانه واستمر على المقاومة، لكنه اضطر في

النهاية إلى الاستسلام، فأخذ أسيراً إلى قرطبة، فعفا عنه الأمير عبد الرحمٰن وضمه إلى جيشه.

لقد أمكن للأمير عبد الرحمٰن الناصر لدين الله أن يقضي على الثورة بعد طول معاناة وبكثير من الجهد والتضحيات، غير أنه كان لا بد له من تطهير قاعدة الثورة، فخرج إلى «بربشتر» سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، وأمر بإخراج رفات عمر بن حفصون وولده سليمان وأرسلهما إلى قرطبة لتعليقهما على أبوابها، وهدم جميع الكنائس والأديرة التي ابتناها الثائر ابن حفصون في تلك المنطقة، واستولى على المعاقل والحصون جميعها، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة.

بقيت «أرجنتا» محافظة على ردتها، واستمرت في التحريض على الإسلام والمسلمين، مدفوعة ببعض القسس الذين أعماهم تعصبهم عن رؤية المميزات التي منحها الإسلام لأهل الذمة، فأفادوا من تسامح المسلمين للنكاية بهم والتحريض عليهم، مستخدمين لأغراضهم الوسائل الدنيئة. ولم يجد الناصر أمامه مفراً من إصدار أمره بالقبض على «أرجنتا»، ابنة عمر بن حفصون، وتقديمها للمحاكمة وإعدامها لارتدادها عن دين الإسلام[1]، وبموتها تم القضاء على آخر رواسب ثورة عمر بن حفصون، وزالت عن طريق الأمير الناصر أقوى شوكة طالما أدمت أقدام أمراء قرطبة من قبله.

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٩١ ـ ٢٠٩، وابن خلدون ٤/ ١٣٥.

٤ ـ نشوء مملكة نافار، أو البشكنس، في الشمال

فتح موسى بن نصير وطارق بن زياد الأندلس من أقصى جنوبها حتى أقصى شمالها، وتجاوزاها إلى ما وراء الدروب، فأوغلا في بلاد الغال ـ فرنسا ـ ولم يبق في شبه جزيرة الأندلس موضع لم تجتاحه خيول العرب. وعندما أقام «صقر قريش» دولة بني أمية، كانت حدود دولته تمتد إلى الحاجز الجغرافي الفاصل لشبه الجزيرة عن الشمال «جبال البيرنيه ـ أو البرتات». ولكن عندما تولى عبد الرحمٰن الناصر إمارة قرطبة كانت هناك إمارات للنصارى في شمال الأندلس، أخذت في التوسع على حساب دولة المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية. فكيف تشكلت هذه الممالك أو الإمارات؟ ولماذا كان تمركزها في الشمال؟.

بقي الشمال الأندلسي يضطرم ناراً منذ الأيام الأولى للفتح، على ما تذكره المصادر الأندلسية، فقد انتشرت بعض القبائل العربية والبربرية في الشمال، ولم تلبث أن شعرت، وهي بعيدة عن سيطرة الدولة، بقوتها، وبمنعة مناطقها، فجنحت إلى الاستقلال، ونزعت إلى ممارسة الحكم بحرية، ما أدى إلى الصدامات المستمرة فيما بين العرب والبربر، وفيما بين القبائل العربية بعضها ضد بعض. ولم يلبث الشمال الأندلسي أن تمخض عن ولادة حركات ثوروية قادتها العناصر غير العربية من المولدين والمستعربين الذين خضعوا للعرب المسلمين، ثم أفادوا من مناخ الاضطراب بين مراكز القوى التي اضطلعت بواجب الفتح، فدعموها في البداية ثم استقلوا عنها. ومارست الكنيسة دورها في إثارة الأحقاد بين الذميين الذين بقوا على دينهم، ثم أخذ هؤلاء في تحريض المولدين والمستعربين، فتشكلت منهم جبهة واحدة يجمعها عامل واحد هو الحقد ضد المسلمين وضد الإسلام. وبقي الشمال هو القاعدة الأساسية للتمرد والثورة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: وجود طليطلة، عاصمة القوط القديمة في الشمال، مركزاً لاستقطاب

العناصر المضادة للحكم الإسلامي، وقاعدة للتحريض الصليبي.

ثانياً: استيطان العرب المسلمين في الجنوب بالدرجة الأولى، لقربه من عدوة المغرب، وبسبب طبيعته المماثلة لطبيعة المشرق الإسلامي، وتوافر الرغبة للاستيطان عند المناطق الخصبة والابتعاد عن المناطق الجبلية الوعرة في الشمال، وذلك على نحو يشابه تماماً ما فعله العرب المسلمون عند استيطانهم في بلاد الشام. وكان لهذا الاستيطان محاسنه بقدر ما كانت له مساوئه. فهذا الاستيطان الكثيف في الجنوب ساعد القبائل العربية، القليلة في عددها والضعيفة في قدراتها البشرية، على البقاء متجمعة مما كان يساعدها على حشد قواتها بسهولة أكبر مما لو قامت بالانتشار فوق الصفحة الجغرافية لشبه الجزيرة الأندلسية. ومقابل ذلك فإن ضعف الاستيطان في الشمال قد سمح للعناصر المضادة بالتجمع في الشمال، وممارسة دورها الثوروي في مناخ من حرية العمل التامة.

ثالثاً: أفادت مراكز القوى المضادة في الشمال من بعدها عن العاصمة، ومن وعورة محاور التقدم لتدعيم مواقعها وبناء قدرتها الذاتية، كما أفادت من قوة تحصيناتها وطبيعة مواقعها الصعبة لتنظيم قوتها الدفاعية، وبذلك استكملت مراكز القوى هذه كل الضرورات الأساسية للقيام بحركات استقلالية. وكان باستطاعة هذه المراكز الإفادة من دعم الدول النصرانية القريبة منها فيما وراء جبال البيرينه، وقد تطور هذا الدعم عبر مراحل مختلفة، فاقتصر في البدايات الأولى على التشاور وتبادل الرسائل وتنسيق الهجمات الخارجية مع حركات التمرد الداخلية، وأمكن الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة متقدمة من تنسيق التعاون الكامل بين الحركات الثوروية وبين جيوش النصارى في بلاد الغال ـ فرنسا ـ. وكان باستطاعة الثوار الهرب إلى الشمال كلما اشتد ضغط المسلمين وعبور البيرينه، حيث يتوافر الأمن من أجل إعادة تنظيم القوى المناهضة للمسلمين واستئناف الصراع ضدهم.

نشأت مملكة «نافار» في هذا المناخ، وقد أحاط الغموض بمراحل تشكلها الأولى. وقد أقامت هذه المملكة كيانها فوق منطقة البشكنس ـ الباسك ـ وجعلت من «بنبلونة» عاصمة أو قاعدة لها. والمعروف أنه ظهر في نافار سنة (١٨٣هـ/ ٧٩٩م) زعيم قوي يدعى «أزوار» استقل بإمارته، وأخذ في بناء قدرته الذاتية وتنظيم إمارته. وفي سنة (٢٢٢هـ/ ٨٣٦م) توفي أزوار، وخلفه في إمارة

البشكنس أخوه «سانشو ـ أو سانكو»، غير أن أميراً آخر، هو «غارسيا أينجيز بن إينجو أريستا»، انتزع الإمارة من سانشو.

وتذكر المصادر الإسلامية هذا الأمير باسم «ونقه بن شانجه ـ ملك البشاكسة»، كما تذكر ارتباط إمارته، في مرحلة نشوئها، مع إمارة إسلامية مجاورة كان يحكمها المولدون، وهي إمارة «بني قسي» سادة الثغر الأعلى. وقد جاء هذا الارتباط عن طريق المصاهرة، حيث تزوج «إينجو أريستا» بأرملة موسى بن فرتون بن قسي، ثم تزوج موسى بن موسى من ابنة غارسيا أينجيز. وتزوج غارسيا وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار، فتوطدت روابط التحالف بين الأسرة النصرانية والأسرة المسلمة من «المولدين»، وقد أظهر غارسيا عداءه الواضح للمسلمين، من خلال دعمه لثورة «عمر بن حفصون». وفي الوقت ذاته، فإن العلاقة بين «نافار» وبين جارتها الكبيرة «ليون»، وهي الإمارة النصرانية المنافسة، لم تكن علاقة جيدة، بسبب مطامع مملكة ليون في ضم مملكة نافار الصغيرة إليها، وقد ظهر هذا العداء السافر بين ليون ونافار في سنة (٢٤٨هـ/ ٨٦٢م)، عندما زحف أمير نافار، غارسيا أينجيز، ومعه صهره «موسى بن موسى» لدفع عدوان ليون، حيث وقعت معركة طاحنة في البلدة، قتل فيها غارسيا، ثم خلفه ابنه «فرتون»، الذي بقي فترة طويلة في أسر أمير قرطبة، ثم خلفه ولده «سانشو جارسيا»، وهو أول من تلقب من أمراء نافار بلقب الملك، وبه يبدأ التاريخ الحقيقي لمملكة نافار.

وخلال هذه المرحلة لم يتوقف الصراع بين المملكتين النصرانيتين، كما لم يتوقف الصراع بينهما مجتمعتين أحياناً ومتفرقتين في أحيان أخرى ضد المسلمين وإمارتهم في قرطبة. وفي سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)، قتل لب بن موسى على أبواب «بنبلونة» خلال الصراع الدموي الطويل بين سانشو وبني قسي المولدين، وكان هذا هو الموقف يوم تولى الأمير عبد الرحمٰن الناصر الحكم في قرطبة.

٥ ـ نشوء مملكة جيليقية، ثم أشتوريش ثم ليون

بدأ اسم «جيليقية» يتردد في التاريخ الإسلامي مرتبطاً بالأيام الأولى للفتح[١]، حيث ذكر بأن شاباً يدعى «بلاي» هرب ومعه فئة من أنصاره والتجأ إلى الجبال الوعرة، فراراً من وجه العرب المسلمين، وذكر أن قوة من المسلمين طاردته وضيقت عليه الخناق حتى لم يبق معه سوى ثلاثين رجلاً وامرأة، واستهتر المسلمون بشأنهم حتى قالوا: «ثلاثين شخصاً؟ وماذا يجيء منهم؟» فانصرفوا عنهم.

ومضى «بلاي» في مقاومته، وأخذ في استقطاب الثوار وتنظيمهم في معاقله الجبلية، وأفاد من فترة حكم الأمراء التي سبقت قيام دولة الأمويين لتنظيم مقاومته وتصعيدها، مستفيداً من الصراعات والفتن الداخلية فيما بين المسلمين أنفسهم، واستمر في ذلك حتى توفي، فخلفه صهره ثم أبناؤه في قيادة أعمال الثورة. وفي سنة (١٧٥هـ/ ٧٩١م)، تولى حكم جيليقية الملك «ألفونسو الثاني» وأطلق على مملكته اسم مملكة جيليقية أو أشتوريش ـ أستورياس ـ ونقل عاصمة مملكته من الجبال إلى «أوفيدو»، وأصبحت حدود مملكته تمتد من غسكونيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن خليج غسكونيا شمالاً حتى نهر دويره جنوباً، ثم استقلت عنها نافار، أو بلاد البشكنس. وقد أظهرت مملكة جيليقية عداءها للمسلمين منذ بداية تشكلها، وأخذت في التوسع على حساب ثغور المسلمين، فأدى ذلك إلى صراع مستمر ومعارك كثيرة، كان من أبرزها معركة الصخرة ـ كوفادونقا ـ سنة (١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، وهي المعركة التي

---

(١) غاليسية أو جيليقية (Galice): هي المنطقة الواقعة في شمال غرب أسبانيا، وتضم أقاليم كوروني وبونتيفيدرو وليغو وأورنيس وعاصمة سانيتاغو دو كومبوستيلا، وقد اشتهرت كمملكة منذ أيام ملك ليون فرديناند الأول، والذي عين لحكم جيليقية ابنه الثالث جارسيا (١٠٦٥ ـ ١٠٧٣م) ثم ضمت إلى قشتالة منذ سنة ١٠٧٣م، وبقي حكام هذا الإقليم مستقلين حتى نهاية القرن الخامس عشر.

انتصر فيها المسلمون على قوات جيليقية التي كان يقودها ألفونسو الثاني.

وفي سنة (١٩٣هـ/ ٨١٠م)، عبر ألفونسو الثاني بقواته نهر دويره، واجتاح الأراضي الإسلامية حتى وصل قلمرية وأشبونة، ورد الحكم بن هشام بهجوم مضاد، فتقدم عبر وادي الحجارة وأخضع جيليقية. ثم وجه أمير قرطبة عبد الرحمٰن بن الحكم جيشاً كبيراً بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وذلك سنة (٢٠٨هـ/ ٨٢٣م). وقام جيش قرطبة باجتياح ألبة والقلاع ـ قشتالة ـ وأوقع بقوات جيليقية هزائم منكرة.

وتوقفت الأعمال العدوانية بسبب وفاة ألفونسو الثاني سنة (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م)، حيث خلفه راميرو الأول ـ الذي تذكره المصادر الإسلامية باسم رذمير ـ ثم توفي هذا سنة (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) وخلفه أردونيو ملكاً على أشتوريش وبردوليا ـ قشتالة ـ وعمل أردونيو على تحصين الثغور وبناء المواقع والثغور على حدود بلاده، وأقام تودة وليون وأسترقة. وتوفي أردونيو سنة (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)، وخلفه ابنه البكر ألفونسو الذي عرف باسم ألفونسو الثالث، أو ألفونسو الكبير الذي وسع حدود مملكته حتى جبال البيرينه شرقاً، كما عبر نهر دويرة مرات كثيرة لقتال المسلمين وغزو بلادهم.

وفي سنة (٢٥٨هـ/ ٨٧١م)، عقد مؤتمر كهنوتي ـ كنسي ـ في أوفيدو، بهدف إعادة تنظيم الكنيسة الإسبانية وزيادة نشاطها. وفي سنة (٢٩٧هـ/ ٩١٠م)، تنازل ألفونسو عن الحكم لأبنائه، بعد ظهور مجموعة من المؤامرات، فكان تنظيم الحكم وتوزيع السلطة كما يلي:

«١ ـ جارسيا ـ أو غرسيه ـ الابن الأكبر، وصياً على العرش.

٢ ـ أردونيو ـ ملكاً على جيليقية.

٣ ـ فرويله ملكاً على أشتوريش».

وتوفي ألفونسو بعد ذلك بفترة قصيرة، وأجري تعديل على اسم المملكة فأصبحت تعرف باسم مملكة ليون عوضاً عن جيليقية أو أشتوريش، ونقل غارسيا قاعدة مملكته من أوفيدو إلى ليون لموقعها المتوسط بين جيليقية وأشتوريش، وفي هذه الفترة تولى عبد الرحمٰن الناصر إمارة قرطبة.

٦ ـ مراكز القوى العربية المنافسة لقرطبة

استوطن المسلمون في الأندلس، عرباً وبربراً، وفقاً لنظامهم القبلي، فكانت لكل قبيلة كبيرة أو عصبية من العصبيات مستقرها في مدينة من المدن أو مركزها في إقليم من الأقاليم. وكانت هذه العصبيات في حد ذاتها مراكز للقوى، يمكن لها دعم الحكومة المركزية في قرطبة أو إضعافها بحسب الظروف وتبعاً لتطورات الأحداث. ولم يكن بالمستطاع حشد جميع المقاتلين في معسكرات منفصلة أو في مدن عسكرية مستقلة في منطقة واحدة، فكان لكل إقليم جيشه الصغير الخاص به، وكان حجم هذا الجيش يكبر أو يصغر بحسب طبيعة الإقليم، وبحسب الكثافة السكانية ومستوى الاستيطان. وهكذا، وتبعاً لمتطلبات الأعمال القتالية وطبيعة مسرح العمليات، فقد كان يتم الاعتماد بالدرجة الأولى على قوة الفرسان، ولهذا كانت مجموعات فرسان الأقاليم هي التي تشكل مجموعة القوة الضاربة الرئيسية لجيش قرطبة. وعندما كان يتم التحرك للصائفة أو لردع العدوان أو للقيام بهجوم وقائي، كان الخليفة يعمل على تعيين منطقة الحشد، وموعد وصول القوات، حيث تتم في منطقة الحشد عملية إعادة التنظيم لتبدأ بعدها مرحلة الانطلاق إلى مسرح العمليات.

وكان من نتيجة تعاظم روح العصبية المتفجرة بين قبائل العرب والبربر على السواء، ظهور الروح الاستقلالية في الأقاليم، وهي الروح التي دعمها وجود جيش مستقل في كل مدينة وإقليم، ما أسهم في بروز النزعات الانفصالية لدى زعماء الأقاليم. وكانت هذه النزعات تظهر أو تغيب تبعاً لدرجة قوة أمراء قرطبة ومن يقابلهم من أمراء الأقاليم، فإذا ما حدث تنافر أو اختلاف، كان الإقليم مهيئاً لإعلان الثورة، والاستقلال.

ولكن، وفي كل الظروف فإن مراكز القوى هذه لم تبلغ في درجة خطورتها ما كانت عليه إمارات النصارى في الشمال من الخطر، لسببين: أولهما قوة أمراء قرطبة على الأعم الأغلب، وثانيهما رفض المسلمين، بصورة عامة، فكرة

التعاون مع الإفرنج ضد إخوانهم في الدين. وبالرغم من هذه القيود أو الضوابط فقد بقي الصراع المستمر بين مراكز القوى الإسلامية، عاملاً كبيراً في استنزاف قدرة مسلمي الأندلس. ولعل أفضل من يمثل مراكز القوى هذه إبراهيم بن حجاج، حاكم إشبيلية الذي أصبح في فترة من أيام حكم المسلمين للأندلس منافساً قوياً لأمير قرطبة الأموي، وقد يكون من المناسب ذكر لمحة عنه لإظهار خطورة مراكز القوى هذه ودورها في تمزيق قدرة المسلمين في الأندلس وإضعافها.

كانت زعامة إشبيلية لإبراهم بن حجاج والأخوين كريب بن خلدون وخالد بن خلدون، وكانوا جميعهم على اتصال بأمير قرطبة عبد الله، ومن الموالين له، وشعر إبراهيم بن حجاج بخطورة أبناء خلدون على مركزه وقدرتهم على منافسته، فدبر مؤامرة قتل فيها الأخوين كريب وخالد، وطلب من أمير قرطبة الاعتراف بسلطته على إشبيلية.

ولم يكن باستطاعة الأمير عبد الله، وهو يجابه حركات الثورات المضادة في كل إقليم، إلا الاعتراف بإبراهيم بن حجاج على سلطته في إشبيلية، حيث أصبحت زعامته على الإقليم قوية، لا ينازعه فيها منازع، ولا يطمع في منافسته منافس، فاجتبى الأموال واصطنع الرجال وارتقى في الأحوال، وارتفع ذكره، وبعد صيته، واتخذ لنفسه جنداً، ورتب لهم الأرزاق كفعل السلطان، فكان في مصافه خمسمائة فارس، وكان له في بلدة إشبيلية قاض يقوم بالحكم، وصاحب مدينة يقيم الحدود. وكان لإبراهيم بن حجاج في بساط السلطان بقرطبة، قوم يقفون في حقه، ويعلمونه بما عند السلطان من حاله وينصحونه في أمره. وكان إبراهيم بن حجاج ـ أبو إسحاق ـ فظاً على أهل الريب، قاطعاً لأهل الشر، منتجعاً على البحر والبر، مقصوداً بالطرف والغرائب. وكانت له في إشبيلية طرز فيها على اسمه كفعل السلطان إذ ذاك، وكانت قومونة تحت مملكته، وهو الذي حصنها، وحسن بنيان سورها، وفيها كانت مرابط خيله المتخذة لركوبه، وبينها وبين إشبيلية كان ترداده سائر أوقاته[1]. وكان جواداً ممدوحاً يرتاح للثناء،

---

(١) **قرمونه** (Caramona): مدينة إلى الشمال الشرقي من إشبيلية، على بعد ٣٥ كيلومتراً، وكانت كورة ـ ناحية ـ واسعة تضم عدة مدن وحصون (**نفح الطيب** ١/ ١٥٧). وفي **المغرب في حلى المغرب** ١/ ٢٩٩ ما يلي: «كورة مشهورة بكثرة المحرث وطيبه، والحالي منها مدينة قرمونة، وهي مدينة من جهة ضخامة الأسواق والحمامات، ومعقل عظيم من جهة الارتفاع =

ويعطي الشعراء ويضاهي في فعله كبار الأمراء، ويعقد أهل البيوتات والشرف بالعطاء، ويذكر له أنه دعم عمر بن حفصون في ثورته ضد أمير قرطبة، ثم لم يلبث أن تخلى عنه، عندما شعر باحتمال قيام الأمير عبد الله بإعدام ابنه عبد الرحمٰن، على نحو ما فعله أمير قرطبة عبد الله مع أسرى عمر بن حفصون.

ومما حفظه التاريخ لإبراهيم بن حجاج، كدليل على ما وصل إليه من المنعة والمجد والقوة، وأنه صار منافساً قوياً لأمير قرطبة، تلك القصة عن علاقته «بالجارية قمر» التي كانت ببغداد فسمع بها إبراهيم، وبعث إلى المشرق بأموال عظيمة، فاشتراها، وحملها إلى مدينته ودار مملكته إشبيلية، حيث بقيت هناك في رغد من العيش طوال إقامتها في قصر حجاج[1].

توفي إبراهيم بن حجاج في عام (٢٨٨هـ/ ٩٠٠م)، وخلفه ابنه عبد الرحمٰن الذي لم يعمر طويلاً فمضى إلى ربه في بداية عهد الأمير عبد الرحمٰن الناصر سنة (٣٠١هـ/ ٩١٣م)، غير أن إشبيلية بقيت مركز قوة منافسة لقرطبة، وكذلك أمر بقية العواصم التي اندلعت فيها الثورات المضادة وحركات التمرد، والتي تطلَّبت من الأمير الناصر لدين الله بذل الجهد، والسمو بقوة قرطبة حتى تدين لها كل المدن والعواصم بالولاء والطاعة.

ذلك هو بعض الإرث الثقيل الذي تصدى الأمير عبد الرحمٰن لحمل أعبائه، ولعل تقويم تبعات هذه الأعباء وشدة ثقلها هي التي دفعت بذوي الكواهل الضعيفة إلى الهروب بأنفسهم تجنباً من حملها، فتصدى لها عبد الرحمٰن، واحتازها من دونهم، واضطلع بها كما يجب أن تضطلع بها همم الرجال وإرادة الأبطال.

= والمنعة، لا ترام بقتال، وهي حصن من حصون الإسلام المشهورة». وامتدح أبو عمرو أحمد بن عبد ربه ووصف تنقل إبراهيم بن حجاج بين إشبيلية وقرمونه، بقوله:

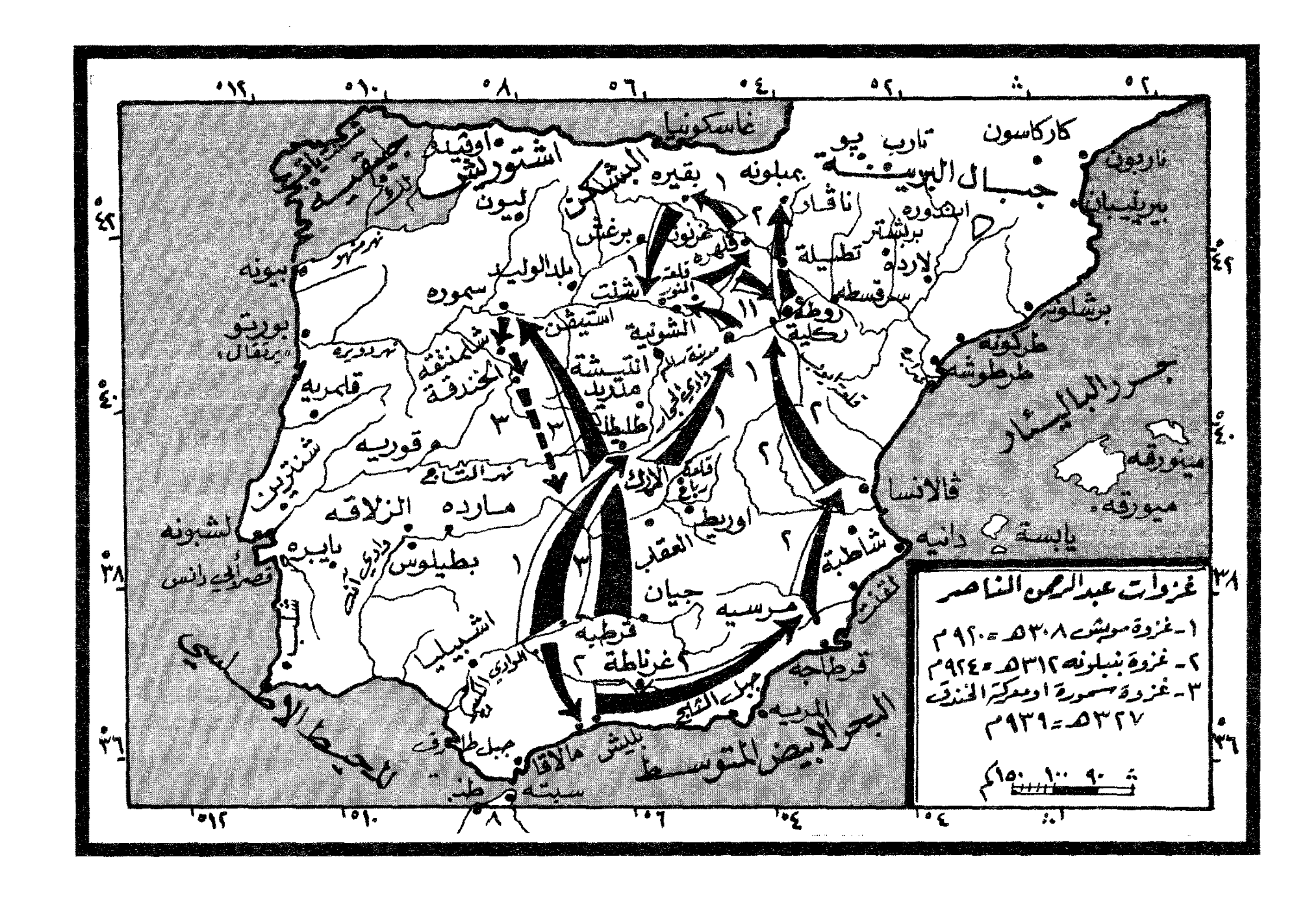
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه ... وقرمونة الغراء ذات الفضائلِ
إذا ما تحللت تلك من نور وجهه ... غدت هذه للناس في زي عاطلِ
إن حل هذي فهو يوحش هذه ... فتهدي برسل نحوه ورسائلِ

(١) **البيان المغرب**: ابن عذارى ٢/ ١٩٠ ـ ١٩٢.

الفَصْلُ الثَّاني

الناصر لدين الله وإدارة الحرب

١ ـ الصراع على الحدود (٣٠٠ ـ ٣٠٧هـ).
٢ ـ غزوة موبش (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م).
٣ ـ غزوة بنبلونة ـ عاصمة نافار (٣١٢هـ/ ٩٢٤م).
٤ ـ غزوة الخندق ـ أو غزاة القدرة (٣٢٧هـ/ صيف ٩٣٩م).
٥ ـ التنظيم العسكري في الأندلس.



غزوات عبد الرحمن الناصر
١ - غزوة موبش ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م
٢ - غزوة بنبلونه ٣١٢ هـ = ٩٢٤ م
٣ - غزوة سمورة او معركة الخندق ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م
البحر الابيض المتوسط
المحيط الاطلسي
جزر البليار
جبال البرينة
غاسكونيا
كاركاسون
ناربون
برشلونه
طركونه
طرطوشه
سرقسطه
تطيلة
ناقار
بمبلونه
بقيره
البشكنس
اشتوريش
اوقيد
ليون
برغش
سموره
ملد الوليد
شلمنقة
الخندقة
الشوبية
انتيشة
مدريد
طليطلة
قورية
شنترين
قلمرية
بورتو
بيونه
لشبونه
بابره
بطليوس
ماردة
الزلاقة
العقاب
جيان
قرطبة
غرناطة
اشبيلية
مرسيه
شاطبة
دانية
بلنسية
قرطاجنه
المرية
مالقة
سبته
طنجة
جبل طارق
ميورقه
مينورقه
يابسة

١ ـ الصراع على الحدود

(٣٠٠ ـ ٣٠٧هـ)

أصبح عبد الرحمٰن أميراً على قرطبة، والبلاد في حالة من الفوضى، فالتمزق الداخلي قد جعل من كل مدينة دولة مستقلة، ومن كل إقليم إمارة منفصلة، وكانت الحروب الداخلية التي استمرت طوال عهدي المنذر وأخيه عبد الله (٢٧٣ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٧٦ ـ ٩١٢م) قد أرهقت البلاد وأفقرتها واستنزفت كامل قوتها.

وكانت الدول النصرانية في الشمال، ليون أو جيليقية، وكذلك نافار أو البشكنس تتابع مسيرتها لبناء قدرتها الذاتية، وأصبحت دولة ليون من أقوى دول الشمال، فأخذت على عاتقها زعامة الممالك النصرانية في محاربة المسلمين، وكانت أول إجراءاتها انتزاع الثغور والمدن المتاخمة لحدودها والتوسع على حساب الوجود الإسلامي، حتى لم يبق في مدن «أستورقة وسمورة وشلمنقة وشقعوبية وميراندة وسواها أثر للمسلمين. ثم أقام «ألفونسو الثاني» مجموعة من القلاع والتحصينات على امتداد حدوده لمجابهة الأعمال الهجومية لقوات المسلمين، والانطلاق في الوقت ذاته من هذه القلاع والتحصينات لضم أقاليم جديدة وانتزاع بلاد أخرى بعد إخراج المسلمين منها. وقد اتبع ألفونسو الثاني أسلوباً مميزاً لمجابهة المسلمين في الثغور؛ وكان هذا الأسلوب يعتمد في أساسه على ما هو متعارف عليه في العصر الحديث باسم «استراتيجية الأرض المحروقة» وإبادة الشيوخ والنساء والأطفال في إغارات قصيرة وحاسمة تترك هذه الثغور فارغة، فتأتي القوات النصرانية وتستوطنها وتقيم فيها، بعد أن يكون قد تم إخضاع المسلمين لظروف نفسانية قاسية تجعل من المحال عليهم البقاء على حدود الشمال، أو الاستمرار في الاستيطان عند الثغور، وقد جاء غرسيه ليسير على خطوات أبيه ألفونسو الثاني في تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها.

كان الأمير عبد الرحمٰن يفضل دونما ريب، وهو في بداية عهده، عدم الدخول في معارك مع دول الشمال حتى يتفرغ لتصفية أعداء الداخل، والانطلاق من قاعدة الجنوب القوية والصلبة لخوض الصراع الحاسم في الشمال، ولهذا فقد قاد بنفسه بواكير عملياته ضد المتمردين من أبناء عمر بن حفصون وأنصارهم، ولم يمض على مبايعته بالإمارة أكثر من أشهر قليلة، غير أن دول الشمال لم تترك له هذه الفرصة، وبدأت على الفور بتنفيذ أعمال قتالية محدودة، لم تلبث أن طورتها إلى عمليات واسعة. فقاد ملك ليون ـ أردونيو الثاني ـ هجومه الكبير سنة (٣٠٢هـ/ ٩١٤م). ووصل بهذا الهجوم حتى مدينة «ماردة»، واستولى على بعض القلاع، وأباد الحاميات الإسلامية المدافعة عنها، وسبى النساء والأطفال، ثم تابع تقدمه حتى «بطليوس»، فأرسل أهلها وفداً محملاً «بالفدية» مظهراً الطاعة، واكتفى أردونيو بما حققه من نصر، وعاد وهو مثقل بالغنائم من دون أن تجابهه قوة حقيقية.

كانت منطقة «ماردة»[1] من المناطق الثائرة باستمرار، ووجد الأمير عبد الرحمٰن الفرصة المناسبة لإظهار التلاحم بين المسلمين في الأندلس ضد عدوهم المشترك، فوجه جيشاً بقيادة وزيره وقائده «أحمد بن أبي عبدة» مع بداية سنة (٣٠٤هـ/ ٩١٦م).

وانطلق أحمد بجيش قرطبة الكبير، واصطدم بجيش ليون في مجموعة من المعارك الثانوية التي انتهت كلها بالنصر، وغنمت قوات المسلمين غنائم كبيرة، وعاد جيش قرطبة إلى قاعدته بعد أن ألحق أضراراً كبيرة في ممتلكات ليون وأراضيها.

عاد أردونيو للعدوان من جديد في سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٦م) فقاد جيشاً كبيراً، وركز جهده على إقليم «طلبيرة ـ تالفيرة» ولم يغادر الإقليم إلا بعد أن ترك المدن

---

(١) ماردة: مدينة كبيرة بينها وبين بطليوس عشرون ميلاً، كانت قاعدة الأندلس وقرارة الملك. بنيت في زمن أوكتافيان (Octavian) وهي على نهر آنة، وفي عملها كثير من المدن، وكان لها من القرى والحصون ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية متصلة بعضها ببعض بالغروسات والأشجار والزيتون والعنب (**نفح الطيب** ١/ ١٥٨) وفي (**المغرب في حلى المغرب**) ١/ ٣٦١: ماردة هي إحدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار، وفيها من إظهار القدرة، الماء المجتلب المحجوب عليه بأبنية، أعجزت الصانعين صنعتها، ويحكى أنه كان في كنيستها حجر يضيء الموضع من نوره فأخذته العرب أول دخولها.

وهي حرائق مشتعلة، والقرى ركاماً من الدمار، وحدثت نتيجة لذلك نقمة عامة ضد قرطبة لعجزها عن القيام بهجوم مسبق وقائي، «بحسب الاصطلاح الحديث»، أو ضربة إجهاضية مسبقة، تضمن الأمن والحماية لسكان الإقليم من المسلمين.

وأمام هذا الموقف وجد الأمير عبد الرحمٰن نفسه مرغماً على تركيز الجهد لتطوير الأعمال القتالية في الشمال، فوجه جيشاً قوياً بقيادة أحمد بن أبي عبدة أيضاً، لتنفيذ المهمة التي سبق له أن اضطلع بواجب تنفيذها. وكانت قلعة «كاسترو موروس، أو قاشتر مورش، أو سانت إستيفان» من أقوى قلاع الشمال وأكثرها تحصيناً، ولهذا أراد القائد أحمد بن أبي عبدة إحراز نصر حاسم باحتلاله لهذا الثغر، فتوجه بجيشه وحاصر سانت إستيفان، وأوشكت الحامية النصرانية على الاستسلام بعد فترة من الحصار، وعندئذ وصلت قوات ليون بقيادة ملكها أردونيو، وكانت هذه القوات تتفوق تفوقاً ساحقاً على جيش قرطبة الذي لم يتمكن من مقاومة صدمة الهجوم، فأخذ بالتراجع والانسحاب، وصمد القائد «ابن أبي عبدة»، ومعه مجموعة من قادته وأعداد قليلة من المقاتلين، حتى أبيدوا إبادة تامة، وتمكنت بقية قوات المسلمين من الانسحاب بكامل قواتها وعتادها، في حين تذكر المصادر الغربية أن هزيمة المسلمين كانت هزيمة منكرة[1] بحيث غطت جثث قتلاهم جميع السهول والتلال والغابات بين دويرة وأبتنزا «أنتيشه».

وكان انتصار أردونيو ملك ليون في «سانت إستيفان» حافزاً لدفع «سانشو، أو شانجة» ملك نافار، للقيام بعمليات مماثلة.

وفي ربيع سنة (٣٠٤هـ/ ٩١٨م)، انطلقت قوات الحلف المكون من ملكي ليون ونافار، للقيام بهجوم جديد قبل مضي أشهر قليلة على الهجوم السابق، وقبل أن تتمكن قرطبة من تضميد جراحها. ووصلت قوات الشمال إلى «ناجرة، أو ناجيرا» وطليطلة، فأعملت في أقاليمها هدماً وإحراقاً وسبياً، واستولى «سانشو» على مدينة «بلتيرة، أو فالتيرا» فأحرق مسجدها، وأذل أهلها قتلاً وسبياً، وأعمل في بنيانها تدميراً وإحراقاً...

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٦.

Histoire Des Musulmams En Espagne 11 P. 117.

ولـم يكن باستطاعة الأمير عبد الرحمٰن الناصر تجنب الصدام، فوجه على الفور جيشاً كبيراً بمهمة التصدي لقوات العدوان، تحت قيادة حاجبه «بدر بن أحمد»، كما وجه رسائل إلى الأقاليم لتوجيه القوات من أجل دعم الجيش والانضمام لقواته. وأسرعت حاميات الثغور وقوات الأقاليم في التحرك للالتحاق بجيش قرطبة. وكانت مملكة ليون ومملكة نافار على علم بتحرك قوات المسلمين، وكانت قوات المملكتين قد أكملت استعداداتها وزجت بكل إمكاناتها في انتظار وصول جيش قرطبة إلى حدود مملكة ليون، كالسيل المدمر، فانسحبت مفارز الاستطلاع والمراقبة لجيوش الشمال، واعتصمت بالمواقع الجبلية الحصينة، وأسرع فرسان المسلمين إلى هذه القوات فمزقوها وأرغموها على ترك مواقعها، ثم تقدم المسلمون حتى وصلوا إلى مسافة قريبة من «مطونية» حيث دارت رحى معركتين كبيرتين في يومي ٣ و٥ ربيع الأول سنة (٣٠٦هـ) (١٣ و١٥ آب ـ أغسطس سنة ٩١٨م). وأظهرت قوات ليون تصميماً كبيراً في القتال، غير أن قوات المسلمين نجحت في إحراز النصر، وسحقت قوات الشمال، وهزمتها هزيمة منكرة، حتى لـم تتمكن سوى مفارز قليلة من مغادرة ميدان المعركة والفرار بعيداً عن مسرح العمليات، ثم عادت قوات المسلمين إلى قواعدها وهي رافعة رايات النصر.

انصرفت قوات نصارى الشمال لمعالجة نتائج الهزيمة، وأعادت تنظيم إمكاناتها وقدراتها، واستأنفت قوات ليون ونافار أعمالها العدوانية ضد ثغور المسلمين وعواصم الشمال، وفي الوقت ذاته كررت قوات المسلمين أعمالها القتالية المضادة.

ولكن هذه الأعمال المحدودة والمستمرة لم تقنع مملكتي الشمال بإيقاف أعمالها العدوانية نظراً لعدم تصعيد الصراع إلى مستوى الحسم، فقرر الأمير عبد الرحمٰن الناصر تكثيف الجهد القتالي وقيادة القوات بنفسه، لا سيما بعد أن وصلته رسائل من أردونيو تتوعده بإجلائه عن الأندلس (**بمواعيد وعدها من نفسه**) فأظهر عبد الرحمٰن الناصر خضوعه للتهديد، وأضمر الكيد له، وأخذ في الإعداد لمعركة حاسمة مع خصمه، ملك ليون.

٢ ـ غزوة موبش

(٣٠٨هـ/٩٢٠م)

اتخذ الأمير عبد الرحمٰن الناصر استعداداته للحرب ضمن نطاق محكم من السرية والكتمان، وفي شهر (محرم ٣٠٨هـ/ حزيران ـ يونيو ٩٢٠م)، انطلق الأمير على رأس جيشه حتى وصل مخاضة الفتح بعد أربعة أيام من المسير المتواصل. وعند مخاضة الفتح استلم عبد الرحمٰن الناصر رسالة من عامل مدينة «الفرج» للإعلام عن قيام جيش جيليقية بعدوان كبير على ريف المدينة، وأنه استولى على ما فيه من خيول وماشية. ثم تابعت قوات جيش العدو تقدمها حتى وصلت «حصن القليعة» الواقع على مسافة قريبة من «مدينة الفرج»، وعند ذلك تم حشد كل الإمكانات المتوافرة، واندفع جميع أهل المدينة من الفرسان والمشاة ـ الرجالة، لمجابهة العدوان. ودارت رحى معركة قاسية، انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً، وبدأ جيش جيليقية بالانسحاب، فاندفع فرسان المدينة لمطاردته، واستمرت أعمال المطاردة وإبادة قوات العدو طوال النهار.

تابع الأمير عبد الرحمٰن التقدم بجيشه نحو الشمال، في الوقت الذي كانت فيه الحشود وقوات الدعم تتلاحق بصورة مستمرة من سائر أقطار الأندلس لتنضم إلى جيش الأمير، ولتزيد من قوته، حتى إذا ما وصل إلى مدينة طليطلة، كان في استقباله حاكم المدينة «لب بن الطربيشة» ومعه حامية المدينة التي انضمت فوراً إلى جيش المسلمين، فمضى في تقدمه حتى وصل مدينة الفرج وتوقف فيها لإعادة تنظيم قواته، وتعبئة جيشه، واستأنف بعد ذلك مسيرته فوصل «مدينة سالم»[١] واحتلها، وانطلق منها في اتجاه «ألبة والقلاع» **وطوى من نهاره ثلاث**

(١) مدينة سالم (Medinacelli): كانت من أعظم مدن الثغر الأوسط، وبينها وبين وادي الحجارة خمسون ميلاً، وكانت أولاً عاصمة هذا الثغر، ثم حلت محلها طليطلة.

مراحل... حتى احتل وادي دويرة[1]. وأرهقت هذه المسيرة المديدة جيش المسلمين، وعلى الرغم من ذلك فقد أسرع الأمير عبد الرحمٰن لإعادة تنظيم قواته، مستفيداً من التوقف الليلي، ثم وجه، مع أول ضوء من النهار التالي، قوة من الفرسان، (في جرائد الخيل وسرعان الفرسان) بقيادة وزيره «سعيد بن المنذر» بمهمة احتلال حصن «وخشمة»[2].

كان ظهور قوة فرسان المسلمين في وادي دويرة مباغتاً لقوات جيليقية، وعمل سعيد بن المنذر على توجيه مجموعات صغرى من الفرسان في طرفي الوادي، في الوقت الذي كان فيه أهل الوادي والمدافعون عنه، على غير استعداد قتالي، ودونما حالة إنذار مسبق (**فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة، وأصابوا نعمهم وسوائمهم ودوابهم وهي مسرحة مهملة، فاكتسحوا جميع ذلك، وانصرفوا إلى العكسر سالمين غانمين**)[3]. وأفادت بقية قوات المسلمين من نهار التوقف ومن توافر الحماية، بانطلاق مجموعة الفرسان إلى وادي دويرة، فأتمت إعادة تنظيمها، وأخذ الجميع قسطاً من الراحة. وعندما عاد المنذر من عملياته، في آخر نهار يوم الخميس «صفر»، أطلع الأمير عبد الرحمٰن على الموقف. وفي صباح يوم الجمعة، انطلق فرسان المسلمين (... وهم في أكمل تعبئة وأهذب ترتيب وأوكد ضبط وأبلغ حزم، إلى حصن وخشمة...).

لم تكن الحامية المدافعة عن حصن وخشمة تتوقع مثل هذا الهجوم المباغت، وبمثل هذا الحجم من القوة، فعملت على إخلاء الحصن والانسحاب منه (...إلى الغياض الأشبة والصخور المنقطعة...). واقتحم المسلمون الحصن فوجدوه خالياً، فغنموا جميع ما فيه، وأضرموه ناراً وانسحبوا منه. وتوقف الناصر ليلة واحدة عند حصن وخشمة، وفي صباح اليوم التالي انطلق إلى حصن «قاشتر ـ مورش»[4]، حيث كانت الأخبار عن سقوط حصن وخشمة في قبضة

---

(١) وادي دويرة (Duero-Duoro) وادي ينسب إلى نهر الدويرة الذي يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي.

(٢) **وخشمة** (Osma): وتذكرها بعض المصادر الإسلامية (أكشومة) على نهر دويرة شرق شنت إشتيبين (سان سيباستيان).

(٣) **البيان المغرب ٢/ ٢٦٤.**

(٤) **قاشترمورش، وشنت إشتبين** San Seteban: كانتا من الثغور الرئيسية لأول نصارى الشمال، حيث كانت قوات هذه الدول تنطلق منهما بالدرجة الأولى للهجوم ضد ثغور المسلمين ومدنهم، وتعرف قاشترمورش باسم Castro Muros.

المسلمين قد انتشرت عبر الإقليم، ما أضعف الروح المعنوية في وسط الحاميات المدافعة عن القلاع النصرانية. وعرفت الحامية المدافعة عن قاشتر مورش أنها لا تستطيع الصمود أمام ثقل هجوم المسلمين، فقامت بالجلاء عن الحصن وتخلت عنه بدون قتال، فدخله المسلمون وغنموا ما فيه، وانطلقت مجموعة من الفرسان إلى حصن القبيلة المجاور له فدمرته. وفي هذا الوقت ذاته، كانت هناك مجموعات أخرى من فرسان المسلمين قد انطلقت في اتجاهات مختلفة لتدمير جميع الحصون والقلاع (... **حتى لم يترك لأعداء الله في تلك الجهة نعمة يأوون إليها...**).

وفي صبيحة اليوم التالي، انتقل أمير المؤمنين عبد الرحمٰن الناصر من شرق قلعة «قاشترمورش» إلى غربيها، وليس بين الموضعين سوى ميل واحد، ونظم مجموعات الفرسان لمتابعة أعمال الاستطلاع، ومطاردة فلول قوات العدو الهاربة في كل اتجاه. وكانت «قلونية»[1] من أمهات المدن التي تستخدمها مملكة نافار للإغارة على حدود المسلمين وثغورهم وعواصمهم، فقرر الناصر مخططه للسير إليها وتدميرها. وكانت هذه المدينة تقع على محور تحركه نحو «تطيلة»[2] والتي أراد الأمير عبد الرحمٰن دعمها استجابة لطلب الحامية المدافعة عنها، بعد أن تعرضت كثيراً لهجمات قوات مملكة نافار بقيادة «سانشو - شانجة»[3] ملك نافار.

وتوجه الأمير عبد الرحمٰن بجيشه في اتجاه قلونية فلم تجابهه مقاومة كبيرة، وتقدم عبر القرى المتناثرة، فغنم ما كان فيها، وعندما وصل المسلمون «قلونية» كان أهلها قد تركوها، ولجأوا إلى الجبال المجاورة، فانطلق الجند إلى المنازل والأبنية والكنائس يدمرونها ويحرقونها ويغنمون ما فيها، فاستمرت أعمال التدمير طيلة ثلاثة أيام (... **بهدف المطاولة لنكاية المشركين وانتساف نعمهم**). وعرف الناصر لدين الله أن عامل المباغتة قد زال تأثيره بدليل إخلاء المدن والقرى التي سار خلالها بجيشه، وأدرك أيضاً أن السير المستمر والمديد طوال

(١) **قلونية**: لم تحدد المصادر العربية بدقة موقع هذه المدينة، ولكن وصف مسيرة العمليات في **البيان المغرب** ٢/٢٦٦، مع تحديد مسافات السير، يحمل على الاعتقاد بأن قلونية هي «قلعة النور» الواقعة إلى الشمال الشرقي من «وخشمة - أوسمة».

(٢) **تطيلة**: (Tudela) من مدن الثغر الأعلى إلى الشمال الغربي من سرقسطة.

(٣) **سانشو - أو شانجه**: (Sancho) ملك البشكنس أو منطقة نافار: (Navarra).

الفترة السابقة قد أرهق جنده، فأخذ بالرفق في نهوضه، وسار على محور مواز لوادي نهر دويرة، حتى قطع صحراء الشمال في خمس مراحل، وصل بعدها إلى إقليم تطيلة حيث كان «محمد بن لب ـ من المولدين»، وهو عامل الأمير الأموي على الإقليم، ينتظره مع قواته، فوجه مجموعة قتالية من الفرسان بقيادته للإغارة على حصن «قلقرة»[١]. وقاد «محمد بن لب» المجموعة القتالية إلى حصن قلقرة، فوجد أن الحامية المدافعة عنه قد غادرته، فاحتله المسلمون.

وفي الوقت ذاته، كان الناصر يقود بقية الجيش إلى حصن «قلهرة»[٢]، ولم تحاول الحامية المدافعة عن الحصن مجابهة تقدم المسلمين، بل عملت على الانسحاب، والجلاء عن الحصن الذي دخله المسلمون وأخذوا في تدمير منشآته وتحصيناته الدفاعية طوال يومين كاملين، وكانت العمليات السابقة كلها جنوب وادي «نهر أبرة». وعندما تم للمسلمين تدمير قلهرة، أمر الناصر لدين الله قواته بعبور النهر، واندفعت المقدمة لحماية العبور في الوقت الذي استمر فيه تدفق القوات نحو الشمال.

وفي هذه الفترة انطلق ملك نافار «شانجة» بهجوم قوي محاولاً تدمير طلائع قوات المسلمين، فاندفعت قوات الفرسان في المقدمة، وتلقت صدمة هجوم جيش شانجة، واستطاعت إحباط هذا الهجوم، فأخذت قوات «شانجة» بالانسحاب، غير أن قوات المقدمة ألقت بثقلها في المعركة، ونجحت في تحويل الانسحاب إلى هزيمة، وانطلق الفرسان إلى مطاردة فلول قوات العدو الممزقة، ثم عادت قوات المقدمة إلى مركز تجمع القوات بعد العبور، لإعلام الأمير عبد الرحمٰن بما حدث، وإطلاعه على الموقف.

وخلال هذه الفترة، توافرت المعلومات لدى الأمير عبد الرحمٰن، عن طريق عناصر الاستطلاع والجواسيس، وهي تؤكد تجمع قوات مملكتي ليون ونافار، وقيام «شانجة وأردونيو الثاني» بإعادة تنظيم قواتهما المشتركة من أجل زجها

---

(١) قلقرة، أو ركلة: (Ricla)، في موقع متوسط بين روطة وقلعة أيوب على رافد نهر أبرة. أما قلعة أيوب: (Caltayud) فتقع بقرب مدينة سالم، وبينها وبين دروقة ثمانية عشر ميلاً.

(٢) قلهرة (Calahoria): تقع إلى الغرب من تطيلة على نهر أبرة. وفي البيان المغرب ٢/ ٢٦٧: «وكان شانجة بن فرويلة قد اتخذ حصنها معقلاً ومسكناً». وفي نفح الطيب ١/ ٣٨٣: «أما قلهرة فتكتب: (Calahorra - Calagurri) فهي، حسب التقسيمات القديمة، من قسم طراكونة ومن قواعد منطقة نبرة «نافار».

لقتال المسلمين عبر المضائق الجبلية، بهدف تحطيم مقدمة المسلمين ومؤخرتهم «ساقتهم». ونظراً لأن تقدم القوات سيتم في مناطق جبلية صعبة، فقد أعاد الناصر تنظيم قواته (. . . **وأمر بتعبئة قواته وضبط أطرافها** . . .)، وبعد ذلك دعم الناصر مقدمته وأجناب جيشه «الأجنحة» والمؤخرة، ودفع مفارز الاستطلاع، ثم انطلق في تقدمه عبر إقليم «نافار»؛ وأوغل الأمير عبد الرحمٰن الناصر في تقدمه. وكانت قوات ليون ونافار تحتل المرتفعات الشاهقة والمواقع الحصينة، وتتابع تحركات جيش المسلمين، وحاولت إخضاع قوات هذا الجيش لحرب نفسانية من أجل إضعاف روحها المعنوية: (**وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا قلوب المسلمين** . . .)، ثم أخذت مفارز الإفرنج في التعرض لأطراف المسلمين، «مفارز الأمن وعناصر الوقاية»، واستمر الأمر كذلك حتى تجاوز الأمير عبد الرحمٰن بجيشه المناطق الجبلية، ووصل إلى منطقة سهلية، فأمر جيشه بالتوقف وإقامة المعسكر.

وهنا أخذت القوات المعادية للمسلمين في التدفق عبر المضائق الجبلية، وبدأ القتال، ودارت رحى معارك كبيرة، انتهت بهزيمة قوات ليون ونافار (. . . **فهربوا لا يلوون على مكان مضطربهم، ولا يهتدون لوجه منقلبهم، والمسلمون على آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم** . . .). وكان «حصن موبش» القريب من ميدان المعركة، ينفرد بميزات دفاعية جيدة، فهرب ما يزيد على الألف مقاتل إلى هذا الحصن، على أمل أن يجدوا فيه الحماية اللازمة، فأمر الناصر بدفع المناجيق إلى الحصن، واستخدام تجهيزات الحصار ووسائطه، وتم تطويق الحصن من جميع جهاته، ثم اندفع المقاتلون، فاقتحموا الحصن، وقاتلوا داخله، وأمكن إخراج جميع المقاتلين النصارى من صياصيهم، وقدموا إلى الناصر، حيث قتلوا جميعاً، وغنم المسلمون ما في الحصن من أمتعة وحلية متقنة وآنية كثيرة وألف وثمانمائة فرس، وغير ذلك من المتاع والتموين. وتوقف الناصر في «المحلة» المجاورة للحصن لمدة أربعة أيام، كان خلالها (**يغير على جميع ما حواليها من نعم المشركين وثمراتهم ومزارعهم** . . .).

كان ملك نافار «شانجة» قد حصن قلعة «بقيرة»[1] تحصيناً قوياً، وعندما أنهى

---

(١) بقيرة (Vigura): هي الآن تابعة لمدينة لكري أو لوغرونو (Logrono) وتسمى بقيرة =

الأمير الناصر عملياته توجه إلى هذه القلعة فوجد أن حاميتها المكلفة بالدفاع عنها قد غادرتها بدون قتال، فأمر بتدميرها وإزالة تحصيناتها، ثم توجه في طريق العودة إلى حصون المسلمين لتفقدها، ودراسة متطلبات أهلها، وتدعيم حامياتها، وكلما ألفى بقرب حصون المسلمين معقلاً للمشركين أمر بهدمه، وإحراق ما يحيط به (. . . **حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال في مثلها** . . .) واجتمع عند الناس من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله. واستمر الأمير في جولته التفقدية لثغور المسلمين، حتى انتهى إلى حصون «أنيتشة»[1] حيث توقف فيها يوماً واحداً، اجتمع خلاله بقادة الثغور، وأذن لهم بالتفرق والعودة إلى قواعدهم بعد أن قدم لهم الهدايا المناسبة، ثم دخل قرطبة بعد أن استمرت غزوته هذه ثلاثة أشهر.

= أيضاً «فتورية»، وجاء في **المقتبس**، ابن حيان، تحقيق مكي ص٢٥٦، أن موسى ابن موسى القسوي هو مؤسس بقيرة. وبانيها، وهو الذي نظم تحصيناتها، ثم ضمتها نافار إلى مملكتها، وتقع بقيرة على بعد ٩١ كيلومتراً شمال غرب تطيلة.

(١) أنيتشة (Atienza): غرب مدينة سالم وفي مدخل وادي الحجارة. ويذكرها بعض المؤرخين من العرب المسلمين باسم «أنيجة» ـ **الروض المعطار** ـ وفيه: «قتل في أنيجة الحافظ أبو الربيع الكلاعي عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، عند الدفاع عنها قبل أن تسقط في يد الإفرنج بصورة نهائية».

٣ ـ غزوة بنبلونة ـ عاصمة نافار
(٣١٢هـ/ ٩٢٤م)

لم تمض أكثر من سنتين حتى استطاع ملك نافار «شانجة» إعادة تنظيم قواته وزيادة قدرتها، وأفاد في ذلك من الدعم القوي والكبير الذي قدمته له مملكة ليون حتى يتمكن من التغلب بسرعة على النتائج التي تركتها انتصارات المسلمين في غزوة موبش الكبرى. وكان من بعض ما تركته هذه الغزوة من النتائج ظهور حالة انهيار معنوي كبير في وسط سكان الثغور النصرانية المتاخمة لحدود بلاد المسلمين، ولهذا فقد عمل شانجة، قبل كل شيء، على معالجة هذا الانهيار بممارسة أعمال عدوانية من جديد ضد ثغور المسلمين، فانطلق في سنة (**٣١١هـ/ ٩٢٣م**) على رأس جيش كبير في اتجاه «بقيرة»، وكانت الحامية المدافعة عنها بقيادة «ابن لب» ومعه «مطرف بن موسى ذي النون» وابن عمه «محمد بن محمد» وسواهما من كبار القوم. وجاء هجوم جيش نافار بقيادة «شانجة» مباغتاً تماماً للحامية المدافعة عن حصن بقيرة، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكنت الحامية من الصمود في وجه العدوان، وإظهار مقاومة باسلة، غير أنها لم تتمكن من الاستمرار طويلاً في الدفاع، واستطاع شانجة اقتحام بقيرة وإبادة حاميتها وقتل ابن لب وأبناء ذي النون جميعاً.

كان «عبد الحميد بن بسيل»، وزير المال في بلاط الأمير عبد الرحمٰن الناصر، قد اشتهر بكفاءته القيادية، وقدرته على التصدي لكل عدوان، فأصدر الناصر أمره بتعيينه قائداً لقيادة جيش الأندلس الإسلامي بمهمة مجابهة قوات الشمال وإحباط هجماتها. وقاد ابن بسيل جيشه حتى وصل الثغر، حيث انضمت إليه قوات الدعم من الثغر الأعلى أو الأقصى، فدخل مدينة تطيلة، وجعلها قاعدة لعملياته، ولم تكن تلك القوات التي وجهها الأمير عبد الرحمٰن بقيادة وزيره «ابن بسيل» سوى مقدمة لإيقاف العدوان، فمضى لإكمال استعداداته

وحشد قواته حتى يستطيع تصعيد أعماله القتالية بدرجة كافية. وكانت عمليات الصوائف تبدأ عادة في شهر حزيران ـ يونيو من كل سنة، وأراد الأمير عبد الرحمٰن تحقيق المباغتة، والإسراع في تنفيذ العمليات لردع الأعداء انتقاماً لمقتل بني لب وبني ذي النون وسواهم من شهداء المسلمين الذين دافعوا عن حصن بقيرة حتى آخر رمق من حياتهم، فخرج لغزوته مبكراً عن عادة تحرك الصوائف، وغادر قرطبة على رأس جيشه الكبير يوم الخميس ٣ ذي الحجة ٣١٢هـ الموافق ١٢ شباط ـ فبراير ٩٢٤م، وأقام معسكره قريباً من قرطبة، وانصرف إلى إعادة تنظيم القوات في منطقة الحشد وإعدادها للمعركة. وبعد فترة ٤٣ يوماً من الإعداد والتنظيم، غادر الجيش الكبير منطقة الحشد في قرطبة، «وكان ذلك يوم ١٦ محرم الحرام الموافق ليوم ٢٧ نيسان ـ إبريل، وتوجه إلى «بلش»[(١)] حيث توقف فيها لمدة يومين من أجل معالجة ما لاحظه الأمير عبد الرحمٰن من تهاون في الاستعداد القتالي وفتور في الحماسة للحرب، وعمل الأمير فوراً (**على توجيه اللوم إلى المجاهدين معه من أجناده ورعيته والمحشورين من أقطار كوره ـ نواحي الأندلس. . .**).

ولم يكن باستطاعة الأمير الناصر الانطلاق إلى الشمال وتركيز الجهد على العدو الخارجي، قبل تطهير الداخل من العصاة والمتمردين، ومنهم في «تدمير»[(٢)] و«بلنسية»[(٣)] عبد الرحمٰن بن وضاح، ويعقوب بن أبي خالد التوبري، وعامر بن أبي جوشن وأمثالهم، فتوجه الأمير بجيشه إلى كورة تدمير، وانطلق منها إلى كورة بلنسية، فاستنزل العصاة من معاقلهم، ولم يمتنع عليه سوى

---

(١) **بلش أو بالش** ـ ابن عذارى ٢/ ٢٧٨. وفي **المغرب ونفح الطيب**: بليش (Velez - Malaga) قريباً من مالاقا على البحر الأبيض المتوسط، اشتهرت بثمارها وتينها بصورة خاصة.

(٢) **تدمير**: كورة ـ ناحية ـ من كور الأندلس الشرقية، وتسمى مصر أيضاً لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر. وصارت القصبة بعد «تدمير» مرسية، وتسمى البستان، لكثرة جناتها المحيطة بها، ولها نهر يصب في قبليه.

(٣) **بلنسية** (Valencia): من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهاراً في العصور الإسلامية، إلى الشمال من دانية على شاطئ البحر، وكانت تسمى مدينة التراب. وحصن شاطبة (Sativa) إلى الشمال من لقنت. وأما جزيرة شقر (Jucar) فهي مدينة على جزيرة في مصب نهر شقر (وادي شقر) وتسمى اليوم Al - Cira وهي في مديرية بلنسية. (**نفح الطيب** ١/ ١٦٤ و١٦٦).

محمد بن عبد الرحمٰن بن الشيخ، الذي أصر على عناده وأظهر تصميمه على الاستمرار في التمرد، فترك الأمير عبد الرحمٰن الناصر قوة لحصاره، وانطلق بجيشه إلى «ثغر تطيلة» فانضم إليه جيش الثغور والتجيبيون وجميعهم في أكمل استعداد قتالي، فتكوَّن لديه جيش **(كعدد الحصى)**.

كان حصن «قلقرة، أو ركلة» أول حصون مملكة نافار، فتقدم إليه المسلمون، ووجدوا أن شانجة قد أمر بإخلائه، فاحتله المسلمون وأمر الناصر بتدميره وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى حصن «بيتر ألبة» الذي كانت تحيط به مجموعة من الحصون والقلاع، فأخلاها جيش نافار وانسحب منها، ويظهر أن حركة الجلاء عن القلاع والحصون قد تمت بسرعة، لأن الحاميات تركت في السهول جميع متاعها وموادها التموينية ـ الغذائية ـ فغنمها المسلمون كلها. وكان سكان السهول قد جمعوا أهلهم وأقاربهم وانضم إليهم بعض الجند، والتجأوا إلى بعض المناطق الصعبة التي تتوافر فيها ينابيع المياه، فتابع المسلمون تقدمهم حتى «نهر أبرة» واشتبكوا مع جند نافار، وأرغموهم على القتال، وأثناء ذلك قامت قوة من فرسان المسلمين بحركة التفاف أمكن لهم بواسطتها احتلال المرتفعات المحيطة بمواقع الجند الذين تمت إبادتهم، وتابع المسلمون العملية (. . . **فسبوا الذراري وغنموا الأمتعة، وهدموا الحصون التي كانت في تلك الجهة، ولم يبق منها صخرة قائمة. . .**)[1]. وتوقف جيش قرطبة في هذه المنطقة «الغيران» يوماً واحداً، وانتقل منه إلى حصن «فالجش» حيث أضرم في أرباضه النار، واستقصيت زروعه ونعمه انتسافاً وتدميراً، وبعد أن تم إنجاز عمليات التخريب، انتقل الجيش إلى حصن بقالية، وهو من الحصون المنيعة، فتكررت عمليات التدمير والإحراق ذاتها بعد الاستيلاء على المواد التموينية التي تركها جيش نافار، وتابعت قوات المسلمين تقدمها إلى حصن «قرقستال» على نهر أراغون.

وضع الناصر هدفه وهو الوصول إلى «بنبلونة» عاصمة إقليم نافار، وكان لزاماً عليه أن يعبر في تقدمه «فج المركوير، أو مضيق المركوير» بين السلاسل الجبلية الشاهقة، والانتقال بعد ذلك إلى «وادي هيفة» الضيق حتى الوصول إلى «بنبلونة»[2]، ولم يكن هناك محور تبادلي للعمليات يمكن سلوكه للوصول إلى

---

(١) ابن عذارى ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٨٠.

(٢) بنبلونة (Pamplona): عند المداخل الغربية من جبال ألبرت «البيرنه» وتقع في سهل ريوخة =

الهدف. ومن أجل ذلك، أعاد الناصر تنظيم قواته للمسير في المناطق الجبلية، ودعم المقدمة والمجنبات والمؤخرة «الساقة» بقوات من الفرسان... (... **فأخذ في الحزم، وعهد بضبط مجنبات العسكر، وتقدم من فج المركوير في أتم تعبية، وأهذب ترتيب، وتقدم الجيش لحرق ما يصادفه، ويدمر الحصون والمساكن حتى وصل قرية «بشكونسة» والتي ينسب إليها ملك نافار فهدمت مبانيها، وأحرقت...**).

كان ملك نافار «شانجة» قد حشد قواته في المرتفعات الجبلية الشاهقة وأخذ في متابعة تقدم جيش المسلمين، يستطلع تنظيمه للعثور على ثغرة، أو نقطة ضعف يمكن توجيه ضربة من خلالها. (... **وجمع العلج شانجة كفرته، واستمد بنصرانيته من كل مكان طمع أن يغاث منه، حتى توافى له جمعٌ رجا أن يكافح المسلمين به...**). وكان الأمير الناصر يتابع تحركات فرسان الأعداء على ذرى الجبال الشاهقة، فاتخذ من الإجراءات ما هو ضروري لتجنب الوقوع في المباغتة، ودفع عناصر الاستطلاع في كل اتجاه، واتخذ تدابير الأمن، وأمر القادة بالحذر واليقظة، ثم استأنف تقدمه منذ الصباح المبكر، عبر الوديان السحيقة وبين الجبال الشاهقة، وعندما وصلت قوات المسلمين إلى المضيق الصعب في «وادي هيفة» أخذ فرسان نافار في الهبوط من الجبال، والانحدار من المرتفعات لإيقاف تقدم المسلمين. وحدثت اشتباكات بسيطة، فأمر الناصر بالاستعداد للهجوم، وانطلقت الكتلة الرئيسية للقوات بهجومها، وعبرت النهر، ولم تتمكن الحامية المدافعة عن المضيق من الصمود لثقل هجمة المسلمين، فتراجعت عن مواقعها، (**واقتلع ـ المسلمون ـ أعداءهم من موضعهم، ووضعوا سيوفهم ورماحهم حتى اضطروهم إلى مرتقى وعر وجبل منقطع، فتقحم المسلمون عليهم، وبسطت الأرض بأجسادهم، واستمرت الخيل المغيرة في بسيطهم، فأصابت الغنائم والسوائم وضروب النعم، وانصرفوا سالمين، لم يصب منهم غير يعقوب بن أبي خالد التوبري، ونفر قليل...**).

لم يبق أمام جيش قرطبة ما يعيق تقدمه بسرعة، فتوجه إلى محلة «النبيرة» ومنها إلى «لفين» ثم إلى بنبلونة، وقوات الجيش لا تمر بموضع إلا دمرته، ولا بمزارع إلا أحرقتها، ولا بقرى إلا دمرتها وهدمتها وأزالت المواقع المحصنة فيها.

= (Rioja) وهي من أول المناطق التي خرجت على حكم المسلمين واستقلت عن ملكهم.

وعندما وصل جيش قرطبة إلى بنبلونة، كان أهلها قد غادروها، كما كانت الحامية المدافعة عنها قد انسحبت منها، فدخلها الأمير الناصر لدين الله، وأمر بتدميرها وتخريب مبانيها.

كان ملك نافار «شانجة» قد شيد في «صخرة قيس» كنيسة كبيرة، أنفق عليها الأموال الكثيرة، وبذل كثيراً من الجهد في تأنيقها، وحصن المدينة تحصيناً قوياً، كما عمل على حشد قوات كبيرة في الجبال والمرتفعات المشرفة على صخرة قيس، ونظم جيشه للدفاع عنها. غير أن الأمير الناصر لم يمهله طويلاً، فما إن انتهت قواته من عمليات تدمير بنبلونة، حتى قادها نحو صخرة قيس، فاقتحمها، وأطلق جنده لتدمير المدينة وإحراقها، فقاد شانجة جيشه للدفاع عن المدينة، وتصدت له قوات المسلمين حيث دارت رحى معركة قصيرة وحاسمة استطاع المسلمون فيها إحراز نصر حاسم (**وفي لحظة طرف، اقتلع المسلمون جيش نافار، وصرعوا من فرسانه ووجوه أصحابه من كان عوناً لشانجة، وعنه محامياً ودونه مستهلكاً. وأخربت الكنيسة وما أحيط بها، وعادت القرية ناراً لاهبة...**)، ومضى جيش قرطبة إلى «محلة أسارية» عبر فج ضيق يسمى «فج هرقلة».

وأراد جيش نافار اغتنام فرصة مرور جيش المسلمين بمناطق شديدة الوعورة لتوجيه ضربة إليه (... **فأمر الناصر بالتعبئة والاحتراس، ونهض على أتم التحفظ والضبط حتى جاوزت العساكر ذلك المضيق وخرجت منه...**). واستندت قوات جيش نافار إلى الجبال لحماية مؤخرتها، وانطلقت في هجوم مباغت لضرب مؤخرة جيش المسلمين، غير أن قوات الفرسان المسلمين المكلفة بحراسة المؤخرة وحمايتها، كانت شديدة الحذر، فلم تباغتها هجمة الفرسان النافاريين وألحقت بهم هزيمة منكرة، وكبدتهم خسائر فادحة، وأرغمتهم على التمزق والفرار. ثم تابع الجيش تحركه على طريق العودة، متبعاً محور «أسارير - مينير - ذي شرة» وهي قلاع صغيرة، حتى وصل إلى «شنت إشتيبين»، والتي كان ملك نافار «شانجة» قد جعلها مستقراً له، ومنتجعاً يأوي إليها للراحة، فأمر الناصر بتدميرها وإحراقها... وأثناء ذلك، لم يتوقف ملك نافار عن متابعة إعادة تنظيم قواته، وطلب الدعم من «ألبة والقلاع» فوصلته قوات الدعم التي ساعدته على تنظيم هجوم ضد جيش المسلمين عند وصوله إلى «شنت اشتيبين». ودارت معارك قاسية، أظهر فيها الطرفان المتصارعان بأساً

شديداً وعناداً في القتال، وأظهرت قوات المسلمين روحاً معنوية عالية دعمتها مجموعة الانتصارات السابقة، وأمكن للمسلمين في النهاية انتزاع راية النصر، فمضت قواتها لمطاردة قوات جيش نافار، وإرغامها على الفرار نحو المرتفعات الجبلية (. . . **حيث تفرقوا في الأرض الكثيرة الشجر، وذات الغابات المتصلة**)، ولم يرفع المسلمون سيوفهم عن أعدائهم حتى أعجزتهم مطاردتهم.

استأنف الأمير الناصر لدين الله التحرك بجيشه حتى وصل «رابية سرية» في طريقه إلى «قلهرة»، فحاول ملك نافار من جديد التصدي بقواته لجيش المسلمين، مستفيداً من سيطرته على المرتفعات، فأسرعت مجموعات فرسان المسلمين إلى تسلق المرتفعات، ومجابهة قوات جيش نافار بقوة وعزم، فلم تتمكن هذه القوات من الصمود، وتمزقت من جديد، واضطر شانجة للانسحاب بفلول قواته. ووصل جيش المسلمين إلى «قلهرة» وكانت الحامية المدافعة عنها قد انسحبت منها، فأمر الناصر بهدم الحصن وإزالته، ثم انتقل منه إلى حصن «بلتيرية»، وهو من حصون المسلمين التي كانت مجاورة لحصون المشركين، فعهد بادخار الأطعمة عندهم، وتفريق الأموال فيهم، ونزل بعدها بمدينة «تطيلة» وأقام بها يوماً واحداً.

وكان من أول نتائج الانتصارات التي أحرزها الأمير الناصر لدين الله في غزوته هذه، أن خضعت له المقاومات المتمردة، إذ لم يلبث «يحيى بن موسى، ويحيى بن أبي الفتح» أن استسلما له عند مروره في طريق عودته على «بني ذي النون». وعندما دخل الأمير الناصر عاصمته «قرطبة» كان قد مضى على غيابه عنها أربعة أشهر، مرت كلها في مسير متواصل ومعارك متلاحقة، وكان النجاح حليفاً لهذه العمليات كلها، بحيث أن قواته لم تتكبد خسائر تذكر بالمقارنة مع ما أمكن تحقيقه من انتصارات، وما أمكن الحصول عليه من الغنائم، وما تم إلحاقه بالأعداء من استنزاف للقدرة القتالية والموارد الحياتية، وبلغ عدد الحصون التي فتحها الأمير الناصر في غزاته هذه ثلاثين حصناً.

لم يعمر «شانجة» طويلاً بعد ذلك، حيث توفي في سنة (**٣١٤هـ/ ٩٢٦م**). ولما كان ابنه «غرسية» صغيراً، فقد قامت جدته «طوطة»[١] بالوصاية عليه ملكاً على نافار، غير أن قومس قشتالة (فرزلند) قاد انقلاباً ضد غرسية، متحالفاً في

---

(١) **طوطة** (Teoda): **وفي تاريخ بروفنسال** ٢/ ٧٣ (Toda).

ذلك مع ملك ليون «أردون بن رزمير»، فتوجهت طوطة مع حفيدها غرسية إلى قرطبة، واستنصرت بالأمير عبد الرحمٰن الذي نصره بجيشه وأعاد حفيدها إلى ملكه. وتعرضت مملكة ليون بدورها إلى صراعات حول العرش انتهت في سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٢م) بانتصار «راميرو الثاني» وتربعه على عرش المملكة، وكان أول عمل له هو التوجه إلى حصن «وخشمة»[١] وإبعاد المسلمين عنه. وما أن علم الأمير الناصر بذلك حتى تولى بنفسه قيادة الصائفة، وتوجه إلى وخشمة، فتركها أهلها، وانسحبت الحامية المدافعة عنها، واعتصمت بالمواقع الجبلية الحصينة، وحاول الأمير عبد الرحمٰن إرغام خصمه «راميرو» على مغادرة مواقعه والاشتباك معه في معركة حاسمة، ولكن هذا رفض المعركة وتجنب الصدام مع جيش المسلمين.

أعلنت طليطلة تمردها في (شهر ربيع الثاني ٣١٨هـ/ أيار ـ مايو ٩٣٠م)، فوجه الأمير الناصر وفداً من العلماء لإقناع زعمائها بالعدول عن الثورة، وعندما فشلت المحاولات السلمية وجه الناصر جيشاً لإخضاع طليطلة الثائرة، غير أن هذا الجيش لم يتمكن من السيطرة على الموقف، فعاد سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) ووجه قوة الصائفة لغزو طليطلة، وتوجه ملك ليون «راميرو» لدعم ثوار طليطلة، وتجاوز مدريد «مجريط»، فتصدت له قوات المسلمين في شمال طليطلة، ومزقت جيشه، ووجد ثوار طليطلة أنفسهم أمام مأزق صعب بعد أن فقدوا كل أمل في الحصول على دعم خارجي، فاستسلموا للأمير عبد الرحمٰن، الذي وصل بجيشه، ودخل طيلطلة ظافراً.

(١) **وخشمة** (Osma): وتذكرها بعض المصادر العربية «خشتمة» **نفح الطيب** ١/ ٣٦٣.

٤ ـ غزوة الخندق، أو غزاة القدرة

(٣٢٧هـ/صيف سنة ٩٣٩م)

أفاد الخليفة عبد الرحمٰن الناصر لدين الله من الحرب الأهلية التي اندلعت في مملكة «ليون» خلال الفترة بين العام (٣١٣ و٣٢٠هـ/ ٩٢٥ ـ ٩٣٢م) فانصرف لإعادة تنظيم شؤون الدولة، والقضاء على الثورات، ودعم الجبهة الداخلية بإضعاف مراكز القوى لحساب تقوية السلطة المركزية، ولم يسقط من حسابه الجبهة الجنوبية في المغرب العربي ـ الإسلامي، فعمل على محاربة الدعوة الفاطمية، وحقق نجاحاً كبيراً في ذلك. وعندما انتهى الأمر في مملكة ليون إلى «راميرو الثاني» بدأت مرحلة جديدة من الصراع ضد الشمال. فقد اشتهر «راميرو» بالعناد والشجاعة والتصميم لمناهضة المسلمين، فأخذ في إذكاء عوامل الفتن الداخلية، واستثمار التناقضات، لاستنزاف قوة المسلمين في الأندلس الإسلامية، مع العمل في الوقت ذاته على تطوير الأعمال الهجومية لتوسيع رقعة مملكته في الشمال على حساب ثغور المسلمين وعواصمهم. وأثناء ذلك التزمت مملكة نافار «البشكنس» بالهدوء، وعدم الاعتداء على حدود المسلمين خلال الفترة التي أعقبت وفاة شانجة، وقيام «طوطة ـ يقودا» بالوصاية على أمر حفيدها «غرسية ـ أو غارسيا»، غير أن طوطة لم تلبث أن تأثرت بنشاط ملك ليون، فحذت حذوه، وسارت على طريق منافسته في العدوان على حدود المسلمين، وذلك في سنة (٣٢٦هـ/ ٩٣٧م)، وعادت جبهة الشمال لتحظى بالاهتمام الأول من جهد الخليفة عبد الرحمٰن الناصر[١].

كان الخليفة عبد الرحمٰن الناصر يتبع سياسة حازمة وقوية في إخضاع حكام

---

(١) عندما علم الأمير عبد لرحمٰن الناصر بمقتل الخليفة العباسي «المقتدر» بيد مولاه «مؤنس» (سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، أعلن نفسه خليفة للمسلمين، وأصبح لقبه الرسمي هو الخليفة، بدلاً من أمير المؤمنين.

الأقاليم، ويعمل على تحطيم مراكز القوى المناوئة، بعد أن أثبتت هذه المراكز أنها مصدر تهديد دائم لوحدة الدولة، فخاف حكام الأقاليم التقليديين من زوال سلطتهم ونفوذهم، فتظاهر بعضهم بالخضوع والاستسلام، بينما أعلن بعض حكام الشمال استقلالهم، مستفيدين من قوة مواقعهم وتحصيناتهم ومن قربهم إلى بلاد الإفرنج، ما كان يسمح لهم بالتعاون مع الممالك والإمارات النصرانية واللجوء إليها عند الضرورة.

كان يحكم سرقسطة محمد بن هشام التجيبي، كما كان يحكم «قلعة أيوب» مطرف بن مندف التجيبي، وهما من بني هاشم. وعندما اندلعت نيران الحرب بين «راميرو الثاني» و«عبد الرحمٰن الناصر» تم عقد اتفاق سري بين «راميرو الثاني» وبين التجيبيين، على أساس اعتراف حاكم سرقسطة محمد بن هشام التجيبي بالولاء لحاكم ليون، مقابل دعم هذا لاستقلال سرقسطة، وظهرت آثار هذا التحالف عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) حينما كان الخليفة عبد الرحمٰن الناصر يزحف بقواته لتدمير مملكة ليون، حيث أعلن التجيبيون تمردهم ضد قرطبة، ودعمهم لملك ليون «راميرو»، وحاولوا التأثير على حكام بعض الحصون الشمالية، لكن هؤلاء رفضوا خيانة قومهم، والغدر بإخوانهم في الدين، فوجه «راميرو» جيشاً لدعم محمد بن هشام التجيبي. ونجح جيش ليون وقوات التجيبيين في الاستيلاء على بعض المواقع والحصون وضمها إلى سرقسطة، ثم تطور هذا الحلف عندما انضمت إليه طوطة ملكة نافار «البشكنس». وهكذا شكل الشمال جبهة واحدة ضد المسلمين، وكان تحالفاً قوياً يشكل خطورة كبيرة ضد الخليفة عبد الرحمٰن الناصر.

لم ينتظر الخليفة تطور هذا التحالف، فأسرع بقيادة جيشه الكبير، في سنة (٣٢٦هـ/ ربيع سنة ٩٣٧م)، وبدأ أعماله القتالية بحصار «قلعة أيوب»[1] التي لم تصمد طويلاً للحصار، واقتحمتها قوات جيش قرطبة، فأصدر الخليفة أمره بإعدام قائد القلعة «مطرف بن مندف التجيبي» وأعدم معه قادة قوات الدعم الذين أرسلهم «راميرو الثاني» لمساعدة مطرف. وتابع جيش قرطبة تقدمه حتى وصل إقليم «ألبا ـ أو ألفا»، فاقتحم مجموعة من القلاع والتحصينات ثم وصل الجيش إلى «سرقسطة»[2] وترك قوة لحصارها بقيادة قريبه قائد الفرسان «أحمد بن

---

(١) **قلعة أيوب** (Caltayud): وهي قريبة من مدينة سالم، وبينها وبين دروقة ١٨ ميلاً.

(٢) **سرقسطة** (Saragosse - En. Esp. Zaragoza): مدينة إسبانية، العاصمة لمملكة أراغون قديماً. =

إسحاق» وعينه حاكماً للثغر، غير أن أحمد بن إسحاق هذا، والذي كان الخليفة عبد الرحمٰن قد جعله وزيراً له، كان في الوقت ذاته على اتصال بالفاطميين في عدوة المغرب، وقد تآمر معهم ضد خليفة قرطبة. وعندما عينه الخليفة حاكماً على الثغر وسرقسطة، ظن أن الفرصة قد حانت لمتابعة تآمره، فأظهر تهاوناً في الحصار. وشعر الخليفة عبد الرحمٰن بانحرافه، ثم وقف على جلية أمره، فأصدر حكمه عليه بالإعدام، الذي نفذ فوراً، وعندما علم «أمية بن إسحاق» بإعدام أخيه أحمد، أعلن الثورة في «شنترين» في غرب الأندلس، ولكن أحد القادة من أتباع الخليفة تصدى للمؤامرة وقاوم التمرد، وأرغم أمية بن إسحاق على الفرار، فالتجأ هذا إلى «راميرو الثاني».

وتابع جيش قرطبة حصار «سرقسطة»، وأخذت القلاع والحصون في التساقط تباعاً تحت وطأة ثقل هجوم المسلمين، ثم سقطت سرقسطة، وأسر فيها محمد بن هشام التجيبي، كما سقط أمنع حصون الثغور وأقواها وهو حصن «روطة» وأسر فيه يحيى التجيبي، وبذلك انهارت ثورة التجيبيين. وتقدم محمد التجيبي من الخليفة الناصر بطلب العفو، فعفى عنه، وأعاده إلى منصبه حاكماً لسرقسطة فاستمال إليه «بني هاشم» وأمن عصبيتهم.

عندما كان جيش قرطبة يحاصر سرقسطة ويعمل على إخضاعها، كان الخليفة عبد الرحمٰن الناصر يقود بقية قوات المسلمين متوغلاً في عملياته عبر إقليم نافار حتى وصل إلى العاصمة «بنبلونة»، مدمراً في طريقه كل الحصون، مبيداً كل الحاميات المدافعة عنها، وتمزق جيش نافار، ووجدت «طوطة» أنها باتت عاجزة عن الاستمرار في الحرب، فقررت الاستسلام للخليفة الناصر، وتقدمت إليه بطلب الخضوع والطاعة، فقبل الناصر طلبها، وأقر حفيدها «غارسية» ملكاً على نافار. وعندما كان الخليفة الناصر في ذروة انتصاره، ظهر خطر التمزق الداخلي الذي كاد يعصف بجيش المسلمين ويدمر خلافتهم في الأندلس.

لقد كان من نتيجة سياسة الناصر الداخلية، تعاظم نفوذ الصقالبة، وظهور طبقة من الانتهازيين كان من أبرزهم «نجدة الصقلبي ـ السلافي» وأصحابه ممن

= تقع في نهر الإيبر: (Ever). جاء في وصفها، في **نفح الطيب** ١/ ١٩٧: «ليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها، ولا أكبر طعماً، ولا أكبر جرماً، والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال، ولها أعمال كثيرة: مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلاً».

ترك لهم الناصر الفرصة لتقلد أمور الدولة والجيش، ولضرب نفوذ الزعماء العرب، وإخضاع أصحاب العصبيات منهم. وتغلب أصحاب الولاء الشخصي على أصحاب النفوذ المتوارث، وكان لذلك نتائجه الخطيرة التي لصقت بالمعركة المعروفة باسم «معركة الخندق»[1].

بعد نجاح الخليفة الناصر في تمزيق شمل التحالف الثلاثي «ليون ـ نافار ـ التجيبيين» وإخضاع شمال شرق الأندلس لسيطرته، لم يبق أمامه سوى شمال غرب الأندلس، حيث خصمه العنيد ملك ليون «راميرو الثاني»، فأخذ في الاستعداد لحربه، وحشد القوات لخوض معركة حاسمة ضده، ونظم جيشاً وصلت قوته حتى مائة ألف مقاتل.

(. . . ولكن هذا الجيش، على كبره وقوته الخارجية، كان مفكك الأوصال في الداخل. فقد استولى العجب على الناصر، فاستمد بغير الكفاة، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال. . . وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع للصقلبي، والوقوف عند أمره ونهيه، وعندما أنهى الناصر استعداده انطلق من قرطبة في احتفال كبير، فسميت الغزوة هذه «بغزاة القدرة» لاحتفاله فيها، وعظيم مشهدها، وأسند قيادة الجيش إلى «نجدة الصقلبي. . .).

كانت «سمورة»[2] هي القاعدة المتقدمة لمملكة ليون، وهي من أقوى الثغور تحصيناً، وقد أحيطت بسبعة أسوار، وبين الأسوار خنادق واسعة وعميقة تغمرها المياه، وكانت بها حامية قوية للدفاع عنها، ولهذا جعل الخليفة الناصر هدفه الأول هو الاستيلاء على هذه القاعدة.

وصل المسلمون إلى «سمورة» وأحاطوا بها، وأحكموا الحصار حولها، ونجحوا في اقتحام السورين الأول والثاني. وخفت حدة هجوم المسلمين، وحانت الفرصة المناسبة أمام القادة الذين تنقصهم الحماسة، فعملوا على التهاون والاسترخاء، وأظهروا قصوراً في متابعة دفع الهجوم. أفادت الحامية المدافعة عن المدينة من هذه الفرصة، فنظمت هجوماً مضاداً قوياً، أمكن بواسطته تدمير قوة الهجوم، وإثارة الاضطراب في التنظيم القتالي للمسلمين،

---

(١) ابن الأثير ٦/ ٢٧١ أحداث سنة ٣٢٧هـ. **نفح الطيب ١/ ٣٥٤، ٣٥٥**، ابن خلدون ٤/ ١٤٠ ـ ١٤٢، **تاريخ المسلمين في الأندلس ـ دوزي ـ ١٤٨، أخبار مجموعة ١٥٥.**

(٢) سمورة (Zamora) (Douro): مدينة أندلسية في إقليم ليون (Leon) وتقع على نهر دويرة (Douro).

وبدأت الهزيمة التي أسرع «راميرو» إلى تطويرها حتى تحولت إلى مطاردة، وكان ذلك في شهر شوال ٣٢٧هـ/ تموز ـ يوليو ٩٢٩م.

توقف الخليفة الناصر عند «شلمنقة»[١]، وحاول إعادة تنظيم قواته من جديد، على شاطئ نهر دويرة، ولكن جيش نافار ـ البشكنس، بقيادة طوطة، وجيش ليون بقيادة «راميرو الثاني»، لم يتركا الفرصة الكافية للخليفة. ودارت رحى معركة ثانية يوم ٥ آب ـ أغسطس ٩٣٩م. «**وهنا تواطأ أهل الحفاظ من رجال جيش عبد الرحمٰن ووجوه أجناده على ما كان من انسحابهم...**». وانهزم جيش عبد الرحمٰن مرة أخرى، وبدأت قوات الشمال أعمال المطاردة، ووصل المسلمون إلى «الأنديحا ـ أو الخندق ـ جنوبي شلمنقة»[٢]. وحاول المسلمون إعادة تنظيم صفوفهم للانطلاق بهجوم جديد، غير أن هذا الهجوم لم ينجح، إذ لم يتمكن المسلمون من مجابهة قوة الصدمة لجيش الشمال، والذي عمل بسرعة على تطوير عملياته، حتى تحول انسحاب المسلمين إلى فرار غير منظم، وتحول تقدم جيش الشمال إلى مطاردة حاسمة «**حتى لم يكد ينجو من المسلمين إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم، وتخلصوا من القتال، وانسحبوا إلى بلادهم...**». وخلال هذه العمليات من المطاردة، قتل قائد الجيش «نجة الصقلبي»، وأسر محمد بن هشام، حاكم سرقسطة الذي كان يقاتل إلى جانب الخليفة الناصر، وحمل إلى ليون، كما أصيب الخليفة عبد الرحمٰن بجراح، فولى شطر قرطبة في ثلة من الفرسان، ولم ينج من الأسر إلا بأعجوبة.

فكر «راميرو الثاني» في استثمار هذا النصر، ومتابعة التقدم حتى قرطبة لتدمير عاصمة المسلمين، وهنا ثارت الحمية العربية في نفس «أمية بن إسحاق» الذي كان يرافق راميرو، وتأثر لما نزل بإخوانه المسلمين، فعمل على خداع «راميرو» وأقنعه بأن انسحاب الخليفة ليس أكثر من خطة للإيقاع به وتدميره، وحذره من وجود الكمائن على امتداد الطريق، ورغبه بما حصل لديه من الغنائم، وأغراه بالاكتفاء بما أحرزه من نصر، وما زال به حتى ثناه عن عزمه فتوقفت عملية المطاردة. ثم أن أمية بن إسحاق استأمن الخليفة الناصر، فأمنه وعفا عنه وأكرمه. وعمل الناصر بعد ذلك على افتداء محمد بن هشام حاكم سرقسطة في

---

(١) شلمنقة، أو سلمنقة (Salamanxa): بلدة صغيرة تقع على نهر دويرة.

(٢) الخندق (Alhanderca): بلدة تقع جنوب شرق شلمنقة، وعلى نهر دوبرة أيضاً.

جملة من افتداهم من أسرى المسلمين، فأفرج عنه ملك ليون بعد أن مكث في السجن أسيراً لمدة ثلاثة أعوام تقريباً.

كان «لهذه الغزوة» آثارها البعيدة على مسرح أحداث الأندلس، إذ أنها أكدت قدرة الدويلات النصرانية في شمال الأندلس، وثبتت وجودها، ولعل من أبرز النتائج الخاصة بهذه الغزوة ما يلي:

كان من أبرز نتائج معركة «الخندق» تعرض جيش المسلمين للخسائر الفادحة، إذ قتل أو جرح في المعركة الأولى، عند حصون سمورة، أربعون ألف مقاتل، وتذكر بعض المصادر أن الخسارة وصلت إلى خمسين ألف قتيل[١]، وأن هذه الخسارة قد تزايدت خلال المعارك التالية، وأنه لولا قيام أمية بن إسحاق بخداع «روزمير، أو روميرو الثاني»[٢] ونجاحه في إقناعه بإيقاف المطاردة، لكان الفناء التام مصير الجيش الإسلامي في هذه المعركة.

ترددت أصداء وقع الهزيمة بقوة في العالم القديم كله، وحظيت باهتمام مؤرخي ذلك العصر أكثر من كل ما عداها بسبب أهميتها. واستقبلت أوروبا بصورة خاصة أنباء هزيمة المسلمين بفرحة كبرى، حتى أن هناك بعض المؤرخين يعتبرون أن «معركة الخندق» هي بداية مرحلة الغزو المضاد، أو حركة الاسترداد[٣]، في حين يجعل بعض المؤرخين من سقوط طليطلة في قبضة النصارى سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) هو البداية الحقيقية لهذه الحركة، ولبعث روح الحملات الصليبية التي يترجمها المؤرخون الغربيون على أنها الهجوم المضاد الشامل على المسلمين.

أما على صعيد الخلافة في قرطبة، فإن هذه الهزيمة لم تؤثر على الخليفة الناصر الذي ما لبث أن تحرك بسرعة، فأعاد تنظيم قواته، وعمل على إزالة عوامل الضعف في تكوين جيش المسلمين، وإعادة الثقة إلى الأكفاء من قادته، واعتمد على أهل الخبرة ممن تتوافر لهم شدة البأس والكفاءة في إدارة الحرب. وعلى الرغم من توقف عبد الرحمٰن عن قيادة الغزو بنفسه، منذ أن فشل في معركة الخندق، فقد تابع إرسال البعوث والغزوات، وتوجيه الصوائف والشواتي، فوجه في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، ولم يمض على كارثة الخندق أكثر

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٥٥. (٢) راميرو أو رزذمير: (Ramiro).

(٣) الغزو المضاد، أو حركة الاسترداد، ترجمة للاصطلاح الإسباني La Reconquista.

من عامين، قوة كبيرة استطاعت اقتحام حدود مملكة ليون وعملت فيها تدميراً وتخريباً[1].

وفي الوقت ذاته، عمل الناصر على دعم حاميات الحدود، وزيادة قدرتها القتالية، فحصن «مدينة سالم» وأقام بها حامية قوية للدفاع عنها، وجهزها بكل ما هو ضروري للدفاع، وكذلك فعل في بقية مراكز الدفاع المتقدمة «الثغور».

(١) جاء في **نفح الطيب** ١/ ٣٥٥، في هذا الموضوع ما يلي: «وقد كان عبد الرحمٰن بعد هذه الوقعة، جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة، فكانت لهم بهم عدة حروب، هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى».

٥ ـ التنظيم العسكري في الأندلس

بقي تنظيم الجيوش وبناء القدرة الذاتية هو في طليعة هموم الأمراء الأمويين على الإطلاق، في الأندلس كما كان في الشام من قبل، واستحوذ ذلك على معظم اهتمام الخليفة الناصر، بسبب التحديات الثقيلة التي فرضت ذاتها عليه. وقد كان الجيش في عهد الناصر، معرضاً لإعادة التنظيم باستمرار، نظراً لما كان يتعرض له هذا الجيش من «الخسائر والتعويض عليها» من جهة، ونظراً للواجبات الكثيرة التي كان يضطلع بتنفيذها من جهة أخرى، وما لبث هذا الجيش حتى أخذ شكلاً متقدماً ومتميزاً من التنظيم الذي ظهر بوضوح في آخر أيام الناصر وفي عهد خلفه المستنصر.

كان التسلسل القيادي في جيش الأندلس، ووفقاً لما يظهر العرض السابق لمسيرة الأعمال القتالية، خاضعاً لقيادة القائد الأعلى، وكانت تتم تسمية هذا القائد من قبل أمير المؤمنين أو الخليفة ـ فيما بعد ـ لقيادة الأعمال القتالية وإدارة الحرب على جبهة محدودة وخلال فترة زمنية معينة لتنفيذ مهمة واضحة. وكثيراً ما كان أمير المؤمنين ـ أو الخليفة ـ يمارس دور القائد الأعلى بصورة شخصية ومباشرة، أو إنه كان يكلف وزيراً من وزرائه، أو قائداً من كبار قادته، لممارسة هذا الدور. وكان يخضع لهذا القائد الأعلى قائد آخر يمارس وظيفة «قائد ثان»، وفقاً للتسميات في المصطلحات الحديثة، ثم يلي ذلك قائد البحر «أو قائد الماء» الذي يتبعه بدوره قادة الأساطيل. وكان لكل ثغر بحري أسيطيله الصغير إلى جانب الأسطولين الرئيسيين وهما: أسطول إشبيلية وأسطول المرية.

قسمت الأندلس الإسلامية من الناحية العسكرية إلى مناطق، وكان لكل منطقة جيشها الذي يخضع لقيادة أميرها أو حاكمها. وكانت هذه الجيوش في الحرب، أو عند الخروج للصائفة، تجتمع في منطقة حشد، غالباً ما تكون في ظاهر قرطبة، ثم تنطلق لأعمالها القتالية بعد إعادة تنظيمها في منطقة الحشد. وعند انتهاء العمليات، تفترق عند منطقة، أو مدينة، لتعود إلى أقاليمها، بعد أن يقوم

الخليفة أو القائد الأعلى بتوزيع المكافآت والغنائم ومكافأة الشجعان من المجاهدين والقادة بحسب مراتبهم وما أظهروه من البلاء. أما إذا وقع عدوان مباغت، فيقوم جيش المنطقة أو الإقليم الذي يتعرض للعدوان بمجابهة هذا العدوان والتصدي له، ومحاولة إيقافه وإحباطه، ريثما تتاح الفرصة لوصول جيوش بقية المناطق. وهكذا أمكن التمييز بين الجنود الزاهريين ـ المقيمين بالزهراء ـ والجند القرطبيين ـ المقيمين بقرطبة ـ والجند المالقيين ـ المقيمين في مالاقا ـ وجند المرية وجند طليطلة... إلخ وبقية قوات الجيش النظامي العامل أو المحترف، وهو يضم طبقتين متميزتين: الأحرار من عرب وبربر، والعبيد وهم «الصقالبة ـ في الأصل» وفيهم الخمسيين والطنجيين وسواهم، وهؤلاء هم نواة الجيش العامل، وكان ينضم إليهم، في حالة العمليات، المرتزقة والمطوعة والملحقون من المماليك والأسرى.

وقسمت القوات داخل الجيش بحسب الأسلحة والاختصاص، وبقي السلاحان الرئيسيان هما: «سلاح الفرسان وسلاح المشاة»، غير أن القوات في هذين السلاحين قد قسمت وفقاً لتسلحها واختصاصها، فكان هناك مراعاة للتسلح على النحو التالي:

١ ـ الفرسان أصحاب التجافيف.

٢ ـ الفرسان أصحاب الجواشن.

٣ ـ الفرسان المدرعون «الفرسان الثقلية للصدمة».

٤ ـ الفرسان المدرعون، حاملو القنوات الناصلة.

٥ ـ الفرسان الطنجيون المدرعون.

٦ ـ الفرسان الخمسيون.

٧ ـ فرسان العبيد.

٨ ـ فرسان الرياضة.

كما كان سلاح المشاة يقسم أيضاً وفقاً لاختصاصهم بحيث أمكن التمييز بين:

١ ـ رجال الرماة.

٢ ـ رجال الرماة الأحرار.

٣ ـ الرماة (النظاميين).

٤ ـ الرماة الأحرار.

٥ ـ رجالة فرسان الرياضة.

٦ ـ رجالة الأرباض.

وقد روعي عند تنظيم الأسلحة تقسيمات المناطق العسكرية، والتقسيمات القبلية، فكان سلاح الفرسان مثلاً، يضم: فرسان طنجة وفرسان قرطبة وفرسان الزهراء، وكذلك منهم العرب والبربر والصقالبة... إلخ وكان يتم التمييز بين الأسلحة باللباس والتسليح.

وإلى جانب ذلك، كان هناك تنظيم الفعلة (المهندسون) ورماة المجانيق، الذين يدعمون الجيش عند أعمال الحصار، على ما حدث عند حصار سرقسطة وطليطلة.



الفَصْلُ الثَّالِث

الخليفة الناصر وبناء الدولة

١ ـ الخليفة الناصر وعصر الزهو بالأندلس.
٢ ـ الخليفة الناصر والنهضة العمرانية ـ الزهراء.
٣ ـ الخليفة الناصر واحترامه للعلماء.
٤ ـ الخليفة الناصر ووزيره ابن شهيد.
٥ ـ مراسم الدولة العظمى في بلاط قرطبة.
٦ ـ المستنصر على درب الناصر.



١ ـ الخليفة الناصر وعصر الزهو بالأندلس

«قُدِّر للخليفة الناصر أن يصبح أعظم الأمراء الأمويين في الأندلس الإسلامية، وأن يحكم نحواً من خمسين سنة عمل في أوائلها على أن يتم ما بدأه جده من إقرار السلام في ربوع البلاد، وسط مصاعب هائلة، ليتفرغ بعد ذلك لتوطيد سلطانه في الخارج. والحق أنه استطاع بما أبداه من حزم وكياسة، أن يكتسب ولاء المقدمين من رجال الأرستقراطية العربية في مقاطعتي «جيان»[(١)] والبيرة.. واستنزل العصاة من صياصيهم، ولم يبق في سنة (٩٣٠م) سوى طليطلة وحدها التي بقيت محتفظة باستقلالها، ولكن هذه المدينة الجمهورية التي بقيت متمردة طوال ثمانين عاماً، لم تلبث أن انطرحت بدورها على قدمي الأمير بعد حصار دام سنتين»[(٢)].

«وأمكن للخليفة الناصر، الارتفاع بنفسه وبالأندلس الإسلامية إلى عصر الزهو، بفضل ما توافر له من الفضائل، أوجزها حاجبه موسى بن حدير بقوله: **ما رأيت أذكى منه، كنت والله آخذ معه في الشيء تحليقاً على سواه، حتى أخرج إليه، فيسبقني لمرادي، ويعلم ما بنيت عليه تدبيري، وكان له عيون ـ جواسيس ـ على ما قرب وبَعُد، وصغر وكبر، وكان معروفاً بحسن العهد، وبذلك انتفع في استنزال المتغلبين**»[(٣)].

وكان الخليفة الناصر يهتم بعظائم الأمور، ولا تشغله صغائرها فيصرفها لسواه. ومما يحكى عنه في هذا المجال: «أن أقدم عليه رجال وقاح بالشكوى والصياح، وخرج من أمره أنه اشترى حماراً فخرج فيه عيب، فرفع ذلك إلى القاضي، فرد في حكمه إلى أهل السوق، فأفتوا أنه عيب حديث. قال:

---

(١) **جيان** (Jaen): مدينة حصينة تقع على بعد ٩٧ كيلومتراً شمال غرناطة، وبها نزل أهل قنسرين، أما أهل الشام فنزلوا في البيرة، وسموها بدمشق لشبهها بها ـ **نفح الطيب** ١/ ٢٣٧.

(٢) **تاريخ الشعوب الإسلامية** ـ بروكلمان ٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) **المغرب في حلى المغرب** ـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ١/ ١٨٠.

فألزموني به وأنا لا أريده. فقال الخليفة: تجاوزت القاضي وأهل السوق إلى الخليفة في هذه المسألة الوضيعة. ثم أمر به فضرب، ونودي عليه بذلك مجرساً، ورد رأسه إلى وزرائه، وقال: **أعلمتم أن الأمير عبد الله جدي، بنزوله للعامة في الحكم للمرأة في غزلها، والحمال في ثمن ما يحمله، والدلال في ثمن ما ينادي عليه، أضاع كبار الأمور ومهماتها، والنظر في حروبه، ومداراة المتوثبين عليه، حتى اضطرمت جزيرة الأندلس، وكادت الدولة ألا يبقى لها رسم. وأي مصلحة في نظر غزل امرأة ينظر فيه أمين سوق الغزل، وإضاعة النظر في قطع الطرق وسفك الدماء وتخريب العمران؟!..**

واعتمد الخليفة الناصر على الأكفاء من الرجال، في مقدمتهم «أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد» و«عبد الملك بن جهور»، فكان لهما دور بارز في بناء دولة الخليفة الناصر، وما وصلت إليه من الزهو، وهو ما أشار إليه أكثر من مؤلف إسلامي ومؤرخ[(١)] وهو ما يبرزه النص التالي:

«ومما زين الله به دولة الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد، مفخر الإمامة، وزهو تلك الكمامة، وحاجب الناصر عبد الرحمٰن، وحامل الوزارتين على سموهما في ذلك الزمان، استقل بالوزارة على ثقلها، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها، فظهر على أولئك الوزراء، واشتهر مع كثرة النظراء. **وكانت إمارة عبد الرحمٰن أسعد إمارة، بَعُدَ عنها كل نفس بالسوء أمارة، فلم يطرقها صرف، ولم يرمقها محذور بطرف. فَفرغ بعض الناس فيها هضاب الأماني ورباها، ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها. وهو أسد على برائنه رابض، ويطل أبداً على قائم سيفه قابض، يروع الروم طيفه، ويجوس خلال تلك الديار خوفه، ويَروي بل يحسم كل آونة سيفه.** وابن شهيد ينتج الآراء وينقحها، وينقد تلك الأنحاء وينقمها، والدولة مشتملة بغنائه، متجملة بسنائه، وكرمه منتشر على الآمال ويكسو الأولياء بذلك الإجمال»[(٢)].

---

(١) **نفح الطيب ١/ ٣٨٠.**

(٢) كان بين الوزير أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد، وبين الوزير عبد الملك بن جهور نوع من المنافسة التي لم تنقطع، ولم تنفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة، وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء. وجاء في **نفح الطيب ١/ ٣٨١** قصة حدثت بين الوزيرين ذكرت كما يلي: «اجتاز ابن شهيد يوماً على ربض ابن جهور، ومال إلى زيارته ولم تكن من غرضه، فلما استأمر عليه، تأخر خروج الإذن إليه، فثنى عنانه حنقاً من حجابه، وضجر من حُجابه =

«وتميز عهد الخليفة الناصر، على تطاوله، بالاستقرار الداخلي، فعرفت الأندلس تفتح حضارة زاهية أثارت إعجاب أوروبا في العصر الوسيط، ذلك أن الزراعة والبستنة والتجارة والصناعة، انتهت كلها إلى درجة من الازدهار بعيدة. فقد زرع العرب المسلمون الحبوب وأدخلوا إلى أوروبا زراعة النخيل، ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة إلى اليوم في حقول النخيل في «ألش» جنوبي مقاطعة «بلنسية». وامتازت الأندلس الإسلامية بصناعاتها اليدوية التي تعتمد المعدن والجلد بصورة خاصة، ولا يزال الجلد القرطبي، حتى اليوم، يخلد اسم العاصمة الأندلسية الإسلامية في السوق العالمية. والحق أن دخل الدولة السنوي، من طريق الضرائب والمكوس، بلغ في عهد الخليفة عبد الرحمٰن الناصر (٦,٢٤٥,٠٠٠) ديناراً، وفي بعض الروايات: إن ثلث هذا المبلغ كان يرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية، في حين كان الخليفة يدخر ثلثه الثاني في خزائنه، ويقف الباقي على مشروعات البناء التي أحلته منزلة جديرة بأعظم رجال العمران في الإسلام»[1].

ونعمت أندلس المسلمين إلى جانب هذا الازدهار المادي بحركة فكرية ناشطة، وعلى الرغم من ضياع قسم كبير من تراث الأدب الأندلسي في هذه الفترة الزاهية، فإن بقايا الأوابد كافية لإبراز ما وصلت إليه الحركة الأدبية، في الشعر والنثر، خلال عهد الناصر الذي كان هو ذاته يقرض الشعر وكان وزراؤه وحجابه من كبار الأدباء والشعراء.

= وكتب إليه مُعرضاً، وكان يلقب بالحمار:

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا ... إليك ولا قلب إليك مشوقِ
ولكننا زرنا بفضل حلومنا ... حماراً تولى برنا بعقوقِ

فراجعه ابن جهور يغض منه، بما كان يشيع عنه، بأن جده أبا هشام كان بيطاراً بالشام، بقوله:

حجبناك لما زرتنا غير تائق ... بقلب عدو في ثياب صديقِ
وما كان بيطار الشآم بموضع ... يباشر فيه برنا بِخَليقِ

(١) **تاريخ الشعوب الإسلامية** ـ بروكلمان، ٢٩٦. وفي **نفح الطيب ١/ ٣٧٩**: «كان الناصر يقسم الجباية أثلاثاً: ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، وهذا موافق لما جاء في **المغرب في حلى المغرب ١/ ١٧٩** و**أزهار الرياض ٢/ ٢٧١**».

كان مذهب الأوزاعي في الفقه هو المذهب السائد في أندلس المسلمين على نحو ما كان سائداً في بلاد الشام، وعندما انتشر المذهب المالكي، وأصبح هو السائد في أفريقية، وجد طريقه أيضاً إلى الأندلس، حيث أظهر فقهاء هذا المذهب حرصهم الشديد على السنة والتعصب في تنفيذ تعاليم الدين الحنيف. وتعاظم اهتمام الأندلسيين منذ البدء بالفقه واللغة، وأولوهما عناية خاصة، وليس من شك في أن التزام المذهب المالكي الذي ساد الأندلس، قد جنب هذه البلاد شرور الاختلاف الذي نشب عنيفاً صاخباً في بغداد والمشرق حول أساليب الدراسة الدينية وطرائقها.

وهكذا، لم يلبث الاهتمام بالماضي أن فاق، في أندلس المسلمين، التفكير الديني المجرد، وهو التفكير الذي وجد التعبير عن وجوده بالمذاهب الصوفية التي أخذت صورتها النهائية في الأندلس قبل أن تنتقل إلى المشرق.

أما في مجال الفلسفة، فيرجع الفضل في إثارة اهتمام الأندلسيين بها إلى «ابن مسرة القرطبي» الذي كان في سنة (٩٠٠م) قد نجح في اجتذاب عدد من الطلاب والمريدين الذين اختاروا لاجتماعهم ودراستهم إحدى الزوايا على منحدرات جبل العروس «جبل قرطبة»، غير أن آراء القرطبي المتطرفة حملت الناس على اتهامه بالزندقة، فهجر زاويته ويمم وجهه شطر المسجد الحرام، حيث أدى فريضة الحج، ليعود بعد ذلك إلى الوطن بعد ارتقاء الخليفة عبد الرحمٰن الناصر حكم أندلس المسلمين، وليتابع نشاطه التعليمي حتى وفاته سنة (٩٣١م). وربما كان من الصعب معرفة الطريقة التي وصل بها «القرطبي» إلى العلوم الميتافيزيقية المنسوبة إلى «أمبيذقليس» والملقحة بالأفلاطونية الجديدة.

ونزع أهل الأندلس الأصليون ـ القوط ـ إلى الافتخار بفضائل آبائهم وأجدادهم وتقديمهم على العرب فعل الفرس في المشرق، والذين أبرزوا نعرة الشعوبية وعصبيتها. وقد اشتدت هذه النزعة في أيام الخليفة الناصر حتى لقد اجترأ على التبشير بها القاضي أبو محمد عبد الله بن الحسن، وكان من عظم المنزلة بحيث كان الخليفة نفسه يحضر مجالسه. وفي أيام الخليفة الناصر أيضاً، عرفت قرطبة فقه اللغة على يد «أبو علي القالي» ـ صاحب الأمالي ـ الذي ولد في أرمينية، وتلقى تعاليمه في بغداد، ثم انصرف إلى أبحاثه اللغوية، فبلغ بها شأناً كبيراً تفتحت لها آفاق الأندلس.

أما علم التاريخ، وهو من العلوم التي حظيت باهتمام كبير في المشرق الإسلامي وفي الأندلس، سواء بسواء، فكان يقتصر على المتصلين بالبلاط. ومن هنا فقد تميز بوثائقيته ودقته، وقد عني المؤرخون الأندلسيون بصورة خاصة بوقائع الفتح، وأخبار الحروب، ومن أبرز المؤرخين في عصر الخليفة الناصر المؤرخ المعروف «بابن القوطية»، أحد معاصري القالي. ولم يقتصر المؤرخون المسلمون على ذكر أخبار البلاط ـ أو التاريخ الرسمي ـ وإنما تجاوزوا ذلك إلى تأريخ سيرة العلماء والأعيان وحياة الناس عامة. وتكفي هنا الإشارة إلى المؤرخين الذين جاؤوا في عهد متأخر، أمثال المقري، صاحب نفح الطيب، وساروا على نهج أسلافهم لمعرفة مدى التطور الذي وصل إليه البحث التاريخي خلال تلك الحقبة، والذي أبرزه المؤرخ ابن خلدون في تاريخه.

وحاول علماء المسلمين في الأندلس بذل الجهد المستطاع في مجالي الطب والعلوم الطبيعية. وعرفت الأندلس أيام الخليفة الناصر ثورة علمية حقيقية، حيث أمكن القيام بترجمة جديدة لنظريات ديسقوريدس في الأدوية المفردة، وضعت على أساس نسخة يونانية أرسلت إلى الخليفة من القسطنطينية. وإلى جانب ذلك، فقد أظهر الحكم، ابن الناصر وخليفته فيما بعد، اهتماماً حقيقياً بتطوير العلوم، وكان نصيراً صادقاً للعلم والعلماء، فكان يبعث إلى بلاد المشرق بمن يشتري له نفائس المؤلفات، حتى لقد اجتمع في خزانة كتبه، في ما يقال، أربعمائة ألف مجلد، ليس هذا فقط، بل لقد عمل على نشر المعرفة في ربوع البلاد، فابتنى في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة، وأدخل إليها الفقراء من الطلاب مجاناً.

لقد أصبحت قرطبة الخليفة الناصر، بفضل تشجيعه للعلم والعلوم، منارة تجتذب إليها الأدباء والعلماء والفنانين من كل أنحاء العالم الإسلامي، فكان ذلك نموذجاً واضحاً لما يعرف في العصر الحديث باسم «سرقة العقول، أو سرقة الأدمغة»، وليس ذلك إلا واحداً من المؤشرات في جملة الشواهد الكثيرة لما وصلته عاصمة الدنيا «قرطبة» في عهد خليفتها الناصر لدين الله.

٢ ـ الخليفة الناصر والنهضة العمرانية ـ الزهراء

اشتهر الأمويون، في الشام والأندلس، بالنهضة العمرانية، وبتطور فن العمارة الإسلامية، ولا زال جامع بني أمية في الشام والجامع الكبير في قرطبة حديث الدنيا، وشاهداً على ما تركه بنو أمية من الأوابد الخالدة. وقد سار الخليفة الناصر على نهج آبائه وأجداده، وسلك مسلكهم، وكان يدرك أن البنيان هو طريقة لإحياء الذكر بعد الممات، وفي ذلك قوله:

هِمَمُ الملُوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيانِ
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... مَلِكٌ محاهُ حوادثُ الأزمانِ
إن البناء إذا تعاظَمَ شأنُه ... أضحى يدل على عظيم الشانِ

وعلى الرغم من كثرة المشاريع العمرانية التي نفذت في عهد الناصر، فقد بقيت الزهراء أضخم مشاريعه على الإطلاق، ولعل في استعراض إنجاز هذا المشروع ما يبرز صورة الأندلس الإسلامية في عصر أعظم خلفاء المسلمين في قرطبة.

بدأ عبد الرحمٰن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة للهجرة. وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصخر المصرف في التبليط، فإنه لم يدخل في هذا العدد. وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل، وقيل أكثر، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله، ومن دواب الأكرياء الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر، يجب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال. وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل.

وكان فيها حمامان: واحد للقصر وثان للعامة، وقدرت النفقة فيها، في كل عام، بثلاثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها... وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وأفريقية وتونس. وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس، عريف البنائين، وحسن وعلي ابنا جعفر الإسكندراني، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة

دنانير. . وكان عدد السواري المجلوبة من أفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس، طركونة وغيرها، فالرخام المجزع من رية والأبيض من غيرها والوردي والأخضر من أفريقية، من كنيسة أسفاقس، وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة، فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء. وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان، فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضاً. وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر، وجُعل عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال وإلى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب، وفيل. وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها.

وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره. واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهراً؛ فتكون مدة بناء الزهراء أربعيين عاماً.

كان المسجد «الجامع» هو أول ما تم إنجازه من بناء الزهراء. وكان يعمل فيه، حين شرع فيه، من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة، منها ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع، فاستتمَّ بنيانه وإتقانه في مدة من ثمانية وأربعين يوماً، وجاء في غاية الإتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنع، وطوله من القبلة إلى الجوف، حاشا المقصورة، ثلاثون ذراعاً، وعرض البهو الأوسط من أبهائه، من الشرق إلى الغرب، واحد وأربعون ذراعاً، وعرض البهو الأوسط من أبهائه، من الشرق إلى الغرب، ثلاثة عشر ذراعاً، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعاً، وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد وأربعون ذراعاً، وجميعه مفروش بالرخام الخمري، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء. فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف، سوى المحراب، سبعة وتسعون ذراعاً وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً، وطول

صومعته في الهواء أربعون ذراعاً، وعرضها عشرة أذرع في مثلها.

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع في نهاية من الحسن، ووضع في مكانه منه، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة. وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله، يوم الخميس لسبع بقين من شعبان، سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء، كانت أول جماعة صلّت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، وكان الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، ومن الغد، صلى الناصر فيه الجمعة، وأول خطيب به القاضي المذكور.

بقيت بعد ذلك قصة جرِّ الماء إلى الزهراء، والتي تأخر وصولها حتى نهاية سنة (٣٢٩هـ) حيث أكمل الناصر لدين الله بنيان القناة الغريبة الصنعة التي جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة، غربي قرطبة، في المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد. يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد فيمجه في تلك البركة من فيه (فمه) فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستعيض على سحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك، لبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها. وكانت مدة العمل فيها، من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت القناة إلى هذه البركة، أربعة عشر شهراً، وكان انطلاق الماء في هذه البركة، الإنطلاق الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة (سنة ٣٢٩هـ)، وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقُوام بالعمل بصلات حسنة جزيلة.

ذكر صاحب الشرطة لمدينة الزهراء، أن مباني القصر اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، منها ما جلب من مدينة روما، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها، صغارها وكبارها، كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه.

أصبحت مدينة الزهراء تضج بالحياة، فهي عاصمة الدنيا، وكان فيها على ما حفظته الأوابد الأندلسية: من الفتيان ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى، ودخالتهم من اللحم في كل يوم، حاشا الطير والحوت، ثلاثة عشر ألف رطل، وعدة النساء بقصر الزهراء، الصغار والكبار، وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة. أما عدد الفتيان الصقالبة، فبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون (وارتفع هذا العدد إلى ٦٠٨٧ فتى صقلبي). وكان المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثني عشر ألف خبزة كل يوم، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم.

لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة، أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليها قط أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد ورسول وافد وتاجر جهبذ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلهم قطع أنه لم ير لها شبهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه، والأخبار عن هذا تشع جداً، والأدلة تكثر، ولو لم يكن فيه إلا السطح المشرف على الروضة، المباهي بمجلس الذهب والقبة، وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة، وفخامة الهمة، وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب مصون، وعَمَدٍ كأنما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض تماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدي الأوهام إلى استقصاء التعبير عنها ووصفها.

لقد أنشئت الزهراء على اسم جارية كانت أثيرة للخليفة الناصر. ونظمت المدينة في سفح جبل العروس، على مسافة ميل من المدينة الحالية إلى الشمال منها، ونظمت على ثلاث طبقات يعلو بعضها فوق بعض، على منحدر الجبل. ففي الطبقة الدنيا، انبسطت الحدائق والبساتين، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل الحاشية ورجال البلاط. أما قصر الخليفة فكان يشرف على ذلك كله، وكانت قاعته الرئيسية تتألف بكاملها من الذهب والرخام ذي الألوان المتعددة، وقد أشرفت في وسطها جوهرة أهداها إلى الخليفة عبد الرحمٰن الامبراطور ليو البيزنطي «صاحب القسطنطينية». ونهضت الأبواب الثمانية على قواعد من الرخام الملون والبلور، علتها أرتجة مقوسة من الأبنوس المذهب والعاج المطعم بالجواهر.

ولم تكن الزهراء قد اكتملت عندما قام الرئيس أبو عثمان بن إدريس بمرافقة الخليفة الناصر في ربوعها وحدائقها، وأعجب ابن إدريس أيما إعجاب بما شاهد وبما رأى، فانطلق لسانه:

سيشهد ما أبقيْت أنك لم تكن ... مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى ... وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

وقد ذكرها المعتمد بن عباد في قوله الذي استدعى به وزراءه وكتابه، والي قرطبة، وقد تنادموا بالزهراء:

حَسَدَ القصر فيكم الزهراءَ ... ولعمري وعمركم ما أساءَ
قد طلعتم به شموساً صباحاً ... فاطلعوا عندنا بُدُوراً مساءَ

وذكرها الوزير أبو الوليد بن زيدون في شعره الذي خاطب به محبوبته ولادة في قصيدته الشهيرة:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رقَّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه، إذا عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
وردٌ تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك، لم يَعْدُ عنه الصبر أن ضاقا
لو كان وفّى المنى في جمعنا بكم ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا
آسٌ ينافحه نَيْلَوفَرٌ عبق ... وسنانُ نبه منه الصبح أحداقا
لا سكن الله قلباً عن ذِكْركُمُ ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الريح نحوكم ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
كان التجاري بمحض الود مذ زمن ... ميدان أنس جرينا فيه إطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا[1]

---

(١) المغرب في حلى المغرب ١/ ١٧٥، ١٧٦، ونفح الطيب ١/ ٥٦٢ ـ ٥٧٠.
وفي تاريخ الشعوب الإسلامية ـ بروكلمان، ٢٩٩ ما يلي: «وعجز خلفاء عبد الرحمٰن عن صيانة هذا البناء الفخم، فلم يبق منه، عند النصف الثاني من القرن الحادي عشر، غير أجزاء قليلة. أما اليوم فلا يهتدى إلى موقعه السابق إلا من أردام من الأوساخ القائمة في ما يسمى «قرطبة القديمة».

٣ ـ الخليفة الناصر واحترامه للعلماء

بقي سلطان العلم فوق سلطان الحكم في معظم عهود العرب المسلمين، ولم يكن باستطاعة الخليفة الناصر الخروج على سلطان العلم والعلماء، وقصصه مع الفقهاء ورجال العلم كثيرة وطريفة، حفظت الأوابد الأندلسية منه ما يعتبر غرة في جبين الدهر، ونموذجاً أعلى لتقدير العلم والعلماء في كل مصر وعصر، وإذا كان من المحال جمع كل الشواهد والقصص، فلا أقل من عرض بعضها.

١ ـ حكي أنه لما أعذر لأولاد ابنه أبي مروان عبيد الله، اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء والمشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس، فتخلف من بينهم المشاور أبو إبراهيم، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته، فسأل في ذلك الخليفة الناصر، إذ كان أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار، وَوَجِدَ ـ غضب ـ الناصر بسبب ذلك على «أبو إبراهيم»، وأمر ابنه وليَّ العهد، الحكم بالكتاب إليه، والتفنيد له، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك. لما امتحن أمير المؤمنين، مولاي وسيدي، أبقاه الله، الأولياء الذين يستعد بهم وَجَدَك متقدماً في الولاية، متأخراً عن الصلة، على أنه قد أنذرك، أبقاه الله، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا أعدمه الله توالي المسرة، ثم أنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك الحجة. فعرِّفني، أكرمك الله، ما العذر الذي أوجب توقفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذي سُرَّ به ورغب المشاركة فيه، لنعرِّفه، أبقاه الله، بذلك، فتسكن نفسه العزيزة إليه، إن شاء الله تعالى».

فأجابه أبو إبراهيم:

«سلام على الأمير سيدي ورحمة الله. قرأت، أبقى الله الأمير سيدي، هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفي لنفسي، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه، لعلمي بمذهبه، وسكوني إلى تقواه، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها، يستعدون بها لدينهم، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم. فلهذا تخلفت، ولعلمي بمذهبه توقفت. إن شاء الله تعالى».

فلما قرأ الحكم هذه الرسالة لأبيه الناصر لدين الله، أعجبه اعتذاره واستحسنه.

٢ ـ وكان الفقيه أبو إبراهيم ـ السابق الذكر ـ معظماً عند الناصر وابنه الحكم، وحق لهما أن يعظماه. وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال: «كنت اختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم ـ رحمه الله تعالى ـ فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية، فإني لعنده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره بجوف قصر قرطبة، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين ـ الظهر والعصر ـ، إذ دخل عليه خصِي من أصحاب الرسائل، جاء من عند الخليفة، فوقف وسلم وقال له: يا فقيه. أجب أمير المؤمنين أبقاه الله، فإن الأمر خرج فيك. وها هو قاعد ينتظرك، وقد أمرت بإعجالك، فالله الله. فقال له أبو إبراهيم: **سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين، ولا عجلة، فارجع إليه، وعرفه، وفقه الله، عني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى، معي طلاب العلم أسمِعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ، فهم يقيدونه عني، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته، فذلك أوكد من مسيري إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلي من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته، مشيت إليه شاء الله تعالى.**

ثم أقبل أبو إبراهيم على شأنه، ومضى الخصي يهينم متضاجراً من توقفه، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه، وانصرف سريعاً ساكن الطيش، فقال له: يا فقيه. أنهيتُ قولك على نصه إلي أمير المؤمنين أبقاه الله، فأصغى إليه، وهو يقول

لك: جزاك الله خيراً عن الدين، وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين، وأمتعهم بك، وإذا أنت أوعبت، فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك، وتمضي معي. فقال له أبو إبراهيم: حسن جميل، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة، ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي، وباب الصناعة الذي يقرب إلي من أبواب القصر المكرم، أحوط وأقرب وأرفق بي، فإن رأى أمير المؤمنين ـ أيده الله تعالى ـ أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوَّن علي المشي، وَوَدَّعَ جسمي، وأحب أن تعود وتنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إلي، فإني أراك فتى سديداً، فكن على الخير معيناً. ومضى عنه الفتى، ثم رجع بعد حين وقال: يا فقيه. قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله، ومنه خرجت إليك، وأمرت بملازمتك وذكراً بالنهوض عند فراغك. وقال: افعل راشداً. وجلس الخصي جانباً حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه، كأفسح ما جرت به عادته، غير منزعج ولا قلق. فلما انفضضنا عنه، قام إلى داره فأصلح من شأنه، ثم مضى إلى الخليفة، فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذلك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه. وقال ابن مفرج: ولقد تعمدنا في تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدبر القصر لنرى تجشم الخليفة له، فوجدناه كما وصف الخصي مفتوحاً، وقد حفه الخدم والأعوان، منزعجين ما بين كناس وفراش، متأهبين لانتظار أبي إبراهيم، فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه، فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم».

٣ ـ كان المنذر بن سعيد، قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير، تقياً ورعاً. وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء، انهمك في الإشراف عليها، حتى تأخر عن حضور صلاة الجماعة، في يوم الجمعة، ثلاث جمع متواليات. فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكر بالإنابة والرجوع فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء/ ١٢٨ ـ ١٣٦]، ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، والآخرة

خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ومكان الجزاء. ومضى في ذم تشييد البنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، بكلام جزل، وقول فصل، إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة/ ١٠٩].

وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجأته، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية، والحض على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع هواها. فأسهب في ذلك كله، وأضاف إليه من آي القرآن الكريم ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى أذكر من حضره من الناس وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرع إلى الله تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه. إلا أنه وَجِد - غضب - على منذر لغلظ ما قرعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني.

واستشاط غيظاً عليه، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف، صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء. وقال الحكم: **فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته؟. فزجره وانتهره وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه، لا أم لك، يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، ساكلة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه. ولكنه أحرجني، فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يُصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبداً.** واعتذر الحكم لأبيه الناصر عما قاله بشأن المنذر، فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح، وما أراد إلا خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك.

فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت، وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج، وأمر بالأطعمة، وقد أحضر العلماء وغيرهم من الأمراء، وغص بهم المجلس، فدخل منذر في آخرهم، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه، فقال له: **يا أمير المؤمنين، إنما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس، ولا يتخطى الرقاب.** فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رثة. . .

٤ ـ نزل القحط بالأندلس في آخر مدة الخليفة الناصر، فأمر القاضي المنذر بالبروز للاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك، وصام أياماً ثلاثة تنفلاً وإنابة ورهبة، واجتمع له الناس في مصلى الربض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم. وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس، ويشاركهم في الخروج إلى الله تعالى والضراعة له، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبتاً متخشعاً. وقام ليخطب، فلما رأى بدار الناس إلى ارتقائه، واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهالهم إليه، رقت نفسه، وغلبته عيناه فاستعبر وبكى حيناً، ثم افتتح خطبته بأن قال: يا أيها الناس، سلام عليكم. ثم سكت ووقف شبه الحصِر، ولم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تالياً قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام/ ٥٤]. ثم قال: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتزلفوا بالأعمال الصالحة لديه. فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته. ففزع الناس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روّى الثرى، وطرد المحل، وسكن الأزل، والله لطيف بعباده.

وكان لمنذر في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، ومنه أنه قال يوماً، وقد سرح طرفه في ملأ الناس عندما شخصوا إليه بأبصارهم، فهتف بهم كالمنادي: يا أيها الناس! وكررها عليهم مشيراً بيده في نواحيهم: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥] فاشتد وجد الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى في خطبته.

٥ ـ طلب الخليفة الناصر مرة إلى المنذر «الاستسقاء»، واشتد عزمه عليه،

فتسابق الناس للمصلى فقال للرسول، وكان من خواص الناس: ليت شعري، ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟. فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، وقد رقد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول: **هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين، لن يفوتك شيء مني**. فتهلل وجه القاضي منذر عندما سمع ذلك وقال: يا غلام. احمل المطر معك، فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء. وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا. وكان منذر شديد الصلابة في أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوة الحكومة، والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه.

٦ ـ ومن أخبار القاضي منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسراف في البناء، أن الناصر كان قد اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية، التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء، قراميد مغشاة ذهباً وفضة أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرمد سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة، تستلب الأبصار بأشعة نورها. وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟. فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره. فأبهجه قولهم وسره. وبينما هو كذلك؛ إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه، من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: **والله يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين**. قال: فانفعل عبد الرحمٰن لقوله، وقال: انظر ما تقول. وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم! أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا

لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف/٣٣].
فوجم الخليفة الناصر، وأطرق ملياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى، ثم أقبل على منذر، وقال له: جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، وكثَّر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق. وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبيبة، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها.

٧ ـ ووقف القاضي منذر إلى جانب الخليفة الناصر لدين الله، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء، فاهتز الناصر وابتهج، أما القاضي منذر فأطرق، ثم قال منشداً:

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهلُ
لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبلُ

فقال الناصر: إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع الخشوع، لا تذبل إن شاء الله تعالى. فقال منذر: اللهم اشهد إني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحاً.

ومضى القاضي منذر إلى ربه ليلحق بالخليفة الناصر. وذبلت زهرة الزهراء، ولم يبق منها إلا أطلال خربة، وبقي المسجد الكبير، مسجد قرطبة، خالداً وشاهداً، خالداً على الأيام، شاهداً بعظمة الإسلام.

٤ ـ الخليفة الناصر ووزيره ابن شهيد

لم يكن الخليفة الناصر في حاجة لمن يتقدم له بالهدايا لزيادة ثراء دولته، أو ثروته الشخصية، وهو الذي بلغ دخل دولة أندلس المسلمين في عهده ما لم تصل إليه دولة من قبل ولا من بعد، غير أن المصادر الأندلسية ومؤرخي العرب المسلمين قد أوردوا بإسهاب تفاصيل هدية الوزير ابن شهيد للخليفة الناصر، نظراً لما تمثله من تصوير لما وصلت إليه الدولة الأموية من الثراء والقدرة، وهي، إلى جانب ذلك، تصور نوع تلك العلاقة التي كانت تربط بين الناصر ورجال دولته. كان الناصر قد استحجب موسى بن محمد بن حدير، واستوزر عبد الملك بن جهور، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد، وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الأصناف، والتي ذكرها المؤرخ ابن حيان وابن خلدون، وغيرهما من المؤرخين، حيث قال ابن خلدون: «وهي مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة لثمان خلون من شهر جمادى الأولى». وهي هدية عظيمة الشأن اشتهر ذكرها إلى الآن، واتفق على أنه لم يُهدَ لأحد من ملوك الأندلس بمثلها، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعاً، وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها. وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها، استحسنها الناس وكتبوها. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصاً، وأسما منزلته على سائر الوزراء جميعاً، وأضعف له رزق الوزارة، وبَلَّغَه ثمانين ألف دينار أندلسية، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار، وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق، فسماه «ذا الوزارتين» لذلك، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد بن مَخْلد، وزير بني العباس ببغداد. وأمر بتصدير فراشه في البيت، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية، فعظم قدره في الدولة جداً. واشتملت هديته، على ما ذكره ابن خلدون[1]: «خمسمائة مثقال من الذهب

---

(١) ابن خلدون ٤/ ١٣٨، وأزهار الرياض للمقري ٢/ ٢٦١، ونفح الطيب ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩. وهناك =

العين، وأربعمائة رطل من التبر، ومصارفة خمسة وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرة، واثنا عشر رطلاً من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع، ومن العود الغالي أربعمائة رطل، منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً، ومن المسك مائتا أوقية واثنتا عشر أوقية. ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية. ومن اللباس ثلاثون شقة خنج «حرير» خاصيه للباسه بيضاء وملونة، وخمس ظهار شعيبية خاصة للأمير، وعشر فراء من عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملونة، وستة مطارف عراقية خاصية له. وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته، ومائة ملحفة زهرية لرقاده، وعشرة قناطير شد فيها جلد سمور، وستة من السرادقات العراقية، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال، وثلاثون شقة من البزيون ـ السندس ـ لسروج الهبات، وثلاثون بساطاً من الصوف مختلفة الصناعات، طول كل بساط منها عشرون ذراعاً، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة. . .

أما هدية ابن شهيد من أنواع السلاح، فقد اشتملت على: مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها، وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم. ومن الظهرة خمسة عشر فرساً من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، وثمانون فرساً مما يصلح للوصفاء والحشم، وخمسة أبغل عالية الركاب. ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم. ومن سائر الأصناف قرية تغل آلافاً من أمداد الزرع. ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عمود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار. وكتب ابن شهيد رسالة، أرفقها بهديته جاء فيها: «وكان الخليفة أيده الله تعالى قد أمرني بابتياع الرقيق من مال الأخماس، فابتعتهم من نعمته عندي، وصيرتهم من بعثي. . ولما علمت تطلع مولاي أيده الله تعالى إلى قرية كذا ـ بالقنبانية ـ المنقطعة الغرس في شرقها، وترداده لذكرها، لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها، وأكتبت وكيله «ابن بقية» الوثيقة فيها باسمه، وضمها إلى ضياعه، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظرجيان، عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه إليها، فما زلت أتصدى

= ثمة اختلاف بين الروايات التاريخية في تفاصيل المواد، وقد تم هنا ذكر أبرز هذه المواد، بدون تمييز في ما تضمنته المصادر التاريخية من اختلاف وتباين.

لمسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيل «ابن بقية» وصار في يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى. ولما علمت نافذ عزمه ـ أبقاه الله تعالى ـ في البنيان، وكلفه به، وفكرت في عدد الأماكن التي تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها ـ مد الله تعالى في عمره، وأوفى بها على أقصى أمله ـ علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه، فأثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم عليه، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاماً، وينتهي تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين الفاً أعجل شأنه في عام، سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان قبلاً إن شاء الله تعالى. وكذلك ما ثاب إليَّ في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلاثمائة ألف عود ونيف على عشرين ألف عود «عمود» على أنه لا يدخل منه في السنة إلا نحو الألفي عود. ففتح لي سعدك رأياً أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة «المستوردة» لوقتها، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفاً والستين ألفاً».

* * *

ومن قصص الخليفة الناصر مع وزيره «أبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك»، ما ذكر من أن النصارى أهدت ابن شهيد غلاماً لم تقع العيون على شبهه، فلمحه الناصر، فقال لابن شُهيد: أنى لك هذا؟. قال: هو من عند الله. فقال له الناصر: تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر. فاستعذر، واحتفل في هدية بعثها مع الغلام، وقال: يا بني! كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي. وكتب معه هذين البيتين:

أمولاي هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرضِ

أرضيكم بالنفس وهي نفيسة ... ولم أرَ قبلي من بمهجته يُرضي

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهي ذلك إلى الناصر، فيطلبها، فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها معها، وكتب له:

أمولاي هذي الشمس والبدر أولاً ... تقدم كيما يَلْتقي القَمَران

قرانٌ لعمري بالسعادة قد أتى فدُم منهما في كوثر وجنان
فما لهما واللَّه في الحسن ثالث وما لك في فلك البرية ثاني

فتضاعفت مكانته عنده. ثم إن أحد الوشاة رفع للملك الناصر أنه بقي في نفسه من الغلام حرارة، وأنه لا يزال يذكره حين تحرُكه الشمول، ويقرع السن على تعذر الوصول، فقال للواشي: لا تحرك به لسانك، وإلا طار رأسك. وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها: «يا مولاي، تعلم أنك كنت لي على انفراد، ولم أزل معك في نعيم، وإني وإن كنت عند الخليفة مشارك في المنزلة، محاذر ما يبدو من سطوة الملك، فتحيل في استدعائي منه». وبعثها مع غلام صغير السن، وأوصاه أن يقول: من عند فلان، وإن الملك لم يكلمه قط، إن سأله عن ذلك. فلما وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم، علم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام، وما تكلم به في مجالس المدام، فكتب على ظهر الرقعة، ولم يزد حرفاً:

أمن بعد إحكام التجارب يُبتغى لديَّ سقوط الطير في غابة الأسد
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه ولا جاهل ما يدَّعيه أولو الحَسَد
فإن كنت روحي قد وهبتك طائعاً وكيف يُردُّ الروح إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته، ولم يعُد إلى استماع واش به. ودخل عليه بعد ذلك فقال له: كيف خلصت من الشرك؟ فقال: لأن عقلي بالهوى غير مشترك. فأنعم عليه وزادت محبته عمده.

* * *

ومن قصص الخليفة الناصر مع وزرائه، تلك التي حدثت له مع وزيره ومولاه «أبو عثمان بن إدريس»، والذي حضر ليلة عنده، فغنت جارية:

أُحبُّكُم ما عشتُ في القرب والنوى وأذكركم في حالة الوَصْل والصَّدِّ
على أنكم لا تشتهون زيارتي قريباً ولا ذكرايَ في فترة البعد

واستجاز وزيره، فقال: الابتداء لأمير المؤمنين، فقال الخليفة الناصر مرتجلاً:

وأنتم جعلتم مهجتي مسكن الجوى وأنت جعلتم مقلتي مسكن السهدِ

وعند ذلك انطلق لسان الوزير ابن إدريس بقوله:

وما لي عنكم جرتم أو عدلتم على كل حال فاعلموا ذاك من بُدِّ[1]

---

(١) المغرب في حلى المغرب ١/١٧٨.

٥ ـ مراسم الدولة العظمى في بلاد قرطبة[١]

بلغ ملك الناصر بالأندلس غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادنه الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به، من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية. فوفدت عليه سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة (٩٤٧م) رسل صاحب قسطنطينية وهديته، وهو يومئذ قسطنطين، واحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود، حيث ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة، وزين قصر الخلافة بأنواع الزينة وأصناف الستائر، وجُمِّلَ سرير الخلافة بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، وأدخل الرسل، فهالهم ما رأوه، وقربوا حتى أدوا رسالتهم، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل، ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه، وذلة عدوه. فاستعدوا لذلك، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا، وشرعوا في القول فارتج عليهم، وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق، كان في جملة الحكم ولي العهد وندبه لذلك استئثاراً بفخره. فلما وجموا كلهم قام «منذر بن سعيد البلوطي» من غير استعداد ولا روية، وما تقدم له أحد بشيءٍ من ذلك، فخطب واستحضر وجلى في ذلك القصد، وأنشد شعراً طويلاً في ذلك العرض، ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع، وأعجب به الناصر، وولاه القضاء بعدها، وأصبح من رجالات العالم.

وبدأ منذر قوله من المكان الذي انتهى إليه أبو علي القالي ـ البغدادي ـ فقال:

«أما بعد! حمداً لله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه، والصلاة

(١) سبق أن تم التعرض لهذا الموضوع في الباب الرابع «عبد الرحمٰن الداخل ـ صقر قريش»، تحت عنوان «عز الإسلام بالأندلس» ص٤٣٣ ـ ٤٤١. وسيرد هنا ما لم يسبق التعرض له في الباب المذكور إكمالاً للفائدة.

والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه. فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إلي معشر الملأ بأسماعكم، والقنوا عني بأفئدتكم. إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله، جل وعز، عندهم، وفيه وفي رسول الله ﷺ، أسوة حسنة. وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت فَرَقَكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم. ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء.

أنشدكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟... ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم وصرتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم. ناشدتكم الله: ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدِّعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غارب إلا جبَّه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلمِّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم،

وآمال الأقصَيْن والأدْنَين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم وجفنها غير نائم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور/ ٥٥] صدق الله العظيم. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً، وأجملهم صنعاً، لا تهاجون ولا تذادون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون. فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم ﷺ، فإنَّ من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال، وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء. وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء/ ٥٩] صدق الله العظيم.

وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم وتفريق ملئكم، الآخذين في مخاذلة دينكم وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين»[1].

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٦٩ ـ ٣٧١، وأزهار الرياض ٢/ ٢٧٣ والمطمح ٣٨.

جلس «منذر بن سعيد البلوطي»[1] وقد بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة، حتى صلب العلج ـ سفير قسطنطين، امبراطور بيزنطة ـ وغلب على قلبه، وقال هذا كبير القوم «أو هو كبش القوم». وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه، وثبات جنانه، وبلاغة لسانه. وكان الناصر أشدهم تعجباً منه، وأقبل على ابنه الحكم ـ ولم يكن يثبت معرفته ـ فسأله عنه، فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطي. فقال: والله لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حَبَرَ خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهي فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب. ولئن أخرني الله بعد، لأرفعن من ذكره. فضع يدك يا حكم عليه، واستخلصه، وذكرني بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه. ثم ولاه للصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء. ثم توفي محمد بن عيسى (سنة ٣٣٩هـ) فولاه قضاء الجماعة بقرطبة، وأقره على الصلاة بالزهراء. ووصف منذر موقفه يوم ألقى خطبته، شعراً، بقوله:

مقال كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطلِ
بقلب ذكي ترتمي جنباتُهُ ... كبارق رعد عند رعش الأناملِ

---

(١) **منذر بن سعيد البلوطي (٢٦٥ ـ ٣٥٥هـ/ ٨٧٨ ـ ٩٦٥م)**: قاضي الجماعة بقرطبة، خطيب مصقع وله كتب مؤلفة في القرآن والسنة الورع، والرد على أهل الأهواء والبدع، آية حركة وسكون، وبركة لم تكن معدة ولا تكون، وآية سفاهة في تحلم، وجهامة ورع في طي تبسم. إذا جد وجد، وإذا هزل نزل، وفي كلتيّ الحالتين لم ينزل للورع من مرقب، ولا اكتسب إثماً ولا احتقب. ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمٰن الناصر، وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهيباً صلباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم، واستمر في القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقره، وفي خلافته استعفى مراراً فما أعفي، وتوفي بعد ذلك. ولم يعرف عنه مدة ولايته قضية جور، ولا عدت عليه في حكومته زلة، وكان غزير العلم، كثير الأدب، متكلماً بالحق متبيناً بالصدق، ينطق الشعر، ومن قوله عندما فرغ من خطبته سابقة الذكر:

هذا المقام الذي ما عابه فندٌ ... لكن قائله أزرى به البلدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطرفاً ... لكنني منهم فاغتالني النكدُ

ويروى بدل هذا الشطر:

.... (ولا دهاني لهم بغي ولا حسدُ)
لولا الخلافة أبقى الله حرمتها ... ما كنت أرضى بأرض ما بها أحدُ

الجذوة ٣٢٦، والمطمح ٣٧، ونفح الطيب ١/ ٣٧٢ و٣٧٤ و٣٧٥.

فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازلِ
وقد حدقت حولي عُيُون إخالها ... كمثل سهام أثبتت في المقاتلِ
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو في العصور الأوائلِ
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلُّهم ما بين راج وآملِ
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائلِ
فعش سالماً أقصى حياة مؤملاً ... فأنت غياث كل حافٍ وناعلِ
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى أرض قسطنطين أو أرض بابلِ

٦ ـ المستنصر على درب الناصر

لقد برز، من خلال العرض السابق، أن الخليفة الناصر قد عهد في حياته لابنه الحكم المستنصر، بممارسة دوره كولي للعهد وخليفة للمستقبل، وكان عهد المستنصر امتداداً دقيقاً لحكم الناصر في كل ظواهره ومضامينه، وليس من الغريب بعد ذلك أن يجمع الكتاب والمؤرخون على اعتبار عهدي الناصر والمستنصر هما عصر الزهو والقوة في الأندلس، وهو ما حدده أكثر من مؤرخ مسلم بالعبارات التالية: «لما توفي الناصر لدين الله، تولى الخلافة بعده ولي عهده الحكم المستنصر بالله، فجرى على رسْمه، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه»[١]. ولئن كان التشابه كبيراً في معالجة معظم الأمور التي كانت تتعرض لها أندلس المسلمين، سواء في مجابهة أعداء الداخل أو الخارج، أو في بناء القدرة الذاتية، أو حتى في العلاقات برجال الحكم والدولة من الحجاب والوزراء، فكذلك كان هناك تشابه أيضاً في إبراز الدولة وهي تحمل كل ظواهر الدولة العظمى، وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند نقطتين محددتين، وهما:

١ ـ طريقة البيعة للخلافة والتي تبرز ما يمكن أن يطلق عليه اسم «مراسم الدولة العظمى».

٢ ـ اهتمام الحكم المستنصر برعاية العلم والعلماء، ما يعتبر أيضاً تأكيداً لتطور الدولة العظمى.

وقد حفظت المصادر الأندلسية[٢] عن طريقة البيعة ما يلي: «اعتلى الحكم المستنصر سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه، يوم الخميس ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلاثمائة، وقام بأعباء الملك أتم قيام، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر في تمهيد

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٨٢.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٨، وأزهار الرياض ٢/ ٢٨٦.

سلطانه، وتثقيف مملكته، وضبط قصوره، وترتيب أجناده. وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم، وتكفَّلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم، وأوصل نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء، فبايعوه. فلما كملت بيعة أهل القصر، تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عبيد الله المتخلف بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضاً إلى أبي الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثاني، فمضى إليهما كل واحد منهما في قطيع من الجند، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء في الليل، فنزلوا في مراتبهم، بفصلان دار الملك، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح الممرد، فأول من وصل إليه الإخوة فبايعوه، وأنصتوا لصفيحة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها. ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرطة، وطبقات أهل الخدمة. وقعد الإخوة والوزراء عن يمينه وشماله، إلا عيسى بن فطيس فإنه بقي قائماً يأخذ البيعة على الناس.

وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابر الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو، كل منهم على قدره في المنزلة، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء، عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية، صفين منتظمين في السطح، وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض، بأيديهم السيوف، يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة، ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول، شاكين في الأسلحة الرائعة والعدة الكاملة.

وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجاله العبيد، عليهم الجواشن والأقبية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة، وانتظموا صفين إلى آخر الفُصُل ـ دور الضيافة ـ وعلى باب

السدة الأعظم البوابون وأعوانُهُم، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد إلى باب الأقباء، واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة، موكباً إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء. فلما تمت البيعة، أُذِنَ للناس بالانفضاض، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر رَحِمَهُ اللهُ إلى قصر قرطبة للدفن هناك في تربة الخلفاء.

وفي ذي الحجة من سنة خمسين، تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتواصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضي منذر بن سعيد والملأ، فأخذت عليهم البيعة، ووقعت الشهادات في نسخها.

* * *

وكان الحكم المستنصر محباً للعلوم مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله. فكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، رجل اسمه تليد الخصي، ذكر أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير. وأقام الحكم للعلم وللعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر. ووفد على أبيه أبو علي القالي، صاحب كتاب الأمالي، من بغداد فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد من علمه. وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه «أبو الفرج الأصفهاني»، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضي «أبو بكر الأبهري المالكي» في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فوعى من ذلك كله. واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء. ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح، من موالي المنصور ابن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إياها عنوة.



الفَصْلُ الـرَّابع

الخليفة الناصر وأندلس المسلمين

١ ـ في أفق السياسية الاستراتيجية.
٢ ـ الأعمال القتالية للناصر.
٣ ـ الخليفة الناصر وقوات المسلمين.
٤ ـ في إدارة الحرب.



١ ـ في أفق السياسة الاستراتيجية

قد يذهل المتتبع لسيرة الخليفة عبد الرحمٰن الناصر لدين الله وهو يرى ذلك التوازن المثير في بناء الدولة على أسس واضحة ومبادئ ثابتة، تتوافق وأحدث معطيات السياسة الاستراتيجية المتقدمة في العصر الحديث، ويؤكد ذلك، من جديد، أهمية التجربة التاريخية، وضرورة التعلم منها، ذلك لأن هذه التجربة قد جاءت في القديم، كما هي في الحديث، نتيجة اقتران مجموعة من العوامل تؤدي إما إلى بناء الدولة وازدهارها وظهور عظمتها، وإما إلى انهيار كيان الأمة وضعفها وفنائها. ولئن كانت قضية الاقتران هذه، ترتبط في معظم الأحيان، بأسماء مجموعة من الأفراد، الملوك أو الحكام أو القادة، إلا أن عملية الكشف عن العوامل الحقيقية للتطور أو الانهيار، إنما تؤكد أنه لا بد من توافر تلك العوامل التي تساعد في الرقي أو الانهيار، ولا ينتقص ذلك بداهة من القيمة الفردية لدور صانعي الأحداث من حكام وقادة جيوش وأمراء وخلفاء، بقدر ما يزيد من قيمته وأهميته، إذ أن دور صانعي الأحداث هنا هو الكشف عن العوامل الموجهة لتيار الأحداث ومعرفتها وتوجيهها للوصول إلى الهدف المحدد، أو الغاية المرجوة. وهنا يظهر الدور الرائع للخليفة الناصر لدين الله، الذي اضطلع بأعباء الحكم وهو شاب، فانصرف فوراً لمعالجة التركة الثقيلة من السلبيات المتراكمة، وأولها القضاء على أعداء الداخل واستقطاب مراكز القوى المتنافرة ومجابهة أعداء الخارج، واتبع في علاج كل حالة الأسلوب الملائم لها، مع التزامه دائماً بهدف السياسة الاستراتيجية العليا وهو: **خوض الصراع بما لا يتعارض مع إقامة سلم حقيقي عادل**، وهذا ما يفسر جنوح الناصر المرة بعد المرة إلى العفو عن أعدائه والتجاوز عن انحرافاتهم الثقيلة، ومحاولة الإحسان إليهم. ويمكن ملاحظة نتائج هذه السياسة الاستراتيجية في حالتين متميزتين. الأولى: هي العفو عن أبناء عمر بن حفصون عندما خضعوا له، وأعلنوا استسلامهم والإصرار على إعدام «أرجنتا» ابنة عمر بن حفصون. والحالة

الثانية: هي موقفه من «التجيبيين» الذين تنكروا له وهو في ذروة صراعه مع نصارى الشمال.

ففي الحالة الأولى كان الناصر لدين الله يعرف أن أبناء عمر بن حفصون لم يعودوا على مثل ما كان عليه موقفهم أيام أبيهم، وأنه باستطاعته الإفادة من التناقضات فيما بينهم لضرب الحلقات الأضعف بالتي هي أقوى، وحقق بذلك هدفه، إذ لم تلبث كل الحلقات المتمردة أن تساقطت تباعاً. وعرف الناصر أن القضية ليست مجرد قضية تمرد ضد البيت الأموي، وإنما هي قضية التمرد ضد ما يمثله هذا البيت من قاعدة قوية للإسلام والمسلمين. ومن هنا كان لا بد للخليفة الناصر من تطبيق «القاعدة الشرعية» ضد المرتدين عن الإسلام، فكان إعدامه «لأرجنتا» هو إعدام للمرتدين، وقد أكد ذلك بإقدامه على تدمير كافة الكنائس والصوامع التي أقامها «عمر بن حفصون» في إقليم ثورته. والخليفة الناصر يتبع هنا، سبيل كافة خلفاء المسلمين وأمرائهم ممن تولوا أمور المسلمين منذ أيام الخليفة «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه وحتى آخر حكام الأقاليم ممن تصدوا للمرتدين، وحاربوهم دونما هوادة ولا رأفة. وفي الواقع فإن قضية الردة هنا تأخذ أبعاداً خاصة، ما يتطلب التوقف قليلاً عند مفهوم «الردة».

عندما توفي الرسول ﷺ ارتدت العرب عامة أو خاصة، وكان مفهوم الارتداد يقتصر على إيقاف الزكاة، أو الامتناع عن ممارسة العبادات «الصلاة». واعتبر الخليفة الأول أن الامتناع عن «تقديم عقال مستحق لبيت مال المسلمين» هو ارتداد جزاؤه القتل، وأن عدم أداء فروض العبادات هو ارتداد عقابه القتل، فكان يتم التربص لمدة ثلاثة أيام حتى إذا ما تأكد المسلمون من تقصير المرتدين أعملوا فيهم السيف لردهم إلى جادة الصواب، واستئصال نبتة الخبث من قبل أن تنمو وتكبر. فالإسلام نظام كامل، وتنظيم شامل، لا يمكن التساهل في أي خلل لأي ركن من أركانه، إذ أن كل تساهل سيؤدي بصورة حتمية إلى ضعف بقية النظام الكامل والمتكامل. ومن هنا كان الجزاء الصارم نصيب كل مرتد، لا سيما بعد أن تبين الهدى، ووضح السبيل، وعرف الحق من الباطل.

ويقي هذا المفهوم للارتداد هو المفهوم السائد والمعروف في العالم الإسلامي، غير أن الارتداد في الأندلس أخذ بعداً جديداً تمثل بالعودة إلى النصرانية، وذلك بتأثير الكنيسة على «المولدين» و«حديثي العهد بالإسلام»، على نحو ما فعله عمر بن حفصون وابنته «أرجنتا». وفي بعض الأحيان، كانت

الكنيسة تكتفي من المرتدين بعدم ممارسة العبادات الإسلامية، لا سيما بالنسبة للعرب والبربر الذين أظهروا تمسكهم بالإسلام ديناً ومذهباً، غير أن فيهم من تضعف نفسه تجاه مغريات الحياة الدنيا، فكان هؤلاء يشكلون نموذجاً آخر من الارتداد، وكان لا بد لدار الخلافة من اتخاذ الإجراءات الرادعة ضد المرتدين بصرف النظر عن درجة الارتداد. ومن هنا، فقد كان باستطاعة الخليفة الناصر التساهل مع أبناء عمر بن حفصون وتجاوز العداء معهم طالما أن هذا العداء بقي محصوراً في إطار الصراع على النفوذ والسلطة، غير أنه لم يكن قادراً على التساهل في قضية تتعلق بجوهر الدين، أو تجنب تطبيق الجزاء على المرتدين، فكان إعدام «أرجنتا» بحق هو الجزاء الشرعي العادل ضد فكرة الارتداد ذاتها.

يمكن بعد ذلك الانتقال إلى الظاهرة الثانية والمتمثلة بموقف الخليقة الناصر من التجيبيين. فقد عمل هؤلاء على التحالف مع أعداء الخارج، فكان لا بد من التعامل معهم بمثل أسلوب التعامل مع الأعداء ذاتهم. وهكذا تم إعدام «مطرف بن مندف التجيبي» عندما إقتحمت قوات المسلمين قلعة أيوب، وكذلك فعل مع قائد جيشه «أحمد بن إسحاق» الذي أظهر ولاءه للفاطميين في المغرب، وتآمر معهم، فكان لا بد من إعدامه، لأن الخليفة منحه كل الثقة حتى أنه عينه قائداً وحاكماً للثغر الأعلى، ولم يبق ما يمكن تقديمه له من الإكرام لإقناعه بالإقلاع عن التآمر، فكان لا بد من قتله والقضاء على جذوة الشر المتقدة في نفسه. ولكن عندما تقدم يحيى التجيبي بطلب العفو وأظهر التوبة والندم، لم يتردد الخليفة في إعادته لمنصبه، وتعيينه حاكماً للثغر الأعلى، فاستمال بذلك «بني هاشم»، وكان ذلك دونما ريب عاملاً أساسياً في إقناع «أمية بن إسحاق» بتغيير موقفه، وإسهامه بدور كبير في إنقاذ جيش المسلمين عند تعرضهم للكارثة في غزاة الخندق، حيث أمكن له إقناع «راميرو» بإيقاف المطاردة، ثم لم يلبث أن عاود الاتصال بالخليفة وطلب الصفح منه، فصفح وعفا عنه وأحسن إليه.

لقد كانت الأندلس تضطرم ناراً، فالفتن في كل مكان، وكان لا بد من التمييز بين هؤلاء الذين يمكن الإفادة من قدراتهم وإمكاناتهم، من عرب وبربر، وبين أولئك الذين لا يمكن رجاء إصلاح لهم، وبصورة خاصة من المولدين ومراكز تحريضهم في الشمال. وقد كان من المحال على الخليفة الناصر إخضاع كل الحركات المضادة بالقوة، وترويضها بالقهر، إذ أن مثل هذه السياسة ستؤدي في النهاية إلى انفجار عام، وإلى تباعد كل مراكز القوى بصورة نهائية عن الخلافة،

وبذلك فإن دار الخلافة تصبح هي المعزولة عن مراكز دعمها ومصادر قوتها، ويبرز ذلك أهمية التميز في التعامل مع المتمردين والثائرين، الأمر الذي ساعد الخليفة الناصر على ترويض أكثر مراكز المقاومة عناداً، وإخضاع أقوى معاقل الثوار منعة وأشدها تطرفاً.

هنا تبرز النقطة الحاسمة في السياسة الاستراتيجية للخليفة الناصر والتي اعتمدت على مبدأ «بناء القاعدة القوية والصلبة». وصحيح أن بناء هذه القاعدة قد تطلب جعلها أقوى من كل مراكز القوى المضادة، ولكن لا على حساب إضعاف هذه المراكز والقضاء عليها، وإنما عن طريق زيادة القدرة الذاتية لقاعدة قرطبة حتى تسمو وترتفع فوق كل المراكز المضادة. إذ أن بقاء هذه المراكز قوية إنما هو زيادة لقدرة الخلافة، في حين أن إضعافها سيؤدي إلى إضعاف قرطبة ذاتها. ومن هنا كان على الخليفة الناصر دعم «مركزية الدولة» من جهة، وإقامة قوة خاصة ومتفوقة بدرجة كبيرة، وهذا ما يفسر اهتمام الناصر بزيادة حجم الجيش العامل ـ النظامي ـ والمشكل في أساسه من «الصقالبة»، علاوة على دعم جيوش الأقاليم وزيادة قدراتها وإمكاناتها. ولما كانت القدرة الاقتصادية هي الأساس في بناء القدرة الذاتية، فقد أطلق الناصر كل الفعاليات الاقتصادية «الزراعة والصناعة والتجارة» مع تنظيم العوائد والمكوس، الأمر الذي أدى بصورة طبيعية إلى زيادة قدرة الخلافة، وقد تم توظيف هذه القدرة بصورة صحيحة، فأمكن الارتفاع بدولة قرطبة، فتضاءلت أهمية المراكز المضادة بصورة طبيعية الأمر الذي أرغمها على الخضوع للسلطة المركزية والاستسلام لها.

والنقطة الحاسمة الثانية في السياسة الاستراتيجية للخليفة الناصر هي توظيف الانتصارات الخارجية لدعم القدرة الذاتية وتقوية القاعدة الصلبة، بقدر الإفادة من تلاحم الجبهة الداخلية لتحقيق الانتصارات الخارجية. وهكذا، فعندما كان يتوجه الناصر لغزواته، يحاول قبل كل شيء القضاء على مراكز المقاومة المضادة وإخضاعها وضم قوتها إلى قوته، حتى إذا امتنعت عليه، وصممت على متابعة الثورة والتمرد، ترك لديها قوات كافية للتعامل معها، ثم يمضي لحرب الأعداء الخارجيين. وقد برز من خلال العرض السابق أن هذه المقاومات كثيراً ما كانت تعلن خضوعها واستسلامها بمجرد عودة الخليفة الناصر من غزواته الظافرة، ولعل في ذلك أفضل نموذج لتلك العلاقة الجدلية الثابتة بين بناء القوة الداخلية وبناء السياسة الاستراتيجية الخارجية، فالقوة الداخلية هي

أساس النصر الخارجي، والنصر الخارجي هو أساس البناء الداخلي القوي.

تبقى هناك نقطتان لا بد من العرض لهما في مجال بناء القاعدة القوية والصلبة، وهما: التطبيق الدقيق لقواعد الشرع الإسلامي في القضاء والفرائض واختيار القضاة ورجال الدولة الأكفاء والمميزين بتقاهم وورعهم، الأمر الذي ساعد على انتشار العدالة والأمن في ربوع الأندلس. والثاني هو تصحيح الأخطاء المكتشفة من خلال إعادة التنظيم المستمرة لشؤون الدولة «بعد غزاة الخندق» بصورة خاصة، حيث وضعت حدوداً لتجاوزات الصقالبة، وزيادة الاعتماد على المسلمين من عرب وبربر.

لقد تمت الفتوحات الإسلامية تحت راية الإسلام، ووصل العرب إلى أوج عزتهم، وذروة مجدهم بفضل الإسلام، فكان وجود الخلافة بالأندلس بمثابة تجسيد لكيان الإسلام وتنظيمه الدنيوي، وكان العدل وتطبيق الشريعة الإسلامية هما أساس هذا التنظيم، ومن هنا ظهر الدور الكبير لرجال القضاء والتشريع من الفقهاء أصحاب المذاهب الإسلامية. ومن هنا تظهر فضائل الناصر في البحث عن الرجال الذين تتوافر لهم فضائل القضاء حتى لو كان هؤلاء ممن يسببون إزعاجات للخليفة عند انحرافه أو خروجه عن جادة الصواب، شأن منذر بن سعيد في مجابهته للخليفة مرات عديدة. ولقد كان دور هؤلاء القضاة والفقهاء كبيراً لا من أجل إقامة العدل ودعم الأمن، وإنما من أجل بناء المجتمع الإسلامي في الأندلس. وإذا كان المجتمع الإسلامي في المشرق الإسلامي والمغرب قد عرف الاستقرار غير أن مجتمع المسلمين بالأندلس لم يكن كذلك.

فقد ظهر من خلال عرض سيرة الناصر أنه على الرغم من مضي فترة قرنين ونيف، إلا أن الإسلام لم يعرف الاستقرار الحقيقي، ويعود ذلك إلى مراكز التحريض القوية من جهة، وإلى بعد الأندلس عن بلاد المسلمين وانعزالها من ناحية ثانية، وإلى ضعف العنصر العربي والإسلامي ـ عددياً ـ بالمقارنة مع سكان البلاد الأصليين، يضاف إلى ذلك كله انقسام المسلمين على أنفسهم وظهور النزعات القبلية العربية والبربرية، ما صرف المسلمين عن واجباتهم في إقامة المجتمع الإسلامي إلى التناحر وتبديد القدرات والإمكانات، الأمر الذي أدى إلى تعاظم قدرة أعداء المسلمين على حساب هؤلاء المسلمين. وباتت الجزيرة في حاجة للقبضة القوية التي تعمل على تصحيح مجموعة الأوضاع الشاذة وغير الطبيعية، والتي تعتبر من أخطر الظواهر المرضية القاتلة، فكان ظهور الأمير

عبد الرحمٰن الناصر لدين الله تعبيراً عن حاجة مجتمع المسلمين لمثل تلك القبضة خلال تلك الحقبة التاريخية، وهذا ما يفسر بعضاً من عوامل النجاح التي أحرزها بفضل ما بذله من جهد، وما أقدم عليه من تضحيات حتى استقامت له الأمور، ولم يكن ذلك ليتحقق له لولا حرصه الشديد على إقامة المجتمع الإسلامي، وتعميق جذور الفضائل الإسلامية، وهذا ما يفسر بدوره أيضاً أحد أسباب انهيار ثورة بني حفصون. فقد لقيت هذه الثورة نجاحاً لسببين: أولهما قوة هذه الثورة وخوف الناس منها واللجوء إلى الاحتماء بها. وثانيهما ضعف دولة قرطبة وتهاونها في تأمين متطلبات بناء المجمع الإسلامي القوي. وقد عمل الخليفة الناصر لدين الله على معالجة الموقفين معاً، وأفاد من ارتداد ابن حفصون ليظهر حقيقة الصراع المضاد للإسلام والمسلمين، ما دفع المسلمين الذين تحالفوا مع ابن حفصون، أو الذين عملوا تحت رايته على التخلي عنه، فكان في ذلك بداية سقوطه، وهو السقوط الذي جاء تعاظم قدرة قرطبة ليضع له حداً نهائياً وحاسماً.

لقد حاول الخليفة الناصر لدين الله اتباع كافة الوسائل لدعم قدرة الدولة حتى تستطيع الاضطلاع بأعبائها، وحتى تنهض بواجباتها من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين. وكان اعتماده على الصقالبة ورفع قدرهم هو إحدى وسائله، غير أن انحراف هذه الوسيلة، وتضخمها بصورة مرضية، قد حقق نتيجة سلبية في النهاية، ظهرت بصورة خطيرة في معركة «غزاة القدرة ـ الخندق». وكان مقتل «نجدة الصقلبي» مؤشراً يحمل مضموناً مزدوجاً، الأول هو إخلاص هؤلاء الصقالبة للدولة الإسلامية التي لم يعرفوا لهم ديناً غير دينها بحكم تنشئتهم والتصاقهم بالقصر الأموي. والثاني هو نفور المسلمين من عرب وبربر من سيادة هذه الطبقة، فكان لا بد من إعادة التوازن المفقود، إذ من المحال إخضاع أكثرية بسيادة أقلية حتى لو كانت مخلصة وصادقة. ومن هنا عمل الخليفة الناصر لا على إنقاص دور الصقالبة، وإنما على زيادة دور المسلمين من عرب وبربر والذين يشكلون القاعدة الأساسية للمجتمع الإسلامي في الأندلس. وقد ظهرت نتائج هذا التعديل بسرعة، إذ عاد الجميع للالتفاف حول البيت الأموي والخضوع له، وتأييده بصورة غير محدودة من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

استطاع الخليفة الناصر لدين الله تحقيق النجاح بفضل «وضوح الهدف» لديه، وكان هذا الوضوح في حقيقته نتيجة لرؤية الأمور من خلال منطلقات ثابتة،

ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الإسلامية ذاتها وبالمذهب العسكري المشتق عن هذه العقيدة. وكمثال على ذلك، فإن الصراع مع المرتدين لم يكن إلا تطويراً للصراع بين المسلمين وأعداء الدين، والأمر مماثل تجاه قضية الصراع مع نصارى الشمال وما أقاموه من كيانات انطلقت في حربها تحت راية الصليبية من قبل أن تعلن الحروب الصليبية بصورة رسمية ـ كنسية ـ. أما التعامل مع مراكز القوى الإسلامية ـ من عربية وبربرية ـ فلم يكن بدوره إلا استمراراً لذلك التعامل الذي عرفته دولة بني أمية في بلاد الشام، وإلا تطويراً لما عرفته الأندلس الإسلامية ذاتها من قبل إقامة الدولة الأموية فيها وأثناء إقامتها وبعد ذلك، وقد تشكلت بنتيجة المعاناة المستمرة حصالة من التجارب في تقويم درجات الأخطار ومستوياتها.

ومن خلال هذا التحليل، ومن خلال معرفة الهدف، فإن طريقة المعالجة لم تكن بالطريقة المستعصية على الخليفة الناصر لدين الله، غير أن بذل الجهد قدر المستطاع وأكثر مما هو مستطاع هو الذي أبرز حقيقة الرؤية الواضحة للهدف. إذ من المحال الاعتراف بإبراز المشكلة إن لم تتخذ الحلول المناسبة لمعالجتها، فنجاح علاج الحالات المرضية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتشخيص هذه الحالات بصورة دقيقة. وقد جاء نجاح الخليفة الناصر لدين الله في معالجة المواقف على كافة الجبهات، لتبرز دوره الحاسم لا في «وضوح الهدف» فحسب وإنما في اختيار الطرائق المناسبة لمعالجة المواقف المتدهورة، والتي تحقق التوازن بين الوسيلة والهدف.

وقد كانت المهارة في تقنين الوسيلة المنتقاة للعلاج هي التجسيد العملي الصحيح للرؤية الواضحة، ولم تكن الجهود المبذولة لدعم القدرة الذاتية لدولة قرطبة، وزيادة القدرة الاقتصادية لأندلس المسلمين، وتطوير الموارد الإنتاجية لزيادة القدرة العسكرية الاستهلاكية، وكذلك الاهتمام بالعلم والعلماء، وسوى ذلك من أجل «عز الإسلام» إلا تأكيد بدوره لوضوح الرؤية. وإقراراً بالحقيقة، لم تكن هذه الرؤية الواضحة غائبة عن أنظار أمراء قرطبة منذ غياب صقر قريش وحتى ولاية الناصر لدين الله، غير أن العلاج كان دون مستوى الهدف، الأمر الذي أدى إلى التدهور المستمر حتى تفاقم الخطر، وبات الموقف في حاجة للإنقاذ عن طريق استخدام العلاج الصحيح للأمراض التي باتت تظهر وكأنها مستعصية على الحل، فكانت إرادة الخليفة الناصر لدين الله، وما أظهره من العزم والتصميم هي العلاج الصحيح لحسم كل الظواهر المرضية، وكان هذا

الحسم هو الذي أبرز ما تميز به الناصر من «رؤية واضحة» للأمور وطرائق علاجها في وقت واحد.

لقد ظهرت في عصر الناصر لدين الله قضية «الشعوبية» في الأندلس، وقد تعاطف الخليفة الناصر مع هذه القضية من منطلق «المساواة بين المسلمين»، تماماً على نحو ما ظهر في المشرق الإسلامي ـ بصورة خاصة في العصر العباسي ـ، وكان الناصر «يحضر ندوات المناقشة لقضية الشعوبية». غير أن بني أمية قد عرفوا بتعصبهم الشديد للعرب والعروبة على اعتبار أن العنصر العربي يشكل سدى الإسلام ولحمته، فقد أكرم الله تعالى العرب بدين الإسلام، وكلفهم بحمل أعباء رسالته، وألقى على كاهلهم ثقل أمانته، وقد اضطلعوا بحمل الأمانة إلى كل أرجاء الدنيا، فكان من الطبيعي لخليفة بني أمية أن يكون أكثر تعصباً لقضية «العرب المسلمين»، غير أن رؤيته الواضحة للأمور، ولمعرفته بحال العرب المسلمين في الأندلس، قد حملتاه على معالجة الأمور على أرضية واقعية، غير أن هذه الواقعية كانت في إطار تحقيق الهدف الواضح وليس بعيداً عنه، وقد وجدت لها علاجاً عند الخليفة الناصر، وابنه الحكم المستنصر، في أسلوب علمي متكامل يعتمد في شطر منه على بناء عظمة أندلس المسلمين حتى تصبح مركز إغراء للدخول في دين العرب المسلمين، وفي الوقت ذاته، اللجوء إلى العلم والمعرفة ونشر العلم كوسيلة تكميلية لدعم الإسلام والمسلمين، فكانت سياسة التعريب للمصادر الأجنبية، والاهتمام بفقه اللغة «اللانغويستيك، والذي مثَّله أبو علي القالي» وكذلك إحياء علوم الدين، كل ذلك من أجل تحقيق الهدف وهو إضعاف الروح الشعوبية بطريقة غير مباشرة وبأسلوب عملي ـ علمي في وقت واحد.

وهكذا، فإن حرب الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بالله ضد الشعوبية قد تحقق، لا بالسيف والقهر، وإنما بالدليل والبرهان والحوار العقلي، فأمكن بذلك تحقيق النصر الرائع. ويمكن في الواقع اعتبار هذه التجربة التاريخية، التي رسم أبعادها بوضوح وبدقة الخليفة الناصر، هي تجربة متقدمة بأكثر من ستة أو حتى ثمانية قرون للتجارب الحديثة التي تحاول انتهاجها الدول العظمى لفرض وجودها على العالم من خلال «عظمة الدولة وتقدمها العلمي والقتني»، لدعم سياساتها الاستراتيجية، والتوسع في تطوير اللغة ونشرها تحقيقاً لهذه الغاية. وعند هذه الغاية ذاتها يلتقي الخليفة الناصر لدين الله مع خصومه من العرب

المسلمين، قادتهم وزعمائهم، حيث يظهر حرص الناصر على «العنصر العربي دعامة الإسلام». وهو إذ يحارب المرتدين بسيفه، ويحارب أعداء الدين من النصارى في الشمال بالسيف ذاته، فإنه إنما يستخدم سيفاً آخر في مقاومة خصومه والطامعين في منافسته، وهو يمارس ضدهم الضغوط النفسية والاقتصادية لإخضاعهم، ويحاول حل الخلاف معهم بالطرائق السلمية، على نحو ما فعله مع ثوار طيلطلة، عندما أوفد إليهم هيئة من العلماء والفقهاء لإقناعهم بضرورة حقن دماء المسلمين التي هي محرمة عليهم، وهو إذ يفعل ذلك إنما يفعله من مصدر القوة، لا عن ضعف أو استخذاء، حتى إذا ما فشلت الوسائل السلمية لجأ إلى أسلوب القوة والعنف، ولكنه حتى في استخدامه لهذه الوسيلة يبقى ممسكاً بوسيلة الصراع المسلح في تقنين محكم حتى إذا ما أظهر المتمردون الندم، وتقدموا بطلب العفو، أسرع إلى مصالحتهم والرفق بهم وإصلاح أحوالهم، ومسح الشقاء والبؤس عنهم، وادخارهم لمن هم أخطر منهم، ولم يكن ذلك في الواقع إلا تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. وقد كان تطبيق هذا المبدأ الخالد باستمرار هو دعامة المسلمين ومصدر قوتهم، وفيه تراحمهم وروابطهم التي تشد بعضهم بعضاً مهما نأت الديار ومهما بعدت الأمصار.

وبرز، من خلال سيرة الخليفة الناصر لدين الله، تطبيق نموذجين من نماذج السياسة الاستراتيجية في إطار واضح، عند التعامل مع الأعداء. أولهما: اتباع أساليب الحرب التشتيتية، وثانيهما: الضربات الوقائية «أو الهجمات الإجهاضية المسبقة، وفقاً للمصطلحات المتداولة حديثاً». ولم يكن تطوير العمل بهذه السياسة الاستراتيجية إلا استجابة مناسبة للتحديات المتعاظمة التي فرضت ذاتها على دولة قرطبة؛ إذ كان أخطر ما يمكن أن يتعرض له المسلمون هو توحيد قوى النصارى في الشمال للعمل ضد الثغور والعواصم في الشمال، وكان الأمر الأكثر خطورة هو نقل الحرب إلى ديار المسلمين مع ما يتبع ذلك من انهيار معنوي واستنزاف اقتصادي وتدمير بشري، علاوة على ما يقع على بلاد المسلمين من خسائر نتيجة نقل الحرب إلى بلادهم. ومن أجل ذلك، أظهر الخليفة الناصر حرصه منذ بداية عهده على قيادة الغزوات بنفسه إلى ثغور الشمال، وتركيز الجهد الرئيسي للحملة على منطقة واحدة، من أجل إضعاف قوى التحالف وتمزيقها، ثم تحقيق التناوب في غزو أقاليم النصارى «إماراتهم أو ممالكهم»، حتى لا تتوافر لهم الفرصة لتنسيق التعاون فيما بينهم، والعمل في

الوقت ذاته على نقل الصراع إلى عواصم الأعداء «ليون ونافار»، واستنزف القدرات المادية بالتدمير والإحراق.

وهنا تبرز ظاهرة لم تكن معهودة في حروب المسلمين، وهي تصعيد الصراع إلى درجة «العنف القصوى» بالتدمير والإحراق، ولقد كان ذلك ذريعته المقبولة وحجته المسموح بها من الناحية العسكرية. فقد لجأت ممالك النصارى في الشمال إلى استخدام هذا الأسلوب ضد المسلمين حتى أرغموهم على مغادرة العواصم والثغور التي «أصبحت خالية منهم». ولم يكن باستطاعة الناصر، ولا قوات المسلمين أن تستخدم الحد الأدنى، للرد بالمثل، وذلك حفاظاً على أمن ثغور المسلمين من جهة، وحتى يتم ردع نصارى الشمال عن الإقلاع باستخدام هذه الأساليب الوحشية ضد المسلمين. فكان تصعيد العنف الأقصى بمثابة أسلوب رادع برهنت التجربة على فاعليته من ناحيتين: الأولى، أن تطبيق هذه الاستراتيجية كان يضمن للناصر فترة من الهدوء لسنتين أو ثلاث سنوات، وهي المدة التي كان يحتاجها في كل مرة من أجل تطوير قدرته الذاتية، والقضاء على الفتن الداخلية. والثانية، هي أن استخدام هذا العنف الأقصى أقنع نصارى الشمال بخوض حربهم في إطار مقنن أكثر من ذي قبل، وهو الأمر الذي أدى بالتالي إلى خضوع نصارى الشمال واستسلامهم للناصر، والاحتكام إليه في أمورهم، والعودة إليه في شؤونهم.

وصحيح أن مملكتي الشمال «نافار وليون» قد حافظتا على استقلالهما الإداري، غير أن وضعهما العسكري كان أشبه ما يكون بمحميتين تابعتين للمسلمين، وقد كانت هذه النتيجة هي أقصى ما يمكن أن يطمح الناصر بالوصول إليها خلال تلك الفترة. والمثير في الأمر أن تطوير استراتيجية الحرب التشتيتية قد وجدت انعكاسات لها على مستوى العمليات القتالية، حيث تظهر قوات المسلمين في نقطة معينة من الشمال، لتنطلق منها على شكل مجموعات قتالية في كل اتجاه، ما كان يحرم الحاميات من تبادل الدعم، ويرغمها على التساقط تباعاً تحت ضربات المسلمين، ثم تنتقل القوات بمجموعها إلى منطقة أخرى لتعيد تطبيق الأساليب ذاتها، ناقلة معها كل ويلات الحرب إلى عمق بلاد الأعداء، مجنبة بذلك بلاد المسلمين كل ضرر أو أذى، ما أدى إلى تعاظم قوة المسلمين في الثغور على حساب أعدائهم، الأمر الذي أدى إلى انتشار الأمن والاستقرار في كل ربوع الأندلس، وساعد على بناء الجبهة الداخلية القوية والمتماسكة.

٢ ـ الأعمال القتالية للناصر

ما من حاجة هنا لطرح العقيدة القتالية الإسلامية المرتبطة بالعقيدة الدينية للمسلمين، وما من حاجة أيضاً لإبراز الفضائل الحربية للمقاتل العربي، والذي جاء الإسلام فوظف فضائله الفردية لخدمة القضية المقدسة، فقد باتت هذه وتلك، واضحة الأبعاد، محددة الملامح، غير أنه لا بد أيضاً من الاعتراف بالكفاءة القيادية العالية لقادة العرب المسلمين الذين جهدوا وجاهدوا باستمرار من أجل التكيف مع الظروف الخاصة لمسارح العمليات، ومن أجل تطوير مبادئ الحرب، واستخدام ما هو مناسب منها للموقف، وعند هذه النقطة تبرز الكفاءة القيادية لكل واحد من قادة العرب المسلمين، بقدر ما تبرز أيضاً «الصفة الخصوصية» أو الطابع الشخصي للقائد، وما حققه من منجزات عبر تجاربه الذاتية. ولقد ظهر الخليفة الناصر على مسرح الأحداث سنة ٣٠٠هـ، فيكون بذلك قد مضى زهاء قرنين ونيف على فتح الأندلس، وخلال هذه المرحلة بقي الصراع مستمراً، وبقي الاحتكام إلى السلام هو الوسيلة لحسم المواقف التي يتم الصراع من أجلها، سواء كانت هذه المواقف وثيقة الصلة بقضية «الجهاد في سبيل الله» أو كانت بعيدة عنها.

وكان لا بد من تطور فن الحرب عبر التجارب المتراكمة، وهذا ما يبرزه في الواقع الأسلوب التنظيمي للقوات وطرائق عملها، وفقاً لما سبق عرضه، سواء كان هذا الأسلوب التنظيمي متعلقاً بالقوات العاملة «جيش الصقالبة المحترفين»، أو كان متعلقاً بقوات المسلمين من عرب وبربر، وهي القوات التي تعتمد في أساسها على قوة الفرسان. **ولقد كان الاعتماد على قوة الفرسان تعبيراً عن مبدأين، أو مطلبين، أولهما: الاستجابة لطبيعة المقاتل المسلم عربي أو بربري، وكفاءته العالية في تطوير حرب الحركة. وثانيهما: الاستجابة لمتطلبات مسارح العمليات المتباعدة والتي تتطلب في كثير من الأحيان السرعة في التحرك، وكانت قوة الفرسان هي القوة المثلى التي يمكن لها ممارسة هذا الدور.** وتبعاً

لذلك، فقد ترافق ذلك، بالضرورة مع بروز مبادئ الحرب التي هي وثيقة الصلة، وشديدة الارتباط بحرب الحركة، ومن أبرزها: المباغتة وأمن العمل والمبادأة، واستخدام القدرة الهجومية، والاقتصاد بالقوى، والمحافظة على الهدف، والمحافظة على القدرة الحركية العالية للقوات.

ولقد ظهرت المباغتة في الأعمال القتالية للخليفة الناصر لدين الله بشكل معقد جداً ما يشير إلى درجة التعقيد التي وصلتها الأعمال القتالية في أيامه. فهو يعتمد أحياناً على المباغتة الزمنية، حيث يعمل على حشد القوات في ظاهر قرطبة خلال مرحلة مبكرة عما هو معهود في توجيه الصوائف للغزو، وفي أحيان أخرى يلجأ إلى المباغتة المكانية حيث يضلل أعداءه ليظهر في مكان غير متوقع من مسرح العمليات، بحيث لا يعرف أعداء الشمال نوايا الناصر، وإلى أين سيوجه ثقل قوات الهجوم، وفي أحيان أيضاً تأخذ المباغتة عند الناصر شكل مباغتة على مستوى العمليات وأحياناً على المستوى الاستراتيجي، إذ لم يكن التوجه إلى عواصم دول الشمال «ليون ونافار» إلا نوعاً من المباغتة الاستراتيجية، كما أن طريقة زج القوات وحجمها كان نوعاً من المباغتة على مستوى العمليات. وكانت مباغتة العمليات والمباغتة الاستراتيجية مميزة بشدة تعقيدها وفقاً لما تبرزه متابعة مسيرة الأعمال القتالية، حيث تمتزج فيها المباغتة الزمنية بالمكانية بطرائق زج القوات لتأخذ شكلاً متقدماً ومتطوراً لمفهوم المباغتة، وكان هذا التعقيد دونما ريب من «خصوصية» الصراع المرتبطة بعاملي زمن الأعمال القتالية وطبيعة مسرح العمليات، وتنظيم القوات المعادية وتشكيلها وأساليب قتالها.

ويظهر أن تحقيق المباغتة الزمنية أو المكانية لم يكن سهلاً في كثير من الأحيان، بدلالة نزوح أهل المدن والقرى وانسحاب حاميات القلاع والحصون، وذلك قبل وصول قوات المسلمين، ويعود السبب إلى بعد المسافة الفاصلة بين منطقة حشد جند المسلمين في الجنوب بالقرب من قرطبة، وبين مسرح عمليات القتال في الشمال، ما كان يسمح لقادة الشمال بالحصول على المعلومات عن تحرك جيوش المسلمين في الوقت المناسب، كما يشير ذلك أيضاً إلى قوة شبكة الجاسوسية التي كانت منظمة من قبل نصارى الشمال، والتي كانت تسمح بمتابعة الموقف على الجبهة الإسلامية بصورة مستمرة، والحصول على المعلومات بصورة منتظمة. ومما لا ريب فيه هو أن نجاح هذه الشبكات يعود

إلى ارتباط المولدين والنصارى بقياداتهم في الشمال وتعاطفهم مع كياناتهم، هذا بالإضافة إلى تعاون المنشقين من المسلمين مع حكام النصارى في الشمال. غير أن غياب العناصر الضرورية لتحقيق المباغتة بتشكيليها الزماني أو المكاني لم يشكل عائقاً أمام الخليفة الناصر لدين الله لتحقيق المباغتة على مستوى العمليات أو المباغتة الاستراتيجية، إذ أن عوامل المباغتة هنا تكمن في القدرة على إخفاء النوايا عن العدو، والإدارة الصحيحة لمسيرة العمليات، والكفاءة في اختيار محاور التقدم، وكانت هذه العوامل في قبضة الخليفة الناصر، ما كان يسمح له دائماً بتحقيق المباغتة والتغلب على أعداء المسلمين.

يظهر هنا المبدأ الثاني من مبادئ الحرب والذي كان يعتمده الخليفة الناصر في كثير من حروبه، والذي لم يفقده إلا في معركة واحدة وهي معركة الخندق. وكان هذا المبدأ هو «المبادأة»، والإصرار على الإمساك بها عن طريق فرض مواقف جديدة لحرمان قيادة العدو من حرية العمل العسكري، وقدرته على تنفيذ أعماله القتالية في إطار ردود الفعل المرتجلة، ما يضعه باستمرار تحت رحمة الناصر وقواته المتفوقة في زمن المعركة ومكانها. ولقد برز خلال عرض الأعمال القتالية أن قوات النصارى في الشمال، كانت تستفيد من الطبيعة الصعبة لمسرح العمليات، لتحتل ذرى الجبال وقمم المرتفعات، ولتتابع من مواقعها تحركات المسلمين على المحاور الإجبارية التي تفرضها الطبيعة الجغرافية لمسرح العمليات، بانتظار الفرصة السانحة للانقضاض عليها، وكان ذلك يعني زوال كل أثر للمباغتة، كما كان يعني أيضاً بقاء قوات المسلمين تحت رحمة أعدائهم. غير أن الموقف الحقيقي لم يكن كذلك، إذ استطاع الخليفة الناصر إبطال مؤثرات العامل الجيو ـ استراتيجي، أو على الأقل توظيف هذه المؤثرات لخدمة تحركاته بفضل إمساكه بالمبادأة، حيث كان يصر الخليفة الناصر على إرغام خصمه على خوض المعركة في الظروف الملائمة لعمل قوات المسلمين.

كان باستطاعة ملوك نصارى الشمال وقياداتهم التملص من المعركة، وعدم الاستجابة لمخططات الناصر، وكان ذلك يعني منحه الفرصة لحرية العمل العسكري بصورة مطلقة، ولم يكن الخليفة الناصر يريد أكثر من ذلك، فتمتعه بحرية العمل كان يسمح له بالوصول إلى هدفه، وإطلاق يد قواته لحرمان الأعداء من مواردهم الاقتصادية، الأمر الذي ينعكس بالضرورة على روحهم المعنوية، وهو ما كانت تظهر نتائجه عند الصدام حيث كانت تتمزق قوات

النصارى، في معظم الأحيان، مع الصدمة الأولى لقوات المسلمين. وفي الوقت ذاته، كانت هذه الأعمال كافية لإرغام ملوك النصارى في بعض الأحيان على زج قواتهم في المكان الذي يختاره الخليفة الناصر ميداناً لمعركته، وذلك على نحو ما حدث عند تدمير نافار أو ليون، حيث وجد هؤلاء الملوك أنفسهم مرغمين على الدفاع عن مدنهم وعواصمهم، فكانوا يخوضون معاركهم منقادين لإرادة الناصر الذي لم يكن يرغب أيضاً في مثل هذه الحالات، بأكثر من ذلك، إذ أنه يكون قد نظم قواته للمعركة وحدد لها واجباتها، في حين تكون قوات النصارى المنحدرة من الجبال، أو الهابطة من المرتفعات، مفتقرة إلى التنظيم كقوة إجماعية، ما يجعل معركتها أشبه ما تكون باشتباكات فردية في مجابهة جدار صلد متماسك، ولم يكن فرسان المسلمين ليتركوا لأعدائهم الفرصة للتنظيم، إذ سرعان ما ينقضون عليهم، ويمزقونهم، ويقذفون بهم بعيداً عن ميدان القتال.

تلك هي الصورة العامة للأعمال القتالية والتي أسهمت المبادأة في صنعها وتشكيلها، ويظهر بشكل واضح أن قوات النصارى كانت تفقد حرية عملها العسكري بمجرد اقتحام قوات المسلمين لحدود الأقاليم التي يسيطر عليها حكام النصارى. وهنا تبرز المميزات والخصائص الكافية في تطبيق «استراتيجية الضربات الإجهاضية المسبقة»، والتي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى استنزاف قدرات الأعداء بأقل جهد عسكري ممكن. ولقد سبقت الإشارة، وفي أكثر من مناسبة، إلى عودة قوات المسلمين من غزواتها، أعمالها القتالية، وهي لم تفقد من قوتها القتالية شيئاً يذكر، علاوة على ما كانت تكسبه من الغنائم ما كان يضاعف من قدراتها على حساب إضعاف قدرات أعدائها. وإقراراً بالحقيقة، واعترافاً بالوقائع، فإن تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية على مستوى العمليات، والكفاءة العالية بتطبيق المباغتة والمبادأة، لم يكونا أبداً إبداعاً لعبقرية فردة بقدر ما كانتا نتاجاً متراكماً لخبرات الحرب منذ أيام الحكم الأموي في بلاد الشام، ثم أضيفت إليها الخبرات الخاصة بالمسرح الأندلسي؛ إذ أن استراتيجية الهجمات الوقائية لم تكن أكثر من تطوير لفكرة الصوائف التي وضعها الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان وحدد هدفها... «بإشغال الروم عن أنفسهم» وفي الوقت ذاته فإن هذه الاستراتيجية لم تكن أكثر من استجابة لطبيعة الإنسان العربي الذي تمثل في تكوينه مبدأ «الهجوم... الهجوم... ولا شيء

غير الهجوم»، فكان في ذلك الترجمة العملية والأمينة لتطوير الدفاع عن النفس، عن طريق حماية الثغور والعواصم المتاخمة لحدود الأعداء، وكان في ذلك ولادة استراتيجية «الضربات الإجهاضية المسبقة» وتطويرها. غير أن ذلك لا ينقص من دور الخليفة الناصر، إذ أن تطبيق هذه الاستراتيجية على مستوى العمليات ثم الإرادة الصلبة لتطوير التطبيقات العملية للوصول إلى عواصم الأعداء هما نتاج خاص بالخليفة الناصر. والقضية هنا، وكما كانت دائماً، ليست قضية معرفة بقدر ما هي تسخير للمعرفة من أجل خدمة الهدف الذي هو دعم الوجود الإسلامي في الأندلس، وحمايته، وتأمين المناخ الضروري لنموه وازدهاره.

لم يكن الخليفة الناصر، منذ أيامه الأولى في الحكم، راغباً في مجابهة نصارى الشمال، وكان يفضل تأجيل ذلك حتى الانتهاء من القضاء على الفتن الداخلية، والثورات المضادة، غير أن الجبهة المتحالفة ضده من الثائرين المولدين ودول نصارى الشمال لم تترك له الفرصة، وأرادت «إشغاله بنفسه عنها»، وحرمانه من المبادأة وحرية العمل العسكري. وتمرد الخليفة الناصر على مخططات أعدائه، وصمم على إحباط مخططاتهم بمخططات مضادة تعتمد على الإمساك بالمبادأة وحرمانهم منها، فقاد جيوش المسلمين ضمن إطار من الظروف المعقدة، وأمكن له بذلك إحراز أول نصر، وكان هذا النصر في حد ذاته تأكيداً للناصر بصحة السياسة الاستراتيجية الموضوعة، وبرهاناً على أهمية الالتزام بتطبيق مبادئ الحرب وتطويرها. وقد أدرك الناصر يقيناً أهمية إمساكه بالمبادأة وحرمان أعدائه منها، فتابع أعماله القتالية على هذا النهج، وعمل على تصعيد الصراع المسلح، فكانت في ذلك وسيلته للانتقال من نصر إلى نصر.

وكان من المحال على الخليفة الناصر التقدم بجيش المسلمين، تحت مراقبة العدو، وعبر المناطق الجيو - استراتيجية الصعبة، مع التوغل عميقاً في بلاد العدو، بدون اتخاذ إجراءات أمن مشددة وصارمة، لضمان أمن العمل للقوات وتمكينها من ممارسة دروها بنجاح وحمايتها من مباغتات العدو المتوقعة في كل لحظة. وقد برز من خلال عرض الأعمال القتالية للخليفة الناصر أنه كان يتوقف بها في كل فترة، قبل اقتحام الأودية والممرات الإجبارية - الوحيدة - من أجل تدعيم مجنبات قواته ومؤخرتها بقوات الفرسان، مع إرسال قوات الطلائع لتسبق الجيش بمسافة كافية، ولم تكن هذه الإجراءات الأمنية إلا بعض وسائل الناصر

لدين الله من أجل حماية قواته وضمان تطبيق مبدأ «أمن العمل» بحزم وقوة.

ولقد بقيت تدابير الحيطة والأمن مرافقة لتحركات القوات العربية الإسلامية منذ تحركها من الجزيرة العربية حاملة راية الإسلام، إلى أن وصلت أقصى العالمين القديمين في الشرق والغرب، فكانت هذه التدابير قسماً متلاحماً من تنظيم حرب الحركة الإسلامية، غير أن الطبيعة الجغرافية لمسرح العمليات تطلبت من الخليفة الناصر لدين الله التشديد على هذه التدابير، وتكوين مجموعات خاصة من الفرسان المتميزين بخفة الحركة والسرعة، «الفرسان الخفيفة»، وهذا ما أبرزته الأعمال القتالية للخليفة، حيث كان الخليفة لا يكتفي بتنظيم الأرتال للتحرك والمسير، ولا يتوقف عند حدود ما يتخذه من تدابير وإجراءات، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى تحذير قادته وضباطه من الوقوع في المباغتة، ويحذرهم بضرورة مراعاة تدابير الأمن على مستوى وحداتهم. وقد حاولت قوات ليون ونافار في كل مرة مباغتة قوات المسلمين عند اجتيازها للممرات الإجبارية، فكان الفشل من نصيب أعداء المسلمين نتيجة ما كان يتخذه هؤلاء من التدابير الصارمة لمجابهة كل ما هو متوقع، وكانت عملية إحباط الهجمات المباغتة تعتمد على استخدام القدرة الهجومية لقوات المسلمين.

وبكملة أخرى، فإن قوات المسلمين لم تكن، وهي تجابه هجمات قوات نصارى الشمال، تتخذ لها مواقع دفاعية، أو حتى تتوقف عند حدود إحباط هذه الهجمات، وإنما كانت تتجاوز ذلك فتنطلق في رد القوات المهاجمة ومطاردتها إلى حيث تستطيع الاستمرار في هذه المطاردة. ويظهر من خلال ذلك أن «البحث عن الحسم» كان هو الهدف الدائم لقوات المسلمين، وكان الخليفة الناصر يوجه الجهد القتالي باستمرار نحو هذه الغاية، وذلك عن طريق استثمار القدرة الهجومية لقواته وتوظيفها لحسم الصراع، وكان هذا الحسم يعني عدم الاكتفاء بنصر منقوص ـ نصف نصر ـ بقدر ما يعني الوصول بالصراع إلى ذروته القصوى حتى لا تتمكن قوات الأعداء من استئناف نشاطها قبل مضي مدة طويلة، إذ كان لا بد من استئناف الصراع ومتابعته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قوات نصارى الشمال قد اكتسبت عبر صراعها الطويل ضد المسلمين قدراً غير قليل من الخبرات القتالية، ومن القسوة والصلابة، ومن هنا فقد أخذ الصراع شكل حوار إرادات متصارعة على درجة عالية من العناد والقوة، فكان لا بد من تحقيق النصر لمصلحة الإرادة الأقوى،

وأكد الخليفة الناصر أنه هو صاحب الإرادة الأقوى فأمكن له الوصول بالصراع إلى غايته، ولم تكن هذه الغاية ـ بدهياً ـ تعني نهاية الصراع أو توقفه بقدر ما تعني إحباط النوايا العدوانية للطرف الآخر؛ فقد أخذت مسيرة الصراع شكل حرب طويلة الأمد، فكانت تهدئة عوامل تفجرها أو القضاء عليها هي الغاية التي أمكن للناصر تحقيقها وبلوغها.

لقد أخذ قادة الكيانات النصرانية في الشمال عن المسلمين أساليب تنظيم الثغور والعواصم، وتعلموا منهم طرائق القتال في الصوائف والشواتي، تماماً على نحو ما تعلمه البيزنطيون من العرب المسلمين عبر صراعهم على حدود بلاد الشام، ويؤكد ذلك التشابه في ردود فعل البيزنطيين والأندلسيين الشماليين. فكان أساتذة الحرب من قادة العرب المسلمين هم الذين علموا أعداءهم أساليب حرب الحركة والضربات الإجهاضية المسبقة، وأتقن هؤلاء التلاميذ ما أخذوه عن أساتذتهم، بل إنهم حاولوا التفوق عليهم عن طريق المكر والخداع، لخلق مقاومات مختلفة لتضليل قوات المسلمين، وإبعادها عن أهدافها، غير أن وضوح الهدف عند الخليفة الناصر، وثباته لبلوغه، قد مكنه من إحباط كل عمليات الخداع والتضليل.

ويذكر هنا، وعلى مستوى الأعمال القتالية؛ أن قيادة «أردونيو» قد حاولت في مرات كثيرة إبعاد قوات المسلمين عن أهدافها، سواء عن طريق دعم أعمال التمرد والثورات الداخلية أو عن طريق نشر المقاومات في المواقع المحصنة، والاحتفاظ بالكتلة الرئيسية للقوات وهي جاهزة للعمل في الظروف المناسبة؛ غير أن الخليفة الناصر كان يعرف أن جذور العدوان كامنة في التحريض الخارجي، وأن قوة الثورة المضادة «ثورة أبناء عمر بن حفصون مثلاً» إنما تعتمد على الدعم الخارجي. ومن هنا فإنه عمل على «أن يتبع رأسها الذنبا»، فتوجه بثقل قواته لسحق رأس الفتنة، ومصدر التحريض، وعندما تم له ذلك أمكن القضاء على ذيل الفتنة في الداخل.

وفشل نصارى الشمال في «صرف الخليفة الناصر» عن هدفه، وكذلك الأمر من حيث تنظيم الأعمال القتالية، فإن الخليفة الناصر لم يتوقف أمام القلاع وحاميات الحصون إلا لفترة قصيرة انطلق بعدها نحو هدفه في عمق بلاد الأعداء، ولم تنجح المقاومات الصغرى في إيقاف الناصر أو إعاقته أو تضليله.

والخليفة الناصر، بعد ذلك كله، يدرك أن قدرته إنما تكمن في سرعته، وأن

هذه السرعة مرتبطة بما يتوافر لقواته من قدرات حركية عالية، وهذا هو السبب في زيادة اعتماده على قوة الفرسان وتطويرها، كما سبق وأشير إليه في حينه، غير أن القدرة الحركية العالية ترتبط بدورها بمخططات العمليات وتنظيم التحرك. وقد برز خلال عرض الأعمال القتالية للناصر أنه كثيراً ما كان يسير بقواته خمسة أو عشرة أيام دونما أي توقف، إلا بالقدر الذي تتطلبه الراحة الإجبارية للقوات والخيول، حتى إذا ما وصل إلى مسرح العمليات أمكن له اغتنام الفرص المناسبة لمنح قواته الراحة التي يحتاجونه هم وخيولهم، وبذلك استطاع الناصر المحافظة على القدرة الحركية العالية لقواته، وهي القدرة التي ساعدته على الانتقال من منطقة إلى منطقة ومن إقليم إلى إقليم، طوال فترة الغزوة التي كانت تتراوح مدتها بين ثلاثة أشهر وأربعة أشهر.

وقد يكون من الصعب تصوير القدرة الحركية بالوصف، غير أن تدقيق المسافات على مسارح العمليات فوق الصفحة الجغرافية الواسعة للأندلس كافية لمعرفة مفهوم القدرة الحركية العالية بوسائل الحركة التي كانت معروفة ـ الخيول والبغال ـ، وهذا وحده كاف لمعرفة مدى الصعوبات وقدر المشاق التي احتملها الناصر لدين الله واحتملتها معه قوات المجاهدين في سبيل الله من أجل رفع راية الإسلام ومحاربة أعدائه. وإذا كان الشعور بثقل المسؤولية هو القاسم المشترك بين القائد وجنده، هو المحرض لاحتمال كره القتال، فعندئذ يمكن إدراك الإقبال على احتمال هذا الكره بثبات وتصميم لا يمكن وصفهما بالكلمات.

٣ ـ الخليفة الناصر وقوات المسلمين

تميزت القوات الإسلامية بمجموعة من الفضائل الحربية التي اشتهرت بها عبر التاريخ، ولعل أبرز تلك الفضائل: الاستعداد الدائم للقتال، والروح المعنوية العالية، والكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب، والانضباط الصارم، والشجاعة في مواجهة مواطن الخطر. وقد كانت هذه الفضائل هي عدة المجاهدين في سبيل الله، وفي كافة حروبهم وكل وقائعهم وأيامهم. غير أن عرض الأعمال القتالية طوال قرنين من الزمن على المسرح الأندلسي قد أبرز أن الإفادة من هذه الفضائل وتوظيفها لنصرة الإسلام والمسلمين بقيت مرتبطة بظهور القائد. وهكذا فقد كان ظهور عبد الرحمٰن الغافقي، وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمٰن الداخل ـ صقر قريش ـ ونهاية بعبد الرحمٰن الناصر لدين الله ولمن جاء بعده أيضاً، هو تعبير عن توظيف فضائل المجاهدين لدعم قضية الجهاد في سبيل الله.

لم تكن قوات المجاهدين في سبيل الله بعيدة عن ممارسة الجهاد، يوم تولى الناصر لدين الله إمارة المسلمين في الأندلس. فقد كانت هناك حاميات الثغور التي تقف في مجابهة العدو وتترصد له، وكانت مسيرة الجهاد التي بدأت بالفتح الإسلامي للأندلس لا تزال محافظة على أصالتها، متمسكة بجذوة شعلتها، غير أن الصراعات الداخلية، وتفاقم الفتن والثورات، وغياب القائد القوي الذي يمتلك القدرة لتنفيذ سياسة استراتيجية شاملة تستوعب كل التناقضات «العصبية والقبلية وحتى المذهبية» قد أعاق مسيرة الجهاد، أو بالأحرى حرفها انحرافاً ثقيلاً عن مسارها وأبعدها بعداً كبيراً عن هدفها، فتحولت الشجاعة الإجماعية إلى مبادءات فردية تظهر من قِبَل قادة الحاميات أو قادة الجيوش. وعندما عمل الناصر لدين الله على تقويم الانحراف، استعادت قوات المجاهدين أصالتها، وأكدت من جديد فضائلها، وكان في طليعة هذه الفضائل «الاستعداد الدائم للقتال».

وقد أكد العرض السابق، أن الخليفة الناصر أمضى زهاء ربع قرن وهو يقود قوات المسلمين من معركة إلى معركة، ومن حملة إلى حملة، ومن صائفة إلى شاتية، فما تكاد قوات المسلمين تتفرق وتعود إلى أقاليمها من أجل أخذ قسط من الراحة حتى تعود مستنفرة لأداء واجب جديد في مسرح عمليات جديد، وقوات المجاهدين لم تشعر أو لم تظهر خلال ذلك كله تعباً من أعباء الحرب، أو تهاوناً في أداء الفريضة المقدسة، أو ملاً من القتال والاقتتال. لقد حافظ المجاهدون على مثلهم الدائم، وهو سعيهم لإحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر، والتزموا أبداً بواجبهم لنصر الله فنصرهم وأيدهم، وصدقوا مع الله فصدق وعده وأعز جنده، وكان في العزة التي عرفها المسلمون أيام الناصر ما دفعهم لاحتمال كل جهد وعناء. وهنا تظهر كارثة الخندق كظاهرة مرضية شاذة في مسيرة الأعمال القتالية التي قادها الناصر لدين الله، وقد كانت أسباب هذه الكارثة معروفة، على نحو ما سبقت الإشارة إليها، حيث تعود بعض أسباب هذه الكارثة لعجب الأمير الناصر بما وصل إليه من القوة، وتعود بعض أسبابها الأخرى، إلى ما أصاب المسلمين من شعور بالإحباط نتيجة تفضيل الصقالبة لحمل شرف الجهاد. وقد يكون هذا العامل أكثر أهمية من انتقاص مكانة زعماء العرب أو البربر، إذ أن الانتقاص من هذه المكانة سينعكس بدهياً على الحالة النفسية للقوات، غير أنه ما من ريب في أن إعطاء الأفضلية بشرف الجهاد للصقالبة هو أعمق أثراً في تلك الفترة التي كان الإسلام لا يزال محتفظاً بكل دفئه وحرارته.

ولعل عجب الناصر بكثرة عدده وضخامة أعتدته وقواته يتشابه مع موقف المسلمين يوم حنين، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى أنقذهم صوت رسول الله ﷺ. ولقد تكررت هذه الظاهرة في أكثر من حملة من حملات المسلمين وفي أكثر من يوم من أيامهم، فباتت قناعتهم ثابتة لا تتزعزع، وهي أن القوة العددية، والحجم الكبير للقوات، هو أسوأ مقياس لقدرة المسلمين، وأن الاستعداد الدائم للقتال والإيمان العميق بمفهوم الجهاد هو المعاوض الحقيقي عن كل تفوق بالقوى وبوسائط القتال. وقد أفاد الخليفة الناصر لدين الله من الصدمة التي خلفتها معركة الخندق، فأعاد التنظيم لقواته، لا على أساس إصلاح المواقف بتحقيق التوازن بين الصقالبة وسواهم من المسلمين، وإنما أيضاً عن طريق توزيع الجيوش في الأقاليم

ومساواة الجميع بحمل راية الجهاد والتسابق إلى هذا الشرف، فكان نصر المسلمين الدائم الذي لم يعرف الهزيمة طوال الفترة التي بقيت من حكم الناصر وحتى العهد التالي له «في حكم المستنصر والحاجب المنصور»، حيث لم تنتكس للمسلمين راية، ولم تنكب قوتهم، ولم يفرق جمعهم في أي يوم من أيام الإسلام المشهودة فوق أرض أندلس المسلمين.

يظهر من خلال ذلك أن الاستعداد الدائم للقتال قد بقي متلاحماً في جذوره وفروعه، في مفهومه وتطبيقه، في فكرته وممارسته، بمفهوم الجهاد وبالروح المعنوية العالية التي يثيرها هذا المفهوم. ويظهر هنا الدور الحقيقي للخليفة الناصر الذي دفع قوات المسلمين للحرب بإيقاظ الوعي وإثارة الحماسة لقضية الجهاد، الأمر الذي أدى إلى تكتل جميع القوى ووقوفها في خندق واحد ضد أعداء الدين. واعتباراً من هذه اللحظة بات على الإفرنج، نصارى الشمال، أن يجدوا في صفوف المسلمين ثغرة ينفذون منها، أو نقطة ضعف يتكئون عليها ويوجهون إليها سهامهم.

ولقد أبرز العرض السابق نقطة مضيئة جداً كانت أبداً من العلامات أو الفوارق المميزة لقوات المجاهدين في سبيل الله، وهذه النقطة هي الانضباط الصارم للقوات، سواء أثناء تحركها أو عند تنفيذها لأعمالها القتالية، وقد تظهر هذه النقطة بشكل متناقض عند النظر إليها من زاوية أعمال التمرد والثورات، غير أن تحليل عوامل التمرد يظهر عدم وجود هذا التناقض؛ فقوات المجاهدين المرتبطة بولاء العصبية والقبلية، لا تجد في خضوعها لقادتها المباشرين أي نوع من التمرد الذي يحمل تبعاته قادة العصيان أو التمرد، وفي الوقت ذاته فإن هؤلاء القادة لا يعتقدون في أنفسهم الخروج على الطاعة أو الجماعة طالما أن الأمر لا يتعلق بالجهاد، غير أن الأمر يتحول بصورة حاسمة عند مجابهة أعداء الدين، حيث تزول نزعات الجهاد المنحرفة، والتي تجد لنفسها أحياناً ذرائع مذهبية، كالولاء للفاطميين، لتنصهر في بوتقة الجهاد. هكذا كان أمر الثورات في المشرق، وهكذا ظهر في المغرب أيضاً.

وهكذا، فإن قادة الثورات أو أعمال التمرد، لا يعتبرون أنفسهم، في نظرهم على الأقل، عصاة أو متمردين أو مخالفين للشريعة الإسلامية، بل على النقيض تماماً، إذ يعتبرون أنفسهم مجاهدين حقيقيين، ويستمدون من الاختلاف المذهبي حجتهم الشرعية، غير أن هذه الحجة لا تلبث أن تسقط وتنهار عندما تتوجه

الجيوش لقتال أعداء الدين، وممارسة أعمال الجهاد الحقيقي، وهذا ما أكده استسلام العصاة والمتمردين للخليفة، سواء منهم من خضع قبل التوجه للشمال، أو أولئك الذين خضعوا بعد عودة الأمير الناصر ظافراً من حملته على بلاد الأعداء، وفي الحالين يظهر الانضباط الحقيقي للمجاهدين الذين يندفعون للحرب ويحتملون كره القتال تحت قيادة قادتهم، من دون إظهار أي تردد عند تنفيذ أقسى الواجبات وأصعبها، ومن دون إظهار أي تذمر عند معاناة المسيرات الشاقة والمتواصلة؛ ذلك لأنهم لم يتوجهوا في الأصل من أجل إرضاء قادتهم أو تنفيذاً لواجبات طلبها منهم أميرهم، وإنما من أجل الجهاد للجهاد، ومن أجل القضية المقدسة التي تتضاءل أمامها كل المشاق وتتناقض كل التضحيات.

ويبقى هناك مجال رحب للحديث عن فضيلة معروفة ميزت قوات المسلمين المجاهدين في سبيل الله، وهذه الفضيلة هي «القدرة على تحمل المشاق»، وهي القدرة التي كونتها الطبيعة الجغرافية الصحراوية بما هو معروف عنها من القسوة، والتي جاء الإسلام ليمنحها زخماً معنوياً يضاعف منها ويوظفها لخدمة الجهاد في سبيل الله. وقد احتفظ المجاهدون من المسلمين، عرب وبربر، بهذه الفضيلة عبر الأجيال المتتالية، ولم تضعف لديهم هذه القدرة رغم تعايشهم مع بيئة جغرافية تختلف عن طبيعتهم الأصلية، لا في المناخ فحسب، بل في توافر كل أسباب العيش الرغيد التي تدعو إلى الدعة والسكون ونبذ المشاق والصعاب، والهروب منها، وكان من الطبيعي لقوات المسلمين لو ظهرت عليها مثل هذه العوارض، غير أن الإيمان العميق في نفوس المؤمنين بقي أقوى من كل متاع الدنيا وترفها، فكان ذلك عوناً على احتفاظ المسلمين بفضائلهم التي استطاعوا بها كتابة أمجادهم على صفحة الدهر، وما قيل هنا عن فضيلة «الصبر والقدرة على تحمل المشاق» يقال أيضاً عن فضيلة «الشجاعة في مواجهة الخطر». فالحرب عبر التاريخ لم تكن إلا قتل وقتال يطوف فيها كأس المنية على كل شارب دونما تفريق أو تمييز، ويظهر الخطر في كل لحظة وبصورة غير متوقعة، غير أن النفس المؤمنة لم تكن لتهتز وهي تقف أمام المباغتة، ذلك لأنها ما خرجت للجهاد وما حملت السلاح إلا بحثاً عن المنية، وطلب الشهادة، وإذا لم يكن للخليفة الناصر فضل في تكوين هذه الفضائل، إلا أن له الفضل في إذكاء جذوة الجهاد المتقدة التي أثارت في كامن النفوس كل الفضائل الحربية والإنسانية. وكان الخليفة ذاته، قدوة مثلى في كل ذلك، فهو مثال

الجندي المقاتل في شجاعته وبأسه، في عناده وتصميمه، في قدرته على احتمال مشاق الحرب والاحتفاظ بصفاء تفكيره رغم متاعب القتال ومشاق السفر والرحيل ما بين إقليم وإقليم آخر. وجابه الخليفة الناصر مباغتات الحرب، فأظهر شجاعته في مواجهة الخطر بمثل ما كان عليه جنوده، وبأفضل مما كانوا عليه، فكان في ذلك ما يحفز الجنود على الاقتداء بالأمثولة الرائعة التي كان عليها قائدهم، وكان في ذلك أيضاً توافر عامل إضافي دعم من قدرة المقاتلين المجاهدين في سبيل الله.

ولقد أبرزت سيرة الخليفة الناصر ظهور بعض الهنات، سواء في أعمال الخليفة ذاته، أو في صفوف مقاتليه، غير أن هذه الهنات إنما تعود إلى الطبيعة الإنسانية ذاتها، وما يتوافر في تكوينها من تناقضات مثيرة، وبقيت هذه الهنات أو الظواهر المرضية محصورة في نطاق فردي ضيق ولم تتضخم لتشكل وباء قاتلاً، كما أنها لم تؤثر على مسيرة الجهاد، ولم يكن ذلك إلا بفضل المذهب العسكري الإسلامي ذاته والذي وضع القاعدة الثابتة الصلبة لما يجب أن يكون عليه المجاهدون من الفضائل، وما يجب عليهم أن يتمسكوا به من الخصال، لا فرق في ذلك بين المجاهدين وقادتهم إلا بقدر ما يظهره هؤلاء القادة من التمسك بالفضائل والعمل لها ومن أجلها.

٤ ـ في إدارة الحرب

لم تكن إدارة الحرب في العهود الإسلامية منفصلة عن إدارة الدولة، وكان الخليفة يتولى بنفسه في معظم الأحيان قيادة القوات والتخطيط للأعمال القتالية وحتى الإشراف على تنفيذها والمشاركة فيها. وقد مارس الخليفة الناصر لدين الله إدارة الحرب الفعلية زهاء ربع قرن حتى إذا جاءت «كارثة الخندق» توقف عن إدارة الحرب بنفسه وبات ينتدب لها الأكفاء من قادته والبارزين من وزرائه، والمشهورين من مقاتليه. ولم يكن توقف الناصر عن إدارة الحرب بنفسه ضعفاً أو استخذاء، غير أن مجابهة المأزق الصعب، والاضطرار تحت ظروف القتال إلى الانسحاب قد ينال من هيبة الخليفة، في نفوس الأعداء، في حين أن هزيمة قائد أو انتكاسة راية هي من الأمور المحتملة والمتوقعة والتي يمكن للخليفة تصحيحها بسرعة وهو بعيد عن مسرح العمليات. وهكذا احتفظ الخليفة لنفسه بواجب الإدارة العليا للحرب، وتخلى لقادته مسؤولية إدارتها على مسرح العمليات وفي ميادين القتال، والخليفة في ذلك مقلد غير مبدع.

فقد كان الخلفاء دائماً، ومنذ أيام الخليفة الأول «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، يحجمون عن قيادة الجيوش وإدارة الحرب بصورة مباشرة إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك. وقد ظهر عبر تاريخ المسلمين عدد من القادة الذين اضطلعوا بإدارة الحرب العليا وقيادة الأعمال القتالية في وقت واحد، ومن هؤلاء على سبيل المثال في المشرق الإسلامي الزنكيون والأيوبيون والمماليك. غير أن هؤلاء جميعاً، كانوا قادة أكثر منهم حكاماً، وحكاماً أكثر منهم قادة، بسبب ظروف الصراع مع الصليبيين، هذا إلى جانب بقاء الخليفة في بغداد لإدارة الحكم.

ويظهر من خلال ذلك، أن نزوع الخليفة الناصر في بداية عهده لإدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية بنفسه كان نزوعاً له عوامله وأسبابه، فقد أراد الخليفة إعطاء أمثولة الجهاد بنفسه، مدفوعاً بإيمان الشباب وحماسته للحرب وممارستها

بصورة فعلية، إلى جانب توافر الرغبة لحشد قوى المسلمين وتوجيهها وإثارة حميتها. وقد حقق نجاحاً رائعاً في هذا المضمار، حتى إذا ما استقامت له الأمور، لم تعد هناك حاجة للإقدام على مجازفة غير محسوبة، تضر بالإسلام والمسلمين بأكثر مما تفيدهم، ولعل كارثة الخندق لم تكن أكثر من مناسبة دفعت الخليفة الناصر لتنفيذ قرار قد سبق له اتخاذه. المهم في الأمر هو أن إمساك الخليفة الناصر بالإدارة العليا للحرب كان أكثر أهمية من قيادته للأعمال القتالية، إذ سمح له ذلك بالإشراف على تنظيم الجيوش بصورة مستمرة، وإعادة تنظيمها كلما تطلبت الحاجة، وتوجيهها إلى ميادين القتال وتحديد واجباتها بدقة، وتأمين متطلباتها من الإمداد والتموين.

ولقد بقيت الأندلس طوال عهد الناصر لدين الله في حرب مستمرة ومتواصلة وعلى كافة الميادين والجبهات، وكان ذلك يتطلب تأمين موارد غير محدودة. وقد أظهرت مسيرة الأعمال القتالية أن قوات المسلمين كانت في تعاظم مستمر، وأن متطلباتها كانت متوافرة، ولم تظهر ولو مجرد ظاهرة واحدة تشير إلى عيب أو خلل في التنظيم الإداري وفي تأمين الإمداد للمقاتلين، وليس ذلك إلا برهاناً ساطعاً على تلك الكفاءة العالية التي ضمنت حشد الموارد الضرورية للقوات، الأمر الذي يعتبر، في الجيوش القديمة والحديثة، مقياساً لكفاءة الإدارة المشرفة على الحرب. وهكذا، فإن تخلي الخليفة الناصر عن إدارة القتال قد ساعده على تحقيق واجب أكبر وهو الإدارة الشاملة للحرب، وتأمين متطلباتها، وضمان الظروف الموضوعية لتحقيق النصر.

وعرفت الأندلس في عهد الناصر لدين الله التكامل الحقيقي في بناء مجتمع السلم والحرب، فرسمت بذلك ظلالاً متقدمة تتجاوز مئات السنين نحو أفق المستقبل. فقرطبة الخليفة الناصر، ترسم على صفحة الزمن لوحة عواصم الدول المعاصرة، بتقدمها ورقيها، بقوتها وازدهارها، بعلمها وعمرانها، بمتاعها الدنيوي، غير أن قرطبة الناصر تزدهي حتى على عواصم العصر، بما كانت تشعه من قيم الإسلام وفضائل المسلمين، ولا مجال للمقارنة من هذه الناحية بين قرطبة المسلمين والعواصم المعاصرة، ذلك أن أمراض ما يطلق عليه اسم «الحضارة المعاصرة» من تمزق وتحلل، ومن ضياع وانحدار، لم تعرفها عواصم المسلمين على الرغم مما كانت قد وصلت إليه من القوة والمنعة، وعلى الرغم مما امتلكته من مصادر الثراء والترف، وليس الفضل في ذلك للخليفة الناصر

بقدر ما كان للإسلام والمسلمين. لقد تصدى العلماء «في طليعتهم قاضي القضاة منذر بن سعيد البلوطي» لمحاربة الترف، وأصروا، على الرغم من توافر وسائل العيش الرغيد، على التمسك بفضائلهم، والمحافظة على الخشن من الثياب، والشظف من العيش، وها هو الخليفة الناصر ذاته، وقد امتلك مفاتيح الدنيا، يقف خاشعاً، متضرعاً إلى الله، رب السموات والأرض إذا أمسكت السماء ماءها، وهو يسأل الله أن لا ينال من المسلمين بما ارتكبه، أو بما قد يكون ارتكبه من الآثام، وهو الذي ما قصر يوماً بحق الإسلام والمسلمين، وما ركن يوماً للراحة من أجل رفع راية الجهاد والمجاهدين.

توفي الناصر لدين الله عن عمر يناهز السبعين عاماً، وحكم خمسين عاماً، ما عرفت الدنيا نموذجاً من الحكام يماثله أو يشابهه. كان فرداً في تكوينه، وكان فرداً في حكمه وقيادته. وقد جاء الحكم المستنصر صورة عن أبيه، غير أنه لم يترك للدنيا ما تركه سلفه الذي يستحق دونما ريب احتلال مكانته كواحد من عظماء التاريخ الذين قلما تجود الدنيا بمثلهم. ولقد كان «الناصر» لعبة القدر، عملت الظروف كلها من أجل خدمته والتمهيد له، غير أنه قام بدوره على مسرح الحياة فاعلاً بقدر ما كان منفعلاً، ومؤثراً بقدر ما كان متأثراً.

واستلم الناصر لدين الله الحكم وخزانة بني أمية تكاد تكون فارغة، وترك الدنيا وخزانة المسلمين عامرة بمبلغ «خمسة آلاف ألف ألف ألف، ثلاث مرات» من الدنانير.

مضى الناصر للقاء وجه ربه، تاركاً مال الدنيا للدنيا، وتاركاً وراءه زهراءه ومنيته، وتوارى في غياهب حفرة في قصر قرطبة، واندثرت الزهراء، وتبددت الأموال، غير أن ما فعله الناصر وما أنجزه بقي خالداً على الدنيا، ذلك لأن ما عمله لم يكن من أجل الدنيا، وإنما من أجل الآخرة، فكان في ذلك خلوده الحقيقي، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة/ ٢٠ ـ ٢٢].

ثبت المصادر والمراجع

المصادر

- سيد قطب، «في ظلال القرآن».
- ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» و«أسد الغابة في معرفة الصحابة».
- ابن خلكان، «وفيات الأعيان».
- ابن خلدون، «مقدمة ابن خلدون» و«العبر وديوان المبتدأ والخبر».
- ابن خرداذبه، «المسالك والممالك».
- ابن عبد البر، «الدرر في اختصار المغازي والسير».
- ابن عبد ربه، «العقد الفرد».
- ابن عساكر، «التهذيب» و«التاريخ الكبير».
- أبو يوسف، «الخراج».
- الطبري، «تاريخ الأمم والملوك».
- الأزدي، المعروف بابن الفرضي، «تاريخ العلماء والرواة بالأندلس».
- ابن عبد الحكم، «تاريخ فتوح مصر والمغرب».
- البلاذري، «تاريخ فتوح البلدان».
- ابن سعيد الأندلسي، «تاريخ المغرب في حلى المغرب».
- الهرثمي، «مختصر سياسة الحروب».
- ياقوت الحموي، «معجم البلدان».
- أحمد بن سعيد بن حزم، «جمهرة أنساب العرب».
- أبو عبد الله المالكي، «رياض النفوس».

المراجع

- اللواء الركن مصطفى طلاس، «الرسول العربي وفن الحرب».

- اللواء الركن محمود شيت خطاب، «قادة الفتح الإسلامي، المغرب العربي ١ ـ ٢».
- بسام العسلي، «فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين».
- الدكتور إحسان هندي، «الجيش العربي في عصر الفتوح».
- كارل بروكلمان، «تاريخ الشعوب الإسلامية».
- ستيفن زينسمان، «تاريخ الحروب الصليبية».
- ليسترنج، «بلدان الخلافة الإسلامية».
- خير الدين زركلي، «الأعلام».
- هاري. و. هازارد، «أطلس التاريخ الإسلامي».
- «أطلس القرن العشرين».

* * *

فهرس الخرائط

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث: موسى بن نصير

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الخامس: عبد الرحمٰن النّاصر

الموضوع	الصفحة

رقم: 565 - 12



يشمل هذا المجلد دراسة شخصيات القادة:

عمرو بن العاص ـ عقبة بن نافع ـ موسى بن نصير ـ عبد الرحمن الداخل ـ عبد الرحمن الناصر. وتهدف دراسة شخصيات هؤلاء القادة إلى الآتي:

- إعطاء فكرة عامة عن الشخصية موضوع الدراسة بلغة سهلة، وأسلوب شائق، يجعل القارئ يعيش معها ويتابعها في أعمالها.
- الانطلاق من دراسة الماضي بعظمته إلى المستقبل المنشود، بالتوفيق بين فنّ الحرب في عهد وسائل القتال البدائية، وفنّ الحرب في عصر الوسائط المتقدّمة (ضمن إطار الحرب التقليدية).
- برمجة الأحداث التاريخية بأسلوب يتلاءم مع روح العصر، ثم تحليلها والخروج منها بالعبر والعظات، وهو ما يسمى بالتعبير العسكري بـ «الدروس المستفادة».
- إبراز التكامل والتطور في عقيدة القتال عند العرب المسلمين من خلال منجزات قادتهم، والبرهنة على قدرة هذه العقيدة على تكوين قاعدة سياسية واستراتيجية تتوافق مع متطلبات العصر، ومع طبيعة التحديات مهما كان مصدرها أو شكلها أو زمانها.
- إبراز التفاعل بين عقيدة القتال عند العرب المسلمين، وبين مجموعة الظروف التي أحاطت بكل منهم في الإطارين الزماني والمكاني، ما يبرهن على دورهم الكبير في فن الحرب.

والقائم بهذه الدراسات مؤرخ، وكاتب عسكري، غني عن التعريف، فقد صدر له عشرات الكتب، ومئات المقالات والدراسات في مختلف الصحف والمجلات، واشتهر بتحليله الدقيق، ونظرته الاستراتيجية العميقة، وأسلوبه السهل الممتنع.

الناشر



ISBN 978-9953-18-486-9